بلاغة الحال

في النظم القرآني

دراسة تحليلية

الدكتور

عويض بن حمود العطوي

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م

ح عويض بن حمود بن حمدان العطوي ، ١٤٢٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد أثناء النشر

العطوي ، عويض بن حمود بن حمدان
بلاغة الحال في النظم القرآني : دراسة تحليلية / عويض بن
حمود بن حمدان العطوي . — تبوك ، ١٤٢٧ هـ
.. ص ؛ .. سم
ردمك : ٩ — ٨١٨ — ٥٢ — ٩٩٦٠

١- القرآن — بلاغة أ . العنوان
ديوي : ٢٢٥ ١٤٢٧ / ٢٩٥٥

رقم الإيداع : ٢٩٥٥ / ١٤٢٧
ردمك : ٩ — ٨١٨ — ٥٢ — ٩٩٦٠

هذا الكتاب كان في الأصل رسالة علمية تقدم بها الباحث لنيل درجة الدكتوراه في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، وقد نوقشت في يوم السبت ١٤٢١/٢/٩ هـ وأجيزت بتقدير :

ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة،ونصح الأمة، وتركنا على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات ربي وسلامه عليه ما تعاقب الليل والنهار، وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار، أما بعد :

فقد ظهر لي خلال دراسة (الضمير المنفصل في النظم القرآني)، -وهو رسالتي للماجستير- بعض الموضوعات التي تستحق الوقوف عندها، وقد ذكرت ذلك في توصيات الرسالة قبل أعوام، ومن ذلك موضوع الحال، ولما سنحت لي فرصة مواصلة الدراسة أعدت النظر في ذلك، فرأيته موضوعاً ملائماً، وبعد دراسة ومشاورة استقر عنوان الرسالة على :

(بلاغة الحال في النظم القرآني: دراسة تحليلية)

وليس يخفى ما في مثل هذه الدراسات من الأهمية؛ وذلك لأنها تتعلق بجانب الإعجاز اللغوي في كتاب الله العظيم، الذي له علينا من الحق ما يوجب خدمته والنصب في سبيل إخراج بعض كنوزه، وكيف لا يكون ذلك، وقد أمرنا ربنا جل جلاله بالتفكر فيه، والتدبر لمعانيه، والانصياع لأوامره، واجتناب نواهيه، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[١٧ القمر] ، وقال تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [٢٩ ص] .

ولعل من أبرز أسباب اختياري لهذا الموضوع ودراستي له ما يأتي:

١- أن فيه خدمة لكتاب الله العظيم، ومهما تكبد الإنسان في سبيل ذلك من الصعاب فإنه يحتسبه عند مولاه، الذي لا يخيب من توكل عليه ورجاه.

٢- أن شواهد الحال في القرآن الكريم كثيرة متنوعة تغري بالدراسة والبحث، فقد بلغت قريباً من ثلاثة آلاف شاهد، شملت جل موضوعات البلاغة.

٣- أن دراسة الظواهر النحوية وتعليلها أمر مطلوب، وتعانق البلاغة مع النحو لابد منه ، سواء في البحوث أو في التعليم والتدريس؛ لأن ذلك يضفي رونقاً وتجديداً في العِلمين ، لا يوجد إذا فُصلا عن بعضهما.

٤- أن في مثل هذه الدراسات رداً على الدعاوى الباطلة القائلة بجمود البلاغة العربية أو موهما، وما هذه المصطلحات المستحدثة التي يُراد بها أحياناً إقصاء المصطلح الأصيل ، وطمس معالم البلاغة، إلا بعض هجمات متوالية على التراث كله ، و إلا فجل ما يُذكر من مسميات ونظريات من شرق الأرض أو غربها فهو عند التأمل بعضٌ من مَعين هذا البلاغة الأصيلة، و مرده في النهاية إليها.

٥- أَن في مثل هذه البحوث إثراءً للبلاغية التطبيقية،بنماذج قرآنية محللة،مدعمة بكلام العلماء.

٦- أنني لا أعرف دراسة اعتنت بجمع شواهد الحال ودرستها دراسة تحليلية بلاغية، بل جل ما ظهر لي هو دراسات نحوية مطولة أو مختصرة، في كتب أو مجلات، وسأشير إلى أهم تلك الدراسات إتماماً للفائدة ، وحفظاً لأهل الحق حقهم، فمن تلك الدراسات ما يأتي:

أ- الحال في الأسلوب القرآني، لعبد الستار سعيد، وهذا من أقربها إلى موضوع دراستنا؛ لأن مجال الدراسة هو القرآن ، كما أن الباحث يعتني بالتعليل والتحليل، لكنها تبقى دراسة نحوية لها أهدافها وطريقتها.

ب- فصل المقال في دراسة أساليب الحال ، للدكتور/ محمد يسري زعير، وهي دراسة نحوية صرفة، تعتني بعرض قواعد الحال ومناقشتها، وهذا الكتاب وسابقه هما الكتابان المفردان في هذا الموضوع -فيما أعلم-، وهناك بحوث ناقشت بعض قضايا الحال، سواء أكانت مفردة في مجلات أم مضمنة لكتب ، ومنها على سبيل الإجمال:

ج- الجملة الحالية في القرآن الكريم: إحصاء ودراسة، للدكتور/محمد حسين أبو الفتوح [1].

د- الجملة الحالية، ضمن كتاب : النظم القرآني لآيات الجهاد، للدكتور/ناصر الخنين.

هـ- الجملة الحالية، ضمن كتاب:من بلاغة القرآن في مجادلة منكري البعث، لبدرية العثمان.

وهناك كتب اعتنت بالإحصاء ، وأهمها:

و- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الثالث، الجزء الثالث، لعبد الخالق عضيمة.

ز- التأويل النحوي في القرآن الكريم، للدكتور /عبد الفتاح الحموز.

---

[1]- مجلة جامعة الملك سعود ، المجلد الثالث، الآداب(١) ، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

ح- من فيض الرحمن في بلاغة النحو في القرآن، لخضر عبد السلام أبو طالب.
ط- التركيب النحوي وشواهده القرآنية ، الجزء الثاني ، للدكتور/ محمد أبو الفتوح شريف.

ولما كانت كل هذا الدراسات تعنى بالجانب النحوي، أردت بهذا البحث إكمال ذلك البناء والمشاركة فيه ، بدراسة هذا الموضوع في القرآن الكريم من الوجهة البلاغية، وقد بنيت هذا البحث على: مقدمة ، وتمهيد، وستة فصول، وخاتمة ، فأما المقدمة فقد اشتملت على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والمنهج في دراسته، وأما التمهيد فكان عن: الحال عند النحويين والبلاغيين، وفيه إبراز لبعض جهود النحويين والبلاغيين في ضبط قواعد الحال، والتنبيه على شيء من أسراره، وأما فصول الرسالة الستة فقد جاءت على النحو الآتي:

الفصل الأول: دلالة الحال، ويشمل المباحث الآتية:

الأول : دلالة الحال المفردة.
الثاني : دلالة الحال الجملة.
الثالث : دلالة الحال شبه الجملة.

الفصل الثاني : الحال والنظم، ويشمل المباحث الآتية:

الأول : التقديم والتأخير .
الثاني : الذكر والحذف .
الثالث : تعدد الحال .
الرابع : تنوع الرابط .

الفصل الثالث: أسرار التقييد بالحال، وفيه المباحث الآتية:

التقييد بالحال في الإثبات .
التقييد بالحال في النفي .
التقييد بالحال في النهي .
التقييد بالحال في الاستفهام .

الفصل الرابع : التصوير بالحال، ويشمل المباحث الآتية:

الأول : التصوير بطريق التشبيه .
الثاني : التصوير بطريق المجاز.

الثالث : التصوير بطريق الكناية .

الرابع : التصوير بوسائل أخرى .

الفصل الخامس :موازنة بين أسرار التعبير بالحال والتعبير بالصفة، وفيه المباحث الآتية:

الأول : في الدلالة.

الثاني : في النظم.

الثالث : في التقييد.

الرابع : في التصوير.

الفصل السادس : التناسب بين الحال وصاحبها، ويشمل المباحث الآتية:

الأول : ما يخص الذات الإلهية.

الثاني: ما يخص الرسل الكرام.

الثالث : ما يخص المؤمنين.

الرابع : ما يخص الملائكة.

الخامس : ما يخص الكتاب.

السادس : ما يخص الكافرين.

السابع : ما يخص ما لا يعقل.

أما الخاتمة فقد ضمنتها أهم النتائج وبعض التوصيات، ثم ذيلت البحث بمسرد للمراجع والمصادر مرتبة على الأحرف الهجائية، ومسرد مفصل لموضوعات الرسالة.

وقد سرت في دراسة هذا الموضوع وفق المنهج الوصفي التحليلي، حيث أجمع شواهد الموضوع الواحد ، ثم أقسمها إلى فصائل حسب الحاجة، وبعد إيراد الشاهد في موطنه أنص على موضع الاستشهاد فيه، مبيناً إعراب الكلمة أو الجملة الحالية، معتمداً في ذلك على كتب الإعراب المتوافرة لدي، ثم أشرع في بيان المدلول والسر البلاغي مراعياً في ذلك الموقع والسياق والغرض، مستشهداً بكلام المفسرين، ودارسي القرآن، من القدماء والمحدثين ، بما يتناسب مع الموضوع المراد مناقشته، وقد حاولت استقصاء الأقسام والأنواع، حتى يتم عرض الموضوع في أكمل صورة ممكنة، وحتى يتسنى تحليل أكبر قدر من الشواهد الحالية.

وقد أثبتُّ نص الآيات في صلب الرسالة بخط مختلف تميزاً لها، ثم اتبعتها برقم الآية واسم السورة، وفي الغالب لا أذكر الآية كاملة، بل اقتصر على موضوع الشاهد طلباً للاختصار، وما لم أذكره من الشواهد أشير إلى بعضه في الحاشية.

وقد عزوت الأحاديث الواردة إلى مصادرها، وأكتفي في الغالب بمصدر واحد، وإذ تيسر لي الحكم على الحديث أذكره، أما الشواهد الشعرية فقد عزوتها إلى قائليها ومواطن ورودها، أما المراجع والمصادر فإنني أكتفي بذكر المصدر أو المرجع، ثم الجزء ورقم الصفحة مفصولاً بينهما بخط مائل، أما معلومات الكتاب فجعلتها في مسرد المراجع في نهاية الرسالة لسهولة الرجوع إليه ، وإذا تكرر المرجع أذكره في كل مرة حتى لا يحصل لبس لو تغيرت الصفحات، أو أُدخل كلام بين الإحالتين، وربما أذكر مع المرجع اسم المؤلف إذا كان مما يشْتَبه بغيره.

معلومات وإحصاءات عامة عن الرسالة:

١- بلغت شواهد هذا البحث أكثر من ألف وأربعمائة شاهد.

٢- بلغت الإحالات إلى المراجع في الحاشية في هذا البحث أكثر من ألفين وأربعمائة إحالة.

٣- زادت مصادر ومراجع هذا البحث على المائتين.

٤- بلغت صفحات هذا البحث ستمائة وستين صفحة.

وما من إنسان إلا وله أماني يريد تحقيقها، ورغبات يطمح في الوصول إليها، لكن قد تحول العوائق دون مُنَى الإنسان ومطالبه، وحسبي أني بذلت في هذا البحث ما أقدرني الله عليه، وما وفقني -سبحانه- إليه من الجهد والطاقة، لكن القصور سمة البشر، فما ظهر من توفيق فهو بفضل الله ومنته، وما بدا من قصور فهو من عجز النفس وقصورها عن بلوغ الكمال، ولعل ما يشفع لهفوات قد ترد ، أو زلات قد توجد أننا أمام كلام العليم الخبير، ومن ذا يحيط بأسراره وهو صفة الله وكلامه، منزل غير مخلوق!، والحمد لله أولاً وآخراً، على ما يسر وقدر، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. عويض بن حمود العطوي

تمهيد

الحال عند النحويين والبلاغيين

أولاً : الحال عند النحويين

ثانياً : الحال عند البلاغيين

أولاً: الحال عند النحويين.

يرى بعض الباحثين أن باب الحال من الأبواب الصعبة المشكلة، ويرى آخرون أنه باب سهل لكن كثرة القواعد أضفت عليه تلك الصعوبة [1].

والحق أن الأقوال كثيرة في مسائله، وأحياناً متضاربة؛ وذلك لدقة قضاياه، وتداخلها مع أبواب أخرى كالخبر والصفة والتمييز .

وبالإطلاع على أهم مصادر هذا الموضوع تبين لي أن هناك اختلافاً في طريقة الدراسة وعرض الموضوع، فهناك من يختصر وهناك من يطيل، وهناك من يقدم وهناك من يؤخر، وهناك من يبرز مسائل معينة ويهمل أخرى وهكذا .

وبعد جمع المادة والنظر في الآراء وجدت كماً كبيراً من المعلومات، والمسائل المهمة التي تحتاج إلى دراسة وتمحيص ، ولن أستطيع في هذا التمهيد أن أجلي كل ذلك ؛ لأنه سيشكل دراسة طويلة ليس هذا موطنها ، ثم إن الموضوع مطروق بتوسع في كتب النحو، وقد أفردت له دراسات خاصة ناقشت قضاياه وأوضحت مبهماته[2]، فرأيت أن التعمق في ذلك وذكر الآراء ومناقشة القضايا ليس هو من مهمات هذه.

وبعد النظر رأيت أن أعرض الحال عند النحويين من خلال محورين هما: طريقتهم في دراسته، وجهودهم في بيان أسراره.

١- طريقة النحويين في دراسة الحال وضبطُهم لقواعده.

باب الحال مثل غيره من الأبواب النحوية ، حظي من النحويين – على اختلاف عصورهم ومدارسهم – باهتمام واضح، وتفصيل ظاهر لقواعده، وقد اشتملت تلك الدراسات النحوية الكثيرة لهذا الموضوع قديماً وحديثاً على اختلافات غير قليلة بعضها يشكل رأياً لمدرسة، وبعضها يمكن وصفه بأنه رأي فردي، والخوض في كل ذلك سيخرجنا عن الهدف الذي ننشده من هذا التمهيد؛ لذا سأعرض ما قرره النحاة في هذا الموضوع تحت عنوانات كلية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولن أتعرض لمناقشة أو تفصيل إلا ما أرى الحاجة ماسة إليه.

---

(١) – انظر: الحال من غير الفاعل والمفعول به ، لمحمد خليفة التونسي، مجلة العربي العدد ٢٣٤ ص١٣٤.

(٢) – وقد أشرنا إلى ذلك في المقدمة.

أ- الأصل اللغوي والحد الاصطلاحي للحال .

- الأصل اللغوي.

يندر عند متقدمي النحاة تحدثهم عن أصل مادة (الحال) اللغوية، وربما لا نجد ذلك إلا عند المتأخرين منهم،أمثـــال الصبان الذي يقول:((والحال يطلق لغة على الوقت الذي أنت فيه، وعلى ما عليه الشخص من خير أو شر... واشتقاقها من التحول))[1]، وقد أخذ الصبان ذلك من الدلالة اللغوية لمادة الحال كما في معاجم اللغة،يقول الزبيدي: ((أحال الشيء:تحول من حال إلى حال،والحال كنية الإنسان وما عليه من خير أو شر))[2].

وهذه الدلالة ذكرها ابن منظور أيضاً وأورد عليها قوله ﷺ : ((إذا ثوب بالصلاة أحال الشيطان له ضراط))[3] ،((أي: تحول من موضعه))[4]، وفي القرآن جاء قوله تعالى : ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [١٠٨ الكهف]، وتدل مادة (حَوَل) على الشدة أحياناً ، وإن كان أغلب دلالة هذه المادة على التحول والانتقال ، ولعل في هذا ما يفسر إجماع النحويين على هذه التسمية؛ فالغالب في الحال النحوية التحول والانتقال، فهناك إذاً ارتباط وثيق بين المدلول اللغوي لمادة الحال وبين المدلول الاصطلاحي لها والوظيفة التي تؤديها في الكلام [5] .

وقد نبه ابن يعيش من قبل على سر التسمية، وحاول تعليل ذلك بقوله: ((وإنما سمي حالاً ؛ لأنه لا يجوز أن يكون اسم الفاعل فيها إلا لما أنت فيه تطاول الوقت أم قصر، ولا يجوز أن يكون لما مضى وانقطع، ولا لما يأتي من الأفعال ؛ إذ الحال هي هيئة الفاعل أو المفعول وصفته في وقت ذلك الفعل))[6].

ويبدو لي أن التعليل في التسمية بأصل المادة اللغوية أقوى مما ذكره ابن يعيش ؛ لأن

---

(١) - حاشية الصبان على الأشموني ١٦٩/٢

(٢) - تاج العروس مادة حول ٢٩٥/٧.

(٣) -صحيح مسلم ،كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهروب الشيطان عند سماعه، ح(٣٨٩)، ٢٤٣/١.

(٤) - لسان العرب مادة حول ٨٨/١١.

(٥) - انظر الحال في الأسلوب القرآني ١٤، ١٥

(٦) - شرح المفصل ٥٥/٢.

الاستدلال بما أورده غير ظاهر ؛ ولا يسلم من اعتراض .

وجاء عن الشريف الجرجاني :((الحال في اللغة:نهاية الماضي وبداية المستقبل))[١]، ما ذكره الجرجاني إنما هو تعريف للحال الزمنية ، وهي التي تذكر مع المضارع واسم الفاعل، ولعل فيما أشار إليه علاقة بكون الغالب في الحال أن تكون مقارنة.

والحال تذكر وتؤنث، فتقول :حال، وحالة، ولكن((تأنيثها أفصح من تذكيرها)) [٢] ، هذا في لفظها، أما ضميرها ووصفها فالأرجح فيه التأنيث [٣].

- الحد الاصطلاحي .

تباينت منطلقات الحد في الحال ، لذا كثرت الأقوال فيه فهناك من ينطلق في وضع الحد من وظيفة الحال، ومن هؤلاء الزمخشري ، يقول ابن الحاجب في شرحه للمفصل: ((وحدَّه [٤] بقوله: ومجيئها لبيان هيئة الفاعل أو المفعول))[٥]، ورغم أن مثل هذا الحد لا يعد شيئاً في اصطلاح أكثر المتكلمين إلا أن ابن الحاجب نصر الزمخشري وقال:((إنه على التحقيق مستقيم))[٦]، وبه قال في الكافية [٧]، والذي يظهر لي أن الزمخشري لم يرد الحد بما ذكر ؛ لأنه ليس في كلامه ما ينص على ذلك ، وبخاصة أنه معروف بدقته وتضلعه في علوم العربية ، بل يبدو أنه اكتفى بالوصف ببيان الوظيفة عن الحد ، وهناك من ينظر إلى ذات الحال ونوعها ويحاول الاستقصاء في ذلك، ومن هؤلاء الجزولي الذي يقول : ((الحال تبيين كيفية الموصوف في حال وجود الوصف به ، أو تبيين الصفة في حال وجودها بالموصوف))[٨] ، ويقرب من هذا وإن كان أقل إحاطة منه ما أورده ابن الحاجب بقوله:((وقد حد بعضهم الحال بأن قال : هو اللفظ الذي يبين كيفية

---

[١] – التعريفات ١١٤.

[٢] – شرح الحدود النحوية ١٦٤.

[٣] – حاشية الصبان على الأشموني ٢/ ١٦٩.

[٤] – أي: الزمخشري ، انظر كلامه في : المفصل في علم اللغة ٧٨.

[٥] – الإيضاح في شرح المفصل ٣٢٧.

[٦] – الإيضاح في شرح المفصل ٣٢٧ .

[٧] – انظر شرح الكافية ٢/٧.

[٨] – شرح المقدمة الجزولية الكبير ٢/٧٢٥ .

وقوع الفعل))[1]وعلق عليه بقوله: ((وهو في المعنى... مستقيم))[2] .

وهناك من نظر إلى الحال من جوانب كثيرة محترزاً قدر الإمكان من دخول ما ليس من المحدود في الحد، ولعل من أوائل أولئك ابن مالك في الألفية حيث يقول :

الحال وصف فضله منتصب مفهم في حال :كـ(فرداً أذهب)[3]

وقد ذاع هذا التعريف وشاع[4] حتى قال عنه الأشموني: ((وهو اصطلاح النحاة))[5]، وعده بعض الباحثين أول تعريف منطقي للحال[6]، ولكنه مع ذلك لم يسلم من النقد والإضافة والحذف[7]، وبهذا التعريف أخذ ابن هشام ، لكن يبدو أنه لا يشمل عنده كل أنواع الحال بل هو مقصور على الحال المؤسسة (المبيِّنة) ؛ لأنه قال: ((الحال نوعان : مؤكدة وستأتي، ومؤسسة وهي وصف فضلة ...)) إلخ[8]، فالضمير للمؤسسة فقط، ويؤيد ما ذكرناه ، تعريفهُ الأشمل للنوعين في الشذور حيث قال: ((وهو وصف فضلة مسوق لبيان هيئة صاحبه أو تأكيده، أو تأكيد عامله، أو مضمون الجملة قبله)) [9]، وبه أخذ الفاكهي في الحدود[10] .

وإذا كانت هذه الحدود لها وجاهتها ، فإن هناك حدوداً لا تصمد أمام نقد ، ولا تبقى أمام تأمل ، ومما يمثل ذلك ((قول بعض النحويين في حدها: كل نكرة جاءت بعد معرفة قد تم الكلام دونها)) [11] ويكفينا فيه قول ابن الحاجب عنه إنه ((مما لا حاصل له ...عري عن مدلول الحال ثم هو فاسد))[12] .

والحق أننا لو استعرضنا ما قيل في تعريف الحال من الحدود والاحترازات

---

[1] - الإيضاح في شرح المفصل ٣٢٧

[2] -الإيضاح في شرح المفصل ٣٢٧

[3] - ألفية ابن مالك ٢٩.

[4] - الحال في الأسلوب القرآني ١٥.

[5] - حاشية الصبان على شرح الأشموني٢/١٦٩.

[6] - انظر فصل المقال في دراسة أساليب الحال ٨.

[7] - انظر مثلاً همع الهوامع ٤/٨ ، وحاشية الصبان على شرح الأشموني٢/١٦٩، ١٧٠.

[8] - أوضح المسالك ٢/٢٩٣.

[9] - شرح شذور الذهب ٢٣١ .

[10] - شرح الحدود النحوية ١٦٤، ١٦٥ .

[11] - الإيضاح في شرح المفصل ٣٢٨ .

[12] - الإيضاح في شرح المفصل ٣٢٨ .

والاعتراضات لطال ذلك بنا ولكننا نقول : إن لكل حد ميزة وبعضها يأخذ من بعض ، بيد أن الحدود التي خلت من ذكر الوصفية أقرب -في نظري- إلى حقيقة الحال ؛ لأن وقوع الجامد حالاً من الكثرة بحيث لا يمكن إخراجه من الحد ، يقول أبو حيان عن كثرة ورود الحال مصدراً : ((وهو أكثر من وروده نعتاً)) [1] ؛ لذلك لم يذكر بعض النحويين هذا المحترز (الوصفية) في تعريفاتهم ، ولعل من أوائل أولئك الرضى المعاصر لابن مالك الذي يقول:((فالأولى أن نقول: الحال على ضربين : منتقلة ومؤكدة، ولكل منها حد ، لاختلاف ماهيتهما ، فحد المنتقلة : جزء كلام يتقيد بوقت حصول مضمونه تعلقُ الحدث الذي في ذلك الكلام بالفاعل أو المفعول أو بما يجري مجراهما ... وحد المؤكدة : اسم غير حدث يجيء مقرراً لمضمون جملة))[2] ، وقد أيد الرضيُّ ابن الحاجب في قوله:((وكل ما دل على هيئة صح أن يقع حالاً))[3] ونصره فقال:((هذا رد على النحاة ؛ فإن جمهورهم اشترطوا اشتقاق الحال)) [4].

ولكل من هذه الحدود وجهه، وقد أردت من عرضها إظهار عناية النحويين بهذا الباب ، ثم إنني رأيت أن عنوان الرسالة يحتم عليّ العناية بالحد وما قيل فيه ، خاصة وأن ما قيل فيه له علاقة بطبيعة هذا البحث ، وذلك يساعد في إظهار أسرار الحال في القرآن الكريم .

ب- أوصاف الحال وأقسامها .

ربما لا نجد عند متقدمي النحويين تقنيناً واضحاً لتلك الأوصاف والأقسام، بل حديثهم عنها مبثوث متشعب، وإنما يظهر التقنين والتقسيم عند ابن مالك ومن بعده.

١- أوصاف الحال .

لم أجد _ حسب اطلاعي _ من أطلق هذا المصطلح قبل ابن هشام[5]، وما كان لمتقدمي النحويين من حديث عن هذه الأوصاف، لم يكن تحت عنوان مخصوص،

---

(1) - نقلاً عن همع الهوامع ١٤/٤،ولم أجد نصه هذا، لكن له كلام غيره يفيد ذلك، انظر ارتشاف الضرب ٣٤٢/٢.

(2) - شرح الرضي على الكافية ١١/٢، ١٠، وبهذا يكون الرضي قد سبق ابن هشام في التنصيص على نوعي الحال في الحد.

(3) - شرح الرضي على الكافية ٣٢/٢ .

(4) - شرح الرضي على الكافية ٣٢/٢.

(5) - انظر أوضح المسالك ٢٩٦/٢.

ولعل أول من أشار إليها مجتمعه ابن مالك بقوله:

وكـــــونه منتــقلاً مشتقاً يغلــــب لكـــن ليس مستحقاً
والحال إن عرف لفظاً فاعتقد تنكيره معنى كـــ(وحدك اجتهد)[1]

وكما هو ظاهر فـــ ((في هذين البيتين ذكر ثلاث صفات هي: الانتقال والاشتقاق والتنكير، وذكر ابن هشام صفة رابعة هي أن تكون الحال نفس صاحبها))[2]،و((هذه الأوصاف للحال من حيث هي، بقطع النظر عن كونها مؤكدة أو مؤسسة))[3].

- الانتقال.

يقول ابن هاشم عنها،((وذلك غالب لازم))[4]،وهناك مواطن تلزم فيها عندهم: من ذلك كون الحال مؤكدة،أو يدل عاملها على تجدد صاحبها،أو كون صاحبها يستلزم ذلك[5].

- الاشتقاق.

وقد اشترطه جمهور النحويين في الحال ، لكن الحق أنه غالب لا لازم [6] ، وعللوا ذلـــك بأن الحال صفة لصاحبها في المعنى والصفة الأصل فيها أن تكون مشتقة، وأولوا ما لم يكن مشتقا،لكن هذا غير مسلم ؛ لأن الصفة تأتي بغير المشتق فالوصف بالمصدر كثير ووقوعـــه حالاً أكثر[7].

- التنكير.

الجمهور على أنه غالب ، وقد أوجبه الرضي وجعله شرطاً في الحال ، وعلل ذلـــك بأن النكرة أصل وأن المقصود بالحال تقييد الحدث المذكور ،والتعريف معه يقع ضائعاً [8]،

---

(1) – ألفية ابن مالك ٢٩.

(2) – فصل المقال في دراسة أساليب الحال ٩٤، وانظر تلك الأوصاف الأربعة عند ابن هشام في: أوضح المسالك ٢٩٦/٢.

(3) – ضياء السالك (الحاشية) ٢/ ٢١٣ .

(4) – أوضح المسالك ٢/ ٢٩٦ .

(5) – انظر أوضح المسالك ٢٩٧/٢.

(6) – انظر شرح الكافية ٣٢/٢

(7) – انظر تفصيل ذلك بتوسع في: شرح الكافية ٣٢/٢ ، وأوضح المسالك ٢٩٧/٢، و شرح ابن عقيل مع حاشية الخضري عليه ٢١٢/١ ، وهمع الهوامع ٤/ ٩-١٤، وحاشية الصبان على الأشموني ١٧٠/٢.

(8) – انظر شرح الكافية ١٦/٢.

وعلى هذا فكل ما جاء على هذا النحو فلا بد من تأويله بالنكرة ، مثل : جاء وحــده، أي: منفرداً [1] .

- أن تكون نفس صاحبها.

والمراد من هذا الوصف إخراج المصادر ؛ لأنها أسماء معنى وصاحب الحال اسم ذات فلا توافق، ولكن كثرة المصادر الواقعة حالاً كما يظهر من قول الناظم :

ومصدر منكر حالاً يقع   بكثرة كـــ (بغتة زيد طلع)[2]

تقدح في هذا الشرط، وقد فصل الرضي الآراء في المصادر الواقعة حالاً ، فذكر أن بعضهم ينصبها على المصدرية لا الحالية ، وبعضهم يقدر قبلها مضافاً ، وبعضهم ينصبها على الحالية من غير تأويل ولا تقدير[3] ، ويظهر أن الأخير هو الأليق بالقبول ، وقد نصره بعض المتأخرين[4].

٢- أقسام الحال .

للحال تقسيمات كثيرة عند النحويين يظهر منها حرصهم على توخي الدقة في استقصاء جوانب هذا الموضوع ، وهذه التقسيمات تشتت في كتبهم وكثرت بسبب اختلاف النظرة إلى أساس التقسيم ؛ لذا فقد تتداخل هذه الأقسام أحياناً كما نبه إلى ذلك الدسوقي[5] ، وسأحاول أن أجمل هنا جل ما ذكروه من غير تفصيل.

* تنقسم الحال بحسب الغرض العام إلى :

أ- مبينة (مؤسسة) وهي: التي لا يستفاد معناها دون ذكرها .

ب- مؤكدة ، وهي : التي يستفاد معناها دون ذكرها [6].

وقد أثبت الجمهور المؤكدة ، وأنكرها المبرد ، والفراء ، والسهيلي[7] .

---

(١) -انظر أوضح المسالك ٢/ ٣٠١

(٢) - ألفية ابن مالك ٢٩.

(٣) - انظر شرح الكافية ٢/ ٣٩.

(٤) - انظر فصل المقال في دراسة أساليب الحال ١٥٧.

(٥) - انظر حاشية الدسوقي على مغني اللبيب ٢/١١٢.

(٦) - انظر أوضح المسالك (الحاشية) ٢/٢٩٤، وشرح الحدود النحوية ١٦٦،١٦٧

(٧) - انظر همع الهوامع ٤/ ٣٩ ، والتصريح على التوضيح و(يس) عليه ١/٤٦٥.

* **تنقسم بحسب الوصف الذي تفيده ودوامه من عدمه إلى :**

أ- منتقلة، وهي: التي لا تلازم المتصف بها، بل تبين هيئة صاحبها مدة مؤقتة ثم تفارقه.

ب- لازمة ، وهي : اللازمة لصاحبها لا تفارقه [١] .

* **تنقسم بحسب الاشتقاق والجمود إلى :**

أ- مشتقة   ب- جامدة .

* **تنقسم بحسب التعريف والتنكير إلى :**

أ- نكرة   ب- معرفة .

* **تنقسم بحسب قصدها لذاتها وعدمه إلى :**

أ- مقصودة وهو الغالب .   ب- موطئة، وهي الجامدة الموصوفة.

* **تنقسم بحسب زمنها إلى :**

أ- مقارنة وهو الـــــغالب ، وهي: التي يقارن زمنها زمن عاملها.

ب- مقدرة وهي : التي يكون زمنها مستقبلاً بالنسبة لزمن عاملها.

ج- محكية وهي : التي يسبق زمنها زمن عاملها[٢] .

* **تنقسم بحسب كونها وصفاً لصاحبها أو لغيره إلى :**

أ- حقيقية وهي : التي تكون وصفا لصاحبها ، وهي الغالبة.

ب- سببية وهي : التي تكون وصفاً لما له تعلق بصاحبها.

* **تنقسم بحسب التعدد وعدمه إلى :**

أ- غير مكررة وهو الغالب. ب- مكررة وهي إما مترادفة أو متداخلة [٣].

وقد منع التعدد بعض النحويين مثل الفارسي وابن عصفور وقاسوا ذلك على الظرف[٤]، ورأي الجمهور الجواز، قال الرضي : ((وهو الحق))[٥] ، وقد قرر الناظم ذلك وبين صور التعدد بقوله :

---

(١) - انظر ضياء السالك (الحاشية) ٢/ ١٩٣.

(٢) - انظر مغني اللبيب ٢/٥٣٧ ، وهمع الهوامع ٤/٤١.

(٣) - انظر ضياء السالك (الحاشية) ٢/ ٢١٥

(٤) - انظر أوضح المسالك ٢/ ٣٤٠ ، وهمع الهوامع ٤/٣٧ ، وحاشية الصبان على الأشموني ٢/ ١٨٣، ١٨٤.

(٥) - شرح الكافيه ٢/١٢، وانظر أوضح المسالك ٢/ ٣٤٠ .

والحال قد يجيء ذا تعدد   لمفرد فاعلم وغير مفرد [1].

*** تنقسم بحسب الإفراد وعدمه إلى :**

أ- مفردة : وهي ما ليس جملة ، ولا شبه جملة .

ب- جملة : وهي قسمان : اسمية ، وفعلية .

ج- شبه جملة : وتشمل الظرف ، والجار والمجرور .

ج : موقع الحال في الجملة.

اعتنى النحويون بحركة الحال في الجملة وحددوا موقعه وبينوا الأصل في ذلك وما يخرج عنه، وذلك من خلال تحديد موقع الحال مع صاحبها ومع عاملها ، وهي مع كلٍّ منهما على ثلاث حالات :

أ - جواز التقديم وهو الأصل.

ب- وجوب التأخير.

ج- وجوب التقديم.

وقد جعل النحويون لنوع العامل الأثر الكبير في ضبط هذه الحركة [2].

د : حذف الحال.

قرر النحويون أن الحال لا تحذف إلا مع نصب القرينة فإن عري الكلام عنها فلا حذف[3] ، وحذفها يكون قياساً على النعت والخبر ولكونها فضلة ، ((وأكثر ما يرد ذلك إذا كان قولاً أغنى عنه المقول)) [4] ، وكان نصهم على المواطن التي يمتنع فيها الحذف أكثر من المواطن التي يجوز فيها الحذف مما يدل على أن الحذف هو خلاف الأصل[5].

٢- جهود النحويين في التنبيه على أسرار الحال.

لكثير من النحويين جهود بارزة خاصة في خدمة القرآن الكريم ، إما إعراباً أو تفسيراً أو إيضاحاً لغريب أو غير ذلك ، وكذلك كانت لهم جهود مشكورة في بيان

---

(١) - ألفية ابن مالك ٣٠ ، وانظر في صور التعدد : أوضح المسالك ٢/ ٣٣٥ .

(٢) - انظر ذلك مثلاً في : شرح الكافية ٢/ ٢٤، وأوضح المسالك ٢/٣١٨ ، والمقنع في الدراسات النحوية ١٨٠.

(٣) - انظر الخصائص ٢/٣٧٩.

(٤) - مغني اللبيب ٢/٧٢٩.

(٥) - انظر همع الهوامع ٤/٥٩، وحاشية الصبان على شرح الأشموني ٢/١٩٣، والمقنع في الدراسات النحوية ١٨٩.

أسرار الحال من خلال حديثهم عن الآيات القرآنية ، وعلى هذا فإننا نجد تلك الجهود ظاهرة في مجالين :

أ - في الدراسات النظرية البحتة.

ب- في الدراسات التطبيقية على القرآن الكريم .

ولا شك أن ما يتعلق بالثاني سيكون أظهر وأكثر ؛ ولأن ذلك سيأتي في البحث مطولاً فسنتركه إلى حينه .

أما جهودهم في دراساتهم النظرية في بيان أسرار الحال ، فإنها مبثوثة في إشارات متفرقة، ويدخل في عموم ذلك كل ما قدموه من جهود في ضبط قواعد الحال ودراسة أساليبه ، وقد سبق ذكر مجمل ذلك ، وسأذكر الآن بعضاً من تلك الإشارات ، ونتفاً من تلك الإضاءات التي أودعها النحويون كتبهم ودراساتهم .

فمن ذلك عنايتهم ببيان الهدف من الحال ، وهذا ملحظ دلالي ذكره النحويون، وذلك من خلال نصهم على كون الحال إما للتبيين وإما للتوكيد[١] ، هذا من حيث العموم، وقد نصوا -فوق ذلك على أغراض خاصة ، يقول السيوطي بعدما ذكر المؤكدة: ((وفائدتها إما بيان تعيُّن ... أو فخر ... أو تحقير ... أو وعيد)) [٢] .

ويعمد بعض النحويين إلى تعليل الرأي الذي يذهب إليه، وهذا ظاهر عند الرضي، فهو كثير التعليل ، ولا نعدم من خلال تلك التعليلات لمحات معنوية في غاية الأهمية تنبئ عن تفحص للأساليب ودراسة للمعاني ، من ذلك تعليلهم القول بتنكير الحال ، والتعريف في الصاحب غالباً ، يقول الرضي : ((وإنما كان شرطها أن تكون نكرة ؛ لأن النكرة أصل والمقصود بالحال تقييد الحدث المذكور... ولا معنى للتعريف هناك ، فلو عُرِّفت وقع التعريف ضائعاً،وإنما كان الغالب في صاحبها التعريف؛لأنه إذا كان نكرة كان ذكر ما يميزها ويخصصها من بين أمثالها- أعني وصفها- أولى من ذكر ما يقيد الحدث المنسوب إليها-أعني حالها-؛لأن الأولى أن يبيَّن الشيء أولاً،ثم يبين الحدث المنسوب إليه،ثم يبين قيد

---

[١] - انظر مثلاً: الكافية ١٠/٢، وأوضح المسالك ٢٩٣/٢ ، وحاشية الصبان على شرح الأشموني ١٩٣/٢.

[٢] - همع الهوامع ٤٠/٤.

ذلك الحدث،فعلى هذا أُوِّلت المعرفة حالاً[١]؛ لأن التعريف عبث ضائع،ولم تؤول النكرة ذا حال[٢]؛ لأن غايته أنه على خلاف الأولى)) [٣] .

وهذا توجيه دقيق من الرضي، وهو _كما نرى_ تعليل مبناه المعنى ومرتكزه قواعد اللغة .

ومن إشاراتهم أيضاً قول الرضي فيمن جعل المصدر الواقع حالاً على تقدير مضاف مثل: أتيته ركضاً،أي: ذا ركض، قال : ((إلا أنه لا مبالغة فيه))[٤]، وهذه إشارة مهمة توضح أن المصدر يؤتى به لقصد المبالغة ، والتأويل المذكور يفوِّت هذه النكتة .

ومن هذا أيضاً حديثهم الجيد عن رابط في الجملة الحالية، ونوعه ،وأصالته، وتعدده ، ووجوبه، وتنبيههم على أن سبب الربط بالواو هو استقلال الجملة الحالية، بخلاف جملة النعت والخبر [٥].

ومن هذا قول ابن كمال باشا في امتناع الواو مع الحال المؤكدة : ((إن كانت الحال مؤكدة فلا تدخل الواو لكمال الاتصال))[٦]،ومعلوم أن (كمال الاتصال)تعليل بلاغي في باب الفصل و الوصل، وهو-كما نرى - تعليل حسن وإفادة بينة من جهود البلاغيين في الدرس النحوي، وهكذا شأن العلوم وخصوصاً علوم العربية.

ومن هذا القبيل أيضاً عناية النحويين ببيان الفروق بين الأساليب المتشابهة وقد توسع بعضهم في ذلك، وما يعنينا هنا هو تفريقهم بين الحال والنعت،وبين الحال والخبر وبين الحال والتمييز،[٧].

---

[١] - (أي: حين تقع حالاً)، أفاده محقق شرح الكافية .
[٢] - (أي :حين تقع صاحب حال)، أفاده محقق شرح الكافية .
[٣] - شرح الكافية ٢/١٦،١٥.
[٤] - شرح الكافية ٢/ ٣٩.
[٥] - شرح الكافية ٢/٤١
[٦] -أسرار النحو ١٣٩
[٧] - انظر هذا بوضوح في الأشباه والنظائر ٢/٤٣٩-٤٨٨.

ثانياً : الحال عند البلاغيين.

من البديهي أن يكون حديث البلاغيين عن الحال مختلفاً عن حديث النحويين ، ونواحي اهتمامهم بها تختلف عن نواحي اهتمام النحويين بها ، ومن غير المستغرب أن تكون معالجة النحويين لهذا الموضوع أوفى وأوسع ؛ لأنه من صميم صناعتهم ؛ ولهذا أستطيع القول بأنه ليس للبلاغيين حديث مقصود عن الحال وما يخصها إلا ما جاء عندهم من اعتناء بدخول الواو الرابطة في الجملة الحالية وامتناع ذلك ، ولا يعني ذلك أننا لا نجد للحال ذكراً عندهم في الأبواب البلاغية الأخرى ، بل نجد ، لكن ليس على سبيل القصد.

١- تعريف الحال وحدُّها.

لم أجد عند البلاغيين – حسب اطلاعي – عناية بهذا الأمر، وهذا ليس بمستغرب، لأن هذا مما تقوم به الصناعة النحوية ؛ولأن عناية البلاغيين غالباً تكون بالوظيفة والأسلوب.

٢- أوصاف الحال وأقسامها.

تعرض البلاغيون لبعض أنواع الحال تبعاً لا قصداً، وذلك من خلال حديثهم عن الرابط، فنجدهم يذكرون الحال المنتقلة واللازمة،والمؤكدة،والمقدرة، والماضية، والمقارنة وينص بعضهم على ضوابطها وتعريفاتها، من ذلك مثلاً: قول السعد ((المؤكدة : المقررة لمضمون الجملة)) (١)، وأوضح من هذا قول الدسوقي: (((المنتقلة) أي: الغير(٢) اللازمة لصاحبها المنفكة عنه))(٣)، وهم في هذا لا يخرجون عما قرره النحويون لا في الأنواع ولا في الحدود، وللبلاغيين قواعد عامة أسسوها وبينوها وهي لا تخص الحال ، لكنه يمكن أن يدخل ضمنها ، وذلك مثل كلامهم عن الأحوال المقتضية لكون المسند مفرداً أو جملة (٤)، أو كونه فعلاً أو اسماً(٥)، أو كونه جملة فعلية أو اسمية(٦)، فمثل هذا يفاد منه في موضوع

---

(١) -شروح التلخيص (مختصر السعد) ٣/١١٨،١١٧ .

(٢) -لعل الصحيح : غير اللازمة؛ لأن (غير) موغلة في الإبهام فلا تتعرف خلافاً للسيرافي، انظر ارتشاف الضرب ٢/٥٠٤.

(٣) -حاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٢/٨٥.

(٤) – انظر المفتاح ٢١٠،٢٠٨ ، والإيضاح ١/١٧٥، ١٧٦.

(٥) – انظر المفتاح ٢١٠،٢٠٨، والإيضاح ١/١٧٧.

(٦) – انظر المفتاح ٢١٨،٢١٧، والإيضاح ١/١٩٢،١٩١.

تنوع الحال من حيث الإفراد وعدمه، ونحن مع هذا لا نعدم إشارات دقيقة وصريحة إلى بعض تلك الأنواع مثل قول السعد : ((الأصل في الحال هي المفردة لعراقة المفردة في الإعراب ، وتطفل الجملة عليه بوقوعها موقعه)) [١] ، بل هناك منهم من يجعل ترتيباً خاصاً لبعض أنواع الحال، مثل قول عبد الحكيم : ((الأصل في الحال المفرد ثم الفعلية التي هي قريب منه ...))[٢] .

٣- الأبواب التي تعرضوا فيها للحال.

تعرض البلاغيون لمبحث الحال في بعض مباحثهم البلاغية ، إما تصريحاً وإما تمثيلاً وقد حاولت حصر المواطن التي تحدثوا فيها عنه ، وربما يكون بعض تلك المواطن لا يخص الحال لكنه يشترك مع غيره فيه ويأخذ الحكم ذاته ، ولعل أبرز تلك المواطن ما يأتي :

أ- التقييد.

قال الخطيب : ((وأما تقييد الفعل بمفعول ونحوه ، فلتربية الفائدة))[٣] وذكر ضمن الأمثلة : جاء زيد راكباً ؛ لأنه مقصود في قوله :((نحوه))، وهذا ما صرح به السعد حيث قال في شرحه : (((ونحوه) : من الحال والتمييز والاستثناء))[٤].

ولهم حديث دقيق في مسألة التقييد هذه ، فهم ينصون مثلاً على الفروق الدقيقة بين الحال والنعت في هذه المسألة ، فالحال قيد لحكم صاحبها ، والنعت قيد لذات المحكوم عليه [٥] ، ويتعرض البلاغيون خلال حديثهم المبثوث عن قضايا الرابط لموضوع مهم يتعلق بكون الحال فضلة، ومفهوم ذلك من حيث الاستغناء عنه من عدمه، حيث يذكر بعضهم أن الحال ليس مذكوراً قصداً وإنما هو على سبيل التبعية[٦] ، ولكن ليس هذا الأمر مسلماً عند آخرين بل هو ((مخالف لما هو مقرر من أن الكلام إذا اشتمل على قيد زائد

---

(١) – شروح التلخيص (مختصر السعد) ٣/ ١٢٩ ، وانظر أيضاً شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١٢٨/٣ ، وحاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٢/ ٢٩٣.

(٢) – حاشية الدسوقي على مختصر المعاني ١٠٤/٢.

(٣) –الإيضاح ١٧٧/١ .

(٤) – شروح التلخيص (مختصر السعد) ٣١/٢.

(٥) – انظر شروح التلخيص (مختصر السعد) ١٢٠/٣،و(مواهب الفتاح)١٢٠/٣،وحاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٨٦/٢ .

(٦) – انظر شروح التلخيص (مختصر السعد) ١١٩/٣،و(مواهب الفتاح) ١١٩/٣،وحاشية الدسوقي على مختصر المعاني٨٦/٢.

على مجرد الإثبات والنفي كان ذلك القيد هو الغرض الأصلي والمقصود بالذات من الكلام، والحال من جملة القيود))[1] .

ب- التقديم والتأخير .

جعل السكاكي ما يقدم للعناية والاهتمام قسمين : الأول : أن يكون أصل ما قدم في الكلام هو التقديم ولا مقتضى للعدول عنه كالمبتدأ المعرّف ... وكذا الحال المعرّف ، فإن أصله التقديم على الحال نحو : جاء زيد راكباً ... وكالفاعل فإن أصله التقديم على المفعولات وما يشاهها من الحال والتمييز نحو : ضرب زيد الجاني ... ممتلئاً من الغضب)) [2] .

وهذا النص يتضمن أموراً منها : أن تأخير الحال عن صاحبها المعرف هو الأصل ، لكنه لم يعلل ذلك ، وأن الأصل في الحال أن تتأخر عن العُمَد كالفاعل ، ولا شك أن قوله الأصل يشعر بأنه يمكن أن يكون الكلام على غير ذلك النسق، فيحصل تقديم وتأخير وله دواعيه التي تتطلبه، ولعل ذلك ما يظهر في القسم الثاني عنده وهو : أن تكون العناية بتقديمه والاعتناء بشأنه لكونه في نفسه نصب عينك ، والتفات خاطرك إليه [3] وعلى هذا فيمكن أن نجد الحال متقدماً على عامله، أو على صاحبه (الفاعل) أو غيره، وهذا ما ينص عليه العلوي بقوله في صور التقديم : ((الصورة الرابعة الحال: فإنك إذا قدمته فقلت : جاء ضاحكاً زيد ، فإنه يفيد أنه جاء على هذه الصفة مختصاً بها من غيرها من سائر صفاته، بخلاف ما لو قلت : جاء زيد))[4]،وفيما ذُكر -كما لايخفى - تنصيص صريح على الحال وموقعه وأثر ذلك في المعنى[5].

ج- فروق بين الاسم والفعل.

يتعرض بعض البلاغيين عند حديثهم عن هذه القضية للحال ، وكان من أظهرهم

---

(1) - حاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٨٦/٢.

(2) - مفتاح العلوم ٢٣٦، وانظر الإيضاح ٢٠٩/١.

(3) - انظر مفتاح العلوم ٢٣٧، والإيضاح ٢٠٩/١.

(4) - الطراز ٢/ ٧٢،٧٣.

(5) - ولابن الأثير كلام قريب من هذا،انظر: المثل السائر ٢٤٨/٢،وقد أنكره ابن أبي الحديد عليه فقال:((وأي دلالة في تقديم الحال على انتفاء غيرها!،هذا لغو من القول))،الفلك الدائر ٢٤٢.

عبد القاهر الجرجاني الذي اعتنى ببيان تلك الفروق الدقيقة بين الفعل والاسم بمثل تنبيهه على : ((أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجديد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء)) [1]،ويلحق بهذا حديثهم عن الجملة الاسمية والفعلية والفروق بينهما،وذلك من خلال عرضهم لمباحث علم المعاني،وهناك من أفردها بفصل مستقل كما فعل ابن الأثير[2].

ولا شك أن هذه القضايا لا تتعلق بالحال خاصة ، ولكن البلاغيين يستصحبون هذه الدلالة في حديثهم عن الحال ،ومن ذلك الاستدلال على مشابهة الفعل للمفرد من عدمها في مسألة (الحصول و المقارنة) التي بنى عليها الخطيب وجود الواو من عدمها في الجملة الحالية، يقول ابن يعقوب المغربي عن الفعل الماضي المثبت : ((فمن كونه ثابتاً لا منفياً يفيد الحصول ومن كونه فعلاً- والفعل يقتضي التجدد المستلزم للعدم- يفيد الثبوت فيشبه الحال المفردة في دلالته على صفة غير ثابتة))[3].

وكذا الأمر بالنسبة للجملة الاسمية فنجد النص على تلك الدلالة دارجاً عندهم في قواعدهم واعتراضاتهم ، من ذلك مثلاً قول الدسوقي : ((الموجود في الجملة الاسمية هو دلالتها على (المقارنة) من جهة إفادتها الدوام والثبوت المقتضي للاستمرار)) [4] .

د- الفصل والوصل.

تعرض البلاغيون لبعض أحوال الحال خلال حديثهم عن هذا الباب ، ومن ذلك كلامهم عن كمال الاتصال وأن من مواقعه أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى، ويمثلون لذلك بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [٢ البقرة][5]،وقد أعربت

---

[1] – دلائل الإعجاز ١٧٥، والإيضاح ١/١٧٥– ١٧٧، و١٩١، ١٩٢.

[2] – المثل السائر ٢/ ٢٦٩–٢٧٥.

[3] – شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ٣/ ١٤١.

[4] – حاشية الدسوقي ٢/ ١٠٣.

[5] – انظر الإيضاح ١/٢٥٠، ٢٥١.

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ حالاً ، وعُلل ترك الواو فيها بأنها مؤكدة [1] ، وتحت هذا تندرج كل شواهد الحال المؤكدة لمضمون الجملة .

ولكن هناك ما هو أوضح وأبين من هذا وهو حديثهم المفصل -الذي ليس له ما يماثله- عن الأحـــوال التي تقتضي الربط بالواو من عدمه ، وقد ألحقوه بموضوع الفصل والوصل يقول الخطيب : ((ومما يتصل بهذا الباب القول في الجملة إذا وقعت حالاً منتقلة، فإنها تجيء تارة بالواو، وتارة بغير الواو))[2] .

والحقيقة أن هذا الأمر دقيق ومشكل وقد أقر بذلك شيخ البلاغيين عبد القاهر، وحاول فك بعض رموزه ، وجاء الخطيب ووضع لذلك منهجاً معيناً مبنياً على قاعدة التشبيه بالمفرد في الحصول والمقارنة، ثم جاء الشراح والمحشون فجعلوا من هذا الموضوع مجالاً للمناقشات والاستدلالات، ولو عرضنا كل ذلك وحاولنا تبيين الراجح لطال بنا الكلام، ولاحتجنا إلى إعادة بعضه عند الحديث عن الرابط، فرأيت أن أكتفي بهذه الإشارة، والإحالة إلى مواطن ذلك البحث في كتب القوم[3]، وقد جمعت ذلك وحررت ما فيه من القواعد والاعتراضات لكنني وجدته طويلاً وجدواه قليلة ؛ إذ هو إلى الجدل والمنطق أقرب منه إلى الحس والتذوق ، وسنورد منه في مواطنه من البحث ما نراه مناسباً إن شاء الله.

هـ- مواطن أخرى.

لعل ما مضى كان أوضح المواطن التي ناقش فيها البلاغيون قضايا تتعلق بالحال أو تخصه، وهناك مواطن أخرى ذُكِرَ فيها الحال على سبيل التمثيل ، وأغلبها في علم البديع، مثل: الإيغال، والاحتراس ، والتتميم ، وصحة الأقسام[4].

---

(1) - انظر أوضح المسالك ٢/٣٥٣.
(2) - الإيضاح ١/٢٦٦.
(3)- ينظر في هذا الموضوع دلائل الإعجاز ٢٠٢- ٢٢١ ، ومفتاح العلوم ٢٧٢- ٢٧٦، والمصباح في المعاني٧٠، والإيضاح ١/٢٦٦-٢٧٩،، و شروح التلخيص (مختصر السعد ، ومواهب الفتاح، وعروس الأفراح) ٣/١١٦-١٥٩، وحاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٢/٨٤-١١١، والكليات ١٠٠٧.
(4)- انظر شواهد ذلك في: تحرير التحبير ١٢٨، ١٧٤،٢٣٠ ، والإيضاح ١/ ٣٠٧،٣١٠.

الفصل الأول

دلالـــة الحـــــــال

المبحث الأول: دلالة الحال المفـــــردة .

المبحث الثاني : دلالة الحـــال الجملة .

المبحث الثالث: دلالة الحال شبه الجملة .

توطئة :

تعد قضية الدلالة من القضايا المتشعبة خاصة في العصر الحديث، وتتجاذبها علوم كثيرة، أهمها ثلاثة : علم النفس، وعلم المنطق، واللسانيات ، وما يهمنا نحن هو ما يتعلق باللغة "وفيه ندرس الكلمات ضمن سياق اللغة :ما هي الكلمة، وما هي العلاقات بين شكل الكلمة ومعناها، وما هي العلاقة أيضاً بين الكلمات، وكيف تضمن الكلمات سير وظائفها ..."[1].

ولا نريد الخوض في مفهوم هذه الكلمة ، لكن لابد من توضيح مرادنا بها هنا ، إن ما نقصده بكلمة دلالة هو ما تشير إليه الكلمة أو الجملة أو الحرف من المعنى وذلك بطرق مختلفة، قد تكون بالصيغة، وقد تكون بالنوع، وقد تكون بالجرس، وقد تكون بغير ذلك، ويدخل ذلك كله فيما يسمى بـ (الدلالة الوظيفية) التي تشمل المستوى الصوتي ، والصرفي، والنحوي[2] ونظراً لكون فصول الرسالة كلها تُعنى بمدلول الحال في السياق الذي ورد فيه، فإننا سنذكر في هذا الفصل أهم جوانب تلك الدلالة، التي يتعلق بعضها بنوع الحال من حيث كونه مفرداً أو جملة أو شبه جملة، ويتعلق بعضها الآخر بالصيغة والبنية كما هو ظاهر في الحال المفردة، وبالتنوع الداخلي للنوع العام كما هو حال الجمل وأشباهها[3].

ومما لاشك فيه أن معنى الكلمة المعجمي (الوضعي) ، والاجتماعي (العرفي) له أثر كبير في توجيه مدلولها، ولكن ذلك لا يتم على أصوله، ولا يستوي على سوقه، ولا يؤتي ثمرته إلا باصطحاب تأثير السياق المقامي والمقالي، ويظهر هذا التآزر في تكوين المدلول في أعلى صوره وأسماها في النص القرآني ، الذي أقر أرباب البيان ، وعلماء اللسان أن من مظاهر إعجاز لغته، دقة اختيار ألفاظه واصطفائها، فتجدها تبلغ غاية الدقة موقعاً، وجرساً، ووظيفة.

---

(1) علم الدلالة، لبيير جيرو ١٧ .

(2) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ٣٣٧.

(3) يجعل الدكتور/ إبراهيم أنيس الدلالة أربعة أنواع:صوتية ، وصرفية، ونحوية ، ومعجمية اجتماعية،ويجعلها الدكتور/ الداية أربعة أنواع أيضاً:أساسية أو معجمية،وصرفية، ونحوية،و سياقية موقعية، انظر:دلالة الألفاظ٤٦،وعلم الدلالة العربي٢٠، ويظهر من هذا أن هناك اتفاقاً على الدلالة الصرفية(الصيغة)، والنحوية، والصوتية، وهي أس دراستنا في هذا الفصل، مع استحضار الدلالة المعجمية، والموقعية السياقية.

يقول الخطابي عن بعض أسباب عجز البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن ؛ إنه من جهة دقة ألفاظه وحسن اصطفائها "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم، ورباط بينها ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، أو أشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه..."[1] .

وبهذا يصرح شيخ البلاغيين عبد القاهر حيث يقول عن دقة كلمات القرآن الكريم: "وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة،وعُشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى أو أخلق..."[2]، وقد أحسن مصطفى صادق الرافعي أيما إحسان عندما وصف ألفاظ القرآن فقال: "ألفاظُ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها، ومتى وعَدَتْ من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب ، وإن أوعدتْ بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب، ومعانٍ هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان..."[3]

مما سبق ندرك أن اختيار الكلمة القرآنية لا يقتصر على مظهرها الخارجي المسموع والمنطوق، بل هناك التوافق المذهل بين تركيب الكلمة ومدلولها، "بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين..."[4].

و الكلمة الحالية هي من هذا القبيل ، و هي بعض من ذلك الكل ، لها حكم ما سبق تنوعت مواقعها ، و أنواعها ، و دلالتها ، و جرسها ، و هي مثل كل الألفاظ القرآنية تمتاز بمميزات ثلاث رئيسية:

---

(1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٢٤.

(2) دلائل الإعجاز ٣٩.

(3) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٠ .

(4) النبأ العظيم ٩٢.

١- جمال وقعها في السمع

٢- اتساقها الكامل مع المعنى

٣- اتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى"[١] .

وهذه المميزات الباهرة ، والاصطفاءات المتنوعة في الموقع والمناسبة والجرس كلها جداول تصب في نهر المعنى ، وتتكاتف لتعطي مجتمعة من الدلالات أكملها ، ومن المعاني أوفاها وأحسنها ؛ لأن " الكلمة عندما يحسن استعمالها تفجر من المعاني الكامنة والمتنوعة ما يثير العجب " [٢] .

ولدراسة تلك الدلالات كانت مباحث هذا الفصل على النحو الآتي :

المبحث الأول : دلالة الحال المفردة.

المبحث الثاني: دلالة الحال الجملة.

المبحث الثالث: دلالة الحال شبه الجملة.

---

(١) التعبير الفني في القرآن الكريم ١٨١.

(٢) من بدائع النظم القرآني ٢٠.

المبحث الأول : دلالة الحال المفردة.

يقسم النحويون الحال بعمومها إلى ثلاثة أقسام رئيسية:الحال المفردة،والحال الجملة، والحال شبه الجملة،ومما لاشك فيه أن لكل نوع دلالته ووظيفته،وقد جاءت هذه الأنواع الثلاثة في القرآن الكريم بأعداد غير قليلة،وحملت من المعاني والدلالات ما يجب الكشف عنه:"ففي أسلوب القرآن تكون الحال المفردة،ولا يصلح مكانها الحال الجملة، وتكون الحال جملة ولا يغني عنها المفرد؛لأن لكل منها دلالته وإيحاءاته في موضعه"(١).

ومن الظواهر التي برزت لي من خلال استعراض شواهد الحال المفردة أن الجمع فيها فاشٍ طاغٍ،حتى زاد على نصفها، فقد جاءت الأحوال دالة عليه صراحة أو مشعرة به مثل(جميعاً)و(كافة)،أو محتملة له احتمالاً وارداً كالمصادر المسبوقة بجمع،أو بمفرد وجمع.

وقد قلبت النظر في تعليل هذه الظاهرة،وبدا لي أن مرجع ذلك أن القرآن نزل هداية للعالمين أجمعين،ومخاطباته عامة،﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢٧ التكوير]،وهذه هي السمة العامة فيه،فلا عجب أن تظهر معالم تلك السمة العامة في الحال؛إذ المخاطبات الفردية في القرآن قليلة تختص بالإله سبحانه المتصف بالوحدانية،أو تختص ببعض كتبه أو أحد رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين،وما عدا ذلك فحوادث فردية قليلة؛ لهذا طغت الحال المجموعة أو الدالة على الجمع حتى شكلت ثلاثة أرباع شواهد الحال المفردة.

ولدراسة الدلالة مناهج وطرق ، منها ما قال عنه السيوطي : "قال بعضهم الألفاظ إما أن تدل بمنطوقها ، أو بفحواها ، أو بمفهومها، أو باقتضائها وضرورتها ، أو بمعقولها المستنبط منها ... قلت(٢) ، فالأول دلالة المنطوق ، والثاني دلالة المفهوم ، والثالث دلالة الاقتضاء ، والرابع دلالة الإشارة"(٣)، ورغم أن هذا الكلام حسن إلا أنني رأيت أن دراستنا هذه تحتاج إلى تقسيم آخر، قد يشترك مع ما ذكر وقد يختلف ، تقسيم أكثر ملاءمة لما نحن بصدده من الدراسة البلاغية الأسلوبية ، وقد بنيت التقسيم الذي ارتضيته على ما يأتي:

أولاً :الدلالة الوضعية للاسم في الحال المفردة .

ثانياً:دلالة الصيغة في الحال المفردة .

---

(١) الحال في الأسلوب القرآني ١٢٦.

(٢) أي: السيوطي .

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن ١٧٢/١.

أولاً :الدلالة الوضعية للاسم في الحال المفردة.

من المعلوم أن مبنى الحال المفردة على الاسم فلا يشاركه الفعل ولا الحرف؛ لذا كان المراد هنا هو المدلول الوضعي للاسم، وذلك من خلال الشواهد الحالية، ومما لاشك فيه أن الاسم له دلالته الخاصة في لغتنا العربية التي يتميز بها عن الفعل والحرف ، وله مواقعه التي يقتضيها السياق ويتطلبها حق البلاغة، وليس هذا خاصاً بالحال ، لكننا هنا ندرس الدلالة الاسمية من خلال بعض ألفاظ الحال المفردة ، وهذه الدلالة لها أهمية كبيرة ؛ لأنها تمثل فيصلاً بين الأنواع الثلاثة: المفردة، والجملة، وشبه الجملة ، فالحال المفردة اسم، والجملة الحالية أحياناً تكون في صورة فعل له دلالته ومواقعه، وأحياناً تكون مركبة من اسمين، أو اسم وفعل وهكذا؛ لذا فلا بد من دراسة الفروق بين هذه الأنواع، وذلك من خلال إبراز الدلالات الوضعية لكل منها، وسندرس هنا دلالة الاسم ونوازن ذلك بدلالة الفعل[١]، وبخاصة في الشواهد التي تجتمع فيها حالان إحداهما اسم والأخرى فعل[٢] .

وقبل عرض الشواهد لابد من مناقشة ما قرره علماء البيان في دلالة الاسم في أصل وضعه، في موازاة دلالة الفعل، ولعل من أظهر ما في هذا الشأن عندهم أن الاسم يعبر به عند إرادة الثبوت والاستمرار،ويعبر بالفعل عند إرادة الحدوث والتجدد، يقول ابن فارس فيما يتصل اتصالاً دقيقاً بما نحن فيه:"النعت يؤخذ من الفعل نحو : قام فهو قائم ...وهذا يسميه بعض النحويين الدائم ، وبعضٌ يسميه اسم الفاعل ، وتكون له رتبة زائدة على الفاعل،قال جل ثناؤه:﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [٢٩الإسراء]، ولم يقل:ولا تغل يدك، وذلك أن النعت ألزم ، ألا ترى أنا نقول﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [١٢١طه]ولا نقول:آدم عاصٍ غاوٍ؛ لأن النعوت لازمة ، وآدم وإن كان عصى في شيء فإنه لم يكن شأنه ، فيسمى به ، فقوله جل ثناؤه:﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً ﴾ أي:لا تكونن عادتك المنع؛فتكون يدك مغلولة...وهذا قياس الباب كله"[٣].

وقد قرر هذا المعنى وأثبته عبد القاهر بمثل قوله: "وبيانه أن موضوع الاسم على أن

---

[١]- أما دلالة الاسم في مقابل دلالة الجملة وشبهها فسيأتي في موطنه إن شاء الله.

[٢]- معلوم أن الفعل جملة لكننا هنا ننظر إلى مدلوله الوضعي في موازاة الاسم.

[٣] - الصاحبي ٤٦٤،٤٦٣.

يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت شيئاً بعد شيء ..."[1]، ويؤكد عبد القاهر أن هناك مواطن تقتضي الاسم فتجد الفعل لا يصلح مكانه ، و"كذلك تجد الفعل يقع ثم لا يصلح الاسم مكانه ولا يؤدي ما كان يؤديه"[2] .

وهذا مشتهر بين البلاغيين لكن هناك من نازع فيه ، يقول الزركشي: "وهذا الذي ذكرناه من دلالة الاسم على الثبوت والفعل على التجدد والحدوث ، هو المشهور عند البيانيين ، وأنكره أبو المطرف بن عميرة في كتاب (التمويهات على كاتب التبيان) لابن الزملكاني، قال: هذا الرأي غريب ، ولا مستند له نعلمه، إلا أن يكون قد سمع أن في قوله: أن يفعل وأن ينفعل هذا المعنى من التجدد، فظن أنه القسيم للأسماء، فغلط، ثم قوله:الاسم يُثبت المعنى للشيء عجيب، وأكثر الأسماء دلالتها على معانيها فقط، وإنما ذاك في الأسماء المشتقة ، ثم كيف يفعل بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [١٥-١٦المؤمنون]،وقال ابن المنير: طريقة العرب تدبيج الكلام وتلوينه ومجيء الفعلية تارة، والاسمية أخرى من غير تكلف لما ذكروه ..."[3].

وما يظهر لي مما ذكره أبو المطرف وتعليله الذي بنى عليه رفض تلك الدلالة أنه يعني شيئاً غير الذي عناه البلاغيون ، فالثبوت عنده يعني إثبات المعنى للشيء، وعندهم يعني ثبوت المعنى واستمراريته من غير إنشاء شيئاً فشيئاً، وليس المقصود أن الاسم يُثبت المعنى للشيء كما قال، بل المراد أن المعنى الذي يحمله الاسم ثابت مستمر ، فالمعنى إذاً موجود في الاسم والفعل بأصل وضعهما،لكن وجوده في الفعل منقطع متجدد ، وفي الاسم ثابت مستمر،ولكن هل هذا الحكم عام في كل الأسماء والأفعال؟.

لا ليس كذلك ، وأبو المطرف عندما قال:" وإنما ذلك في الأسماء المشتقة "كان محقاً،

---

(1)- دلائل الإعجاز ١٧٤.

(2)-دلائل الإعجاز ١٧٦.

(3) -البرهان في علوم القرآن ٧٢/٤، وانظر معترك الأقران في إعجاز القرآن ٤٩٦/٣، وقد أورد الكفوي هذا الاعتراض بما هو قريب من نصه، لكنه لم يعين صاحبه و لم يعلق عليه، بل قال: ((اشتهر عند أهل البيان أن الاسم يدل على الثبوت والاستمرار ...)) إلى أن قال: ((وأنكره بعضهم ...)) الكليات ١٠١٤.

وعبارته هذه توحي بأنه لا يخالف البيانيين من هذا الوجه ، فالاسم الجامد يدل على الذات فقط فليس فيه معنى يستمر أو يتجدد وكذلك الفعل الماضي يدل على الوقوع والانقضاء[1]، ولا معنى فيه للتجدد والحدوث ، وهذا يعني أنهم أرادوا بحديثهم الفعل المضارع والوصف المشتق ؛ لأنهما يتقاربان في المبنى والمعنى ويقعان موقع بعضهما ؛ لذلك كانت الأسرار في إيثار أحدهما على الآخر دقيقة ، فـ(يقوم) له موطنه و (قائم) له مقامه، وقد كان لهذا الاختلاف في الدلالة صدى عند الفقهاء فهم يفرقون في الحكم أحياناً بسبب الصيغ ، ومن ذلك ما ذكره ابن المنير أن سحنون من أصحابهم يفرق بين: أنا محرم يوم أفعل كذا بصيغة اسم الفاعل ، وبين: (أحرم) بصيغة المضارع، فيرى أن الاسم يدل على أن الفعل حصل منه وهو متلبس بالإحرام ، ولا كذلك الفعل ، وإن كان الإمام مالك يسوي بين الصيغتين في هذا المقام[2]، ولعل الإمام مالك قد نظر إلى أن القائل ربما لا يفرق أصلاً بين الصيغ لقلة علمه، وهو ملحظ حسن ، أما ما جاء في النصوص المعصومة التي عليها مدار التشريع، فلابد من التفريق في الدلالات بين الصيغ .

وما ذكرناه من مؤازرة رأي أبي المطرف فيما ذهب إليه من الوجه الذي أوردناه ، لا يعني بالضرورة حصر المخالفة في الدلالة بين الفعل والمشتق ، بل إننا نقول إنهم في تعميمهم الحكم ربما نظروا إلى أصل الدلالة في كل من الاسم والفعل بغض النظر عن كونه جامداً أو مشتقاً، أو ماضياً أو مضارعاً ، فالاسم يدل على ذات إن كان جامداً، ويدل على معنى إذا كان مشتقاً، بينما الفعل يدل على حدث، والذات سابقة في الوجود على الحدث ؛ إذ الحدث بعض أوصافها ونتائجها ولا فعل بدون فاعل، والذات ثابتة والفعل متغير ، ومن هنا أفادت الجملة الاسمية التوكيد من الثبوت المستقر في الذات[3].

وهذا التعليل له وزنه ووجاهته ، ولكن فيه تسوية بين المشتق والجامد، والذي أراه أن بينهما اختلافاً، فليست دلالة الجامد كدلالة المشتق، ففي المشتق دلالة على الحدث، وأحياناً يرتبط بالزمن فهو قريب الشبه من الفعل؛ لذلك كانت الندية بينهما قائمة

---

[1] انظر من بلاغة النظم القرآني ٩٩ .

[2] انظر الانتصاف بحاشية الكشاف ٤/ ٧٨ ، ٧٩ .

[3] انظر بناء الجملة بين منطق اللغة والنحو ٢٩، إفادة من: النظم القرآني في آيات الجهاد ٢٨٢.

والتشابه كبيراً، أما الجامد فله مواضعه ودلائله التي ربما لا تتعلق بحدوث أو استمرار، بل هي كثيراً ما تختص بالمبالغة وادعاء أصل الشيء،فهناك فرق بين أن نقول في المدح: رأيت زيداً مُقْدِماً في المعركة ، وأن نقول: رأيته يُقْدِم في المعركة ، وأن نقول: رأيته أسداً في المعركة، فليس من شك أن الأخير وهو الجامد أدل على معنى الشجاعة مما ذُكِر قبله، ولعل هذه القضية تتضح بدراسة مواطن وخصائص الحال المشتقة والجامدة الدالة على ذات والدالة على معنى، لكنني أقول الآن:إن الحكم بدلالة كلمة على معنى ما أو استلزامهاتلك الدلالة وعدم الحيد عنها هو أمر يحتاج إلى روية وتأكيد وتدليل،أما جمع الشواهد المنساقة مع القاعدة والتحدث حولها عن الدلالات فهو لا يغني عن وجود شواهد يحار عندها اللبيب أحياناً،خاصة إذا جُعِلَتْ تلك القاعدة مسلمة لا تقبل جدلاً.

والذي أراه أن الجزم بتلك الدلالات جزماً صارماً لا يناسب طبيعة هذه اللغة التي تتجدد فيها المعاني في كل أسلوب وفي كل موقع، وإن هذا الجزم وتلك الصرامة هي التي توقعنا أحياناً في التكلف، لكن القول بالغالب أمر فيه سعة يناسب سعة اللغة ويجعلنا نبحث عن دلالات أخرى وآفاق أبعد ، وإنني أقول أيضاً: إن الكلمة يجب ألا تُعْطَى دلالة مسبقة قبل النظر في موقعها ومدلولها الخاص، ثم تعامل من خلال تلك الدلالة المسبقة ، فهذا إجحاف في حق الأسلوب الرفيع، بل إن الكلمة يختلف مدلولها ، ويتسع أو يضيق ، ويؤثر في ذلك أمور أهمها: السياق الذي تقع فيه، والقرائن التي تحيط بها ، وكذلك المعنى الخاص الذي تقوم به ، فهناك كلمات تدل على أشياء ثابتة لأنها طبائع ، وأخرى تدل على متغيرات لأنها حوادث ووقائع ، وهكذا .

ولا يعني ما ذكرته أنني أعترض على ما قيل في دلالة الاسم على الثبوت والفعل على التجدد ، كلا، بل إن هذا القول ظاهر غالب، وقد أخذت به في تحليل الشواهد المحتملة لذلك،كل ما أريد قوله: عدم حجر الدلالات وقسر الشواهد عليه، وكأنه قانون علمي لا يقبل تغييراً ولا يرضى تبديلاً .

ومما يحسن التنبيه عليه أن هذا الحكم على الاسم والفعل قد عُمِّم على الجملة الفعلية والاسمية ، فالأُولى تدل على التجدد والحدوث والثانية تدل على الثبوت والاستقرار ، ولعله مما لا يخفى أن مدلول الجمل غير مدلول المفردات ، فأما الفعل فقد يقرب من المفرد

المشتق ؛ لأن الفعل وإن كان جملة إلا أن المشتق يشابهه في تحمل الضمير، فهو يرفع كالفعل فاعلاً أو نائب فاعل أو ينصب مفعولاً فالكفة متزنة ، لكن الاسم المفرد كيف يساوى بالجملة الاسمية ؛ إنهما لا يستويان، والجملة الاسمية لا تدل على الثبوت والاستمرار دائماً بل ذلك مرهون بالخبر ، فإن كان اسماً كانت دالة على ذلك بناء على دلالة الاسم العامة الغالبة ، وإن كان فعلاً مضارعاً فتكون دالة على التجدد، وإن كان ماضياً دلت على الانقضاء ، وحتى الجملة الاسمية المكونة من اسمين دلالتها ليست كدلالة المفرد ، وإلا لكان من العبث مجيء الحال مرة جملة اسمية ومرة مفرداً.

ولإدراك تلك الفروق سنعرض بعض الشواهد التي جمعت بين دلالتي الاسم والفعل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٢١ القصص]،فـ ﴿ خَآئِفًا ﴾ و﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ حالان من موسى عليه السلام[١]، الأولى مفردة والثانية جملة فعلية فما سر انفراد كل منها بما انفردت به ؟ وما دلالة كل منها ؟.

نقول إجابة عن ذلك: إن كشف سر التعبير هنا لابد له – في نظري – من دراسة شيئين دلالة الاسم والفعل ، ودراسة نوع المادة التي صيغ منها كل منهما ، فمادة الخوف غير مادة الترقب، وما ذُكِرَ من فروق في دلالة الاسم والفعل يفسر شيئاً من المخالفة بين الاسم والفعل في الحالين المذكورين: (خائفاً ، يترقب) ، فمجيء الحال الأولى اسم فاعل تصوير دقيق لحالة الخوف التي اعترت موسى عليه السلام، ولو قيل:(يتخوّف) لكان المعنى أنه يطلب الخوف ويبحث عنه ويتصنعه، فليس هو متصف به حقيقة ، ولو قيل:(يخاف) لكان أمراً غير مقبول ، وعدم قبوله راجع إلى أصل مادة الخوف، فالخوف هو:" توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ... ويضاد الخوف الأمن، ويستعمل في الأمور الدنيوية والأخروية"[٢] ، ويقول الحرالّي: "الخوف اضطراب النفس من توقع فعل ضار"[٣]، وموسى عليه السلام حصل له من قتل القبطي، وما صاحبه من أمارات في طلبه ما يوجب له الخوف، فالخوف فيه حالة مستقرة ثابتة مادامت دوافعها موجودة، لا أنها

(١)– انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣/٧١٠.

(٢) المفردات مادة خوف ٣٠٣ .

(٣) نظم الدرر ١/٢٩٩.

تنقضي ثم تعود؛ لذا جاءت هذا الحال على هذه الصيغة .

أما ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ فهي حال جملة فعلية فعلها مضارع فهي دالة على التجدد والحدوث، وهذا عين حالة موسى عليه السلام ،فالترقب الذي هو كثرة الالتفات بإدارة الرقبة في كل الجهات خوفاً ممن يطلبه[1] -متكرر متجدد من موسى عليه السلام "أثناء خروجه من المدينة (خائفاً)، ولو قيل: (مترقبا) لم نجد فيها نفس الدلالة التي في الفعل (يترقب) "[2]؛ لأن (مترقباً) تشير إلى ثبوته على تلك الحالة ، وكان هذا يصح لو أن موسى اتخذ مَرْقَباً وبقي فيه على حالة واحدة يرقب السائرين ، ولكن ما كان عليه موسى هو السير الذي يصاحبه الخوف كما يدل عليه قوله تعالى :(فخرج) ولم يكن: فبقي أو فجلس ، إذاً فالترقب كان يحدث آناً بعد آن، يمشي ويرقب ويلتفت، ثم يمشي ويرقب ويلتفت، وما كانت الحال لتتضح اتضاحها الذي نراه لولا مجيء هذين الحالين مصاحبين لبعضهما وعلى ما هما عليه من الصيغة والدلالة .

ومن الشواهد قوله تعالى في بيان هيئة الملائكة يوم القيامة: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر٧٥] ، فـ﴿ حَآفِّينَ ﴾ حال من الملائكة،وكذلك ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ أو ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ حال من الضمير في ﴿ حَآفِّينَ ﴾ ،و ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ حال منه أيضاً أي: مسبحين حامدين له[3] ، فهذه الأحوال الثلاثة جاءت على أنماط مختلفة: مفرد، وجملة، وشبه جملة، فأما الأولى فقد جاءت مفردة اسم فاعل بمجموع ﴿ حَآفِّينَ ﴾ وهي محط عنايتنا هنا، وبالنظر في سياق هذه الآية، نجد أن الموقف الذي جاءت الآية لتصويره موقف مهيب رهيب ، تطيف فيه الملائكة ــ على كثرة عددها ــ ببعض العرش كما تنبئ عنه كلمة ﴿ مِنْ ﴾ في: ﴿ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ ، يقول البقاعي : " حافين : أي محدقين ومستديرين وطائفين في جموع لا يحصيها إلا الله ... ولما كان عظم الشيء من عظم صاحبه، وكان لا يحيط بعظمة العرش حق الإحاطة إلا الله تعالى، أشار إلى ذلك بإدخال الجار فقال:﴿ مِنْ

---

[1] انظر نظم الدرر ٢٦٣/١٤ .

[2] الحال في الأسلوب القرآني ١٢٦ .

[3] انظر في هذا التبيان ١١٤/٢ ، والفريد في إعراب القرآن المجيد ٢٠٣/٤، وحاشية زادة على البيضاوي ٢١٧/٤ .

﴿حَوْلَ ٱلْعَرْشِ﴾ ..." (١)، وقد كانت الحال ﴿حَآفِّينَ﴾بصيغتها وظلها واسميتها هي المكملة لهيبة الموقف، فلا شك أن وقوف الملائكة مصطفين ثابتين دون حراك أظهر في تصوير رهبة ذلك الموقف، وكيف أن الكل في وجل وسكون مع تلك الأعداد الهائلة من الملائكة المحدقين بالعرش على تلك الصورة، وما كان الفعل ليقوم بتلك الدلالات لو قيل: يحفون ؛ لأنه يشعر بالتجدد وإنشاء الحف آناً بعد آن، وهذا لا يناسب الموقف؛ لأنه موقف وجل وهيبة ، ومن المعلوم عادةً أن وقوف الجنود محدقين بالملك _ ولله المثل الأعلى _ في صمت وسكون أكثر هيبة من لو تحركوا ثم اصطفوا، ثم تحركوا ثم اصطفوا .

أما التسبيح فلأنه ينشأ شيئاً فشيئاً والممدوح فيه هو تجدده ، والمشعر بالتعظيم فيه هو ما كان كذلك؛ لهذا جاءت الحال المبينة له بالفعل (يسبحن) ، وهذه الخصيصة فيه مطردة، قال الله تعالى عن داود عليه السلام:﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [١٨، ١٩ص] .

يقول الزمخشري منبهاً على مجيء التسبيح بالفعل ، والحشر بالاسم: " فإن قلت : هل من فرق بين يسبحن ومسبحات ؟ قلت : نعم وما اختير (يسبحن) على (مسبحات) إلا لذلك ، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء ، وحالاً بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال(٢) يسمعها تسبح... وقوله (محشورة) في مقابلة (يسبحن) ، إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء جيء به اسماً لا فعلاً ، وذلك أنه لو قيل : وسخرنا الطير يحشرن، على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء والحاشر هو الله - عز وجل - لكان خلفاً ؛ لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة " (٣).

ويقول البيضاوي: " و(يسبحن) حال وضع موضع مسبحات لاستحضار الحال الماضية والدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال... وإنما لم يراع المطابقة بين الحالين ؛

---

(١) نظم الدرر ١٦/٥٧١ .

(٢) والسياق يحتمل أن تكون (الجبال).

(٣) الكشاف ٤/٧٩،٧٨ .

لأن الحشر جملة أدل على القدرة منه مدرجاً "[1] .

وما أشار إليه الزمخشري بقوله:"كأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح"، والبيضاوي بقوله : " لاستحضار الحال الماضية " دلالة أخرى مهمة تضاف إلى دلالة الفعل على الحدوث والتجدد ؛ وذلك أن التعبير بالفعل يشعرك بالمشاركة الشعورية لشخوص الحدث أمامك، أما الاسم فلا يعطي هذه الدلالة.

ونقل الصور الحركية المتجددة بالفعل،والساكنة بالاسم يظهر فيما سبق، وفي قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [١٩الملك]، ففي هذا النص ثلاثة أحوال:﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ و﴿ صَـٰٓفَّـٰتٍ ﴾ و ﴿ يَقْبِضْنَ ۚ ﴾ [2]، وما يهمنا هنا هو ﴿ صَـٰٓفَّـٰتٍ ﴾ و ﴿ يَقْبِضْنَ ۚ ﴾ ففيهما تخالف في الاسمية والفعلية ، والحق أن التفسير بالسكون والحركة مقبول هنا تماماً؛ إذ إن الصف لما كان لا حركة فيه؛ لأنه مدّ للأجنحة وبسط لها "حتى كأنها ساكنة"[3] ناسبه الاسم، ولما كان قبض الطائر لأجنحته فيه حركة وتغير جيء بالفعل، والثبوت والتجدد دالان على ما ذُكِر من السكون والحركة، يقول الزمخشري : " فإن قلت : لم قيل : (ويقبضن) ولم يقل: (وقابضات) ؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة ؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح"[4] .

وظاهر من كلام الزمخشري أنه جعل الأصل للأصل والفرع للفرع[5]، وهذا على القول بأن الأصل هو الاسم، وهو ما أوضحه البقاعي بقوله:"عبر عن الصف بالاسم؛ لأنه الأصل الثابت"[6].

---

[1] أنوار التنزيل مع حاشية زادة عليه ١٧٧/٤ .

[2] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤٨٩/٤ .

[3] البحر المحيط ٢٢٧/١٠ .

[4] الكشاف ٥٨١/٤ .

[5] انظر نظرات لغوية في القرآن الكريم ٢٠٤، ٢٠٥ .

[6] نظم الدرر ٢٥٢/٢٠.

ويبدو أن أبا حيان رأى أن دليل الثبوت ليس أصولية الاسم ، بل أغلبية هذه الصفة وهي البسط ، حيث قال: " الغالب هو البسط فكأنه هو الثابت ، فعبر عنه بالاسم ، والقبض متجدد فعبر عنه بالفعل "[1]، ويقول الطاهر بن عاشور: " وأوثر الفعل المضارع في (يقبضن) لاستحضار تلك الحالة العجيبة وهي حالة عكس بسط الجناحين ... "[2].

وبهذا نعلم أن الحال المفردة تدل الاسمية فيها على الثبات والاستمرار هذا من وجه، وعلى السكون وعدم الحركة هذا من وجه آخر،وعلى الأصالة والأغلبية هذا من وجه ثالث،أما ما يقابل الاسم وهو الفعل فيدل على ما يأتي: التجدد والحدوث هذا من وجه،واستحضار الصورة الحركية من وجه آخر، والطروء و عدم الأصالة من وجه ثالث.

ولعل هذا هو السر في مجيء الأحوال أسماء من القرآن والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، حتى إننا لنستطيع القول إنه لا يخرج عن ذلك إلا شواهد قليلة ، ولهذه الظاهرة أيضاً ارتباط بالصفة التي وقعت حالاً كالتصديق ، والهداية، والتبشير، والإنذار، والرسالة، فكلها تقتضي الثبوت والاستمرارية ، كما أنها تعبر عن أصل ثابت لا يتزعزع ولا يختل .

وإذا كان ما سبق قد أظهر الدلالة الوضعية للاسم سواء أكان حالاً أم غير حال، فإن مما لاشك فيه أن للوظيفة الحالية في النظم مدلولاً يختلف عن غيره، ويتجلى ذلك في ألفاظ تمحضت للحالية في القرآن الكريم، أو كثرت فيه كثرة ظاهرة ، وقد استوقفتني هذه الظاهرة فأحببت أن أبين -ولو بإيجاز- مدلولات بعض تلك الألفاظ وعلاقتها بالحال وسر خلوصها له دون غيره، ولاشك أن في ذلك بياناً أدق لمدلول الحال المفردة من خلال معرفة بعض تلك الألفاظ الخالصة للحالية أو الشائعة فيها.

وحتى لا يطول الحديث ، فسأقتصر في التحليل على أظهر الشواهد الجامعة بين الكثرة و الخلوص للحالية ، و من ذلك (جميعاً) فقد وردت في تسعة و أربعين موضعاً في القرآن الكريم كلها أعربت فيها حالاً [3] ، أو احتملته مع التوكيد [4] ، و هذا يعني أن

---

[1] البحر المحيط ١٠/ ٢٢٨ .

[2] التحرير والتنوير ٣٩/٢٩ .

[3] انظر معجم إعراب القرآن الكريم، فقد جعلها حالاً في كل مواضعها، انظر مثلاً ص ٧ ، و ٩، و٢٩ ، و٣٢ ، في إعراب آيات البقرة : ٢٩ ، ٣٨ ، ١٤٨ ، ١٦٥ .

[4] انظر الدر المصون في إعرابه آية ٣٢ المائدة، فقد جعل التوكيد محتملاً مع الحالية ٢٤٩/٤ .

الأصل فيها هو الحالية والقول بالتوكيد محتمل احتمالاً ثانياً بعد الحال ، وهناك من يجزم بعدم ورود (جميعاً) توكيداً ، يقول عضيمة -رحمه الله- : "لم تقع (جميع) تأكيداً في القرآن"[1]، وهذا ما يؤكده الدكتور عبد الرحمن المطردي ، حيث أورد تلك المواطن كلها وأتبع أكثرها بإعرابها وجعلها كلها من قبيل الحال المؤكدة[2] .

وهذه الكلمة (جميعاً) يظهر بعض مدلولها من خلال هذا التحليل لقوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٢٩البقرة] .

يقول أبو حيان: " وانتصب (جميعاً) على الحال من المخلوق، وهي حال مؤكدة ؛ لأن لفظ (ما في الأرض) عام، ومعنى (جميعاً) العموم، فهو مرادف من حيث المعنى للفظة كل، كأنه قيل: ما في الأرض كله، ولا تدل على الاجتماع في الزمان، وهذا هو الفارق بين (معاً) و (جميعاً) "[3].

إذاً هذه اللفظة (جميعاً) لها مدلولها الخاص فهي " تقتضي التعميم في الحكم ، لا المقارنة في الزمان "[4]، وهي أيضاً تحمل معنى التوكيد لكن من خلال الحالية ، يقول البقاعي عن دلالتها في الآية المذكورة : "قال الحرالي : وقوله : (جميعاً) إعلام بأن حاجة الإنسان لا تقوم بشيء دون شيء، وإنما تقوم بكلية ما في الأرض حتى لو بطل منها شيء تداعي سائرها "[5] .

وذكر عباس حسن أنها تشترك مع (كل) في إفادة العموم المطلق[6]، وعلى هذا فهي تقع مكانها، لكن ما سر إيثار مجيئها حالاً على التأكيد بـ(كل) فيقال مثلاً: خلق لكم ما في الأرض كله ، اهبطوا منها كلكم ؟ .

إنني ألمح معنى في (جميعاً) لا يتوافر في (كل)؛ لذا فكل منهما له مدلوله وموقعه، إن

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الرابع ١٣ .

(٢) انظر أساليب التوكيد في القرآن الكريم ٣٣٦- ٣٣٩.

(٣) البحر المحيط ٢١٦/١، وانظر الدر المصون ٢٤٢/١ .

(٤) البحر المحيط ٢٧٠/١ .

(٥) نظم الدرر ٢٢١/١ .

(٦) انظر النحو الوافي ٥١٨,٥٠٩/٣ .

قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [٣٨البقرة] يعني مجتمعين، لكن لو قيل: كلكم، أدركنا أن المراد شمول الأمر لكل الأفراد ففيها معنى التعميم ، لكنها تفقد معنى الاجتماع الذي تشعر به كلمة (جميعاً) ، فهي تدل على التعميم في الأمر، وعلى أن المراد الانصياع له في صورة الجماعة فهي في قوة : اهبطوا كلكم مجتمعين، ومما يدل على انتمائها للتجمع والالتئام ورودها فيما يتطلب ذلك قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [١٠٣آل عمران] ، فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ ألمحت إلى أن المراد من (جميعاً) هنا مع التعميم الاجتماع والاتحاد .

ولو وقفنا مع قوله تعالى :﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [١٤٨البقرة] لرأينا أنها: "تتضمن وعظاً وتحذيراً وإظهاراً لقدرته" ومعنى ﴿ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾: أي يبعثكم ويحشركم للثواب والعقاب فأنتم لا تعجزونه وافقتم أم خالفتم"[1] ، ولو كان التعبير بـ (كل)فقيل: يأتي بكم الله كلكم لتغير المعنى؛ لأن غاية ما في كل التعميم، بحيث لا يفلت من أفراد الجنس أحد، وهذا معنى تقوم به (جميعاً)، ولو قيل: (كل) لكان معنى ذلك أن الله يأتي بهم كلهم، لكن ليس شرطاً أن يكونوا مجتمعين ولا أن يكون ذلك جملة واحدة، بينما (جميعاً) تشعرنا بأن جمعهم إذا أراد الله يكون جملة واحدة، فهم يأتون إليه سبحانه مجتمعين لا متفرقين، وهذا أدل وأعظم في التنبيه على عظيم إحاطته سبحانه بخلقه وقدرته عليهم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [٢٨ لقمان] .

ولعل هذا هو السر في كثرة ورودها حالاً في القرآن الكريم مصوِّرةً منّة الله على خلقه، وقدرته وعزته ، وإحاطته بعباده ، وحشره لهم يوم القيامة، وقد ألمح إلى هذا الدكتور عبد الرحمن المطردي بعد سرد شواهدها فقال: " ويتضح مما سبق أن لفظ (جميعاً) منوناً قد أتى حالاً مؤكدةً صاحِبَها في مقامات متنوعة كلها تقتضي التأكيد ، إما لإبراز نعم الله علينا،وإظهار قدرته... وإما للدلالة على اختصاصه بالعزة والشفاعة... وإما

---

[1] البحر المحيط ٣٨/٢ .

للتأكيد على ما يفيدنا ويصلح أمورنا، وهو الاتحاد وعدم التفرق..."[1]

وأختم الكلام عن (جميعاً) بأن إيثار ورودها حالاً، واختصاصها بذلك دون وقوعها مؤكدة على صيغة (جميعه أو جميعهم ... أو غيرها) عائد إلى معناها ومبناها ، فـ(جميعاً) هكذا بلا تقييد بضمير يخصص عموميتها أقوى في تصوير الحال ، وأعظم دلالة على الإحاطة ، ثم إن في الحالية تصويراً للهيئات ، ونقلاً لها إلى السامع ، وفيها زيادة على ذلك دلالة التأكيد فهي لا تفارقها[2] ولو كانت تأكيداً فقط لما كان هناك تصوير للهيئات ، ولاشك أن استحضار الهيئة وصورها -وهو ما تقوم به الحال حتى ولو كانت مؤكدة- أقوى في التأثير من مجرد التأكيد .

وهكذا تأتي الكلمة في القرآن مؤثرة في مكانها دالة على معناها شاهدة على ذلك بمبناها، "تؤدي فيه وظيفتها أداء محكماً، وتستخدم في الموقف الداعي إلى ذلك الاستخدام"[3].

ومما التزم الحالية في القرآن كلمة (مصدقاً) بالإفراد والنصب وقد وردت في ثلاثة عشر موضعاً، جاءت فيها في أربعة مواضع حالاً من الأنبياء ، في ثلاثة من عيسى عليه السلام[4] وواحد من يحيى عليه السلام[5] وبقية المواضع كان الصاحب هو الكتاب ، إما القرآن وإما الإنجيل .

وهذا الاختصاص بالصاحب وبالحالية يجب أن يوقف عنده ، خاصة إذا رأينا آيات يظهر فيها الالتزام بهذا جلياً،منها قوله تعالى:﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [٤٦ المائدة] ، فقد كان المتبادر فيه أن يقال: هدى ونور وصدقٌ (بالرفع) ، فما سر المخالفة في نسبة الصدق إليه بحيث لم تأت إلا في صورة الحال؟ .

---

(١) أساليب التوكيد في القرآن الكريم ٣٣٩،٣٤٠ .

(٢) انظر النحو الوافي ٥١٣/٣ .

(٣) أساليب التوكيد في القرآن الكريم ٣٤٠ .

(٤) كما في: ٥٠ آل عمران ، و٤٦ المائدة ، و٦ الصف .

(٥) كما في : ٣٩ آل عمران .

لعل الجواب عن ذلك يرجع إلى طبيعة الحال ومدلولها ، واقتران ذلك بصاحب الحال والكيفية التي ذكر فيها الحال ، فلو قيل هنا: (فيه صدق) لم يكن ذلك مثل ما وقع في النظم الكريم: (مصدقاً) أي: آتيناه الإنجيل وهو على تلك الحال، ولا شك أن نعت الإنجيل بصفة الصدق حال الإنزال أو الإيتاء وجعلها هيئة ووصفاً مصاحباً له في تلك الحال لهو أدل على كونه من عند الله، ولهو أعظم في مدحه وأوقع في قبوله؛ لأن ذلك يعني أن الصدق ليس وصفاً طارئاً عليه وليس هو بعض ما فيه بل هو الصدق كله، والصدق لازم له مقترن به منذ إيحائه وإنزاله، يقول البقاعي ملمحاً إلى بعض ذلك السر: "ولما كان الناسخ للشيء بتغيير حكمه قد يكون مكذِّباً له، أَعْلَمَ أنه ليس كذلك بل هو مع النسخ للتوراة مصدق لها " [1]، وهكذا تأتي (مصدقاً) حالاً من الكتب التي جاءت ناسخة لشريعة قائمة، وهي القرآن والإنجيل و لم تأت حالاً من التوراة لعدم ذلك، إذاً فالسر في هذا النظم العجيب هو إخراس الألسنة المكذِّبة، وقطع الحجة عليها من أول لآخر ببيان أن الكتاب المترل لا يكذب سابقه، بل إن تصديقه له مصاحب لتروله وإيتائه وإيحائه[2]، وهذا أيضاً هو تفسير مجيء تلك الحال مكررة من الأنبياء، وخصوصاً من عيسى عليه السلام .

والملحوظ أن هذه الحال تلتقي مع (جميعاً) في قضية التأكيد، وهذا يشعرنا بأن الحال المؤكدة كثيرة في القرآن وتشغل أحياناً مساحة خاصة لا يشركها فيها نوع آخر كما في الأحوال السابقة ، وسيأتي لذلك مزيد تفصيل في مواطنه إن شاء الله[3] .

ومن هذا القبيل أيضاً (بغتة)فقد جاءت حالاً في ثلاثة عشر موضعاً هي كل ما ورد في القرآن، وهذه الحال تختلف عن سابقتها بأن مادتها (بغت) لم تأت في القرآن أصلاً إلا في موضع الحالية، وبهذا اللفظ (بغتة)،وهي في كل شواهدها لا تخرج عن تصوير إتيان الساعة أو الأخذ بالعذاب فجأة ، وكثيراً ما تنفرد بتصوير تلك الحال كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ [٣١ الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [٤٤ الأنعام]، وأحياناً

---

(1) نظم الدرر ١٦٠/٦ .

(2) انظر البحر المحيط ٢٧٩/٤، ٢٧٨ .

(3) انظر ص ٢٢١من هذا البحث .

تشركها جملة (وهم لا يشعرون)[1]بينما لم تأت معها (جهرة) إلا مرة واحدة[2] .

وهذه ظاهرة حرية بالتأمل والوقوف ، فما سر اختصاص هذه اللفظة بالحالية، ولماذا ترتبط خصوصاً بالساعة ومفاجأة العذاب ؟.

إجابة على ذلك نقول: إن البَغْت هو: " مَفْجأة الشيء من حيث لا يحتسب "[3] ويقول أبو حيان: " البغت والبغتة : الفجأة ... وهي مجيء الشيء سرعة من غير جعل بالك إليه، وغير علمك بوقت مجيئه " [4] .

إذاً البغتة تجمع ما بين السرعة والمفاجأة، وعدم الاستعداد والاحتساب لذلك الذي يقع؛ لأن في: " البغت معنى المجيء من غير إشعار "[5]، ولعل البغتة تفارق الفجأة في مسألة السرعة والأخذ على غرة، فعندما يقال: أخذه بغتة نلمح فيها سرعة الأخذ على حين غفلة، ففيها إلماح إلى معنى الضرر والإيذاء؛ لأنها من المباغتة وهي الأخذ على وجه خفي، ففيها تنبيه إلى ترصد الساعة، وأنها إذا جاءت كانت على هذا الوصف، ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: "ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه،ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ولا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها " [6].

وجاء التعبير بـ(فعْلَة) (بغتة) دون (بغتاً) لما في (البغتة) من الإشعار بسرعة ذلك وحصوله دُفعة واحدة بحيث لا يُمْهِل أحداً،ولا مجال معه لعودة ولا وصية كما قال سبحانه:﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٤٩ ،٥٠ يس]،ولو قيل (بغتاً) لربما أوهم ذلك تكرر حدوث البغت، وهذا لا يناسب ما ذكر عن الساعة من السرعة ومفاجأتها للخلق، وقد اجتمع في هذه الكلمة من الدلالة على المراد ما لا يجتمع لغيرها، فهي دالة بمادتها على السرعة المذهلة

---

[1] انظر ذلك في: ٩٥ الأعراف، و١٠٢ يوسف ،و ٥٣ العنكبوت،و ٥٥ الزمر ، و٦٦ الزخرف.

[2] كما في: ٤٧ الأنعام.

[3] المفردات مادة بغت ١٣٥ .

[4] البحر المحيط ٤/٤٥١ .

[5] التحرير والتنوير ٧/١٩٠ .

[6] صحيح البخاري (مع الفتح)، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها،ح(٦٥٠٦)، ١١/٣٦٠.

التي لا يمكن أن يشعر الناس معها بقيام الساعة، ونزول العذاب بأي نوع من الشعور[1] ، ودلت بمصدريتها على المبالغة في البغت فإنه "يرجع إلى الإخبار بالمصدر لقصد المبالغة "[2].

أما عن سر اختصاصها بالحالية دون النعت بأن يقال: تأتيهم الساعة الباغتة ، كما قيل:الطاغية، والطامة، والصاخة ؛ فلأن المراد هنا تصوير هيئة الأخذ والمجيء ؛ لأن هذا هو الذي توعظ به النفوس الغافلة ، وفيه إيقاف للناس على شدة الأمر وعظمه ليكونوا على أهبة الاستعداد؛ وذلك لأن وصف الساعة أو وقوع العذاب بالبغت لا يعطي من المدلول ما يعطيه بيان الهيئة لمجيء الساعة أو وقوع العذاب، فالأخير أكثر تحذيراً وأوقع في الزجر ، وفيه تنبيه إلى أن هذا هو الذي يجب أن تصرف إليه الأذهان وتعيه الأفهام .

واكتفي من التحليل بما سبق من الشواهد ، وما بقي من تلك الألفاظ كان أقل مما سبق، لذا سأشير إليه إشارات سريعة توضح عدد وروده ، وهذا يعكس بعض دلالاته في النظم الكريم .

من ذلك (سجداً) فقد جاءت في أحد عشر موضعاً كلها حال ، وجاءت بصيغة (ساجدين) النكرة في خمسة مواضع كلها حال ، ومن ذلك أيضاً (مخلصين) فقد وردت في سبعة مواضع كلها حال، وكذلك (بغياً) جاءت في ستة مواضع كلها حال ، ومثلها تماماً (وحده) ،ومما جاء في خمسة مواضع كلها حال ما يأتي: (جهد أيمانهم) ، و(كَرْهاً) ، و(خاشعة) و(وكافة) و (قرآنا عربياً) و(مبشراً) و (مفسدين) منكرة ، ومما جاء في أربعة مواضع (مبشرين ومنذرين) و (نذيراً) و(طوعاً) و (حلالاً طيباً).

وإنما قصدت بذكر هذه النماذج التنبيه إلى ما جاء حالاً فقط في القرآن الكريم والصيغة التي جاء عليها ، وأكثر هذه الشواهد إما سبق ذكرها وتحليلها وإما سيأتي قريباً ؛ لذا لم أر ما يدعو للوقوف عندها ، غير أنه لابد من التنبيه على أن (كافة) مما التزم الحالية في القرآن وفي اللغة عموماً ، وقد صرح بهذا أئمة اللغة ، فقد ذكر الزجاج أن (كافة) تلزم حالتها هذه فلا تثنى ولا تجمع وكذلك (خاصة) قال :"هذا مذهب النحويين"[3]، ويفسر

---

[1] انظر نظم الدرر ٩١/٧،٩٠ .
[2] التحرير والتنوير ١٩٠/٧ .
[3] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤٤٦/٢ .

أبوحيان سبب امتناع وقوع (كافة) على وجه غير الحال بأن ذلك: " إنما هو بسبب مادة (كافة) ، إذ لم يُتَصَرَّف فيها بل التُزِمَ نصبها على الحال ، لكن مرادفها يصح فيه ذلك"[1]، ويرى السمين بأن: " (كافة) و(قاطبة) مما لزم نصبها على الحال، فإخراجها عن ذلك لحن "[2]، وهذا ما يشدد فيه ابن هشام[3]، ومع ذلك هناك من يرى جواز وقوعها غير حال، وقد نص على ذلك الدماميني في الحواشي الهندية[4].

أما عن مدلول كافة فيقول الألوسي (كافة) " لإحاطة الأجزاء "[5]، فهي دالة على الشمول والإحاطة ، ويرد الطاهر بن عاشور قول من يجعلها مأخوذة من الكف بمعنى المنع[6]، ويرى أنها : "اسم يفيد الإحاطة بأجزاء ما وصف به ، وهو في صورة صَوْغة كَصَوْغِ اسم الفاعلة من (كفّ)، ولكن ذلك مصادفة في صيغة الوضع ، وليس فيها معنى الكف، ولا حاجة إلى تكلف بيان المناسبة بين صورة لفظها وبين معناها المقصود في الكلام لقلة جدوى ذلك ، وتفيد مفاد ألفاظ التوكيد الدالة على الشمول والإحاطة"[7].

ولعل مما يحسن ذكره ختاماً لهذا المبحث ، أن تلك الألفاظ التي تمخضت للحالية وكثر ورودها كان أبرزها (جميعاً ، ومصدقاً)، وتلحق بهما (كافة)، والكل يشترك في ظاهرة واحدة هي التأكيد ، لكن بعضها جمع إلى ذلك دلالة الشمول كـ(جميعاً) و (كافة) وبعضها بقي دالاً على الوحدة مثل (مصدقاً).

---

(1) البحر المحيط ٢/٣٤٠، ٣٤١ .

(2) الدر المصون ٢/٣٦٢ .

(3) انظر مغني اللبيب ٢/٦٤٧ .

(4) نقلاً عن التحرير والتنوير ٢/٢٧٩ .

(5) روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٩٨ .

(6) وهذا ما صرح به كثيرون منهم الراغب ، انظر المفردات مادة (كف) ٧١٣، والدر المصون ٢/٣٦١، حيث جعلها السمين اسم فاعل من (كفّ) .

(7) التحرير والتنوير ٢/٢٧٨.

ثانياً : دلالة الصيغة في الحال المفردة.

تأتي الحال المفردة على صيغ مختلفة متنوعة، ومن أبرزها: صيغ الاشتقاق والجمود، وصيغة التنكير والتعريف، وصيغة الإفراد والتثنية والجمع، وصيغة التذكير والتأنيث، ومما شك فيه أن لكل صيغة مدلولها، وسنتحدث عن ذلك من خلال الوظيفة النحوية لكلمة ذات الصيغة المعنية، وهي هنا(الحال)، وبهذا نكون قد جمعنا بين دراسة دلالة (الحال) على المستوى الوضعي وقد سبق، والمستوى النحوي، من خلال النص على الموقع الإعرابي لموضع الاستشهاد، وبيان علاقة الهيئة (الحال) بالمعنى المراد ، وأما المستوى الصرفي فيظهر من خلال دراسة الصيغ المتعددة التي جاءت عليها الكلمة الحالية، وذلك على النحو الآتي:

١- دلالة الاشتقاق والجمود .

٢- دلالة التنكير والتعريف .

٣- دلالة الإفراد والتثنية والجمع .

٤- دلالة التذكير والتأنيث .

ولكل من هذه الصيغ مع مقابله دلالات معينة، توجب ذكره أو ذكر مقابله، وسيتضح ذلك من خلال الشواهد والتحليلات إن شاء الله.

١- دلالة الاشتقاق والجمود .

قرر جمهور علماء العربية -كما رأينا من قبل- أن الغالب في الحال الاشتقاق[(١)]، وبعرض هذا الحكم على الشواهد القرآنية نجد أن الحال-كما يقول عبد الستار سعيد- قد جاءت في القرآن الكريم مشتقة في مائتين وتسعة وعشرين موضعاً، وجاءت جامدة في مائة وتسعة وسبعين موضعاً[(٢)]، وقال بناء على ذلك: " غلب مجيء الحال مشتقة في الأسلوب القرآني ... وجاءت ... جامدة بقلة في القرآن "[(٣)] .

والذي أراه أن الحال الجامدة في القرآن الكريم بموازنتها بالحال المشتقة غير قليلة ،

---

(١) انظر ص ٦ من التمهيد .

(٢) انظر الحال في الأسلوب القرآني ٢٣.

(٣) الحال في الأسلوب القرآني ٢٣.

لكنها على كل حال لا تساويها ، لكنها لا تنقصها إلا قليلاً ، وقد أقر أبو حيان بكثرة ورود الحال جامدة على سبيل موازنتها بالنعت ، فقال عن ورود المصدر حالاً: "وهو أكثر من وروده نعتاً"[1]، ويقول السهيلي مصادراً اشتراط الاشتقاق وواضعاً ضابطاً آخر: "إن الاشتقاق لا يلزم في الحال، إنما يلزم فيها أن تكون صفة متحولة ؛ لأن الحال مشتقة من التحول ، فإن كان صاحب الحال قد أوقع الفعل في صفة غير لازمة للفعل ، فلا تبال أكانت مشتقة أم غير مشتقة ، فقد جاء في الحديث: (تمثل لي الملك رجلاً)[2] فـ (رجلاً) حال؛ لأن صورة الرجل طارئة على الملك حال التمثّل ، وليست لازمة في وقت وقوع الفعل منه وهو التمثّل ، فهي إذاً حال ؛ لأنه قد تحول إليها ....، وليس يلزم في الصفات أن تكون كلها فعلية ، بل منها نفسية ، ومعنوية ، وعدمية وهي صفة النفي ، وإضافية وفعلية ولا يكون من جميعها حالاً إلا ما كان الفعل واقعاً فيه وجاز خلوه عنها ، وأما ما كان لازماً للاسم مما لا يجوز خلوه عنه فلا يكون حالاً منتصبة بالفعل نحو قولك : قرشياً وحبشياً ، وابناً لزيد ، وأخاً لعمر ، فإذا أردت النسب لا يكون شيء من هذا كله حالاً فافهمه"[3]، وقد نصر ابن القيم هذا الرأي وأورده كاملاً على صفة القبول وقال : "فاعلم أنه ليس لاشتراط الاشتقاق حجة، ولا يقوم على هذا الشرط دليل "[4] .

والحقيقة أن هذا الرأي هو الحري بالقبول، وهو الذي تدعمه كثرة الشواهد القرآنية التي جاء الحال فيها جامداً ، ونحن هنا سنركز على الدلالة والسر البلاغي، والفروق المعنوية من خلال تحليل الشواهد القرآنية .

أ- الحال المشتقة .

جاءت الحال المشتقة في القرآن الكريم وشملت ما يأتي: اسم الفاعل واسم المفعول، والصفة المشبهة ، وصيغة المبالغة ، واسم التفضيل، واسم المكان ، وكان أكثرها وروداً اسم الفاعل حيث بلغت شواهده حوالي مائة وأربعين شاهداً، وهذا يعني أن هناك طغياناً

---

[1] نقلاً عن همع الهوامع ١٤/٤، وانظر ص ٥ من التمهيد.

[2] صحيح البخاري (مع الفتح)، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ...، ح(٢)، ٢٦/١.

[3] نتائج الفكر ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

[4] بدائع الفوائد ١٢٦/٢.

لاسم الفاعل في هذا الجانب، فهو يشكل أكثر من نصف العدد، والباقي مقسم على بقية المشتقات ، وربما لا يكون هذا غريباً ؛ لأن اسم الفاعل في القرآن فاش كثير حتى تبين لي بالعدد فيما أورد عضيمة -رحمه الله- منه أنه يزيد على سبعمائة موضع[1].

ولن نستطيع الوقوف عند كل صيغة لا مع اسم الفاعل ولا غيره؛ فذلك مما يطول الحديث فيه، وقد أُفرد هذا الموضوع برسالة مستقلة اعتنى فيها صاحبها بدلالات صيغ المشتقات في القرآن الكريم[2].

وما يعنينا هو هنا إبراز دلالة هذا النوع من أنواع الحال وهو المشتق ، وذلك من خلال تحليل بعض الشواهد الحالية، وعقد الموازنات بين صيغ المشتقات.

ومما جاءت فيه الحال مشتقاً اسم الفاعل قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [٥١ الحج]، فـ ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ حال من الواو في سعوا [3]، وهو جمع (معاجز) اسم فاعل من (عاجز)، والمعنى الغالب على هذه الصيغة من اسم الفاعل (مُفَاعِل) "هو الدلالة على المشاركة، بمترلة فعْله (فاعَلَ) "[4]. وهذه هي قراءة الأكثر، وبعض السبعة قرأ بالتشديد دون ألف (معجِّزين)[5]، وعلى كلا القرائتين هو اسم فاعل، لكن لكل من الصيغتين دلالتها ومعناها، فمعاجزين يدل على المشاركة ومعناه ظانين أهم يعجزوننا، وقيل معناه: معاندين مشاقين، وأما مُعَجِّزين فبمعنى مثبطين[6].

والحديث هنا عن كفار مكة وبيان كيدهم ومحاولاتهم الكثيرة للطعن في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فجاءت هذه الآية مصورة بكل كلماتها جدّهم ونصبهم في هذا الأمر، نلمح ذلك في التعبير بالموصول الذي يوحي بأن هذا هو ما يُعرفون به ، وصلته

---

[1] انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثاني الجزء الثالث ص٤٢٨ وما بعدها .

[2] عنوان الرسالة : الوصف المشتق في القرآن الكريم، دراسة صرفية للدكتور: عبد الله الدايل ، يفاد منه خاصة في الفصل الثاني الموسوم بـ (دلالات صيغ الوصف المشتق) .

[3] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٥٤٤/٣ ، وأنوار التتريل مع حاشية الشهاب عليه ٥٣٠/٦، وللشهاب نقاش جيد لنوع الحال هنا .

[4] الوصف المشتق في القرآن الكريم ٢١١ .

[5] انظر معاني القرآن للفراء ٢٢٩/٢ ، وجامع البيان المجلد العاشر الجزء السابع عشر ١٨٥، والبحر المحيط ٥٢٤/٧.

[6] انظر جامع البيان المجلد العاشر الجزء السابع عشر ١٨٥،والبحر المحيط ٥٢٤/٧ .

الفعل (سعوا) الدال على شدة الحرص في العمل(١) ، ثم جاءت الحال مصورة هيئة هـــذا السعي حاملة بصيغتها الدلالة على المعاندة والمشاقة والمبالغة في قراءة (معاجزين) ، ودالـــة على الحرص وتكرار هذا العمل وهو التثبيط في قراءة (معجِّزين) كما يوحي به التشديد ، ويمكننا القول بأن هاتين القراءتين تكمل كل منها الأخرى في المعنى ، فالمبالغـــة حاصـــلة والمعاندة ظاهرة ، ومن ذلك التثبيط والصد عن دين الله والحرص علـــى ذلـــك ، يقـــول البقاعي: " (معاجزين) أي: مبالغين في فعل ما يلزم - في زعمهـــم - منـــه عجزنـــا ، و (معجّزين) أي: مقدرين أنهم يعجزوننا بإخفائهم آياتنا وإضلال الناس وصدهم عنها "(٢).

إذاً هذه الصيغة تدل على المبالغة ، وكذلك صيغة (معجزين) تدل علـــى الكثـــرة والمبالغة لدلالة التشديد،يقول الدكتور الدايل:"ويمكن أن يستنبط من قـــراءة (معجِّـــزين) إمكان استفادة معنى التكثير من (معاجزين) فالقرآن يفسر بعضه بعضاً "(٣).

وإذا أردنا أن نقف على دلالة أدق لهذه الصيغة (مُفاعِل) التي هي اسم فاعل فيحسن موازنتها بصيغة أخرى لتتبين لنا الدقة في انتقاء الصيغة القرآنية ، قال الله تعالى:﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٨٧ الأنبياء] .

يقول أبو حيان: "وانتصب (مغاضباً) على الحال"(٤)، قيـــل: خـــرج غـــضبان مـــن قومه،وقيل مغاضباً للملك، وقيل: لربه أي لأجل ربه(٥)، ويقول الطـــاهر بـــن عاشـــور: "والوجه أن يكون (مغاضباً) حالاً مراداً بها التشبيه "(٦)، ولكن ما سر اختيار هذه الـــصيغة هنا ، في حين جاءت صيغة (غضبان) وهي للمبالغة(٧) مع موسى عليه السلام في الموضوع

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧ /٢٩٥ .
(٢) نظم الدرر ١٣/٦٨ .
(٣) الوصف المشتق في القرآن الكريم ٢١٢ .
(٤) البحر المحيط ٧/٤٦١ .
(٥) ينظر في كل هذا جامع البيان المجلد العاشر الجزء السابع عشر ٧٧،٧٨ . والبحر المحيط ٧/٤٦١ .
(٦) التحرير والتنوير ١٧/١٣١ .
(٧) يعد بعض النحويين (فَعْلان) في صيغ الصفة المشبهة ، ومن ذلك ما صيغ عليها من الجوع والشبع ونحوها كالغضب، لكن الذي يظهر أنها إلى المبالغة أقرب لعدم ثبات تلك الأوصاف وملازمتها ، لذا رأيت أن أمثل بهذا الشاهد لصيغ المبالغة خلافاً لمن عده في صيغ الصفة المشبهة كصاحب كتاب : الحال في الأسلوب القرآني ، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه قول الزجاج: ((فَعْلان من أبنية ما يبالغ في وصفه))، معاني القرآن وإعرابه المنسوب إليه ١/٢٤٣ ، وينص أبو حيان على ما نحن فيه بقوله :((و (غضبان) من صفات المبالغة)) البحر ٤/٣٩٤، وينظر أيضاً الوصف المشتق في القرآن الكريم ٣٣٧ وما بعدها .

ذاته ، في آية أخرى هي قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ ﴾ [الأعراف١٥٠](1) .

يقول أبوحيان عن (مغاضباً) "قيل:معناه (غضبان)، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكاً"(2)، وما دام الأمر كذلك فلِمَ لمْ يكن : ذهب غضبان ، مثل : رجع غضبان ؟ .

يظهر - والله أعلم - أن هناك فرقاً بين الغضبين أوجب هذا التغاير في الصيغة، فيونس خرج من قومه على هيئة الغضب، وموسى رجع إليهم على تلك الهيئة ، والغضب من موسى ليس غريباً ؛ لأن قومه فعلوا ما يوجب ذلك من عبادة العجل وإخلاف العهد، ثم هو راجع إليهم يرشدهم ويدلهم وينكر عليهم، ولكن لما كان غضبه شديداً ناسب أن يعبر معه بما يدل على ذلك فقيل: (غضبان) بصيغة المبالغة ، ولم يكن (غاضباً) ؛ لأنها لا تحمل من تصوير شدة الغضب ما تحمله صيغة المبالغة، يقول السهيلي مبيناً سر دلالة هذه الصيغة (فعلان) على المبالغة: " وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان آخره ألف ونون كالتثنية ، فإن التثنية في الحقيقة تضعيف، وكذلك هذه الصفة ، فكأن (غضبان)، و(سكران) حامل لضعفين من الغضب والسكر ، فكان اللفظ مضارعاً للفظة التثنية ؛ لأن التثنية ضعفان في الحقيقة"(3).

وأما الغضب من يونس عليه السلام فكان غريباً ، إذ هو تركهم غاضباً من عدم تحقق ما أُنذروا به من العذاب فخاف أن يوصف بالكذب، ثم هم لم يرجعوا إلا لما قرب انتهاء مدة الإمهال(4)، فهو غضب غريب؛ لأنه حمله على الخروج عنهم لا على دعوتهم كما حصل لموسى عليه السلام ، يقول الطاهر: " فالمغاضبة حينئذ للمبالغة في الغضب ؛ لأنه غضب غريب "(5)، فجاءت هذه الصيغة الغريبة التي لا يكثر تداولها، وبخاصة إذا خلت من دلالة المشاركة،جاءت لتصوير تلك الغضبة الغريبة ؛ ولأنها كانت غضبة شديدة جاءت هذه الصيغة جامعة بين الشدة والغرابة مصوِّرةً تصويراً دقيقاً ما كان عليه يونس

---

(1) ومثلها آية ٨٦ طه .

(2) البحر المحيط ٤٦١/٧ .

(3) نتائج الفكر ٥٤ .

(4) انظر تفصيل ذلك في : جامع البيان المجلد العاشر الجزء السابع عشر ٧٦-٧٨.

(5) التحرير والتنوير ١٣٠/١٧، ١٣١ .

عليه السلام حين ترك قومه دون إذن ربه، ويبدو أن في (مغاضباً) من دلالة الغضب ما ليس في (غضبان) ، لما فيها من المفاعلة والمغالبة ، وكأنه ناتج عن معركة وخصام ، والغضب الذي يُخرِج صاحبه من موطنه ويجعله يترك ما اهتم به من قبل، لهو أعظم من الغضب الذي يأتي بصاحبه ؛ لأن سبب رجوع موسى عليه السلام ليس هو الغضب، بل هو ما خالف فيه قومُه من عبادة العجل ونكث العهد ، وأما يونس فالآية توحي بأن الغضب هو الذي أخرجه وإن تعددت أسبابه ، فلأجل هذه المفارقات اختلفت صيغة الدلالة في هذه المشتقات، والله أعلم بالصواب .

ومن شواهد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [٤٩إبراهيم]، فقوله تعالى: ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ حال من المجرمين؛ لأن الرؤية هنا بصرية[1]، وقد جاء هذا الوصف المروِّع لأهل النار وكيفية دخولهم فيها في قوله تعالى:﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [١٣الفرقان] ، وهو حال من الضمير في ﴿ أُلْقُواْ ﴾ [2]، وقد جاءت هذه الحال بصيغة اسم المفعول من الفعل (قرَّن) على وزن (فعَّلَ)[3]،فقيل:﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾،ولم تكن (مقرونين)؛لأن المقصود هو بيان غاية الذلة والشدة التي هم فيها مع تصوير كثرهم،يقول الرازي:"وجاء هنا على التكثير لكثرة أولئك القوم "[4].

وسواء أكانت أيديهم تقرن إلى أعناقهم بالسلاسل ، أم يقرنون مع شياطينهم[5]، فالصيغة موحية ومصورة للذل الذي يلاقونه حين طرحهم في جهنم على تلك الهيئة المهينة [6]؛ ولم تأت هذه الحال بالفعل فيقال: يُقَرَّنون؛ لأنه ليس المراد استحضار صورة القرن والإفادة بأها مازالت تُنَفَّذ ، بل المراد بيان أن عملية القرن سابقة لدخولهم النار ، فهم يطرحون فيها وهم على تلك الحالة ، وهذا ما تؤديه صيغة ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ الشديدة في

---

[1] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ١٧٩/٣ .
[2] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ١٧٩/٣ .
[3] انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثاني الجزء الثالث ٦١٣ .
[4] مفتاح الغيب ١١٦/١٩.
[5] انظر البحر المحيط ٨٧/٨ .
[6] انظر نظم الدرر ٣٥٥/١٣، وانظر : تدبر سورة الفرقان ٩٨ .

وقعها ، الناقلة لقوة الجبار جل جلاله، المصورة لمهانة المعذبين وحقارتهم، يقول الطاهر بن عاشور: "و﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ حال من ضمير ﴿ أُلْقُوا ﴾ أي: مقرَّناً بعضهم في بعض كحال الأسرى والمساجين، أن يُقرن عدد منهم في وثاق واحد... والمقرَّن : المقرون،صيغت له مادة التفعيل للإشارة إلى شدة القرن"[1].

ومن شواهد المشتق ما جاء على صيغ الصفة المشبهة، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾[٩٣يوسف]، وقوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [٩٦ يوسف]، فـ(بصيراً) حال في الموضعين[2] ، و معناه مبصراً [3]، وسرّ العدول عن اسم الفاعل إلى صيغة (فَعِيل) يبينه أبو حيان فيما نقله حيث ذكر أنه" انتصب (بصيراً) على الحال، والمعنى: أنه رجع إلى حالته الأولى من سلامة البصر ، ففي الكلام ما يشعر أن بصره عاد أقوى مما كان عليه وأحسن ؛ لأن (فعيلاً) من صيغ المبالغة،وما عدل من (مُفْعِل) إلى (فَعِيل) إلا لهذا المعنى ا .هـ "[4]، وهذا - كما لا يخفى- تعليل حسن لدلالة هذا النوع من الصيغ ، وتنبيه جميل لسر اختيار إحدى الصيغتين على الأخرى، لكن أبا حيان لم يرتضِ هذا التعليل بل قال معقباً عليه: "وليس كذلك ؛ لأن (فَعِيلاً) هنا ليس للمبالغة ؛ إذ (فَعِيل) الذي للمبالغة هو معدول عن (فاعِل) لهذا المعنى، وأما (بصيراً) هنا فهو اسم فاعل من بَصُر بالشيء[5]، فهو جار على قياس فَعُل نحو: ظَرُف فهو ظريف، ولو كان كما زعم بمعنى (مُبْصر) لم يكن للمبالغة أيضاً؛ لأن (فَعِيلاً) بمعنى مُفْعِل ليس للمبالغة نحو : أليم وسميع بمعنى مؤلِم ومسمِع" [6] .

وعلى كل حال فصيغة (فَعِيل) مشتركة بين المبالغة والصفة المشبهة، لكنها في الأخيرة

---

[1] التحرير والتنوير ٣٣٤/١٨ .

[2] - انظر التبيان ٧٤٥/٢ .

[3] - انظر المحرر الوجيز ٣٧٥/٩ .

[4] - البحر المحيط ٣٢٤/٦، وقد بحثت عن صاحب هذا القول في مظانه مثل: الكشاف ، والمحرر الوجيز ، ومفاتيح الغيب فلم أجده .

[5] - قلت : كلامه هذا يشعر بتناقض ؛ إذ قرر أن (فعيلاً) الذي للمبالغة هو ما كان معدولاً عن (فاعل)، وهنا يقرر أن بصيراً اسم فاعل من بَصُر ؛ أي باصر، وقد أنكر من قبل أن يكون للمبالغة وهو الآن يقول بذلك ، هذا ظاهر كلامه لكن مقصده غير ذلك بدليل ما قاسه عليه ، يقول الدكتور عبد الله الدايل موضحاً مراد أبي حيان: ((ولا يخفى أنه يعني بقوله : اسم الفاعل ، الصفة المشبهة ؛ لأنه ممن يدخل الباب في الباب))، الوصف المشتق في القرآن الكريم ٢٨٠، ٢٨١ .

[6] - البحر المحيط ٣٢٤/٦ ، وينظر أيضاً روح المعاني المجلد السابع الجزء الثالث عشر ٥٤،٥٥ .

أكثر وأظهر ، ويبدو أن اشتراك الصيغة في المنطوق جعل لها اشتراكاً في المدلول [1]، ومعتمد ذلك ما قرره بعض النحويين كالسيوطي في حديثه عن صيغ المبالغة ثم قوله عن (فَعيل) خاصة: " و فَعِيل لمن صار له [أي الفعل] كالطبيعة"[2]، وقال بذلك الكفوي أيضاً[3]، بل هناك من يعمم ذلك في كل الصيغ فيقول: "وصيغ المبالغة ترجع عند التحقيق إلى معنى الصفة المشبهة ؛ لأن الإكثار من الفعل يجعله كالصفة الراسخة في النفس"[4] ، فعلى هذا فلا ضير أن يكون المعنى: فارتد مبصراً إبصاراً دائماً أعظم من ذي قبل، وهذا أعظم في إظهار القدرة الإلهية، وأبين في الإعلام بنعمة الله على عبده يعقوب، وأوضح تكريم الله لنبيه يوسف عليه السلام .

و هكذا تبين لنا مما سبق تحليله من أنواع المشتقات الواقعة حالاً اختلاف الدلالات بينها، والمسوغات التي سوغت إيثار صيغة على أخرى ، و هذا يجعلنا نقول : إن دلالة الحال المفردة متنوعة ، فهناك الدلالة العامة لما تشترك فيه هذه الأنواع كلها وهو الاسمية وهو ما أفردناه في بحث خاص عن الدلالة الوضعية للاسم ، وهناك الدلالة الخاصة لكل نوع من المشتقات ، و هناك دلالات أخص لجزئيات تلك أنواع ، و هذا يعني أن الدلالة تتنوع تتجزأ ، و تختلف بحسب النظرة التي نُظر إليها بها ، و الزاوية التي منها عُولجت .

---

(1) – انظر الوصف المشتق في القرآن الكريم ٢٧٧ .

(2) – همع الهوامع ٨٨/٥ .

(3) – انظر الكليات ١٠٠٣،١٠٠٤ .

(4) – جامع الدروس العربية ١٩٣/١ .

- الحال الجامدة .

رأينا فيما سبق نماذج من دلالات الأحوال المشتقة وكيف أنها اختلفت صياغتها باختلاف الغرض الذي جلبت من أجله بناء على الدلالة التي تحملها كل صيغة، والحال الجامدة في القرآن ليست قليلة فقد تنوعت بين: دالة على ذات،ودالة على معنى ، وبين ما يدل على الواحد وعلى الاثنين وعلى الجمع، وبين ما يشعر بالتذكير والتأنيث، وقد جاءت دالة على مرادها،درة في موقعها،ونحن مع من يقول بعدم التأويل للجامد مادام بهذه الكثرة:" والأولى أن ينظر في سر جمود الحال واشتقاقها في الأسلوب القرآني،فلكل من الجمود والاشتقاق في الحال دلالته وبلاغته في موضعه" [1].

وبالنظر في الشواهد تبين أن الحال الجامدة جاءت اسم ذات في أكثر من سبعين شاهداً،نصطفي منها نماذج قليلة تعطينا لمحة عن دلالة الحال الجامدة اسم الذات، ومواطن استعمالها،وقد اتضح لي من خلال التمعن في شواهد هذا النوع أنه يندر فيها التعدد حتى لم أجد له إلا شاهداً واحداً هو قوله تعالى:﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [٥٠ الشورى]، ثم هي محتملة مع الحالية غيرها[2].

ومما تختلف فيه الحال الجامدة إذا كانت اسم ذات عنها إذا كانت مصدراً، أن اسم الذات لا يدل على الحدث، بينما المصدر يدل على الحدث ، وهذا ما يجعل الكلمة الدالة على الذات لها استقلالها عن الحدث والزمن ؛ ولهذا نراها في بعض مواطنها (الحالية) تشير إلى العلة أكثر من إشارتها إلى الكيفية ، يوضح ذلك من الشواهـــــــد قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [٦٤ هود]، فكلمة ﴿ ءَايَةً ﴾ حال من ﴿ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ [3] ، وهي تشعر بالعلة التي أمروا من أجلها بالنظر إلى الناقة ، وتفسر تلك الإشارة الهامة والتعريف المميز بالناقة في قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ﴾ ، فكأنه قيل : لماذا ؟ ، فقيل : آية، وعلى تأويل النحويين معناها :دالة بينة ظاهرة [4] ، لكن لو تمعنا لرأينا أن كلمة ﴿ ءَايَةً ﴾

---

[1] - الحال في الأسلوب القرآني ٤٨ .

[2] - مثل المفعولية ل (يزوجهم) إذا ضمنت معنى جعل أو صير ، انظر الفتوحات الإلهية ٤/٧٣ ؟

[3] - انظر الفريد في إراب القرآن المجيد ٢/٦٤١ .

[4] - انظر شرح الرضى ٢/٣٢ ، والبيان ٢/١٩ .

هنا هي التي أوصلت المقصود دون هذا التكلف الذي ربما أبعد المراد،أو على أقل حصره وحجره .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾[٧٤ الأعراف] ، فقد جاءت ﴿ بُيُوتًا ﴾ حالاً من ﴿ ٱلْجِبَالَ ﴾ [١]،والمعنى على التعليل،كأنه قيل: لماذا تفعلون ذلك؟ فقيل:بيوتاً،ومثل ذلك قوله تعالى شأن يوسف عليه السلام:﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [١٩ يوسف] فـ ﴿ بِضَٰعَةً ﴾ حال [٢] معلّلة، " تُظهر ما عزم عليه إخوة يوسف أو السيارة ...، حين أخفوا يوسف عليه السلام بعد خروجه من البئر حياً " [٣] .

وقد جاءت (غير) حالاً في أكثر من ثلاثين موطناً [٤]،من أصل مائة وسبعة وعشرين موضعاً، هي كل ما ورد في القرآن الكريم ، ومعظم تلك الشواهد الباقية مجرورة بالباء (بغير) وأكثرها كان حالاً ، وهذه الكلمة (غير) لها مدلولاتها المتعددة في القرآن[٥]، فهي تأتي للنفي المجرد من غير إثبات وهذا كثير في المجرور منها ، وتأتي بمعنى (إلا) وهذه لم تأت حالاً ، وتأتي لنفي صورة من غير مادتها ، وتأتي متناولة للذات وهذا كثير في الحال .

والملحوظ أن هذه الحال جاءت في مواطن التقييد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١٧٣ البقرة].

وجاءت أيضاً حالاً مؤكدة للإحصان كما في قوله تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ [٢٤ النساء]، وهذه الشواهد وغيرها يظهر فيها أن هذه الحال (غير) تأتي للتقييد من أجل الاحتراس ، وأحياناً للتنويه بشأن صاحب الحال، وأحياناً لتشنيع الموصوف الذي ارتبطت به.

و(غير) إذا أضيفت إلى شيء قامت مقام ضد ما أضيفت إليه؛ لأنها تنفيه فيثبت

---

(١) – انظر الكشاف ٢/٩٠

(٢) – الفتوحات الإلهية ٢/٢٤٣

(٣) – الحال في الأسلوب القرآني ٥٢ .

(٤) – انظر مثلاً ٧ الفاتحة في قراءة ، و ١٢ ، ٤٦ النساء، و ١، ٣ المائدة، و ١٤ ، ١٤٥ ، ١٠٩ الأنعام، و ١٤٠الأعراف ، و٣١ النور .

(٥) انظر المفردات مادة غير ٦١٨،٦١٩ .

عكسه مثل:غير متبرجات: يعني متحشمات، غير منقوص: يعني كاملاً ، غير الحق: يعني الباطل ، ولكن ما سر العدول عن اللفظ الصريح واستعمال (غير) بدلاً منه؟، يجيب على ذلك الطاهر ابن عاشور في تحليله لقوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ [٧٧ المائدة][1] ، حيث يقول: "وعدل عن أن يقال: باطلاً إلى (غير الحق) لما في وصف غير الحق من تشنيع الموصوف، والمــراد أنــه مخالف للحق المعروف فهو مذموم ؛ لأن الحق محمود فغيره مذموم "[2]، وهذا ينطبق على كثير من شواهد (غير) مثل: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ [٦٠ النور]، ففيه إبراز لشناعة التبرج؛ وذلك لما في التعبير بـــ(غير) من ميزة على ذكر مناقضة، كما تبين من كلام ابن عاشور السابق، وفي هذه الآية لم يكن التعبير: يضعن ثيابهن مستترات متعففات ؛ لأن المراد إبراز نفي التبرج ؛ لما فيه من الدلالات التي منها التنصيص عليه بذكره منفياً ، وهذا أوقع في التنفير منه، ومنها الشمولية مع الاختصار فقوله: (غير متبرجات) يعم النهي عن كل تبرج ، ولسنا معه بحاجة إلى تفصيل ، بينما لو قيل بالإثبات لاحتجنا أن نقول: مستترات ، متعففات ، وغير ذلك من الكلمات الدالة على هذا الأمر .

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ [١٠٩هود] فنفي النقص أدل من ذكر الكمال على التوفية، وهكذا تأتي (غير) بدلالتها الخاصة المنطوية على النفي المبرز لشأن ما بعدها قدحاً أو مدحاً في مكانها الذي يطلبها.

وكما جاءت بعض شواهد الحال الجامدة(اسم الذات) للتقييد ، وبعضها للتعليل ، فهناك شواهد وردت لبيان الكيفية ، وبعضها نص في ذلك مثل: (كيف) و (أنّى) ، وقد قاربت شواهدهما العشرين، وسيكون لنا معهما وقفة في موضوع التقديم والتأخير إن شاء الله[3] .

ومما لحظته أن أكثر ما يبين الهيئة من الحال الجامدة (اسم الذات) غير (كيف) و(أنّى)

---

[1] (غير) في الآية محتملة للحالية ولغيرها، انظر التبيان ١/٤٥٤ .

[2] التحرير والتنوير ٦/٢٩٠ .

[3] – انظر ص ١٩٧من هذا المبحث .

قد جاء مجموعاً مثل: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ [٧١ الزمر] ، وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [٨ النبأ]،وقوله تعالى:﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [٢ النصر].

وسنقف مع آية واحدة منها، وهي قوله تعالى :﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ [٣٦، ٣٧ المعارج]، فـ﴿ عِزِينَ ﴾: حال من ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أو من ضميرهم في ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ [١]، وهذه الحال بدلالتها المميزة النابعة من اختيار لفظتها المعبرة " تكشف حال المنافقين[٢] الذين كانوا يسارعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويتحلقون حوله استهزاءً به وسخرية منه "[٣] ، وهذه اللفظة تدور حول معنيين، إما الانتساب فتكون من العزو، وإما التأسي فتكون من التعزي[٤] ، ولعل هذا يكشف سر اختيار هذه اللفظة ودقة تصويرها لحال الكفار، وطريقة اجتماعهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فهم يتسابقون إلى التحلق حوله صلى الله عليه وسلم في جماعات متفرقة، لا إيماناً به وحرصاً على الفائدة بل انتساباً إلى أصل معتقدهم الفاسد الذي يجتمعون عليه ، وتأسياً بكبرائهم وقادهم في الكفر والكيد ، أو كل جماعة بالأخرى ، يقول سيد قطب –رحمه الله– مبيناً هذا المعنى :" وفي التعبير تهكم خفي بحركتهم المريبة، وتصوير لهذه الحركة وللهيئة التي تتم بها ، وتعجب منهم ، وتساؤل عن هذا الحال ! وهم لا يسرعون الخطى تجاه الرسول ليسمعوا ويهتدوا ، ولكن فقط ليستطلعوا في دهشة، ثم يتفرقوا كي يتحلقوا حلقات يتناجون في الكيد والرد على ما يسمعون [٥] ، وهذه الحال جاءت في موطن الذم لصنيعهم، ولذا جاء " في بعض الآثار ما يشعر بأن الأولى أن لا يجلس المؤمن عزين ؛ لأنه من عادة الجاهلية" [٦] .

هذه بعض الإشارات الموضحة لمدلول الحال الجامدة إذا كانت اسم ذات ، بقي منها

---

[١] – انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٥٣١/٤، الفتوحات الإلهية ٤٠٧/٤ .

[٢] – لعل المقصود كفار مكة عند سماعهم للقرآن، فهو أقرب ويؤيده سبب النزول، إذ كانوا يجتمعون حول الكعبة في جماعات يسمعون ويستهزئون، انظر روح المعاني المجلد الخامس عشر الجزء التاسع والعشرين ٨٠ .

[٣] – الحال في الأسلوب القرآني ٥٦ .

[٤] – انظر المفردات مادة عزا ص٥٦٥ .

[٥] – في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٢ .

[٦] – روح المعاني المجلد الخامس عشر الجزء التاسع والعشرون ٨٠ .

ما أشار إليه عبد الستار سعيد بقوله: " وبالوقوف عند الحال الجامدة - غير مصدر - في القرآن تبين لي شيوع الجمود في الآيات المكية فقد وردت هكذا في اثنين وأربعين موضعاً مكياً"[1]،ولعل سر ذلك ما تحمله الكلمات الجامدة من مباشرة في إظهار المعنى والتنصيص على المقصود،ولما فيها من الشدة التي تُلمحُ إليها تسميتهم لها بالجامد.

أما الحال الجامدة المصدر فقد كثرت في القرآن " كثرة تستحق النظر والتأمل فقد بلغ مجموع ذلك ... مائة وسبعة شواهد " [2]، جاءت على أكثر من عشرين وزناً من أوزان المصادر ، وكان أكثرها وروداً ما كان على وزن (فَعْل) ثم (فِعَال) ثم (فَعَل) ثم (فَعَال) ، والسمات البارزة في المصادر فيما نحن بصدده تتضح فيما يأتي :

الأول:الدلالة على المبالغة في تصوير الحال، وذلك في سبيل التأكيد عليها، أو النهي عنها والتنفير منها ، وهذان الموضوعان المدح والقدح هما الطاغيان في موضوع تلك المصادر.

الثاني : الدلالة الأوسع على المعاني ففي غالب الأحوال الواقعة مصدراً يصح تقدير الحال من الفاعل أو المفعول أو منهما معاً أو من غيرهما ، وهذا الاتساع لا نجده في غير المصدر ، وكذلك الأمر بالنسبة للتذكير والتأنيث ، والتثنية والجمع .

الثالث : كثرة التعدد في المصادر الواقعة حالاً ، وقد اجتمع لي منه ما يقارب العشرين[3]، ومما يلحظ على تلك الأحوال المتعددة أنها لا تخرج عن صورتين : صورة التضاد، وصورة التوافق والتأكيد ، وجاءت كلها معطوفة إلا قوله تعالى:﴿ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [٤ النساء]، وللتعدد موطنه الذي سيأتي إن شاء الله .

ومما جاء من المصادر في سياق المدح قوله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه : ﴿ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴾ [٩٣ الصافات]، فـ ﴿ ضَرۡبَۢا ﴾ مصدر وهو حال [4] من فاعل (راغ)،

---

[1] - الحال في الأسلوب القرآني ٦٣ .

[2] - الحال في الأسلوب القرآني ٦٣ .

[3] -من ذلك قوله تعالى:﴿ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾[٨٣ آل عمران، ١٥ الرعد]، وقوله تعالى:﴿ خَوۡفٗا وَطَمَعًا ﴾[٥٦ الأعراف، و١٢ الرعد،و٢٤ الروم،و١٦ السجدة]،وقوله تعالى:﴿ سِرّٗا وَجَهۡرًا ﴾[٧٥ النحل]،وقوله تعالى:﴿ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾[٢٧٤ البقرة،و٢٢ الرعد،و٣١ إبراهيم،و٢٩ فاطر].

[4] - انظر التبيان ١٠٩١/٢ ، والبحر ١١١/٩ وهو أول الوجهين عنده وبه جزم الطاهر بن عاشور ، انظر التحرير والتنوير ١٤٤/٢٣ .

وجاءت الآية هنا بالمصدر (ضرباً) دون المشتق (ضارباً) لما في المصدر من خصيصة المبالغة في الدلالة على المقصود، وقد أحسن البقاعي في تعليل ذلك إذ يقول : "وجعل السياق للمصدر إشارة إلى قوة الهمة بحيث صار كله ضرباً "[1].

والسياق كله يستدعي القوة والفتوة؛لأنه في مقام إزالة أعظم المنكرات: الإشراك بالله؛ لذا جاء السياق حاملاً من دلالات القوة ما يصور ذلك الموقف، وهذا ما يرجح القول بالحالية على القول بالنصب على المصدر؛ لأن في الحالية تصويراً لما كان الحال عليه إذاك، وهي تحمل معنى التأكيد الذي في المصدر وزيادة،ومن صور القوة في هذا السياق زيادة على التعبير بالمصدر(ضرباً)تعدية(راغ) بـــ (على)،يقول البيضاوي:"والتعدية بعلى للاستعلاء" [2]والاستعلاء من رموز القوة،وكذلك التقييد باليمين فهو " للدلالة على قوته؛ فإن قوة الآلة تستدعي قوة الفعل" [3]،ولعله اتضح أن السياق كله يجري في مضمار القوة،ولما كان المصدر يحمل من دلالة القوة والشدة مالا يحمله المشتق أوثر التعبير به عليه[4].

وجاء المصدر حالاً في شواهد مدارها النهي أو الذم من ذلك قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [١٠النساء].

يقول الزمخشري:" (ظلماً) : ظالمين أو على وجه الظلم من أولياء السوء وقضاته"[5]، وقوله (ظالمين) يوحي بقوله بالحالية، وبه صرح أبوحيان في أحد الوجهين عنده فقال: "وانتصاب (ظلماً) على أنه مصدر في موضع الحال أو مفعول من أجله"[6]، ويرى الطاهر ابن عاشور أن الحال هنا " مُقيِّد ليخرج الأكل المأذون فيه "[7] ، وهو ما كان بالمعروف،ولكن ما سر إيثار المصدر هنا دون (ظالمين)؟، إن معاد ذلك إلى أن المصدر فيه إشعار بأن فعلهم ذلك هو عين الظلم،وفي ذلك غاية التشنيع عليهم والنهي لهم عن فعلهم.

---

(١) – نظم الدرر ٢٥٧/١٦ .

(٢) – أنوار التنزيل مع حاشية زادة عليه ١٥٩/٤ .

(٣) – أنوار التنزيل مع حاشية زادة عليه ١٥٩/٤ ، وانظر التحرير والتنوير ١٤٤/٢٣ .

(٤) –وينظر أمثال ذلك مما جاء في مدح المؤمنين قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ [٤الصف]، انظر البحر ١٦٤/١٠ وحاشية زادة ٣٨٩/٤ ، وينظر أيضاً: ٢، ٢٦٥، ٢٧٤ ، البقرة ، و١٩١ آل ،و ١٠٣ النساء،و ١١٥ الأنعام ، و ٧٥ النحل وغيرها .

(٥) – الكشاف ٤٧٩/١ وتبعه البيضاوي ، وفسر الشهاب قوله: (ظالمين) بالحالية، انظر حاشية الشهاب على البيضاوي ٢١٦/٣

(٦) – البحر المحيط ٥٣٠/٣ .

(٧) – التحرير والتنوير ٢٥٤/٤ .

فإن قيل قد جاء النهي عن أكل الأموال بصيغة أخرى هي الواردة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ١٨٨] [(١)]، فلم اختصت كل آية بما جاءت عليه النظم مع التشابه في الموضوع والسياق؟.

ولو تأملنا هاتين الآيتين لوجدنا أن آية النساء تتكلم عن صنف معين هم اليتامى وتشنع على الأوصياء الذين لا يراعون تلك الأمانة ، يقول ابن عطية " وقال أكثر الناس: نزلت في الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبح لهم من مال اليتيم ... "[(٢)] ، وأما آية البقرة فهي للناس عامة [(٣)] ، ولما كان الوصي على مال اليتيم يجوز له أن يأكل بالمعروف إن كان فقيراً كما قال تعالى:﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [٦ النساء] ، عُــلِم أن ما لم يكن على هذه الحال كان ظلماً؛ لأنه بغير وجه الحق الذي أباحه الله، يقول الراغب :" والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء : وضع الشيء في غير موضعه المختص به ، إما بنقصان أو بزيادة ، وإما بعدل عن وقته أو مكانه " [(٤)] ، وهذا عين ما يفعله بعض الأوصياء، إما باهتبالهم فرصة السماح لهم بالأكل فيتجاوزون الحد فيضعون هذا الأمر (الجواز) في غير موضعه ، يقول ابن عطية : " (ظلماً) معناه : ما جاوز المعروف مع فقر الوصي"[(٥)]، وإما بزيادتهم في أخذ المقرر لهم ، وإما بإنقاص اليتيم حقه ، وإما بصرف مال اليتيم والعدول به عن مكانه الصحيح أو وقته المناسب إضراراً باليتيم ، وهكذا نرى انطباق هذا المعنى اللغوي على ما يحصل من الأوصياء تجاه أموال اليتامى، فجاءت هذه الكلمة (ظلماً) جامعة لكل هذه المعاني؛ لما في المصدر من سعة المدلول ، وهذا ما يفسر إيثار هذه اللفظة على غيرها ، وبهذا عرفنا سر مجيئها مصدراً دون المشتق (ظالمين) ،وبقي أن نعلم سر مجيء آية البقرة على ما جاءت عليه: (بالباطل) .

السر–والله أعلم– أن آية البقرة جاءت في سياق عام لجميع المؤمنين منبهة لهم من

---

(١) – قوله تعالى: (بالباطل)يحتمل الحالية من الأموال، أو من الآكلين، انظر التبيان ١٥٦/١.

(٢) – المحرر الوجيز ٣١/٤ .

(٣) – انظر التحرير والتنوير ١٩٠/٢ فقد رد من خصصها بسبب النزول .

(٤) – المفردات مادة ظلم ص ٥٣٧ .

(٥) – المحرر الوجيز ٣٢/٤ .

الوقوع في حبائل الجاهلية ومحذرة لهم منها،وناهية لهم عن سلوك سبيلهم في ذلك، يقول الطاهر بن عاشور:" وهذا من جملة... الأحكام المشروعة لإصلاح ما اختل من أحوالهم في الجاهلية...[فقد] كان أكل المال بالباطل شنشنة معروفة لأهل الجاهلية، بل كان أكثر أحوالهم المالية؛فإن اكتسابهم كان من الإغارة ومن الميسر،ومن غصْب القوي مالَ الضعيف،ومن أكل الأولياء أموال الأيتام واليتامى،ومن الغرر والمقامرة،ومن المراباة ونحو ذلك "[(١)] .

وهكذا لما كانت الآية عامة مذكرة بأحوال متعددة للحصول على الأموال ، وتلك الأحوال كلها باطلة ناسب تذكيرهم بذلك ، فقال: ﴿ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ أي مصاحبين للباطل ، أو هي مصاحبة وملتبسة بالباطل ، والحقيقة أن الباء هنا تعطينا مدلولاً خاصاً ، وهو أن أولئك الذين يحصدون الأموال بغير وجهها ، لابدَ أن يسلكوا طرقاً ملتوية ملتبسين حينئذ بإحدى تلك الطرق الباطلة، فلم يكن ليصلح أن يقال : لا تأكلوا أموالكم بينكم مبطلين ، أو باطلاً ، لتغير المعنى والمدلول ، ولا يصلح أيضاً :ظلماً؛ لأن الظلم أظهر ما يكون في حق المستضعفين، وما ذكر قد يكون بعضه من مقارعة الخصوم والمنازعات والغارات، وهم يرون أن ذلك من الحق فجاء إبطال ذلك بنقيض ما كان يعتقدون أنه من حقهم فقيل: ﴿ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾.

أما آية النساء فلما كان اليتامى من المستضعفين، وكانت الشفقة عليهم أعظم والإحسان إليهم أفضل من غيرهم،كان الاعتداء على أموالهم وخاصة من أوصيائهم في غاية الظلم،وتصويراً لتلك الشناعة وشدة المضاضة جاءت الحال مصدراً لا غيره .

ومما يجمع بين دلالة الاشتقاق والجمود(الحال الموطئة)، وهي التي ضبطها الرضي بقوله :"إنها اسم جامد موصوف بصفة هي الحال في الحقيقة، فكأن الاسم الجامد قد وطأ الطريق لما هو حال، لمجيئه قبلها موصوفاً "[(٢)] .

والحقيقة أن في هذا النوع تميزاً عن بقية أنواع الحال في القرآن الكريم ، وذلك أنه لابد له من اسمين أحدهما جامد وهو المقدم، والثاني مشتق وهو المؤخر ، وشواهد هذا

---

(١) – التحرير والتنوير ١٨٦/٢ .

(٢) – شرح الرضي ٣٢/٢ .

النوع ليست بالكثيرة [١] ، لكنها تستحق الوقوف والتأمل ومحاولة التفسير لوجود هذين الاسمين ، وضرورة بيان أيهما الحال والسر في وجود الكلمة الأخرى .

لقد درس النحويون هذا النوع واختلفت آراؤهم فيه، فقسم منهم رأى أن الحال هو المشتق الواقع بعد الاسم الجامد ، ومن هؤلاء الرضي [٢] وقسم يرى أن الحال هو الجامد ، ومن هؤلاء ابن هشام [٣] ، ويبدو أن أصحاب هذا الرأي أكثر ، وأن رأيهم أصوب وبالقبول أجدر ، وقد وجدت أن تعليلات النحويين في أقوالهم مبنية على الكلمة التي وطأت لوجود الثانية، أهي المشتق أم الجامد؟ .

وذلك راجع لقول كل منهم في تحديد الحال في مثل هذا الأسلوب، فمنهم من يرى أن الاسم الجامد هـــــو الذي وطأ لذكر الوصف بعده بناء على القول بأن المشتق هو الحال [٤]، وبتوطئة الجامد للمشتق يقول ابن هشام [٥]، لكن الحال عنده هو الجامد ، فهو يوافق الرضى في الكلمة الموطِّئة ، ويخالفه في الكلمة الحالية .

ومما يُلمَح عند الرضى أن الحال هي المقصودة وهي المشتق عنده ، وما الجامد إلا توطئة وتمهيد لها ، بينما يُلمَح عند ابن هشام أن الوصف هو المقصود وما الحال -وهي الاسم الجامد- إلا ممهدة لها، وبسبب هذا الاختلاف سميت موطِّئة ، وموطَّأة : باسم الفاعل واسم المفعول، وهناك من يرى أنهما حالان وهو ابن الأنباري[٦] وسنرى أن هناك

---

(١) - أورد لها عضيمة - رحمه الله - ستة شواهد فقط ، انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الثالث ص٣٦،٣٧ ، وصرح صاحب الحال في الأسلوب القرآني بأن هذه الحال جاءت في القرآن الكريم في اثني عشر موضعاً، انظر ص١٢٢ الحاشية ، وقد تبين لي أن شواهدها أكثر من ذلك فقد جاءت بلفظ ﴿قرآناً عربياً﴾في خمسة مواضع ، وبلفظ ﴿حلالاً طيباً﴾ في أربعة مواضع ، وبلفظ ﴿إلهاً واحداً﴾، و ﴿بشراً سوياً﴾، و﴿رطباً جنياً ﴾ في موضع واحد، وكل ذلك منصوص عليه في صلب البحث،وجاءت أيضاً بلفظ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾١٢الأحقاف،و﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾٥الدخان،و﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ٣٢الفرقان، و ﴿ أُمَّـةً وَاحِدَةً ﴾ ٩٢الأنبياء ، ومما لم يذكر ﴿ هَدْيًا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ ٩٥ المائدة فهدياً: حال، وبالغ :صفته انظر الدر المصون ٢٤١،٢٤٢/٤،و﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ٤٩الإسراء على كون (خلقاً):حالاًو(جديداً)صفة له وبه تحصل الفائدة،انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢٨١/٣،﴿ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ ١٤المؤمنون على القول بحالية (خلقاً) فآخر صفته، انظر إعراب القرآن وبيانه للدرويش ٤٩٩/٦،وغيرها وبهذا نعلم أن شواهد الحال الموطئة تقارب العشرين، ولكنها إذا قيست بشواهد الحال كلها كانت قليلة.

(٢) - انظر شرح الرضي ٣٢/٢ .

(٣) - انظر مغني اللبيب ٥٣٦/٢ ، وشرح التصريح على التوضيح ٣٧١/١ .

(٤) - هذا رأي الرضي، انظر شرح الرضي ٣٢/٢ .

(٥) - انظر مغني اللبيب ٥٣٦/٢ .

(٦) - انظر البيان ٣٢/٢ .

من المعربين من يأخذ بهذا الرأي .

وما يظهر من تأمل الشواهد القرآنية أن المقصود هو الجامد ، وما الوصف إلا تكميل له وتوفية للمعنى ، بدليل أننا لو حذفنا الوصف لبقي المعنى مقبولاً وقائماً بالمراد ؛ ولذا فالذي تميل له النفس " أن الحال هي الجامد وما بعدها وصف لها، ولا داعي لكدّ الذهن فيما قاله النحاة ــ غير هذا ــ فهو لم يكشف لنا سر تعبير القرآن عن هذه الحال بهذه الكيفية"[1]

وسنحاول الآن التمعن في هذا الأسلوب والإدلاء بقدر الاستطاعة بما ييسر الله لكشف سر هذا التعبير ، فهذا أولى – في نظري – من الخوض في قضايا جانبية قد تخرجنا عما نحن بصدده .

مما يلفت النظر في هذا الأسلوب أنه ليس شائعاً في القرآن، فإذا حذفنا المكرر منه كانت شواهده قليلة معدودة وسنحاول تلمس خصائصها ، وبيان مواطنها ومواضعها ، ومما يلفت النظر أيضاً أن ما يخص القرآن هو أكثر الشواهد تكراراً ، فهل يعني هذا أن لموضوع الحال أثراً في صياغة هذه الحال على ما جاءت عليه ؟ نقول هذا ما لاشك فيه ، فلقد جاءت هذه الحال متعلقة بالقرآن وما يختص به في سبعة مواطن منها قولـــــه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [٢ يوسف][2] .

ولو عدنا إلى تلك الشواهد لوجدنا أن وجود الوصف بعد الحال هو بمثابة الاحتراس أو التكميل؛ لأن القرآن جاء آية للعالمين أجمعين لكنه كان للعرب أظهر ؛ لأنه بلغتهم ولذا تحداهم الله وهم أرباب البيان أن يأتوا بمثله ، فلو قيل : (قرآناً) من غير ذكر (عربياً) لربما توهم أنه بغير لغة العرب فيسقط موضع التحدي ، لذا كان ذكر هذا الوصف تأكيداً مستمراً لصفة هذا القرآن ، وتبييناً لكل لبس أو شبهة ، واحتراساً من فهم غير المراد ، يقول عبد الستار سعيد :"وأرى أن في تعبير القرآن عن الحال بهذه الكيفية – اسم جامد موصوف – إضافة قيد إلى قيد، أي أن في وصف الحال وهي قيد تقييداً لهذا القيد في

---

[1] – الحال في الأسلوب القرآني ١٢٢ .

[2] – ومثلها: ٢٨ الزمر ، ٣٥ فصلت، ٧ الشورى، ٣ الزخرف، وجاءت بلفظ ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ في ١٢ الأحقـــاف ، و بلفظ ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ في ٣٢ الفرقان .

معرض الوصف للقرآن الكريم بأنه من جنس كلام العرب وهم فصحاء أبيناء ، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، مما يوحي إلى العرب في كل حين أن يهتموا بالقرآن الكريم فهم أهله وعليهم تبعة حفظه ونشره للبشرية"[١].

وهذا تعليل حسن وملحظ شريف ، لكنني ما زلت أقول إن ملحظ الاحتراس هنا له وجاهته، وهذا ما يفسر اختصاص هذا التركيب بشواهد قليلة في القرآن .

ومما لم يأت إلا على هذه الصورة- الحال الموطئة- ما جاء في شأن الرزق وأمر الله عباده بأكل الحلال الطيب منه،كما في قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [١٦٨ البقرة][٢] .

وتعليل ذلك - والله أعلم - هو ما قدمناه من أن المراد وهو الاحتراس لاحتمال الكلام غير المراد لو حذفت الصفة ، ومجيء هذه الصفة يوجه الفهم إلى المراد الصحيح ، وهذا يعني أن هذا الوصف (طيّباً) قد جاء بمعنى جديد فهو ليس وصفاً كاشفاً جيء به للتأكيد فقط ، وقد نبه أبو حيان إلى هذين المسلكين بقوله :"(طيّباً) انتصب صفة لقوله: ﴿ حَلَـٰلًا ﴾ ، إما مؤكدة؛ لأن معناه ومعنى ﴿ حَلَـٰلًا ﴾ واحداً، وهو قول مالك وغيره ، وإما مخصصة ؛ لأن معناه مغاير لمعنى الحلال ، وهو المستلذ، وهو قول الشافعي وغيره ؛ ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر وكل ما هو خبيث"[٣] .

ولعل قول الشافعي هو الذي تؤيده اللغة ودقة دلالة كلماتها ؛ فلا شك أن هناك سراً وراء هذا القيد! ومما يزيد الاهتمام بذلك التزام الأسلوب القرآني بهذا التركيب في عرض هذه القضية فهل يعني هذا أن الحلال يمكن أن يكون طيباً ، ويمكن أن يكون غير طيب ؟ هذا ما يظهر-أول الأمر- من زيادة هذا القيد (طيّباً) ولعل هذا ما يشير إليه البقاعي فيما نقله عن الحرالي إذ يقول:" (حلالاً) : قال الحرالي: هو ما انتفى عنه حكم التحريم فينتظم بذلك ما يُكره وما لا يُكره ،...ثم أشار إلى أن ما يحرم خبيث بقوله :﴿ طَيِّبًا ﴾ [٤] أي

---

[١] - الحال في الأسلوب القرآني ١٢٣ .

[٢] - ومثلها ٨٨ المائدة،و ٦٩ الأنفال،و ١٦ النحل فهذه أربعة مواطن، وهي كل ما في القرآن .

[٣] - البحر المحيط ١٠٠/٢ ، وقد ذكر ابن عطية قبله كل هذا ، انظر المحرر الوجيز ٤٣/٢ وقد آثرت عبارة البحر ؛ لأنها أوضح وأظهر .

[٤] - نبه إلى قريب من هذا الرازي من قبل حيث قال :((والحلال يوصف بأنه طيب ؛ لأن الحرام يوصف بأنه خبيث)) مفاتيح الغيب ٣/٥.

غير خبيث ولا مستقذر ، والأصل فيه ما يستلذ..."[1].

وإذا كان ذلك كذلك فلا غرابة في جلب هذا الوصف ؛ لأنه ليس كل ما لم يكن محرماً يكون طيباً تقبله النفس ، بل هناك ما تستقذره النفس وتعافه ، كما ذكر عن الشافعي من قبل ، وعلى هذا يكون القيدان مطلوبين يقـــول أبو حيان : " وظاهر الآية أن ما جمع الوصفين الحل والطيب مما في الأرض فهو مأذون في أكله"[2]،و يقول الحرالي:"الحلال مطلوب لُيكتسب لا ليؤكل حتى يطيب،والطيب ما لا منازع فيه"[3].

وينص الألوسي على علة الوصف بالطيب فيقول :" وفائدة وصف الحلال به تعميم الحكم كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّـةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [٦ هود] ليحصل الرد على من حرم بعض الحلالات؛فإن النكرة الموصوفة بصفة عامة تعم بخلاف غير الموصوفة"[4]،ورد قول الشافعي واستدلاله بأن ما لا يستطاب "إما حلال لا شبهة فيه فلا منع،وإلا خرج بقيد الحلال"[5]،وأجاب عن الاعتراض بأن الحلال ما نص الشارع عليه، والطيب ما لم يرد فيه نص لكنه مما يستلذه ويشتهيه الطبع السليم،ثم قال ختاماً لكلامه:"...وتكون فائدة التوصيف حينئذ التنصيص على إباحة ما حرموه "[6].

وللطاهر ابن عاشور وجهة أخرى هي أن " حلالاً طيباً: حالان من (ما) الموصولة أولهما لبيان الحكم الشرعي ، والثاني لبيان علته ؛ لأن الطيب من شأنه أن تقصده النفوس للانتفاع به، فإذا ثبت الطيب ثبتت الحلية ؛ لأن الله رفيق بعباده لم يمنعهم مما فيه نفعهم الخالص أو الراجح..."[7].

ومما يؤيد أن هذا الوصف له شأنه، ذكره وحده بعد ذلك بقليل فيما يخص المؤمنين

---

(1) – نظم الدرر ٣١٨/٢،٣١٧ .

(2) – البحر المحيط ١٠١/٢ .

(3) – نظم الدرر ٣١٨/٢ .

(4) – روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٣٨ .

(5) – روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٣٨.

(6) – روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٣٨.

(7) – التحرير والتنوير ١٠٢/٢، ويظهر من كل ما سبق أنه يمكن جمع التعليلات لورود هذا الوصف فيما يأتي :
١- التوكيد ٢- التخصيص ٣- تعميم الحكم ٤- التنصيص على الإباحة ٥- بيان علة الحكم الشرعي
٦- الاحتراز عما يضر أو يستقذر أو يكون سبيله حراماً ، وهذا التعدد يدلنا على ثراء اللفظ القرآني وسعة مدلوله .

في قوله تعالى :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [١٧٢ البقرة] (١)؛ وذلك لأن الحلال قد يلحق الآكل منه ضرر بسبب عدم توافقه مع صحته فيكون حلالاً ولا يكون طيباً، ولعل هذا ما أشار إليه البقاعي في حديثه عن هذه الآية وبيان سر الاقتصار على ذكر الطيب مع المؤمنين حيث قال :"وخص هذا الخطاب بلفظ الحلال(٢) لما كان آخذاً رزقه من السماء متناولاً طيِّبه لبراءته من حال مما في الأرض مما شأنه ضر في ظاهر،أو أذى في باطن "(٣) ، وهذا ما نص عليه القاسمي حيث قال عن الحلال :" وهو ما انتفى عنه حكم التحريم ، (طيّباً) أي: مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ولا العقول "(٤) .

ونخرج من هذا أن كلمة (حلالاً)، تعني التحليل العام للمطعومات والمشروبات ، وقد يعرض لها ما يجعلها حراماً إما بسبب كسبها، أو ضرر يلحق آكلها فلا تكون طيبة، فالحبوب والثمار مثلاً في أصلها حلال لكن لو جاءت للآكل عن طريق محرم كالسرقة والغصب كانت خبيثة وحرمت عليه ، وكذلك لو عرض لها ما يجعلها غير صالحة من تلوث أو نجاسة، فإنها تكون خبيثة لا يجوز أكلها، ومن هنا نعلم قدر أهمية هذا القيد مع الحال الأصلية، والله أعلم (٥) .

ومن شواهد الحال الموطئة أيضاً قوله تعالى:﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [١٧ مريم] ، يقول أبو حيان :" وانتصب (بشراً سوياً) على الحال... قيل: وإنما تمثل لها في صورة الإنسان لتأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت و لم تقدر على استماع كلامه ، ودل على عفافها وورعها أنها

---

(١) - وللوقوف على أسرار اختلاف الآيتين ١٧٢،١٦٨ البقرة يطالع ما ذكره البقاعي في نظم الدرر ٣٣٥/٢، وما بعدها ومما يؤيد ذلك أيضاً ما جاء في الحديث الذي فسر به الرسول هذه الآية((أن سعد بن أبي وقاص قال يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال :يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ...)) ذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٢٠٣/١، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد :((وفيه من لم أعرفه)) ٢٩١/١٠.

(٢) - أظن الصواب (الطيب) بدلاً من الحلال ؛ لأنه لا ذكر للحلال هنا ، بل مخالفة هذه الآية عن سابقتها العامة هو في الاقتصار على الطيب دون الحلال .

(٣) - نظم الدرر ٣٣٦/٢ .

(٤) - محاسن التأويل ٢٧/٣ .

(٥) - ومن نظائر ذلك ٨٨ المائدة ، انظر: التبيان ٤٥٧/١ ، والبحر المحيط ٣٥٠/٤ ، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٥٣٥/٣ ، و ٦٩ الأنفال ، انظر: البحر المحيط ٣٥٤/٥ ، والتحرير والتنوير ٧٩/١٠ .

تعوذت به من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن ، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبراً لعفتها "[1] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [٢٥مريم].

يقـــول البقاعي :" رطباً جنياً: طرياً آية أخرى عظيمة تُطَيب النفس وتذهب بالحزن وتدل على البراءة "[2] .

والجنيُّ هو:المجتنى "وهو كناية عن حدثان سقوطه،أي عن طراوته ولم يكن من الرطب المخبوء من قبل؛لأن الرطب متى كان أقرب عهداً بنخلته كان أطيب طعماً"[3].

ولعله اتضح من هذه الشواهد أن هذا الأسلوب جاء في مواطن يحتمل الاسم الجامد (الذي هو الحال) فيها معان قد لا تكون مراده، أو أن تحديد الغرض يبقى مقيداً بذكر الوصف ، أو أن في السياق ما يشعر بغير المراد،وإلى هذه الخصيصة أشار السمين في تعليله لذكر الحال في هذا الأسلوب (الحال الموطئة) في قوله تعالى : ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[١٣٣ البقرة]، حيث قال : " وفائدة ... الحال التنصيص على أن معبودهم فرد؛ إذ إضافة الشيء إلى كثير توهم تعداد المضاف ، فنص بها على نفي ذلك الإبهام ، وهذه الحال تسمى حالاً موطئة"[4]، وهذا منطبق على الشاهدين السابقين أيضاً ، فالإخبار عن جبريل بأنه تمثل (بشراً) قد يوهم أنه كان في صورة بشرية مروعة بناء على عظم خلقه في الصورة الملكية، فجاءت هذه الصفة لبيان الصورة الحقيقية التي تمثل بها ، زيادة على ما ذكر في ذلك من التأنيس لمريم وتسكين روعها وبيان مقدار عفافها .

وكذلك ﴿ جَنِيّٗا ﴾ فهو وصف يحدد المراد ويظهر المعجزة الإلهية [5]، ويبعد ما ليس

---

[1] - البحر المحيط ٧/ ٢٤٨ ، وانظر الدرر ١٢/ ١٨٣ ، والتحرير والتنوير ١٦/ ٨٠ ، والحال في الأسلوب القرآني ١٢٤ .

[2] - نظم الدرر ١٢/١٨٩ .

[3] - التحرير والتنوير ١٦/ ٨٨ .

[4] - الدر المصون ٢/ ١٣٢ .

[5] - يقول الدكتور عبد الستار سعيد :((وفي وصف الرطب بـــــ(جنياً) ما يشير إلى عظمة المعجزة الإلهية ، فمريم تهز النخلة فتسقط عليها النخلة رطباً طرية ، وليس ثمة رطب ، مما يظهر قدرة الله عز وجل)) الحال في الأسلوب القرآني ١٢٤،١٢٣.

بمراد إذ لو قيل: (رطباً) فقط، لربما توهم أنه رطب فاسد ، وكان سقوطه بسبب رداءته فلما قيل: (جنياً) علمنا أنه سقط في وقته الذي يكون فيه أفضل ما يكون نضجاً وطعماً .

ومما يلحظ على هذا الأسلوب - زيادة على ما ذكر - أنه جاء في مجمله في معرض الثناء سواء على القرآن أو الرزق ، أو غيرهما و لم يخرج عن ذلك إلا ما كان حكاية لكلام الكفار في إنزال القرآن جملة واحدة؛ وربما يفسر لنا هذا سرَّ الاحتراس بذلك الوصف المبيِّن للمدلول الدقيق للمراد، فإنه ربما يَفْسُد معنى المدح وينقلب المعنى أحياناً ، وأقل ذلك ألا يُبْلَغَ بالممدوح المبلغ المراد، بسبب نقص في إكمال المدح وإتمام العبارة ، فجاءت هذه الأوصاف تتميماً للكلام ليبلغ مدح ما مُدح غاية الثناء وكمال الوصف .

ب- دلالة التنكير والتعريف .

الأصل في الحال - كما قرر النحويون - أن تكون نكرة ، وبعضهم يجعل ذلك شرطاً لازماً[1] ، ويعللون ذلك بعلل منها ، أن الحال للتقييد ، وذلك يكون بالنكرة فلا معنى للتعريف؛ لأنه يقع ضائعاً ، ومنها أن الحال في أصله واقع جواباً عن (كيف)، وهي للسؤال عن النكرة، ومنها: أن الحال إخبار عن صاحبها والأصل في الخبر التنكير ، ومنها أن التنكير يبعد توهم كونها صفة عند نصب صاحبها [2] .

وكما هو ظاهر فبعض هذه التعليلات فيه وجاهة ، وبعضها لا يرقى لدرجة التعليل ولا يصمد أمام التأمل كالأخير، ولن ندخل في تلك المناقشات النحوية بل سننظر ما في القرآن الكريم مما يخص هذا الموضوع، ولن نحتاج إلى جهد كبير كي نقول: إن الحال النكرة هي الطاغية الفاشية في القرآن الكريم، بل لو قلنا إن الحال المعرفة لا تكاد تذكر معها، لم نجاوز الحقيقة؛ لأن شواهد المعرفة قليلة جداً ، لاتصل الخمسة بحذف المكرر ، ولكن لا يعني هذا إلغاءها ، وحديثنا هذا لن يكون عن التنكير ؛ لأن كل ما سبق قد أسهم في بيان دلالته ، وكذلك ما سيأتي، خاصة إذا علمنا أن الحال الجملة داخلة ضمن الحال النكرة؛لأنها قائمة مقام المفرد النكرة [3]؛ لذا فالتركيز هنا على ما جاء من حال معرفة ، وبتأمل شواهدها نجدها لا تخرج عن نوعين : الأول المعرف بالإضافة وهو الكثير،

---

(1) - انظر ص ٦ من التمهيد.

(2) - انظر شرح الرضي ١٥/٢، وشرح المفصل ٦٢/٢.

(3) - انظر شرح المفصل ٥٤/٣ ، والنحو الوافي ٢٩٦/٢ .

والثاني المعرف بالألف واللام وهو شاهد واحد فقط .

فأما شواهد المعرف بالإضافة فهي مكررة،وأكثرها وروداً(وحده)[1]،و(جهد أيمانهم).

فأما (وحده) فورد في قوله تعالى :﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [٧٠ الأعراف][2] .

فقوله تعالى :﴿ وَحۡدَهُۥ ﴾ منصوب على الحالية " وهو عند جمهور النحويين -ومنهم الخليل وسيبويه- اسم موضوع موضع الحال، أعني: موحداً "[3]، وهو حال " إما من المعبود أي : نعبده موحَّداً ، أو من العابدين أي موحِّدين له"[4] ، وجعله حالاً من الفاعل هو رأي الأكثرين وهو رأي سيبويه وتقديره : موحِّدين ، وعند ابن هشام : تقديره انفراداً ، وهناك من يرى أنه حال من المفعول كالمبرد والتقدير عنده : في حال أنه مفرد ، ومنع أبو بكر بن طلحة جعله حالاً من الفاعل، وأوجب كونه حالاً من المفعول ، وحجته أنه لو أريد جعله من الفاعل لقيل : رأيته وحدي، لارأيته وحده [5] وحكى الطاهر أنه عند الجمهور حال من اسم الجلالة اسم مفعول أي:موحَّداً أي معكوفاً عليه بالوحدانية [6] .

وعلى كل حال فالمهم هو إبراز سر هذه الحال المعرفة، ولو رجعنا إلى الشاهد السابق وتأملنا السياق الذي ورد فيه لوجدنا أن هذا القول من قوم عاد لنبيهم هود عليه السلام كان رداً عليه ، لما دعاهم إلى عبادة الله وعدم الإشراك به، فقالوا:(أجئتنا لنعبد الله وحده) " وهذا إنكار واستبعاد لمجيئه عليه السلام بذلك، ومنشؤه انهماكهم في التقليد والحب لما أَلِفُوه وأَلْفَوا عليه أسلافهم "[7]، والذي يظهر أنهم أنكروا واستبعدوا عبادة الله سبحانه وتعالى موحَّداً دون آلهتهم ، فيكون حالاً من اسم الجلالة ، والذي يؤيد ذلك – عندي – أن أكثر ورود وصف الوحدانية في القرآن كان في حق الخالق سبحانه مثل قوله

---

(1) – انظر للفائدة فصلاً نافعاً بعنوان: (الرفدة في معنى وحده) لتقي الدين السبكي، وقد أورده السيوطي في الأشباه والنظائر ١٣٨/٤-١٤٤.

(2) – وقد جاءت في ست آيات منها آية الأعراف المذكورة ، والباقي سنشير إليه في موطنه إن شاء الله .

(3) – روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ١٥٧، وانظر ذلك في: الكتاب ١/ ٣٧٣-٣٧٥.

(4) – الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣٢٥/٢ .

(5) – انظر كل ذلك في روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ١٥٧.

(6) – انظر التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ٢٠٨ .

(7) – روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ١٥٧.

تعالى: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [١٦٣ البقرة] ، وقد تكرر ذلك في أكثر من عشرين موضعاً[1]، بل حتى فيما يشبه هذه الآية التي جاءت في سياق الإنكار من القوم ورد وصف الإله بالوحدانية كما في قوله تعالى :﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [٥ص] ، إذاً هم ينكرون جعل الإله واحداً،فإنكارهم في آية الأعراف من جنس هذا، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا يعني ما قلناه أن المعنى الثاني لا يصح، وهو جعله حالاً من الفاعل بمعنى: موحِّدين، كلا، لكن جعله من الفاعل أرجى وأرجح ــ في نظري ــ لِمَا ذكرت.

أما سر التعريف في هذه الصيغة خصوصاً فيلزمنا لإبرازه موازنة هذا الأسلوب بمثيله الذي جاءت فيه الحال منكرة والمادة واحدة، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [١١المدثر]،فالحال جاءت بالتنكير﴿ وَحِيدًا ﴾ ولم تأت بالتعريف (وحده) فما السر؟.

يقول أبو حيان : " لا خلاف في أنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، فروى أنه كان يلقب بالوحيد ؛ أي لأنه لا نظير له في ماله وشرفه في بيته ، والظاهر انتصاب (وحيداً) على الحال من الضمير المحذوف العائد على(مَنْ) ، أي خلقته منفرداً ذليلاً قليلاً لا مال عنده ولا ولد ... وقيل:حال من ضمير النصب في ذرني قاله مجاهد أي: ذرني وحدي معه ، فأنا أجزيك في الانتقام منه، أو حال من التاء في خلقت : أي خلقته وحدي ولم يشركني في خلقي أحد، فأنا أهلكه لا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه "[2] .

وهذه الاحتمالات كما رأيناها واردة ومعانيها مقبولة ، وما يظهر منها أنه إن كان الحال(وحيداً) من الله فهو على سبيل الوعيد والتهديد للعبد، والمدح له سبحانه بالقوة والجبروت والخلق والتدبير، وإن كان من المغيرة وهو الأقرب والأظهر فهو على سبيل الذم والتحقير ، وعلى كل حال نحن يهمنا هنا سر إيثار ﴿ وَحِيدًا ﴾ - التي لم تتكرر في القرآن - في هذا الموطن دون المعرفة (وحده) ؟.

إننا نجد (وحده) لو جاءت في هذا السياق فقيل:(ذرني ومن خلقت وحده)

---

[1] – انظر مثلاً : ١٧١ النساء ، و٧٣ المائدة، و١٩ الأنعام، و٣٩ يوسف، و٤ الرعد، وغيرها .

[2] –البحر المحيط ١٠ /٣٢٨.

لكانت قلقلة، وهي تفترق عن ﴿ وَحِيدًا ﴾ في التنكير ، والاشتقاق ،والمدلول؛ وذلك لأن ﴿ وَحِيدًا ﴾ فيها إيماء إلى الذم والضعف خاصة إذا كانت وصفاً للموصوف من غيره ، بينما نجد أن (وحده) جاءت في كل الآيات للتعبير عن وحدانيته سبحانه، فهي تحمل من المدح والثناء والدلالة على التفرد الممدوح ما لا تحمله ﴿ وَحِيدًا ﴾ ، التي تشعر صيغتها بالضعف أكثر من إشعارها بالمدح ؛ فلذا أوثرت (وحده) عليها في تلك المقامات الدالة على وحدانيته سبحانه ، ثم إن في التعريف في مقام المدح ما لا يكون في غيره ، فهذا يدل على أنه المعروف بالوحدانية لا يشركه فيها أحد ، والكفار مُقِرُّون بهذا فهو الخالق وحده، الرازق وحده [(١)] ، فهذا دليل على أن وحدانيته في الربوبية ظاهرة معروفة ، ولبيان هذه المعرفة وأنها ظاهرة جاءت الحال معرفة ، يقول عبد الستار سعيد بعد ذكر الآيات المشتملة على هذه الحال :" أما تعريف الحال بالإضافة إلى الضمير فقد ورد في مواطن تستدعي ذلك "[(٢)]، ولو تأملنا تلك المواطن المشار إليها لوجدناها تستوجب ذكر تلك الحال ؛ لأن تلك الآيات جاءت إما حكاية لاستنكار الأقوام دعوتهم لعبادته سبحانه منفرداً عن أوثانهم[(٣)]، أو تصويراً لكرههم لذكره سبحانه وحده دون أصنامهم [(٤)] ، أو بياناً لإقرارهم بالوحدانية له سبحانه عند تيقنهم من نزول العذاب بهم [(٥)]، وكل تلك الآيات تخص الكفار وتحكي أوضاعهم في دعوة الرسل لهم إلى توحيد الله ، وفي كل ذلك كان لابد من تحديد المعني بهذه الحال ، والمعرفة هي التي يظهر فيها ذلك ، ولو قيل: بالنكرة منفرداً أو وحيداً لم يكن فيه من التنصيص كما في النكرة، ولهذا جاءت كل الآيات على هذا النمط، ولم تخرج عن ذلك إلا آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [٤الممتحنة]، وهي تبين أن القضية الكبرى بين

---

(١) -قال سبحانه:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [٦١العنكبوت] .

(٢)-الحال في الأسلوب القرآني ٩١ .

(٣)- وذلك كما في آية الأعراف التي نحن بصددها رقم ٧٠.

(٤)-وذلك كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [٤٦الاسراء] و قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [٤٥الزمر]،وقوله تعالى:﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ﴾ [١٢غافر] .

(٥) – وذلك كقوله تعالى :﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ [٨٤غافر] .

المؤمنين والكافرين هي توحيد الله، فلا إيمان دونها ، ولا علاقة ولا مودة ، إنها القضية الحاسمة دوماً مع عُبّاد الأوثان والطواغيت، ولعلنا لا نعجب من كثرة ورود هذا التعبير (وحده) فيما يتعلق بأحوال الكفار وتصوير أوضاعهم، دون المؤمنين ؛ لأن القضية عند المؤمنين محسومة والإقرار منهم بذلك حاصل ، أما الكفار والمشركون فتلك هي قضية الامتحان لهم ، وتلك هي النقطة التي لم يتجاوزوها، بل جذبتهم حميتهم وانتماؤهم لأقوامهم وآبائهم إلى الوراء، حتى ارتكسوا في ظلام الشرك بدلاً من أن يتقدموا وينعموا بنور التوحيد .

ومن الأحوال التي جاءت مُعَرَّفة بالإضافة كلمة (جهد) كما في قوله تعالى:﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾ [٥٣ المائدة] .

وكل الآيات جاءت على هذا النسق مسبوقة بالفعل (أقسموا) ، فالصيغة متحدة في الآيات الخمس [(١)] ؛ لذا سنكتفي بالحديث عن آية المائدة، فقوله جل ذكره:(جهد أيمانهم)، فيها وجهان، أحدهما الحالية وهو الذي قدمه العكبري[(٢)] والمنتخب الهمذاني[(٣)] ، والبيضاوي[(٤)] ، وثانيها : المفعولية المطلقة ،وقدم هذا الوجه أبو حيان[(٥)] والسمين[(٦)]، وعلى القول بالحالية، وهو غير منكر عند الجميع فالتقدير: " فأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم فالحال في الحقيقة مجتهدين، ثم أقيم الفعل المضارع مقامه، ثم أقيم المصدر مقام الفعل لدلالته عليه "[(٧)]، وهذا -كما نرى- تطويل يغني عنه - إن كان لا بد من التأويل - ما قاله السمين: "والمعنى هنا: أقسموا بالله مجتهدين في أيمانهم"[(٨)]، والسبب في هذا التأويـــل

---

(١) -البقية هي ١٠٩ الأنعام ، ٣٨ النحل ، ٥٣ النور ، ٤٢ فاطر .

(٢) -انظر التبيان ٤٤٥/١ .

(٣) - انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٥٠/٢ .

(٤) - انظر أنوار التنزيل مع حاشية زادة عليه ١١٨/٢ .

(٥) -انظر البحر المحيط ٢٩٦/٤ .

(٦) -انظر الدر المصون ٣٠٥/٤ .

(٧) -التبيان ٤٤٥/١ .

(٨) -الدر المصون ٢٩٦/٤ .

عند النحويين هو أن الحال هنا معرفة، - يقول العكبري :"وهو هنا معرفة"[1] -وهم يشترطون في الحال كما سبق عند بعضهم كونها نكرة، لذا فهناك من لا يعتد بالتعريف هنا، يقول السمين:"ولا يُبَالَى بتعريفه لفظاً فإنه مؤول بنكرة..."[2]

ونحن هنا لا يهمنا ما يتعلق باختلافهم في هذا الجانب ، بل عنايتنا بسر مجيء هذه الحال على ما جاءت عليه ، وسر العدول فيها عن النكرة (جاهدين) أو (مجتهدين)، إلى التعريف والمصدرية (جهد أيمانهم) .

إننا لو بحثنا عن (جاهدين) أو (مجتهدين) فلن نجدها في القرآن الكريم البتة، وهذا يرشدنا إلى أن في (جَهْد أيمانهم) من المعاني ما ليس في (جاهدين، ومجتهدين)، ولو لم يكن كذلك ما أوثرت عليها، ولو عدنا لسياق الآية وتركيبها هي ومثيلاتها لوجدنا أنها تصور غاية الجهد والطاقة من أولئك القوم، المتمثل في الإقسام بالله من أجل تصديقهم في قولهم، وهذا يدل أنهم يشعرون بأنهم سَيُكَذَّبُون إذا لم يبذلوا ذلك الجهد، وتلك الطاقة في القسم، ولا شك أن المصدر (جَهْد) أقدر على تصوير ذلك الاجتهاد منهم من (المشتق)، وفي إضافة الجهد إلى الأيمان تعيين لنوعية ذلك الجهد المصروف وأنه في الأيمان، وهذا يشير إلى كذبهم وخداعهم الذي لا يستره إلا تلك الأيمان المغلظة المؤكدة " وذلك بالتوكيد والتكرير ونحو ذلك مما يغلظ به اليمين عرفاً "[3] .

هذا هو النوع الأول من أنواع الحال المعرفة في القرآن الكريم، وهو ما جاء معرفاً بالإضافة إلى الضمير ، وأما الثاني وهو القليل النادر ما جاء معرفاً بأل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٨ المنافقون]، فهذه الآية لاشاهد فيها على

---

[1] -التبيان ٤٤٥/١ .

[2] - الدر المصون ٣٠٥/٤ .

[3] - التحرير والتنوير ٢٣٣/٦ ، ومما جاء معرفاً بالإضافة أيضاً غير ما ذكر قوله تعالى :﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [١٣١طه]، فـ(زهرة الحياة الدنيا) ،حال من الاسم الموصول في (ما متعنا به أزواجاً منهم)، يقول الفراء :((نصبت الزهرة على الفعل [أي: على الحال] ، متعناهم به زهرةً في الحياة وزينةً ، و(زهرة) وإن كانت معرفة فإن العرب تقول : مررت به الشريف الكريم)) ، معاني القرآن للفراء١٩٦/٢ ، وينظر أيضاً الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤٧٢/٣ ، والدر المصون ١٢٣/٨ ، والتحرير والتنوير ٣٤٠/١٦ .

القراءة المشهورة [1]، وإنما الشاهد في قراءتين أخريين نبه إليهما الفراء بقوله :
"ويجوز في القراءة : (لَيُخْرَجَنَّ الأعزُّ منها الأذلُّ)كأنك قلت: لَيُخْرَجَنَّ العزيزُ منها ذليلاً، وقرأ بعضهم:لَنُخْرِجَنَ الأعزَّ منها الأذلَّ، أي:لنخرِجن الأعزَّ في نفسه ذليلاً"[2].

وقال أبو حيان بعد ذكر القراءات : " ومجيء الحال بصورة المعرفة متأول عند البصريين فما كان منها بـــ (أل) فعلى زيادتها لا أنها معرفة "[3]، وقد حكم النحويون على هذه الحال بالشذوذ وأنه لابد من تأويلها [4] ، ولكن هناك من يرى أن ذلك من مسالك العرب في كلامها[5] ، بل ويرى آخرون أنه يجوز تعريف الحال مطلقاً بلا تأويل ومن هؤلاء يونس والبغداديون[6]، ويرى الكوفيون جواز ذلك فيما تضمن شرطاً [7].

وقد حاول عبد الستار سعيد بيان سر هذه الحال على تلك القراءات متجاوزاً الخلاف النحوي مائلاً إلى رأي المجوِّزين لوقوعها معرفة فقال :" وتعريف الحال بالألف واللام في هذا النص القرآني له دلالته البلاغية، فالمنافقون يقصدون أن هذا سَيُخرِج الأذل ، يريدون محمداً صلى الله عليه وسلم، يعنون أن من هو الآن ظاهر منتصر سيخرج بهذه الكيفية البارزة المشهورة في الذلة، وفي النص القرآني نلمح روح التشفي والغيظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك أوحت به الحال المعرفة بالألف واللام "[8]، وهذه نظرة حسنة، وتحليل له وجاهته ، و لو قلنا ماذا يمكن أن يحل مـــحـــل (الأذل) ؟ إنـــه (ذليلاً) أو (أذل) ، ولا شك أن في (أفعل) التفصيل المعرف بـــ(أل) ما ليس في غيره ، فمعنى الأذل: الذي بلغ الغاية في الذلة حتى لا يمكن أن يعادله فيها أحد ، وهذا الذي يصور حنق المنافقين ، ويظهر دفائن قلوبهم ، وأنهم يودون لو أصبح الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في تلك المترلة من الذلة، وهكذا أسهمت هذه الصياغة والتعريف في إبراز

---

[1] -وهي قراءة الجمهور برفع الأعز ونصب الأذل وبناء الفعل للمعلوم، انظر البحر المحيط ١٠/ ١٨٣ .

[2] -معاني القرآن للفراء ٣/١٦٠ .

[3] - البحر المحيط ١٠/ ١٨٤ .

[4] -انظر البيان ٢/٢٤١ .

[5] - انظر معاني القرآن للفراء ٢/١٩٦ ، وقد سبق نصه قريباً في الحاشية.

[6] - انظر شرح الأشموني مع حاشية الصبان عليه ٢/١٧٢ .

[7] - انظر شرح الأشموني مع حاشية الصبان عليه ٢/١٧٢ .

[8] - الحال في الأسلوب القرآني ٩٠ .

المعنى وتصوير المقصود، ولهذا نضم صوتنا إلى صوت من يقول بأن:"تعريف الحال بالإضافة إلى الضمير أو بالألف واللام في النصوص القرآنية ليس عبثاً ضائعاً، -كما يقول النحاة[١]- بل إن التعريف هو المعبِّر في موقعه ولا يصلح غيره"[٢].

وهكذا تبين لنا أن للتعريف دلالته ومواقعه الخاصة التي يحسن الوقوف عندها،وإبراز سر التعبير بها دون النكرة، أما الاكتفاء بالقول بتأويلها فهذا لا يتناسب مع روح البحث في أسرار النظم القرآني وتلمح خصائصه .

ج- دلالة الإفراد والتثنية والجمع :

الأصل في الحال أن تكون موافقة لصاحبها في هذه الأمور ، وهي كذلك في الأسلوب القرآني، غير أننا نلحظ في ذلك أمرين :

أولهما : أننا لو نظرنا لشواهد الحال المفردة من الناحية اللفظية لوجدنا طغياناً كبيراً للإفراد، يليه الجمع ، يليه المثنى ، ولو نظرنا إليها من الناحية المعنوية لوجدنا طغياناً للجمع ، والسر في هذا عائد إلى المصادر فإنها للوهلة الأولى تصنف مع المفرد إن لم تكن مجموعة، لكنها جاءت في أكثر مواطنها دالة على الجمع رغم أنها في اللفظ مفردة ، ولم تأت صيغة التثنية إلا قليلاً ، فلا تُجاوز أصابع اليد ، بعضها دل على التثنية لفظاً ومعنى ، وبعضها دل عليها معنى فقط ،كما في المصادر التي أريد بها المثنى .

ثانيهما : أن هذا التوافق بين الحال وصاحبها قد يختلف في بعض المواطن ، وذلك له أسبابه التي يمكن جمعها في سببين:

١- كون الحال مصدراً وهو يصدق على القليل والكثير .

٢- كون صاحب الحال مما يحتمل الإفراد والتثنية والجمع، كأن يكون موصولاً عاماً مثل: (مَنْ) و(ما) ، أو يكون مما يصدق على القليل والكثير كأسماء الجنس (كالطير) مثلاً.

---

[١] -ومنهم الرضي الذي يقول عن الحال ((ولا معنى للتعريف ... فلو عرّفت وقع التعريف ضائعاً)) شرح الرضي ١٥/٢ .

[٢] - الحال في الأسلوب القرآني ٩٠ .

أولاً : الإفراد والجمع [1].

لقد اتضح أن صور التخالف بين الحال وصاحبها في موضوع الإفراد والجمع كان على ثلاث صور هي :

* مجيء الحال مفردة مراداً بها الجمع وهذا كثير في المصدر .
* مجيء الحال مجموعة مراداً بها الواحد .
* مجيء الحال مفردة في موضع ومجموعة في آخر ، أو في قراءة أخرى .

الصورة الأولى .

ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةً ﴾ [٤ النساء]،فـــ (نِحلة) على القول بحاليتها ، صاحبها إما الفاعل فتكون على معنى جمع الذكور (ناحلين) وإما المفعول فتكون: (منحولات) [2]، ومع هذا فقد جاءت الحال بلفظ المفرد (نِحلة)، فما سر ذلك ؟ يقول الطاهر بن عاشور :" وانتصب (نِحلة) على الحال من (صدقاتهن) ، وإنما صح مجيء الحال مفردة، وصاحبها جمع ؛ لأن المراد بها المفرد الجنس الصالح للأفراد كلها..."[3] .

وفي مجيء الحال مصدراً من شمولية المدلول واتساعه ما ليس في المشتق ؛ إذ لو قيل : (ناحلين) ، أو (منحولات) لانحصرت الحال في الفاعل أو المفعول ، لكن لما كانت النِّحلة تصدق على هذا وذاك جاءت بصيغة المصدر الذي يصدق على القليل والكثير ، والذكر والأنثى ، ومما يدلنا على أن المراد اتساع المدلول وشموله لعدد من المعنيين به، ما قيل من أن الخطاب هنا للأزواج الذين يتزوجون بلا مهر، وقيل للأولياء الذين يأكلون المهور، وقيل للمتشاغرين بلا مهر، قال أبو حيان بعد ذكره هذه الأقوال :" والأمر ... يتناول هذه الصور كلها"[4] .

وهذا الأمر وهو شمول المدلول واتساعه من أظهر الأشياء في التعبير بالمصدر ، يقول

---

[1] – وإنما قدمت الجمع على التثنية لكثرة شواهد هذه الصورة ، ووضوح علاقتها بالمفرد .

[2] –انظر في ذلك الكشاف ٤٧٠/١، والتبيان ٣٢٩/١ ،والبحر المحيط ٥١١/٣ .

[3] –التحرير والتنوير ٢٣٠/٤ .

[4] – البحر المحيط ٥١١/٣ .

ابن جني :" والمصدر إلى الشياع والعموم والسعة"[1].

ولأننا قد سبق أن حللنا كثيراً من الشواهد التي جاء المصدر فيها حالاً [2]، فأكتفي بالإشارة إلى بعض المواطن التي جاء فيها المصدر بالإفراد دالاً على المجموع[3] .

ومما جاء حالاً غير مصدر مفرداً وصاحبه مجموع (مبصرة) في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [١٣ النمل]، فهي هنا حال من الآيات[4]،والآيات جمع وكان القياس أن يقال:مبصرات مثل قوله تعالى في نظائرها:﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ [١٥يونس] [5] ، وجاءت الآيات مجموعة موصوفة بالجمع في مواطن كثيرة منها قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [٩٩ البقرة] [6].

وهذا يدلنا على أن هذا الموضع هو الوحيد الذي جاءت الحال فيه (مبصرة) مفردة مع (آيات) المجموعة ،وبقية المواضع جاءت فيها مبصرة مفردة مع صاحبها المفرد (آية) و(الناقة) وذلك في موضعين هما قوله تعالى :﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [١٢ الإسراء]،وقوله تعالى:﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ [٥٩ الإسراء]، فهي موافقة لصاحبها في الإفراد في هذين الموضعين، فما سر المخالفة مع الآيات في آية النحل ؟ .

لعل السر في الإفراد لا يتعلق بورود هذه الكلمة مفردة في مكان دون آخر؛ لأنها لم ترد –حتى في القراءات– إلا بالإفراد، وعلى هذا فالسر الذي يُبحث هو لماذا التزمت هذه الكلمة الإفراد (مبصرة)، حتى في مواطن الجمع كالآية المعنيِّة هنا ؟ .

---

[1] – المحتسب ١٣٦/٢ .

[2] – انظر ص ٤٨ وما بعدها من هذا البحث.

[3] – من ذلك مثلاً : قوله تعالى:﴿ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ [٨٠ يوسف]، انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٩١/٣،وقوله تعالى: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ [٤٨الكهف]،انظر البحر المحيط١٣٤/٦، والتبيان ٥٥/٢، وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [٥ الحج]، انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٢٨٤،وينظر أيضاً المواضع الآتية:﴿ بَيَٰتًا ﴾ ٤الأعراف،و﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ٣١ إبراهيم ، و﴿ لِوَاذًا ﴾ ٦٣ النور، و﴿ هَرَبًا ﴾ ١٣ الجن، وغيرها .

[4] – انظر البيان ٢١٩/٢ ، والتبيان ١٠٠٦/٢ ، والبحر المحيط ٢١٦/٨ ، والدر المصون ٥٨/٨ .

[5] –ومثلها ٧٣مريم ، و٤٣سبأ ، وغيرها .

[6] –ومثلها ٩٧آل عمران ، و ١٠١الإسراء ، و ١النور وغيرها ، وبعض هذه المواقع تحتمل الحالية مع الوصفية .

لعل ذلك راجع إلى مدلول هذه الكلمة وما تؤديه من معانٍ ، فهي دالة على التصوير بنسبة الإبصار إلى الآيات، وفي ذلك من التدليل على وضوح تلك الآيات ما لا يخفى حتى كأنها بذاتها تبصر فكيف بحال من نظر إليها ، وفي ذلك تقريع لهم وبيان لعظيم جهلهم؛ ولهذا أعقبت بقوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [١٤ النمل]، فلما كان الهدف من هذه الآيات الكثيرة التي قال الله عنها قبل هذه الآية: (في تسع آيات) هو إحقاق الحق، كان اتحادها واجتماعها في التدليل على المراد هو الإعجاز بعينه؛ لذا جاءت موحدة لا مجموعة، يقول عبد الستار سعيد في ملمح جميل حول هذه الآية: " والذي نلحظه هنا أن مجيء الحال مفردة مع أن صاحبها جمع فيه من الدلالة ما ليس في الجمع ، ففيه إسراع إلى كون الآيات مبينات فضلاً عن القطع بذلك، وأن هذه الآيات واحدة في مصدرها وهدفها"[١] .

إذاً أُفردت الحال مع هذه الكلمة (مبصرة) تدليلاً على وحدة الهدف والمصدر، والجمع يوهم بتعدد هدف تلك الآيات وتشتت الاستدلال بها على المراد، فلما كانت هذه الآيات مع تعددها وكثرتها وتنوعها تلتقي ضمن هدف واحد وهو الهداية إلى الحق جاءت الحال داعمة لتلك الوحدة فكانت بالإفراد لا بالجمع ، إضافة إلى أن الإفراد يدل على أن الآية الواحدة كافية في الدلالة على الحق لمن تأملها وأبصرها ، يقول البقاعي:"فهي هادية لهم إلى الطريق الأقوم هداية النور لمن يبصر"[٢] ولو كانت (مبصرات) بالجمع لربما أوهم ذلك تباينها واختلافها.

ومما يؤيد أن المراد هو الاعتبار والاهتداء بتلك الآيات ما جاء في قراءة قتادة وعلي بن الحسين (مَبْصَرَة) على وزن (مَفْعَلَة)، يقول ابن جني بعد إيراد هذه القراءة :"وقد كثرت المَفْعَلَة بمعنى الشياع والكثرة في الجواهر والأحداث جميعاً وذلك كقولهم أرض مَضَبَّة: كثيرة الضباب ...والحق مَجْدَرَةٌ بك... وفي كله معنى الكثرة في موضعين: أحدهما: المصدرية التي فيه، والمصدر إلى الشياع والعموم والسعة، والآخر: التاء وهي لمثل

---

[١] -الحال في الأسلوب القرآني ٣٢،٣٣ .

[٢] - نظم الدرر ١٣٧/١٤ .

ذلك، كرجل راوية...؛ ولذلك كثرت المفْعَلة فيما ذكرناه لإرادة المبالغة" [(١)]، ونستدل بهاتين القراءتين على مدلول هذه الكلمة ،وأن المراد هو كثرة التبصر في هذه الآيات وإدامة النظر إليها، وأنها كلها تتحد في الهداية إلى الحق والطريق المستقيم .

ومن هذا القبيل أيضاً(مفتحة)في قوله تعالى :﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ [٥٠ص]، فهي حال من (جنات)[(٢)]، المجموعة فما سر إفرادها ؟.

يقول البقاعي في تحليل رائع لذلك:" (مفتحة) أي: تفتيحاً كثيراً وبليغاً [(٣)]، من غير أن يعانوا في فتحها شيئاً من نصب أو طلب أو تعب ، وأشار جعل الوصف مفرداً إلى أن تفتيحها على كثرتها كان لهم في آن واحد،حتى كأنها باب واحد"[(٤)]،وهذا تحليل لطيف ، وتبادل الإفراد والجمع بعض سنن العرب في كلامها فإنها: " تعدل عن الجمع مع التأنيث كثيراً لثقلهما ؛ لأن التأنيث خلاف المألوف والجمع كذلك ، فإذا اجتمعا تفادوا عن الجمع بالإفراد ، وهو كثير شائع في كلامهم لا يحتاج إلى استشهاد"[(٥)] .

الصورة الثانية.

وهي مجيء الحال مجموعاً مراداً به المفرد، وأظهر شواهدها كان فيما يخص الذات الإلهية كقوله تعالى :﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [١٦ الأنبياء]، فقوله جل ذكره: (لاعبين) حال من فاعل (خلقنا)[(٦)] وهو الله سبحانه ، وقد جاء مجموعاً مع أنه سبحانه واحد فرد صمد ، وذلك لما في الجمع من مناسبة المقام الدال على عظيم الخلق، ولذا جمع الضمير أيضاً في (خلقنا) فتوافق الحال مع صاحبه (نا) -الدالة على الذات الإلهية- في الجمع ، وهذا مطرد في القرآن الكريم ، فإن " جلائل الأمور الدالة على القدرة، والموحية بالجلال الأكمل تسند إلى ضمير الجمع فترى فخامة (نحن)، وجلالة (نا) ملفتَيْنِ للذهن بشكل واضح "[(٧)]، و " القدرة العظيمة من صفات العظيم ، فالأفعال

---

(١) – المحتسب ١٣٦/٢ ، ١٣٧ ، وانظر الكشاف ٣٥٢/٣ ، والبحر المحيط ٢١٦/٧ .

(٢) – انظر الكشاف ١٠٠/٤ ، والتبيان ١١٠٢/٢ ، والبحر المحيط ١٦٦/٩ .

(٣) – لعله أخذ هذا المعنى من صيغة (فعّل) ، ولو كانت على صيغة (مفعول) لما حملت كل هذه الدلالات .

(٤) – نظم الدرر ٤٠١/١٦ .

(٥) – التحرير والتنوير ٣٥٧/١ .

(٦) – انظر التبيان ٩١٣/٢ ، والدر المصون ١٣٨/٨ ، والتحرير والتنوير ٣٢/١٧ .

(٧) – من روائع الإعجاز القرآني (تعبير الحق عن ذاته) ٢٧ .

التي هي مظاهرها ، من حقها أن تسند إلى ضمير الفخامة "[١] .

وهذا ظاهر في هذه الآية التي بين أيدينا، ففيها تدليل وتنبيه على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وحكيم صنعه ، وفي ذلك تنبيه للغافلين ، وتخويف للمعاندين ، كما يتضح ذلك جلياً من إيراد الحال وصاحبها قبلها بعنوان الجمع ، ويشير الطاهر ابن عاشور إلى أن الكلام هنا بني :" على النفي أخذاً لهم بلازم غفلتهم عن دقائق حكمة الله بحيث كانوا كقائلين بكون هذا الصنع لعباً"[٢] .

ومما جاء على هذا النسق غير مختص بالذات الإلهية قوله تعالى :﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [٦٦ الحجر] ، فـــ (مصبحين) حال من هؤلاء [٣]، واختار أبوحيان كونه حالا من ضمير (مقطوع)[٤] الراجع إلى دابر، وعلى قول أبي حيان يكون مقتضى التطابق أن يقال: دابر هؤلاء مقطوع مصبحاً، حتى يتوافق مع صاحبه لفظاً ومعنى؛ لأنه غير عاقل، فما وجه مجيء الحال جمعاً هنا والصاحب مفرد ؟.

يقول العكبري :" وتأويله أن دابر هنا في معنى مُدْبرى هؤلاء فأفرده وأفرد مقطوعاً؛ لأنه خبره، وجاء (مصبحين) على المعنى"[٥] وكذا قال أبو حيان[٦]، وفي ذكر هذا الجمع بصيغة التصحيح إشارة إلى أن المقصود بالكلام هم العقلاء كلهم لا بعضهم، وما ذكر الدابر معهم إلا زيادة في التهديد والوعيد؛ لأنه مناسب لذكر القطع وهو كناية عن الإبادة وإلا فالمعنى أنهم مهلكون مبادون لامحاله لذا جاء التصريح بذلك بعده في قوله تعالى :
﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ [٧٣ الحجر] [٧] .

---

(١) – من روائع الإعجاز القرآني (تعبير الحق عن ذاته) ٣٧ .
(٢) – التحرير والتنوير ٣٢/١٧ .
(٣) – انظر التبيان ٧٨٦/٢ .
(٤) –انظر البحر المحيط ٤٨٩/٦ ، وروح المعاني المجلد السابع الجزء الرابع عشر ٧١ .
(٥) – التبيان ٧٨٦/٢ .
(٦) – انظر البحر المحيط ٤٨٩/٦ .
(٧) – ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى:﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [٢٢الحجر] في قراءة (الريح)وهي لحمزة ، يقول الفراء:((فمن قال:الريح لواقح فجمع اللواقح والريح مفردة؛لأن الريح في معنى الجمع))،معاني القرآن للفراء ٨٧/٢، وانظر التبيان ٧٧٨/٢،وأما الجمع بين ما في هذه القراءة من الإفراد وما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحا،وهو في الطبراني الكبير ٢١٤/١١، فقد أورده الألوسي في روح المعاني المجلد السابع الجزء الرابع عشر ٣١، فليراجع هناك، .

الصورة الثالثة .

وهي مجيء الحال مفردة في موضع ومجموعة في آخر، أو في قراءة ، ولعل من أظهر شواهدها قوله تعالى :﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [١٣، ١٤ النساء] ، فقد جاءت (خالدين) حالاً مجموعة في الآية الأولى ، ثم جاءت مفردة (خالداً) في الآية الثانية، فما سر هذا التخالف مع أن الصاحب فيهما هو (مَنْ) الموصولة ؟.

اكتفى بعض المفسرين بالقول إن سر هذا التنوع هو لفظ (مَنْ) ومعناه ، ومن هؤلاء الزمخشري(١)، وابن عطية(٢)، والبيضاوي(٣)، والشهاب(٤)، وتمعن آخرون في معرفة سر هذا التنوع فجاءوا بالجواهر والدرر يقول أبو حيان: " قيل : وأفرد ﴿ خَـٰلِدًا ﴾ هنا وجَمَع في ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ؛ لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة ، وإذا شفع في غيره دخلها ، والعاصي لا يدخل النار به غيره فيبقى وحيداً"(٥) ، ويزيد البقاعي هذا الأمر بياناً بقوله: "وجَمَع الفائزين بدخول الجنة في قوله: (خالدين فيها)، تبشيراً بكثرة الواقف عند هذه الحدود ؛ ولأن منادمة الإخوان من أعلى نعيم الجنة ....، وأفرد العاصي في النيران في قوله: (يدخله ناراً خالداً فيها)؛ لأن الانفراد المقتضي للوحشة من العذاب والهوان "(٦)، وقريب من هذا قول أبي السعود: " ولعل إيثار الإفراد هنا نظراً إلى ظاهر اللفظ واختيار الجمع هناك أجلب إلى الأنس، كما أن الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة"(٧) ، ويُلمح محيي الدين الدرويش إلى وجه آخر فيقول:"جمع ضمير الخالدين في الجنة؛ لأن كل من دخل الجنة كان خالداً فيها أبداً، أو لتفاوت درجات الداخلين، أما أهل النار فبينهم الخالدون وغير الخالدين من عصاة المؤمنين، فساغ الجمع

---

(١) – انظر الكشاف ٤٨٧/١

(٢) – انظر المحرر الوجيز ٤٥/٤ .

(٣) – انظر أنوار التنزيل مع حاشية الشهاب عليه ١١٦/٣ .

(٤) – حاشية الشهاب على البيضاوي ١١٦/٣ .

(٥) – البحر المحيط ٥٥١/٣ .

(٦) – نظم الدرر ٢١٥/٥،٢١٤ .

(٧) – تفسير أبي السعود ١٥٤/٢ .

هناك ولم يسغ هنا؛ لأن الخالدين في النار فرقة واحدة، أما الخالدون في الجنان فهم طبقات بحسب تفاوت درجاتهم، وهذا من أسمى مراتب البيان"[1].

وهكذا نرى هذه التعليلات الحسنة، والتحليلات الهادفة، قد تنوعت في بيان السر، واجتمعت على إظهار عظمة القرآن وبليغ نظمه .

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٤١ النور]، فقد جاءت الحال مجموعة (صافات) وصاحبها (الطير) وجاءت مفردة منه في قوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةًۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [١٩ ص]، فـ(محشورة) حال وهي مفردة فما سر الجمع هناك والإفراد هنا ؟.

إن معاد ذلك هو دلالة الكلمة التي وقعت حالاً وهدفها المراد منها ، فقد جاءت (صافات) مجموعة ؛ لأن الجمع هنا تظهر فيه علامات القدرة التي نبه الله عز وجل إليها بقوله: (ألم تر) فالمقصود النظر في هذه الآيات العظيمة التي منها ذلك الطير بين السماء والأرض ، ولا شك أن صف الأجنحة وبسطها وعدم تحريكها مع بقاء الطير في السماء في مجموعات هائلة ما يمسكهن إلا الله، لهو من أعظم دلائل القدرة الإلهية، وهو لو كان من طير واحد لكان شيئاً عظيماً، فكيف إذا كان من تلك المجموعات الهائلة، ذلك هو ما يدل عليه الجمع (صافات)، يقول البقاعي مشيراً إلى بعض تلك الدلالات: "ولما كان أمر الطير أدل ؛ لأنه أعجب قال مخصصاً : (والطير صافات) أي: باسطات أجنحتها في جو السماء ، ولا شبهة في أنه لا يمسكها إلا الله ، وإمساكه لها في الجو مع أنها أجرام ثقيلة[2]، وتقديره لها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته"[3] .

أما في الحشر فمظهر العظمة يكون في توحيدها (محشورة)؛ لأن الجمع يوحي بأن عملية الحشر جاءت على دفعات في مجموعات ، والمراد بيان أن هذه الطيور على كثرتها وتعددها وتنوعها إنما حشرها كحشر طائر واحد ، وذلك ما تؤديه صيغة الإفراد

---

(١) – إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١٧٨،١٧٩/٢ .

(٢) – قوله: (ثقيلة) لعلها من بعض دلالات الجمع هنا .

(٣) – نظم الدرر ٢٨٨/١٣ .

(محشورة)، وفيها دلالة أخرى فهي توحي بالدقة في جمعها وتراصها ومساواتها حتى كأنما هي شيء واحد يُعَبَّر عنه بحال صيغتها الإفراد[1].

ثانياً : غير المثنى مع المثنى.

الحال المثناة في القرآن الكريم قليلة جداً ، ومع هذه القلة وقد جاءت موافقة لصاحبها في مواطن ، ومخالفة له في أخرى ، وجاءت المخالفة على صورتين :

أ- مجيء الحال مفردة مراداً بها المثنى .

ب- مجيء الحال مجموعة مراداً بها التثنية .

الصورة الأولى.

ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [٣ ،٤ آل عمران]، فـــ(هدى) هنا حال من الإنجيل والتوراة[2]،ومقتضى الموافقة بين الحال وصاحبها أن يقال : وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هاديَيْن[3]، فما سر العدول عن هذا إلى ما في النظم الكريم؟ .

يقول العكبري: "ولم يثن؛ لأنه مصدر"[4] ، وقيل لأنه حال من الإنجيل، ودل على حال للتوراة محذوفة كما يدل أحد الخبرين على الآخر[5]، وقيل: لأنه " تم الكلام عند قوله: (من قبل) ثم استأنف فقال:(هدى للناس وأنزل الفرقان)، فيكون الهدى للفرقان فحسب"[6] ويكون (هدى) معمولاً لـــ (أنزل) واعترض عليه أبو حيان بأن ما بعد حرف العطف لا يتقدم عليه[7] .

والذي أراه هنا أن الإفراد وإن كان من ميسورات اللغة إلا أن لاختياره هنا سراً، بدليل ورود المصدر في بعض المواضع مفرداً وفي بعضها موافقاً لصاحبه فالأول كقوله

---

[1] – انظر صـ ٢٧من هذا البحث .

[2] – انظر التبيان ٢٣٦/١ ، والبحر المحيط ١٧/٣ .

[3] – انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٤٥٤/١ .

[4] – التبيان ٢٣٦/١ والبحر المحيط ١٦/٣ .

[5] – انظر التبيان ٢٣٧/١، والبحر المحيط ١٦/٣ .

[6] – البحر المحيط ١٦/٣ .

[7] انظر البحر المحيط ١٦/٣ .

تعـــــالى:﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [٤٧ يوسف]، والثاني كقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [٣٣ إبراهيم] وسيأتي لذلك بيان إن شاء الله[(١)].

إذاً الإفراد هنا له هدفه وسره، ولعل من ذلك أن المراد هنا بيان أن هذه الكتب المترلة من عند الحكيم الخبير، وإن اختلفت عن بعضها في بعض جزئيات الأحكام، أو في القوم المخاطبين بها، إلا أنها تلتقي في شيء واحد وهو كونها كلها هادية إلى طريق واحد هو طريق الحق، فلبيان الالتقاء في وحدانية الهدف والغاية من إنزال تلك الكتب أفردت الحال الدالة على ذلك، ولو قيل (هاديَيْن) فلربما أوهمت التثنية التغاير في الغاية وأن لكل كتاب هداية خاصة لا اتصال لها بالأخرى، ثم إن في التعبير بالمصدر (هدى) من الاختصار والإيجاز الذي هو من ركائز البلاغة ما ليس في المثنى (هاديَيْن) ، سواء من حيث المبنى أو المعنى ، فأما المبنى فظاهر، وأما المعنى ففي المصدر (هدى) من سعة الدلالة والشمول والعمق ما ليس في المشتق (هاديين)[(٢)].

الصورة الثانية.

وهي مجيء الحال مجموعاً مراداً به المثنى، وشاهدها قوله تعالى:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [١١ فصلت].

فقوله جل ذكره:﴿ طَآئِعِينَ﴾ حال [(٣)] من مثنى، فمقتضى الموافقة أن يقال : طائعتَيْن فما سر هذه المخالفة ؟ .

يقول الفراء :"ولم يقل طائعتين، ولا طائعات، ذُهب به إلى السموات ومن فيهن ، وقد يجوز:أن تقولا[(٤)]وإن كانتا اثنتين:أتينا طائعِين فيكونان كالرجال لما تكلمتـــا"[(٥)]،

---

(١) - انظر ص ٧٧ من هذا البحث .

(٢) - ولم يتبين لي غير هذا الشاهد على هذه الصورة ، إلا على القول بحالية(مثلاً)في قوله تعال: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [٢٤هود]، أي : متماثلَيْن والأظهر فيه النصب على التمييز ، انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٦١٦/٢.

(٣) - انظر التبيان ١١٢٤/٢، والفريد في اعراب القرآن المجيد ٢٢٥/٤ .

(٤) - هكذا في النص ولعل الصحيح : (أن تقول).

(٥) - معاني القرآن للفراء ١٣/٣ .

ويقول العكبري:"وجُمع؛لأنه قد وصفها بصفات من يعقل، أو التقدير:أتينا بمن فينا"[١].

هذان تخريجان، أحدهما: سببه التغليب فالمقصود السماء والأرض وما فيها من العقلاء وغيرهم، وغلب العقلاء وهو رأي الكسائي، وثانيها: أن وصفها بصفات العقلاء سوغ ذلك[٢]، ويرى الطاهر بن عاشور تخريجاً ثالثاً فيقول :" وإنما جاء قوله (طائعين) بصيغة الجمع ؛ لأن لفظ السماء يشتمل على سبع سماوات كما قال تعالى:﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ [١٢ فصلت] فالامتثال صادر عن الجمع ، وأما كونه بصيغة جع المذكر ؛ فلأن السماء والأرض ليس لها تأنيث حقيقي،وأما كونه بصيغة جمع العقلاء فذلك ترشيح للمكنية المتقدمة"[٣] .

وكلامه حسن في مجمله إلا أنه بناه على المجاز، وحمله على الحقيقة هو ظاهر اللفظ القرآني ولا مسوغ للعدول عنه، والقول بالحقيقة هنا أدل على القدرة وأعظم في تصوير موقف الانقياد للجبار جل جلاله، يقول ابن قتيبة عن هذا الأمر:"وما في نطق جهنم، ونطق السماء والأرض من العجب ؟، والله تبارك وتعالى ينطق الجلود والأيدي والأرجل،ويسخر الجبال والطير بالتسبيح"[٤].

وإنه لأمر مهم أن نعلم أن ما جاء عن الله في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ليس هو ككلام البشر بحيث نُحكِّم فيه عقولنا،وما لا يتواءم معها ندفعه إلى خزانة المجاز ،إن هذا عجز منا وهروب عن توخي حقائق القرآن والصدع بها ، ووضع العقل في مجاله الذي يليق به،ويقف عنده،إننا بمثل هذه التأويلات- شعرنا أو لم نشعر- كأننا نلغي عبادة الكون لخالقه، فالسماء لا تتكلم ولا تصلي ولا تسجد بل كل ذلك مجاز،سبحان الله وما أدرانا نحن عن ذلك، أليس خالق الكون هو العالم بما خلق،أليس هو القائل: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [٤٤ الإسراء] !.

إنها قضية ليست هامشية هذه التي نناقشها ، بل هي من صميم دراسة هذا العلم ؛

---

[١] - التبيان ٢/١١٢٤ .

[٢] - انظر ذلك في الدر المصون ٩/٥١٢ .

[٣] - التحرير والتنوير ٢٤/٢٤٨ .

[٤] - تأويل مشكل القرآن ١١٣ .

لأنها من قواعده وأسسه ، ولله در سيد قطب –رحمه الله – فقد وجدت له كلاماً موفقاً لم أطلع عليه إلا متأخراً ، وفيه تقرير لهذه الحقيقة لكن بأسلوب سيد الرفيع ، يقول ــ رحمه الله ــ عن آيات التسبيح السابقة وما ماثلها : " وهي تعبيرات صريحة مباشرة لا مجال فيها للتأويل ، كذلك ورد (ثم استوى إلى السماء وهي دخان...) الآية مما يحتمل أن يقال فيه إنه مجاز تصويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله، ولكن هذا التأويل لا ضرورة له ، بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح "(١) .

أما عن سر الجمع هنا دون التثنية فلعل أقرب ما يفسره ما ذكره الطاهر بن عاشور من دلالة السماء على المجموع ، وكذلك الأرض فهي سبع سموات وسبع أرضين (٢) ، وفائدة مجيء هذه الحال مجموعة للتدليل على أن تلك السموات السبع والأرضين السبع كلها امتثلت لا اثنتين فقط ،فلو قيل: طائعتين لأوهم أنها سماء واحدة وأرض واحدة وأما غيرها فلم يمتثل الطاعة .

أما كون الجمع بصيغة العقلاء فليس هذا من باب المجاز، ولكن السموات والأرضين مخلوقات مأمورة وهي تعبد الله وتسبحه على وجه يخفى علينا ، ولهذا فهي تعامل معاملة غير العاقل إذا كان الكلام في علاقتها بنا؛ لأنا نراها كذلك ، أما إذا كان ذلك متعلقاً بمخاطبة الله لها وأمرها ونهيها فهي عاقلة يوجه إليها الأمر فتأتمر والنهي فتنتهي، ومن يستطيع أن ينفي عنها ذلك؟، انظر إلى صيغة الأمر الموجهة إليها في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [٤٤ هود] فحصل الائتمار منهما ، فمن يستطيع أن ينفي أن ذلك حقيقي على وجهه؟، ومن ذلك هذه الآية التي معنا فهي محاورة حقيقية ليس هناك ما يثبت ضدها، فلا عجب أن تأتي الصيغة إذاً على ما جاءت عليه .

ولكن مما يشكل هنا ، لماذا لم تأت الحال مصدراً كما جاءت في (هدى) التي سبق ذكرها، أليس هو أكثر دلالة وأشمل وأوسع ، فيكون التقدير : قالتا آتينا طوعاً فيحصل مع

---

(١) – في ظلال القرآن ٦/٣٦٣٥.

(٢) – وجمع السماء في القرآن أكثر من إفرادها ، فقد جاءت مجموعة في مائة وتسعين موضعاً ومفردة في مائة وعشرين موضعاً، أما الأرض فلم تأت مجموعة أبداً، ولذلك تعليلات كثيرة ذكرها الباحثون في علوم القرآن ، انظر مثلاً البرهان في علوم القرآن٤/٦ ، ومن بلاغة النظم القرآني ٢٨ .

ما تقدم الموافقة لصيغة السؤال ؟.

إن بيان ذلك ليس سهلاً ولا قريباً – بالنسبة لي – وبإمكاني أن لا أثير هذا التساؤل ولكن تعليل القول في (هدى) دون (هاديَيْن) فيما سبق عن قريب يجعلنا ملزمين بطرح هذا التساؤل وإن لم نجب عليه ، فقد نجد غائبتنا في بطون الكتب أو على ألسنة الملهمين، ومع هذا سأذكر ما يعن في ذهني وما توصلت إليه في هذا الأمر .

لعل السر في ذلك أن المراد هنا هو إظهار الطاعة من جميع تلك المخلوقات المعنية (السموات السبع والأرضين السبع)، والمصدر لا تتمحض دلالته للجمع فقط بل يشمله مع المفرد والمثنى ، فالذي يُظْهِر دلالة الطاعة الجماعية هو الجمع لا المصدر ، إنه لو كان المراد هنا هو بيان توحّد هذه المخلوقات في الطاعة لجيء بالمصدر ، لكن لما كان المراد هنا هو بيان قدرة الله وقهره، وتصوير اجتماع هذه المخلوقات على ذلك الامتثال كان الجمع أولى من المصدر ، وأما في (هدى)، فليس المقصود إبراز الثنائية في الهدف من إنزال الكتاب وإلا لكان المثنى (هاديَيْن) أولى ، بل المراد تصوير وحدة الهدف والغاية رغم اختلاف الكتب زماناً ومكاناً وأمة ؛ لذا كان ما يدل على ذلك التوحد أولى وهو المصدر (هدى) .

ومما أحب أن أشير إليه أخيراً فيما يخص الثنية أن الحال لم تأت مثناة موافقة لصاحبها إلا في موطنين اثنين –حسبما ظهر لي– هما قوله تعالى:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [٣٣ إبراهيم]،وقوله تعالى :﴿ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّـهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [١٧ الحشر] ، ولنا مع هاتين الآيتين وقفتان: الأولى مع التثنية في (دائبَين) التي هي حال من الشمس والقمر[1]، دون التعبير بالمصدر (دأباً)، خاصة وأنه ناب عن الجمع في قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [٤٧ يوسف] ، ولعل سر ذلك أن الشمس والقمر وإن اشتركا في الدأب والمداومة والاستمرار من حيث العموم، إلا أنهما يختلفان في نوع هذا الدأب ، ووقته، وتأثيره على الأرض والأبدان والنبات، فليس سير الشمس مثل سير القمر، وليس وقتها بمتحد بل متخالف في أكثر أحواله ، وليس تأثير

[1] – انظر البحر المحيط ٦/٤٤٠ .

الشمس الناجم من ذلك الدأب مثل تأثير القمر، فالشمس لها تأثير ظاهر على الأبدان والنباتات والأرض، والقمر له تأثير ظاهر في البحر من حيث المد والجزر[1]، فلأجل هذا التخالف في اختصاص كل منها جاءت الحال بالتثنية لا بالمصدر الذي يدل على التوَحُّد والالتقاء .

وأما لِمَ لَمْ تُفْرَد كل منها بحال ما دام الأمر على ما ذُكر فيقال : وسخر لكم الشمس دائبة والقمر دائباً ؟؛ فلأن ذلك يشعر بأنهما لاشتراك بينها في عملية الدأب ذاتها ، وهذا مخالف للواقع فهما يشتركان في أصل الدأب، وكلاهما يدأب ويسير مستمراً فيما قدره الله له ، فبياناً لذلك الجزء من الالتقاء بينهما ، وذلك التخالف في نوعية سيرهما وتأثيره جاءت الحال دالة على التخالف من وجه والموافقة من وجه آخر ، فالمخالفة في التثنية دون الإفراد في المصدر ، والموافقة في جمعهما في حال واحدة، دون إفراد كل منها بحال مستقلة .

وأما مجيء الحال موافقة للمذكر دون المؤنث فلَمْ تكن: (دائبتين) فهذا من باب التغليب وهو كثير في القرآن وكلام العرب ، يقول الدكتور محمود عبد العظيم صفا: "وقد عرف العرب هذا اللون [2] وكثر في أمثلتهم ، وعندهم أنه متى اجتمع مذكر ومؤنث وأريد فيه التغليب فإنه يغلب المذكر إلا في مواضع"[3]

أما الوقفة الثانية فهي مع التثنية في (خالِدَيْن) دون (خالداً) ، أو (خالدِين)، حيث رأينا فيما سبق كيف جاء (خالداً) في موضع (خالدين) في آيتين متتابعتين ، فما سر التزام التثنية هنا ؟ .

سر ذلك -والله أعلم- أن المراد هنا هو تصوير حال الاثنين خاصة: الشيطان ومن أغواه ، ولو قيل: (خالدين) بالجمع لأوهم الجمعُ التعددَ وهو ليس كذلك ، ولو قيل (خالداً) لأوهم ذلك التوحّد وهو ليس كذلك ، إضافة إلى أنه ليس في هذا الموضع ما يجيز

---

(1) - يقول شهاب الدين السهروردي فيما نقله عنه الألوسي:((إن تأثير الشمس والقمر أظهر الآثار السماوية ، وتأثير الشمس أظهر من تأثير القمر ،وأظهر الآثار بعد الشعاع التسخين الحاصل منه،ولولا ذلك ما كان كون ولا فساد ولا استحالة ولا ليل ولا نهار ولا تحول ولا مزاج ، ولا حيوانات ولا غيرها...))قال الألوسي:((ولا ضرر عندي في اعتقاد أنهما مؤثران بإذن الله كسائر الأسباب عند السلف الصالح)) روح المعاني المجلد السابع الجزء الثالث عشر ٢٢٥ .

(2) - أي: تغليب المذكر على المؤنث .

(3) - أسلوب التغليب في القرآن الكريم ٢٩ .

ذلك لغةً ، فلم يتقدم ما يحتمل الإفراد والتثنية والجمع مثل (مَنْ) كما جاء فيما شاهها من آيات ، فالسياق هنا يطلب التثنية معنى ولفظاً وصحةً لغوية .

د- دلالة التذكير والتأنيث .

الأصلَ في الحال أن تكون مذكرة مع صاحبها المذكر ومؤنثة مع صاحبها المؤنث ، ولكن وجد في الأسلوب القرآني أحوال خالفت ذلك ، وتلك هي التي نريد أن نقف عندها، ونحاول التعرف على سر تلك الظاهرة فيها ، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٣٥ البقرة] [١] ، فقوله تعالى (حنيفاً) فيه آراء [٢] أبرزها النصب على الحالية ، ولكن وقع الاختلاف في صاحب الحال ، فعلى قول من قال : إن صاحب الحال هو (إبراهيم) [٣] فالحال موافقة لصاحبها في التذكير فلا إشكال، وأما على القول بأن (حنيفاً) حال من (ملة) فهذا هو الشاهد هنا،وهو ظاهر كلام أبي حيان[٤]، والمختار عند السمين[٥]، ويلزم على هذا القول المخالفة بين الحال وصاحبها في التأنيث، وكان مقتضى الموافقة أن تكون الحال (حنيفة) فما سر مجيئها بالتذكير وما توجيه ذلك ؟.

يجيب عن ذلك أبو حيان بقوله :" وذكّر (حنيفاً) و لم يؤنث لتأنيث (ملة)؛ لأنه حمل على المعنى؛ لأن الملة هي الدين ، فكأنه قيل : نتبع دين إبراهيم حنيفاً ، وعلى هذا خرجه هبة الله بن الشجري في المجلس الثالث من أماليه[٦] قال : قيل إن حنيفاً حال من إبراهيم، وأوجه من ذلك عندي أن يجعله حالاً من الملة ، وإن خالفها بالتذكير ؛ لأن الملة في معنى الدين ، ألا ترى أنها قد أبدلت من الدين في قوله جل وعز : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٦١ الأنعام] " [٧].

---

(١) – ومثل هذا ما جاء في: ٩٥ آل عمران، و ١٢٥ النساء، و١٦١ الأنعام ، و ١٢٣ النحل .

(٢) – منها النصب بفعل محذوف تقديره :(نتبع) ، ومنها النصب على القطع، انظر الدر المصون ١٣٧/٢ .

(٣) – من هؤلاء الزمخشري انظر الكشاف ١٩٤/١، والمنتجب الهمذاني، انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣٨١/١ ، والطاهر ابن عاشور ، انظر التحرير والتنوير ٧٣٧/١ .

(٤) – انظر البحر ٦٤٧/١،٦٤٦ .

(٥) – انظر الدر المصون ١٣٧/٢ .

(٦) – أمالي ابن الشجري ٢٥/١.

(٧) – البحر المحيط ٦٤٧/١ .

وللسمين في توجيه هذه المخالفة وجهان ، يظهران في قوله بعد ذكر الأقوال في إعراب (حنيفاً):" الرابع ــ وهو المختار ــ أن يكون حالاً من (ملة)... فإن قيل، صاحب الحال مؤنث فكان ينبغي أن يطابقه في التأنيث ، فيقال : (حنيفة) ، فالجواب من وجهين : أحدهما: أن فعيلاً يستوي فيه المذكر والمؤنث[(١)]، والثاني أن الملة بمعنى الدين ..."[(٢)] وعلى كلا الإعرابين يكون (حنيفاً) حالاً لازمة [(٣)] .

وبهذا يتجلى لنا سر المخالفة بين الحال وصاحبها في قضية التأنيث والتذكير ، أما وجه إيثار صيغة التذكير على التأنيث على القول باحتمال المقام لها ، فلعله راجع إلى تغليب جانب المذكر على المؤنث وهو كثير في القرآن[(٤)]، ومنه قوله تعالى :﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [٣٣ إبراهيم]، فـــ " دائبين حال من الشمس والقمر، فلما اتفقا لفظاً ومعنى ثنيا ولا يضير اختلافهما في التذكير والتأنيث"[(٥)]، أو لأن في صيغة التذكير شمول ليس في صيغة التأنيث، فلو كانت (حنيفة) لما احتمل المعنى كونها حالاً من (إبراهيم) ، والاتساع في الدلالة من خصائص اللفظ القرآني، أما اختصاص هذه الحال (حنيفاً) بصاحبها وتكرر ذلك، فهذا ما يفسره أبو حيان بقوله: " وإنما خص إبراهيم دون غيره من الأنبياء وإن كانوا كلهم مائلين إلى الحق[(٦)]، مستقيمي الطريقة حنفاء ؛ لأن الله اختص إبراهيم بالإمامة، لما سنه من مناسك الحج والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام مما يُقتدى به إلى قيام الساعة، وصـــارت الحنيفية علماً مميزاً بين المؤمن والكافر "[(٧)].

ومما جاء بصيغة التذكير وظاهر السياق يطلب التأنيث قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [١٨ غافر] ،

---

(١) – سواء أكان بمعنى مفعول أو بمعنى فاعل وهو الصحيح خلافاً لمن قصره على ما كان بمعنى مفعول ، انظر في ذلك : الكتاب ٦٣٨/٣ ، وشرح المفصل ١٠٢/٥ ، وللتوسع في هذا انظر الوصف المشتق في القرآن الكريم ٢٩٠ وما بعدها.

(٢) – الدر المصون ١٣٧/٢ .

(٣) – انظر البحر المحيط ٦٤٧/١ / والدر المصون ١٣٧/٢ .

(٤) – انظر أسلوب التغليب في القرآن الكريم ١٢٩ وما بعدها .

(٥) – إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١٩٤/٥ .

(٦) – وهذا أظهر معاني (حنيفاً) التي أوصلها أبو حيان إلى عشرة ،انظر البحر المحيط ٦٤٧/١ .

(٧) – انظر البحر المحيط ٦٤٧/١ .

فقوله تعالى : (كاظمين) حال ، قيل من أصحاب القلوب على المعنى [1] و قيل من القلوب ، قال العكبري : " الحال من القلوب ؛ لأن المراد أصحابها "[2]، وهو قول الحوفي[3]، وقال الألوسي بعد ذكر الآراء وتوجيه قراءة (كاظمون) :"وبذلك يترجح كون الحال من القلوب"[4]، وعلى هذا الرأي فلا بد من بيان سر جمع (كاظمين) وعدم إفرادها، وكونها بالتذكير لا بالتأنيث الذي يقتضيه التوافق بين الحال وصاحبها ؛ إذ كان يمكن أن يقال: إذ القلوب لدى الحناجر كاظمة .

يقول الزمخشري في هذا: " ويجوز أن تكون حالاً من القلوب ، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها ، مع بلوغها الحناجر ، وإنما جمع الكاظم جمع السلامة ؛ لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ... "[5]، " على المجاز العقلي "[6] .

وهذا إن كان يفسر الجمع فإنه لا يفسر العدول عن التأنيث إلى التذكير،والذي يظهر لي-والله أعلم-أنه حال من أصحاب القلوب"فكأنه قيل:إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين عليها،وهو من:كظم القربة إذا ملأها وسد فاها،فالمعنى:ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج مع النفس؛فإن كاظم القربة كاظم على الماء ممسكها عليهلئلا يخرج امتلاء،وفيه مبالغة عظيمة"[7]،وهذا ما يناسب ذلك الموقف العظيم،ويصور تلك الشدة الكبيرة التي تلحقهم يوم الآزفة،وهو على هذا لا مخالفة فيه.

وكل ما سبق هو من الحال التي وقعت بعد المضاف والمضاف إليه ؛ لذا روعي في التذكير أو التأنيث أحدهما ، وهي تمثل نوعاً من تلك الأحوال التي يشعر السياق بضرورة التأنيث فيها وقد جاءت مذكرة ،وهـنـاك شواهد أخرى لأحوال سُبقت بما يصلح للمذكر والمؤنث، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ [٦ الأنعام] [8]،

---

[1] - وهو قول الزمخشري ، انظر الكشاف ١٥٧/٤ .
[2] - التبيان ١١١٧/٢ .
[3] - انظر الدر المصون /٤٦٧ .
[4] - روح المعاني المجلد الثاني عشر الجزء الرابع والعشرون ٥٩ .
[5] - الكشاف ١٥٧/٤ ، والبحر المحيط ٢٤٦/٩ .
[6] - التحرير والتنوير ٢٤/ ١١٤ .
[7] - روح المعاني المجلد الثاني عشر الجزء الرابع والعشرون ٥٨ .
[8] -ومثلها ما جاء في ٥٢هود، و ١١نوح .

فـــ (مدراراً) حال من (السماء)[1] ، وكان مقتضى الظاهر أن تؤنث فيقال:(مدرارة) فلماذا جاءت مذكرة ؟.

لذلك توجيهات عدة بعضها يخص الحال ذاتها وبعضها يتعلق بالصاحب ، فقيل في ذلك إن "(مدراراً) يوصف به المذكر والمؤنث ، وهو للمبالغة في اتصال المطر ودوامه وقت الحاجة..."[2].وقال الألوسي:"وهو صيغة مبالغة يستوي فيه المذكر والمؤنث" [3] ، وهذا بالنظر إلى الصيغة ذاتها ، أما بالنظر إلى الصاحب، فإن السماء تأتي بمعنى المطر وهو مروي، عن ابن عباس[4]، ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " في أثر سماء كانت بليل"[5]، وعليه قول الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً[6].

وعلى هذا تكون المطابقة ظاهرة بين الحال وصاحبها،وفي مجيء الحال بهذه الصيغة المصورة بتكرار حروفه ا(مدراراً) مع إسناد الإرسال إلى السماء،من المبالغة ما لا يخفى[7]،ولاشك أن مجيء (مدراراً) مذكرة دون (مدرارة) المؤنثة قد جعل في الأسلوب دلالات أعمق،فقد دلنا تذكير (مدراراً) على أن السماء يقصد بها هنا المطر،وذلك على سبيل المبالغة،ولو كانت مؤنثة لربما لم تنصرف إلى هذا المعنى،وهذا يدلنا أن اختيار الصيغة في القرآن له عمقه وبعده الدلالي،الذي قد ندرك منه ــ على قصورنا ــ نزراً يسيراً.

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [١٣٩ الأنعام]، فـــ (خالصة) بالرفع خبر (ما) وأنث على المعنى ؛ لأن ما في البطون أنعام ، وقرئ: (خالصةً) بالتأنيث والنصب على الحال[8]، وهي قراءة ابن عباس والأعرج وقتادة وابن جبير، وقرأ الأخير أيضاً (خالصاً) بالنصب بغير (تاء) وانتصاب

---

[1] – انظر التبيان ٤٨١/١ والبحر المحيط في أحد قولين ٤٤٠/٤ .

[2] – البحر المحيط ٤٤٠/٤ .

[3] – روح المعاني المجلد الرابع الجزء السابع ٩٥، وانظر التحرير والتنوير ١٣٩/٧ .

[4] – انظر روح المعاني المجلد الرابع الجزء السابع ٩٥ .

[5] –صحيح البخاري (مع الفتح) ، كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم،ح(٨٤٦)، ٣٨٨/٢.

[6] – هو لمعوِّد الحكماء: معاوية بن مالك، وهو في خزانة الأدب ٥٥٥/٩ ، ولسان العرب مادة (سما)، ٣٩٩/١٤.

[7] – انظر روح المعاني المجلد الرابع الجزء السابع ٩٥ .

[8] – انظر التبيان ٥٤٢/١.

كل ذلك على الحال[1] .

وتعليل المخالفة بين الحال وصاحبها في التأنيث على قراءة النصب والتأنيث إما أن يكون حملاً على المعنى كما تقدم ؛ لأن ما في بطون الأنعام أنعام ، وإما لأن (خالصة) مصدر على وزن (فاعلة) كالعاقبة والعافية ، وإما لأن التأنيث للمبالغة فهو كعلاّمة ونسابة ورواية، قال ابن جني: " والتاء فيه للمبالغة، وليكون أيضاً بلفظ المصدر، نحو: العاقبة والعافية والمصدر إلى الجنسية، فهي أعم وأوكد"[2] .

و مما هو قريب من هذا في التحليل و التعليل قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [٥ الحشر] ،فـــ "انتصاب قوله:(قائمة) على الحال من الضمير المنصوب في (تركتموها) الراجع على (ما) وأُنث لأنه في معنى اللينة، وقرئ : (قائماً على أصوله) ، رداً على لفظ (ما) دون معناها، و(قُوَّماً) وهو جمع قائم "[3] والجمع هنا لمراعاة معنى (ما) فإنه جمع [4] .

وهكذا نجد أن في اختلاف هذه الحال من قراءة إلى أخرى بين التذكير والتأنيث دليلاً على اتساع اللغة، وبرهاناً على دقة اختيار اللفظة القرآنية، ففي مجيء الحال على هذين الموضعين التذكير والتأنيث شمول لمدلول السياق قبلها .

ومن شواهد هذا الموضوع مجيء صيغة التذكير في قراءة أو موضع،ومجيء صيغة التأنيث في قراءة أو موضع مماثل وذلك كما في قوله تعالى:﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[٦، ٧ القمر]، يقول أبوحيان: "قرأ قتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والجمهور:(خشعاً) جمع تكسير، وابن عباس وابن جبير ومجاهد والجحدري وأبو عمرو وحمزة والكسائي: (خاشعاً) بالإفراد، وقرأ أُبيّ وابن مسعود (خاشعةً)، وجمع التكسير أكثر في كلام العرب، وقال الفراء[5]وأبو عبيدة:كله جائز... وانتصب (خشعاً)، و(خاشعاً)، و(خاشعة) على الحال من ضمير (

---

[1] - انظر البحر المحيط ٦٦٠/٤ .

[2] - المحتسب ٢٣٢/١ ، وبالحمل على المعنى والمبالغة قال ابن جني ،وبالحمل على المعنى والمصدرية قال الفراء ، انظر معاني القرآن ٣٥٨/١، ٣٥٩ ،وبالمصدرية والمبالغة قال الزمخشري، انظر الكشاف ١٧/٢ وينظر أيضاً البحر المحيط ٦٦٠/٤.

[3] -الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤٤٧/٤ .

[4] - انظر الدر المصون ٢٨١/١٠ .

[5] - انظر معاني القرآن للفراء ١٠٥/٣ .

يخرجون) "[١] ، وقد وجه أبوحيان هذه القراءات كلها فقال : " من أفرد (خاشعاً) وذكّر فعلى تقدير : تخشع أبصارهم، ومَنْ قرأ (خاشعةً) وأنَّث فَعَلى تقدير: تخشع[٢]،ومن قرأ(خشعاً) جمع تكسير؛ فلأن الجمع موافق لما بعده وهو أبصارهم وموافق للضمير الذي هو صاحب الحال في (يخرجون) "[٣]،وهذه القراءات موافقة لما عليه سنن العرب في كلامها ؛ وقد صرح الفراء بأن الصفة إذا تقدمت على الجمع المؤنث جاز فيها الإفراد تذكيراً وتأنيثاً،وجاز مجيئها جمع تكسير[٤]،وأورد الطاهر ابن عاشور أن "لك في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد والتذكير...ولك التوحيد والتأنيث،... ولك الجمع"[٥] والأخير وهو الجمع أكثر في كلام العرب [٦] .

وقد جاءت (خاشعة) بالتأنيث صريحة في آيتين تشبهان -سياقاً ومعنى- آية القمر، وهما قوله تعالى:﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [٤٢،٤٣القلم]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [٤٣ ،٤٤ المعارج]، فــ(خاشعة) في الآيتين حال[٧]، ولم تكن (خشعاً أبصارهم) أو (خاشعاً أبصارهم) فما السر ؟ .

الحق أنني لم أجد-حسب اطلاعي- أحداً تحدث عن هذا، ولا عن سر الجمع في آية القمر وإفراده هنا، رغم تشابه الآيات حتى لا نكاد نلحظ فرقاً بينها، إلا في زيادة ذكر الذلة صريحة في آيتي القلم والمعارج ، أما آية القمر فلا نجد ذكراً للذلة، إلا ما يفهم من (مهطعين) قبلها ، ولعل في ذكر الجمع في آية القمر ما يصور استيلاء الذلة على الجمع كلّه، والسياق يصور الكثرة والجموع الغفيرة التي تقبل مسرعة إلى الداعي ، كأنهم جراد منتشر ، أما الإفراد في آيتي القلم والمعارج فلعل مرجعه أن المراد فيها تصوير لأفراد أولئك

---

[١] - البحر المحيط ١٠ / ٣٥ ، ٣٦ .

[٢] - هكذا نصه وفيه غموض كما لا يخفى.

[٣] - البحر المحيط ٣٦/١٠ .

[٤] - انظر معاني القرآن للفراء ١٠٥/٣ وكلام أبي حيان السابق كان تفسيراً لكلامه .

[٥] - التحرير والتنوير ١٧٧/٢٧ .

[٦] - انظر البحر المحيط ٣٦/١٠ ، والدر المصون ١٢٦/١٠ .

[٧] - انظر التبيان ١٢٤١/٢،١٢٣٥ .

القوم داخل ذلك التجمع العظيم ، وهو تصوير لحالهم في حين استحضار بعض شؤونهم العبادية في الدنيا ، فناسب هنا الإفراد لنقل الصورة الدقيقة لهم، ولحظات تحققهم من خطئهم وعظيم جرمهم، بصرفهم العبادة في الدنيا لغير الله ، وفي خضوعهم وخشوعهم لتلك الأوثان والمعبودات، فكأن آية القمر فيها تصوير لعموم الناس، فجاء الجمع مناسباً لذلك ، وأما في القلم والمعارج فالمراد جنس معين، وهم المنكرون للبعث المكذبون للرسل، العابدون للأوثان ، فجاء بما يناسب الجنس من الإفراد إشعاراً بضعفهم فكأنهم على كثرتهم التي لم تغن عنهم شيئاً شخص واحد .

وإذا كنا نحاول بيان سر الجمع والإفراد فإنه من الصعوبة بيان سر التذكير والتأنيث في أسلوب يحتملهما ، وهذا أمر أقر به الدارسون، يقول إبراهيم بركات إن:" قضية التأنيث في اللغة العربية شائكة الدراسة ، متشعبة الجوانب مضطربة الأفكار متخالفة المعاني، وليس ذلك في اللغة العربية وحدها ، بل في اللغات جميعها"[1]، ولعل في تأنيث (خاشعة) دون تذكيرها أو جمعها ما يؤيد ما سبق من إرادة تصوير صفتهم وذلتهم ؛ لأن الضعف في جانب المؤنث والمفرد أظهر منه في جانب المذكر والجمع ، والله أعلم .

ولعله اتضح الآن أن مخالفة الحال لصاحبها في التذكير والتأنيث كان له سببان رئيسان: إما أن يكون الحال ذاتها مما يشترك فيه المذكر والمؤنث ، كالمصادر وبعض الصيغ، وإما أن يكون صاحب الحال محتملاً للتذكير والتأنيث كـــ(ما) الموصولة ، وأما السر في مجيء هذه الأحوال على هذه الصيغ المحتملة فهو دليل من أدلة إعجاز القرآن الكريم في دقة ألفاظه ، حيث إن المراد في مثل هذه الشواهد شمول الحال لأفراد صاحبها ، فلما كان الصاحب محتملاً للحالتين: التذكير والتأنيث، كان من الكمال أن تأتي الحال على ما يحتمل الحالتين أيضاً .

ومن الملحوظ في كل ما سبق أن الطاغي هو التذكير مع الصاحب المؤنث ، أما العكس فهو نادر، وقد نبه إلى هذا ابن جني، وأن هذا ليس بمستغرب فقال:"وتذكير المؤنث واسع جداً ؛ لأنه رد فرع إلى أصل، لكن تأنيث المذكر أذهب في التناكر والإغراب "[2] .

---

[1] – التأنيث في اللغة العربية ٥ .

[2] – الخصائص ٢/٤١٥ .

المبحث الثاني : دلالة الحال الجملة.

شكلت الحال الجملة بنوعيها مساحة كبيرة من حجم الحال في القرآن الكريم حيث زادت فيما تبين لي على ألف شاهد ، كانت الفعلية فيها أكثر من الاسمية [1] .

ولا شك أن هذا العدد الهائل يحتاج لبيان مدلوله إلى دراسة مطولة مستفيضة ، ولو سرنا في ذلك على منهج كشف الدلالة عن طريق جمع المتشابهات والموازنة بينها وأسرار اختلافها لسردنا صفحات طويلة ، وحتى لا تختل أسس هذه الدراسة فسنحاول التركيز على الظواهر البارزة في الدلالة ، ونشير إلى ما عدا ذلك ، ونذكر ما يكفي عن إيراده مفصلاً ، خاصة وأنه قد سبق الحديث عن بعض الدلالات ، كما هو الحال في الاسم والفعل مما يجعلنا هنا نهتم بظواهر أخرى لم نطرقها من قبل ، وقد رأيت أن تكون دراسة دلالة الجملة هنا على النحو الآتي:

أولاً : دلالة الجملة الفعلية والاسمية.

ثانياً: دلالة النوع في الجملة الفعلية.

ثالثاً: دلالة النوع في الجملة الاسمية.

---

(1) - هذه حصيلة إحصاءات اطلعت عليها عند باحثين اعتنوا بهذه الظاهرة،وهم الدكتور عبد الفتاح الحموز في(التأويل النحوي في القرآن الكريم)، والدكتور عبد الستار سعيد في (الحال في الأسلوب القرآني)، والأستاذ خضر عبد السلام حسن أبو طالب في (من فيض الرحمن في بلاغة النحو في القرآن)، وقد كان أقرب نتائج تلك الإحصاءات إلى ما عندي من مادة مجموعة هو الدكتور الحموز، وقد صرح بأن الجملة الاسمية الحالية أقل من الفعلية، انظر:التأويل النحوي في القرآن الكريم ٢/ ٩٤٠ .

أولاً: دلالة الجملة الفعلية والاسمية.

لاشك في اختلاف دلالة الجملة عن المفرد، ولاشك في اختلاف دلالة نوعي الجملة، وسنركز الحديث هنا في الدلالة الوضعية للجملة بغض النظر عن موقعها، وإن كنا سنجعل مدار التدليل والتحليل على الشواهد الحالية؛ وقد رأيت أن تكون دراسة ذلك على النحو الآتي:

١- بين الجملة الفعلية والاسمية .

٢- بين الفعلية والاسم المفرد .

٣- بين الاسمية والاسم المفرد .

وهذه المحاور الثلاثة هي التي ستدور حولها الدراسة ، وسأجعل الشواهد الجامعة بين الدلالتين هي الأساس ، سواء أكان ذلك بسبب تعدد الحال ووقوعها جملة فعلية واسمية ، أو فعلية واسماً مفرداً ، أو اسمية واسماً مفرداً ، أم كان ذلك بسبب وجود قراءة أخرى بالفعل أو الاسم ، أما الشواهد التي يمكن أن تتبادل فيها الدلالات فتلك ألحقها بها إلحاقاً على سبيل التدعيم والتقوية.

١- بين الجملة الفعلية والاسمية.

سبق أن تعرضنا من قبل لما يخص بعض هذه الدلالة ، وخاصة فيما يذكره البلاغيون عن هاتين الجملتين ، واتضح لنا كيف أنهم يتحدثون تحت ذلك عن دلالة الاسم والفعل ، وأحياناً يجعلون الجملة الفعلية والاسمية ودلالتهما تبعاً لحديثهم عن دلالة الاسم والفعل ، وسنقتصر هنا على الموازنة الدلالية في الشواهد الحالية بين هاتين الجملتين ، ومما يوضح ذلك إبراز الفوارق الدلالية الناتجة عن التغيرات الأسلوبية فيهما ، ونجمل ذلك فيما يأتي:

أ- أن الجملة الاسمية أكثر لواحق من الفعلية ، " ذلك أنها قد تتركب من اسم وفعل ؛ فكل ما يُكوِّن الفعل في جملتها من لواحق تحمله معه ... وبذلك تحمل الجملة الاسمية الفعل ولواحقه ، ثم تتميز عنه بأشكال أخرى ، أو قل بلواحق على صور شتى ... وبجانب هذه اللواحق للخبر في الجملة الاسمية توجد لواحق أحياناً للاسم الأول المرفوع فيها [المبتدأ] ... ومن لواحق مبتدأ الجملة الاسمية : التوابع : نعته، والعطف عليه

وتوكيده والبدل منه ... وهناك لواحق أخرى ... وبذلك يتضح أن لواحق الجملة الاسمية تتعدد تعدداً واسعاً "[1] .

والحق أن هذا ملحظ جدير بالعناية، وهو ربما يفسر لنا تنوع دلالة الجملة الاسمية بين الثبوت والدوام والتجدد، وذلك أنها تتداخل فيها كل مميزات الجملة الفعلية ولا عكس ، ولهذا تحمل الاسمية من الدلالات ما لا تحمله الفعلية ، ومن ذلك دلالة التأكيد مثلاً، وهي ما أشار إليه ابن الأثير في حديثه عن (الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما) حيث يقول : " وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب من التأكيد والمبالغة " [2].

ويظهر من شواهده التي ساقها أنه يقصد بدلالة التأكيد والمبالغة الجملة الاسمية أولاً وما فيها من مؤكدات مثل (إنّ)، و(اللام) في خبرها ، و(لام) الابتداء ، و(لام) القسم[3] ، وأما الفعلية فلم يذكر لها إلا نون التوكيد الثقيلة والخفيفة على سبيل الإلحاق حيث قال :"وكذلك فاعلم أن لنون الثقيلة متصلة بهذا الباب"[4] .

ب- أن التقديم للاسم أو الفعل في التركيب القابل لذلك يشعر بأهمية المقدم ،فإن قيل مثلاً: سافر زيد ، فهذه جملة فعلية ، فإذا قُدِّم (زيد) فقيل: زيد سافر كانت اسمية ، وهذه الجملة الاسمية لا تشعر بثبوت ولا استمرارية ، بل هي مثل سابقتها ، إلا أن هناك دلالات أخرى نتجت عن تغير موقع الكلمة، ففي الفعلية بُني الاسم على الفعل وجُعل الفعل هو الأهم وأنت به أعنى، وفي الاسمية بُني الفعل على الاسم ، فاحتمل الفعل ضميره ، فتعددت الدلالة ، فقد دلت الجملة أولاً على أهمية الاسم واعتناء المتكلم أو المخاطب به ، ودلت ثانياً على التأكيد لتكرر الإسناد[5]، وربما دلت على الاختصاص[6] .

---

(1) - تجديد النحو ٢٥٣، ٢٥٤.

(2) - المثل السائر ٢٦٩/٢ .

(3) - انظر المثل السائر ٢٦٩/٢ وما بعدها .

(4) - المثل السائر ٢٧٤/٢ .

(5) - انظر بعض هذا في تجديد النحو ٢٥٣ وما بعدها.

(6) - انظر الطراز ٢٥/٢ وما بعدها .

وهذا التقديم للمعتنى به منهما له مواطن تقتضي تقديمه وتأخير غيره ، ولعلنا نجد بغيتنا في هذا الأمر فيما سطره عبد القاهر بقوله، عن تقديم المتحدث عنه بعد واو الحال: " إذا علم السامع من حال رجل أنه على نية الركوب والمضي إلى موضع، و لم يكن شك وتردد أنه يركب أو لا يركب، كان خبرك فيه أن تقول: (قد ركب)، ولا تقول :(هو قد ركب) ، فإن جئت بمثل هذا في صلة كلام، ووضعته بعد واو الحال حسن حينئذ ، وذلك قولك:(جئته وهو قد ركب)، وذلك أن الحكم يتغير إذا صارت الجملة في مثل هذا الموضع، ويصير الأمر بمعرض الشك، وذاك أنه إنما يقول هذا من ظن أنه يصادفه في مترله، وأنه يصل إليه من قبل أن يركب، فإن قلت : فإنك قد تقول: (جئته وقد ركب) بهذا المعنى ، ومع هذا الشك - فإن الشك لا يقوى حينئذ قوته في الوجه الأول أفلا ترى أنك إذا استبطأت إنساناً فقلت: أتانا والشمس قد طلعت، كان ذلك أبلغ في استبطائك له من أن تقول: أتانا وقد طلعت الشمس..."[(١)]،وهذا كلام في غاية الجمال لكنه يحتاج إلى تبيين وإيضاح، ولعل ما سيأتي من تحليل للشواهد وموازنات بين الجمل الاسمية ما يسهم في ذلك .

د- أن الجملة الاسمية ، الأصل فيها أنها تدل على الثبوت والاستمرار ، بخلاف الفعلية فهي تدل على التجدد والحدوث، وهذا ليس على إطلاقه بل لذلك تفصيل مرده في الجملة الاسمية إلى نوع الخبر، فله الأثر الكبير في تغير الدلالة ، يقول الكفوي :"الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت، وإن دخل عليها حرف النفي دلت على استمرار الثبوت، وإذا دخل عليها حرف الامتناع دلت على استمرار الامتناع، وإذا كان خبرها اسماً فقد يقصد بها الدوام والاستمرار الثبوتي بمعونة القرائن، وإذا كان خبرها مضارعاً فقد يفيد استمراراً تجددياً"[(٢)] .

" أما الفعلية فإنها تفيد الحدوث: يجيء الشتاء، يفوز المجتهد... وقد تفيد الاستمرارية بالقرائن... ومنه قول المتنبي:

---

(١) - دلائل الإعجاز ١٣٥، ١٣٦ .

(٢) - الكليات : ١٠١٠ المتن والحاشية .

على قدر أهل العزم تأتي العزائـــم   وتأتي عـــلى قـــدر المكـــــــارم
وتعظم في عين الصغـــير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائـــم "[1]

وخلاصة القول في هذا أن الحكم على الجملة الاسمية بأنها تفيد الثبوت والاســتمرار دائماً حكم لا يصح على إطلاقه بل هي خاضعة في ذلك لنوع خبرها ، فإن كـــان اسمـــاً مفرداً أو جملة اسمية مثل: الضوء ساطع، والله فضله عظيم ، فهي تفيد الثبوت لعدم وجود منازع لدلالة الاسم فيها، وربما تدل على الدوام بالقرائن ، وإن كان الخبر فيهـــا فعـــلاً مضارعاً دلت على التجدد والنشوء، وإن كان ماضياً دلت على الانقضاء فلا اســتمرارية ولا تجدد [2] .

ومما تنوعت فيه الحال بين الجملتين ، والصاحب واحد قوله تعالى :﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ ﴾ [٢٤٧ البقرة] ، فقوله جل ذكره: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾ و ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ ﴾ حالان عطفت إحداهما على الأخرى[3]، واختلفتا في الاسمية والفعلية، فما سر ذلك ؟ .

يقول الطاهر بن عاشور :" وجعلوا الجملة حالاً للدلالة على أنهم لما ذكروا أحقيتهم بالملك لم يحتاجوا إلى الاستدلال على ذلك؛ لأن هذا الأمر عندهم مسلم معروف ، إذ هم قادة وعرفاء وشاوول رجل من السوقة، فهذا تسجيل منهم بأحقيتهم عليه، وقوله: ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ ﴾ معطوفة على الحال فهي حال ثانية، وهذا إبداء مانع فيه مـــن ولاية الملك في نظرهم ، وهو أنه فقير وشأن الملك أن يكون ذا مال ..."[4]، ولو عدنا إلى

---

[1] – البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ٩٢،والبيتان في ديوان المتنبي(بشرح العكبري) ٣٧٨،٣٧٩/٣، ولمزيد من معرفة هذه الفروق بين الجملتين يحسن الاطلاع على ما قيل حول قوله تعالى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ [٦٢ الأعراف] في حق نبي الله نوح عليه السلام،و قوله تعالى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [٦٨ الأعراف]في حق نبي الله هود عليه السلام،انظر ذلك بتوسع في:مفاتيح الغيب١٢٧/١٤ ،وملاك التأويل٤٠١/١ ،والبحر المحيط٨٧/٥،ونظم الدرر ٤٣٦/٧، وتفسير أبي السعود ٢٣٨/٣،وروح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ١٥٦ ، والتحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ٢٠٣ .

[2] – ينظر بعض هذا في البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ٩٢.

[3] – انظر الكشاف، وكلام الزمخشري الممتنع عن الفرق بين الواوين ، وكذلك تعليق ابن المنير عليه ٢٩٢/١ وانظر أيضاً البحر المحيط ٥٧٥/٢ والدر المصون ٥٢١/٢ .

[4] – التحرير والتنوير ٤٩١/٢ .

الجملة الاسمية: (ونحن أحق) لرأينا أنها تدل على أنهم أرادوا إظهار أنفسهم وإشهارها ، لذا قدموا ضميرهم (نحن) ثم جاءوا بـــ (أحق) الدالة على التفضيل، ثم ذكروا ما فيه التفضيل، ثم نصوا على المفضَّل عليه (منه)، فالكلام مبني على إظهار اختصاصهم وفخرهم، وهذا ما تنوء به الجملة الاسمية على النمط الذي سيقت عليه[1]، يقول الحرالي : " فثنوا اعتراضهم بما هو أشد، وهو الفخر بما ادعوه من استحقاق الملك على من ملكه الله عليهم، فكان فيه حظ من فخر إبليس حيث قال حين أمر بالسجود لآدم: أنا خير منه "[2] .

أما الحال الثانية فقد جاءت فعلية فعلها مضارع منفي، وكان يمكن أن تجيء مكانهـــا الاسمية فيقال : (وهو فقير) فتتناسق الجملتان ، فما سر العدول عنها إلى الفعلية ؟.

إن أول ما يلحظ في الفرق بينها أن الفعلية نافية ، والاسمية مثبتة ، والمناسب هنا النفي ؛ لأنهم أرادوا بمجموع كلامهم إبراز أحقيتهم بالملك ، فذكروا ذلك بإثبات الأحقية لهم ، فكان من المناسب أن يضيفوا ما يبين عدم أحقيته وذلك بأن ينفوا عنه ما به يكون الملك في نظرهم وهو المال ؛ لأن الحاكم يتقوى به ويجلب به الأعوان، و " ليكفي نوائب الأمة فينفق في العدد والعطاء، وإغاثة الملهوف"[3] ، فلو قيل : (وهو فقير) لكان في ذلك إثبات لفقره فحسب ، وأما (ولم يؤت سعة من المال) ففيه تصريح بفقره ، وأنه وإن ملك منـــه شيء إلا أنه لا يفي بالمطلوب ، فلا بد من (سعة المال) ، وفيه تنصيص على نوع المفقـــود وهو (المال)، وأنه لو ملكه لربما قبل منه ذلك، ولعل فيه إشعاراً بأنه لا سبيل إلى اغتنائـــه بحال من الحال ، مثل قولهم : فلان لم يؤت العلم ، أي: مهما تعلم لا يُفلح ، فهذا مثله .

ومن الشواهد أيضاً قولـــه تعــــــــــــالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢٦٦ البقرة] ، فقولـــه جل ذكره : ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ ﴾ حـــــــال ، وكذلك (وله

[1] - انظر الضمير المنفصل في النظم القرآني دراسة بلاغية تطبيقية (رسالة ماجستير) ٢٧٠ .
[2] - نظم الدرر ٣/٤١٦، ٤١٧ .
[3] - التحرير والتنوير ٢/٤٩١ .

ذرية ضعفاء) فهو حال من الهاء في (أصابه)[1]، وهي حال متداخلة ، إحداهما جاءت فعلية فعلها ماض ، والثانية جاءت اسمية على تقديم الخبر شبه الجملة ، فما سر مجيء كل منها على ما جاءت عليه ؟.

لو قيل: له فيها من كل الثمرات وهو كبير محتاج لاحتمله الأسلوب، لكننا نجد أن جملة: (وأصابه الكبر) أدل على المطلوب وأعظم تصويراً لما سيقت له، وذلك لما في هذا الفعل(وأصابه) من الدلالة التي أشار إليها السمين بقوله :" وأتى به في هذه الآيات كلها ، نحو : فأصابه وابل، وأصابه الكبر ، فأصابها إعصار ؛ لأنه أبلغ وأدل على التأثير بوقوع الفعل على ذلك الشيء ، من أنه لم يُذكر بلفظ الإصابة ، حتى لو قيل : وَبَل ، وكَبِر ، وأعصرت لم يكن فيه ما في لفظ الإصابة من المبالغة "[2] ، وهذا يعني أن (وهو كبير) لا تعطي من مدلول سطو الكبر فيه، وتأثيره عليه ما تعطيه (وأصابه)، ثم التعبير بالماضي يدل على وقوع ذلك وتحققه ، وأن حالته هذه سابقة وما زالت ، وهذا يشعر بشدة الحاجة التي هو فيها ، ولو قيل بالاسمية: (وهو كبير) لما أشعر بذلك البتة ؛ لأنه لا دلالة فيها على المضي .

أما جملة (وله ذرية ضعفاء) فكان يمكن أن يكون مكانها (وأبناؤه صغار محتاجون) لكن ما ذُكر ، فيه تقديم للخبر (له) المشعر باختصاص ذلك به، ومجيء المبتدأ بهذا اللفظ: (ذرية) وهي كلمة تشعر بالضعف بخلاف (أبناء) ، وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ [٣٧ إبراهيم] وهو مشابه لهذا الموضوع في المسكنة والحاجة ، وكذلك وصفها (بضعفاء) ، ففيه إظهار لمدى مسكنة هذه الذرية ، يقول الطاهر بن عاشور:"وصف صاحبها بأقصى صفات الحاجة إلى فائدة جنته ، بأنه ذو عيال فهو في حاجة إلى نفعهم وأنهم ضعفاء - أي صغار - ....، وقد أصابه الكبر فلا قدرة له على الكسب غير تلك الجنة ....، فحصل من تفصيل هذه الحالة أعظم الترقب

---

[1] - انظر البحر المحيط ٦٧٢/٢، ٦٧٣ ، والدر المصون ٥٩٧/٢ ، ٥٩٨ .

[2] - الدر المصون ٥٩٨/٢ .

لثمرة هذه الجنة "[1] .

ويتضح لنا من هذا أن بيان اختصاص الاسمية بموقعها والفعلية بمكانها أمر لا يتوقف على دلالة الثبوت والاستمرار أو الحدوث والتجدد فقط ، بل هناك نظم الجملة له دلالته، ونوع الفعل له دلالته، واختيار اللفظ المعبّر له دلالته ، وإن كانت دلالة النشوء في الفعل ظاهرة؛ لأنه يدل على الحركة، وهي تقتضي التجدد ، فهو -كذلك-أقدر من الاسم على التصوير الحركي، وربما تظهر تلك الدلالة بصورة أوضح في الشواهد التي يلتقي فيها الحالان في الإثبات أو النفي، ويمكن لأحدهما أن يحل مكان الآخر دون قلق في التركيب، وإن كان هناك تفاوت في المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [٤٠ آل عمران]، فقوله تعالى:﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ جملتان حاليتان ، جيء هما لتعليل الاستعلام الحاصل من زكريا عليه السلام "على سبيل الاستعظام لقدرة الله"[2] "لتعذر عمل المكانين الذين هما سبب التناسل وهما: الكبر ، والعقْرة"[3]، يقول أبوحيان معللاً اختلاف الجملتين:"وكانت الجملة الأولى فعلية؛ لأن الكبر يتجدد شيئاً فشيئاً، فلم يكن وصفاً لازماً، وكانت الثانية اسمية والخبر(عاقر)؛ لأن كونها عاقراً أمر لازم لها لم يكن وصفاً طارئاً عليها، فناسب لذلك أن تكون الأولى جملة فعلية، وناسب أن تكون الثانية جملة اسمية"[4] .

ولعلنا نلحظ أن في قوله:﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ إشارةً إلى أن هذا الكبر الذي لحقه هو المعهود عادة في منع الإنجاب ، وهو ما توحي به (أل) في (الكبر) ، ولو قيل : (وأنا كبير) لكان فيه إخبار بكبره فحسب، وليس فيه إشارة إلى بلوغ الكبر المانع؛ لأنه ليس كل كبر يمنع من الإنجاب، ثم إن في الجملة الاسمية:(وأنا كبير) لو قدرناها ما يدل على أن هذا الكبر وصف لازم ، وهذا ليس بحق، بل الكبر وصف عارض طارئ بعد أن لم يكن ،

---

(1) - التحرير والتنوير ٥٤/٣ .

(2) - البحر المحيط ١٣٧/٣ .

(3) -التحرير والتنوير ٢٤٢/٣ ، وقد قال هذا على أن (أنّى) يقصد بها المكان.

(4) - البحر المحيط ١٣٦/٣ .

وأما جملة: (وامرأتي عاقر) فجاءت اسمية و لم تكن (وقد عقرت) ؛ لأن ذلك يوحي بتجدد العقم بعد أن لم يكن ، وهذا مخالف للواقع ولطبيعة العقم ؛ إذ هو حالة قديمة مستديمة فيها كما أشار إليه أبو حيان من قبل .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ [٦١ المائدة] ،فقوله جل ذكره:﴿ وَقَد دَّخَلُواْ ﴾ في موضع الحال من فاعل (قالوا) أو (آمنا)، (وهم قد خرجوا به) حال أخرى[1]، أما عن سر المخالفة بين الحالين فيقول ابن عطية: "وقوله (وهم) :تخليص من احتمال العبارة أن يدخل قوم بالكفر ثم يؤمنوا، ويخرج قوم وهم كفرة فكان ينطبق على الجميع: وقد دخلوا بالكفر وقد خرجوا به، فأزال الاحتمال قوله تعالى: (وهم قد خرجوا به) أي: هم بأعينهم"[2]، وبقيت الحال الأولى على فعليتها من غير ذكر ضميرهم؛ لأن الحديث عن اليهود المعاصرين له صلى الله عليه وسلم والمنافقين الذين لا ينتفعون بإرشاد[3]، فهم معلومون ولا يلتبس معهم غيرهم فلا حاجة لذكر ضميرهم ليميزهم ويخصصهم.

ويلمح أبوحيان سراً آخر وراء هذه المخالفة فيقول:" وقيل معنى (هم) للتأكيد في إضافة الكفر إليهم، ونفي أن يكون من الرسول ما يوجب كفرهم من سوء معاملته لهم، بل كان يلطف بهم ويعاملهم بأحسن معاملة،فالمعنى: أنهم هم الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم، لا أنك أنت الذي تسببت لبقائهم في الكفر،والذي نقول: إن الجملة الاسمية الواقعة حالاً المصدرة بضمير ذي الحال المخبر عنها بفعل أو اسم يحتمل ضمير ذي الحال آكد من الجملة الفعلية، من جهة أنه يتكرر فيها المسند إليه فيصير نظير: قام زيد زيد[4]،ولما كانوا حين جاءوا الرسول أو المؤمنين قالوا:آمنا ملتبسين بالكفر، كان ينبغي لهم ألا يخرجوا بالكفر،... بل يخرجون بالرسول مؤمنين ظاهراً وباطناً ، فأكد وصفهم

---

[1] – انظر التبيان ٤٤٩/١ .

[2] – المحرر الوجيز ١٤٧/٥ .

[3] – انظر المحرر الوجيز ١٤٦/٥ ، والبحر المحيط ٣١٠/٤ .

[4] – لعل الصحيح أنه نظير : قام زيد ، قام زيد ليظهر تكرر الإسناد ، فالقيام أسند إلى زيد مرتين، أما ما ذكره فهو تكرار في الفاعل من غير تكرر للعامل؛ وبهذا لم يتكرر الإسناد، وإنما يتكرر في الجملة الواحدة في مثل آية الاستشهاد.

بالكفر بأن كرر المسند إليه تنبيهاً على تحققهم بالكفر وتماديهم عليه ، وأن رؤية الرسول لم تجْدِ عنهم شيئاً و لم يتأثروا بها "[1] .

ويقول أيضاً " وخالف بين جملتي الحال اتساعاً في الكلام "[2] ، وهذا القول الأخير وزنه في البلاغة قليل ؛ لذلك نحاه أبوحيان جانباً ، وأتبعه بالتحليل المطول الجميل السابق الذي أكد فيه أن دلالة الجملة الحالية الاسمية على التأكيد – وهو أحد دلالاتها – نابع من جهة تركيبها ونظمها، وما ذكره ابن عطية أيضاً كان رائعاً ؛ لأن الكلام يحتمله ،وهكذا تأتي الجملة القرآنية بكل مكوناتها مصورة للمعنى المراد أدق تصوير وأبينه بحيث لا يختلط مع غيره ، ولا يختلط معه غيره.

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [٤٩-٥٠ إبراهيم] ، فجاءت الحال مفردة في (مقرنين)، وجملة اسمية في (سرابيلهم من قطران) وفعلية في (وتغشى وجوههم النار)[3]، ولعل السر في مجيء الحال المصورة للباسهم الناري اسمية أن المراد وصف نوع اللباس لا فعل اللبس، وهذا ثابت غير منشأ ولا محدث ، ولو قيل: (يلبسون من قطران) لأفهم ذلك أنهم يحدثون فعل اللبس آناً بعد آن، وما تدل عليه الآية هو ديمومة لبسهم ذلك لا تجدده أما غشيان النار لوجوههم فهو حادث متجدد بدليل تغير الجلود وسقوط فروة الوجه عند شرب الحميم ــ حمانا الله من ذلكــ فلما كان غشيان النار لوجوههم متكرراً متجدداً – وهو أنكى في العذاب – جاء التعبير معه بالفعل .

ومن الشواهد الجامعة بين الجملتين قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [٨-١٠ عبس]، يقول السمين: "﴿يَسْعَىٰ﴾:حال من فاعل(جاءك) ، وقوله:﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ جملة حالية من فاعل (يسعى) فهو حال من حال، وجعلها حالاً ثانية معطوفة على الأول ليس بالقوي "[4]، فالأظهر فيها أنها حال متداخلة،

---

[1] – البحر المحيط ٤/٣١٠ ، ٣١١ .
[2] – البحر المحيط ٤/٣١٠ .
[3] – انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣/١٨٠،١٧٩ .
[4] – الدر المصون ١٠/٦٨٨ .

يقول عبد الستار سعيد عن دلالة هاتين الجملتين :" دلالة (يسعى) غير دلالة (وهو يخشى) ففي (يسعى) دلالة على تصوير حركة الماشي الذي يقطع الطريق شيئاً فشيئاً ، وفي (وهو يخشى) إثبات الخشية من الله لذلك الماشي ، والجملتان حاليتان لا تقوم احداهما بما قامت به الأخرى"[(١)]؛ لأن الحال الأولى حركية فعلية فناسب إظهارها الفعل لما فيه من التنصيص على الحركة وهي (السعي) من أول الأمر، وهي حركة تنشأ شيئاً فشيئاً وهذه هي دلالة الفعل ، ولو قيل: (وهو يسعى) لكان في ذلك لفتاً للساعي ذاته لا لفعله ، فلما كان الساعي معلوماً والاهتمام إنما بتصوير حالته وهيئته في قدومه على النبي صلى الله عليه وسلم طالباً للمزيد من الخبر كان الفعل هو الأنسب لتصوير تلك الحال ، أما الحال الثانية فجاءت لبيان استقرار الخشية من الله في قلبه ، أو لإظهار ضعفه حيث كان أعمى لا قائد له فهو يخاف العثار والسقوط والهوام[(٢)]، وجيء بالضمير للتنصيص على أن ذلك الساعي هو من هذه الحالة ، أو لتأكيد اتصافه بالخشية وديمومتها فيه ، خاصة إذا نظرنا للخشية بأنها عمل قلبي الأصل فيه الديمومة فتناسبه الجملة الاسمية الدالة على ذلك .

وهكذا تتعدد الشواهد وتتنوع الصيغ والأساليب [(٣)] ، لكن يبقى للجملة الفعلية التي عمادها الفعل دلالتها الخاصة التي يسندها فيها لواحق وسوابق ، كأدوات النفي ونونا التوكيد ، وكل ذلك يؤثر في دلالة الجملة الفعلية ، وكذلك الاسمية فدلالة التوكيد فيها أظهر وأقوى لتعدد أدوات التوكيد معها على ما سبق ذكره ، وتبقى للفعل دلالة الإنشاء والحركة،وللاسم دلالة الثبوت والسكون، ويظل للسياق والقرائن في ذلك الأثر الكبير في الحكم بهذا أو ذاك .

٢- بين الجملة الفعلية والاسم المفرد .

هذا الجانب من الدلالة سبق التعرض له في المبحث الأول عند مناقشة الحال المفردة

---

(١) - الحال في الأسلوب القرآني ١٢٧ .

(٢) - البحر المحيط ٤٠٧/١٠ .

(٣) - هناك شواهد كثيرة يمكن دراستها هنا منها: ٣٨٢ البقرة ، ٢٦ آل عمران، ٤٣ إبراهيم ، ١١١ الشعراء ، ١٩ الرحمن، ١٥ الانفطار.

وبيان الفروق بين الاسم والفعل؛ لذا لن نقف عنده طويلاً، بل نكتفي بما يبرز دلالة الجملة الفعلية، وخاصة ماكان فعلها ماضياً[1] في مقابل المفرد، ولعل ذلك يتضح في مثل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡ ﴾ [٩٠ النساء]، فـ"(حصرت صدورهم) في موضع الحال، بإضمار قد،والدليل عليه قراءة من قرأ (حصرةً) صدورهم ، و(حصرات) صدورهم "[2] وهناك قراءة:حاصرات[3] ، وهي على كل ذلك حال[4] ، فما دلالة الفعل في قراءة الجمهور ، وما دلالة الاسم في القراءات الأخرى؟ .

المعنى مع الفعل يدل على أن حصول الضيق لصدورهم قد وقع وانقضى كما تشعر به دلالة الماضي ، فهم جاءوا وهذه حالهم ، لكن في الاسم (حصرةً) ما يشعر بوجود الضيق معهم ساعة المجيء واستمراريته معهم ، ولكن هناك قدر مشترك بين دلالتي الكلمتين ، وهو ثبوت ذلك ووقوعه، فصيغة الماضي تؤكد وقوع ذلك، والاسم يؤكد ثبوت ذلك واستمراره، ولعل المقصود من ذلك تحقيق وقوع ذلك منهم ، يقول البقاعي :" حصرت: أي ضاقت وهابت وأحجمت"[5] .

وهذه الآية بينت المستثنين من القتل والأخذ من الكافرين والمنافقين ،وكأن الحال الواردة هنا قد جاءت معللة لاستثناء هذا الصنف منهم الذين أضحوا كالمسالمين بترك القتال ، ويُلمح هنا البقاعي إلى دلالة الماضي في (جاءوكم) فيقول :" ولعله عبر بالماضي في (جاء) إشارة إلى أن شرط مساواتهم للواصلين إلى المعاهدين عدم التكرر ، فإن تكرر ذلك منهم فهم الآخرون الآتي حكمهم "[6] .

---

[1] سبق -بتوسع-مناقشة دلالة الاسم في مقابل الفعل وخصوصاً المضارع، انظر ص ٢١ وما بعدها من هذا البحث.

[2] - الكشاف ٥٤٧/١ .

[3] - انظر البحر المحيط ١٤/٤ .

[4] - انظر البحر المحيط ١٤/٤ .

[5] - نظم الدرر ٣٥٧/٥ .

[6] - نظم الدرر ٣٥٨/٥، ٣٥٧ .

٣- بين الجملة الاسمية والاسم المفرد.

أشرنا فيما سبق إلى دلالة الجملة الاسمية،وأنها تتأثر كثيراً بنوع خبرها[١]، فإن كان فعلاً جمعت بين دلالة التجدد والتأكيد أو التخصيص بسبب تقديم المسند إليه سواء في أسلوب النفي أم الإثبات،وإن كان الخبر مشتقاً دلت على الاستمرار والثبوت مع التأكيد والتقوية،أما المفرد فقد رأينا أن دلالته العامة هي الثبوت والاستمرار والسكون ، وحتى لو تكونت الجملة من اسمين فإن دلالتها تختلف عن المفرد؛ لأنها في تلك الحالة تحمل دلالة الاسمين مجتمعَين مسنداً احدهما إلى الآخر؛ لذا اعتنى دارسو القرآن ببيان سر مجيء الجملة الاسمية حالاً دون المفرد لما تحمله من دلالات ليست فيه، ومن ذلك دلالتها على التأكيد بسبب تكرر الإسناد، وخصوصاً إذا كان خبرها فعلاً أو مشتقاً، وكذلك دلالتها على المواجهة، بسبب بروز الضمير، كما في قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [٤٤ البقرة] .

يقول أبو حيان عن﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ﴾:"والجملة حالية ولا يخفى ما في تصديرها بقوله:(أنتم)من التبكيت والتقريع لأجل المخاطبة،بخلافها لو كانت اسماً مفرداً"[٢].

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[١١٣آل عمران]،فقد جاءت الحال هنا جملة (وهم يسجدون)،وكان ورودها بالمفرد:(سجداً)و(ساجدين)أكثر من الجملة،فما سر مجيئها هنا بالجملة ؟

جواباً عن ذلك نقول: إن السياق مع المفرد مختلف،والمدلول مغاير ولكل موطنه، فمع الإفراد نجد ذكراً لمقدمات تدل على السجود،وذلك بالأمر به كقوله تعالى:﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[٧٢ص] ، ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [١٥٤ النساء]، وفي هذه السياقات لا يصلح ذكر ما يبين صورة الفعل لوجود ما يغني عن ذلك وهو الأمر به ، فمن غير المقبول أن يقال: فقعوا له وأنتم ساجدون ؛ لأن

---

[١] - ولم نتعرض هناك لتحليل شيء من الشواهد على ذلك، بل كان الكلام موجزاً ، وكان تبعاً للحديث عن الاسم المفرد، انظر ص ٢٤ من هذا البحث.

[٢] - البحر المحيط ٢٩٦/١ .

المعنى يكون على هذا التركيب الأمر لهم بتقمص حالة السجود حتى قبل وصول جباههم الأرض ، وهذا غير مراد ولا يمكن فعله بل هو متعذر؛ لأن السجود ارتبط باللصوق بالأرض على هيئة معروفة ، بل المراد أمرهم بالسجود، فمعنى (فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) أي:اسجدوا، وإنما جاء التعبير بفعل (فقعوا) على سبيل الحث والأمر بالإسراع في تنفيذ الأمر الإلهي دون تباطؤ، أما قوله تعالى: (ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) لو قيل معها:(وأنتم ساجدون) لدل ذلك على أنهم مأمورون بالدخول وهم على هيئة السجود، ومعلوم أنه يتعذر دخولهم وهم على تلك الحال ، أما الآية التي نحن بصددها فلم يأت معها أمر ولا ذكر لمقدمات السجود، بل المراد حكاية حالهم والثناء عليهم فجاء على هذا النظم لحكاية الصورة الحركية للسجود، إضافة إلى ما فيها من دلالة التأكيد،يقول أبوحيان في تعليل ورودها اسمية "لتدل على التوكيد بتكرير الضمير وهو (هم) والواو في يسجدون ؛ إذ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد،وأخبرعن المبتدأبالمضارع...لتدل على التجدد"[(1)]،ويقول ابن عاشور " فقيدت تلاوتهم الكتاب بحال سجودهم وهذا الأسلوب أبلغ وأبين من أن يقال: يتهجدون ؛ لأنه يدل على صورة فعلهم "[(2)].

ومن شواهد كون الخبر مشتقاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [٥١ البقرة]، فقوله تعالى: (وأنتم ظالمون) جملة حالية اسمية "وأبرزت هذه الجملة في صورة ابتداء وخبر؛لأنها أبلغ وآكد ..."[(3)]، " وفائدة هذه الحال الإشعار بانقطاع عذرهم فيما صنعوا"[(4)] ، "ولو قيل: (ظالمين) لكان ذلك تصويراً لحال عارضة لا توازي تلك الموبقة العظيمة التي قارفوها، إضافة إلى أنها ستفقد التأكيد المذكور "[(5)] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [١١٢ البقرة] .

---

(1) - البحر المحيط ٣١٠/٣، وانظر تفسير أبي السعود ٧٣/٢ .

(2) - التحرير والتنوير ٥٨/٤ .

(3) - البحر المحيط ٣٢٤/١ .

(4) - التحرير والتنوير ٥٠٠/١ .

(5) - الضمير المنفصل في النظم القرآني دراسة بلاغية تطبيقية(رسالة ماجستير) ٢٣٥ .

يقول الرازي :" وموضع قوله:﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ موضع حال ، كقولك : جاء فلان وهو راكب أي: جاء فلان راكباً "[1] ، ولكن هل من فرق بينهما؟ ، يجيب عن ذلك الطاهر ابن عاشور فيقول:"وقوله:﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ جيء به جملة حالية لإظهار أنه لا يغني إسلام القلب وحده، ولا العمل بدون إخلاص بل لا نجاة إلا بهما، ورحمة الله فوق ذلك إذ لا يخلو امرؤ من تقصير"[2]،وما ذاك إلا لما في الجملة من تأكيد بسبب تكرر الإسناد،وهذا ما يصرح به أبوحيان في تحليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [٢١٧ البقرة]،حيث يقول:"والجملة من قوله: ﴿ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ في موضع الحال من الضمير المستكن في (فيمت)،وكأنها حال مؤكدة؛لأنه لو استغنى عنها فهم معناها؛لأن ما قبلها يشعر بالتعقيب للارتداد،وكون الحال جاء جملة فيها مبالغة في التأكيد؛إذ تكرر الضمير فيها مرتين بخلاف المفرد،فإنه ضمير واحد"[3].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [١٠٢ آل عمران]، يقول أبو حيان: " والجملة من قوله: (وأنتم مسلمون) حالية والاستثناء مفرغ من الأحوال، والتقدير: ولا تموتن على حال من الأحوال إلا على حالة الإسلام، ومجيئها اسمية أبلغ لتكرر الضمير،وللمواجهة فيها بالخطاب ، وزعم بعضهم أن الأظهر في الجملة أن تكون الحال حاصلة قبل ومستصحبة ، وأما لو قيل : (مسلمين) لدل على الاقتران بالموت لا متقدماً ولا متأخراً "[4] .

هذه بعض دلالات الجملة في مقابل المفرد، وهي تتنوع بحسب ما تتركب منه الجملة، فقد تدل على التأكيد، وأحياناً على الحصر، وقد تدل على التقريع والتوبيخ، بسبب المواجهة بالضمائر، وقد تدل على غير ذلك مما لا يدل عليه المفرد، وسيأتي مزيد بيان لدلالات الجملة الاسمية قريباً في دراسة أنواعها الداخلية[5].

---

[1] - مفاتيح الغيب ٤/٤ .
[2] - التحرير والتنوير ٦٧٥/١ .
[3] -البحر المحيط ٣٩٢/٢ .
[4] - البحر المحيط ٢٨٦/٣ .
[5] انظر ص ١١٨ومابعدها من هذا البحث.

ثانياً : دلالة النوع في الجملة الفعلية.

تتنوع الجملة الفعلية ، فتكون مضارعية و ماضوية، ولكلٍ منهما أقسام ، فتتنوع الدلالة تبعاً لذلك ، وسأشير هنا إلى أهم أنواع هاتين الجملتين ، وذلك من خلال التقسيم الآتي الذي رتبته بحسب الكثرة في الشواهد:

١- دلالة الجملة الحالية المضارعية .

أ- المضارعية المثبتة الخالية من (الواو) .

ب- المضارعية المثبتة المسبوقة بـ(الواو) .

ج- المضارعية المثبتة المسبوقة بـ(الواو) و(قد).

د - المضارعية المنفية.

٢- دلالة الجملة الحالية الماضوية .

أ- الماضوية المسبوقة بـ(الواو) و(قد) .

ب-الماضوية المسبوقة بـ(قد) دون (الواو) .

ج-الماضوية المسبوقة بـ(الواو) دون (قد) .

د-الماضوية الخالية منهما .

هـ- الماضوية المنفية.

١- دلالة الجملة المضارعية .

من خلال استعراض شواهد الجملة الفعلية يظهر طغيان الجملة المضارعية وكثرتها حيث جاوزت الماضوية بما يزيد على الضعف ، ومما لاشك فيه أن دلالة المضارع غير دلالة الماضي ، فالأول للزمن الحاضر والمستقبل، والثاني لما مضى وانقضى ؛ ولهذا تتغير مواقعهما واستعمالاتهما، ولكن قد نجد من خلال التحليل تداخلاً يوجب الكشف عن سره ، ونحن لا نعدم في الشواهد القرآنية ما يلفت أنظارنا إلى علاقة جامعة بينهما ، لكن يبقى لكل منهما مدلوله الذي يميزه، ولعلنا نلمح ذلك ظاهراً في قوله تعالى:﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [١٣ المائدة]،فـ(يحرفون) و(نسوا) متعاطفان ومحتملان للحالية والاستئناف[١] ، والسؤال هنا عن سر تخالفهما في الحال والمعنى،يقول الشهاب:"والتعبير بالمضارع فيه للحكاية واستحضار الصورة"[٢]،ويقول ابن عاشور: "وجيء بالمضارع للدلالة على استمرارهم ، وجملة (ونسوا حظاً) معطوفة على جملة (يحرفون) ، والنسيان مراد به الإهمال المفضي إلى النسيان غالباً ، وعبر عنه بالفعل الماضي ؛ لأن النسيان لا يتجدد ... "[٣] .

وهذا يعني أن أسباب المخالفة بين الفعلين يمليها المقام ، والغرض المراد بيانه، وقد جاءت الجملة المضارعية الواقعة حالاً على قسمين :المضارعية المثبتة، والمضارعية المنفية، وسندرس دلالة هذين القسمين من خلال مايأتي:

أ- المضارعية المثبتة الخالية من (الواو).

وهي الأكثر والأعم، ومن شواهدها قوله تعالى:﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [٢٧ الأعراف]، ومعلوم أن النزع كان قبل الإخراج فهو بالنسبة له ماضٍ فما سر التعبير بالمضارع هنا وما مدلوله؟.

يقول أبو حيان عن جملة (ينزع): " حال من الضمير في (أخرج) أو من (أبويكم) ؛

---

[١] - انظر التحرير والتنوير ١٤٣/٦ .

[٢] - حاشية الشهاب على البيضاوي ٤٤٠/٣٠ .

[٣] - التحرير والتنوير ١٤٣،١٤٤/٦ .

لأن فيها ضمير الشيطان وضمير الأبوين ، فلو كان بدل (ينزع) نازعاً تعين الأول ؛ لأنه إذاك لو جُوِّز الثاني لكان وصفاً جرى على غير من هُوَ له ، فكان يجب إبراز الضمير ... و(ينزع) حكاية أمر قد وقع ؛ لأن نزع اللباس عنهما كان قبل الإخراج ، ونسب النزع إلى الشيطان لما كان متسبباً فيه "[١] ، ويقول ابن عاشور :" والمقصود من هذه الحال تفظيع هيئة الإخراج بكونها حاصلة في حالة انكشاف سوآتهما ، ... والتعبير عما مضى بالفعل المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تمكنه من أن يتركهما عريانين "[٢].

إذاً هذه إحدى دلالات المضارع وهي استحضار الصورة العجيبة، ومن شواهد هذا النوع أيضاً قوله تعالى:﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾ [١٦ يوسف] ، فـ(يبكون)، جملة حالية من فاعل (جاءوا) [٣] وفي اختيار المضارع هنا للكشف عن حال الإخوة سر عظيم؛ لأن ذلك هو الذي يصور حالهم بدقة ، إذ الفعل المضارع يدل على التجدد والحدوث وعلى كون الحدث غير ثابت بل هو طارئ ، ولما كان بكاؤهم هو بكاء الكذب والتصنع[٤] ، وكان طارئاً لغرض معين ، فهو ليس بسجية ولا بحقيقة كان التعبير بالمضارع أدل على ذلك ، وفي المضارع هنا إشارة إلى نشوء هذا البكاء عند المجيء ، فهم قد أحدثوه إحداثاً ولم يكن من سجيتهم وإلا للازمهم منذ مفارقتهم يوسف ، وفي المضارع أيضاً إشارة إلى قلة حدهم على يوسف؛ حيث لم يستمر معهم البكاء المتصنع عليه مدة يمكن أن يوصف فيها بأنه مستمر ، وهكذا نجد المضارع قد حمل هنا دلالة أخرى مع استحضار الصورة، وهي الإشعار بالنشوء والحدوث .

ومن الشواهد قوله تعالى:﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [٥١ العنكبوت] .

يقول ابن عاشور: " وجملة (يُتلى عليهم) مستأنفة أو حال... واختير المضارع دون الوصف بأن يقال: متلواً عليهم؛ لما يؤذن به المضارع من الاستمرار فحصل من مادة

---

(١) – البحر المحيط ٣٢/٥ .

(٢) – التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ٧٧،٨٧ .

(٣) – انظر التبيان ٧٢٥/٢ .

(٤) – انظر نظم الدرر ٣٠/١٠ .

(يُتلى) ومن صيغة المضارع دلالة على عموم الأمكنة والأزمنة"[1]، وهذه دلالة ثالثة تضم إلى ما سبق ذكره، ولعل مما ساعد في التعميم البناء للمجهول، وعدم تقييد الفعل بمكان ولا زمان .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [١٩ الأحزاب] ، فهذا وصف للمنافقين وحالهم عندما رأوا الجيوش مقبلة، وتيقنوا الحرب[2] والرؤية هنا بصرية ، وعلى هذا فـ(ينظرون) و(تدور) جملتان في موضع الحال :" والحالان للمنافقين، وقد عبرت المضارعية عن حالتهم أدق تعبير "[3] ، يقول الطاهر بن عاشور: " وجيء بصيغة المضارع ليدل على تكرر هذا النظر وتجدده ، وجملة (تدور أعينهم) حال من ضمير (ينظرون)، لتصوير هيئة نظرهم نظر الخائف المذعور الذي يحدق بعينيه إلى جهات يحذر أن تأتيه المصائب من إحداها "[4] .

وهكذا نجد أن للمضارع قدرة تصويرية فريدة، وهذا ظاهر في كثير من شواهده فصيغته لاتسهم في استحضار الصورة فحسب، بل تجعلها -فوق ذلك- حركية مؤثرة.

ب- المضارعية المثبتة المسبوقة بـ(الواو) .

ويبدو أن أكثر النحويين لا يرون حالية الجملة المضارعية المسبوقة بالواو، ويجعلونها مستأنفة أو أن الواو زائدة، ومن قال بالحالية قدر مبتدأً قبلها فجعلها من قبيل الجملة الاسمية، يقول عبد الستار سعيد بعد استعراض شواهد هذا النوع وأنه وارد في القرآن بحيث لا يمكن دفعه: "والأولى ــ في نظري ــ أن نقول: إن المضارعية المثبتة المسبوقة بالواو إن دلت على الحال فهي حال، ولا حاجة إلى التأويل، وقد وردت هذه الجملة في القرآن ولم يقدر المعربون مبتدأً محذوفاً في غير موطن"[5] ، وفي تقدير الضمير إخراج للمضارعية عن دلالتها التي تميزها ، تلك الدلالة التي كثيراً ما كررها أكابر النحاة مثل أبي حيان وقد مر معنا ذلك في غير موطن، فلا شك أن إبقاءها على حالها، والقول بحاليتها إذا دل

---

(1) - التحرير والتنوير ١٤/٢١ .

(2) - انظر التحرير والتنوير ٢٩٦/٢١ .

(3) - الحال في الأسلوب القرآني ١٩٠ .

(4) - التحرير والتنوير ٢٩٧/٢١ .

(5) - الحال في الأسلوب القرآني ٢٠١ .

السياق على ذلك هو الأليق باحترام أسلوب القرآن المعجز، الذي يجب أن نجعله هو الحكم والمرجع في كل شيء، ولنتأمل الآن دلالة هذه الحال ودلالة الواو الداخلة عليها وما أضفته من معانٍ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٩١ البقرة] .

يقول الزمخشري: " أي: قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراءه التوراة "[(١)]، ويقول الشهاب عن جواز دخول الواو على المضارع: " وهو مذهب الزمخشري ... والتعبير بالمضارع لحكاية الحال ولا استئناف كما قيل؛ لأن الحال أدخل في رد مقالتهم أي: قالوا ذلك مع مقارنته لما يشهد ببطلانه"[(٢)]، ويبدو أن في مجيء الواو زيادة إيضاح لذلك الاقتران ، ولعلنا نجد بعض هذا المعنى عند ابن عاشور حيث يقول:"جيء بالمضارع محاكاة لقولهم :(نؤمن بما أنزل علينا) ، وتصريحاً بما لوحوا إليه ورد عليهم ، أي يدومون على الإيمان بما أنزل عليهم ويكفرون كذلك بما وراءه ، فهم يرون أن الإيمان به مقتضٍ للكفر بغيره ، على أن للمضارع تأثيراً في معنى التعجب والغرابة وفي قرنه بواو الحال إشعار بالرد عليهم "[(٣)]، وإنما أشعرت بذلك ؛ لأنها تدل على تعلق ما بعدها بما قبلها .

ج- المضارعية المثبتة المسبوقة بـ(بالواو) و (قد).

ومن شواهد هذا النوع قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [٥ الصف] .

يقول أبو حيان:" (وقد تعلمون) جملة حالية تقتضي تعظيمه وتكريمه فرتبوا على علمهم أنه رسول الله ما لا يناسب العلم وهو الإذاية، و (قد) تدل على التحقيق في الماضي والتوقع في المضارع ، والمضارع هنا معناه المضي؛ أي وقد علمتم ... وعبر عنه بالمضارع ليدل على استصحاب الفعل " [(٤)] ، ويقول ابن عاشور: " وقد جاءت جملة الحال من

---

(١) - الكشاف ١/١٦٥ .

(٢) - حاشية الشهاب على البيضاوي ٢/٣٢٨ .

(٣) - التحرير والتنوير ١/٦٠٧ .

(٤) - البحر المحيط ١٠/١٦٥ .

قوله: (وقد تعلمون) ... مصادفة المحلَّ من الترقي في الإنكار ، و(من)[1] لتحقيق معنى الحالية ، أي وعلمكم برسالتي عن الله أمر متحقق لما شاهدوه من دلائل رسالته ، وكما أكد علمهم بـ(قد) أكد حصول المعلوم بـ(أن) المفتوحة فحصل تأكيدان للرسالة ....، والإتيان بعد (قد) بالمضارع هنا للدلالة على أن علمهم بذلك مجدّد بتجدد الآيات والوحي ، وذلك أجدى بدوام امتثاله ؛ لأنه لو جيء بفعل المضي لما دل على أكثر من حصول ذلك العلم فيما مضى "[2] .

وهذا تحليل ضاف وافٍ ، وهو -كما نرى- يذكر أن دلالة (قد) مع المضارع للتحقق لا التوقع، وينسب ذلك للمحققين في موضع آخر[3] فيقول " ودخول (قد) على المضارع لا يخرجها عن معنى التحقيق عند المحققين من أهل العربية ، وأن ما توهموه من التقليل إنما دل عليه المقام في بعض المواضع لا من دلالة (قد) ومثله إفادة التكثير "[4] ، والذي يظهر أنه توجيه أبي حيان لمثل هذا الأسلوب يصل به إلى التحقيق ؛ لأنه جعله بمعنى المضي ، والماضي إذا دخلت عليه (قد) دل على التحقيق كما صرح الطاهر بذلك، وبهذا فلا تخالف بين العَلَمين ، أو لعل المضارع إذا كان بمعنى الماضي كانت (قد) معه للتحقيق، وإن كان لغير ذلك كانت للتوقع .

د- المضارعية المنفية .

ليست الجمل المضارعية المنفية في الكثرة مثل المثبتة ولا تبلغ شطرها ، ولا شك أن دخول أداة النفي يجلب دلالة أخرى ليست في الفعل الأصلي ، ونقصد بهذه الدلالة ما لا يكون في الفعل المثبت المضاد للفعل المنفي ، مثل: لم يغتنِ في مقابل : افتقر ؛ فإن نفي الغنى ليس مثل إثبات الفقر ، يقول عبد الستار سعيد:"عبّر القرآن الكريم عن الحال بالمضارعية المنفية،وقد تنوع حرف النفي الداخل على هذه الجمل فهي منفية بـ(لا) بكثرة،ومنفية بـ(ما) أو بـ(إنْ) التي بمعنى (ما) كما جاءت منفية بـ(لم) و(لمّا) بقلة، وهي في كل

---

(1) – لعل الصحيح و (قد) ؛ لأنها هي التي مع الفعل ، وبدليل تكراره لها بعد ذلك .

(2) – التحرير والتنوير ٢٨/١٧٩،١٧٨.

(3) – عند قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ [١٨ الأحزاب] .

(4) – التحرير والتنوير ٢١/٢٩٤ .

ذلك مرتبطة بصاحبها بالواو مع الضمير،أو مرتبطة بالضمير فقط "[1] .

ومن شواهد تلك الحال ما كان النفي فيه بـــ(لا) كقوله تعـــالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [٧٨ النحـــل]، فقوله جل ذكره: ﴿ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، "جملة حالية أي: غـــير عـــالمين"[2] ، ويقول الطاهر ابن عاشور: "وجملـــة ﴿ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ حـــال مـــن الـــضمير في ﴿ أَخْرَجَكُم ﴾، وذلك أن الطفل حين يولد لم يكن له علم بشيء، ثم تأخذ حواسه تنقـــل الأشياء تدريجياً، فجعل الله في الطفل آلات الإدراك وأصول التفكـــر"[3] ، ولا شـــك أن المعنى سيتغير لو قيل بالإثبات: أخرجكم جاهلين ؛ لأن في: (لا تعلمون شيئاً) معنى ليس في (جاهلين) ؛ وذلك أن المولود الخارج من بطن أمه لا يمكن وصفه بالجهل ؛ لأنـــه لا يستطيع التعلم ، وإنما يوصف بالجهل من استطاع دفعه عنه ولم يفعل ، فهو يملك أدوات العلم ومع هذا لم يتعلم فهذا جاهل،أما من فقد الأدوات كالمحروم من العقل أو المولود فلا يقال عنه:جاهل بل يقال، لا يعلم شيئاً،وفي إظهار حرف النفي هنا إيماء إلى أن المراد نفي العلم عند خروجهم من بطون أمهاتهم، فالمقصود نفي العلم لا إثبات الجهل،ونفي العلـــم يشعر بأنه إذا انتهى مانعه،ووجدت وسائل تحصيله وُجد،وهذا ما يؤيده ذكر وسائل التعلم بعده:﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ ﴾، ثم إن نفي العلم أعظم في التدليل علـــى نعمة الله على عباده ؛ لأنهم خرجوا إلى هذه الحياة ولا علم لهم فأمكنهم من ذلك بإيجاد وسائله تفضلاً منه وتكرماً، ولو قيل:جاهلين لم يكن في القدر مثل﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾؛ لأن الوصف بالجهل لا يستلزم عدم العلم التام بل قد يكون الجهل نـــسبياً في أمـــور دون أخرى ؛ لذا فإن إثبات الجهل ليس نصاً في عدم العلم بالكلية ، أما نفي العلم فهـــو بـــيِّن الدلالة في عدم وجود شيء منه فهو جهل تـــام عام ، ويؤيد أن المراد هو ذاك مجيء : ﴿ شَيْـًٔا ﴾ منكراً في سياق النفي فهو للعموم أي: أيَّ شيء ،كما أن التنصيص على نفـــي العلمية أقوى من ذكر ما يستلزمها وهو الجهل ، فالدلالة الصريحة غير دلالة الاستلزام .

---

(1) – الحال في الأسلوب القرآني ٢٢٨ .

(2) – البحر المحيط ٥٧٤/٦ .

(3) – التحرير والتنوير ٢٣٢/١٤ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحۡمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [٦١، ٦٢ مريم].

يقول البقاعي :" ولما كانت الجنة دار الحق ، وكان أنكأ شيء لذوي الأقدار الباطل ، وكان أقل ما ينكأ منه سماعه ، نفى ذلك عنها على أبلغ وجه فقال : (لا يسمعون فيها لغواً) أي: شيئاً ما من الباطل الذي لا ثمرة له "[١] ، ولعل ابن عاشور كان أقرب إلى التماس سر النفي هنا ، وأنه كان بضد ما كانوا يلاقون من أذى في الدنيا على ألسنة الكافرين والمنافقين ، حيث يقول: "وجملة: ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ ﴾ حال من (عباده) ، واللغو فضول الكلام وما لا طائل تحته ، وإنفاؤه كناية عن انتفاء أقل المكدرات في الجنة ، وكناية عن جعل مجازاة المؤمنين في الجنة بضد ما كانوا يلاقونه في الدنيا من أذى المشركين ولغوهم "[٢] ، ولو قيل بغير النفي : يسمعون فيها سلاماً ؛ لأنه بعض مؤدى قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ﴾، لما أفهم أن أذى الكلام الباطل وكدره منفي عنهم ، ومعلوم أن السرور بالكلام الحسن لا يوازي الراحة من لذع الكلام الخبيث السام ، ولو خير إنسان بينهما لاختار السلامة من سماع الأذى على التلذذ بالكلام الحسن ؛ لأنه مركوز في الطبائع أن دفع الضرر مقدم على جلب النفع ؛ لذا كان غاية السرور هنا هو إعلامهم بالراحة من خَرْق ذلك الأذى لأسماعهم ، والعجب من نظم هذه الجملة حيث جمعت بين ذلك وبين إثبات سرورهم بالكلام الطيب في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا سَلَـٰمًا ﴾، فهي جامعة بين النفي والإثبات ، وهذا هو الجمع بين السرورين: صرفِ مسببات الأذى ، وجلبِ عوامل الأنس والسرور .

أما النفي بـ(لم) فعليه قوله تعالى:﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِى بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [٢٠ مريم][٣] .

يقول أبو حيان عن آية آل عمران (ولم يمسسني بشر):"جملة حالية ... وهذا نفي عام أن يكون باشرها أحد بأي نوع كان من تَزَوُّجٍ أو غيره "[٤] ، ولعلنا نتساءل الآن

---

[١] – نظم الدرر ٢٢٦/١٢ .

[٢] – التحرير والتنوير ١٣٧/١٦ .

[٣] – ومثلها آية ٤٧ آل عمران ، وإنما ذكرت آية مريم مكانها لاشتمالها على شاهدين .

[٤] – البحر المحيط ١٥٨/٣ .

عن سر هذا النفي ، ولِمَ لمْ يكن : أنى يكون لي غلام وأنا عفيفة ، فتنوب عـن الحـالين المنفيين ؟.

الجواب : أنه لو قيل: وأنا عفيفة، لم يكن فيه بيان للاستغراب الذي ناها ؛ لأن العفيفة قد تكون متزوجة فلا غرابة في إتيان الولد ، لكن في نفي المساس والبغاء استجلاب للـرد على التهمة المتبادرَة إليها عند وقوع ذلك مع عـدم الـزوج ، وفيهـا إظهـار كامـل للاستغراب؛ إذ كيف يكون ولد دون مساس الرجل : " أي بنكاح أصلاً حلال ولا غيره، بشبهة ولا غيرها "[1] ، يقول الدكتور منير سلطان :" وقد يقـصد النفـي لذاتـه ؛ لأن المناسبة تقتضيه ... وقد يقصد التعبير به ؛ لأنه أقوى من الإثبات الصريح وأبلـغ نحـو: ...﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾، ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى ﴾ أبلغ من (وأنـا عزبـة) لم أتزوج وهي كناية دقيقة تتناسب مع أدب القرآن الكريم ، كناية عن صفة، بها من الدقـة والوضوح والهيئة النابضة بالحياة ، ما لا تستطيع تصويره لفظة (عزبة) الـتي لم تـرد في القرآن مذكرة ولا مؤنثة "[2] .

والذي يظهر – والله أعلم – أن الحال الأولى: ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ كانت بيانـاً لشدة استغرابها ذلك ؛ ولذا أَظْهرت أبرز موانع ذلك وهو عدم قربان ذَكَر لها، حيـث لا يُألَف أن تحمل المرأة بغير هذا السبيل، وأما الحال الثانية فجاءت إظهاراً لعفتها حيـث لا طريق إلا نفي البغاء عنها ؛ لأنها غير متزوجة:(و لم أك بغياً) ، يقول ابن عاشـور عنـها: "فالكلام كناية عن التنزه عن الوصم بالبغاء بقاعدة الاستصحاب، والمعنى : ما كنت بغيـاً فيما مضى أفأعد بغياً فيما يستقبل!"[3]،ولا ننسى هنا دلالة (لم) مع المضارع ، فهي تقلب معناه إلى المضي فيستحيل المعنى هنا إلى: مامسني بشر، وماكنت بغياً، وإنما جـاء الفعـل بصيغة المضارع ؛لأنها حالة عجيبة، فقُصد استحضارها.

ومما جاء فيه النفي بـ(لما) قوله تعـالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(1) – نظم الدرر ١٢/١٨٥ .

(2) – بلاغة الكلمة والجملة والجمل ٢٢٨، ٢٢٩ .

(3) – التحرير والتنوير ١٦/٨٢ .

مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [٢١٤ البقرة]،فقوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِكُم﴾، " الجملة حال ، والتقدير : غير آتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، أي: أن دخول الجنة لا بد أن يكون على ابتلاء وشدائد ... "[١] ، يقول الزمخشري عن (لما) " و (لما) فيها معنى التوقع وهي في النفي نظيرة (قد) في الإثبات "[٢]، ويقول أبو حيان :" و (لمّا) أبلغ في النفي من (لم) ؛ لأنها تدل على نفي متصلاً بزمان الحال، فهي لنفي التوقع "[٣] ، وهذا يعني أن الحال التي تُنفى بها حال عظيمة متوقَّعة لا بد منها، وهكذا يؤكد أثر أداة النفي الداخلة على الفعل في دلالته ، يقول العلوي :"واعلم أن لحروف النفي تعلقاً بالبلاغة لما يلحقها من الأسرار القرآنية ، والمعاني الشعرية بحسب مواقعها ومواردها "[٤] ، ويؤكد الدكتور أحمد مختار البزرة أثر تنوع أداة النفي فيقول :" في لغتنا عدة أدوات للنفي ، وهي وإن اشتركت في معنى النفي لمضمون ما دخلت عليه تختلف فيما بينها في توجيه النفي ، وفي سعة حدوده أو ضيقها ، فما تفيده (لم)، هو غير المعنى المستفاد من (لما) ، وفي النفي بـ(لا) النافية للجنس من استغراق أفراد النوع ما ليس في (ما) في حد ذاتها "[٥] .

وإذا كان هذا هو شأن الأداة في تنوع المعاني ، فإن الفعل ذاته له خصائصه التي تميزه عن نظائره ، ولاسيما في الاستعمال القرآني ، يقول الدكتور فتحي الدّجني فيما يخص المضارع في القرآن الكريم ، وأنه يختلف في خصائصه عن الاستعمال الوضعي المحدد بالزمن المعروف له: " والخلاصة أن المضارع في قرآننا الكريم جاء على ثلاثة أنواع ، وكل فيه إعجاز خاص ، فقسم حدث ويستمر حدوثه حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وقسم ثان لم يحدث... وسوف يحدث بإذن الله بعد هذه الحياة الفانية ، وقسم ثالث وهو الذي قاسٍ عليه النحاة ، ولكنه مع ذلك معجز في إخباره عن الغيب..."[٦] .

---

(١) – البحر المحيط ٣٧٢/٢ .

(٢) – الكشاف ٢٥٦/١ .

(٣) – البحر المحيط ٣٧٣/٢ .

(٤) – الطراز ٢٠٦/٢ .

(٥) – أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم ٩٩ .

(٦) – الإعجاز النحوي في القرآن الكريم ١٩٢ .

٢- دلالة الجملة الماضوية .

جاءت الجملة الماضوية مثبتة في موضع الحال على أنواع: فتارة مسبوقة بـــ(الـــواو) و(قد) ، وتارة بـــ(قد) دون (الواو) ، وتارة خالية منهما ، وتارة خالية من (قد) مسبوقة بـــ(الواو) ، وجاءت أيضاً منفية لكنها أقل من المثبتة.

أ- الماضوية المسبوقة بـــ(الواو)و(قد).

وشواهدها كثيرة ويصعب تحليها كلها، لكنني نظرت فيها فرأيت أنها تجتمع في دلالتها في أمر عام هو التعليل والتفسير، إما للاستفهام التعجبي أو الإنكاري، أو للنهي أو للنفي، أما الإثبات فيظهر فيه اللوم و العتاب والتقريع ثم تأتي الحال الماضوية لتعليل ذلك.

فأما الاستفهام فقد كانت أكثر الشواهد عليه، والتعليل فيها بيِّن لا خفاء فيه ، ومن ذلك(وقد كان) في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥ البقرة] ، وقوله تعالى:﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [٢١ النساء] [1]، ونقف مع قوله تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [٨٠ الأنعام]، فـــ"الجملة من قوله: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ حالية، أنكر عليهم أن تقع منهم محاجة له،وقد حصلت من الله له الهداية لتوحيده،فمحاجتهم لا تجدي؛لأنها داحضة"[2]،وليس يخفى هنا مجيء الحال لتعليل إنكاره عليهم المحاجة،وفي اجتماع (الواو) و(قد) مع الماضي ما يشعر بتحقق ذلك على وجه ظاهر؛فـــ(الواو) للربط،و(قد) للتحقيق،والماضي يدل على الانقضاء،فحصل من هذا كله التدليل على كمال الإنكار عليهم،لظهور ما يرد محاجتهم وهو هداية الله له حتى كأنها معلومة لهم يقرون بها،يقول ابن عاشور مبيناً هذا الأمر:"وجملة ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ حال مؤكدة للإنكار...وشأن الحال المؤكدة للإنكار أن يكون اتصاف صاحبها بها معروفاً عند المخاطب، فالظاهر أن إبراهيم نزلهم في خطابه مترلة من يعلم أن

---

(١) - وانظر غير ما ذكر ٤٠ آل عمران ، ١١٩ الأنعام، ٥١،٩١ ويونس ، و١٢ إبراهيم ،و ١٢٥ طه، و٨مريم ، و ٥٣ سبأ، و٢٨غافر ، و ١٣ الدخان، و ٨ الحديد، و ١٤نوح .

(٢) - البحر المحيط ٥٦٩/٤.

الله هداه ، كناية على ظهور دلائل الهداية"(١).

وأما النهي والنفي ، فيظهر فيه التعليل لسبب النهي أو النفي ، ومن ذلك تعليل النهي بالحال(وقد جعلتم) في قوله تعالى:﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [٩١ النحل]، وقوله تعالى:﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ [٢٨ق](٢)،وأما النفي فيظهر في مثل قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [١٣ الحجر].

وأما الإثبات فلا يخرج-غالباً- عما سبق من حيث التعليل لتعجب أو إنكار ونحوه ، كما يظهر بعض ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾[٦٠ النساء]،فقوله جل ذكره:(وقد أمروا) "جملة حالية من قوله: (يريدون")(٣)، والمعنى أن إرادهم تلك لا تتوافق مع ما أمروا به؛ إذ من العجيب أن يجتمع التحاكم إلى الطاغوت مع الأمر بالكفر به.

ومن الشواهد قوله تعالى:﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [١٦١ النساء]،فقوله جل ذكره:﴿ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ "جملة حالية تفيد تأكيد قبح فعلهم وسوء صنيعهم؛إذ ما نهى الله عنه يجب أن يبعد عنه،...والربا محرم في جميع الشرائع"(٤).

ب- الماضوية المسبوقة بـــ(قد) دون (الواو) .

وشواهدها قليلة وغير متمحضة للحالية بخلاف ما كان مع الواو فالحالية فيه جلية بينة،ولعل سبب ذلك ما في الواو من الربط والوصل،مما يجعل الخالي منها كالأجنبي فيمكن أن تتعاوره مواقع أخرى غير الحالية،ومن شواهد ذلك قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ [١٣ الممتحنة].

يقول البقاعي عن هذه الآية:"ولما كان السامع لهذا (٥) يتوقع بيان سبب الغضب ،

---

(١) – التحرير والتنوير ٣٢٧/٧.

(٢) – انظر فيها البحر المحيط ٥٣٨/٩.

(٣) – البحر المحيط ٦٨٩/٣.

(٤) – البحر المحيط ١٣٣/٤، وقريب من هذا ٦ الرعد، ٩ مريم.

(٥) – أي: للنهي المتقدم والوصف بغضب الله عليهم .

قال معللاً ومبيناً أنه لا خير فيهم يرجى وإن ظهر خلاف ذلك: ﴿ قَدْ يَئِسُواْ ﴾، أي: تحققوا عدم الرجاء من الآخرة، أي: من أن ينالهم فيها خير ما"[1]، فكأنه قيل: لم هذا النهي والوصف ؟ فقيل: لأنهم قد يئسوا، و(قد) لتأكيد ذلك وتحقيقه، لكن الملحوظ أن وجود الواو معها أظهر في التعليل وأقوى في التأكيد؛ ولهذا كثر اقترانها بها في مواطن الإنكار والاستبعاد والنهي والتقريع كما مر سابقاً .

ومما كانت فيه الحالية ظاهرة قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ [١١ الطلاق]، فـ " جملة ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ حال من الضمير المنصوب في يدخله "[2] ، ويبدو أن البقاعي لحظ معنى خاصاً من خلو الحال هنا من الواو حيث صارت منفصلة قائمة بذاتها ، لذا يمكن أن تكون من جملة ما يُقال للمؤمن في ذلك اليوم، لا مما يحكى عن حاله في الدنيا ، يقول البقاعي عن هذه النتيجة التي ختمت بها الآية إن " من حقها أن يُتوقَّع قولها مِنْ كل مَنْ سمع هذه البشرى: ﴿ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ " [3] .

والحق أن الفرق بين ما فيه الواو مما خلا منها سواء هنا أو في مواطن الربط الأخرى دقيق لا يُدْرَك كنهه بسهولة ،ولعلنا نبين بعض ذلك في الحديث عن الرابط[4].

ج- الماضوية المسبوقة بـ(الواو) دون (قد) .

وشواهد هذا النوع كثيرة ولا حاجة معها إلى تقدير (قد) ، ويكفينا في هذا قول أبي حيان عن الفعل الماضي الواقع حالاً بغير قد: " ولا يحتاج إلى إضمار (قد) ؛ لأنه كثر وقوع الماضي حالاً في لسان العرب بغير (قد) فساغ القياس عليه "[5] .

ومما هو ظاهر في تلك الشواهد أن ما جاء منها في سياق الاستفهام والإنكار كان الغرض منه التعليل ، ومن ذلك(وكنتم) في قوله تعالى:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ

---

(١) – نظم الدرر ٥٢٧/١٩ .

(٢) – التحرير والتنوير ٣٣٨/٢٨ .

(٣) – نظم الدرر ١٧١/٢٠ .

(٤) – انظر ص ٢٩١من هذا البحث .

(٥) – البحر المحيط ٤٨٩/٧ .

أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [٢٨ البقرة] ، وهذا أظهر من غيره مع فعل الكون ، ونقف مع بعض شواهد هذا النوع ، التي منها قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [٨٩ البقرة] ، يقول الطاهر ابن عاشور:"و جملة ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ في موضع الحال، وفائدتها هنا استحضار حالتهم العجيبة وهي أنهم كذبوا بالكتاب والرسول في حال ترقبهم لمجيئه وانتظار النصر به، وهذا منتهى الخذلان والبهتان "[١] .

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾ [٥٧ الأنعام]، فـ" جملة: (وكذبتم به) في موضع الحال من (بينة)، وهي تفيد التعجب منهم أن كذبوا بما دلت عليه البينة ..."[٢]، وفي اختيار صيغة الماضي هنا:(وكذبتم) للتدليل على أن هذه الصفة متمكنة من أولئك المعاندين له صلى الله عليه وسلم، ولكن ماذا يكون المدلول لو قيل : وقد كذبتم به ؟ .

إن (قد) – كما يظهر لي – تزيد تأكيد وقوع الفعل قبل الكلام الذي سبقه ، لكن إذا قيل (وكذبتم) كما هو في النظم الكريم فإن في ذلك إلماحاً إلى أن التكذيب مصاحب لدلالة البينة على صدقه صلى الله عليه وسلم ، وإنما عُبِّر معه بالماضي تأكيداً لتأصل التكذيب فيهم واستعدادهم لهم قبل ذلك، ثم إن التكذيب إذا كان يصاحب البينة يكون أشد قبحاً ؛ لأنه ليس له ما يسوغه من نسيان أو طول عهد .

وعلى هذا جاء قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١٥ يوسف] فقوله تعالى:﴿وَأَجْمَعُوا﴾ محتملة للحالية والعطف[٣]، وحذفت (قد) معها للإشارة إلى أن إجماعهم وتصميمهم مصاحب لذهابهم به، وهم وإن كانوا قد اقترحوا وضعه في البئر إلا أن التقرير النهائي في ذلك لم يحصل إلا بعد أن تمكنوا منه وذهبوا به، عند ذلك حصل الاجتماع والإجماع على

---

[١] – التحرير والتنوير ٦٠٢/١ .

[٢] – التحرير والتنوير ٢٦٦/٧ .

[٣] – انظر التبيان ٧٢٥/٢ .

ذلك، وإنما عُبِّر بالماضي للتدليل على أن أصل هذا الأمر سابق ماضٍ، وهذا موافق تماماً لما قصه القرآن من خبرهم،ولو قيل:وقد أجمعوا، لكان إجماعهم وتصميمهم منعقـداً قبـل ذلك،وليس الواقع كذلك؛ لأنهم كانوا مترددين فبعضهم يريد قتله، وواحد منهم هو الذي اقترح تغييبه في البئر .

ويبدو أن هذا ملحظ ظاهر في مجيء (قد) وحذفها مع الفعل الماضي الواقع حـالاً ، فما كان حاصلاً من قبل وأريد بيان تأكيد وقوعه في الزمن الماضي ، وأن الكلام من إنكار أو استغراب أو تعجب أو تقريع مبني عليه فتجيء معه (قد) والواو ، وما كان مراداً منـه إظهار استصحابه لما قبله إلا أنه مؤكد أو له علائق قديمة فيجيء معه الماضي بغير (قد) .

ومما يشهد لما قلنا ويعضده ما جاء عليه النظم في قولـه تعـالى:﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [٤٧ الكهف].

يقول الزمخشري: " فإن قلت: لم جيء (بحشرناهم) ماضياً بعد (نسير) (وتـرى) ؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ، وقبل البروز ، ليعاينوا تلك الأهوال العظام ، كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك "[١] ، ولسنا مع الزمخشري في توجيهه ؛ لأنه يحتـاج إلى دليل يؤيد ما قال، والآيات على خلاف ما ذكره، فقد قال تعالى:﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [٤٨ إبراهيم] فالبروز بعد تبدل الأرض غـير الأرض وفيها الجبال،وقد جاء أنهم يحشرون إلى أرض عفراء كقرصة النقي لا علم فيهـا لأحد [٢]،فهي معدة لهم قبل حشرهم لذا فرأي أبي حيان أقرب من بعض الوجوه حيـث يقول: "والأولى أن تكون الواو واو الحال لا واو العطف،والمعنى وقد حشرناهم،أي:يوقع التسيير في حال حشرهم وقيل: (وحشرناهم) (وعرضوا) (ووضع الكتاب) مما وضع فيـه الماضي موضع المستقبل لتحقق وقوعه"[٣]، ولو قيل: وقد حشرناهم لتحقـق مـا قالـه الزمخشري ، ولكن لأن المراد إظهار تيقُّن حشرهم وأنه حاصل لا محالة جيء بالفعل على

---

[١] – الكشاف ٢/٧٢٦ .

[٢] – صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة، ح(٢٧٩٠)، ١٧٠٦/٤، ونص الحديث عنده :((يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد)).

[٣] – البحر المحيط ١٨٧/٧ .

صورة الماضي ، ولعلنا نستطيع القول بأن الأفعال الماضية الواقعة حالاً الخالية من (قد) هي مما جاء على صورة الماضي والمقصود بها الحال ، والعلة في ذلك التنبيه على تحقق الوقوع ، وما سبقته (قد) لا يكون كذلك بل هو ماضٍ صورة ومضموناً.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [١٤ النمل].

يقول أبوحيان: " والأبلغ في (واستيقنتها) أن تكون الواو واو الحال أي: كفروا بها وأنكروها في الظاهر ، وقد استيقنت أنفسهم في الباطن أنها آيات من عند الله وكابروا وسموها سحراً "[1] ، ولو قيل: (وقد استيقنتها) لكان المراد أن استيقانها سابق للجحد وهذا قد يُشْعر أو يوهم أنهم عند الجحد لم يكونوا كذلك ، وإنما كان الاستيقان في زمن مضى ولربما مع ـ طول العهد ـ قد نسوا ، أو تغير اقتناعهم بها ، فيكون لهم نوع حجة ، ولكن ما عليه النظم القرآني يعني أن استيقانهم لها مواكب لجحدها، وإن كانت دلائل صدقها سابقة ظاهرة لهم ، وهذا أبلغ في النعي عليهم؛ إذ كيف يجحدونها في الوقت الذي تقرر في نفوسهم صدقها، وإنما عبر بالماضي للتدليل على ترسخ ذلك الاستيقان وكأنه متحقق كتحقق الماضي، وهذا يدلنا على أن لواحق الكلمة وسوابقها تؤثر فيها لا كما يُذكر عن الحديثي، الذي يقول عنه الكفوي: " وبيَّنَ في علم المعاني أن تصدير الماضي المثبت بلفظ (قد) لمجرد استحسان لفظي"[2].

د- الماضوية الخالية من (الواو) و(قد) .

وشواهدها ليست بالكثيرة ، وهي مع ذلك محتملة مع الحالية للاستئناف أو الخبرية أو الوصفية، وقد مضى تحليل بعض شواهدها مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَـٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَـٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ [٩٠ النساء][3] ، و من شواهدها أيضاً قوله تعالى : ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [٥ الفرقان] فقوله جل ذكره :﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ حال، يقول العكبري " أي: قالوا هذه أساطير الأولين

---

[1] - البحر المحيط ٢١٦/٨ .

[2] - الكليات ٧٣٦ ، وله كلام مطول جيد عن دلالات (قد) انظر: ٧٣٥ ، ٧٣٦ .

[3] - انظر ص ٩٦ من هذا البحث.

مكتتبة"[١]، وإنما صيغت الحال بالماضي دون الوصف بما جاء لتأكيد حصول ذلك، وهذا ما أراده النضر بن الحارث بإلصاق هذا الوصف بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي ، فالماضي يدل على استقرارها عنده واستنساخها له، وهذا عين مراد هذا الوصف، الذي غرضه إبعاد الناس وصدهم عن رسالة الحق [٢].

هـ- الماضوية المنفية.

جاءت الحال جملة ماضوية منفية ، وكثر ذلك مع فعل الكون ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [٤٣ الأعراف] [٣] ، وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [٤٩ هود]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [٥٢ الشورى] .

ويكفي أن نشير هنا إلى أن نفي الكون له مدلول خاص يوحي بسابقة تُذكر أو تُستجلب ليتم للكلام تأثيره المطلوب، ولو نظرنا إلى الشواهد السابقة لرأيناها كلها مسوقة لبيان المنة،وكان مرتكز إظهار المنة هو الحال الماضية التي فعلها كون منفي، وسنقف مع آية الأعراف وننظر في مدلول هذا التركيب:(وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)، فهذه الجملة حالية من الضمير المنصوب: " أي: هدانا في هذه الحال، حال بعدنا عن الاهتداء، وذلك مما يؤذن بعظم منة الله تعالى عليهم" [٤] ، "ودل قوله:(وما كنا لنهتدي) على بعد حالهم السالفة عن الاهتداء كما أفاده نفي الكون مع لام الجحود؛ فإنهم كانوا منغمسين في ضلالات قديمة قد رسخت في أنفسهم..."[٥].

وهناك شواهد أخرى تكررت فيها الجملة الماضوية المنفية، وأكثرها كان في صورة الفعل (ليس)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [٥١ الأنعام] ، يقول الزمخشري : " وقوله :

[١] - التبيان ٢/٩٨٠ .
[٢] - انظر التحرير والتنوير ١٨/٣٢٤ .
[٣] - انظر فيها التبيان ١/٥٦٩ .
[٤] - التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ١٣٢ .
[٥] - التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ١٣٣ .

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، في موضع الحال من (يحشروا)[1] أي: يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعاً لهم ، ولا بد من هذه الحال ؛ لأن كلاً محشور، فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال"[2] .

ومما يعين في معرفة مدلول الفعل الماضي الواقع حالاً،معرفة خصائصه في القرآن عموماً،وما الحالي منها إلا أحد أنواعه،وقد جاء الفعل الماضي في القرآن الكريم على ثلاثة أقسام:الأول:أفعال أُلغيت فيها الظاهرة الزمنية،ويظهر ذلك في إسناد فعل الكون للفظ الجلالة مثل:﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾[٩٦ النساء] ، وذلك سار في كل ما يتعلق بعلمه وقدرته وسائر صفاته سبحانه .

الثاني : أفعال جاءت بصيغة الماضي ولم تحدث بعد ،وقد رأينا من هذا النوع في هذا البحث ما يكفي عن الاستشهاد ، والحقيقة أن ذلك يكثر فيما يخص الآخرة وما فيها من أحداث، وذلك للتدليل على قربها وتأكيد حصولها حتى كأنما انقضت فتُحكى.

الثالث:أفعال جاءت دالة على المعنى صيغة ومعنى وهذه التي قاس عليها النحاة[3].

---

[1] - أي : من فاعل (يحشروا).

[2] - الكشاف ٢/٢٦، ٢٧ ،وانظر الفتوحات الإلهية ٢/٣٣ ، وأورد القاسمي قريباً من قول الزمخشري، دون ذكر لزوم الحال وقال : ((فلا دلالة في الآية على نفي الشفاعة للمسلمين)) محاسن التأويل ٦/٥٣٨ ، وإنما ذكرت هذا ؛ لأن من معتقد الزمخشري المعتزلي أن عصاة الموحدين الذين استحقوا النار لا شفاعة لهم، ولا خروج ، فكأنه يلمح إلى هذا بقوله بلزوم الحال ، وهذا ما أشار إليه ابن المنير في حاشيته عليه ، انظر الانتصاف بحاشية الكشاف ٢/٢٦ .

[3] - انظر كل هذا بتصرف في: الإعجاز النحوي في القرآن الكريم ١٩٥-٢١٠ .

ثالثاً: دلالة النوع في الجملة الاسمية.

من المعلوم أن الجملة الاسمية مركبة من مبتدأ وخبر ، ولها بهذه الخصيصة دلالتها العامة(الوضعية) التي سبق بيانها من قبل ، ثم لها بعد ذلك دلالات أخرى تتغير بتغير ما تَركَّب منه المبتدأ والخبر ، فقد يكون المبتدأ ضميراً ، وقد يكون اسماً ظاهراً وهكذا ، ولكل جملة دلالتها المتميزة التي تتآزر فيها مؤثرات لفظية ومعنوية وموقعية ، وفي ضوء ذلك يمكننا تقسيم الحال الجملة الاسمية إلى ما يأتي :-

١- الاسمية المصدرة بالضمير .

٢- الاسمية المصدرة باسم ظاهر .

٣- الاسمية المصدرة بحرف ناسخ .

٤- الاسمية التي تقدم فيها الخبر على المبتدأ .

١- الاسمية المصدرة بالضمير .

تعددت الضمائر التي جاءت في أول الجملة الحالية ، وقد كان أكثرها وروداً ضمائر الغائب مجموعة ومفردة ، ثم ضمائر المخاطب ، ثم ضمائر المتكلم ، وتلك الضمائر التي جاءت في أول الجملة الحالية -حسبما ظهر لي- هي: (نحن ، أنت ، أنتم ، هو ، هي ، هما ، هم)، ولن نستطيع التفصيل في هذا الأمر لتشعبه وكثرته ، ولكن سنذكر مدلولات عامة للضمائر، ونناقش بعض الشواهد .

فأما ضمير (نحن) فإنه يشعر بالمدح والثناء على النفس في صورة الجماعة، وهو أقرب إلى التَوَحُّد والاجتماع من التعبير بالاسم الظاهر الدال على المجموع ؛ ولذا جاءت الجملة المصدرة به حالاً في القرآن الكريم في مواطن لا تخرج غالباً عما ذكر، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ [٣٠ البقرة] ، ففي تقديم الضمير والبدء به وبناء الكلام عليه ما يشعر بمدحهم أنفسهم وأنهم أحق بالخلافة ممن سيكون ، يقول الزمخشري: " والواو في (ونحن) للحال كما تقول: أتحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان"[(١)] ، ومن هذا القبيل ما سبق بيانه في قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ﴾ [٢٤٧ البقرة][(٢)]،وقوله تعالى:﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ ﴾ [٨ يوسف] .

وهكذا تجتمع دلالة الأحوال في هذه الآيات على مدلول المدح للنفس في صورة الجماعة، وهو يدل على الفخر ؛ لأنه ناتج عن مدح الذات ، وهذا يتضح في ضمائر التكلم ، وخاصة فيما فيه مظهر للعظمة مثل (نحن).

أما ضمائر المخاطب ، فإن الجملة التي تصدرها تلك الضمائر جاءت تحمل سمتين: المدح أو القدح ، فأحياناً تكون المخاطبة بالضمير على وجه التكريم، وأحياناً تكون المواجهة والمجابهة به للتقريع والتوبيخ،فمما جاء للتكريم الخطاب في قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ

---

(١) - انظر الكشاف ١٢٥/١ .

(٢) - انظر ذلك مطولاً في ص ٩٠ من هذا البحث .

ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [٣٣ الأنفال] ، فأي كرامة بعد هذا ، لا يعذبون ؛ لأنه فيهم صلى الله عليه وسلم ، كل ذلك كان تعظيماً له صلى الله عليه وسلم[١]، "فالمعنى ما كانت لتعذب أمتك وأنت فيهم بل كرامتك عند ربك أعظم "[٢]، ويقول البقاعي : " (وأنت) أي يا أكرم الخلق (فيهم) فإنه لعين تُجَازَى ألف عينٍ وتُكْرَم"[٣]، ويجلى هذا المعنى بوضوح الطاهر ابن عاشور بقوله:"وفي توجيه الخطاب بهذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، واجتلاب ضمير خطابه بقوله:﴿ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ ﴾ لطيفة من التكرمة ؛ إذ لم يقل: وما كان الله ليعذبهم وفيهم رسوله،كما قال : ﴿ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [١٠١آل عمران] "[٤] ، حيث جاء تركيب الجملة الاسمية الحالية هنا في آية آل عمران بتقديم الخبر واجتلاب حرف الظرفية (في)؛ لأنه المناسب لهذا المقام دون مقام المدح السابق في سورة الأنفال ، فالآية في آل عمران تظهر استبعاد وقوع الكفر من المؤمنين وفيهم هذان الوازعان كتاب الله العظيم ،وشخص رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، فناسب هنا ذكر الظرفية والتنصيص عليها ؛ لأنها أدخل في إظهار وجه الاستبعاد ، يقول ابن عاشور: "والظرفية في قوله: (وفيكم رسوله) حقيقيَّة ، ومؤذنة بمنقبة، ومنّة جليلة ، وهي وجود هذا الرسول العظيم بينهم "[٥] ، ولو قيل: (وأنت فيهم) لكان الكلام على غير وجهه ؛ لأن الخطاب لهم لا له ، وأما في الأنفال فالحديث عنهم في صورة الغيبة ، والخطاب له تكريماً له صلى الله عليه وسلم ، فالموضوعان متباينان .

ويأتي هذا الضمير (أنت) على سبيل التوبيخ والتقريع كما في قوله تعالى:﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [١٨،١٩ الشعراء]، فالكلام موجه من فرعون إلى موسى عليه السلام يذكره

---

[١] - انظر مفاتيح الغيب ١٥/١٢٧ .
[٢] - البحر المحيط ٥/٣١١ .
[٣] - نظم الدرر ٨/٢٧١ .
[٤] - التحرير والتنوير ٩/٣٣٤ .
[٥] - التحرير والتنوير ٤/٢٨ .

ويقرره:"وبعد ذلك يوبخه على فعلته عن طريق إعادة ذاته ليثبت عليه كفران النعمة ، كل ذلك نلمسه في جملة الحال، وهي: (وأنت من الكافرين) "[1].

وهذان الأمران التكريم والتوبيخ ظاهران أيضاً مع ضمير: (أنتم) في الجملة الواقعة حالاً ، فمما جاء على سبيل التكريم والمدح قوله تعالى:﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [١٣٩ آل عمران] ، يقول أبو حيان عن هذا التركيب وأنتم الأعلون: " أي لا تحزنوا عالين ...وفي قوله:﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾دلالة على فضيلة هذه الأمة؛إذ خاطبهم مثل ما خاطب كليمه صلى الله وسلم على نبينا وعليه، إذ قال له: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [٦٨ طه] "[2] .

والحق أنه بالتتبع وجد أن التكريم والثناء بضمير المخاطب الواحد (أنت) أظهر بكثير من مجيئه على سبيل الذم والتقريع والتوبيخ، سواء في الحال أو في غيره ، والسر في ذلك – والله أعلم – أن أكثر تلك الضمائر المراد منها إما الله جلت قدره على سبيل الخطاب له سبحانه من عباده في معرض الثناء والإجلال ، وإما الرسل الكرام في خطاب ربهم العظيم لهم ، وكل تلك المواطن من مواقع التكريم والثناء .

والأمر بالعكس بالنسبة لضمير الجماعة المخاطبين (أنتم) وخاصة في الجملة الحالية ، فالغالب الأعم أن الجملة التي يأتي فيها يكون المقصود منها التوبيخ والتقريع،والشواهد على ذلك لا تُعْيِي،نذكر منها قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٢٢ البقرة] ، فهذه الآية وما شابهها جاء التركيب فيها : " (وأنتم تعلمون) و لم يكن (عالمين) لما في التركيب الوارد من معنى التوبيخ والمواجهة المتمثلة في إبراز الضمير (أنتم) "[3] .

وقد كثر إسناد العلم والنظر والشهادة إلى مثل هذا الضمير،والمغزى في الكل واحد وهو المؤاخذة والتقريع،يقول أبو حيان عن قوله تعالى:﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ

---

[1] – الحال في الأسلوب القرآني ١٣٠ .

[2] – البحر المحيط ٣/٣٥٣ .

[3] – الضمير المنفصل في النظم القرآني دراسة بلاغية تطبيقية (رسالة ماجستير) ٢٠٨ .

أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [٤٤ البقرة]،"والجملة[١] حالية، ولا يخفى ما في تصديرها بقوله﴿أَنتُمْ﴾من التبكيت لهم والتقريع والتوبيخ لأجل المخاطبة..."[٢].

وشواهد هذا النوع كثيرة بعضها يخص الكفار، ومنها ما يخص المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢٧ الأنفال]، يقول ابن عاشور:"وهي[٣] حال كاشفة،والمقصود منها تشديد النهي، أو تشنيع المنهي عنه ... وليس المراد تقييد النهي عن الخيانة بحال العلم "[٤].

أما ضمائر الغائب فهي الأكثر في الجملة الحالية وفي غيرها ، ولعل السر في ذلك أنها تنوب عن الاسم الظاهر الذي هو من قبيل الغيبية وهو كثير الدوران في القرآن الكريم وكذلك ما ناب عنه، وأيضاً لأن توجيه الخطاب يعني تعيين المخاطب ، والأكثر في القرآن أنه عام والذي يناسب العموم هو الغائب[٥]، وقد جاء ضمير الغائب الواحد (هو) متصدراً الجملة الحالية في شواهد ليست بالقليلة منها قوله تعالى : ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [٩١ البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [١٦٤ الأنعام]،ونقف مع أحد تلك الشواهد وهو قوله تعالى:﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ [٨٥ البقرة] .

يقول ابن عاشور عن دلالة ضمير الشأن في صدر جملة الحال: " وكيفما قدرت فقوله: (وهو محرم عليكم إخراجهم) جملة حالية ... وصُدرت بضمير الشأن للاهتمام بها وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم "[٦] .

وجاءت الحال مصدرة بضمير الغائبة(هي) قليلاً كما في قوله تعالى:﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [٨٨ النمل] ، وجاءت كذلك بالمثنى الغائب(هما) كما في قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن

---

[١] – أي : قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

[٢] – البحر المحيط ٢٩٦/١.

[٣] – أي: قوله تعالى:﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

[٤] – التحرير والتنوير ٣٢٤/٩ .

[٥] – انظر في هذا: الضمير المنفصل في النظم القرآني دراسة بلاغية تطبيقية (رسالة ماجستير) ٤٣٤ .

[٦] – التحرير والتنوير ٥٩٠/١ .

﴿قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [١٧ الأحقاف]،ولعل في تصدير الجملة بضميرهما والنص عليه ما يشعر باجتهادهما المشترك في ثنيه عن عزيمته، ومحاولة هدايته لطريق الحق فـ" هي حال تصور حرص الوالدين على هداية ولدهما..."[١] .

أما الضمير الذي تكرر كثيراً فهو (هم)، وهو يلتقي مع (أنتم) في دلالتي القدح والمدح في مواطن كثيرة،فمن دلالته على المدح ما جاء في قوله تعالى:﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[١١٣آل عمران] ، وقوله تعالى:﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [١٣٥ آل عمران]،وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[٥٥ المائدة]،يقول الطاهر ابن عاشور: " وإجراء صفتي يقيمون الصلاة ،ويؤتون الزكاة على الذين آمنوا للثناء عليهم ، وكذلك جملة: (وهم راكعون) "[٢] .

ومما جاء في صورة الذم والإنكار،وكان للحال أثر كبير في تعليل ذلك الذم أو الإنكار قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥ البقرة] ، وقوله تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٧٥ آل عمران] .

وجاءت شواهد أخرى لكشف بعض أحوال الكفار والمنافقين،وهي وإن كان مقصودها الأول كشف أحوالهم وتعريتها،إلا أنها توحي بذمهم على أفعالهم وأقوالهم القبيحة،وكثرة ضمائر الغائب مع الكفار والمنافقين شيء ظاهر،ويبدو أنه عام في القرآن الكريم ،ولعل هذا ما حدا بالزركشي أن يقول:"وكثر الخطاب بـ(ياأيها الذين آمنوا)على المواجهة،وفي جانب الكفار على الغيبة إعراضاً عنهم،كقوله تعالى:﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٣٨ الأنفال]،ثم قال:﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٣٩الأنفال]،فواجه بالخطاب المؤمنين،وأعرض بالخطاب عن الكافرين، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم إذا عتب على قوم

---

[١] - الحال في الأسلوب القرآني١٣٨ .

[٢] - التحرير والتنوير ٢٣٩/٦ .

قال:(ما بال رجال يفعلون كذا)[1]،فكنى عنهم تكرماً ، وعبر عنهم بلفظ الغيبة إعراضاً"[2].

٢- الاسمية المصدرة باسم ظاهر.

جاءت الجملة الحالية مبدوءة بأنواع من الاسم الظاهر كالعَلَم ، واسم الإشارة ، والمعرَّف بأل ، والمعرف بالإضافة، ولن نستطيع مناقشة كل تلك الظواهر ، لكن الذي أنبه إليه أن بدء الجملة باسم ما ، له مدلول خاص أحياناً كالعلم، يكون له تأثير دلالي على الجملة كلها ، ومن هذا القبيل تصدير الجملة الحالية الاسمية بالاسم الأعظم (الله) كما في قوله تعالى:﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٩٨ آل عمران]، يقول الزمخشري: " (والله شهيد) الواو للحال ... وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته "[3] ، ويقول أبو حيان: "جملة حالية فيها تهديد ووعيد"[4] ، ويُلمح أبو السعود إلى خصيصة تصدير الجملة بلفظ الجلالة فيقول: " وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لتربية المهابة، وتهويل الخطب "[5] ، ومما لاشك فيه أن لوجود لفظ الجلالة الاسم الأعظم (الله) في صدر الجملة وقعاً خاصاً ، خاصة إذا أدركنا أن الكلام يحتمل وقوع الضمير مكانه ، فإيثاره إذاً لهدف عظيم، ويظهر ذلك جلياً في مواطن القدرة والقوة، كإخافة الكافرين وردعهم ، يقول عبدالستار سعيد عن هذه الحال المصدرة بالعلم (الله): " إن لوجود لفظ الجلالة في صدرها روعة ورهبة، يدركها من يقرأ النص القرآني أكثر من مرة للوقوف على سر هذه الروعة،وما يوحي به لفظ الجلالة من رهبة رادع" [6].

ومن الشواهد ذات الدلالة الظاهرة قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [٧٦ المائدة] ، فهذه الآية رد على

---

[1] – جاءت أحاديث كثيرة على هذا النسق انظر جمعاً منها في:صحيح الجامع الصغير وزيادته ٩٧٦/٢،من الحديث ذي الرقم ٥٥٧٠ إلى ٥٥٧٦ .

[2] – البرهان في علوم القرآن ٢٣٠/٢ .

[3] – الكشاف ٣٩٢/١ .

[4] – البحر المحيط ٢٧٩/٣ .

[5] – تفسير أبي السعود ٦٣/٢ ، وانظر محاسن التأويل ١٦٥/٤ .

[6] – الحال في الأسلوب القرآني ١٤٨ .

الذين يؤلهون عيسى ويعبدونه ، "ومجيء الحال بعد هذا الكلام مناسب لمقتضى الحال "[(١)]، وعن سر هذه المناسبة، ودلالة تلك الجملة المصدرة بلفظ الجلالة يتحفنا الطاهر ابن عاشور بهذا التحليل الممتع فيقول:" فجملة ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ في موضع الحال قُصِرَ- بواسطة تعريف الجزأين وضمير الفصل - سببُ النجدة والإغاثة في حالي السؤال وظهور الحالة على الله تعالى ... أي: ولا يسمع كل دعاء ويعلم كل احتياج إلا الله تعالى، أي: لا عيسى ولا غيره مما عُبد من دون الله ، فالواو ... واو الحال ، وفي موقع هذه الجملة تحقيق لإبطال عبادهم عيسى ومريم من ثلاثة طرق: طريق القصر ، وطريق ضمير الفصل ، وطريق جملة الحال باعتبار ما تفيده من مفهوم مخالفة "[(٢)]، وكلام ابن عاشور هذا على حسنه وروعته يوهم أن مفهوم المخالفة جاء من غير دلالة القصر ؛ لأنه جعل دلالة الحالية قسيمة لدلالات القصر قبلها ، والذي يظهر أن مفهوم المخالفة كان من القصر الذي جاء في صورة الجملة الحالية فالمدلول له لا لها ، وهذا لا يمنع حسن موقعها .

ومن أنواع الاسم الظاهر الذي تُبدأ به جملة الحال المعرّف بأل كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ [آل عمران ١٥٣]، فـ" جملة (والرسول يدعوكم في أخراكم) حال "[(٣)]، وجاءت هذه الحال كما نرى مصدرة بلفظ (الرسول)، وهي الصفة المنبئة عن مهمته العظمى صلى الله عليه وسلم، ولعله لا يخفى ما في ذلك من دلائل، خاصةً في سياق ذكر وقائع غزوة (أُحُد) ، يقول البقاعي " والرسول أي: الذي أرسل إليكم لتجيبوه إلى كل ما يدعوكم إليه، وهو الكامل في الرسلية "[(٤)] ،وهذا يشعر بأن الأمر جلل وأن الخطر عظيم؛ إذ كيف تفرون على تلك الصورة حتى لا يرحم أحد منكم أحداً، والرسول واقف لا غيره في مؤخرة الجيش يرد المنهزمين ويناديهم ويذكرهم بالجنة، و"الوقوف على أعقاب الشجعان وهم فرار، والثبات فيه إنما هو للأبطال الأنجاد..."[(٥)] .

---

(١) - إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٥٣٧/٢ .

(٢) - التحرير والتنوير ٢٨٩/٦ .

(٣) - التحرير والتنوير ١٣١/٤ .

(٤) - نظم الدرر ٩٥/٥ .

(٥) - البحر المحيط ٣٨٦/٣ .

وعلى القول بأن المراد بـ(أَحَد) هو النبي صلى الله عليه وسلم وعبر بذلك عنه "تعظيماً له وصوناً لاسمه أن يذكر عند ذهابهم عنه"[1] فيكون التصريح بصفته المميزة له، ومجيئها في صدر الجملة ما ينبيء عن إرادة إبراز قدره ورفع شأنه ، إضافة إلى ما فيه من تشنيع الفعل في تلك الحال، فالرسول الذي يجب أن يطاع هو الداعي ومع ذلك لا مجيب.

أما التعريف بالإضافة فله ميزة تختلف عن غيره ، ودلالة يتميز بها عما سواه ، ذلك أنه يجمع بين كلمتين ، فالكلمتان بمدلولهما يدلان على المعرف ، والإضافة قد تكون للمدح والتكريم ، وقد تكون لضد ذلك ، وقد تكون لأجل إلصاق الشيء بالشيء ، ومن شواهد ذلك قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [١٣١ الأنعام] ، فقوله جل ذكره: (وأهلها غافلون) جملة اسمية مصدرة بمعرف بالإضافة وهي : " حال من القرى وصرح هنا بأهلها تنبيهاً على أن هلاك القرى من جراء أفعال سكانها ، ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ [٥٢ النمل] "[2] .

٣-الاسمية المصدرة بحرف ناسخ .

مما نحب أن نقف عنده قليلاً تصدير الجملة بالحرف الناسخ ،ومن الحروف الناسخة التي تصدرت جملة الحال : إنّ ، وكأن ، ولعل ،و (لا) النافية للجنس .

وقد جاءت جملة الحال مصدرة بـ(إنّ) في مواطن التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ [٥ الأنفال] ، فجملة : (وإن فريقاً...) حالية[3] ، وهي تصور بدقة حال ذلك الفريق من المؤمنين وكراهيتهم الشديدة للخروج ، ولتأكيد ذلك وتقريره صدرت الجملة بـ (إن) ، وجاءت اللام في خبرها ، وصيغ الخبر في صورة الجملة الحالية التي تنقل صورة الكره ، وتشعر بتأكيد حصول ذلك منهم ، ولكن إذا أراد الله شيئاً أمضاه والخيرة فيما اختاره سبحانه .

وأما المصدرة بـ (لا) النافية للجنس فجاءت في مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا

---

(١) - البحر المحيط ٣/٣٨٦ ، وذكر أنه قول ابن عباس والكلبي .

(٢) - التحرير والتنوير ٨ القسم الأول ٨٢ .

(٣) - انظر البحر المحيط ٥/ ٢٧٦.

وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٥٦ البقرة] ، فقوله جل ذكره : (لانفصام لها) جملة في موضع نصب على الحال من (العروة)، وقيل: من الضمير في (الوثقى)[١] ، " وندرك هنا أن التعبير القرآني عن الحال بالاسمية المنفية بـ (لا) النافية للجنس ، مع اختيار الفصم المنفي جنسه، ندرك أن في هذا إظهاراً لشأن الإسلام ، فمن يؤمن بالله [٢] فقد تعلق بعروة متينة منفي عنها الانفكاك والانقطاع " [٣] ، ولا شك أن دخول (لا) هنا أشاع جواً من الثقة بعظم تلك العروة، وبأن من تمسك بها فلا يخاف زيغاً ولا ضلالاً .

أما (لعل) فقد أعرب بعض دارسي الأسلوب القرآني [٤] شواهدها مثل : (لعلكم تتقون) حالاً وقد اجتمع لي منها شيء كثير ، لكن لم أجد عند المفسرين عناية بدلالتها خاصة فيما نحن بصدده ؛ لذا آثرت تجاوزها طلباً للاختصار.

أما تصدير الجملة بـ(كأن) فلذلك مبحث خاص سيأتي إن شاء الله في فصل التصوير بالحال ، فنرجئ الحديث عنها إلى هناك .

٤ـ الاسمية التي تقدم فيها الخبر على المبتدأ .

وشواهدها ليست قليلة ، وكلها من تقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ ،ونقف منها على قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٤٣ المائدة]، فقوله جل ذكره: (وعندهم التوراة ، فيها حكم الله) جملتان حاليتان ، تقدم فيها الخبر الظرف في الأولى و الجار و المجرور في الثانية على المبتدأ [٥]، و لا شك أن في تقديم (عندهم) زيادة تقبيح وتشنيع لفعلهم ، وكذلك تقديم (فيها) ، فهما حالان مناديان بشين صنيع أولئك اليهود ، الذين بين أيديهم حكم الله ، ثم يروغون عنه ويطلبون ما يوافق أهواءهم [٦] .

---

(١) – انظر البحر المحيط ٢/٦١٨ .

(٢) – ويكفر بالطاغوت .

(٣) – الحال في الأسلوب القرآني ١٦١ .

(٤) – من هؤلاء الدرويش في كتابه إعراب القرآن الكريم وبيانه .

(٥) – انظر التبيان ١/٤٣٨ .

(٦) – وللاطلاع على مزيد من الشواهد انظر : قوله تعالى : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾ [٢٤٨ البقرة] ، و قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ [٧ آل عمران] ، و قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [١٢٧ الأنعام] ، و قوله تعالى : ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [١٥٤ الأعراف] ، وقوله تعالى:﴿ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [٤ الحجر]، و قوله تعالى:﴿ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ [٣٦ الحج] ، وغيرها.

المبحث الثالث : دلالة الحال شبه الجملة .

يقصد بشبه الجملة ما يشمل الجار والمجرور والظرف ؛ وذلك لأن كلاً منهما ليس مفـــرداً مستغنياً عن غيره ، ولا هو جملة قائمة بذاتها [1] ، ونظراً لكون حروف الجر والظـــروف معلومة محددة ، وصورها ثابتة لا تتغير ، رأيت أن تكون دراستها ببيان مدلولات تلـــك الحروف والظروف، وأثرها في المعنى ، ومحاولة تفسير خروجها على مقتضى الظاهر ، مع إجراء بعض الموازنات بين تلك الدلالات الخاصة بشبه الجملة ،وبين ما سبق من الحـــال المفردة، والحال الجملة، وذلك على النحو الآتي :

أولاً: دلالة الجار و المجرور في الحال .

ثانياً: دلالة الظروف في الحال .

ثالثاً: بين الجار والمجرور والظرف .

رابعاً: بين شبه الجملة والاسم المفرد .

خامساً: بين شبه الجملة والجملة .

[1] - انظر تفصيل أحكام شبه الجملة في مغني اللبيب ٢/٤٩٩ .

أولاً : دلالة الجار والمجرور في الحال .

للحروف - بصفة عامة - في لغتنا العربية شأن عظيم ، ولها أسرار ولطائف ، ثم هي لو قيست بغيرها من الأفعال والأسماء لكانت " أكثر دوراً ، ومعاني معظمها أشد غوراً ، وتركيب أكثر الكلام عليها ، ورجوعه في فوائده إليها ..." [(١)]، ولكل من هذه الحروف مدلوله وتأثيره، "...فأما وضع حروف الجر فإنما هو لاتصال معاني الأفعال بالأسماء، ويختلف ذلك الاتصال باختلاف معانيها ، وتحتها أسرار ولطائف" [(٢)].

وهذه الأسرار واللطائف نجدها ظاهرة في الحروف الجارة في شبه الجملة الحالية ، وبتتبع تلك الحروف نجد منها: (من ، والباء ، وعلى ، وعن ، وفي ، واللام ، وإلى) ، وهذه الحروف جاءت حيناً دالة على معانيها التي تخصها ، كدلالة (من) على الابتداء و(في) على الوعاء ، و(على) على الاستعلاء ، و(الباء) على الإلصاق ، و(عن) على المجاوزة ، و(اللام) على الاختصاص ، و(إلى) على الانتهاء ، وجاءت أحياناً أخرى موهمة الدلالة على معانٍ أخرى تخص بعض أخواتها ، وهذا عند الكوفيين من نيابة حروف الجر عن بعضها، قال ابن هشام :"ومذهبهم أقل تعسفاً"[(٣)]، وعند البصريين هو من التضمين في الفعل أو الاسم، يقول ابن القيم عن ذلك:"... هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه -رحمه الله تعالى- ، وطريقة حذاق أصحابه ، يضمنون الفعل معنى الفعل ، ولا يقيمون الحرف مكان الحرف،...فيكون في ذلك دليل على الفعلين أحدهما بالتصريح به ، والثاني بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه ، مع غاية الاختصار، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها" [(٤)] .

وهذا الرأي هو الذي "راق للبلاغيين وتعلقوا به باعتباره أقرب إلى الاستجابة لخصائص النظم ، وأقدر على إبراز مقاصد الكلام وأغراضه"[(٥)]؛ ولهذا فليس هناك خلاف بين النحويين والبيانيين في حقيقة التضمين، بل غاية الخلاف -إن وجد- هو أن النحويين

---

(١) - رصف المباني في شرح حروف المعاني ٩٧ ، وانظر الجنى الداني ١٩ .

(٢) - الطراز ٥٣/٢ .

(٣) - مغني اللبيب ١٣٠/١، ١٢٩ .

(٤) - بدائع الفوائد ٢١/٢ .

(٥) - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ١٣ .

يقدرون فعلاً مناسباً للحرف ، والبيانيون يقدرون حالاً أو مفعولاً من وصف الفعل؛ لـذا صرح ابن كمال باشا بعدم الاختلاف بينهما فيما نقله عنه الصبان فقال: "الحق أن التضمين البياني هو التضمين النحوي"[(١)] .

ونخرج من هذا إلى أن الحرف هو الذي يجب أن يكون مداراً للدراسة والبحث، ولا داعي أن نقف عند القول بالتناوب ، أو البحث في تصحيح التعدية بتقدير فعل أو اسم ؛ وقد نعى الزمخشري على مَنْ يقف عند القول بمجرد التعاقب فقال: "ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن..." [(٢)] ، ويقول ابن جني تحت باب: استعمال الحروف بعضها مكان بعض: "...ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا [(٣)] لكنا نقول: إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع، على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوغة له، فأما في كل موضع وعلى كل حال فلا..."[(٤)] .

وهذه المسوغات وتلك الأحوال هي التي يجب إبرازها ودراسة الأسرار وراءها، لكنها قد تخفى وتدق، كما قال ابن القيم: "والفروق لهذه المواضع تدق جداً على أفهام العلماء ، ولكن نذكر قاعدة تشير إلى الفرق ، وهي أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف ، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق نحو رغب عنه ورغب فيه...وإن تفاوت[(٥)] معنى الأدوات عسر الفرق نحو قصدت إليه وقصدت له..." [(٦)]، ولعلنا في هذه الدراسة نبين شيئاً من ذلك.

ونحن مع الدكتور محمد الخضري الذي أجاد في دراسة هذا الموضوع إذ يقول: "وما أحرانا أن نعتبره [(٧)] من خروج الكلام على خلاف مقتضى ظاهر الكلام ، وعلينا أن

---

(١) – حاشية الصبان على شرح الأشموني ٩٥/٢ .

(٢) – الكشاف ٢٧٣/٣ .

(٣) – أي: من التناوب.

(٤) – الخصائص ٣٠٦/٢-٣٠٨ .

(٥) – لعل الأقرب : (تقارب) ؛ لأنه الذي يوجب الدقة والعسر في التفسير .

(٦) – بدائع الفوائد ٢١/٢،٢٠ .

(٧) – أي: فيما ظاهره وقوع حرف مكان حرف .

نبحث عن دواعيه وأغراضه"[1] ، وعلى هذا فلن نقف عند الفعل وحده ولا عند الحرف وحده، وإن كان هو الأهم؛ لأن الخروج كان فيه، ولكن الدراسة لا بد أن تنظر إلى تأثير الحرف في معنى الفعل، ولابد من استصحاب معنى الفعل ودلالته، وبيان العلاقة التي ربطته بهذا الحرف خصوصاً دون غيره.

١- من دلالات حرف الجر (مِن) .

تأتي (مِن) لمعان كثيرة من أظهرها الابتداء ، وتجيء للتبعيض ، والتبيين وتأتي زائدة للتوكيد[2]، وتأتي أيضاً دالة على معان أخرى[3] في ظاهرها أنها نائبة عن غيرها فيها ، وقد أوصلها بعضهم إلى أربعة عشر معنىً[4]، وقد جعل الزمخشري الابتداء هو الأصل، وبقية المعاني راجعة إليه وصادرة عنه [5]، ولن نناقش تفاصيل أحكام (مِنْ) ، ولكن سنعتني بإبراز دلالتها في بعض المواقع التي جاءت فيها مع مجرورها في موضع الحال .

أ- (من) والابتداء .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة ٢٦]، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة ١٤٤] ، فالآية الأولى تتحدث عن ضرب المثل بالبعوضة فما فوقها، والثانية عن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة،و﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ في الآيتين محتملة للحالية ولكونها خبراً بعد خبر[6]، يقول الألوسي عن من مدلول الحال في الآية الأولى: " و(مِنْ) لابتداء الغاية المجازية، والتعرض لعنوان الربوبية للإشارة إلى أنهم يعترفون بحقيقة القرآن، وبما أنعم الله تعالى به عليهم من النعم التي من أجلها نزول هذا الكتاب...وأما الكفرة المنكرون لجلاله المتخذون غيره من الأرباب فــ(الله) عز اسمه هو المناسب لحالهم ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[٢٨ آل عمران] ، وقيل

---

[1] - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٥٣ .

[2] - انظر في هذا الكتاب ٢٢٤،٢٢٥/٤ ، والأزهية في علم الحروف ٢٢٤ وما بعدها .

[3] - انظر رصف المباني في شرح حروف المعاني ٣٨٨ وما بعدها .

[4] - انظر الجنى الداني في حروف المعاني ٣٠٨ وما بعدها .

[5] - انظر المفصل في علم اللغة ٣٣٧ .

[6] - انظر في الآية الأولى:روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٢٠٨ ، وبالحالية يجزم ابن عاشور انظر: التحرير والتنوير ٣٦٤/١ ، وانظر في الآية الثانية : البحر المحيط ٢٥/٢ .

في ذلك- مع الإضافة إلى الضمير- تشريف وإيذان بأن ضرب المثل تربية لهم، وإرشاد إلى ما يوصلهم إلى كمالهم اللائق بهم" [1] ،وأشار أبوحيان إلى سر هذه الحال في الآية الثانية فقال:"أي:ثابتاً من ربهم، وفي ذلك دليل على أن التحول من بيت المقدس إلى الكعبة لم يكن باجتهاد وإنما هو بأمر من الله تعالى، وفي إضافة الرب إليهم تنبيه على أنه يجب إتباع الحق الذي هو مستقر ممن هو معتنٍ بإصلاحك،كما قال تعالى:﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [البقرة١٤٧] " [2].

وهذا توجيه حسن لدلالة المجرور وهو (ربهم) دون (من الله) ،وقد تتبعت وقوع هذا التعبير (من ربهم) أو (من ربك) حالاً من (الحق)، فوجدته شبه مطرد في القرآن في أكثر من عشرة مواضع[3] ، ولم يأت البتة (من الله)، ورأيت أن هناك ارتباطاً بين ذكر الحق والرب حتى مع غير الحالية ، ولعل السر في ذلك، وفيما نحن فيه أن في ذكر الرب تطميناً للعباد ، وإشعاراً لهم بالإنعام عليهم، وبياناً لعظم حنوه سبحانه على خلقه ورحمته بهم[4]مما يجعلهم أكثر قبولاً للحق وعملاً به.

أما عن دلالة الجار وهو (من) هنا فيقول ابن عاشور: " (من ربهم) حال من الحق (ومن) ابتدائية أي: وارد من الله لا كما زعم الذين كفروا أنه مخالف للصواب، فهو مؤذن بأنه من كلام من يقع منه الخطأ "[5] ، وإن في إظهار هذا الحق وكونه صادراً من ربهم المنعم عليهم من الطمأنة لهم ما ليس يخفى ، وفيه من ضمان الصحة والإقرار بنسبته إليه سبحانه مالا يخفى أيضاً، وهكذا جاء الحرف دالاً على المصدر والمبتدأ ،وجاء المجرور دالاً على المنعِم المربي فتعانقا في الدلالة لغرض بيان الصفة التي زايل فيها المؤمنون الكافرين في الاعتراف بأنه حق صادرٌ من ربهم ؛ ولهذا لما تخلف هذا القصد جاء ذكر الحق مجرداً من قيد الحال: (من ربهم) كما في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ

---

[1] - روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٢٠٨ .

[2] - البحر المحيط ٢٥/٢ .

[3] - انظر مثلاً ١٧٠ النساء ، و١٠٨ يونس،و ١٧ هود ، و ٥٣ القصص ، و ٢،٣ محمد.

[4] - انظر نظم الدرر ٢٠٥/١ .

[5] - التحرير والتنوير ٣٦٤/١،وقد ورد النص فيه هكذا: (من كلام من يقع)، ولعل الصحيح : (من لا يقع) ، إن كان الكلام راجعاً للمؤمنين ، وإن كان بياناً لكلام الكفار فهو صحيح .

يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [٥٣ فصلت]؛لأن هذه الآية جاءت في سياق الحجاج على المنكرين الكافرين.

ومن شواهد (من) الابتدائية قوله تعالى في القصاص:﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [١٧٨ البقرة]، فهذا التركيب ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ ﴾ بخروجه عن المألوف مليء بالدلالات، فالأصل أن يقال : فمن عَفَى عن أخيه ، لكن جاء النظم على ما في الآية حتى يكون الحديث عن المعْفُو عنه ، فعُدي الفعل (عفى) باللام وأصله بـ(عن) ، وجاءت الحال (من أخيه) تأكيداً لذلك .

ذكر الزمخشري أن حق (عفى) أن "يتعدى بـ(عن) إلى الجاني وإلى الذنب فيقال:عفوت عن فلان وعن ذنبه ... فإذا تعدى إلى الذنب والجاني معاً قيل: عفوت لفلان عما جنى... "[1]، والآية على هذا، وسر التعدية باللام خصوصاً؛"لأن التجاوز عن الأول والنفع للثاني، فالقصد هنا إلى التجاوز عن الجناية إلا أنه ترك ذكرها ؛ لأن الاهتمام بشأن الجاني"[2] أي فعبر معه بما يخصه وهو (اللام) المشعر بالنفع له .

وهذا التحليل للحروف وتناوبها وإن لم يكن عن (مِنْ) إلا أنه نافع لما نحن بصدده، أما عن دلالة (من أخيه) ، فقد بين الزمخشري أنه " ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو بينهما من الجنسية والإسلام"[3]، ويقول البقاعي: "وفي التعبير بلفظ الأخ _ كما قال الحرالي _ تأليف بين الجاني والمجني عليه وأوليائه..."[4]، والظاهر أن المقصود بالأخ وليّ الدم وإنما سمي أخاً لما سبق ذكره.

وهذا تعليل حسن للمجرور ولدلالته، ولكن ما دلالة الجار (من) هنا ولِمَ لَمْ يكن النظم:فمن عَفَى له أخوه ، دون الجارّ ؟.

إن الذي يُلمح أن (مِنْ) هنا دالة على الابتداء ، وهي تشعر بمنّة وليّ الدم على الجاني، حيث جاء العفو منه وصدر عنه ، فمبدأ الخير له من ذلك الولي ، وهذا فيه إيماء إلى عظم المعروف المُسدى إليه من أخيه ؛ لأن العفو في مثل هذه المواقف من أعظم المعروف، فنُبه

---

[1] – الكشاف ٢٢٢/١، ٢٢١

[2] – روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٥٠ .

[3] – الكشاف ٢٢١/١، وانظر روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٥٠

[4] – نظم الدرر ٢٧/٣ .

على ذلك بإدخال (مِنْ) المبينة لمصدر ذلك المعروف ، ثم هي مع (اللام) تكمل المعنى المقصود، فالخير حاصل له بالعفو ، هذه دلالة (اللام) ، ومنشأ ذلك الخير هو أخوه صاحب الدم،وتلك دلالة (من)، ولو سقطت احداهما لما اكتملت هذه المعاني ، فلو قيل: فمن عفى عن أخيه ، لم يكن فيها إلا إخبار عن العفو من غير إشعار بصدور المعروف من الولي وحصول النفع للجاني، والتذكير بمصدر هذا المعروف مهم هنا حتى يُقابَل وليّ الدم بالإحسان والمعروف من المعفو عنه، فيكون ذلك مساعداً في إذهاب كل ما بقي من حفائظ النفوس .

ب- (مِن) والتبيين .

قال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [١٠٥ البقرة] ، يقول الزمخشري: " (مِنْ) الأولى للبيان ؛ لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان:أهل الكتاب والمشركون ..."[١] وهي ومجرورها في موضع الحال عند أبي حيان كما هو ظاهر قوله " أي: كائنين من أهل الكتاب "[٢] ، وعن مدلول هذا التركيب يقول الطاهر ابن عاشور: " ونبه بقوله:﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ دون (ما يود أهل الكتاب) على أنهم لم يتبعوا كتاهم؛لأن كتبهم تأمرهم باتباع الحق حيثما وجدوه،وبالإيمان بالنبي المقفى على آثارهم ... فلما حسدوا النبي صلى الله عليه وسلم على النبوة،وحسدوا المسلمين فقد كفروا بما أمرت به كتبهم،وبهذا تخلص الكلام إلى الجمع بين موعظة النصارى مع موعظة اليهود،ولما كان ما اقتضاه الحال من التعبير بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قد يوهم كون البيان قيداً، وأن الكافرين من غير أهل الكتاب يحسدون المسلمين، عطف عليه قوله: ﴿ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ كالاحتراس وليكون جمعاً للحكم بين الجميع " [٣] .

والملحوظ في (مِنْ) البيانية أنها جاءت حالاً بكثرة في مواطن هي أقرب إلى الاحتراس بحيث لو لم تذكر فيها لفهم غير المراد ، وكذلك جاءت في مواطن تخصيص الحكم بفئة

---

(١) – الكشاف ١/١٧٥ .

(٢) – البحر المحيط ١/٥٤٤ .

(٣) – التحرير والتنوير ١/٦٥٢ ، وهي عنده تبعيضية .

معينة والتنصيص عليها، إمّا في مواطن التشريع ، أو المدح ، أو الذم، وذلك كثير في مثل: (منكم) و (منهم) .

ومن الشواهد على بعض ما قدمت قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة ١٤٢] ، حيث قال: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مع أنه أمر معلوم ، وهو " في موضع نصب على الحال "[١] ، ورد ابن عطية سر هذا الحال إلى احتمال الكلام المجاز الذي لا يرفعه إلا هذه الحال ؛ " لأن السفه يكون في جمادات وحيوانات "[٢] ، " فلو اقتصر لاحتمل الناسَ وغيرهم ؛ لأن القول ينسب إلى الناس حقيقة وغيرهم مجازاً، فارتفع المجاز بقوله: (من الناس")[٣] ،ولكن قد يُقال: هذا غير مسلم؛ لأنه يمكن أن يخصص المقصود بغير الجار والمجرور، كالإضافة مثلاً فيقال:(سيقول سفهاء الناس) فهل من فرق ؟

يقول الألوسي في بيان فائدة هذه الحال: " المراد منهم الجنس ، وفائدة ذكره التنبيه على كمال سفاهتهم بالقياس إلى الجنس ، وقيل : الكفرة [٤] ، وفائدته بيان أن ذلك القول المحكي لم يصدر عن كل فرد من تلك الطوائف بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض في آسن الفساد ، والأول أولى كما لا يخفى " [٥] ، ولعل ابن عاشور كان أقرب إلى بيان سر هذا التعبير إذ يقول: "وفائدة وصفهم بأهم من الناس مع كونه معلوماً هو التنبيه على بلوغهم الحد الأقصى من السفاهة بحيث لا يوجد في الناس سفهاء غير هؤلاء ، فإذا قسم نوع الإنسان أصنافاً كان هؤلاء صنف السفهاء ، فيفهم أنه لا سفيه غيرهم على وجه المبالغة ، و المعنى أن كل من صدر منه هذا القول هو سفيه سواء كان القائل اليهود أو المشركين من أهل مكة " [٦] .

والحقيقة أن الفرق بين الجر والإضافة لطيف دقيق يحتاج إلى تقصٍ واستيعاب ، وقد

---

[١] – روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٢ .

[٢] – المحرر الوجيز ٢/٢ .

[٣] – البحر المحيط ٢/١٠،٩ .

[٤] – أي: وقيل المراد منهم الكفرة .

[٥] – روح المعاني المجلد الأول ، الجزء الثاني ٢ .

[٦] – التحرير والتنوير ٢/٧ .

كان للزمخشري لمحات حول هذا ، لكنها تختلف عما نحن فيه ، وذلك عند قوله تعالى: ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [٢٧٩ البقرة] حيث لم يقل:فأذنوا بحرب الله، وهو وغيره يرد ذلك إلى المبالغة والتعظيم؛ لدلالة (من) على النوعية الخاصة، أو إرشادها إلى مصدر ذلك المذكور[١] ،ولعلنا لو نظرنا إلى ما نحن فيه ، لوجدنا أن ذكر (من) هنا واستحضار أنها في الأصل للابتداء يوحي بأن هؤلاء السفهاء ليسوا غرباء بل منشؤهم من الناس ومصدرهم منهم، فكأن السفه ليس وصفاً طارئاً عليهم بل هو مستخرج منهم، وهذه الفئة هي إحدى فصائلهم، ولو قيل سفهاء الناس بالإضافة لأشعر ذلك أن السفه مضاف إليهم فليس هو فيهم أو في نوعهم ، وما في النظم يدلنا أن هذه الفئة موجودة معروفة ، وهذا ما قال به بعض المفسرين[٢] .

ولعلنا نلحظ الفرق بين الإضافة والجر في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [٢٤٦ البقرة] ، يقول أبو حيان: "﴿ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ في موضع الحال فيتعلق بمحذوف أي: كائنين من بني إسرائيل"[٣]، ونحن في دراسة السر البلاغي لا يهمنا التقدير للمحذوف، بل نحن نتحاكم إلى مدلول التركيب المذكور ، وهذا التركيب كان يمكن أن يُستغنى فيه عن الجار (من) فيقال: ألم تر إلى ملأ بني إسرائيل، والملأ هم السادة القادة الكبراء وهم رأس الشر وأس البلاء، ولو قيل هذا لأوهم أن قادتهم وسادتهم ليسوا منهم بل من غيرهم فهم مضافون إليهم إضافة، ولكن لما أريد تقرير أن هؤلاء الملأ هم من بني إسرائيل لا من خارجهم جاءت (من) لتأكد انتسابهم إليهم وصدورهم عن مورد واحد، وأنهم بعضٌ من قومهم فليسوا عنهم بغرباء، لذا كانت الحال بالجار أولى من الإضافة المذْهِبة للحالية التي كشفت كل تلك المعاني .

---

(١) - انظر ذلك في الكشاف ٣٢٢/١ ، وانظر تعليق أبي حيان عليه في البحر المحيط ٧١٥/٢ ، وكذلك فعل ابن عاشور عند قوله تعالى:﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [١٣٣آل عمران]، انظر التحرير والتنوير ٨٩/٤.

(٢) - يقول ابن عاشور: ((فالمراد بالسفهاء المشركون، ويدل لذلك تبيينه بقوله: (من الناس)؛ فقد عرف في اصطلاح القرآن النازل بمكة أن لفظ (الناس) يراد به المشركون، كما روي ذلك عن ابن عباس))، التحرير والتنوير ٦/٢ .

(٣) - البحر المحيط ٥٦٨/٢ .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [١٤٥ النساء]، فـ ﴿ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ في موضع الحال من الدرك [1] ، ولو قيل على غير الحالية وبغير الجار:(إن المنافقين في درك النار الأسفل) لفوت ذلك لطائف تضمنها النظم الكريم ، منها أن فيها إخباراً بأنهم في الدرك الأسفل، وهذا بحد ذاته كاف في بيان مآلهم الخاسر، و انحدارهم العظيم و عذابهم الشديد، ثم جاءت:﴿ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ حالاً مضيفة إرهاباً على إرهاب وإذلالاً على إذلال؛ لأن الدرك الأسفل مرذول مخيف فكيف إذا كان من النار ، وقد قيل إن (مِنْ) هنا بمعنى (في) ولو قيل (في) لكان هذا إعلاماً بالموضع والوعاء لذلك الدرك ، لكن (من النار) يدل على ما تدل عليه الظرفية وزيادة ، وهو أنه نوع من النار وأن مصدره النار ، فهو ليس دركاً عادياً موطنه النار، بل هو درك ناري موضعاً ومصدراً فهو في ذاته من النار ،وذلك هو الخزي العظيم حمانا الله من مصيرهم .

ج- (مِن) والمجاوزة .

يذكر سيبويه أن (من) تقع موقع (عن) مثل: وأطعمه من جوع وكساه من عرى[2]، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [٣،٤ قريش] فـ﴿ مِّن جُوعٍ ﴾ و﴿ مِّنْ خَوْفٍ ﴾ حالان من المفعول: أي جائعين خائفين، ويجوز أن تكون للتعليل[3]، يقول ابن يعش مفسراً دلالة الحرفين (من) و(عن): " فإذا جئت بـ (من) كان لابتداء الغاية؛ لأن الجوع ابتداء الإطعام ، وإذا جئت بـ(عن) فالمعنى أن الإطعام صرف الجوع ؛ لأن (عن) لما عدا الشيء "[4]، ولكن ما سر وقوع (من) هنا في هذه الآية ، ولِمَ لم تكن (عن) بدلاً منها؟ يذكر الدكتور الخضري أن حرف الابتداء هو المناسب لما حبا الله قريشاً من نعم كثيرة، فقد جعلهم سدنة بيته ، وأفاض عليهم من رزقه ، وأكرمهم بالأمن، فقد كان غيرهم يجوع وهم لا يجوعون، وغيرهم يخاف وهم آمنون فمن " تمام التفضل وغاية الإنعام أن يكون الإطعام قبل أن يستبد بهم الجوع ،ويترك آثاره عليهم ، وهذا ما تفيده (من) الابتدائية دالة على أن الإطعام

---

(1) – انظر التبيان ٤٠١/١ .

(2) – انظر الكتاب ٢٢٧/٤ .

(3) – انظر التبيان ١٣٠٥/٢ والدر المصون ١١٧/١١ .

(4) – شرح المفصل ٤٢/٨،٤١ .

كان من بداية الجوع ومنشئه،لا بعد أن استبد بهم، وذلك ما لا يؤيده حرف المجاوزة في موضعها..."[1]، أما عن المجرور فيقول عنه الزمخشري: "والتنكير في ﴿جُوعٍ﴾ و﴿خَوْفٍ﴾ لشدتهما"[2]، وأما تقديم الجوع فلأنه أظهر في المنة عليهم حيث كان امكان تعرضهم له أكثر من الخوف لوجود الحرم وحماية الله له وتعظيمه عند العرب كافة [3] .

د - (مِنْ) والملابسة .

قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [٢٣٤ البقرة]، وقال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [٢٤٠ البقرة] ، فـ ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ، و﴿ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ كلاهما في موقع الحال[4]،وأشار أبوحيان إلى المخالفة بين آية ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ والآية الناسخة لها – على قول الجمهور: ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾– لكنه لم يبين سراً[5]والذي كشف السر في ذلك هو الخطيب الإسكافي حين قال:﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:"أي:لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة،فالمعروف هنا هو أمر الله المشهور أو هو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده،والثاني المراد به:فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن،من تزوج أو قعود، فالمعروف هنا هو فعل من أفعالهن، يعرف في الدين جوازه وهو بعض ما لهن أن يفعلنه، ولهذا المعنى خُصّ بلفظ (من) ونُكّر..."[6]،ويقول الدكتور الخضري عن﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: "وعدّاه بحرف الإلصاق دليلاً على وجوب الالتزام بشرع الله واستصحابه فيما فرض لهن،[و] ... جاء حرف التبعيض (من) مع تنكير (معروف)[7]؛ليدل على أن الزواج أحد هذه الحقوق التي لا تمنع منها"[8].

---

(1) – من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣٤٩ .

(2) – الكشاف ٨٠٣/٤ .

(3) – ولوقوع (من) بمعنى (عن) نظائر مثل : ٨٧ يوسف ، و٩٧ الأنبياء ،و ٢٢ الزمر، وهي تحتمل الحالية .

(4) – انظر التبيان ١٨٧/١، والبحر المحيط ٥٥٤/٢ .

(5) – انظر البحر المحيط ٥٥٤/٢ .

(6) – درة التتريل ٥٢،٥٣.

(7) – أي: في الموضع الآخر : (من معروف).

(8) – من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣٥٣ ،ومما يمكن أن يلحق بهذا قوله تعالى:﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [٤٥الشورى] أي:بطرف خفي .

٢- من دلالات حرف الجر (الباء) .

معناها الأصلي هو الإلصاق وتتعاورها معان أخرى قد تصل إلى ثلاثة عشر معنى[١]، وقد جاءت الباء مع مدخولها في موضع الحال كثيراً في القرآن الكريم، لكن هناك تراكيب معينة كثر ورودها وهي: (بالحق) فقد جاء حالاً فيما يقارب سبعين موضعاً، و(بغير ...) فيما يقارب نصف ذلك، وهناك ما لم يأت إلا حالاً بحيث لم يشذ عنه إلا النادر مثل: (بإذن)، و(بإذنه)، و(بإذني) فقد وردت بمجموعها في ثمانية وثلاثين موضعاً كلها حال، وقريب من ذلك (بالمعروف) وبـ(بمعروف) فقد زادت على الثلاثين موضعاً ولا يخرج منها عن الحالية إلا النادر.

وهذه الشواهد كلها كانت الباء فيها بمعنى المصاحبة،بل هي كذلك في كل ما أعرب حالاً، وما ظهر أنه غير ذلك فهو راجع إليه ولو من طرف خفي، يقول عبد الستار سعيد:"وقد تبين لي...أن الباء مع مجرورها تعرب حالاً حين يقصد بالباء معنى المصاحبة"[٢] ،ونظراً لكثرة الشواهد فسننتخب بعضها لإيضاح مدلول الباء ومدخولها فيما يخص موضوعنا هذا.

أ- (الباء) والمصاحبة .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [١١٩ البقرة] ، فقوله جل ذكره:﴿ بِٱلۡحَقِّ﴾ "في موضع الحال أي أرسلناك ومعك الحق لا يزايلك ،وانتصاب﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ على الحال من الكاف... وعدل إلى (فعيل) للمبالغة..."[٣]، ولعلنا هنا نتساءل عن مدلول الباء ومجرورها، ولِمَ لم تكن مثل الحال التي تلتها فتكون: محقاً بشيراً ونذيراً ، أو تكون بالحق والبشارة والنذارة ؟ .

أما الأول؛ فلأن في الباء دلالة المصاحبة والملابسة فلما قيل: بالحق عُلم أَنَّ الحق معه مصاحبٌ له لا ينفك عنه، وفي هذا غاية الطمأنة وبعث الثقة حيث يوقن صلى الله عليه وسلم أن الحق لا يمكن أن يفارقه منذ أن أرسل ، أي: أرسلناك وأنت كذلك، والحق أهم

---

[١] - انظر بتوسع في هذا: المفصل في علم اللغة ٣٣٩ ، ورصف المباني ٢٢٠ وما بعدها ، والجنى الداني ٣٦ وما بعدها .

[٢] - الحال في الأسلوب القرآني ٢٩١ .

[٣] - البحر المحيط ٥٨٨/١ .

من البشارة والنذارة؛ لأنه الأصل الذي منه ينطلقان وإلا فكيف يبشر وينذر من لا يصيب الحق ولا يوافقه ولا يعرفه، فالحق هنا ليس غاية تبحث عنها يا محمد بل هو معك تفضلاً من الله ومنة، أما البشارة والنذارة فلما كانتا غاية للإرسال جيء بها بصيغ تدل على الاستدامة كما توحي بذلك صيغة (فعيل) فيها .

ولأن الحق لابد أن يكون ملازماً للرسول لا ينفك عنه بحال حتى يشعر بالقوة والطمأنينة والتأييد، وحتى يصيب الحق في كل أعماله وأفعاله ، لذلك كله جيء معه بالباء الدالة على هذا [١]، وهذا أيضاً شأن الكتاب فالحق لا بد أن يكون ملازماً له في إنزاله مستمراً معه مصاحباً له وهذا ما تشعر به الباء في مثل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [١٧٦ البقرة]، فقد جاء قبل هذه الجملة وعيد للمكذبين للكتب فلا يكلمهم الله ولا يزكيهم وعاقبتهم النار، فكأنه قيل لماذا ؟، فقال: ذلك بأن الله نزل الكتاب...، يقول الألوسي: "ذلك أي: مجموع ما ذكر ... بسبب أن الله تعالى (نزل) القرآن أو التوراة ملتبساً بالحق ليس فيه شائبة الضلال أصلاً فرفضوه بالتكذيب والكتمان"[٢]، وكأننا نستشف من كلام الألوسي أن (الباء) أعطت من المدح وإضفاء صفة الكمال على هذا الكتاب ما لا يمكن إنكاره ؛ لأنها دلت على المصاحبة الكاملة له منذ لحظة نزوله وهذا فيه قطع لدابر كل شك ، وقمع لعمل كل مشكك [٣] .

وجاء هذا التركيب مع الخَلْق للتدليل على عظمة الخالق وكماله ، والرد على القائلين بالعبثية قال الله تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣٨،٣٩ الدخان]، وقد جعل ابن قتيبة الباء هنا بمعنى اللام فقال : "...بالحق أي للحق" [٤] ، وعلى هذا فيكون الخلق لأجل الحق لا به ، وليس على هذا المعنى،بل إن إبقاء (الباء) على معناها الأصلي: المصاحبة والملابسة أعظم دلالة على القدرة؛ إذ يكون المعنى أن الحق مصاحب لذلك الخلق ملابس له لا ينفك

---

[١] – ولهذا نظائر كثيرة في القرآن مثل :١٧٠ النساء ،و ٤٣ الأعراف،و ٧٠ المؤمنون ، وغيرها .

[٢] – روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٤٤.

[٣] – ولهذا نظائر كثيرة في القرآن منها : ٢١٢ البقرة ،و ٢،٤١ الزمر، و ١٧ الشورى، وغيرها .

[٤] – تأويل مشكل القرآن ٥٧٨ .

عنه،وهذا أدل على الإحكام والدقة،يقول الدكتور الخضري: "وجمهور المفسرين على إبقاء (اللام)[1] دالة على أصل معناها، وهو الأليق ببلاغة الذكر الحكيم ؛ لأن خلقهما ملتبسين بالحق مصاحبين له في ضمنه أن يكون الحق غاية خلقها، وما خُلق ممزوجاً بالحق ملتبساً به لا يكون غير الحق غاية له وهدفاً" [2].

وهذه المحاور الثلاثة إرسال الرسل ، وإنزال الكتب والبينات وتلاوتها ، والخلْق، هي إبرز ما جاءت هذه الحال مبينة له ، وهي -كما هو ظاهر - يُمْتَدَحُ فيها ملابسة الحق لها ومداومته معها ؛ لذا أصابت معها (الباء) المفصل والمحز .

ب- (الباء) والظرفية .

قال الله تعالى:﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٢٣ آل عمران] ، فقوله جل ذكره:﴿ بِبَدْرٍ﴾ في موضع الحال، أو هي بمعنى (في) فتكون ظرفاً[3] ، ويبدو أن الذي أغرى بجعل (الباء) هنا بمعنى (في) هو دخولها على المكان ، ولكن لو كان المراد الظرفية لكانت (في) أظهر دلالة ، أمَا وقد جاءت (الباء) فلا شك أن لها مدلولاً فوق الظرفية، إن الباء "حين تدخل ... على المكان ، فإنها تدل على وقوع الحدث به دون قصد إلى احتواء المكان له ، وتمكنه فيه بل مجرد الملابسة له والالتصاق بأي جزء من أجزائه ..."[4].

إن (بدراً) لم تكن حصناً منيعاً ولا مدينة حصينة وإنما هي بئر ماء وقيل اسم لواد وقيل اسم للموضع كله ، إذاً الظرفية هنا لا مفهوم لها ولا فائدة منها ، "ولو جاءت (في) لأشعرت بأن للمكان طبيعة خاصة حماهم الله فيها من عدوهم ، وذلك يتنافى مع الغرض الذي يهدف إليه السياق من إرجاع الفضل في النصر إلى الله وحده ، كما يدل عليه نسبه فعل النصر إلى الله، والجملة الحالية (وأنتم أذلة) "[5] ، والباء مازالت دالة على معناها العميق (الإلصاق) ، فنصر الله ملابس لهم في بدر لم يبرحهم حتى رجعوا ، وقد ظهر

---

(١) - لعل الصحيح (الباء)؛ لأن الكلام عنها؛ إذ لا لام في الآية المعنية .

(٢) - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٢١٤ .

(٣) - انظر التبيان ١/٢٩٠، ومغني اللبيب ١/١٢١ .

(٤) - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ١٩٠ .

(٥) - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ١٩١ .

استمرار ذلك معهم ودوامه لهم، كما يشهد له هدايتهم لاختيار المكان قرب الماء ، وإنزال المطر، والتأييد بالملائكة، ثم الظهور على الأعداء ظهوراً ساحقاً مع قلة العدد والعدة، وهذه الاستمرارية وتلك المصاحبة لم تكن لتظهر لو قيل:(في بدر) .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٩٤ المائدة]، فقوله جل ذكره: ﴿ بِٱلْغَيْبِ ۚ ﴾ في موضع الحال أي: يخافه غائباً عن الخلق ، أو (الباء) بمعنى (في) أي: في المكان الغائب عن الخلق[١]، إن المدح هنا هو لمن يخاف ربه حالة كونه غائباً عن العيون ، في أي مكان وزمان، وجَعْل (الباء) بمعنى (في) يضيق هذا المفهوم الواسع ويجعله محصوراً في مكان لصاحبه معه صفة الاستتار عن الأعين ، أما (الباء) فهي هنا تعطينا آفاقاً أوسع ومدلولات أكبر ؛ لأنها توحي بأن الممدوح في ذلك هو من صاحبه خوف الله في حالة غيبته واستتاره من غير تحديد بزمن أو مكان أو مقدار، وهذا هو الممدوح؛ لأن النفس تميل، والشيطان يغوي، ولربما تساهل الإنسان بنظـرة أو سماع أو فعل، أما أن يتصل به خوف الله سبحانه ويصحبه دائماً في كل لحظة خلا فيهـا، فتلك المنحة الكبرى والمِدْحة العظمى، وهذا ما تنشره ظلال (الباء) في هذا التعبير[٢] .

٣- من مدلولات حرف الجر (على) .

أ- (على) والاستعلاء .

يقول المالقي عن (على) الجارة الحرفية: "ومعناها العلو ... هذا موضـع (علـى) في أصل الوضع"[٣] ، "ولم يثبت لها أكثر البصرين غير هذا المعـنى ، وتـأولوا مـا أوهـم خلافه"[٤]، ومن شواهد ذلك في الحالية قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾ [١٠٨ المائدة]، فـ(على وجهها) في موضع الحال[٥] ودل الجار فيها (على) على

---

[١] – انظر التبيان ١/ ٤٦٠ .
[٢] – ولهذا نظائر مثل : قوله تعالى: (بالغيب) ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾٥٢ يوسف، و (بسحر) ﴿ بِسَحَرٍ ﴾ ٣٤ القمر .
[٣] – رصف المباني ٤٣٤ .
[٤] – الجنى الداني ٤٧٦ .
[٥] – انظر التبيان ٤٧٦ .

ضرورة الاهتمام بشأن الشهادة، وبذل أقصى غايات التثبت فيها حتى تأتي على تلك الحال، يقول ابن عاشور: "فحرف (على) للاستعلاء المجازي المراد منه التمكن "[1] ، وأما المجرور وهو (الوجه) فيوحي بكمال العناية بذلك الأمر ، لما للوجه من مترلة، واشتهر قولهم: جاء بالشيء على وجهه أي: على الصفة الكاملة التي لا مغمز فيها[2].

ومن هذا القبيل قوله تعالى:﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [١٠٨يوسف] ، فـ(على بصيرة) حال أي: مستيقناً[3]، ودلت (على) هنا على التمكن والثبات ، فهو متمكن من الحجة والنور والبرهان حتى كأنه مستعلٍ عليها : إمعاناً في بيان التمكن، يقول الطاهر ابن عاشور: " و(على) فيه للاستعلاء المجازي المراد به التمكن ... والمعنى أدعو إلى بصيرة متمكناً منها"[4].

ب- (على) والمصاحبة.

جاءت (على) في مواطن موحية بمعنى (مع)، لكن لها دلالتها الخاصة بها التي لولاها ما أوثرت على (مع)، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [١٧٧ البقرة] ، فـ (على حبه) في موضع الحال، أي: محباً[5]، وذكر الزركشي أن (على) هنا للمصاحبة[6]، أما عن سر مجيء (على) بدلاً من (مع) التي هي بمعناها ، فذلك راجع إلى ما تدل عليه (على) من الاستعلاء،ولا عجب أن تأتي مع حب المال، فالموقف موقف مدح ، والمالُ قليل مَنْ يغلبه من الناس؛ لأنه شقيق الروح، والإنسان عندما يخرج لغيره من بعض ماله،فكأنما ينخلع من بعض روحه[7]، يقول أبوحيان: "وهذا وصف عظيم أن تكون نفس الإنسان متعلقة بشيء تعلق المحب بمحبوبه ثم يؤثر به غيره ، ابتغاء وجه الله"[8]،وموقع الحال هنا مشعر بالاحتراس المفضى إلى مدحهم ، يقول ابن عاشور:" (على حبه) مجاز في التمكن من حب المال... وهي في مثل هذا المقام للتنبيه على أبعد الأحوال من مظنة

(1) – التحرير والتنوير ٩٣/٧ .
(2) – انظر التحرير والتنوير ٩٣/٧ .
(3) – انظر التبيان ٧٤٧/٢ .
(4) – التحرير والتنوير ٦٥/١٣ .
(5) – انظر التبيان ١٤٤/١ .
(6) – انظر البرهان ٢٤٨/٤ ، وانظر التحرير والتنوير ١٣٠/٢
(7) – انظر كلاماً نفيساً عن المال وحبه والسمو عليه في: وحي القلم للرافعي ١٣/٣ .
(8) – البحر المحيط ١٣٥/٢ .

الوصف؛ فلذلك تفيد مفاد كلمة (مع) وتدل على معنى الاحتراس ..."[1] .

ولما كان الإنسان لا يمكن أن ينجو من أسر المال إلا بحب أكبر واستعلاء أعظم "جاءت (على) مشعرة باستعلاء حب الله في نفوسهم على حب المال ، وتغلبهم على شهواتهم وقهرهم لأسباب الخوف من الفقر ..."[2] .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [٥٩ النحل] ، فـ (على هون) في موضع الحال[3]، وقالوا : (على) هنا بمعنى (مع) [4] ، فما دلالة (على) إذاً في هذا المقام ؟.

الآية كلها تصور عظم الغم والهم الذي يصيب المبشَّر بالأنثى عند وائدي البنات ، فالوجه يسودّ، وصاحبه مكظوم ، يتوارى ويختفي من الناس خوفاً من التعيير ، وهو مع كل هذا أب له مشاعر الأبوة ، وهنا يجتمع عليه ضغط المجتمع و ثقل العادة ، ويقابل ذلك رأفة الأب ورحمته ، فهو في صراع مرير بين أمرين: إبقاء المولود الأنثى على مضض ، أو دسه في التراب وقتله ، فتصويراً لقهر المجتمع وسطوته وجوره قال: (على هون) "والمعنى: أيمسكها مع رضاه بهوان نفسه، وعلى رغم أنفه " [5] ، و (على) هنا تعطينا معنى مزدوجاً من الاستعلاء ، فهي _كما قلنا_ تظهر مدى سطوة العادات و قهر المجتمع ، و تدل أيضاً على أن من لم يرضخ لها فقد تعالى بمبدئه، وتسامى بعاطفته حتى غلبت تلك الضغوط الرهيبة ، وحتى يكون تصوير الحالة دقيقاً جاء المجرور، (هون) فهو ليس استعلاء مطلقاً، لكنه مشوب بالذلة والضعف، ولو قيل (مع) لما أشعر السياق إلا بالمذلة و الهون من غير إلماح إلى أثر العاطفة الأبوية التي يمكن أن يقهر بها كل العادات الظالمة ، وليس فيها إبراز لحجم الضغط والتسلط من ذلك المجتمع الجائر ، لذا كانت (على) بمعناها ودلالتها هي التي " تشعر بمغالبته لتبعات الإمساك وتعاليه على موجباته من ذل النفس وانكسارها ، وليست للمصاحبة كما قيل " [6] .

---

[1] – التحرير والتنوير ١٣٠/٢ .

[2] – من أسرار حروف الجر في النظم القرآني ٧٣ ، ومثل هذا قوله تعالى:﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [٨ الإنسان].

[3] – انظر البحر المحيط ٥٤٩/٦ .

[4] – انظر الفتوحات الإلهية ٥٧٧/٢ .

[5] – البحر المحيط ٥٤٩/٦ .

[6] – من أسرار حروف الجر في النظم القرآني ٧٦ .

ج- (على) والظرفية .

جاءت شواهد تنوّعَ الجارُ فيها بين (على) و (في) رغم اتحاد الموضوع وتقارب السياق ومن ذلك قوله تعالى في آيتين متتاليتين :﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل ٤٥-٤٧] ، فما سر اختصاص التقلّب بـ(في)، والتخوف بـ(على) ؟.

قيل في تعليل ذلك كلام كثير أحصاه الألوسي ثم أتبعه بقوله: "وفي القلب من هذا شيء فتدبر وتأمل ، فأسرار كتاب الله لا تحصى"[(١)] ، ولعل السر في إيثار (في) مع التقلب الذي يعني التحرك والتنقل والسفر ، أن المراد هنا بيان نوع من الأخذ وهو الغفلة والانشغال بالدنيا ، فهو لم يسبق بإنذار حتى يكون الأخذ مبنياً عليه ، بل المقصود أخذهم وهم مظروفون في تلك الحالة وهي التقلب ، فالمراد تصوير انهماكهم في السعي لهذه الحياة حتى كأنهم غابوا فيها، فلا مجال هنا للاستعلاء ، ولو قيل: (على تقلبهم) لأشعر ذلك بسبق شيء لهذا الأخذ ، ثم إن في إضافة التقلب إليهم إشارة إلى أنهم مهما تعددت أعمالهم وكان سعيهم فيها شتى،و تناءوا في البلاد ، فهو عز وجل قادر على أخذهم في تلك الحالة، ولن يعجزه كثرتهم ولا تعددهم ولذا قال بعده:(وما هم بمعجزين)،أما (على تخوف) فقد أشعرت (على) بأنه سبق لهم ما ينذرهم، قال الزمخشري: "على تخوف: متخوفين ، وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيخوّفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوّفون متوقعون" [(٢)] أو يحدث لهم ما يخوفهم "كالرياح والزلازل والصواعق ، ولهذا ختم بقوله تعالى: (إن ربكم لرءوف رحيم) ؛ لأن في ذلك مهلة وامتداد وقت يمكن فيه التلافي" [(٣)]، فهما حالان للأخذ مع السعي والغفلة ، ومع العلم والاستعداد [(٤)] .

---

(١) – روح المعاني المجلد السابع الجزء الرابع عشر ١٥٣ .

(٢) – الكشاف ٢/٦٠٨ .

(٣) – البحر المحيط ٦/٥٣٥ .

(٤) – للدكتور الخضري تحليل جيد يفاد منه، انظر: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٦٩ .

٤- من مدلولات حرف الجر (في) .

أ- (في) والظرفية .

الظرفية هي المعنى الأصلي لـ (في)[١] ويعبر عنه بعضهم بالوعاء وكل ما خالفه ظاهراً رد إليه[٢]، قال المرادي : " مذهب سيبويه والمحققين من أهل البصرة أن (في) لا تكون إلا للظرفية حقيقة أو مجازاً، وما أوهم خلاف ذلك رد بالتأويل إليه" [٣]، ومن شواهدها قوله تعالى:﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [٢٢٥ البقرة]،فقوله جل ذكره:﴿فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ محتملة للحالية، و يقرّب ذلك استقامة المعنى لو وصفت به في صلة الذي فقيل : الذي في أيمانكم [٤] ، وذكر الطاهر ابن عاشور أن (في) هنا "للظرفية المجازية المراد بها الملابسة... فيكون المعنى ...لا يؤاخذكم الله بأن تلغوا لغواً ملابساً للأيمان ..."[٥]، ولكن ما سر إيثار حرف الجر على الإضافة فيقال : لا يؤاخذكم الله بلغو أيمانكم ؟.

إن التصريح بـ (في) الدالة على الوعاء ، و إلحاقها بمجرورها (أيمانكم) ليصور حقيقة الأمر أدق تصوير، فلغو اليمين هو قول الرجل: لا و الله ، و بلى و الله [٦] من غير أن يعقد تلك اليمين و يقصدها ، وهذا يدلنا على أن هذه الكلمات كثيرة فاشية ، فجعْل الأيمان ظرفاً للغو إشارة إلى كثرة ذلك من الناس حتى كأنها من كثرتها ظرف يحيط ويستر مظروفه ، و لو قيل : (بلغو أيمانكم) بالإضافة لما دل على الكثر و لا على الإحاطة ، وفي هذا إلماح إلى ذم ذلك و ضرورة صون الأيمان من أن تكون ظرفاً للغو ، و يعضد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ [٨٩ المائدة] .

ومما صورت فيه (في) المراد أكمل تصوير قوله تعالى عن: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ﴾ [٧٩ القصص] ، فهذا حديث عن قارون وسوق لبعض خبره ، فجاء قوله تعالى :

---

[١] – انظر: المفصل في علم العربية ٣٣٩ .

[٢] – انظر رصف المباني ٤٥١ .

[٣] – الجنى الداني ٢٥٣،٢٥٢ .

[٤] – انظر التبيان ١٧٩/١ .

[٥] – التحرير والتنوير ٣٨١/٢ .

[٦] –صحيح البخاري(مع الفتح)،كتاب الأيمان والنذور،باب﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾، (٦٦٦٣)،٥٥٦/١١.

(في زينة) حالاً[1] مبنية لعتوه وكبره وخيلائه ، يقول البقاعي: " ثم ذكر حاله معظماً لـه بقوله: (في زينته) أي: التي تناسب ...أحواله وتعاظمه في كماله " [2] ، ولكن ماذا عساه يكون المعنى لو حذف الجار فقيل: فخرج متزيناً ؟ نقول: الفرق كبير ، فإن (متزيناً) تدل على هيئة الخروج من غير إشعار بضخامة تلك الزينة وهيئتها الباهرة ، لكن لما قيل: (في زينته) أشعر ذلك بأنها زينة عظيمة تحوي من فيها ، فهي إذاً حال فيها "تصوير دقيق لما كان عليه (قارون) فهو خرج على قومه ممتلئاً غروراً وكبراً ، وقد احتوته هذه الثروة الهائلة التي توفرت له حتى أصبح لا يرى إلا نفسه ، وقد عمي عن رؤية أي شيء آخر ، ولعل ذلك ما يكشفه تعبير القرآن بـ (في) هنا "[3] ، فالمقصود هنا ليس تصوير خروجه متزيناً فقط فهذا أمر قد يشاركه فيه غيره ، لكن المقصود أنه على هيئة قل مثيلها ، ولا عجب في ذلك إذا علمنا أنه خرج يحيط به أربعة آلاف كلهم على زيّه ، وعلى يمينه ثلاثمائة غلام وعلى يساره ثلاثمائة جارية ، وقيل بل خرج في تسعين ألفاً كل ذلك بكامل الزينة[4] ، وإذا كان ذلك كذلك فماذا يمكن أن يصور تلك الإحاطة ويظهر كل تلك الأبهة غير (في) التي صورته مكنوفاً بأعوانه وأمواله ،وأظهرت في الوقت نفسه عتوه وزهوه في خروجه على تلك الصفة ، وهذا ما يؤكده تعدية (خرج) بـ(على) ففيه "إشارة إلى أنه خروج متعال مترفع"[5].

ب- (في) والمصاحبة .

جاءت آيات كانت فيها (في) ومجرورها موضع الحال ، لكن السياق يوهم معنى مغايراً (للظرفية) مثل (المصاحبة) التي تدل عليها (مع) ، وذلك مثل قوله تعالى :﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [١٢٢ الأنعام] ، فقوله جل ذكره: ﴿ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ في محل نصب حال من فاعل

---

[1] – انظر التبيان ١٠٢٦/٢ .
[2] – نظم الدرر ٣٥٦/١٤ .
[3] – الحال في الأسلوب القرآني ٢٦٢ .
[4] – انظر كل ذلك في: البحر المحيط ٣٢٧،٣٢٨/٨ .
[5] – التحرير والتنوير ١٨٣/٢٠ .

(يمشي)[1] ، ولم يكن: (مع الناس) مع أن المعنى يحتمله لما في التعبير بحرف الوعاء (في) من التدليل على عظم النور الذي كان سبب حياته الحقيقية ، ثم هو مصاحب له كما تدل عليه الباء في (به) ، إنه نور مهما كثر تجمُّعُ الناس ، وإحاطتهم به ، وتنوعت مسالكهم ومذاهبهم وعظم تأثيرهم فيه ، فهو هادٍ له فيهم ، إن الظرفية هنا توحي بالإحاطة والكثرة وذلك ما يكون سبباً في زيغ الإنسان وضياعه وتبعيته لسوادهم الأعظم ، يقول الألوسي: " (في الناس) أي: فيما بينهم آمناً من جهتهم "[2] ، ولو قيل: (مع) لما كان فيه إظهار لشأن ذلك النور ، لعدم دلالتها على الظرفية والإحاطة والكثرة.

ومن هذا قوله تعالى :﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [١٢ النمل] ، فقوله جل ذكره: (في تسع) حال ثالثة، سبقها (بيضاء) ، و(من غير سوء)[3] ، والمعنى يحتمل: (مع تسع آيات) ، لكن المراد سيتغير فالمعية غير الظرفية، فهو إذا سار معها ليس كشأنه إذا سار فيها تحيط به ، إنه أبلغ في الاطمئنان وأظهر في القوة، خاصة وأنه في موقف يستوجب ذلك فهو قادم على عدوه اللدود الذي يترصد رجوعه ، ولقد أجاد الدكتور الخضري في بيان هذا السر حيث قال: " (في) من قوله: (في تسع آيات) تربط على قلب موسى عليه السلام ، وهو ذاهب للقاء فرعون، تحدوه قوة الله تعالى، وتحيطه تسع من آياته، تصنع حوله سياجاً من جند الله تعالى ، وتغمره بما يوفر له الحماية والأمان في مواجهة عدو الله، وفرق بين أن يكون معه من الأسلحة ما يدافع به ، وأن يكون محاطاً بما يدفع عنه، ألست معي بعد ذلك أن القول بأنها بمعنى (مع) يضيق عن استيعاب أسرار الذكر الحكيم"[4]، بلى نحن معك في ذلك ، ونؤكد هذا بدلالة (في) دون (مع) في قوله تعالى:﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَاسِرِينَ ﴾ [٢٥ فصلت] ، يقول الزمخشري : " فإن قلت (في أمم) ما محله ؟ قلت : محله النصب على الحال من

---

(١) – انظر إعراب القرآن المنسوب للزجاج ١/٢٦٧.

(٢) –روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ١٨ .

(٣) – انظر التبيان ٢/١٠٠٥ .

(٤) – من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ١٥٦ .

الضمير في (عليهم القول) [أي] كائنين في جملة أمم " [1] ، و الكلام هنا عن الكفار عموماً وإيضاح لسبب استحقاقهم العذاب ، و أنه وجب عليهم في حال كونهم في تلك الأمواج الهائلة من الأمم ، و هذا يصور رهبة ذلك العذاب و شدته و شموله و أهواله وهو ما ترشد إليه ظرفية (في) التي قال عنها أبو حيان : " و قيل (في) بمعنى (مع) ، و لا حاجة للتضمين مع صحة معنى (في) " [2] ، ولا شك أن وجوب العذاب عليهم مع غيرهم لا يشعر إلا بالمصاحبة ، و المصاحبة في العذاب ربما تخففه لا تزيده ، و إنما كونهم (في أمم) تحيط بهم هو ما يشعر بمهانتهم و حقارتهم حيث كانوا مغمورين لا ظهور لهم بين تلك الأمم ، وفيه أيضاً إبراز لشدة عذابهم و عظيم خزيهم فهم في وسط تلك الجموع يقاسون العذاب و الكل يرقبهم و يراهم ، وإنما قلنا ذلك ؛ لأن العذاب المذكور هو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [٨٥ ص] [3] ، فالمقصود ــ والله أعلم ــ أن عذابهم سيكون على تلك الصفة يوم القيامة مظروفين في وسط الأمم ، لـ " الدلالة على كثرة الكافرين و حقارة شأن الداخلين فيهم " [4] ، و يؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ ﴾ [٣٨ الأعراف].

ج- (في) والمقايسة .

قد تأتي (في) دالة على المقايسة "وهي الداخلة على تال يقصد تعظيمه وتحقير متلوه"[5] ، وقد جاء على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [٣٨ التوبة]، فقوله جل ذكره:(في الآخرة) في موضع الحال ، والتقدير: "فما متاع الحياة الدنيا محسوباً في الآخرة"[6]، ولكن هل هذا المعنى مسلم ، وهل (في) خرجت معه عن الظرفية ؟.

---

(١) – الكشاف ١٩٧/٤ .
(٢) – البحر المحيط ٣٠١/٩ .
(٣) – انظر روح المعاني المجلد الثاني عشر الجزء الرابع والعشرين ١١٨ .
(٤) – من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ١٥٦ .
(٥) – الجنى الداني ٢٥١ .
(٦) – الدر المصون ٥١/٢ .

يقول ابن عاشور: "وقد جعلوا المقايسة من معاني (في) ... وهو في التحقيق من الظرفية المجازية، أي متاع الحياة الدنيا إذا أقحم في خيرات الآخرة كان قليلاً بالنسبة إلى كثرة خيرات الآخرة ، فلزم أنه ما ظهرت قلته إلا عندما قيس بخيرات عظيمة ونسب إليها، فالتحقيق أن المقايسة معنى حاصل لاستعمال حرف الظرفية ، وليس معنى موضوعاً له حرف (في) " [١] .

وهذا الكلام حقيق بالقبول ؛ لأن دلالة الظرفية هنا أدل على عظم شأن الآخرة وحقارة شأن الدنيا ، وقد نبه إلى هذا أيضاً الدكتور الخضري فقال: "وأرى -والله أعلم- أن حرف الوعاء على أصله ، والظرفية فيه هامسة بعظم الآخرة ونعيمها وتفاهة الدنيا ومتاعها ، و هو إذا ما قورن بنعيم الآخرة ظهرت ضآلته وتلاشى فيه ... وذلك أوقع في الكشف عن ضآلة الدنيا والتقليل من متاعها ونعيمها من جعل (في) للمقايسة " [٢] .

٥- من دلالات حرف الجر (عن) .

أ- (عن) والمجاوزة .

تأتي(عن) في أصلها للدلالة على البعد والمجاوزة[٣]ويسميها بعضهم المزايلة[٤]،قال المرادي عن دلالتها على المجاوزة:"وهو أشهر معانيها،ولم يُثبت لها البصريون غير هذا المعنى" [٥].

ووقوعها مع مجرورها في موضع الحال قليل بالنسبة لغيرها ، ومما يمكن الاستشهاد به هنا قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [٢٨ الكهف]، فيمكن في (عنهم) أن يكون حالاً ، أي: لا تعد عيناك نابيةً عنهم على قول من يرى التضمين، ونحن وإن قلنا بالحالية فليس شرطاً أن نقول بالتضمين، ولسنا أيضاً مع من يقول بزيادة (عن) هنا ، وقد أشار الزمخشري إلى الأمرين الزيادة والتضمين، لكنه يقول بالأخير[٦]، والتضمين يعلل

---

[١] – التحرير والتنوير ١٠/١٩٨ .
[٢] – من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ١٢٥ .
[٣] – انظر المفصل في علم اللغة ٣٤٣ .
[٤] – انظر رصف المباني ٤٣٠ .
[٥] – الجنى الداني ٢٤٥ .
[٦] – انظر الكشاف ٢/٧١٧ .

وجود الحرف ولا يبين سره ، ومعلوم قطعاً أن قولك : لا تعْدُ فلاناً، غير قولك: لا تعْدُ عن فلان ؛ ففي الأول نهي عن تجاوزه فقط من غير إشعار بالعناية بغيره، أما الثاني فيُشعر بأن فلاناً هو الحري بوقوفك معه وأنت منهي عن تجاوزه إلى غيره ، جاء في المقاييس: "عدى عن الأمر...أي جاوزه إلى غيره،...ونقول: تعديت المفازة أي: تجاوزتها إلى غيرها" [1] ،وإذا كان ذلك كذلك فما فائدة (عن) إذاً ؟.

إنها تشعر بأن المجاوزة كان ينبغي ألا تكون ، وأنها كانت مقصودة ، فلو قيل بغير (عن): ولا تعْدُهم عيناك، لكان المراد: "النهي عن إهمالهم والإقلال من شأنهم ، ... أما الذي آثره القرآن فإنه يفيد النهي عن تركهم إلى غيرهم ، وصرف نظره واهتمامه بقوم سواهم ...فكأنه قال:ولا تتجاوز هؤلاء النفر من قومك وتتركهم ماضياً إلى سواهم ، وهو ما لا يفهم من الفعل المعدى بنفسه"[2] ، ولربما كان لـ(عن) هذه في هذا المقام علاقة بطلب كفار قريش وكبرائها طرد أولئك الضعفة من أمثال بلال وصهيب وسلمان -رضي الله عنهم أجمعين- حتى يجلسوا هم مع الرسول صلى الله عليه وسلم دونهم ، وقد جاء قبلها التنبيه على ذلك بقوله جل ذكره: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾.

إذاً هناك علاقة مسبقة بين النهي عن تجاوز الفقراء وطلب الكفار لذلك ، فكانت (عن) دالة على مجاوزة فوق المعتاد ، مجاوزة خاصة ، وهذا ما ألمح إليه الرازي بقوله: "وإنما عدى بلفظ (عن) ؛ لأنها تفيد المباعدة ... و المقصود من الآية أنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزدري فقراء المؤمنين وأن تنبو عيناه عنهم لأجل رغبته في مجالسة الأغنياء وحسن صورهم " [3] ، فقول الرازي (مباعدة) لا مجاوزة إشعار بدلالة (عن)، وأما بعض كلامه عن رسول الله ففيه ما يشعر بعدم أدب معه صلى الله عليه وسلم؛ إذْ لم يحتقر صلى الله عليه وسلم أحداً لفقره ، و لم يختص الأغنياء لحسن صورهم بل لدعوتهم وهدايتهم.

---

[1] - معجم المقاييس في اللغة مادة (عدو) ٧٤٦ ، ٧٤٧ .

[2] - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣٠٣ .

[3] - مفاتيح الغيب ٢١/ ٩٨ .

ب- (عن) والابتداء .

جاءت (عن) موهمة دلالة (من) في قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ [٢٨الصافات] ، فقوله جل ذكره : ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ في موضع الحال " أي : تأتوننا صادينا عن اليمين " [١] ، و لم يكن التعبير هنا بـــ (من) مع أن المعنى يحتمله ؛ لأن المراد سيتغير ، فقد " جاءت (عن) مجسدة معنى التجاوز عن سبل الرشاد ، والزيغ عن طريق الحق ، و لو قال : (تأتوننا من اليمين) لما أفاد هذا المعنى " [٢] ؛ لأن (من) تفيد الابتـــداء مـــن الجهة المذكورة و لا معنى له في هذا المقام ، وإنما يصلح في غيره ، وذلك إذا أُريـــد مجـــرد الإخبار بالمجيء من تلك الجهة ، فلما كان شأهم أهم يأتون بقصد صرفهم عن الحـــق و الخير ، لذا جاءت (عن) بياناً لهذه المجاوزة في القصد [٣] .

ج- (عن) والالصاق .

من ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴾ [٣ النجم]،يقول أبو عبيدة:" (عـــن الهوى) أي: بالهوى"[٤] ويتبعه الزركشي وينكر كونها على معناهـــا الحقيقـــي فيقـــول: "وإذا كانت على بابها نفى عنه التعلق حال كونه مجاوزاً عن الهوى، فيلزم أن يكون النطق حال كونه ملتبساً بالهوى، وهو فاسد" [٥] ، وما قاله غير لازم بل إن التعدية أظهر معنى ، و أكثر مدحاً له صلى الله عليه وسلم و هو الظاهر الذي لا يحتاج إلى تأويل ؛ إذ المراد هنا ليس مدحه بنفي كون نطقه ملتبساً بالهوى ؛ لأن مدحه ببيان المصدر الذي صدر عنه أبلغ من ذلك ؛ إذ في ذلك انقاء للمصدر وتصفية للمعين ، وهذا يعني أن ما بعده لا تـــشوبه شائبة ، وهذا أبلغ من نفي الملابسة حال النطق ؛ إذ ليس فيه إشـــعار بـــصفاء المـــصدر وعظمته و قوته ، فكان معنى قوله و ما ينطق عن الهوى ، أنه ينطق عن وحي ، فالمجاوزة

---

[١] – التحرير والتنوير ١٠٤/٢٣ .

[٢] – من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣٢٢ .

[٣] – ولذلك نظائر منها قوله تعالى: ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ [١٧الأعراف] ، وقوله تعالى: ﴿ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ [١٠٤التوبة]، وقوله تعالى:﴿ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ [١١ القصص]، وقوله تعالى: ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ ﴾ [٣٧المعارج] .

[٤] – مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢٣٦/٢.

[٥] – البرهان في علوم القرآن ٢٨٧/٤ .

هنا ظاهرة ، أي أن كلامه يجاوز الهوى الذي ينطلق منه أكثر خصماء دعوته ، ويصدر عن الوحي ، و هذا مالا يوحي به حرف الإلصاق ، يقول الدكتور الخضري : "ما عليه النظم الحكيم أبلغ في تبرئته عليه السلام من هوى النفس والتحدث برأيه ؛ إذ إن نفي التلبس بالهوى ومخالطته لا ينفي أن يكون صادراً عنه وناشئاً منه ...ومن ثم جاءت (عن) دالة على نفي أن يكون جاءهم صادراً عن هوى من نفسه أو متأثراً به " [1] .

د- (عن) والتعليل .

قد تأتي (عن) في موطن (اللام) المعللة ، والمعنى يحتمل ذلك ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [٥٣ هود] ، يقول الزمخشري: " (عن قولك) :حال من الضمير في تاركي آلهتنا ، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك" [2]، وقيل إن (عن) هنا بمعنى التعليل، أي : لقولك [3] ، والمهم عندنا هو سر التعبير بـ (عن) مع أن المقام يحتمل (اللام) ، و في هذا يقول الطاهر ابن عاشور : " و المعنى : أن يكون كلامه علة لتركهم آلهتهم " [4] ، و بتأمل الآيات بعمومها يظهر أن عاداً قوم هود كانوا مجرمين ، صعبي المراس ، شديدي الإعراض ، متجاوزي الحد مع رسولهم حتى إنهم لا يتأدبون معه فقد : " نادوه باسمه غلظة و جفاء " [5] ، و أنكروا آيات الله المعجزة مكابرة وتعالياً ، لذا فهم يحتقرون أن يكون له قول يمكن أن يُصدر عنه : " وخاصة في أمر خطير يتعلق بعقيدتهم ودين آبائهم ، وكأنهم أرادوا أن ينفوا أمرين، لا أمراً واحداً ، الأول: أنهم لن يتركوا آلهتهم و لن يقبلوا فيها جدالاً ، و الثاني : أنهم لن يصدروا عن رأيه و قوله ، و ليس هو بذي الرأي فيهم و لا بمنزلة من يُتْبع و هو ما أكدوه بقولهم : (وما نحن لك بمؤمنين) ، وذلك أبلغ من اللام في موضعها ؛ لأنه مع اللام يكون المنفي أمراً واحداً معللاً بقوله ، ويكون المعنى : لن نترك ديننا من أجل قولك ... " [6] .

---

(1) – من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣١٠ .
(2) – الكشاف ٤٠٣/٢ .
(3) – انظر البرهان في علوم القرآن ٢٨٧/٤ .
(4) – التحرير والتنوير ٩٨/١٢ .
(5) –نظم الدرر ٣٠٨/٩ .
(6) – من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣١٤ .

٦- من دلالات حرف الجر (إلـى) .

أ- (إلى) والانتهاء .

المعنى الأصلي لـــ (إلى) هو انتهاء الغاية - كما يقول الزمخشري - و غيره راجـــع إليه[١] ، وقال المرادي في أول معانيها: " انتهاء الغاية في الزمان والمكان و غيرهما ، وهـــو أصل معانيها " [٢] .

و من شواهد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ [٢٨٢ البقرة] ، فقوله جل ذكره : ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ في موضع الحال ، أي: مـــستقراً في الذمة إلى أجل ولا يتعلق بـــ (تكتبوه) لعدم استمرار الكتابة إلى أجل الدين ؛ لأنهـــا تنقضي في زمن يسير[٣]، ودلت (إلى) هنا على انتهاء الغاية الزمنية المضروبة للدين ، فـــإذا حانت وجب أداؤه فكان تحديد الغاية في غاية الأهمية ، "كل ذلك لضبط أموال النـــاس ، وتحريض على أن لا يقع النزاع ... ونصَّ على الأجل للدلالة على وجوب ذكره،... ونبه بذكر الأجل إلى صفة الدين ومقداره... والأجل هنا الوقت الذي اتفق المتـــداينان علـــى تسميته" [٤] ، وألمحت (إلى) هنا إلى ضرورة المبادرة بالأداء عند حلول الأجل المضروب ؛ " لأن (إلى) لا تمتد معها الغاية بخلاف (حتى) "[٥].

ومن هذا القبيل قوله تعـــالى : ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [٢٤ص]، فقوله تعالى : ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ الأظهر أنها حـــال أي : " بـــسؤال نعجتـــك منتهيـــة إلى نعاجه"[٦]، ولو تأملنا هذه الآية لرأينا أن الكلام قد تم قبل هذا التركيب ، فما فائدة الجار والمجرور إذاً ؟

---

[١] - انظر المفصل في علم اللغة ٣٣٨ .

[٢] - الجنى الداني ٣٨٥ .

[٣] - انظر البحر المحيط ٧٣٧/٢ .

[٤] - البحر المحيط ٧٣٧/٢ .

[٥] - التحرير والتنوير١٨٤/٢ ،ومما يماثل هذا قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [١٨٧البقرة] ، وقوله تعالى:﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ ﴾ [١٣٥الأعراف] ، هذا في الزمان، أما الغاية المكانية وما يلحق بها فكقوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [١٤٣النساء]،وقوله تعالى:﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ [١٢النمل] .

[٦] - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٢٦٧ .

إنه لو قيل:لقد ظلمك بسؤال نعجتك ، أي:بطلبها، لكان كافياً في الدلالة العامة "لكن هذا لا يكشف عن استنكار داود وغضبه على رجل تسيل الأموال بين يديه، ثم ينظر إلى القليل التافه في يد غيره؛ لذا جاءت (إلى نعاجه) تأنيباً وتقريعاً له على عدم قناعته بما أغناه الله من فضله"[1]، و(إلى) بدلالتها الغائية أشعرت بحرصه على إيصال تلك الغنيمة ولو كانت يسيرة إلى ماله ، وجاء المجرور (نعاجه) لبيان أن حرصه ذلك كان مبعثه مصلحته ومنفعته لا فقره وحاجته ، لذا أضيفت إليه فقيل:(نعاجه) دلالةً على كثرة ملكه وغناه كما ينبئ عنه الجمع في: (نعاجه)، ومع هذا هو حريص على نعجة واحدة أن تصل إلى الغاية المنتهية إليه ، ولا يرضى بمجرد الطلب فذلك ما لا يشبع نهمه ، بل لابد أن تستقر وتبلغ الغاية التي يطمئن معها أنه حازها ودخلت في ملكه ، وهي نعاجه ، وذلك ما تدل عليه (إلى) الغائيّة .

ب- (إلى) والمصاحبة .

جاءت (إلى) في شواهد محتملة معنى كلمة المصاحبة (مع) كما في قوله تعالى:﴿ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [٥٢آل عمران]، فـ (إلى الله) يمكن أن تتعلق بحال تقديرها: "ذاهباً إلى الله ملتجأً إليه" [2] ، وقال الفراء عن معنى (إلى) هنا: " المفسرون يقولون : مَنْ أنصاري مع الله وهو وجه حسن ، وإنما يجوز أن تجعل(إلى)موضع (مع) إذا ضممت الشيء إلى الشيء مما لم يكن معه..."[3] ، و يبدو أن ما ذكره الفراء ليس هو وجه الصواب ؛ لأن (مع) لو وقعت هذا الموقع لكان الجواب : (نحن أنصار الله) مخالفاً لها ، و لكان يجب أن يكون : نحن أنصارك مع الله ، و هذا يدل أن (إلى) هنا ليست بمعنى (مع) [4] .

وقد أحسن المرادي في التفريق بينهما بعد ما أورد كلام الفراء فقال: " و (إلى) في هذا أبلغ من (مع) ؛ لأنك لو قلت : من ينصرني مع فلان؟، لم يدل على أن فلاناً وحده

---

(1) – من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٢٦٧ .

(2) – الكشاف ٣٦٦/١ ، والبحر المحيط ١٧٣/٢ .

(3) – معاني القرآن للفراء ٢١٨/١ .

(4) – انظر :من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٢٧٩ .

ينصرك ولا بد، بخلاف (إلى)؛ فإن نصرة ما دخلت عليه محققة واقعة مجزوم بهـــا ..."[(١)] ، وإنما كان مجزوماً بها؛ لأن (إلى) أشعرت بأن النصرة المطلوبة ممتدة إلى غايتها المعنية، فهي لا تنقطع ولا تتخلف حتى تبلغ مداها ، وفي نظري أن المعنى هنا هو: مستمرين ماضين إلى الله ، وهذا ما عبر عنه صاحب الكشف بصراحة فيما نقله عن الألوسي فقـــال: " لعـــل الأشبه في معنى الآية ــ والله أعلم ــ أن يحمل على معنى من ينصرني منهياً نـــصره إلى الله تعالى كما يقتضيه حرف الانتهاء دون تضمين ... " [(٢)] ، و من هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [٢ النساء]، فإن (إلى) دلت على حرص بعض الأولياء في إيصال أموال اليتامى إلى أموالهم حتى تكون في ملكهم[(٣)] .

ج- (إلى) والاختصاص .

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[٦فصلت]،فقوله جل ذكره: (استقيموا إليه) ، أي: استقيموا قاصدين إليه دون غيره، قال ابن منظور:"فاستقيموا إليه،أي: في التوجه إليه دون الآلهة"[(٤)] ، فـــ(إلى) هنا تدل على جعله جل جلاله غاية يُقصد إليها فلا يُلتفت إلى غيرها ، ولا يركن إلى سواها ، ولو قيل – فاستقيموا له– لكان معناه: اثبتوا له خاصة[(٥)] ؛ وفي قوله تعالى (إلى) إشارة إلى أن هذا الكلام لمن له غاية غير الله ، فهو إما مشرك مع الله غيره ، يتوجه إليه ببعض العبادة ، وإما هو جاحد منكر يتوجه بكليته إلى الأصنام، فهؤلاء لم يتوجهوا إلى الله بـــل إلى غيره ، لذا جاء الأمر هنا بالاستقامة إليه والاستمرارية فيها إلى بلوغ الغاية، وفي ذلك إعلام بوجوب الصبر والثبات أمام الصوارف التي تغير المسار وتبعد عن بلوغ الهدف ؛ لأن تلـــك الاستقامة إذا لم تبلغ الهدف لم تتم؛ لأن (إلى) هنا تشير إلى ضرورة بلوغ الغاية، ولو كـــان الكلام للمؤمنين الذين أقروا بذلك واعتقدوه سبحانه رباً مستحقاً للعبادة وصرفوها كاملـــة إليه لناسبت(اللام)؛لأن فيها دلالة على خلوص الأمر له والخضوع التام له سبحانه[(٦)].

(١) – الجنى الداني ٣٨٦ .
(٢) – روح المعاني المجلد الثاني الجزء الثالث ١٧٥ .
(٣) – انظر المزيد فيها في: الكشاف ٤٦٥/١ ، والبرهان في علوم القرآن ٢٣٣/٤ ، وشرح المفصل ١٥/٨ .
(٤) – لسان العرب مادة (قَوَم) ٤٩٨/١٢ .
(٥) – انظر: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٢٧٠ .
(٦) – انظر من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم٢٧٠ ،ومما هو من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [١٢ الأنعام] ، انظر في ذلك: البحر المحيط ٤٤٧/٤، ومن أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٢٧٤،٢٧٥ .

٧- من دلالات حرف الجر (اللام) .

أ- (اللام) والاختصاص .

التخصيص أظهر معاني (اللام) وأنواعه تتشعب والذي يجمعها النسبة[1]،و(اللام) حرف كثير المعاني وقد جمع المرادي للجارة منها خاصة ثلاثين قسماً، وذكر أول معانيها الاختصاص وقال: " قيل : وهو أصل معانيها " [2] ، " وإذا تُؤُملت سائر المعاني المذكورة وُجدتْ راجعة إلى الاختصاص" [3]، ومن شواهدها الدالة على الاختصاص قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ [١٨٨ الأعراف]،فقوله جل ذكره: ﴿لِنَفۡسِي﴾ متعلق بـ(أملك) أو حال[4]، وكان يمكن أن يأتي الكلام دون هذه الحال،فيقال:لا أملك نفعاً ولا ضراً،وهو كاف في الدلالة العامة، لكن كان للجار والمجرور هنا دلالة عظيمة في كمال التجرد من الحول والقوة وإرجاع الفضل إلى صاحبه ونسبه التدبير إلى الخالق جل جلاله فقال : (لنفسي) ، وذَكَر(اللام)ليدل على الاختصاص، و (نفسي) ليدل على أن محض الإخلاص يكون لها ؛ لأنها أعظم ما يُدل به على الذات ، أي أنني ليس لي جلب النفع ولا دفع الضر عن نفسي خاصة التي لا أمارى في فعل ذلك من أجلها لو كان ذلك لي ، وتقديم النفع دليل على أن الإنسان يحب نفع نفسه ويقدمه على كل شيء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [٨ العاديات] ، يقول ابن عاشور: "وقدم النفع هنا على الضر ؛ لأن النفع أحب إلى الإنسان"[5] ، وكذلك الأمر في تقديم الحال (لنفسي) فهو إشارة إلى الاهتمام بالنفس أيما اهتمام .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى:﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ [٦٤ هود] ، فـ (لكم) حال من (آية) التي هي حال أيضاً فهي حال من حال[6] ، و (اللام) في (لكم) مشعرة بالاختصاص ؛ لذا أعقبها بقوله : (فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء) ، وفي تقديم (لكم) الحال

(1) – انظر رصف المباني ٢٩٤ .
(2) – الجنى الداني ٩٦ .
(3) – الجنى الداني ١٠٩ .
(4) – انظر التبيان ٦٠٧/١ .
(5) – التحرير والتنوير ٢٠٧/٩ .
(6) – انظر :الفتوحات الإلهية ٤٠٧/١ .

على صاحبه (آية) إشعار لقوم صالح بضرورة الاهتمام بها فضلاً عن الاعتداء عليها؛ لـــذا أخر ذكر الاعتداء فقال:ولا تمسوها بسوء ،أي:لأن المرجو من مثلكم ألا يكون منه ذلك .

ب- (اللام) والاستعلاء .

جاءت اللام موهمة معنى (على) في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [١٢ يونس] ، قال أبو حيان: " و(لجنبه) حال أي: مضطجعاً ، ولذلك عُطف عليه الحالان ،و(اللام) على بابها عند البصرين، والتقدير ملقياً لجنبه لا بمعنى (على) خلافاً لزاعمه"[١]،وزاد السمين"ولا حاجة إليه"[٢] أي لجعلها بمعنى (على).

وقد جاءت (على) صريحة في موضع آخر داخلة على (الجَنْب) في موضع الحال كما في قوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [١٩١آل عمران] ، فما سر (اللام) في آية يونس ، ولَمَ لم تأت (على) بدلاً منها ؟ .

نقول:(اللام) معناها الاختصاص وكل ما أوهم خلاف ذلك فمرده إليه ، لهذا يجب أن يبحث السر من هذا المدخل،والآية هنا تذكر الإنسان المضطر سواء أكان معيناً أو عاماً فإنه كثير الدعاء،وله حالات ثلاث:يقول أبو حيان:"وابتدأ بالحالة الشاقة وهي اضطجاعه وعجزه عن النهوض وهي أعظم في الدعاء وآكد ثم بما يليها..."[٣]، وكلام أبي حيان هذا هو مفتاح السر،فهذا الإنسان عاجز لا يستطيع النهوض وهي الحالة الأولى وهي التي تعنينا،ولو قيل:دعانا على جنبه،لدل ذلك على أنه غير عاجز بل هي حالة هو اختارها،لا المرض ألجأه إليها فهو فعلها عن قدرة واستطاعه،وهذا ما يدل عليه حرف الاستعلاء (على)، قال الألوسي: "وقد يعبر بـــ(على)وهي تفيد استعلاءه عليه"[٤]، وهذا ما جاء في آية آل عمران (على جنوبهم) فليس فيها ذكر للاضطرار بل هو بيان لعامة أحوالهم في الذكر،فهم يذكرونه على كل حال،ومنها حالةالاضطجاع، أما(لجنبه)فيدل أنه لا اختيار له في ذلك بل المرض ألجأه إليه،و(اللام) بدلالتها الخاصة على الاختصاص تشعر بأنه ليس له مُستقَر إلا على جنبه،وهذا مبلغ من الاضطرار عظيم،وقد أجاد الألوسي في التنبيه على سر اللام هنا حيث قال : " و (اللام) تفيد اختصاص كينونته واستقراره بالجنب ؛ إذ لا يمكنه

---

[١] - البحر المحيط ٦/٢٠ .

[٢] - الدر المصون ٦/١٦٠ .

[٣] - البحر المحيط ٦/٢٠ .

[٤] - روح المعاني المجلد السادس الجزء الحادي عشر ٧٩ .

الاستقرار على غير تلك الهيئة، ففيه مبالغة زائدة "[١].

ج- (اللام) والانتهاء .

قال تعالى:﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [١١٢ البقرة] ، فقوله جل ذكره:(لله) في موضع الحال، أي:"سالماً لله،أي خالصاً لله"[٢] ، وقد جاءت (إلى) بدلاً من (اللام) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [٢٢ لقمان]، وسر هذا التغاير بينه الزمخشري بقوله :"معناه مع (اللام) أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله، أي خالصاً له ، ومعناه مع (إلى) أنه أسلم إليه نفسه كما يُسلَم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه، والمراد التوكل عليه، والتفويض إليه"[٣]، ويقول الألوسي: " وقد يُعدى الإسلام باللام قصداً لمعنى الإخلاص"[٤]،وجعل الدكتور الخضري مدار الفرق بين الاستعمالين على ما سبق الآيتين من معانٍ تستوجب ذلك، فآية البقرة سُبقت بحديث النسخ ، وما تبعه على أيدي الحاقدين من زعزعة في الإيمان وتشكيك في العقيدة، فناسبة (اللام) المشعرة بالانقياد والاستسلام لأمر الله، وأما آية لقمان فقد سبقت بذكر النعم، وما سخر الله لعباده فيها ، وهذا يستوجب شكره وتفويض الأمر إليه[٥]، وما ذكر له وجهه، إلا أنه لابد من مراعاة أن آية البقرة جاءت رداً على مدح عقيدة أخرى غير الإسلام وهي اليهودية والنصرانية ، وأنه بهما تنال الجنة و أما غيرها فلا،كما هو ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [١١١ البقرة]، فلا ريب أن يُعدى الفعل هنا بـــ (اللام) ؛لأن الحديث هنا عن الإسلام المقابل للكفر الذي هو الاستسلام لله والانقياد له والخضوع لحكمه، الإسلام الذي جاء على لسان إبراهيم:﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [١٣١ البقرة] ، أما آية لقمان فالحديث فيها عن المؤمنين الذين أسلموا لله وأخلصوا له، والمراد فيها التسليم والتفويض والتوكل ، ويدل على ذلك قراءة التشديد (يُسَلِّم) [٦] ،

---

(١) – روح المعاني المجلد السادس الجزء الحادي عشر ٧٩ .
(٢) – الكشاف ٣/٤٩٩ .
(٣) – الكشاف ٣/٥٠٠،٤٩٩ .
(٤) – روح المعاني المجلد الحادى عشر الجزء الحادى والعشرون ٩٥ .
(٥) – انظر :من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٢٢٦،٢٢٥ .
(٦) – انظر الكشاف ٣/٤٩٩ .

فكانت (إلى) هي المناسبة.

ثانياً: دلالة الظروف في الحال .

تعددت الظروف الواقعة حالاً، وكلها كانت ظروفاً مكانية إما حقيقية أو مجازية، و لم يشذ عن ذلك إلا القليل النادر، والظروف التي جاءت حالاً هي: (بين ، وحول ، ودون ، وعند، وفوق ولدى ، ومع ، ووراء) ، وهي متفاوتة في كثرة الشواهد وقلتها ، لكنها بعمومها أقل بكثير من الجار والمجرور، وسأعرض هنا أظهر تلك الظروف اكتفاءً بها عن غيرها .

١ـ من دلالات الظرف (بين) .

قال تعالى:﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٢٣٧ البقرة]، فـــ(بينكم)حال من الفضل[١]،وهو ظرف"موضوع للخلالة بين الشيئين ووسطهما... ولا يستعمل إلا فيما له مسافة...أو له عدد ما:اثنان فصاعداً"[٢] ، وانطلاقاً من هذا المدلول لهذا الظرف وهو التوسط بين شيئين أو أكثر نلحظ ما أداه هذا الظرف في موقعه هذا من عظيم الدلالة، فالحديث مع الزوجين والأقرباء ، وهو عن المال الذي قد يحصل بسببه الشقاق في الأهل والأحباب ، فإلماحاً إلى ضرورة تقديم المعروف والتسامح ، جاءت (اللام) في (للتقوى) ، يقول البقاعي: "ولما كان المقام للترغيب عبر باللام الدالة على مزيد القرب دون (إلى) "[٣] ، ولتأكيد ذلك جاء النهي عن نسيان الفضل ثم "زاده تأكيداً بقوله: (بينكم) أي: حال كونه واقعاً فيكم من بعضكم لبعض ، ليس شيء منه خارجاً عنكم ، ولن ينال الله منه شيء ؛ لأنه غني عن كل شيء ، فما أمركم إلا لنفعكم خاصة..."[٤].

٢ـ من دلالات الظرف (حول) .

قال تعالى : ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [٣٤ الشعراء]،قال الزمخشري:

---

(١) – انظر التبيان ١/١٩٠ ، وذكر مع الحالية التعلق بـــ(تنسوا) ، وانظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١/٣٥٦ .

(٢) – المفردات مادة (بين) ١٥٦ .

(٣) – نظم الدرر ٣/٣٥٧،٣٥٦ .

(٤) – نظم الدرر ٣٥٧ ، وانظر التحرير والتنوير ٢/٤٦٥ ، وجاء (بين) حالاً في مواقع أخرى مثل : ١٦٤البقرة ، و١٤٠آل عمران ، و٦٥ ، ١٢٨ النساء، ١٤ المائدة، ٤٦النبأ .

"فإن قلت:ما العامل في (حوله) ؟، قلت: هو منصوب نصبين:نصب على اللفظ ، ونصب على المحل ، فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف ، والعامل في النصب المحلي هو النصب على الحال"[١] ، وبين ابن عطية مراد الزمخشري بقوله: "انتصب (حول) على الظرف ، وهو في موضع الحال"[٢] ، وقد أنكر أبوحيان على الزمخشري تفصيله السابق وقال: "وهو تكثير وشقشقة كلام، في واضح من أوائل علم العربية"[٣] .

وهذا الظرف (حول) يدل في مجمل مادته على الجانب قال الراغب:"وحول الشيء: جانبه الذي يمكنه أن يحول إليه قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [٧غافر] "[٤]، وعلى الدوران والتحرك، قال ابن فارس:"الحاء والواو واللام أصل واحد وهو تحريك في دَوْر"[٥] ،وقال الألوسي:"وأصل هذا التركيب موضوع للظرف والإحاطة"[٦]، وهذا يبين لنا دلالة هذا الظرف في هذا السياق؛ إذ تشير هذه الحال إلى إحاطة أشراف القوم بفرعون من كل جانب في أبهة عظيمة وهيبة كبيرة ،وهذا يدل على عظم كيده واستعداده للتحدي، وفيه أيضاً إيضاح لمشاركة هؤلاء الملأ له في الكيد والخبث،كما يدل قوله قبل هذا:﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [٢٥ الشعراء] .

٣- من دلالات الظرف (دون) .

قال تعالى:﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [٢٠٥ الأعراف]،قال العكبري:" (ودون الجهر) معطوف على(تضرع)والتقدير:مقتصدين"[٧]، يقول ابن فارس مبيناً دلالة هذا الظرف: "الدال والواو والنون أصل واحد يدل على المداناة والمقاربة ، يقال: هذا دون ذاك ، أي: هو أقرب"[٨]، وذكر الراغب أن (دون) يقال للقاصر عن الشيء[٩] ، وأصل (دون) أن يكون

---

[١] - الكشاف ٣١٠/٣ .
[٢] - هكذا أورده في البحر المحيط ١٥٣/٨ ، ولم أجده في المحرر الوجيز عند هذه الآية، انظر ٥٧/١٢ وما بعدها .
[٣] - البحر المحيط ٥٣/٨ .
[٤] - المفردات مادة (حول) ٢٦٧ .
[٥] - معجم المقاييس في اللغة مادة (حول) ٢٩٠ .
[٦] - روح المعاني المجلد الأول ، الجزء الأول ١٦٥ .
[٧] - التبيان ٦١٠/١ .
[٨] - معجم القايس في اللغة مادة (دون) ٣٧١ .
[٩] - انظر المفردات مادة (دون) ٣٢٣ .

للمكان الأدنى أي الأقرب من مكان المضاف إليه، كجلست دون محمد أي:قريباً من مكانه، ثم توسع فيه فاستعمل في المكان المفضول، ثم في الرتبة المفضولة، ثم في مطلق تجاوز شيء لشيء[1]، ويبدو أنه يدل هنا على القاصر عن الشيء كما أشار إليه الراغب، مع قربه من المذكور وهو (الجهر)، فالمراد هنا أن لا يبلغ الجهر، ولو قيل:وفوق السر، لكن الاعتناء بتجاوزه السر ، لكن هنا الاعتناء بعدم تجاوزه الجهر،ولو قيل في موطنه (وخفية) ، لكان الاعتناء بالإخفاء أظهر وأبرز، والذي هنا يظهر فيه الاعتناء بالإظهار لكن بقدر محدد، غايته الجهر يقصر دونه مع قرب منه، ولعل سر إيثار هذا الموقع بهذا التركيب (دون الجهر) ما سبقه من أنه ذِكْرٌ في النفس؛ فقد يُظَن أنه لا يصلح أن يحرِّك به الشفتين بصوت خافت ، فجاءت (دون الجهر) بياناً للغاية الممكنة لرفع الصوت ، يقول البقاعي: "ولما أمر بالسر قال مقابلاً له: (ودون الجهر) أي: لأنه أدخل في الإخلاص، ومعلوم أنه فوق السر،وإلا لم تفد الجملة شيئاً ... [و] المقصود حصول الذكر اللساني ليعين الذكر القلبي ، والمقصود حاصل بإسماع النفس فإنه يتأثر الخيال فيتقوى الذكر القلبي ..."[2]، ويقول الألوسي: "والمراد بالجهر رفع الصوت المفرط ، وبما دونه نوع آخر من الجهر، قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو أن يسمع نفسه"[3].

٤- من دلالات الظرف (عند) .

قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٦٢ البقرة]،فقوله تعالى: (عند ربهم) حال من (أجرهم) أي: "كائناً عند ربهم " [4] أو "مستحقاً أو مستقراً"[5] ، و (عند) ظرف له تعلق بمادة (عَنَد) الدالة على المجاوزة والترك ، ومنه العنود ، والعنيد ، قال ابن فارس عن قولهم زيد عند عمرو: "ليس ببعيد أن يكون من هذا القياس ، كأنه قد مال عن الناس كلهم إليه حتى قرب منه ولزق به"[6] ، وقال

---

(١) – انظر منار السالك(هامش) ١/٤٣٥ .
(٢) – نظم الدرر ٨/٢١١،٢١٠ .
(٣) – روح المعاني المجلد الخامس الجزء التاسع ١٥٤ .
(٤) – البحر المحيط ١/٣٩١ ،وذكر معه الظرفية .
(٥) – إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١/١١٦ .
(٦) – معجم المقاييس مادة (عند) ٧٠٦ ، ٧٠٧ .

الراغب: " (عِنْد) لفظ موضوع للقرب فتارة يستعمل في المكان وتارة في الاعتقاد ... وتارة في الزلفى والمترلة " [1] ، و(عند) هنا ظرف جاء في موضع الحال من الأجر زيادة في الطمأنة والثقة، يقول البقاعي: " كائناً (عند ربهم) فهو محفوظ لا يخشى عليه نسيان ، ولا يتوجه إليه تلف " [2] ؛ وذلك لأن هذه الكلمة تستعمل في: " تحقيق الوعد كما تستعمل في تحقيق الإقرار في قولهم: لك عندي كذا،ووجه دلالة (عند) في نحو هذا على التحقيق أن (عند) دالة على المكان فإذا أطلقت في غير ما من شأنه أن يحل في مكان كانت مستعملة في لازم المكان...[وفي] إضافة (عند) لاسم الرب ما يزيد الأجر تحققاً؛ لأن المضاف إليه أكرم الكرماء فلا يفوت الأجر الكائن عنده " [3].

إذاً فدلالة (عند) في أصلها على المكان ، وتدل على القرب أيضاً ، وفي غير ذلك تدل على التحقق و المترلة ، و على هذا النمط جاءت شواهد كثيرة لا يتسع المقام لتحليلها [4] ، و (عند) تلتقي مع (لدن) ، لكن (لدن) تختص دونها بستة أمور ، منها أن (لدن) ملازمة لمبدأ الغايات الزمانية والمكانية ، (وعند) ليست ملازمة لذلك ، بل قد تأتي في غير ما يدل على ابتداء الغاية في نحو :جلست عندك ، و لا تصلح هنا (لدن) لعدم معنى الابتداء، وقال بعضهم إن (عند) لِمَا ظهر و(لدن) لما بطن ، وقيل (عند) للاختصاص العام ، وأخص منه (لدن) فهي خاصةُ (عند) ، و(عند) هي عامتها ، ولهم فيها كلام مطول أكثره عن اجتماعها في قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [٦٥ الكهف] [5].

---

(1) – المفردات مادة (عند) ٥٩٠ .

(2) – نظم الدرر ٤٥٨/١ .

(3) – التحرير والتنوير ٥٤٠/١ .

(4) – انظر مثلاً ١١٠البقرة ،و١٥، ١٩٩،٣٧آل عمران،و ١٢٧ الأنعام،و١١ التحريم ، و٨ البينة، وغيرها.

(5) – ينظر في هذا : نظم الدرر ٣٧٥/١ ، وروح المعاني المجلد الثامن الجزء الخامس عشر ٣٣٠ ، والتحرير والتنوير ٣٦٩/١٥ ، وإعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش (وهو أوسعهم) ٦٣٢،٦٣٣/٥ .

ثالثاً: بين الجار والمجرور والظرف .

العلاقة بين الجار والمجرور والظرف لا يمكن إنكارها فكلاهما يتطلب ما يتعلق به ، وكلاهما يجتمعان في مسمى (شبه الجملة) ، ومع هذا بينها من الفروق ما يوجب الوقوف عنده، وقد تبين لي من خلال جمع الشواهد أن علاقة كل منهما بالآخر تظهر من خلال ثلاث صور هي :اجتماع الظرف والجار والمجرور، ودخول الجار على الظرف ، وقيام الجار مقام الظرف في المعنى ظاهراً.

١- اجتماع الظرف والجار والمجرور.

ويظهر ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [١٨٨ البقرة] ، فـ(بينكم) يصح أن يكون حالاً من الأموال:"أي كائنة بينكم،أو دائرة بينكم"[١]، وكذلك (بالباطل) "يجوز أن يكون حالاً من الأموال أيضاً ، وأن يكون حالاً من الفاعل في تأكلوا أي: مبطلين"[٢]، فهذا حالان لصاحب واحد أحدهما ظرف وهو (بَيْن) والآخر جار ومجرور وهو (بالباطل) فما مدلول كل منهما ؟.

(بَيْن) تدل على التوسط بين الشيئين[٣] ، وهي تدل هنا على التشنيع على من يفعل هذا المنهي عنه يقول أبو حيان: "وفي قوله: (بينكم) يقع[٤] لما هم يتعاطونه من ذلك ؛ لأن ما كان يطلع فيه بعضهم على بعض من المنكر أشنع مما لايطلع فيه بعضهم على بعض ، وهذا يرجح القول... بأن الاضافة ليست للمالكين ؛ إذ لو كانت كذلك لما احتيج إلى هذا الظرف الدال على التخلل والاطلاع على ما يُتعاطى من ذلك"[٥] ، فالأموال تدار بينهم بالتجارة والبيع والشراء في أمن من بعضهم لبعض،فهي بينهم حتى أصبحوا كأنهم يحيطون بها،وما كان كذلك فسبيله الحماية والحفظ لا الأكل بالباطل،وأما (بالباطل) فجاءت لبيان علة النهي وهو كون ذلك الأكل بالباطل لا بالحق ، وفي مجيء الباء هنا إشارة إلى أنهم يستخدمون أساليب خفية يستحلون بها تلك الأموال؛ لأن المعنى:ملتبسة

---

[١] – التبيان ١/١٥٦ .
[٢] – التبيان ١/١٥٦ .
[٣] – انظر المفردات مادة (بين) ١٥٦ .
[٤] – هكذا في نسختين ، ولعله تحريف لـ(تقبيح) ؛ لأنه الذي صرح به في النهر الماد فقال: ((و (بينكم) تقبيح بليغ لما كانوا يتعاطونه من المنكر في ذلك ...)) ، النهر الماد بحاشية البحر المحيط ١/٥٥ طبعة دار إحياء التراث العربي الثانية ١٤١١هـ .
[٥] – البحر المحيط ٢/٢٢٥ .

بالباطل،أو هم ملتبسون به،وفي ذلك إشارة إلى قبح تلك الأموال والتنفير منها؛لأنها مختلطة بالباطل؛لأن مصدرها الغصب والقمار والرشاء ونحو ذلك[1].

ومما التقى فيه الظرف والجار والمجرور قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [١٢ الحديد] فقوله تعالى:"﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ حال من النور، وكذا (بــأيــمانهم) أي: يسعى كائناً بأيمانهم ..."[2] ، ولم يقل: (أمامهم) ؛ لأن الأمام لا يدل على القرب والإلصاق بخلاف (بين أيديهم) ، وتلك هي فائدة النور إذ لو بَعُد لانتفى نفعه، ثم إن (بين) تدل على الوقوع بين طرفين كما سبق ذكره ، فهي تشعر بشيوع النور بين الطرفين وهما اليدان ، أو لعل الجمع مقصود هنا فيشيع النور في المسافات التي تجمعهم كلهم فتكون أمامهم ، وتكون عن أيمانهم وشمائلهم ؛ لأنه يصدق على ذلك كونه بين أيديهم بمجموعهم ، "وقال الجمهور النور أصله في أيمانهم ، والذي بين أيديهم هو الضوء المنبسط من ذلك النور"[3]، وقال بعضهم بل هما نوران ، أحدهما يضيء ما قدامهم والآخر بقية الجهات[4]، يقول الزمخشري في تعليل ذكر هاتين الحالين: "وإنما قال: (بين أيديهم وبأيمانهم)؛ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين فجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية ... فإذا ذُهب بهم إلى الجنة ومروا على السراط يسعون :سعى ذلك النور جنيباً لهم ومتقدماً"[5]،وقال بعضهم ذُكرت الأيمان لشرفها[6]،ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم ..."وأعرِفُهُم بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم"[7]، فالآية خصت بعض الجهات،والحديث دل أن هناك جهات أخرى لم تذكر،فعلمنا من ذلك أن ذِكْر ما ذُكِر لا يعني القصر بل لمعنى آخر لعله التشريف كما سبق .

---

(1) – انظر البحر المحيط ٢/٢٢٥

(2) – الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤/٤٣٠ .

(3) – البحر المحيط ١٠/١٠٥ .

(4) – انظر البحر المحيط ١٠/١٠٥ .

(5) – الكشاف ٤/٤٧٥ .

(6) – انظر البحر المحيط ١٠/١٠٥ .

(7) – مسند الإمام أحمد ٥/١٩٩.

٢- دخول الجار على الظرف .

وهذا اللون كثير ، ومنه ما سبق في قوله تعالى: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ ، وأكثر الحروف دخولاً على الظروف هو (مِنْ) ، ولعل مرد هذا الأمر إلى قوة هذا الحرف وشيوعه ، وهذا ما ألمح إليه ابن الدهان في الغرة بقوله: " (مِنْ) أقوى حروف الجر ولهذا المعنى اختصت بالدخول على (عند) " [١] ، وقال الرضي : " (مِن) الداخلة على الظروف أكثرها بمعنى (في) ..." [٢] ، وقد نص أهل النحو على الظروف التي تختص (مِنْ) بالدخول عليها، وهي خمسة : عند ، ولدى ، ومع ، وقبل ، وبعد[٣].

وبالاطلاع على ما ورد في الذكر الحكيم تبين ما يأتي: أن أكثر الظروف المدخول عليها (بَعْد)[٤] ، حيث وردت في كتاب الله فيما يقارب ثلاثمائة موضع ، دخلت عليها (مِنْ) في مائتين وأربعة وعشرين موضعاً ، وتلتها (قبل) حيث دخلت عليها (مِنْ) في أكثر من مائتي موضع، وخلت منها في أربعين موضعاً تقريباً ، ثم تلتها (عند) حيث دخلت عليها (مِنْ) في مائة وستين موضعاً تقريباً ، وخلت منها في ثلاثين موضعاً تقريباً ، ثم تلتها (دون) حيث دخلت عليها (مِنْ) في أكثر من مائة وثلاثين موضعاً ، وخلت منها في تسعة مواضع فقط ، ثم تلتها (تحت) حيث دخلت عليها (مِنْ) فيما يقارب أربعين موضعاً ، وخلت منها في ستة مواضع ثم تلتها (لدن) حيث دخلت عليها (مِنْ) في كل مواضعها في القرآن وعددها ثمانية عشر موضعاً، ثم تلتها (بين) حيث دخلت عليها (مِنْ) في ثلاثة عشر موضعاً تقريباً ، والباقي خلا منها وهو يزيد على مائتين وخمسين موضعاً ، ثم تلتها (فوق) ، فقد سبقتها (مِنْ) في ثلاثة عشر موضعاً تقريباً ، وخلت منها في الباقي وهو يقل عن الثلاثين ، ثم تلتها (وراء) حيث دخلت عليها (مِنْ) في اثني عشر موضعاً تقريباً ، وخلت منها في الباقي وقدره اثنا عشر موضعاً أيضاً .

هذه أبرز الظروف التي دخل عليها الجار وخاصة (مِنْ)، وهي كثيرة كما نرى

---

[١] - الأشباه والنظائر ١١٠/٢ .

[٢] - شرح الكافية ١٧١/١ ، وانظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الثاني ٧٠٦ .

[٣] - انظر الأشباه والنظائر ٧٥/٢ ، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الثاني٧٠٦ .

[٤] - هذا التعداد يشمل كل صور الظرف وملحقاته مثل - (من بعد ما ، من بعده ، من بعدهم) وكذلك بقية الظروف.

وشواهد الحال منها ليست قليلة[1]، وهناك شواهد أخرى دخلت على الظرف فيها حروف جر أخرى كـ(عن) نحو: (عن اليمين وعن الشمال) ، والباء نحو: (وبأيمانهم) وقد مضى شيء من ذلك ، ولا شك أن مناقشة مثل هذه الظواهر وتتبع أسرارها أمر يطول ويخرجنا عما نحن بصدده ؛ لهذا سأكتفي بذكر نماذج لتأثير (الحرف) في المعنى عند دخوله على الظرف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ [٥١ البقرة] ، فـ(من بعده) جار ومجرور "متعلقان بمحذوف حال"[2] ، والدلالة مشتركة، و(من) في مثل هذا التركيب " تفيد ابتداء الغاية "[3]، و(بعد) ظرف يدل على الزمن هنا،فالمراد إبراز ابتداء الزمن ، وهذا ما يوضحه ابن عاشور بقوله:"... فائدة ذكر:(من بعده) لزيادة التشنيع بأنهم كانوا جديرين بانتظارهم الشريعة التي تزيدهم كمالاً لا بالنكوص على أعقابهم ..." [4] ، ويظهر لي أن التشنيع يكون عليهم حتى بالاقتصار على الظرف وحده لو قيل : ثم اتخذتم العجل بعده ، وقد جعل الألوسي التشنيع مرتبطاً بالظرف فقال: "وذكر الظرف للإيذان بمزيد شناعة فعلهم"[5]، ولعل الصحيح أن التشنيع يفهم من الظرف ، أما (مزيده) فيفهم من دخول الجار، والحديث يتطلب دخوله؛ لأن ما فعله بنو إسرائيل هو من الغرابة بقدر كبير حيث إنهم اتخذوا العجل بعد مغيب موسى عنهم مباشرة ، من أول زمان غيبته ، وهذا ما تدل عليه (من) من المبادرة والإسراع إلى الكفر بدلاً من التمسك بالتوحيد ، يقول ابن عاشور: " وفائدة ذكر (مِنْ) للإشارة إلى أن الاتخاذ ابتداء من أول أزمان بعدية مغيب موسى عليه السلام ، وهذه ... حالة غريبة ؛ لأن شأن التغير عن العهد أن يكون بعد طول المغيب ... ففي قوله: (من بعده) تعريض بقلة وفائهم في حفظ عهد موسى"[6] .

أما قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [٧٠ النحل] ، فقد جاءت فيه (بعد) غير

---

(١) – وقد اعتمدت في ذلك على: إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ؛ لأنه يعرب أشباه الجمل .

(٢) – إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١٠١/١ .

(٣) – البحر المحيط ٣٢٣/١ .

(٤) – التحرير والتنوير ٤٩٩/١ .

(٥) – روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٢٥٨ .

(٦) – التحرير والتنوير ٤٩٩،٥٠٠/١ .

مسبوقةبـــ(من) بينما سبقتها في الحج في قوله تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [٥ الحج]، والسر أن آية الحج بنُيت فيها الحجة على التنصيص على المبدأ وتفصيل أحواله، فناسبتها (من) ولا كذلك في النحل[١].

ومما يظهر فيه أثر الحرف جلياً دخول (مِنْ) على (وراء) كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[٥٣ الأحزاب]، فـــ(من وراء حجاب) يحتمل الحالية أي: مستترين من وراء حجاب، وقال البقاعي :"كائنين وكائنات من وراء حجاب"[٢] وما أعظم دلالة (مِنْ) هنا حيث دلت على وجوب الحجاب الفاصل بين السائل والمسؤول ، ولو قيل: وراء حجاب ، لكانوا جميعاً خلف الحجاب ، وذلك هو عين المحذور ، يقول الدكتور الخضري: "جاءت (من) دالة على وجوب أن يكون الحجاب فاصلاً بينهم ، وبين أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو سقطت (من) لصح أن يكونوا معهن في جهة واحدة وراء الحجاب"[٣] .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [٤ الحجرات] ، فـــ(من وراء)حال من فاعل (ينادونك) ، أي: ينادونك بادئين من وراء الحجرات أو هو متعلق بالفعل ، واختار البقاعي الحالية فقال :" أي: يجددون نداءك من غير توبة ، والحال أن نداءهم إياك كائن من وراء ... الحجرات"[٤]، وهذه الآية من سورة الأخلاق تنكر على الأعراب مناداة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيته في وقت الظهيرة، والمنعي عليهم عدم الأدب معه في مناداته من بُعْد مع وجود الفاصل ، وقد جمع فعلهم ذاك بين عدم المناسبة زماناً ومكاناً،ولكن ماذا عساه أن يكون مدلول (مِنْ) هنا؟وهل لو اكتفي بالظرف لتغير المعنى ؟ الجواب:لاشك في ذلك ، وخير من يجيبنا على هذا الزمخشري بتحليل ظريف يقول فيه:"... و(مِنْ) لابتداء الغاية ، وأن المناداة نشأت من ذلك المكان ، فإن قلت فرّق بين الكلامين ، بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه ؟ ، قلت: الفرق بينهما أن المنادي والمنادى في أحدهما [٥] يجوز أن يجمعهما الوراء،

---

[١] - انظر ذلك موضحاً في درة التتريل ٢٦٩،وينظر للاستفادة: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣٤٥ وما بعدها .
[٢] - نظم الدرر ٣٩٣/١٥ .
[٣] - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣٣٩ .
[٤] - نظم الدرر ٣٥٩/١٨.
[٥] - وهو ماسقطت فيه (مِنْ) .

وفي الثاني لا يجوز ؛ لأن الوراء يصير بدخول (من) مبتدأ الغاية ، ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد ... والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها ، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوْه من البر والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض ، من غير قصد إلى جهة دون جهة " [1] ، ويقول البقاعي مشيراً إلى دلالة (مِنْ) هنا: " والمعنى مبتدئين النداء من جهة تكون الحجرات فيها بينك وبينهم فتكون موازية لك منهم ، ولهم منك" [2] ، ولو قيل : وراء الحجرات لما كان هناك ما يدعو إلى التثْريب عليهم ؛ لأنهم حينئذ يكونون في جهة واحدة وراء الحجرات أي في جهة واحدة، فلما دخلت (من) دلت على أن المنادى في جهة والمنادي في أخرى و بينهما ما يوجب الجهتين[3]، يقول البقاعي : " إثبات هذا الجار يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان داخلها ، ولو سقط لم يفد ذلك ، بل كان يفيد أن نسبة الأماكن التي وراءها الحجرات كلها بالنسبة إليه وإليهم على حد سواء ، وذلك بأن يكون الكل خارجها "[4].

ومما دخل عليه حرف الجر(فوق)كما في قوله تعالى:﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [٢٦ النحل] ، أي : فخر عليهم ساقطاً من فوقهم فهو حال من السقف[5]، و(مِنْ) فيه للدلالة على ابتداء السقوط والخرور ، وأن الفوقية مبدأ ذلك الخرور والسقوط، وليس من جهة أخرى وما دامت بدايته من فوقهم فنهايته إلى رؤوسهم وأجسادهم،ولو قيل:خر عليهم السقف فوقهم لما كان شرطاً أن يكون مصدر الخرور مما يعلو رؤوسهم ، بل ربما يكون بجانبهم لكنه وقع فوقهم ،وليس من شك أن الساقط من فوق أعظم في الإحاطة والتمكن من غيره ؛ فيكون بذلك أشد في الإيذاء والإهلاك ، وهو المراد هنا .

وجاء الظرف (فوق)غير مسبوق بـــ(مِنْ)، وحينئذ لا يُقصد منه تحديد وتقدير معين، وإنما هو لمطلق الجهة ، ولو جاءت (مِن) لقيدته بقرب، أو ابتداء أو نحو ذلك ، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾

[1] – الكشاف ٣٥٧/٤ .
[2] – نظم الدرر ٣٦٠/١٨ .
[3] – انظر في ذلك: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣٣٨ .
[4] – نظم الدرر ٣٦٠/١٨،٣٥٩ .
[5] – انظر إعراب القرآن وبيانه للدرويش ٢٨٨/٥ .

[١٩ الملك]،يقول البقاعي:"ولما كان الجو كله مباحاً للطيران نزع الجار فقال(فوقهم) "[١].

ومن شواهد دخول (من) على (تحت) قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [١٦ الزمر] ، فقوله جل ذكره: " من فوقهم " وما عطف عليه: (ومن تحتهم ظلل) في موضع الحال من ظلل[٢]،و(من) في هذا التركيب وما أشبهه مثل: (من تحتها الأنهار) لابتداء الغاية[٣]،وهذا يدل على أن الغاية هنا لها دلالتها ، فالمراد أن ظلل العذاب قريبة منهم ملاصقة لهم؛ لأنها بادئة من اتجاهين متعاكسين الفوقية والتحتية فيلتقي العذاب فيهم ، ولو قيل: (فوقهم) لأشعر ذلك ببعدها عنهم وأنها غير مقترنة بهم بابتداء أو انتهاء ، وكذلك لو قيل: (تحتهم) فإنها تعني التحتية ولا يشترط معها القرب ، ومن هذا ما جاء في وصف النعيم:﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة ٢٥] [٤] ، وقد جاء هذا التركيب﴿ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فيما يزيد على أربعين موضعاً، ولم يأت دون (من) إلا في قوله تعالى:﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [١٠٠ التوبة]، وإن كان هناك قراءة بإثباتها[٥].

ولسنا مع ابن عاشور في قاعدة قعّدها في مثل موضوعنا هذا يقول فيها:"ليس لحرف (منْ) معنى مع أسماء الظروف إلا التأكيد "[٦] ، بل له معنى آخر مداره على دلالة الحرف الأصلية وهي الابتداء ، وآية الاستشهاد هنا دالة على ذلك ، فدخول الجار (من) قبل الظرف فيه إشارة إلى المبتدأ الذي يلزم منه القرب ؛ لذا قال البقاعي: "وأشار إلى قربها منهم بإثبات الجار فقال: (من فوقهم ظلل) "[٧] ومثلها (من تحتهم) ، فظلل النار مبتداها من فوقهم ومن تحتهم وهم ملتقاها " فلا قرار لهم أصلاً كما يكون الحب في الماء على النار يغلي به صاعداً وسافلاً ..."[٨] .

---

[١] – نظم الدرر ٢٥٢/٢٠ .

[٢] – انظر التبيان ١١١٠/٢ ، وإعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٤٠١/١ ، ٤٠٢ .

[٣] – انظر الدر المصون ٢١٤/١ في حديثه عن آية البقرة:﴿ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [٢٥] .

[٤] – انظر فيها التحرير والتنوير ٣٥٥/١ .

[٥] – انظر التحرير والتنوير ١٩/١١ ، وتلك المواطن جلها محتمل للحالية أو التعليق بالفعل (تجري) .

[٦] – التحرير والتنوير ١٩/١١ .

[٧] – نظم الدرر ١٦/ ٤٧٧ .

[٨] – نظم الدرر ٤٧٧/١٦ .

٣- قيام الجار بمعنى الظرف ظاهراً .

وذلك كمجيء (إلى) بمعنى (مع) ، وقد سبق بيان ذلك في موضعه مما يخص تلك الحروف[١] ، ومما يظهر فيه ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [٦١ الأنبياء] ، فـ " (على أعين) في موضع نصب على الحال من الضمير في (به) أي: قالوا: فأتوا بإبراهيم معايَناً ومشاهَداً أي: بمرأى: من الخلق حيث تقع عيونهم عليه"[٢]، ولم يأت الظرف هنا بدلاً من الجار فيقال : فأتوا به أمام الناس، أو أمام أعين الناس ؛ لأن دلالة الظرف أمام غير دلالة الجار (على) ؛ إذ ليس المقصود هنا هو مثوله أمامهم فقط، بل ضرورة رؤية الجميع لمصيره، فالمطلوب هو إبراز "المبالغة في الحرص على المشاهدة وإنعام النظر، وظهور المشاهَد حتى لكأنه ملء العين والبصر"[٣]، يقول أبو حيان: " و (على) معناها الاستعلاء المجازي كأنه لتحديقهم إليه، وارتفاع أبصارهم لرؤيته مستعلٍ على أبصارهم " [٤] ، ويقول البقاعي : " (على أعين الناس) : أي: جهرة والناس ينظرون إليه نظراً لا خفاء معه، حتى كأنه ماش على أبصارهم متمكناً منها تمكن الراكب على الركوب ، وعبر بالعين عن البصر، ليُفْهِمَ الأكابر..."[٥]، ولو قيل: أمام الناس لما كان فيه إلا تحديد الجهة من غير إبراز لشيء من المعاني السابقة المصورة لشدة غضبهم، وعظيم غيظهم، يقول الدكتور الخضري مبيناً الفرق بين دلالة (الظرف) والجار هنا: " ولم يقل : أمام أعين الناس وآثر حرف الاستعلاء ، ليدل على بالغ دهشة القوم، وعدم تصديق خبر كهذا ، يجرؤ فيه إنسان على تحطيم آلهتهم ، فهم بحاجة إلى أن يقلبوا فيه أعينهم ،ويحدقوا فيه بأبصارهم ، ولا بد أن يكون في مكان تراه فيه أعين الجميع، ويستعلي فيه على أبصارهم وهم يشهدون محاكمته" [٦] .

---

[١] - انظر ص ١٤٢من هذا البحث .

[٢] - الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤٩٥/٣ .

[٣] - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٤٩٥/٣.

[٤] - البحر المحيط ٤٤٧،٤٤٨/٧ .

[٥] - نظم الدرر ٤٣٩/١٢ ، وجملته الأخيرة يفهم منها أن (أعين الناس) عنده تعني أكابرهم ، ويؤكد هذا قوله بعده: ((وبجمع القلة ... لئلا يتوهم من الكثرة جميع الناس مطلقاً))، ولا أظن المقصود ما ذكر ، لأن المراد هنا عموم الناس .

[٦] - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ١١٣ .

رابعاً: بين شبه الجملة والاسم المفرد .

عقدنا فيما سبق موازنات أسلوبية بين أنواع الحال، وشملت المفرد والجملة ، وهنا سأوازن بين مدلول شبه الجملة والمفرد والجملة، وسأركز على الشواهد الجامعة بين النوعين المعنيين، ومن ذلك فيما يخص المفرد قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [٤٥، ٤٦ الحجر] ، فقد جاء قوله جل ذكره: ﴿ بِسَلَـٰمٍ ﴾ و ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ حالين من فاعل (ادخلوها) وهو الواو، والمعنى "ادخلوها سالمين من كل آفة وبلاء ، أو مسلَّماً عليكم ، إما من الله جل ذكره ، أو من الملائكة"[١] ، والذي تدل عليه الآيات أن التسليم هنا هو قول يقال لهم ، إما على سبيل التحية أو الدعاء بالسلامة ، ولا شك أن غاية التكريم الحفاوة أن يُقابل المحتفى به بالتحية عند دخوله محل تكريمه ، ولما كانت مصاحبة التحية للدخول هي من أبرز مظاهر الاحتفاء وأعلاها قال: (بسلام) بالباء مع مجرورها ، لأن الباء هي التي تؤدي معنى الملابسة والمصاحبة[٢]، ولم تكن بالاسم (سالمين) ؛ لأنه ليس المراد استمرارية ذلك؛ لأن السلامة لهم متحققه وإنما المراد إظهار الحفاوة بهم، وذلك يتجلى في مقابلة الداخل ومصاحبته بالتحية حتى يأخذ مكانه ، كما قال سبحانه عنهم:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [٧٣ الزمر]، وأما (آمنين) فجاءت بالاسم دون الفعل ودون الجار فلم يكن: (تأمنون) أو (بأمان) ؛ لأن الفعل يشعر بالانقطاع والحدوث ، والأمن الممدوح فيه استمراره وثباته ، وأما الجار فإنه يشعر بأنه مصاحب لهم فترة الدخول ثم ينقطع ويخلفه الخوف ، وليس في هذا من مظاهر التكريم شيء ، وإنما جيء بالاسم (آمنين) ؛ لأن أمنهم مستمر لا يعتريه فزع ولا خوف كما قال سبحانه: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [٣٧ سبأ] إنه أمن تكفل به الكريم المنان لمن استقام من عباده وخافه في الدنيا كما جاء في الحديث : " لا أجمع على عبدي خوفين إن هو خافني في الدنيا أمنته في الآخرة..." [٣] ، ويجمع كل ما قلناه ما ذكره البقاعي مختصراً بقوله : " (ادخلوها) أي : يقال لهم ذلك (بسلام) ، أي : سالمين من كل آفة مرحَّباً بكم ومسلَّماً عليكم حال الدخول ، (آمنين) من ذلك [٤] دائماً " [٥].

---

[١] - الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣/٢٠٠ .

[٢] - انظر التحرير والتنوير ١٤/٥٥ .

[٣] - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٢/٤٠٦، وقال عنه الأرناؤوط : إسناده حسن.

[٤] - أي: من كل ما يُطلب الأمن منه .

[٥] - نظم الدرر ١١/٦٣ .

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى:﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [١٣٧، ١٣٨ الصافات] ، فـ(مصبحين) (وبالليل) حالان من فاعل(تمرون)[1] ، والمعنى: مصبحين ممسين ، يقول البقاعي موجهاً التخالف بين الحالين: " والحال أنكم يا معشر قريش (لتمرون عليهم) أي: مواضع ديارهم في تجارتكم إلى الشام ، (مصبحين) أي: داخلين في الصباح: الوقت الذي قلبنا مدائنهم عليهم فيه،ونص عليه للتذكير بحالهم فيه،ولما كان لليل منظر في الهول غير منظر النهار قال:(وبالليل) ..."[2] ، وهذا توجيه حسن حيث إن إيثار الاسم في: (مصبحين) بدلاً من الجار والمجرور (في الصباح) ، أو الظرف (صبحاً) أو (صباحاً) - فيه من التحديد وبيان الهيئة ما ليس في غيره ، فمصبحين تدل على الدخول في الصباح ولا كذلك شبه الجملة ، فغاية ما يدل عليه هو الوقت من غير تعرض لأهله ، ففي الاسم هنا جمع بين الوقت وأهله وذلك من أسس العبرة هنا ، ثم إن في ذكر دخولهم في الصباح تذكيراً بنهاية قوم لوط الذين ذكرت قصتهم قبل هذه الآية ، وقد كان إهلاكهم مع دخوال الصبح كما قال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾ [٨١ هود] ، فجاءت الحال على هذا النوع جامعة لعوامل العبرة ومؤثراتها: الوقت ، وأهله: أصحاب الاعتبار ، وقصة الإهلاك ووقتها ، وهذا ما لا يتيسر في شبه الجملة ، ثم إن في الاسم من دلالة الدوام والثبوت ما ليس في غيره، فهو يعني أنهم مستمرون في هذا الوقت إلى ما يليه ، ولو قيل بغيره لربما أشعر بالانقطاع والذي نُعي عليهم تكرر هذه العبرة ودوام رؤيتهم لها ثم لا اعتبار .

أما (وبالليل) فقد جاء (بالجار والمجرور) ؛ لأنه ليس هناك من سبب لتحديد دخولهم في الليل، إذ الليل ليس موطن عبرة للناظر ؛ لأنه لا يبصر شيئاً لذا لم يأت: (وممسين) ، و لم يكن(ليلاً)؛ لأنه ليس المراد ذكر الزمن فقط بل المراد الإشعار بما في الليل من رهبة وخوف هي أدعى إلى التفكر في مصير أولئك الأقوام بعد المرور عليهم صباحاً والنظر في أطلالهم ، فذلك أدعى إلى الاتعاظ بما علق بالذهن وأدعى إلى المراجعة والتصحيح ، ومما يؤيد ذلك الباء في (بالليل) إذ هي للملابسة والمصاحبة ، أي ملابسين الليل مصاحبين له برهبته

---

[1] - انظر الفريد في إعراب القرآن ٤/١٤١ وأعرب(مصبحين) فقط ،وانظر الحالين في إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٨/٣٠٩.

[2] - نظم الدرر ١٦/٢٩٠ .

وسكونه وهدوئه ، ويؤيد ذلك أيضاً التعبير (بالليل) دون المساء ، فهو يشعر بأن الليل واسوداده قد أحاطهم ، وتلك غاية الرهبة خاصة للغريب المسافر ، وهو أدعى إلى الرجوع إلى الخالق الحافظ سبحانه ، ويذكر الألوسي تعليلاً آخر لتخصيص الليل بالذكر مع الصبح فيقول: "ووجه التخصيص عليه بأنه لعل (سدوم) وقعت قريبَ منزل يمر بها المرتحل عنه صباحاً والقاصد مساءً ، وقال بعض الأجلة، لو أبقي على ظاهره ــ لأن ديار العرب لحرها يسافر فيها في الليل إلى الصباح ــ خلا عن التكلف في توجيه المقابلة"[1] .

ويرى ابن عاشور أن سبب ذكر هذين الوقتين أنهم كانوا " يمرون على منازلهم في الصباح تارة وفي الليل تارة بحسب تقدير السير في أول النهار وآخره؛ لأن رحلة قريش إلى الشام تكون في زمن الصيف ويكون بكرة وعشياً وسرى، والباء في (وبالليل) للظرفية "[2] .

وقد سبق التوجيه الذي ارتضيناه ، وأما ما ذكره الألوسي وابن عاشور فلا يفسر اختصاص كل حال بما اختص ، وإنما يعلل وجود هذين الوقتين وهو أمر لا ننكره ، أما الذي ننكره فهو كون (الباء) للظرفية ؛ لأنه ليس هناك ما يدعو إلى سلب معناها الأصلي منها ، بل هو أدل على العظة والعبرة كما سبق إيضاحه .

والحق أن الشواهد في هذا الجانب لن تعيينا لكثرتها[3]، ولن نسترسل معها وإن كان البحث فيها مغرياً،لكننا نقول إنه باب واسع لدراسة الفوارق بين هذه الأساليب في القرآن،ويحتاج إلى من يقتحمه ويتتبع مواطنه،ويستجلي ما ييسر الله له من أسراره .

كل مامضى كان للجار والمجرور، أما الظرف في مقابل المفرد فيمكن دراسة مدلوله من خلال تحليل قوله تعال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [١٩ الملك]،فــ(فوقهم) حال، و(صافات) حال و(ويقبضن) حال ، وكلها من صاحب واحد هو الطير[4] فما سر مجيء الحال الأول ظرفاً، والثانية اسماً مفرداً، والثالثة جملة فعلية ؟ سبق الجواب عن مدلول المفرد والجملة[5]، وأما

---

(١) – روح المعاني المجلد الثاني عشر الجزء الثالث والعشرون ١٤٢ .
(٢) – التحرير والتنوير ١٧٢/٢٣،١٧١ .
(٣) – انظر مثلاً بعض ذلك في:١٩١ آل عمران ، و١٠٣ النساء ، و١٢ يونس ،و٢٧ الحجر، و٥١ الشورى ، ١٢ الجن.
(٤) – انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤٩٨/٤، وذكر أن (فوقهم) يمكن أن يكون من صلة (يروا) .
(٥) – انظر ٢٧ من هذا البحث.

الظرف (فوقهم) فنقول عنه: إن المراد العام هنا هو الاعتبار والنظر المؤدي إلى ذلك بدليل: (أو لم يروا)، قال الراغب: " إذا عدي (رأيت) بـــ(إلى) اقتضى معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار"[1]، وعلى هذا كانت هذه الأحوال الثلاثة هي مواطن العبرة من الطير؛ "لأنها تصور صورة حركات الطيران للسامعين فتنبههم لدقائق ربما أغفلتهم عن تدقيق النظر فيها نشأهم بينها من وقت ذهول الإدراك في زمن الصبا"[2]، ويبين ابن عاشور وجه العجب في هذه الصور بأن:"جميع الدواب تمشي على الأرض، والطير كذلك، فإذا طار انتقل إلى حالة عجيبة مخالفة لبقية المخلوقات، وهي السير في الجو بواسطة تحريك جناحه ..."[3]، ويرى الدكتور صالح العايد أن الفائدة هنا من هذه الكلمة(فوقهم) هي التنبيه على أن طلب الاعتبار بها يكون في حالة طيرانها ؛ "لأنها إذا لم تكن في حالة الطيران فلا بسط فيها ولا قبض..."[4]، وهذا ملحظ حسن كما لا يخفى، لكن لِمَ لمْ يكن بالاسم أو الفعل بدلاً من الظرف فيقال :أو لم يروا إلى الطير طائرات أو محلقات ، أو تطير أو تحلق ؟.

نقول : لأن تحديد الجهة هنا هو موطن العبرة وليس الطيران في حد ذاته ؛ لأن جهة الفوقية دائماً هي موضع التعظيم ، وما فيها يكون أعظم من غيرها ، ولو قيل طائرات أو غيرها لم يكن لهم معها ذكر ولا لموطن الاتعاظ بيان ، الذي هو رؤية الطيور خاصة في وقت مرورها فوقهم فذلك أظهر في الاعتبار ، وأكثر إبهاراً ، وأقوى تأثيراً ، ولم يكن يناسب ذكر الجهات الأخرى؛ لأنها ليست موطن العبرة ولا التعظيم في مثل هذا الأمر ، ولأنها ليست من عادة الطير الطيران قريباً من الأرض إلا في بعض أجناسه ، يقول الدكتور صالح العايد: " أما إضافة كلمة (فوق) إلى الضمير (هم) حيث قال: (فوقهم) ، ليدل على قربها منهم ،وأنه لا يطلب منهم الاعتبار بشيء بعيد عنهم وعسير عليهم بلوغه "[5] ، وهو قرب نسبي إن قلنا به ، لكنه لا يصل إلى حد الملاصقة أو ما يشبهها ، بل ربما هو إلى البعد أقرب ،وقد يكون فيه من دلائل القدرة ما ليس فيه لو قرب الطير من رؤوس المشاهدين له

---

(1) – المفردات مادة (رأى) ٣٧٥ .
(2) – التحرير والتنوير ٣٧/٢٩ .
(3) – التحرير والتنوير ٣٨/٢٩ .
(4) – نظرات لغوية في القرآن الكريم ٢٠٤ .
(5) – نظرات لغوية في القرآن الكريم ٢٠٤ .

، ولعل هذا ما أشار إليه البقاعي بقوله: "ولما كان الجو كله مباحاً للطيران نزع الجار فقال: (فوقهم) "[1] ، أي: لم يقل: (من فوقهم)ولو قيل: (من فوقهم) لدل على القرب الشديد ، لما في (مِن)من دلالة الابتداء المشعر بابتداء الغاية من أدنى مايمكن أن يوصف بالفوقية، وليس الطير بهذا القرب، بل هو أبعد من أن يقال فيه:(من فوقهم)، وقد رأينا قول البقاعي من قبل عن قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر١٦] " وأشار إلى قربها بإثبات الجار فقال: (من فوقهم ظلل) "[2] ، وهذا يعني أن نزعها يعني البعد لا القرب، وهذا يتعارض مع ما استنتجه الدكتور العايد من دلالة الإضافة، لكن قد يُجاب عن هذا ، بأن دخول (من) يعني القرب الشديد، الذي يصلح مبتدأ للغاية كما تدل عليه (من)، ونزعها يشعر بالبعد الذي لايفوِّت الاعتبار بها، ولعل هذا يلتقي مع بعض ما أشار إليه الدكتور العائد.

---

[1] -نظم الدرر ٢٠/٢٥٢.

[2] - نظم الدرر ١٦/٤٧٧.

خامساً: بين شبه الجملة والجملة .

سبق الحديث من قبل عن دلالة الجملة بنوعيها ، وتعرضنا في بعض الشواهد لمدلول الجار والمجرور والظرف ، في مقابل الاسم أو الفعل أو الجملة ، وهنا سنذكر شواهد لم تذكر من قبل، وسنقتصر على الشواهد التي تجمع بين شبه الجملة والجملة ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [١٣١ الأنعام]، فـ(بظلم) في موضع الحال[١] ، (وأهلها غافلون) جملة حالية ، واختلفوا في صاحب الحال من الأول فقيل: هو الله، ونص عليه أبوحيان لكنه عدل عنه إلى جعله حالاً من القرى: "أي: ظالمة ... وهذا الوجه أليق ؛ لأن الأول يوهم أنه تعالى لو أخذهم قبل بعثة الرسول لكان ظلماً وليس كذلك عندنا؛ لأنه يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ..."[٢] ، وهذا هو الأليق بحسن الأدب مع رب العالمين ، وهو ما يفهم من كلام ابن القيم – رحمه الله – حول هذه الآية[٣] ، وهو ما اقتصر عليه القاسمي[٤] ، وهو ما يدل عليه التقييد بعده بالجملة، وإلا فما المرفوع عنهم بسبب غفلتهم وعدم علمهم إلا ظلمهم ، فإلم يكونوا كذلك أي: غير ظالمين فما فائدة القيد بهذه الجملة[٥] .

إن المعتزلة يرون أنه لو عذبهم من غير إنذار فهو ظالم وهو متره عن الظلم وكل قبيح[٦]، وهم يوجبون عليه سبحانه ألا يعذب قبل الإنذار وقيام الحجة ، وأصل ذلك عندهم قاعدتهم في الحسن والقبح العقليين[٧]، والحق أنه سبحانه أعظم من أن يوجب عليه أحدٌ من خلقه شيئاً، بل هو الفعال لما يريد ، ومشيئته هي النافذة ، وهو المتصف بصفات الكمال المتره عن صفات النقص.

وأما عن دلالة الجار والمجرور هنا ، فنقول : لو قيل: يهلك القرى ظالمة ، أو وهي ظالمة لتوافق الحالان في الجملة، لكن المعنى يختلف عما عليه النظم الكريم ؛ لأن المراد هنا

---

(١) – انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢٣٠/٢ .

(٢) – البحر المحيط ٦٥٠/٤ .

(٣) – انظر بدائع التفسير ١٨٣،١٨٤/٢ .

(٤) – انظر محاسن التأويل ٧٢٦/٦ .

(٥) – انظر مناقشة حسنة لهذا في: روح المعاني المجلد الرابع الجزء السابع ٢٩ .

(٦) – انظر الكشاف ٦٧/٢ .

(٧) –انظر روح المعاني المجلد الرابع الجزء السابع ٢٩ .

نفي إهلاك القرى وهي ملتبسة بالظلم ، ومن الظلم الشرك ، ولا شك أن هذا أدل على عظم عفوه وسعة حلمه سبحانه ، فرغم التباسهم بما يوجب لهم العقاب لا يؤاخذهم حتى ينذرهم ، وهذا المعنى لا يقوم به الاسم المفرد ولا الجملة ؛ لأنها وإن دلت على الظلم فإنها لا تدل على ملابستهم له، وهو أمر مقصود في إظهار الرحمة وسعة العفو ، وعظيم العدل منه سبحانه . وأما (وأهلها غافلون) فمعناه "أي: دون أن يتقدم إليهم بالنذارة"[1] وذلك يكون بالتذكير بإرسال الرسل[2] ، وقد يقال لماذا جاءت الحال هنا جملة ؟ ولِمَ لمْ تكن جاراً ومجروراً فيقال: بظلم وبغفلة ؟.

نقول : لأن المعنى سيكون مغايراً للمقصود بل عكسه ، فهو على الجار يعني أنه لن يهلكهم لا بظلم ولا بغفلة ، وهذا معنى ممتنع بل مرفوض، وأما على الجملة: (وأهلها غافلون) فتكون قيداً في نفي الإهلاك ، فهم لا يهلكون حال تلبسهم بالذنوب ما لم ينذروا، فإن أنذروا بالرسل و لم ينصاعوا لأمر الله كانوا أهلاً للإهلاك والعذاب، كما هو مدلول المخالفة هنا[3]، يقول البقاعي: "وأهلها غافلون أي: غريقون في الغفلة عما يجب عليهم ... فأرسلنا إليهم الرسل حتى أيقظوهم من رقدتهم ونبهوهم من غفلتهم، فصار تعذيبهم بعد تكذيبهم هو الحق الواجب والعدل الصائب"[4]، ثم إن في الجملة تنصيصاً على المعنيين بالخطاب وهم أهل القرى، قال ابن عاشور:"وصرح هنا بـــ(أهلها) تنبيهاً على أن هلاك القرى من جراء أفعال سكانها، ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ ﴾ [٥٢ النمل]"[5]، والغفلة مسندة إليهم وفي هذا استكمال لجوانب التنصيص عليهم ، ولم يكن ليأتي كل هذا مع المفرد (غافلين) ولامع الجار (بغفلة) ،وهكذا نعلم سر اختصاص كل حال بما اختص به[6] .

وقبل أن نطوي صفحات هذا الفصل رأيت أن أجعل مسك الختام هذه الآية الجامعة لأنواع الحال الثلاثة،المفردة،والجملة،وشبه الجملة،وسأسلك فيها التحليل الشامل من غير

---

(1) – البحر المحيط ٦٥٠/٤ .
(2) – انظر :بدائع التفسير ١٨٣/٢ .
(3) – انظر بدائع التفسير ١٨٤/٢ .
(4) – نظم الدرر ٢٧٤/٧.
(5) – التحرير والتنوير ٢٨/٨ .
(6) –وقريب من هذا الآية نظماً وتوجيهاً قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [١١٧هود].

ارتباط بنوع دون آخر، تلك الآية هي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٤٥، ٤٦ آل عمران]، وقريب منها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [١١٠المائدة][1].

وسيكون الكلام كله عن آية آل عمران لتقدمها وسعتها، فقوله جل ذكره: (وجيهاً ،ومن المقربين،ويكلم) كلها أحوال من عيسى على الصحيح خلافاً للعكبري[2] وجاءت الأولى حالاً مفردة (وجيهاً) ، والثانية شبه جملة (ومن المقربين) ، والثالثة جملة فعلية: (ويكلم) ، وعن هذا الترتيب في الأحوال يقول أبو حيان: " وأتى في الحال الأول بالاسم؛ لأن الاسم هو للثبوت ،وجاءت الحال الثانية جاراً ومجروراً ؛ لأنه يقدر بالاسم ، وجاءت الحال الثالثة جملة؛ لأنها في المرتبة الثالثة ، ألا ترى أن الحال وصف في المعنى ؟. فكما أن الأحسن والأكثر في لسان العرب أنه إذا اجتمع أوصاف متغايرة بدئ بالاسم ثم الجار والمجرور ثم بالجملة، كقوله تعالى:﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [٢٨ غافر]، فكذلك الحال ، بدئ بالاسم ثم الجار و المجرور ثم بالجملة ... "[3] .

وما ذكره أبو حيان ملحظ له حظ كبير من الواقعية، خاصة في قوله: (الأكثر، وذلك مختص بتعدد الأحوال لصاحب واحد ، وبتتبع أكثر الشواهد في ذلك تبين أن ما قاله هو الغالب [4]، لكن لِمَ لا يكون تعليل تقديم الاسم في الوصف بالحال أو الصفة هو شيوعه وكثرته في اللغة، والكثير أجرى وأظهر من غيره ، ثم إنه خفيف قائم بنفسه بخلاف الجملة فهي كبيرة مثقلة بالإسناد وأركانه ، وبخلاف شبه الجملة فهو متعلق بغيره غير قائم بنفسه.

وعوداً على الدلالة نقول: جاء قوله تعالى: (وجيهاً) بالاسم دون أن يقال: (من الوجهاء)؛ لأن الوجاهة خلة ثابتة فصيغت على (فعيل) قال الحرالي: "صيغة مبالغة مما منه

---

[1] – انظر فيها التبيان ٤٧٢/١ ، والتحرير والتنوير ١٠١/٧ ، وإعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٤٢/٣ .

[2] – انظر معاني القرآن للفراء ٢١٣/١ ،والتبيان ٢٦١/١، ٢٦٠ .

[3] – البحر المحيط ١٥٦/٣، ١٥٥ .

[4] – انظر مثلاً : ١٥، ١٧ البقرة ،و١٤٢ النساء، و ١٠٨ الكهف،و١٠٢ طه ، و٨١ الأنبياء، و٧٥ الزمر، و٥٦ الدخان ، و١١ الطلاق، و١٣الإنسان.

الوجاهة"[١]، وقيل هي صفة مشبهة[٢] ، وعلى كل حال فالصيغة محتملة وهي دالة على أن تلك الصفة مستقرة فيه ثابتة له وذلك أمدح له ، ولتكميل أطراف المدح قيل: (في الدنيا والآخرة) ، ثم جاءت الحال الثانية و(من المقربين) ، ولم يقل و(مقرباً) ، قال أبوحيان وتقديره :"ومقرباً من جملة المقربين... وجاءت هذه الحال هكذا ؛ لأنها من الفواصل ، فلو جاء : ومقرباً لم تكن فاصلة ، وأيضاً فأعلم تعالى أن عيسى مقرب من جملة المقربين ، والتقريب صفة جليلة عظيمة ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [١٧٢ النساء] وقوله سبحانه:﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [٨٨، ٨٩ الواقعة] ، وهو تقريب من الله تعالى بالمكانة والشرف وعلو المترلة"[٣] .

وقد أجاد أبوحيان في تعليله وتفريقه بين المعنيين ، لكن كان المنتظر من مثله أن يُصَدِّر العلة الثانية ويقدمها ؛ لأنها هي المؤسَّسَةُ على دلالة المعنى لا الجمال اللفظي فحسب، وهو من أصحاب اليد الطولى في هذا الجانب .

وهذا الأسلوب: (من الفاعلين) كثير في القرآن سماه ابن عاشور (الإخبار الكنائي)[٤]، وبيّن أنه أبلغ من ذكر الموصوف منفرداً "... لأن إثبات الوصف والموصوف بعنوان كون الموصوف واحداً من جماعة، تثبت لهم ذلك الوصف أدل على شدة تمكن الوصف، مما لو أثبت له الوصف وحده ..."[٥] ، وهذا التركيب كثير في القرآن ، وهو يحتاج إلى بحث وتتبع، وفيه من الملامح ما يغري ببحثه[٦].

وقد جاءت الحال(ومن المقربين) هنا على هذا المنهاج ، فهو من جملة الذين هذا وصفهم فذلك أكثر تأكيداً وطمأنة له وثناءً عليه ؛ لأنه يدل على رسوخه فيما وصف به، وقد بين الرازي مدلول هذا التركيب: (ومن المقربين) وجعله في وجوه ثلاثة : أولها: أنه

---

(١) - نظم الدرر ٣٩٨/٤ .

(٢) - انظر التحرير والتنوير ٢٤٧/٢ .

(٣) - البحر المحيط ١٥٥/٣ .

(٤) - انظر التحرير والتنوير ٤٢٧/١ .

(٥) - انظر التحرير والتنوير ٤٢٧/١ .

(٦) - انظر: الإخبار الكنائي في أسلوب (من الفاعلين) في سورة يوسف رؤية بلاغية لعويض العطوي ، مجلة أفنان - النادي الأدبي بتبوك - العدد الثاني محرم ١٤١٨هـ ص ٩٢-١٠٢ .

جعل له ذلك كالمدح العظيم للملائكة ،فألحقه بمثل منازلهم ودرجاهم بواسطة هذه الصفة، وثانيها: أن هذا الوصف كان كالتنبيه على رفعه للسماء ومصاحبة الملائكة له فيكون معهم من المقربين،وثالثها:أنه ليس كل وجيه في الآخرة يكون مقرباً ؛ لأن أهل الجنة منازل كما قال سبحانه: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ [٧ الواقعة]،وقال عن صنف واحد منهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [١٠ ،١١ الواقعة][(١)].

أما الحال الثالثة فهي: (ويكلم الناس) وهي جملة " وكانت هذه الجملة مضارعية ؛ لأن الفعل يشعر بالتجدد كما أن الاسم يشعر بالثبوت"[(٢)] ، ويبدو أن سر مجيء الحال هنا (فعلاً مضارعاً) عائد إلى طبيعة المدح والصفة الممدوح بها ، فالكلام هنا مذكور في سياق المدح، والمضارع هو الذي ينقل الصورة الحركية المصوِّرة للواقع ، والكلام بطبيعته ينقطع ثم يُنشأ حيناً بعد حين فهو ليس في إجرائه صفة ثابتة مستمرة ، ولا هو صفة تحدث مرة ثم تنتهي ، فجمعاً بين هذه الخصائص جيء بالفعل الدال على الحدوث ، وبصيغة المضارع خصوصاً للتدليل على الاستمرار التجددي .

ومما هو تابع لما قبله مشبه لبعضه قوله تعالى في نهاية هذه الآية :(ومن الصالحين) فإنه "حال معطوف على وجيهاً"[(٣)]، ويقول ابن عاشور:"(ومن الصالحين) معطوف على(ومن المقربين")[(٤)]، والنتيجة على القولين واحدة ، ويقال فيها من حيث المعنى ما قيل في (ومن المقربين) : "أي: وصالحاً من جملة الصالحين"[(٥)] .

ولكن لِمَ خُتمت بها جملة الأوصاف التي ذكرت له ، قال الرازي عن ذلك: "إنه لا زينة أعظم من كون المرء صالحاً ؛ لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظباً على النهج الأصلح والطريق الأكمل ... فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذي يدل على أرفع الدرجات"[(٦)] .

---

(١) - انظر مفاتيح الغيب ٤٥/٨ .
(٢) - البحر المحيط ١٥٥/٣ .
(٣) - التبيان ٢٦١/١ .
(٤) - التحرير والتنوير ٢٤٨/٣ .
(٥) - البحر المحيط ١٥٧/٣ .
(٦) - مفاتيح الغيب ٤٧/٨ .

وهناك حالان آخران هما (في المهد وكهلاً) وصاحبهما فاعل (يكلم)[1] ، والذي يؤيده المعنى هو عطف (وكهلاً) على (في المهد) وهذا قول أبي حيان: و"التقدير : كائناً في المهد، و(كهلاً) معطوف على هذه الحال، كأنه قيل : طفلاً وكهلاً ..."[2]، وما يهمنا الآن هو إيضاح مدلول (الجار والمجرور) في هذا المقام وإيثاره على الاسم حيث لم يكن: طفلاً أو صغيراً بدلاً من (في المهد)، وعلى الفعل فلم يكن: وقد كان صغيراً .

إن في ذكر الجار هنا واختيار كونه حرف الظرفية والوعاء (في) ما يكشف المعنى ويجليه أتم تجلية حتى يكون موافقاً للمراد منه أكمل الموافقة ؛ وذلك لأن (في) تدل في أصلها على الوعاء وهو هنا (المهد) وفي اختياره أيضاً دون (الصغر) ما يشعر بعظم المعجزة وخرقها للعادة ؛ لأن المهد هو: "مقر الصبي في رضاعة"[3]، وهو "شبه الصندوق من خشب لا غطاء له يمهد فيه مضجع للصبي مدة رضاعه ، يوضع لحفظه من السقوط"[4]، فهو دليل على أن الكلام حصل ممن لا يعهد منه الكلام عادة[5] ، ولو قيل:(في الصغر) لما كان ذلك مُلْزِماً بكونه تكلم قبل العادة ، فلما كان المراد من سوق هذه الأحوال بيان شأن عيسى والثناء عليه وإعلام أمه بما سيكون له من كبير الشأن، كان إظهار هذه الحال في صورة الجار والمجرور أعظم دلالة على خرق العادة، الدال على عظيم القدر وكبير الشأن ؛ وذلك لأن الجار والمجرور يحمل دلالتين، إحداهما مجالها الحرف، والثانية مجالها المجرور ، قال البقاعي عن شأن هذه البشارة: " ثم أتم لها البشارة بأوصاف جعلها أحوالاً دالة على أنه يظهر اتصافه بها حالة الولادة، تحقيقاً لظهور أثر الكلمة عليه "[6] .

أما قوله جل ذكره: (وكهلاً) فليس من فائدة في ذكر ظرفية الزمن فيه فيقال: (في الكهولة) ؛ لأنه أمر معلوم واقع ليس فيه ما يتميز به غيره ، وإنما كان ذكره لتأكيد ما يقابله من الكلام وأنه حصل في حالة الطفولة ، لأنها بضدها تتميز الأشياء ، فعندما ذكرت

---

[1] - انظر التبيان ٢٦١/١، وأجاز العكبري في(في المهد) الظرفية ، و في (وكهلاً) العطف على (وجيهاً)، ورد عليه أبوحيان في الأخير، وقال: إنه قد أبعد ،انظر البحر المحيط ١٥٦/٣ .
[2] - البحر المحيط١٥٦/٣ .
[3] - البحر المحيط ١٥٦/٣ .
[4] - التحرير والتنوير ٢٤٧/٣ .
[5] - انظر هذا في مفاتيح الغيب ٤٥/٨ .
[6] - نظم الدرر ٣٩٨/٤ .

الكهولة في مقابل المهد زادت المعنى تأكيداً وإيضاحاً وإبعاداً لكل احتمال آخر ، وقد ذكر الرازي أن معنى هذه الحال " أنه تكلم حال كونه في المهد ، وحال كونه كهلاً على حد واحد ، وصفة واحدة وذلك لا شك أنه غاية في المعجزة " [1] ، وقال أبوحيان: "خص هذه السن في الآية دون سائر العمر ؛ لأنها الحالة الوسطى في استحكام العقل وجودة الرأي ، وفي قوله : (وكهلاً) تبشير بأنه سيعيش إلى سن الكهولة ... ويقال إن مريم ولدته لثمانية أشهر ، ومن ولد لذلك لم يعش ، فكان ذلك بشارة لها بعيشه إلى هذا السن ، وقيل : كانت العادة أن من تكلم في المهد مات ... " [2] ، و قال ابن عاشور : " وخص تكليمه بحالين ، حال كونه (في المهد) ، وحال كونه (كهلاً) ، مع أنه يتكلم فيما بين ذلك ؛ لأن لذينك الحالين مزيد اختصاص بتشريف الله إياه ، فأما تكليمه الناس في المهد فلأنه خارق عادة إرهاصاً لنبوته ، و أما تكليمه كهلاً فمراد به دعوته الناس إلى الشريعة "[3] .

---

[1] – مفاتيح الغيب ٤٦/٨ .
[2] البحر المحيط ١٥٦/٣ .
[3] – التحرير والتنوير ٢٤٧/٣ .

الفصل الثاني

الحال والنظم

المبحث الأول: التقديم والتأخير .

المبحث الثاني : الذكر والحذف .

المبحث الثالث: تعدد الحال .

المبحث الرابع : تنوع العاطف .

توطئة:

سندرس في هذا الفصل _ بعون الله وتوفيقه _ بعض قضايا النظم المتعلقة بالحال مثل: التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، وتعدد الحال ، وتنوع الرابط ، ولا يعني هذا العنوان الذي جعلناه علماً على هذا الفصل أن ما سبق ذكره وما سيأتي ليس له علاقة بالنظم ، كلا بل باب النظم واسع ؛ إذ هو توخي مواقع الكلم على ما تقرر في علم النحو[1] ، وكل مرادنا هنا مناقشة قضايا مهمة تعد من أسس النظم لتعلقها بالموقع المؤثر في دلالة الكلمة ، وقد جعلت هذا الفصل في أربعة مباحث :

المبحث الأول : التقديم والتأخير .

المبحث الثاني : الذكر والحذف .

المبحث الثالث : تعدد الحال .

المبحث الرابع : تنوع الرابط .

---

[1] يقول عبد القاهر :((اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله...فلاتخل بشيء منها ، وذلك أنا لانعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر...، وفي الشرط والجزاء...،وفي الحال...، وفي الحروف ...، وفي الجمل...، ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، في الكلام كله، وفي الحذف ، والتكرار، والإضمار والإظهار، فيصيب بكلٍ من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له))، دلائل الإعجاز ٨١.

المبحث الأول : التقديم والتأخير .

لتغير حركة الكلمة من موقعها إلى موقع آخر أثر كبير في تغيير مدلولها ، والأصل أن القارّ في مكانه لا يُسأل عن علته وإنما يُسأل عن المتحول عن موضعه ما سر ذلك التحول؟، ولكن لا مانع ــ في نظري ــ من بيان دلالة الحال المتأخرة القارّة في مكانها كما يُبيَّن سر المتحولة عنه ؛ لأنه إذا كان للكلمة المنقولة مدلولها، فكذلك يكون للموقع الأصلي للكلمة مدلوله ، وإذا كان نقل الكلمة له أسراره فبقاؤها في موقعها له أسبابه ؛ وذلك أن " الكلمة عندما يحسن استعمالها تفجر من المعاني الكامنة والمتنوعة ما يثير العجب"[(١)] ، ومن حسن استعمالها اختيار موقعها ، حتى تقوم بدلالتها الكاملة خير قيام ، وهذا يؤكد أن للموقع أثره ، ودلالته المميزة ، ومما يُظهر تلك الدلالة ، ويُبرز ذلك الأثر الكبير في المعنى أمور منها : اتساع المدلول الذي يتطلبه الموقع ، حتى لا يمكن أن تسده أي كلمة ، بل لابد من كلمة خاصة لذلك الموقع الخاص .

يقول الدكتور عبد الفتاح لاشين : " يورد القرآن الكلمات في مواطن حساسة ، فلا نراها مقصورة على المعنى المتبادر منها في أول الأمر ، بل عند إمعان النظر والتدقيق في الكلمة نجد أن دلالتها تتسع ... " [(٢)].

ومنها أن سياق الكلام و تركيب الجملة يتطلب كلمة مناسبة له جرساً ومعنى ، فإذا جاءت ووقعت موقعها الصحيح صورت المعنى أكمل تصوير .

ومنها أن الحال تتعدد أحياناً فلا شك أن لتقديم بعضها على بعض في الموقع أسباباً تستدعيه وأسراراً يحسن بحثها [(٣)].

---

(١) من بدائع النظم القرآني ٢٠ .

(٢) صفاء الكلمة ١٧ .

(٣) وقد أشرنا فيما سبق في ص ١٧ من هذا البحث إلى أن الدكتور الدايه قد عد الدلالة السياقية الموقعية من أنواع الدلالة، انظر علم الدلالة العربي ٢٠.

أولاً : التقديم .

لقد تعرض النحويون لحركة الحال ، وبينوا مواضع تقدمها وتأخرها، وجواز ذلك ووجوبه، وأوضحوا المقاييس التي بنوا عليها قواعدهم، ومن أهمها نوع العامل وأمن اللبس، وما يهمنا الآن هو دراسة حركة الحال في الجملة وعلاقته بعامله وصاحبه من حيث تقدمه على ما كان متأخراً عنه ، والمتحصل من هذا الانتقال ثلاث صور هي :

١- تقديم الحال على صاحبها وحده .

٢- تقديم الحال على عاملها وحده .

٣- تقديم الحال على صاحبها وعاملها جميعاً .

وليس الأمر هذا على إطلاقه عند النحويين بل هناك ضوابط وموانع لبعض هذه الصور في حالات معينة ، وسنركز في مناقشة الشواهد على إبراز أثر التقديم على المعنى ، إذا كان له وجه من الإعراب يحتمله ، وقد لا نعتني بالخصومات النحوية الدائرة حول الشاهد أو القضية بعمومها .

١- تقديم الحال على صاحبها وحده .

قرر النحويون أن الأصل في الحال جواز تقدمها على صاحبها وتأخرها عنه،وقد جاءت أكثر شواهد الحال على تأخر الحال عن صاحبها ولا عجب في ذلك فهو الأصل،والشواهد على ذلك أظهر من أن تذكر،وجاءت شواهد غير قليلة تقدمت فيها الحال على صاحبها،ومن أظهرها وأكثرها الصفات التي تقدمت على موصوفاها فأعربت حالاً وقد قرر ابن القيم ــ رحمه اللهــ أن هذه القاعدة من كليات النحو فقال: " من كليات النحو كلُ صفةَ نكرةٍ قدمت عليها انقلبت حالاً؛ لاستحالة كونها صفة تابعة مع تقدمها فجعلت حالاً ، ففارقها لفظ الصفة لا معناها ؛ فإن الحال صفة في المعنى" [1] .

وهذه القاعدة تشمل كل صفة لنكرة سواء كانت مفردة أم غيرها ، وهذا ما بينه الشيخ عضيمة ــرحمه اللهــ بقوله : " إذا تقدمت الصفة على الموصوف صارت حالاً ، سواء كانت الصفة مفردة أم جملة أم شبه جملة " [2] .

---

[1] - بدائع الفوائد ٤/١٨٧.

[2] - دراسات لأسلوب القرآن الكريم الثالث الجزء الثالث ٢٩ .

والحق أن ما اجتمع لي من الشواهد شيء كثير ولن نناقشها كلها ، بل سننتخب منها ما به يظهر المقصود من غير إطالة ولا إملال ، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٢٢ البقرة]، فقوله جل ذكره: (من السماء) تحتمل التعلق بـــ(أنزل) وتكون لابتداء الغاية ، " ويجوز أن يكون حالاً ، والتقدير ماء كائناً من السماء، فلما قدم الجار صار حالاً وتعلق بمحذوف "[١] ، ومعنى (من) حينئذ " التبعيض ... أي: من مياه السماء "[٢]، فالحال هنا (من السماء) تقدمت على صاحبها المفعول به (ماءً) [٣] ، فهل من سر لهذا التقديم ؟ .

يفرق الألوسي في العلة حسب الإعراب فيقول: " وقدم عليه للتشويق على الأول[٤] مع ما فيه من مزيد الانتظام مع ما بعده ، أو لأن السماء أصله ومبدؤه ، ولتتأتى الحالية على الثاني؛ إذ لو قدم المفعول - وهو نكرة - صار الظرف صفة" [٥].

وما يفهم من كلام الألوسي هنا أن الحال مطلب يُسعى إليه ، ويقصد إليه قصداً بتحويل نمط الكلام حتى يتمحض للحالية ، وهذا أمر لا ينكر بالكلية ؛ لأن مدلول الحالية غير مدلول سواها ولا شك أن المتكلم يقصد نمط كلامه ، وإلا لما وجدنا هذا التنوع الظاهر في الكلام ، لكن هذا وحده لا يكفي في العلة ؛ إذ التقديم ذاته لم يُعَلَّل علة معنوية مقنعة داعية للتغيير، كما عُلل الوجه الأول (التعلق) .

وبتتبع هذا النمط في القرآن وجدت أنه مطرد التقديم ، فالحال: (من السماء) جاءت متقدمة دائماً على صاحبها مفعول (أنزل) إذا كان (ماءً) ، في القرآن كله وقد قاربت العشرين موضعاً .

وبتتبع أمثال هذا التركيب وجدت أن (من السماء) تأخرت عن مفعول (أنزل) في غير ما يخص (الماء) ، مثل إنزال الرجز و الكتاب و المائدة و الحجارة ، كما في قوله تعالى:

---

[١] - التبيان ٣٩/١ .
[٢] - البحر المحيط ١٥٩/١ .
[٣] - روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ١٨٨ .
[٤] - أي على الوجه الإعرابي الأول وهو التعلق بـــ(أنزل) .
[٥] - روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ١٨٨ .

﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [٥٩ البقرة] ، وقوله : ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [١٥٣ النساء] ، وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [١١٢المائدة]، وقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٣٢ الأنفال] .

ولو نظرنا إلى تلك الشواهد التي تأخر فيها (من السماء) عن المفعول لوجدناها في غير موطن المنة، فبعضها يدل على الوعيد كإنزال الرجز ، وأكثر الباقي جاء حكاية لكلام الكفار أو المعارضين، ثم إن هذه الأشياء : الرجز، والكتاب، والمائدة، والحجارة لم يعهد نزولها من السماء كما هو الحال في المطر؛ فإن كل أحد يعلم أنه يترل من السماء ، والمنة فيه أظهر لعظيم نفعه ، والقدرة أبين في كونه من السماء لا من الأرض ، لذا قدمت في هذا المقام اهتماماً بمصدر المنة وتنبيهاً لموضع العبرة والقدرة .

ولعل هذا بعض ما ألمح إليه الدكتور فهد الرومي في تعليله لذكر (من السماء) مع أنه بدهي حيث يقول :" يظهر لي أن ذكر السماء مع العلم بأن المطر لا يترل إلا من السماء ؛ لأن المقام مقام امتنان وإظهار قدرة الله عز شأنه ، فالنص على المكان البعيد الذي أنزل منه الماء فيه زيادة امتنان وقوة قدرة " [١] .

ولعل في تقديم (من السماء) دائماً مع إنزال الماء ما يشعر بإرادة الاختصاص ، أي: من السماء خصوصاً ودلالة التقديم على الاختصاص غير منكرة، ويكون في هذا إظهار لما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وهو إنزال المطر، ويدل على ذلك أنه من المغيبات الخمس كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [٣٤ لقمان]، وبالاختصاص تظهر المنة بصورة أوضح ، والقدرة بصورة أجلى وأبين ، وقد يقال وما فائدة الاختصاص ؟.

نقول: فائدة ذلك ليخرج به ما قد يُتوهم دخوله في الإنزال عموماً، مثل: إنزال الماء من غير السماء، فذلك قد يكون في مقدور البشر، كإنزاله من شواهق الجبال ، أو أعالي

---

[١] - البدهيات في الحزب الأول من القرآن الكريم ٢٧ .

المباني، فلما كان المراد هنا بيان حالة خاصة هي موطن المنة والعبرة قدمت الحال: (من السماء) إظهاراً لكل تلك المعاني.

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [١٥٠ البقرة] .

قال أبو حيان: "و(عليكم) في موضع نصب على الحال ، وهو في الأصل صفة للحجة، فلما تقدم عليها انتصب على الحال ... "[١]، ولعل السر في التقديم هنا إظهار أن المراد هو الاعتناء بدحر اعتلاء الحجة عليكم وإلزامها لكم من قبل الناس[٢] ، ولو قيل : حجة عليكم ، لكانت العناية منصرفة إلى الحجة، وليس هو المراد هنا، بل المراد أن هذا الأمر بالتوجه إلى الكعبة -وهو الأمر الآلهي- هو القاطع لحجج المحتجين ، ولولا ذلك لكانت لهم حجة مستولية عليكم ملزمة لكم .

وقال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [٢٢٨البقرة]، فـ(عليهن) يصح أن يكون متعلقاً بمحذوف حال ؛ لأنه " لو تأخر لكان وصفاً للنكرة فلما تقدم انتصب على الحال..."[٣]، وسر تقدم هذه الحال التنبيه على ما للزوج من عظيم الحق على زوجته، وهذه الدرجة فيها أقوال كثيرة يجمعها قول أبي حيان:"وملخص ما قاله المفسرون يقتضي أن للرجال درجة تقتضي التفضيل"[٤].

ويظهر من نظم هذه الآية إبراز شأن الرجال، وعظم حقهم، خاصة بعد ذكر التسوية بينهم وبين النساء في الحقوق فيما يناسب كلاً منهم ، فجاءت: (وللرجال ...) بياناً لمزيد فضل الرجال ودل على ذلك أمور: أولها : التقديم في موضعين :

---

[١] - البحر المحيط ٤١/٢ .
[٢] - ينظر في أنواع حجج اليهود والعرب في شأن القبلة : البحر المحيط ٤١/٢ .
[٣] - البحر المحيط ٤٦٢/٢ .
[٤] - البحر المحيط ٤٦٢/٢ .

الأول: تقديم الخبر (للرجال)على المبتدأ (درجة) ، إذ فيه-زيادة على الاهتمام بالمقدم - منع توهم المساواة بين الرجل و المرأة ، وتحديد إيثار الرجال على النساء بمقدار مخصوص [1] .

الموضع الثاني : تقديم الحال (عليهن) مع ما في (على) من دلالة الاستعلاء ، ويظهر أثر التقديم هنا لو عدل عنه فقيل : درجة عليهن ، فيكون صفة للنكرة ، فعندها يكون المقصود الاهتمام بالإخبار عن درجة كائنة للرجال ، وليس هذا هو موضع الاهتمام ، بل هو الإخبار بكونها على النساء ، والذي يبرز هذا المعنى الدقيق هو تقديم: (عليهن) لتكون حالاً ؛ لأن الحال هنا تدل مع التقديم على أن هذه الدرجة المذكورة مشروطة بحال معينة هي حال كونها على النساء .

أما الأمر الثاني الدال على إبراز فضل الرجال هنا فهو الإظهار في موطن الإضمار، يقول الألوسي: "وأتي بالمظهر بدل الضمير للتنويه بذكر الرجولية التي بها ظهرت المزية للرجال على النساء "[2] .

ومما يظهر في تقديم الحال لأجل إظهار التمكن والفوقية مع حرف الاستعلاء (على) قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [٦١ الأنعام]، فــ(عليكم) تحتمل الحالية من (حفظه)[3] ، وتظهر فيها دلالة الإحاطة والاستعلاء والقهر والقوة، والعناية هنا ظاهرة باستعلاء الحفظة عليهم تعليماً لهم وتذكيراً بعلوه سبحانه عليهم وتخويفاً لهم وترهيباً ؛ لذا قدمت الحال ، وفي تقديمها ودلالتها على ما ذكر انسجام كامل مع ألفاظ الآية الدالة على القهر والقوة والعظمة .

ومن هذا قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [٣٦الأنفال] ، فقوله جل ذكره: (عليهم) حال ؛ لأنها صفة لــ(حسرة) تقدمت عليها[4]،

---

(١) - انظر التحرير والتنوير ٢/٤٠١ .

(٢) - روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ١٣٥ .

(٣) - انظر التبيان ١/٥٠٣ .

(٤) - انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٣/٥٧٤ .

وفي هذه الآية بيان لخسارة المنفقين في الصد عن سبيل الله كفعل قريش يوم بدر: وأحد، والأحزاب، ومع هذا خابوا وخسروا ، وكذلك ما ينفقه أعداء هذا الدين في الصد عنه مريدين به نصر أنفسهم والانتصار لعقائدهم ، فبينت هذه الآية أهم سيعاملون بنقيض قصدهم ، وأن أموالهم التي أرادوا تسخيرها لنفعهم هي بعينها ستكون مصدر الحسرة لهم ، لذا قدمت الحال: (عليهم) بياناً لاستيلاء الحسرة عليهم ، وإظهاراً لكونها عليهم خصوصاً بالصفة المذكورة ، ولو قيل: حسرة عليهم، لما كان فيه اهتمام بكونها عليهم بل بكونها حسرة، والمقصود هنا كونها عليهم خصوصاً حتى يحصل التضاد بين قصدهم ونقيضه ، وهذا أشدّ في تحسيرهم .

أما قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [١٦٧ البقرة] فقد جاء بغير تقديم (حسرات عليهم)؛ لأن المقصود يوم القيامة، والرؤية هنا بصرية والوزن حق (وحسرات) حال[1]، ولو قدم: (عليهم) لأشعر بالاختصاص ، وليس هذا موطنه؛ إذ ليس المقصود ذكر فريق وإقصاء آخر ، بل المراد إظهار شأن الحسرات يوم القيامة؛ لأنه موطنها ووقتها وهي من أظهر أنواع عذاب ذلك اليوم ؛ لذا جاءت مجموعة دليلاً على كثرتها وتنوعها وطولها، ثم جاءت (عليهم) وصفاً لتلك الحسرات أي: حسرات كائنة عليهم مرتبطة بهم دائمة معهم، فالمراد إذاً هو إبراز شأن الحسرات وعظمها ولو كانت الحسرات موجودة معلومة وكان المراد إبراز استيلائها عليهم لقيل: (عليهم حسرات) كما قال سبحانه عن نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فرءاه حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [٨ فاطر]،وتحسره صلى الله عليه وسلم معلوم ليس ينكر ؛ لأنه نابغ من حرصه على هداية البشر ، فالعناية هنا ليست بالحسرات ذاتها، بل بكون إذهاب النفس كان من أجل من ليس أهلاً للهداية في علمه سبحانه ، فقدمت (عليهم) إظهاراً لعلو الحسرات عليه صلى الله عليه وسلم تصويراً لعظيم حرصه وبالغ اجتهاده في هداية الناس .

[1] – انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ١/٤٠٤ .

ومن هذا قوله تعالى:﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [٣ الأعراف] ، فقوله تعالى: ﴿ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ "حال من (أولياء) "[١] ، ولو تأخر عنه فقيل: أولياء من دونه لأشعر ذلك بانصراف الاهتمام إلى الأولياء والنهي عن اتخاذهم، ولأشعر أيضاً بإثبات الوصف لهم وهو كونهم من دونه والإقرار به؛ لأن الوصف أثبت من الحال، فكأنه قيل لا تتبعوا أولياء كائنين من دونه ، وهذا يشعر بأن الأولياء الخالين من هذه الصفة السالمين من هذا القيد يجوز اتباعهم وهذا ليس بحق؛ لذا جاء التقديم والحالية التي أشعر النظم فيها بأن الاهتمام منصب على هذا القيد (من دونه) فهو شامل لكل شيء كائن من دون الله،وليس المقصود حصره فيما ذكر من الأولياء بل هو شامل لغيرهم ما دامت العلة موجودة وهي المقدَّمَة لأجل هذا: (من دونه) ؛ لذا لما انتفت هذه العلة وأصبح المراد هو الاهتمام بالأولياء الذين لهم صفة خاصة ، جاء الكلام بغير التقديم والحالية، بل بالتأخير والوصفية كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ [٩٧الإسراء] .

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [١٨ يوسف]، فقد جاء قوله جل ذكره: ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ ﴾: "في موضع نصب حالاً من (دم)؛ لأن التقدير: جاءوا بدم كذب على قميصه"[٢]، وهذا قول أبي البقاء ، وقد حكى أبو حيان الخلاف في هذا وكأنه مال للجواز ويدل عليه قوله:" والمعنى يرشد إلى ما قاله أبو البقاء "[٣]، وعلى هذا فالجار والمجرور حال وقد تقدم على صاحبه (بدم)[٤]، وفي تقديم هذه الحال إبراز لكمال العناية بها؛ لأنها علامة كذبهم، يدل على هذا جلب حرف الاستعلاء (على) فهو يشعر بأن الدم موضوع على القميص وضعاً فهو ليس فيه من أصله ولا مختلطاً به ، وفي التقديم أيضاً إظهار للحال، أي: جاءوا بالقميص وهو على تلك الحالة من علو الدم عليه ، ولو قيل:

---

(١) – التبيان ٥٥٦/١ .

(٢) – التبيان ٧٢٦/٢ ، والزمخشري لا يرى جواز هذا ؛ لأن حال المجرور لا تتقدم عليه ، انظر الكشاف ٤٥١/٢، ولئن منعه الجمهور فإن هناك من يجيزه مثل: الفارسي ، وابن جني ، وابن كيسان، انظر البحر المحيط ٥٤٩/٨ ، والحال في الأسلوب القرآني ٧٠٢ وما بعدها .

(٣) – البحر المحيط ٢٥٠/٦.

(٤) – التحرير والتنوير ٢٣٨/١٢ .

بدم كذب على قميصه لكان وصفاً ثانياً له أي: بدم كذب مسكوبٍ على قميص ، وبهذا تخرج العناية عن القميص إلى الدم ، وليس الأمر كذلك بل المراد الاهتمام بأمر القميص ،لأنه علامة الشهادة لذا قدم مع ما يدل على كذبهم وهو حرف الاستعلاء (على) .

وكل هذا الشواهد هي من تقديم صفة النكرة عليها، وكلها من شبه جملة وهي ليست قليلة بل كثيرة وإنما أردنا الاستشهاد والتمثيل[1]، وقد تبين لي أن التقديم فيها مراد منه إما التنبيه على أهمية المقدم وكمال العناية به، وإما لقصد الاختصاص ، وقد قيل بهما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ ﴾ [٧٣ الأعراف] ، فقوله جل ذكره : (لكم) " يجوز أن يكون ... حالاً من (آية) "[2]، وقدمت للتنصيص على أنها لهم وأنها أمام أعينهم فلا مجال للإنكار والتكذيب قال أبو حيان: "كأنه قال: لكم خصوصاً "[3]، ويبدو أن التخصيص هنا ظاهر وإن كان ابن عاشور قد قال بعد ذكر الحالية:" وتقديمه للاهتمام بأنها كافية لهم على ما فيهم من عناد"[4]، لكنه مع هذا نص على التخصيص بقوله:"وزادت على التأكيد إفادة ما اقتضاه قوله: (لكم) من التخصيص وتثبيت أنها آية، وذلك معنى (اللام) أي: هي آية مقنعة لكم ومجعولة لأجلكم "[5]، وليس في كلامه تناقض على الصحيح ؛ لأنه لا تنافر بين الاختصاص والاهتمام فما كان للتخصيص فهو دال على الاهتمام ضمناً وعلى هذا يحمل كلامه.

ومن أنماط التقديم الأخرى على الصاحب ما كان الحال فيه غير شبه الجملة كما في قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [٢٨ سبأ]، فقوله جل ذكره: (كافة) حال من (للناس) وقد رجح أبو حيان جوازه وقال:"هو الصحيح"[6]،وأما عن سر التقديم فيقول ابن عطية: " (كافة) نصب على

---

[1] – انظر مزيداً من ذلك في ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٩٦ البقرة، و٢٨ آل عمران،و ١٧ المائدة، و ٦٨يوسف ، و ١٨ الشعراء، و٥ الفتح ، و ٧ الملك،و ١٣ نوح وغيرها كثير .

[2] – التبيان ٥٨٠/١ .

[3] – البحر المحيط ٩٢/٥ .

[4] – التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ٢١٨ .

[5] – التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ٢١٨ .

[6] – البحر المحيط /٥٤٩ ، وانظر الدر المصون ١٨٦/٩ .

الحال وقدمها للاهتمام"[1]،ويقول الألوسي: " والذي أختاره في الآية ما هو المتبادر،ولا بأس بالتقدم والاستعمال وارد عليه ولا قياس يمنعه... والآية عليه أظهر في الاستدلال على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم وهي في ذلك كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [١٥٨ الأعراف] "[2] .

وقال ابن عاشور: "والتقدير في هذه الآية: وما أرسلناك للناس إلا كافة، وقدم الحال على صاحبه للاهتمام بها؛ لأنها تجمع الذين كفروا برسالته كلهم"[3]، ومما يثيره تقديم الحال على صاحبها -زيادة على ما ذكر من الاهتمام بالمقدم، والاختصاص- التشويق لصاحب الحال؛ لأن الحال جزء من صاحبها، فإذا تقدمت عليه، عُلِمَ منها أن لها صاحباً سيأتي ذكره لا محالة ، فتشتاق النفس لمعرفته .

٢- تقديم الحال على عاملها وحده[4] .

لنوع العامل شأن كبير عند النحويين في حركة الحال وخصوصاً تقديمها عليه ، فقالوا إن كان العامل متصرفاً (فعلاً أو صفة تشبهه) جاز التقديم ، وإن كان العامل معنوياً وهو الظرف والجار والمجرور ... فقد منعه سيبويه ، وأجازه الأخفش بشرط عدم تقدمه على الصاحب أيضاً، وإن كان العامل معنوياً غير ما ذكر كـ(ليت، ولعل ، وحرف النداء ، وأسماء الإشارة، وحرف التنبيه...) فيمتنع فيه التقديم لضعف العامل ، وكذا الصفة المشبهة، وأفعل التفضيل في جل أحواله ، وكذلك إذا كان الحال جملة مصدرة بالواو مثل – والشمس طالعة جئتك ، فهذا ممنوع[5] .

ولكن هناك من يعترض على قضية العامل كلها ويرى أنها لا تحل الإشكال ، وأنه بولغ في تأثيرها في حركة الحال ، وأنه ينبغي وضع ضوابط أخرى لذلك ، يقول الدكتور فيصل إبراهيم صفا ، في خاتمة بحث مطول عن هذا الموضوع: " يبدو العامل

---

(١) – المحرر الوجيز ١٣٨/١٣ .

(٢) – روح المعاني المجلد الحادي عشر الجزء الثاني والعشرون ١٤٣ .

(٣) – التحرير والتنوير ١٩٨/٢٢ .

(٤) – لم يجز الكوفيون تقديم الحال على عاملها مع الاسم الظاهر مثل – راكباً جاء زيد؛ لعود الضمير في (راكباً) على متأخر، وأجاز ذلك البصريون وعدوه كالمفعول ، والشواهد تؤيدهم ، انظر الإنصاف في مسائل الخلاف ٢٥٠/١ .

(٥) – انظر كل هذا في شرح الرضي على الكافية ٢٤/٢ وما بعدها .

النحوى بعدما مضى غير ذي أثر في ضبط حركة الحال تقدماً أو تأخراً ...كل ما في الأمر أن الحال لها في العادة موقع تال مباشرة لصاحبها ، وأن مفارقتها لهذا الموقع مرتبطة بظهور صاحب الحال من غير لبس "[١] .

وعلى كل حال فلسنا معنيين هنا بتصحيح ذلك أو تضعيفه ، بل ما يهمنا هو تفسير النص، وبيان سر التقديم فيه حسب ما يوفق الله وييسر .

و مما جاءت فيه الحال مقدمة على عاملها المعنوى على رأي الأخفش قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [١٣٩ الأنعام] ، فقوله جل ذكره: (خالصة) ذكر فيها ابن جني أنها بالرفع قراءة العامة، وبالنصب (خالصاً) قراءة سعيد بن جبير، و(خالصةً) قراءة ابن عباس والأعرج وقتادة... ،وتخريج النصب على وجهين: أحدهما أن يكون حالاً من الضمير في الظرف الجاري صلة على (ما) ، والثاني : أن يكون حالاً من (ما)[٢] على مذهب أبي الحسن الأخفش في إجازته تقديم الحال على العامل فيها، إذا كان معنى بعد أن يتقدم صاحب الحال عليها ، كقولنا زيد قائماً في الدار ، ولا يصح أن يكون (خالصة) حالاً من (الأنعام)؛ لأن المعنى ليس عليه[٣] ، وعلى القول بالتقديم على العامل (لذكورنا) دون الصاحب (ما) فهذا يشير إلى أن العناية هنا إنما هي بالصاحب وهو ما في بطون الأنعام من الأجنة ، ولا عجب في ذلك فهو مدار الحكم هنا ، فكان تقديمه مناسباً لإيقاع الحكم المراد عليه ، ثم تلته الحال ؛ لأنها هي الحكم ، فهي في هذا الموطن في الأهمية بعد الصاحب ؛ لأن خلوصها هو المعتنى به عندهم ، أما كونها لذكورهم فهو أمر لا جدال فيه ؛ لأن الأزواج مؤخر حقهن عندهم ، فهن أحقر من أن يشركنهم في ذلك ، ويدل لهذا تحريمهم عليهن الحي وإشراكهم لهن في الميت ، ففي تقديم (خالصاً) أو (خالصة)

---

[١] - ضوابط حركة (الحال) النحوية، مجلة اللسان العربي العدد (٣٢)، عام ١٩٨٩ م، ص ٥٦ ،وقد خرج الباحث بأن الضابط لحركة الحال هو الموقعية وأمن اللبس انظر ص ٤٦ وما بعدها .

[٢] - ((أي: من ضمير (ما) الذي تضمنه خبر (ما) وهو لذكورنا)) البحر المحيط ٦٦٠/٤ ، فالترتيب الأصلي: ما في بطون هذه الأنعام لذكورنا خالصةً أو خالصاً، فـــ(ما) هي الصاحب .

[٣] - انظر كل ذلك في المحتسب ٢٣٣/١ .

إظهار لبيان اختصاصهم بهذا دون نسائهم ، وإبراز لكامل عنايتهم بخلوصها لهم دونهن ، وكل ذلك ضلال في ضلال .

ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [٨٢ الإسراء] ، فقوله جل ذكره: (شفاء ورحمة) بالرفع هي القراءة المعروفة ، " وقرأ زيد بن علي: (شفاءً ورحمةً) بنصبها ويتخرج على الحال ، وخبر (هو) (للمؤمنين)، والعامل فيه ما في الجار والمجرور من الفعل ....، وتقديم الحال على العامل فيه من الظرف أو المجرور لا يجوز إلا عند الأخفش..."[(١)]، وأصل الكلام على هذا: ونتزل من القرآن ما هو للمؤمنين شفاءً ورحمةً ، ولو كان التركيب على هذه الصورة لأمكن أن ينتهي الكلام عند كلمة: (للمؤمنين) ، ولكان الحال خارجاً عن نطاق الجملة ، ولكان المعنى : أن القرآن نزل للمؤمنين فحسب ، وليس الأمر كذلك ، بل هو عام لكل البشر وإنما تخصيصه بالمؤمنين مرتبط بتلك الحال فهي المعنية هنا ؛ لذا قدمت لأهميتها فقيل: شفاءً ورحمةً للمؤمنين، فالسياق هنا يظهر ما لهذه الحال من أثر في بيان أن المعتنى به هنا هو تأثير القرآن في ذاته بصرف النظر عن محله فهو شفاء ورحمة ، وهذا يلتقي في المعنى مع قراءة الرفع ؛ لأنها على الخبرية ، والحال خبر في مضمونه فالتقيا في المعنى بسبب هذا التقديم ، ولو أخرت الحال: (شفاءً ورحمةً) لما كان هذا الالتقاء .

ومن شواهد تقديم الحال على عاملها ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٦٧ الزمر]، فـ(جميعاً) حال من الأرض[(٢)]، والعامل فيها (قبضته) ؛ لأنها بمعنى: يقبضها، وهي الخبر" قال الحوفي:والعامل في الحال ما دلت عليه (قبضته) "[(٣)]، ولكن أبا حيان لم يرتضِ ذلك ولم يعلل، ولو جاء الكلام على ترتيبه الأصلي لقيل: والأرض قبضته جميعاً يوم القيامة،كقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٤٤ الزمر]، فما سر التقديم على الخبر (العامل) ؟.

يبدو أن العناية هنا موجهة إلى بيان الحال بعد الصاحب خاصة ، وأنها تحمل معنى

---

(١) – البحر المحيط ١٠٣/٧ ، ١٠٤ .

(٢) – انظر البحر المحيط ٢٢٠/٩ .

(٣) – البحر المحيط ٢٢٠/٩ .

التوكيد(جميعاً)، وذلك لكمال الاهتمام بشأن الأرض مع ذكر ما يدل على عظمة الخالق من العوالم الأخرى؛ فإن "الموضع موضع تفخيم ، فهو مقتضٍ للمبالغة[1]، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع ، أتبع الجميع مؤكده قبل مجيء الخبر ، ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة ، ولكنه عن الأراضي كلهن "[2] .

ولما كانت الأرض هي أقرب مظاهر العظمة عند البشر بما تحويه من مخلوقات كان تقديمها أنسب ، لكي تُجرى عليها الحال الدالة على عظمة فوق ما كانوا يظنون أو يدور في أذهانهم ، فجاءت الحال : (جميعاً) مبينةً هذا الغرض ، يقول البقاعي في هذا الشأن : " وقدمها[3] لمباشرتهم لها ومعرفتهم بحقيقتها ، ولما كانوا ما يدركون منها من السعة والكبر كافياً في العظمة وإن لم يدركون أنها سبع ، أكد بما يصلح لجميع طبقاتها تنبيهاً للبصراء على أنها سبع من غير تصريح به فقال: (جميعاً)... "[4] .

ومن الشواهد أيضاً ما جاء في الآية ذاتها عن السموات، قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٦٧ الزمر] ، هذه الآية بقراءة النصب في (مطويات) -وهي لعيسى والجحدري- وهي معتمد أبي الحسن الأخفش فيما ذهب إليه من جواز تقديم الحال على عاملها المعنوي وهو هنا الخبر (بيمينه) ، وذكر أبو حيان أنه لا حجة فيه لاحتمال كون (والسموات) معطوفاً على الأرض و(بيمينه) متعلقاً بمطويات[5]، وعلى رأي الأخفش في التقديم ما مدلول الحال حينئذ ؟.

لعل سر ذلك أن المهم مع الأرض هو بيان حال كونها جميعاً في قبضة الجبار؛ لذا تقدمت الحال لملاصقة صاحبها لمزيد الارتباط ، ولتقوية دلالة العظمة في ذلك ، وأما هنا فالجمع كاف في مدلول الاجتماع يقول البقاعي: "ولما كانوا يعلمون أن السموات سبع متطابقة بما يشاهدون من سير النجوم -جمع ليكون مع (جميعاً) كالتصريح في جمع الأرض

---

(١) - قال أبو حيان في هذا السياق: ((فالأرضون مع سعتها وبسطتها لا يبلغن إلا قبضة كف)) البحر المحيط ٢٢٠/٩ .

(٢) - الكشاف ١٤٤/٤ .

(٣) - أي: الأرض .

(٤) - نظم الدرر ٥٤٩/١٦ .

(٥) - انظر البحر المحيط ٢٢١/١٩.

أيضاً"[1]، ولما كانت السموات غير ملاصقة للبشر ولا مباشرة لهم فهم لا يعلمون من عظمتها إلا رؤيتها كان التفصيل في شأنها أنسب من الأرض ، فجاءت الحال متقدمة على الخبر وهو العامل (بيمينه) لتصوير حالتها يوم القيامة ، وذكر الطي هنا وإلصاقه بالسموات لتجلية مظاهر القدرة .

والسموات لها رهبتها وهيبتها وتعظيمها ؛ لأنها علوية ولأن دلالة الخلق والإحكام والإبهار فيها أظهر من الأرض وإن كانت الأرض إليهم في ذلك أقرب ، فلما كانت كذلك كان ذكر الطي –وهو ضد النشر[2]– معها من أبرز دلالات القدرة وأبينها كما قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [١٠٤ الأنبياء]، ولما كانت هذه الحال هي مناط العبرة ، وهي آية الاتعاظ قدمت لتلي الصاحب حتى يتم الارتباط ويظهر الاعتبار .

٣- تقديم الحال على صاحبها وعاملها جميعاً .

هذه هي الصورة الثالثة لتقديم الحال عن موضعها الأصلي ، وهي أدل الصور الثلاث على كمال العناية بالحال ، وشواهدها ليست قليلة ، بل هي كثيرة إذا حسبنا المكرر ، وبعضها يجب تقديم الحال فيه وبعضها يجوز فيه ذلك .

أ- ما كان تقديم الحال فيه واجباً .

وهو ما كان الحال فيه له الصدارة مثل: (كيف) و (أنّى) إذا وقعتا حالاً وشواهدهما كثيرة، فقد وردت (كيف) في القرآن في ثلاثة وثمانين موضعاً أكثرها كانت فيه حالاً يقول الشيخ عضيمة – رحمه الله –: " أكثر مواقع (كيف) في القرآن كان حالاً "[3] ، وأما (أنّى) فقد جاءت في القرآن في ثمانية وعشرين موضعاً فقط ، كانت فيها كلها – إلا ما ندر[4] – بمعنى (كيف) أو (من أين)[5] ، وعلى هذا فهي محتملة للحالية في كل

---

[1] – نظم الدرر ١٦/٥٥٠ .

[2] – انظر البحر المحيط ٩/٢٢١ .

[3] – دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الأول الجزء الثاني ٤١٨ .

[4] – وهو موطن واحد ، هو قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢٢٣ البقرة] فهي هنا شرطية ،ولأبي حيان كلام فيها يقربها من الحالية انظر البحر ٢/٤٣١،٤٣٠ .

[5] – انظر تفصيل ذلك في دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الأول الجزء الأول ٥٦٨ وما بعدها .

مواضعها ، وقد قرر أبو حيان أن (أنّى) إذا كانت بمعنى (كيف) كانت اسماً مبنياً على الحال ، وإذا كانت بمعنى (مِنْ أين) كانت ظرفاً مكانياً ، وقال عن غلبة الحالية: " ... غالب تداولها في اللغة أنها للأحوال "[1] .

و(كيف وأنّى) اسمان لهما الصدارة[2] ، يقول الكفوي عن (كيف): " و(كيف) لها صدر الكلام ... وإن كان بعده فعل فهو في محل النصب على الحالية ... "[3] .

أما الشواهد فمنها قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [٢٨ البقرة] فـ(كيف) هنا " في موضع نصب على الحال ، والعامل فيها (تكفرون) ، وتقديرها : أجاحدين تكفرون ، أمنكرين تكفرون "[4] ، فهي بهذا حال مقدمة على الصاحب وهو (الواو) في (تكفرون) ، وعلى العامل وهو الفعل (تكفرون) فما سر هذا التقديم ؟.

قد يقال هذا تقديم لازم لا يبحث عن سره ؟ نقول: هذا صحيح إذا لم يكن هناك مندوحة عنه، أمَا وهناك طرق أخرى للتعبير يمكن أن تسلك فلا شك أن لهذا التركيب مع وجوب التقديم فيه مزيد مزية علىغيره ، وأظهر شيء في هذا أن التعبير بـ(كيف) هنا جعل الحال مقدمة فوقع التقريع والإنكار عليها دون صاحبها، ولو تأخرت لما حصل ذلك، وسر إيقاع الإنكار والتوبيخ على الحال يوضحه الزمخشري بقوله: " ... حال الشيء تابعة لذاته ، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال ، فكان إنكار حال الكفر - لأنها تبيع ذات الكفر ورديفها - إنكاراً لذات الكفر ، وثباتها على طريق الكناية، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ ، وتحريره : أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها . وقد علم أن كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده ، ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني"[5] .

---

(١) - البحر المحيط ٤٣٠/٢ .

(٢) - انظر أوضح المسالك ٣٢٨/٢ .

(٣) - الكليات ٧١٥ .

(٤) - المحرر الوجيز ١٥٧/١ .

(٥) - الكشاف ١٢١/١ .

ولو لم يُقْصد التقديم هنا لقيل : أتكفرون جاحدين أو منكرين فتكون الحال قارة في مكانها، لكن هذا لا يقوم بالدلالة المعنية هنا ؛ لأن " الإنكار بالهمزة إنكار لذات الفعل وبـــ(كيف) إنكار لحاله ، وإنكار حاله إنكار لذاته ... وهو أبلغ إذ يصير ذلك من باب الكناية ... "[1]، ويقول الشيخ زادة: " وبخهم على كفرهم مع علمهم بحالهم المقتضية خلاف الكفر، ولا شك أن الأوفق لبيان علمهم بتلك الحال هو إنكار الحال التي يقع عليها الكفر ، لا إنكار نفس الكفر ؛ فإنه حينئذ يكون كل واحد من المنكر والمثبت من قبيل الأحوال بخلاف لو قيل: أتكفرون "[2] .

ونخرج من هذه التحليلات إلى شبه قاعدة في كل شواهد (كيف) الواقعة حالاً على سبيل التقريع والإنكار ،وهي أن كونها مما له صدر الكلام جعل الإنكار يقع عليها وهي الحال وذلك أبلغ؛ لأنه على سبيل الكناية .

ويظهر الفرق جلياً بين التقديم والتأخير في الحال، وبين (كيف) و (الهمزة) في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [٢٠، ٢١ النساء] .

سبب نزول هذه الآية أن الرجل كان إذا طمحت عينه إلى إمرأة بهت التي تحته ورماها بفاحشة حتى تفتدي نفسها بما أعطاها ليصرفه على غيرها [3] .

وفي هذه الآية حالان: أحدهما في مكانه بعد العامل وهو: (بهتاناً وإثماً مبيناً) ، والثاني مقدم وهو (كيف)[4] ، ومبنى الحالين على الإنكار ، لكن وقع الاختلاف فيما انصب عليه الإنكار، ففي الشاهد الأول تسلطت همزة الإنكار على الفعل: (أتأخذونه) فدل هذا على أن الاهتمام به والعناية إليه ؛ وذلك لأن الكلام عن أخذ الأزواج صداق زوجاتهم بغير حق، فالمأخوذ معلوم، والحالة التي يؤخذ عليها معلومة وهي البهتان والإثم ، فالإنكار للأخذ ذاته على تلك الحال ، لذا بقي الحال في موقعه وجاءت الهمزة ؛ لأنها لإنكار الفعل،

---

(١) - البحر المحيط ١/٢٠٨ .

(٢) - حاشية الشيخ زادة على البيضاوي ١/٢٣٠ .

(٣) - انظر الكشاف ١/٤٩١ .

(٤) - انظر التبيان ١/٣٤٢ .

أما الحال الثانية فقد جاءت تعظيماً للأمر كله وتهويلاً للفعل برمته؛ لذا كان لابد أن تكون أرقى في الإنكار وأعظم في التشنيع فجيء بـــ(كيف) حالاً مقدمة ؛ لأن إنكار الحال أقوى وأبلغ من إنكار الفعل .

يقول أبو حيان عن هذا التصعيد في الإنكار والارتقاء فيه مما أوجب التخالف الموقعي: "أنكر أولاً الأخذ ونبه على امتناع الأخذ بكونه بهتاناً وإثماً ، وأنكر ثانياً حالة الآخذ وأنها ليست مما يمكن أن يجامع حال الإفضاء ؛ لأن الإفضاء وهو المباشرة والدنو الذى ما بعده دنو يقتضي ألا يؤخذ معه شيء مما أعطاه الزوج "[1] ، ويرى ابن عاشور أن الاستفهام في الحال الأولى إنكاري وفي الثانية تعجبي [2] ، فكأنه أنكر عليهم أولاً الأخذ على تلك الحال (باهتين وآثمين)، ثم ترقى للتعجب من حالهم وأنهم بلغوا فيه مبلغاً يثير العجب مع صفة الإفضاء المذكورة .

وهكذا يظهر لنا أن (كيف) للأحوال المرتبطة بملابسات معينة تجعلها في غاية العجب والإنكار ، عند ذلك تأتي (كيف) مقدَّمة دالة على كل المعاني السابقة والشواهد على هذا غير خافية، اكتفي منها بما سبق وأشير إلى ما تبقى منها على سبيل التمثيل لا الحصر [3] .

أما(أنّى)فنجدها في هذا الشاهد الجامع بينها وبين (كيف)لنعلم الفرق ينهما، قال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [٧٥المائدة]، فـــ (كيف) هنا حال، وكذلك (أنّى) وعامل الأولى (نبين)[4]، وعامل الأخرى (يؤفكون)[1] وكلاهما حال مقدمة؛لأن لهما الصدارة، ولكن ما مدلول كل منهما؟.

---

(١) – البحر المحيط ٣/ ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

(٢) – انظر التحرير والتنوير ٤/٢٩٠ .

(٣) – انظر مثلاً قوله تعالى:﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [٢٥٩ البقرة] ، انظر البحر المحيط ٦٣٨/٢ ، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٥٣٩/٣ ،وقوله تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [٢٥آل عمران]، انظر الكشاف ٣٤٩/١، والبيان ١٩٧/١ ،والبحر المحيط ٨٤/٣ ، وحاشية الشهاب ٢٧/٣، وقوله تعالى:﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [٨٦ آل عمران]، انظر الكشاف ٣٨٢/١ ،والبحر المحيط ٢٥١/٣، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ ﴾ [٤١ النساء]، انظر مفاتيح الغيب ١٣٨/٣، والتبيان ٣٥٩/١، والبحر المحيط ٦٤٤/٣، وهي هنا محتملة، وقد نص على الحالية ابن عاشور ووجهها بأن المراد بيان حالة مهولة للمشركين، انظر التحرير والتنوير ٥٧/٥ ، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ ﴾ [٦٢ النساء]، انظر الكشاف٥٢٦/١ ، والبحر المحيط ٦٩٠/٣، وانظر أيضاً ٧٥،٦٤،٤٣،٣ المائدة، و٨١،٤٦ الأنعام، و٩٣الأعراف وغيرها.

(٤) – انظر الدر المصون ٣٧٨/٤ ، وإعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٥٣٤/٢ وغيرها .

يرى ابن عاشور أن (أنى) يمكن أن تكون بمعنى (كيف)،"وعليه فإنما عدل عن إعادة(كيف)تفنناً،ويجوز أن تكون بمعنى:(من أين)،والمعنى التعجب من أين يتطرق إليهم الصرف عن الاعتقاد الحق بعد ذلك البيان البالغ غاية الوضوح،حتى كان بمحل التعجب من وضوحه"[٢].

والحق أن القول بالتفنن غير مقنع ومقتضى بلاغة الذكر الحكيم أن يكون السر فوق ذلك، ولو تأملنا هذا الآية لوجدناها اشتملت على ألوان من التعجب من صنيع النصارى وادعائهم الألوهية لعيسى وأمه رغم وضوح الآيات وظهور الحقائق ، ومما يرشد إلى ذلك: توسط الحرف (ثم) بين التعجبَيْن ، فإنه " يعني أنه بيّن لهم الآيات بياناً عجيباً ، وأن إعراضهم عنها أعجب منه "[٣] ، ومنها تكرير الأمر بالنظر ، قال الألوسي: "وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجب"[٤]، وكذلك الأمر بالنسبة للمخالفة بين (كيف) و(أنّى) ، فـــ(كيف) فيها تعجيب من حال تبيين الآيات لهم وهذا يستلزم التعجب من الآيات ذاتها، وأنها من العظم والدلالة بحيث كان حالها مُعْجِباً فكيف بذاتها ! فلما انتقل إلى بيان ما يخصهم وأن اللائق بمثلهم مع وضوح تلك الآيات هو الانصياع إلا أنهم انحرفوا وانصرفوا فكان ذلك أعجب من الآيات ذاتها؛ لذا ترقى في التعجب فجيء بـــ(أنّى) ؛ لأنها تدل على معنى (كيف) مضموماً معه الجهات، وهي بهذا أشمل فيما يخص هذا الأمر يقول الراغب:" (أنّى) للبحث عن الحال والمكان ولذلك قيل: هو بمعنى (كيف) و(أين) لتضمنه معناها..."[٥]، والتقديم فيها جعل التعجب منصباً على الحال وهو أبلغ من كونه على الفعل كما سبق بيان ذلك ، وأكثر شواهد (أنى) كانت حول هذا المعنى إما نصاً وإما معنى[٦].

---

[١] – انظر التبيان ٤٥٤/١ ، والدر المصون ٣٧٨/٤ ، وإعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٥٣٤/٢ .

[٢] – التحرير والتنوير ٢٨٧/٦ .

[٣] – الكشاف ٦٦٥/١ .

[٤] – روح المعاني المجلد الثالث الجزء السادس ٢٠٩ .

[٥] – المفردات ٩٥ .

[٦] – انظر مثلاً ٩٥ الأنعام ، و٣٠ التوبة ، و٣٢،٣٤ يونس، و٦١ العنكبوت ،و ٣ فاطر ، و ٦ الزمر ، و ٦٢، ٦٩ غافر ، و ٨٧ الزخرف و ٤ المنافقون .

ب- ما كان تقديم الحال فيه جائزاً .

لقد رأينا فيما سبق أن (كيف) تأتي لإنكار الحال بينما (الهمزة) تكون لإنكار الفعل ، ولعل هذا يكون مقبولاً فيما كان الأمر فيه بين (كيف ، والهمزة) ، لكن هناك مواقع تأتي فيها الهمزة الإنكارية داخلة على الحال ذاتها لا على الفعل كما سبق ومع هذا فهي تختلف عن (كيف) ؛ لأن (كيف) هي ذاتها (الحال) ، وهي أداة الإنكار وليس كذلك (الهمزة)؛ لذا كانت الحال (كيف) واجبة التقديم، أما الحال بعد الهمزة فليست كذلك بل هي جائزة، ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [١١٤ الأنعام] .

فـــ(غير) هنا محتملة للمفعولية لـــ(ابتغى) إن كان (حكماً) هو الحال، " وإن كان المفعول هو (حكماً) فـــ(غير) حال من (حكماً) مقدم عليه "[(١)] ، وعلى القول بالحالية نجد أن (غير) تقدمت على صاحبها (حكماً) وعاملها (ابتغى) ، فما سر ذلك ؟.

يجلى ذلك عبد القاهر في كلامه عن تقديم (غير) في مواضع تحتمل الحالية كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [١٤ الأنعام][(٢)]،فيذكر أن في التقديم تهيئة لانصباب الإنكار على المقدم فيقول:"ومن أجل ذلك قدم(غير)...وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما تعلم أنه لا يكون لو أخر فقيل: قل أأتخذ غير الله ولياً؛... وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك:أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً،و:أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك،و:أيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك؟!،ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل: أأتخذ غير الله ولياً؛وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط،ولا يزيد على ذلك، فاعرفه "[(٣)]،ويذكر ابن عاشور أن هذا هو "شأن همزة الاستفهام بجميع استعمالاته أن يليها جزء الجملة المستفهم عنه كالمنكر هنا،فالتقديم للاهتمام به،...قال الطيبي:"...كل تقديم إما للاهتمام أو لجواب إنكار " [(٤)]، ولو أخرت الحال وقرّت في مكانها لكانت صفة

---

(١) – التبيان ٥٣٣/١، وانظر البحر المحيط ٦٢٧/٤ ، وإعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٢٠٣/٣ وإنما قدمنا هذه الآية مع وجود غيرها قبلها ؛ لأنها أظهر في الحالية وأدل .

(٢) – انظر التبيان ٤٨٤/١ وعموماً فجل شواهد (غير) مع الهمزة هي كذلك .

(٣) – دلائل الإعجاز ١٢١،١٢٢ .

(٤) – التحرير والتنوير ١٥٦،١٥٧/٧ ، وكلامه هنا عن آية الأنعام ١٤ .

أو لما وقع عليها الإنكار مع أنها هي محطة،ولو قيل:أأبتغي غير الله حكماً لاختلت الحالية،ولكان الإنكار للفعل ، وليس الأمر كذلك؛لأن الإنكار ليس معنياً بفعل الابتغاء لذاته بل أن يكون المبتغى غير الله .

ومما جاء فيه الحال مقدماً بعد الهمزة قوله تعـــــالى : ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ [٨٦ الصافات] ، فقد أجاز الزمخشري أن تكون (إفكاً) حالاً: " بمعنى: أتريدون آلهة من دون الله آفكين "[١] ، وهذا يعني أن الحال هي الأهم حيث قدمت على الصاحب والعامل، وقد نص الزمخشري على أن التقديم للعناية ؛ " لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم "[٢] .

ومن الشواهد التي تقدمت فيها الحال على صاحبها وعاملها مع غير (الهمزة) قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ [٥١ ص]، فقد ذكر العكبري أن (متكئين) تصلح أن تكون حالاً من المجرور في (لهم) في قوله تعالى:﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾ [٥٠ ص] أو (من المتقين) ، " وقيل: هو حال من الضمير في (يدعون) وقد تقدم على العامل فيه"[٣]، وقد نقل الألوسي ما يرجح الأخير فقال: "وقال بعض الأجلة ، الأظهر أن (متكئين) حال من ضمير (يدعون) قدم رعاية للفاصلة، و(يدعون) استئناف لبيان حالهم ، كأنه قيل ما حالهم بعد دخولها؟ فقيل: يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب متكئين..."[٤].

وليس القول برعاية الفاصلة هو المقنع في مثل هذا الأسلوب الرفيع وإن كنا لاننكره ، لكن وراءه من السر ما هو فوق ذلك ؛ فإننا لو تأملنا هذه الآية وما أحاط بها لوجدنا التكريم فيها للمتقين ظاهراً في جنات النعيم ، فهي لهم مفتحة الأبواب ، وحولهم الحور العين في أجمل صورة وأبهى حلة ، هذا في المقامة والسكن ، أما الأكل والشرب ، فمعلوم أنه لا يهنأ الإنسان بهما إلا على وجه الراحة والاستقرار ؛ لذا قُدِّم ذكر أبرز مَظْهَرٍ لراحتهم تلك، فقال مبيناً حالهم: (متكئين)، وهي حال تدل على عظيم نعيمهم وكامل

---

[١] - الكشاف ٤٩/٤ .

[٢] - الكشاف ٤٩/٤ .

[٣] - البيان ١١٠٣/٢ ، وانظر الدر المصون ٣٨٦/٩ .

[٤] - روح المعاني المجلد الثاني عشر الجزء الثالث والعشرون ٢١٣ .

هنائهم وتكريمهم ، فهم يدعون بالفاكهة والشراب حال اتكائهم فعل الملوك على عروشهم ، وذلك من تمام سرورهم وحبورهم وإكرامهم لذا قال الله عنه: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [٥٣ ص] تشويقاً لذلك النعيم وحضاً للسير على منهاج الله للوصول إلى تلك المنازل العالية لا حرمنا الله منها .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [٧ القمر] ، فقوله جل ذكره:" (خشعاً أبصارهم) حال من فاعل (يخرجون)، أي: يخرجون (من الأجداث) أي القبور أذلة أبصارهم من شدة الهول ... وقدم الحال لتصرف العامل والاهتمام..."[(١)] .

هذان تعليلان لتقدم الحال أحدهما : صناعي وهو : (التصرف) ، والثاني : بياني وهو (الاهتمام) ، والموقف كله يوحي برهبة عظيمة فقد جاءت في هذه الآيات المكتنفة لهذه الحال سبعة مظاهر لأهوال ذلك اليوم[(٢)] ؛ لذا جاءت الحال هنا مقدمة تمشياً مع تصوير الأهوال فالعناية هنا بتصوير ذلة الخلق ، فكان ذكر الحالة الدالة على ذلك هو المهم فقدمت الحال على الصاحب والعامل فقيل: (خشعاً أبصارهم) لأجل ذلك ، وفي تقديم (خشعاً) أو (خاشعة) تصوير لعظم الذهول وشدة الوجل حتى إن الإبصار لم تبق لها إلا صفة الخشوع والذلة فهي أظهر سماتها وأحوالها لذا قدمت ؛ لأنها محط العناية فبها يظهر كمال الخوف والوجل ، حتى كأن كل صفة للأبصار وكل حالة يخرجون عليها قد انمحت فلم تبق إلا هذه الحالة المؤذنة بالخوف والذهول معاً[(٣)] .

وهناك شواهد أخرى جاءت الحال فيها مقدمة على الصاحب والعامل وهي جار ومجرور مثل قوله تعالى:﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [١٠٥ الإسراء]، فقوله جل ذكره:(بالحق) في الموضعين (حال) من ضمير القرآن[(٤)] ، وهو بهذا متقدم على الصاحب وعلى العامل الذي هو (أنزلناه) و(نزل) ، ويبدو أن التقديم هنا للقصر إتماماً للتحدى في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [٨٨ الإسراء] ورداً على

---

(١) – روح المعاني المجلد الرابع عشر الجزء السابع والعشرون ٨٠ .

(٢) – انظرها معدودة عند ابن عاشور في التحرير والتنوير ١٧٧/٢٧ .

(٣) – انظر من بلاغة القرآن ١١٣ .

(٤) – انظر التبيان ٨٣٥/٢ ، وروح المعاني المجلد الثامن الجزء الخامس عشر ١٨٧ .

المنكرين المبطلين الزاعمين أنه ليس من عند الله، ولعل هذا ما يفهم من قول البقاعي:" (بالحق)... لا بغيره... (وبالحق) لا بغيره (نزل) "[١]، وهذا ما صرح به الطاهر ابن عاشور بعد قوله بالحالية حيث يقول: "وتقديم الجار والمجرور في الموضعين على عامله للقصر رداً على المنكرين الذين ادعوا أنه أساطير الأولين، أو سحر مبين ، أو نحو ذلك "[٢] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْـلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ [٦٦ المؤمنون] ، فقوله جل ذكره: (على أعقابكم) " حال من الفاعل في (تنكصون) "[٣] ، وقد جاءت هذه الحال غير مقدمة مع الفعل ذاته (نكص) في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [٤٨ الأنفال] ، ولا يوجد في القرآن غير هذين الموضعين مع الفعل (نكص) فما سر التقديم في آية (المؤمنون) ؟ .

إن المراد فيها هو بيان ديدن الكفار في الإعراض عن القرآن إذا تلي عليهم ، ويشهد لهذا قوله تعالى (كنتم) أي: "كوناً هو كالجبلة"[٤]، وقال ابن عاشور: "وذكر فعل: (كنتم) للدلالة على أن ذلك شأنهم ، وذكر المضارع للدلالة على التكرر ، فذلك خُلق منهم معاد مكرور"[٥]؛ لهذا كله جاءت الحال الحاكية لحالهم المصورة لما كانوا عليه مقدَّمة لتأكيد تلبسهم بتلك الحال، والموقف كما نرى موقف توكيد ، ومن أسرار التقديم التوكيد ، كما أن في تقديم الحال (على أعقابكم) إشارة إلى شدة التعنيف والتوبيخ لهم لما يشعر به تركيب الحال من شدة الإعراض والتولي ، وفي ذلك أيضاً تذكير لهم بحالتهم المستديمة مع كتاب الله الخالد الذي فيه هدايتهم لو أذعنوا له ، أما آية الأنفال ففيها حكاية لحادثة وقعت ، وليس فيها تكرار ولا معاودة ، ولا يراد فيها التأكيد أو الرد ؛ لذا جاءت على الأصل وهو التأخير فقيل: (نكص على عقبيه) .

يقول الدكتور محمد يسري زعير ختاماً لحديثه عن تقديم الحال على عاملها

---

[١] - نظم الدرر ٥٣١/١١ .
[٢] - التحرير والتنوير ٢٣٠/١٥ .
[٣] - التبيان ٩٥٨/٢ .
[٤] - نظم الدرر ١٦٣/١٣ .
[٥] - التحرير والتنوير ٨٥/١٨ .

وصاحبها: " إن المقصود في كل هذه الأمثال[1] هو المبادرة بإعطاء الصفة بادئ ذي بدء ؛ لأنها مناط العناية ومحل الاهتمام ، وإذا كان هذا هو المعنى المراد فلا مناص من تقديم الحال هنا ؛ لأننا حققنا ... أن المعنى الذي يقصد أولاً يجب تقديم ما يدل عليه من اللفظ ؛ لأن التعبير هو صورة التفكير ومرآته التي ينعكس عليها"[2] .

ولعله يظهر مما سبق أن تقديم الحال عموماً ليس شرطاً أن يكون للتخصيص كما هو مفهوم قول العلوى عن الحال : " إذا قدمته فقلت : جاء ضاحكاً زيد ، فإنه يفيد أنه جاء على هذه الصفة مختصاً بها من غيرها من سائر صفاته، بخلاف ما لو قلت : جاء زيد راكباً، فإنه كما يجوز أن يجيء على هذه الصفة فإنه يجوز مجيئه على غيرها من الصفات فافترقا " [3] ، وقد أورد ابن الأثير كلاماً قريباً من هذا [4] ، وقد تعقبه ابن أبي الحديد فقال:" وأي دلالة في تقديم الحال على انتفاء غيرها، هذا من لغو القول"[5]،ولسنا مع العلوى ولا ابن الأثير في إطلاقه،ولسنا كذلك مع ابن أبي الحديد في رده المجمل، بل قد يكون تقديم الحال للاختصاص بمعونة السياق والقرائن ، وقد يكون للاهتمام والعناية ، وقد يكون للتوكيد والتقوية، وقد يكون للتشويق، كما ظهر لنا من الشواهد السابقة .

ونختم الحديث عن موضوع التقديم هذا بقول الدكتور أحمد بدوى: " إذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض، فقد حرصت الجملة في القرآن على أن يكون هذا التقديم مشيراً إلى مغزى، دالاً على هدف، ... يتقدم ...فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير، فيتقدم مثلاً بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذي يدور عليه الحديث وحده، فيكون هو المقصود والمعني ، والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه ، فلا جرم أن يتقدم في الجملة كما تقدم في النفس "[6] .

---

[1] - يشير إلى شواهد ذكرها مثل:قوله تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ ﴾ [٧ القمر] ، وقولهم : شتى تؤوب الحلبة، وهو مثل ((يضرب في اختلاف الناس وتفرقهم في الأخلاق))، مجمع الأمثال ٣٥٨/١.

[2] - فصل المقال في دراسة أساليب الحال ١٩٢ .

[3] - الطراز ٧٢،٧٣/٢ .

[4] - انظره في المثل السائر ٢٤٨/٢.

[5] - الفلك الدائر على المثل السائر٢٤٣.

[6] - من بلاغة القرآن الكريم ١١٢ .

ثانياً : التـأخير .

الأصل في الحال أن تأتي بعد عاملها وصاحبها، وعلى هذا جاءت جل شواهد الحال في الذكر الحكيم ، ولكن هذا الأصل قد يعرض له ما يجعله واجباً لا محيد عنه ، وذلك كما في الأحوال الآتية :

١- أن يكون العامل فعلاً جامداً مثل: ما أحسنه مقبلاً ؛ وذلك لأن العامل هنا غير متصرف في نفسه ، فلا يتصرف في معموله بالتقديم عليه .

٢- أن يكون مصدراً مقدراً بالفعل وحرف مصدري مثل:أعجبنى اعتكاف أخيك صائماً.

٣- أن يكون العامل صفة تشبه الفعل الجامد (وهو اسم التفضيل) مثل: هذا أفصح الناس خطيباً ، وإنما كان اسم التفضيل كذلك؛ لأنه لا يقبل العلامات الفرعية في أكثر أحواله، كالتأنيث والتثنية والجمع ، فانحط عن درجة المشتقات الأصلية ، واقترب من الجامد .

٤- أن يكون العامل لفظاً مضمناً معنى الفعل دون حروفه نحو:﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٥٢ النمل] ومثل(كأن) و (ليت) ، ويستثنى من ذلك شبه الجملة .

٥- أن يكون العامل اسم فعل نحو: نَزَالِ مسرعاً .

٦- أن يكون عاملاً يصح معه ذلك لكن عرض له ما يمنع تقديم الحال معه مثل لام الابتداء،ولام القسم،فإن ما في حيزهما لا يتقدم عليهما نحو:لأصبر محتسباً ، ولأعتكفن صائماً[1].

٧- أن تكون الحال جملة مصدرة بواو الحال فلا يقال: والشمس طالعة جئتك ، وذلك مراعاة لأصل الواو وهو العطف[2] .

٨-أن تكون الحال محصورة نحو:﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ ﴾ [٥٦ الكهف].

---

[1] - انظر كل هذا في أوضح المسالك ٢/٣٣٠ وما بعدها .

[2] - انظر شرح الكافية ٢/٢٧ .

وهذه الموانع وما كان في معناها لا وجود لها في الأسلوب القرآني باستثناء بعض أنواع العامل المعنوي: (كاسم الإشارة) ، والجملة المصدر بالواو ،والحال المحصورة ؛ لذلك سنقتصر على هذه الثلاثة في إيراد بعض الشواهد التي يلزم فيها تأخير الحال، على أننا نوافق الدكتور محمد يسرى زعير إلى حد ما في قوله:" الحال تتأخر عن صاحبها؛ لأنها صفة ، والصفة لا تتقدم على الموصوف .إلا إذا اقتضى المعنى ذلك ، ولا داعي حينئذ لوصف التقديم أو التأخير بالوجوب أو الجواز ؛ لأن الكلمة توضع حيث يطلبها المعنى"[1]، ومما يؤيد هذا ما رأيناه من شواهد سبقت، جاءت الحال في بعضها مؤخرة على الأصل ، وفي بعضها تقدمت ، لاختلاف الغرض والمقام ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [٤٨ الأنفال] وقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ [٦٦ المؤمنون]، فجاءت الحال (الجار والمجرور) مرة مؤخرة ومرة مقدمة على حسب المعنى، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [١٠٥ الإسراء] فهي مقدمة، وجاءت مؤخرة في قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [٣ آل عمران] .

وإذا كان تأخير الحال عن صاحبها هو الأصل، فإن ذلك لا يعني إهمال بيان دقة اللفظة القرآنية، ودلالتها الموقعية بغض النظر عن وجوب أو جواز، ولنتأمل هذه الشواهد التي جاءت فيها الحال مؤخرة على الأصل كيف أدت فيها الحال المعنى أكمل تأدية؛وذلك لأن الموقع قد يتطلب كلمة واسعة المدلول ، أو ذات جرس خاص ، أو لها مدلول معين، ولعلنا نجد سعة المدلول -مثلاً-واضحة في الحال(طيبين) في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٣٢ النحل] ، فـ" طيبين حال من مفعول تتوفاهم "[2] ، وهي كلمة لذيذة في السمع واسعة في المدلول، بعيدة المرامي، وارفة الظلال ، فصيغتها تشير إلى المبالغة في الاتصاف بهذا الوصف(الطيب)، الذي هو عنوان محاسن الأخلاق وكمالات النفوس، وهو وصف

[1] - فصل المقال في دراسة أساليب الحال ١٩٣ .

[2] البحر المحيط ٥٢٧/٦ .

للمحسوسات والمعاني و النفسيات[1]، أي تتوفاهم الملائكة "طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي "[2] صالحي الأحوال مطمئني الأنفس مستعدين للموت [3] .

إن هذه الكلمة بكل ظلالها ومدلولاتها قد جاءت كالدرة في موضعها ؛ لأنها تجمع من الأوصاف التي لا تليق إلا بالمؤمنين ما لا تجمعه كلمة أخرى مكانها ، فماذا عسانا نقول غيرها ؟ أنقول : تتوفاهم مؤمنين ؟، هي تدل على الإيمان وزيادة ، أم تتوفاهم : صالحين؟ هي تدل على الصلاح وزيادة، يقول الراغب:" والطِّيِّبُ من الإنسان من تَعَرَّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال،وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال وإياهم قصد بقوله:﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾"[4].

وقد نبه الرازي إلى شمولية هذه الكلمة وعمقها بكلام واف فقال: "(طيبين) كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة؛وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة مبرئين عن الأخلاق المذمومة ..."[5].

إن اختيار هذه الكلمة في هذا الموطن (التوفي) الذي ترتعد لذكره الفرائص لهو غاية الإعجاز، فما من موطن يحتاج فيه الإنسان الطمأنة والتسكين مثل ذلك الموطن، فجاءت هذه الحال (طيبين) بلسماً شافياً ، وموردا نميراً عذباً ، يروى الظمأ ويشيع الطمأنينة في النفوس الوجلة، ويسكب عليها شآبيب السكينة، وإن إظهار توفي الملائكة للمؤمنين على هذه الحال لهو من أعلى درجات المدح لهم والرضى عنهم ، وذلك ما يسعى إليه المؤمنون وتلك أولى بشائرهم ، فهل هناك كلمة يمكن أن تقوم مقام (طيبين) لتنشر كل هذه الظلال ؟ ! .

ولقائل أن يقول فلم جاء وصفهم بالطيبة عند دخول الجنة بالفعل (طبتم) في قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ

---

[1] انظر التحرير والتنوير ١٤٤/١٤ .

[2] الكشاف ٦٠٨/٢ .

[3] انظر البحر المحيط ٥٢٧/٦ ، والتحرير والتنوير ١٤٤/١٤ .

[4] المفردات مادة طيب ٥٢٧ .

[5] مفاتيح الغيب ٢١/٢٠ .

أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾ [٧٣ الزمر] ، و لم تأت مبينة لحالهم كما في آية النحل فيقال: سلام عليكم فادخلوها طيبين ؟ .

نقول الفارق بين الموقفين بين، فوصفهم بالطيب حال التوفي هو ما يروي ظمأ نفوسهم، ويُسكّن روع قلوبهم فإن ساعة الموت رهيبة، فناسب الثناء عليهم بما يشيع السكينة في قلوبهم عند تلك الساعة، فلما ظفروا بالمراد ونالوا ما تفضل الله به عليهم ناسب أن يُعَبَّر عن الطيب- الذي هو وصفهم المصاحب لهم - بالفعل الماضي للتدليل على تحقق وقوعه في الوقت الذي كانوا فيه في أعلى درجات الاحتياج إليه وهو ساعة الموت، وكان بيان حال الخلود لهم في الجنة أعظم شأناً بعد بعثهم وحسابهم ؛ لأنه-أي الخلود- هو الذي تتطلع إليه النفوس في ذلك الموقف، فجاء إتماماً لغاية النعيم الذي أعد لهم فقيل: (خالدين).

وبتتبع هذا الوصف في القرآن- حتى في غير الحال- لا نجده إلا في مواقع المدح والثناء، قال تعالى:﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [٣٨ آل عمران] ، و قال تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ [٢٦النور]، وقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [٢٤إبراهيم] ، وقال تعالى:﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [١٠فاطر] ، ومن الملحوظ كثر وقوع وصف(الطِّيبْ) في مقابل (الخُبْث)[1] .

ومن شواهد تطلب الموقع لحال معينة بسبب خصائص التركيب قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [٨٥ ،٨٦مريم]، فالمقطع الأول يصور حال المتقين وقدومهم على ربهم يوم القيامة ، ونظرة واحدة إلى السياق نجد مظاهر التعظيم والتكريم والرحمة بارزة ، فقد سمى الله ذلك اليوم بـــ(يوم حشرهم إلى الرحمن) اهتماماً بذلك الحدث العظيم ، إنه حدث يستحق الإظهار والإشهار، ومن مدحهم نعتهم بوصف التقوى ، ومن تقديرهم ذكر المكرِّم لهم ووصفه بصفة الرحمن: (إلى الرحمن) تكريماً لهم واحتفاءً بهم وتسكيناً لقلوبهم ، يقول البقاعي: " فذَكَر

[1] انظر غير ما ذكر مثلاً الأنفال ٣٧ ، النساء ٢ ، الأعراف ٥٨ .

الاسم الدال على عموم الرحمة وكرره في هذه السورة تكريراً دل على ما فهمته" [1]، ثم جاءت الحال (وفداً) بجرسها الهادئ، ومدلولها البعيد ، وإيحائها الظاهر بالتكريم والاحتفاء إتماماً لما سبقها ، وختاماً رائعاً لمظاهر التكريم الإلهي للمتقين فأصابت المقتل موقعاً ودلالة ؛ ذلك أنه مما تعارف عليه العرب في قدوم بعضهم على بعض مظهر الوفود التي تكون محطّ العناية والتكريم ، وهذا ما تشير إليه هذه الحال (وفداً)، "أي القادمين في إسراع ورفعة ... كما تقدم الوفود على الملوك فيكونون في الضيافة والكرامة"[2]، "وعن علي رضي الله عنه: ما يحشرون والله على أرجلهم ولكنهم على نوق رحالها ذهب ، وعلى نجائب سروجها ياقوت"[3].

وفي ذكر وفود المتقين على ربهم على تلك الحال من الكرامة والرفعة ما يشوق إلى سلوك سبيلهم واتباع آثارهم ، وإن مناسبة لفظ (وفداً) للفظ (الرحمن) غير خافية في هذا السياق التكريمي، فالكلمتان متجانستان ، فالموقع يطلب هذه اللفظة ، وهي تطلب ذلك الموقع ليتم التناسب ويكتمل التناسق، يقول الطاهر بن عاشور: "وذكر صفة (الرحمن) هنا واضحة المناسبة للوفد"[4]والعكس صحيح ؛ لأن هذه الحال ما كان ليصلح مكانها لفظ آخر مثل:(جمعاً) أو (مجتمعين) مما يكون عاماً وقد يوهم خلاف المراد ؛ إذ الحشر هو الجمع مطلقاً ويكون في الخير والشر "ولذلك أتبع فعل (نحشر) بقيد (وفداً) أي حشر الوفود إلى الملوك ؛ فإن الوفود يكونون مكرمين"[5].

وكذلك الأمر في (وِرْداً)المصورة لحال المجرمين فالمناسبة ظاهرة للسياق مما يستدعي ارتباط تلك اللفظة مع بقية أجزاء التركيب في أن المراد العام هو بيان عظيم ذلة المجرمين، وذلك ظاهر في كلمة (نسوق)؛ لأن السوق هو تسيير الأنعام قُدَّام رعاها [6] ، وفي كلمة (المجرمين) فهو وصف ذم وتقبيح ، وفيه نعت لهم بشائن عملهم وهو الإجرام ، وفي (إلى

---

[1] نظم الدرر ١٢/٢٤٧ .
[2] نظم الدرر ١٢/٢٤٧ .
[3] أورده الزمخشري في الكشاف ٣/٤٢، وهو في مسند الإمام أحمد ١/١٥٥.
[4] التحرير والتنوير ١٦/١٦٨ .
[5] التحرير والتنوير ١٦/١٦٨ .
[6] انظر التحرير والتنوير ١٦/١٦٨ .

جهنم) ، فمع المتقين يحشرون إلى الرحمن وهنا إلى جهنم وشتان ما بين النهايتين نهاية التكريم والرحمة، ونهاية الذلة والعذاب، وأخيراً في كلمة (وِرْداً) التي أشارت بمدلولها إلى التهكم بهم ، والسخرية منهم فإن الوِرد أصله قصد الماء ، وإنما استعمل في النار على سبيل الفظاعة [1].

ولم تكن كلمة أخرى لتقوم مقام (وِرْداً) فتؤدي مدلولها، وتحل موقعها، ولو بحثنا عن أقرب الكلمات إليها لكانت:(عطاشاً) ومع هذا فالموقع يطلب(وِرْداً) المناسبة لكل ما ذكر من السوق الخاص بالأنعام، وإلى جهنم الحارة المقتضية العطش وطلب الماء، إن (عطاشاً) لا تغني عن (ورداً) ؛ لأنه ليس فيها دلالة على طلب الماء، إنما هي تدل على الحاجة إليه فحسب، أما (وِرْداً) فتدل على هذا وزيادة ؛ لأن (الورد) هو قصد الماء فهي تقتضي الحضور إليه والشروع فيه[2]،فالمجرمون الظامئون المساقون كالأغنام الظامئة يقصدون جهنم ليرووا عطشهم، وهذا يدل أنهم عطاش عطشاً شديداً يتطلب البحث عما يرويه ويسد نهمته ، ولكن ليس لهم إلا النار،يقول الزمخشري: "وذَكَر الكافرين بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف، كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء"[3] .

وهذه الشواهد كلها للمفرد ، وللجملة الحالية من الدلالة الموقعية مثل ما للمفرد إضافة إلى مدلولها الخاص الذي سبق بيانه في الفصل الأول[4]، ولعل أثر الموقع يتضح في مثل قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [٢٣ القصص]، إن الجملة هنا –والاسمية خاصة– لتؤدي المعنى أكمل تأدية ، ففيها تعليل كامل لوضعهما الذي استنكره موسى.

وقد يكون الموقع للمضارع فلا يصلح مكانه الماضي وقد يكون العكس ، ولننظر في مجموعة من الشواهد وأثر موقع الحال فيها، من ذلك قوله تعالى:﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [١٦٦ البقرة]، فقوله جل ذكره:

---

(1) انظر المفردات مادة ورد ٨٦٥، وانظر : التصوير الساخر في القرآن الكريم ٢٣٥.

(2) انظر المفردات مادة ورد ٨٦٥ .

(3) الكشاف ٣/ ٤٣ .

(4) انظر ص ٨٧ وما بعدها من هذا البحث.

(ورأوا العذاب) جملة حالية، وما بعدها معطوف عليها أو على (تبرأ)[1] ، " أي تبرأوا من حال رؤيتهم العذاب وتَقَطُّعِ الأسباب بهم ؛ لأنها حالة يزداد فيها الخوف والتنصل مما كان سبباً في العذاب"[2] ، ويقول ابن عاشور عن موقع هذه الحال: "فموقع الحال هنا حسن جداً وهي مغنية عن الاستئناف الذي يقتضيه المقام ؛ لأن السامع يتساءل عن موجب هذا التبرؤ فإنه غريب ، فيقال: رأوا العذاب ، فلما أريد تصوير الحال وتهويل الاستفظاع عدل عن الاستئناف إلى الحال قضاء لحق التهويل واكتفاءً عن الاستئناف؛ لأن موقعهما متقارب، ولا تكون معطوفة على جملة (تبرأ) ؛ لأن معناها حينئذ يصير إعادة لمعنى جملة: (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب) فتصير مجرد تأكيد لها ويفوت ما ذكرناه من الخصوصيات "[3] .

ومما جاءت فيه الجملة الفعلية موحية بموقعها قوله تعالى :﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [٩ ، ١٠ الدخان] فـــ " جملة (يلعبون) حال من ضميرهم، أي اشتغلوا عن النظر في الأدلة التي تزيل الشك عنهم، وتجعلهم مهتدين بالهزء واللعب في تلقي دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم،فكأن [4] انغماسهم في الشك مقارناً لحالهم من اللعب، ولهذه الجملة الحالية موقع عظيم إذْ أُفيد أن الشك حامل لهم على الهزء واللعب، وأن الشغل باللعب يزيد الشك فيهم رسوخاً بخلاف ما لوقيل : بل هم في شك ولعب ، فتفطّنْ "[5] .

وهذا-كما لا يخفى- تحليل في غاية الحسن ظهر به ما للحال من دلالة في الأسلوب القرآني،ومما يتضح فيه تأثير الموقع أيضاً قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [٧ الصف].

(١) – انظر الكشاف ٢/٢١٢ .
(٢) – البحر المحيط ٢/٩١ .
(٣) – التحرير والتنوير ٢/٩٧ .
(٤) لعل الصحيح: (فكان) بلا همز ؛ لأن المعنى عليها أظهر ولنصب خبرها (مقارناً) .
(٥) – التحرير والتنوير ٢٥ /٢٨٥ .

يقول ابن عاشور :" وقد كان لجملة الحال: (وهو يدعى إلى الإسلام) موقع متين هنا، أي: فعلوا ذلك في حين أن الرسول يدعوهم إلى ما فيه خيرهم فعاضوا الشكر بالكفر "[1] .

ومما جاء فيه إيثار الحال على أحد أركان الجملة، ما ورد في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ ﴾ [٤١، ٤٢ فصلت] ، فلنا أن ننظر إلى موقع هذه الحال: (وإنه لكتاب عزيز) كيف جاءت قبل أن يأتي الخبر، على القول بأنه جملة: (أولئك ينادون من مكان بعيد) أو(لا يأتيه الباطل)، أو كيف حذف الخبر وجلبت الحال على القول بأن الخبر محذوف؟[2] إنه موقع له دلالته، فهذه الحال من القرآن المؤكَّدة بـ(إنّ) و(اللام) واسمية الجملة لابد أن تكون لصيقة بذكر خبر كفر المشركين بالقرآن ، لا بد أن تخلفه مباشرة لما في ذلك من التشنيع عليهم وإظهار حماقتهم ، يقول ابن عاشور مبرزاً هذا المعنى:" وفي إجراء هذه الأوصاف إيماء إلى حماقة الذين كفروا بهذا القرآن وسفاهة آرائهم إذ فرطوا فيه، ففرطوا في أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة؛ ولذلك جيء بجملة الحال من الكتاب عقب ذكر تكذيبهم إياه فقال :وإنه لكتاب عزيز "[3] .

وقريب من هذا وقوع الحال بعد القول وقبل المقول اهتماماً بها وإظهاراً لمدلولها ، وعلى ذلك جاء قوله تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [١٦٨ آل عمران] ، فقوله تعالى:﴿ وَقَعَدُواْ ﴾ جملة حالية [4] ، والكلام بغير هذه الحال يمكن أن يكون :قالوا لإخوانهم لو أطاعونا ما قتلوا ، فما سر مجيئها هنا ، وفي هذا الموقع خاصة ؟.

ذكر ابن عاشور أن جملة (وقعدوا) " حال معترضة "[5] ، فهي إذاً واقعة بين متلازمين ، والذي يظهر - والله أعلم - أن المراد بها -وبخاصةفي هذا الموقع- إظهار شدة تخذيلهم للمؤمنين حتى إنهم سبقوا القول بالعمل ، والفعل تأثيره أعظم من القول ،

---

[1] - التحرير والتنوير ١٨٨/٢٨ .

[2]- انظر البحر المحيط ٣١٠/٩،٣٠٩.

[3] - التحرير والتنوير ٣٠٩/٢٤.

[4] - انظر مفاتيح الغيب ٧١/٩ ، والبحر المحيط ٤٢٦/٣ .

[5] - التحرير والتنوير ١٦٤/٤ .

ولعل هذا معنى ما أشار إليه الألوسي فيما نقله من أن الحال هنا " لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة "[1] ألا وهو القعود ، ولقائل أن يقول ، لو تغير موقع هذه الكلمة ، وكان قبل القول فقيل : الذين قعدوا وقالوا لإخوانهم لو أطاعونا ما الذي سيتغير في المعنى ؟.

الجواب: إن المعنى سيتغير كثيراً ، وتكون (قعدوا وقالوا) من صلة الموصول ، ولا يكون للحال وجود ، ويكون القعود حاصل قبل القول لزوماً ، والقول مُنْشَأٌ بعده ، أما ما عليه النظم الكريم فيدل على أن قولهم ذاك كان في حالة قعودهم، أي مصاحباً له؛ لذا جاء القعود بعد القول على صورة الحالية ، وهذا ما يشعر به حذف (قد) هنـــــا ؛ لأن (قد) تؤكد حصول الفعل في الماضي ، أما ما خلت منه فيدل على المقارنة للفعل، وإنما صيغ على صورة الماضي تدليلاً على أن ذلك حاصل كأنه ماضٍ ، أو لبيان سرعة ذاك وتأكيده ، وقد بيان بعض مع الجملة[2]، وموقع الحال هنا يُلمِحُ إلى أن قولهم - كما قلنا - مصاحب لقعودهم وهذا أعظم في الاقتناع باقتراحهم، وفي تثبيط العزائم وإشاعة الخذلان؛ لأن إخوانهم يرون مثلاً يقتدون به .

ولهذا شواهد مثل قوله تعالى:﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [٤٢ هود]وقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [٧١ يوسف] ، ويدخل في هذا كل الأحوال التي جاءت في مواطن الاحتراس ، والتتميم، وما قلناه عن دلالة الموقع في الحال التي جاءت على الأصل ينطبق على ما قيل فيه بالوجوب؛ لأنه ما صيغ على ذلك الوجه إلا لأنه يؤدي المعنى أكمل تأدية ؛ لأنه يمكن أن يصاغ بشكل آخر فينتفي الوجوب المذكور ، لهذا لا بد من البحث -هنا- في سر التأخير لا في كل حال، ولكن فيما تأخرت في موقع وتقدمت في آخر ، أو ما التزمت فيه التأخير، وذلك لأنه من الغرابة بحيث يُسأل عن سره، ومن هذا المنطلق حرصنا على عرض شواهد لكل هذا، فأما ما تقدم في موضع وتأخر في آخر فقد سبق بعضه ، وسيأتي شيء منه مع مبحث التعدد[3] ، وأما ما كان التأخير في على سبيل

---

[1] - روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ١٢٠ .

[2] - انظر ص ١١٢ من هذا البحث.

[3] - انظر ص ٢٦٧ من هذا البحث.

الوجوب فسنقف معه على الشواهد التي تمثل المسائل التي وردت في النظم القرآني، وهي ماكان العامل فيه اسم إشارة ونحوه، أو كانت الحال محصورة ، أو كانت الحال جملة مصدرة بالواو، فمن شواهد اسم الإشارة والحال بعده قوله تعالى:﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [٧٢ هود] ، يقول الزمخشري: "و(شيخاً) نصب بما دل عليه اسم الإشارة "[١] وهو حال [٢]، ويقول الزجاج:"والحال ههنا نصبها من لطيف النحو وغامضه؛ وذلك أنك إذا قلت : هذا زيد قائماً، فإن كنت تقصد أن تخبر من لم يعرف زيداً أنه زيد لم يجز أن تقول: هذا زيد قائماً؛ لأنه يكون زيداً مادام قائماً، فإن زال عن القيام فليس بزيد، وإنما تقول ذاك للذي يعرف زيداً،...والمعنى:انتبه لزيد حال قيامه،وأشير لك إلى زيد حال قيامه..."[٣]، لكن الطيبي لم يرتض هذه القاعدة، وقال عما قرره الزجاج في الآية:"وليس بصحيح فهنا بَعْليته معروفة ، والمقصود بيان شيوخته ، وإلا لزم أن لا يكون بعلها قبل الشيخوخة" [٤] .

ولا أجد لاعتراض الطيبي وجهاً فيما ذكره هنا ، فإن الزجاج قرر أن هذه الحال تأتي حيث يكون الخبر معلوماً، وهو كذلك هنا وهو البعلية ، وهو ما قال به الطيبي نفسه فلا مصادمة، وهذه الحال لا تصلح إلا متأخرة ؛ لأنها مترتبة على مدلول الإشارة والخبر قبلها، ولو سبقته لما فهم المراد؛ وذلك لأن الجملة قبلها مكونة من اسم الإشارة وخبره وهي تقتضي حضور المشار إليه وإلا عدمت فائدتها ، وهذا ما يفهم من تفسير البقاعي لقوله: (هذا): " أي: من هو حاضري "[٥] وكذا الألوسي:" أي:الذي تشاهدونه "[٦] ، وإذا كان هذا هو مقتضى الإشارة فكان لابد من استيفاء المشار إليه حتى تتم الفائدة ، ثم تذكر الحال التي هي المقصود من الكلام، يقول أبو حيان: " ولا يُستغنى عن هذه الحال إذا كان

---

[١] - الكشاف ٤١١/٢ .

[٢] - انظر البحر المحيط ١٨٤/٦ .

[٣] - معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٦٣، وانظر روح المعاني المجلد السادس الجزء الثاني عشر ١٠٠، و إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٣٩٨،٣٩٩/٤ .

[٤] - روح المعاني المجلد السادس الجزء الثاني عشر ١٠٠ .

[٥] - نظم الدرر ٣٣٢/٩ .

[٦] - روح المعاني المجلد السادس الجزء الثاني عشر ١٠٠ .

الخبر معروفاً عند المخاطب ؛ لأن الفائدة إنما تقع بهذه الحال ... "[1]، ونحن ندرك هنا أن المهم هو الحال ، والجملة قبلها معروفة معلومة ومع هذا أخرت ولم تتقدم، والمعهود في مثل هذا أن يتقدم موطن العناية وموضع الاهتمام ، فما سبب التأخير إذاً ؟.

سر هذا -والله أعلم- أن تقديمها لا تظهر معه فائدة ؛ إذ هي مرتبطة بالجملة السابقة لها ، فلا بد أن تكتمل ثم تأتي الحال بعدها، ويبدو أن هذه الخصيصة مرتبطة ببعض أسرار اسم الإشارة فهو لابد أن يشير إلى موجود حاضر، ولو سبقت الحال لكان في ذلك سبق على الإشارة وهذا لا يتلاءم مع مدلول الإشارة، فلا بد من تأخير كل الأجزاء المشار إليها حتى تتوافق المعاني ويتم المقصود، يقول ابن عاشور:"وانتصب (شيخاً) على الحال من اسم الإشارة مبينة للمقصود من الإشارة"[2] ، وكيف تبينه لو قدمت عليه ؟! إنه لن يحصل ذلك إلا بتأخيرها عنه .

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٥٢ النمل]،فـ"قوله تعالى:﴿ خَاوِيَةًۢ ﴾ هو حال من البيوت، والعامل الإشارة"[3]، والكلام في هذه الآية عن منازل قوم صالح (ثمود)، وقد جاءت هذه الآية مقررة لما قبلها من خبر التدمير الذي أصابهم بسبب ذنوبهم ، فبقيت بيوتهم شاهدة عليهم حتى اليوم ، ولأجل هذا جاءت الحال على هذا النمط من التركيب من اسم الإشارة وخبره ثم الحال؛ لأن الحال هنا هي المقصودة بالذكر، لكنها لا يمكن أن تقوم بدون الجملة قبلها ، وبناء الجملة مما بنيت منه للتدليل على وجود هذه البيوت ومثولها للعيان حتى يمكن الإشارة إليها كأنها شاخصة موجودة وهي كذلك في الواقع، وهذا أتم في الاعتبار وأقوى في الحث على الاتعاظ ؛ فإنه إذا قيل: فتلك بيوتهم، وهي ما ثلة للعيان[4] ، تشوقت النفس إلى خبر آخر ، وحالة أخرى ،وفائدة زائدة عن مجرد الإخبار الأول، فتأتي الحال في موقعها كالماء البارد على جوف الظمآن ، وهكذا تتمكن فضل تمكن ؛ لأنها مما

---

[1] - البحر المحيط ١٨٤/٦ .

[2] - التحرير والتنوير ١٢١/١٢ .

[3] - التبيان ١٠١١/٢، وانظر البحر المحيط ٢٥٤/٨ .

[4] - وهي وإن كانت غير شاخصة لبعض المخاطبين إلا أن تحققها وشهرتها تقوم مقام حضورها، فإن ديار ثمود معلومة لجميع لقريش؛ إذ هي في طريقهم إلى الشام ، انظر التحرير والتنوير ٢٥٣/١٩ .

جاء بعد تشوف وتشوق .

أما وجوب تأخير الحال بسبب حصرها بـــ(إلا) ، فنقول فيه ما قلناه سابقاً، إن الوجوب هنا غير ملزم ، بل هو تركيب جاء على هذا النمط لأن المعنى يقتضيه ، وإلا كان يمكن أن يكون غير محصور ويبقى مؤخراً ، فليس الاستثناء هو الذي أخره .

وقد جاءت الحال محصورة بـــ(إلا) فيما يزيد على خمسين شاهداً[(١)] تنوعت فيها الحال إلى مفردة كقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ ﴾ [٤١ آل عمران] وقوله تعالى:﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [١٦الأنفال]، وجاءت جملة فعلية كقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ ﴾ [٤٩ الكهف] ، واسمية كقوله تعالى :﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [٥٤ التوبة] ، وجاءت شبه جملة كما في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [٣٨ الرعد] .

وسنقف مع بعض الشواهد لبيان سر وجود الحال على هذا النمط ، ومدلول وقوعها بعد (إلا) مؤخرة،ومن ذلك قول الله تعالى عن الساعة:﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ ﴾ [١٨٧ الأعراف] ، فـــ(بغتة) هنا حال[(٢)]، وقد جاءت محصورة بـــ (إلا) مؤخرة ، فكانت هي موطن الحصر و لم ترد على هذا النمط إلا في هذا الموقع ، وبقية مواطنها جاءت فيها حالاً غير محصورة مثل قوله تعالى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [٤٠ الأنبياء] [(٣)] ، فما سر مجيء هذه الحال على ما جاءت وما دلالة الحصر فيها؟.

إننا لو تأملنا هذا الموقع خصوصاً لوجدنا فيه الرد القوي على منكري البعث[(٤)] ، والآية بمجموعها مستوعبة لهذا الغرض متمحضة له ؛ لذا جاءت متميزة عن مثيلاتها، ولما

---

(١) – انظر التركيب الاستثنائي في القرآن الكريم دراسة نحوية بلاغية ١٥٤،١٥٥ .

(٢) – انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣٩١/٢ .

(٣) – ومثلها : ٣١ الأنعام، و ١٠٧ يوسف، و ٥٥ الحج ، و ٦٦ الزخرف، وغيرها .

(٤) – انظر التحرير والتنوير ٢٠١/٩، ٢٠٠ .

كان الأمر كذلك من قصد رد إنكار منكري البعث جاءت الجملة بأسلوب الحصر بالنفي والاستثناء الذي هو أعرق وأقوى وأهم طرق الحصر[(١)]، وهو أيضاً اللائق بمقامات الرد والإنكار، وقد جاءت الحال في هذا الأسلوب بعد (إلا) فهي في موقع المحصور فيه، والمراد إثبات وقوع الساعة فجأة، وهذا يمكن أن يكون بغير النفي والاستثناء فما فائدة هذا العدول عن المتبادر ؟ .

إن المراد هنا ليس مجرد الإثبات بل هو إثبات خاص ، إثبات في مقابل إنكار فلا بد أن يكون مماثلاً له في القوة أو زائداً عليه، لذا جاءت الحال مؤخرة محصورة بـــ(إلا) لينصب الحصر فيها وعليهما ، ويتسلط النفي على (الإتيان) الذي يراد تصوير الحال منه ، فكأنه نفى كل إتيان للساعة و لم يثبت لها إلا إتياناً يكون بغتة ، وهذا أقوى وأمتن في بيان اختصاصها بهذه السمة في وقوعها، وهو أهلع لقلوب المنكرين وأعظم في رد استكبارهم، وفي سلوك هذا السبيل، وحصر عدم الإتيان إلا في حالة واحدة هي البغت ما يشير إلى أن العلم بها لا سبيل لأحد إليه ، و إن ادعاه المدعون و قاله المخرصون ، يقول ابن عاشور : " فدل قوله: (لا يأتيكم إلا بغتة) على أن انتفاء إظهار وقتها متوغل في نوعه ، بحيث لا يحصل العلم لأحد بحلولها بالكنه ولا بالإجمال "[(٢)].

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[١٣٢ البقرة]، فكان يمكن أن يقال هنا : موتوا وأنتم مسلمون ،ولكن المعنى سيتغير والمراد سيتبدل، وهذا يعني أن تأخير الحال وحصرها بـــ(إلا)جلب معنى جديداً هو المراد، ويبين هذا ويجليه الزمخشري بقوله:" (فلا تموتن) معناه: فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ،كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته ، فإن قلت: فأي نكتة في إدخال حرف النهي على الصلاة وليس بمنهي عنها ؟ قلت: النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة،فكأنه قال: أنهاك عنها إذا لم تصلها على تلك الحالة

---

(١) – انظر التركيب الاستثنائي في القرآن الكريم ١١٢ .

(٢) – التحرير والتنوير ٩/٢٠٥ .

...وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت ألا يحل فيهم"(١)، ولا شك أن هذه المعاني ما كانت لتكون لو لم تحصر الحال وتؤخر ، ويقع النهي على غيرها(٢)، وما قلناه هنا ملمح ظاهر في بقية شواهد الحال المحصورة المؤخرة ،وقد جاءت في المرتبة الثالثة في الكثرة في سياق الحصر بعد (الخبر) و(المفعول به) في القرآن الكريم، تقول ربيعة العكبري هذه النتيجة: " الحال...من الوظائف التي يقع فيها تركيب الحصر في القرآن ، فتفيد حينئذ تأكيد التخصيص الذي يفيده الحال عامة ؛ لأن الحال كما تواضع عليه أغلب النحاة يتمثل في تخصيص المعرفة وقصر الحالة على صاحبها(٣)،والحصر هو تخصيص أمر بآخر،وقصر الحكم على شيء،أو قصر الشيء على الحكم[فـ]اجتمع التخصيصان في حصر الحال ليفيدا معنى تأكيد التخصيص "(٤) .

ومن الأحوال المؤخرة الجملة المصدرة بالواو ، وشواهدها في القرآن كثيرة ، ولعل ما سيأتي عنها مع الحديث عن الرابط(٥) يكفينا عن إيرادها هنا .

(١) – الكشاف ١/١٩٢،١٩١ ، وانظر أيضاً التحرير والتنوير ١/٧٢٩ .

(٢) – وينظر للمزيد من هذا في: الاستغناء في أحكام الاستثناء ٦٢٨ وما بعدها .

(٣) – هكذا قالت : ولا أظن الأمر على ما فهمت فإن تخصيص المعرفة بالحال ليس المراد به القصر ، بل قطع توهم الشيوع في الأوصاف الواقعة عليه أو المحتمل لها، فقولنا : جاء زيد راكباً ، لا يعني أنه لم يكن ضاحكاً ، ولا مسرعاً فليس المراد حصره في تلك الحال ، ولكن تخصيص واحدة من أحواله ؛ لأنها التي تعني المخاطب أو تهم المتكلم .

(٤) – التركيب الاستثنائي في القرآن الكريم ١٤٤ .

(٥) – انظر ص ٢٨٤ وما بعدها من هذا البحث.

المبحث الثاني: الذكر والحذف .

أولاً: الذكر .

لاشك أن هذا الموضوع وهو ذكر الحال يشمل كل شواهد الحال خلا المحذوفة منها ولسنا نقصد إلى هذا هنا، بل المراد الأحوال التي يُرى أن غيرها يدل عليها فيمكن الاستغناء عنها ومع ذلك ذكرت ، وهذا هو الذكر الذي يقصد إليه البلاغيون ويولونه عنايتهم ، وسنضيف إليها الأحوال الواجبة الذكر، وقد رأيت أن أجعل دراسة هذا الموضوع في المجالات الآتية:

١- الحال المؤكدة .
٢- المسلمات والبدهيات .
٣- ما جاء مكرراً أو مفصّلاً.
٤- الحال الواجبة الذكر .

١- الحال المؤكدة .

ثار حول هذا النوع من الحال جدل في أصل وجوده وفي بعض أفراده ، وسيأتي معنا ذلك بعد استعراض الشواهد القرآنية ليكون كالنتيجة لها ، ولكن لا بد أن نعلم أن مذهب الجمهور هو إثباتها ، ولا داعي للحياد عنه لضعف المبرر ، ولذا نقول إنها ثلاثة أنواع :

أ- حال مؤكدة لعاملها .

ب- حال مؤكدة لصاحبها .

ج- حال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها .

فأما الأول وهو الحال المؤكدة لعاملها فجاءت على صورتين: ما كان التوكيد فيها لفظاً ومعنى، وما كان التوكيد فيها معنى فقط ، فمما جاءت فيه الحال موافقة عاملها لفظاً ومعنى قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [٧٩ النساء] ، فقوله جل ذكره: (رسولاً) حال من (الكاف) في: (أرسلناك) وهي حال مؤكدة[١] ، وبهذا قال أبو حيان وضعّف ما سواه[٢] ، يقول الدكتور عبد الرحمن المطردي: "والملاحظ أن هذه الحال لم تعطنا شيئاً جديداً؛ لأن معناها مستفاد مما قبلها حيث إن الفعل: (أرسلناك) يفهم منه أن صاحب الحال رسول،فهي لم تزد شيئاً سوى تأكيد ذلك المعنى السابق،ومن هنا لزمت صاحبها والتصقت به لا تفارقه لتأكيد عاملها وموافقتها له في اللفظ والمعنى"[٣].

وبتأمل هذا الكلام نجد آخره ينقض أوله ، فالحال أولاً لم تعطنا شيئاً ، وأخيراً أكدت المعنى السابق ، وعجباً ألا يكون التوكيد شيئاً يعبأ به ، ويستحق أن تزاد له الكلمات ، وتكرر من أجله العبارات ، وكيف لا يكون كذلك وصاحب هذا القول له رسالة كاملة في التوكيد ، ولولا أهميته ما أفرده بالبحث ، إن هذه القضية الجوهرية في الحال المؤكدة هي مدار إنكارها ورفضها، وبعض من يحاول التوفيق يقع في التناقض ، إننا نقول وبوضوح : التأسيس في الحال معنى جديد والتوكيد كذلك ؛ إذ إن الجملة بغير هذه الحال

---

[١] - انظر التبيان ٣٧٥/١ .

[٢] - انظر البحر المحيط ٧٢١/٣ .

[٣] - أساليب التوكيد في القرآن الكريم ٣٣٢ .

ليست كهي مع الحال ، وإننا نعترف جميعاً أن كل كلمة في القرآن لها معناها ومدلولها ، ثم نأتي أحياناً ونتناسى هذا الأصل الكبير ونقول: هذه الكلمة لم تفد شيئاً ، أو لم تسهم في إضافة جديد ، وهذا أمر لا ينبغي ولا يصح خاصة من دارسي القرآن الساعين لخدمته .

والدكتور يشير أيضاً إلى قضية أخرى لها مساس بموضوعنا وَهي أن هذه الحال لا تحذف لأنها مؤكدة ؛ وهذا تناقض آخر مع ما سبق ، إذ لو كانت غير مفيدة و لم تعط معنى جديداً فهي إلى الحذف أقرب وبه أجدر ، وما دامت لا تحذف فهي من الأهمية بمكان كبير .

وإذا كان يتبادر إلى الذهن مع أمثال هذه الحال في الآية أنها يمكن فهمها دون ذكرها فما فائدة إيرادها ؟ .

نقول: التوكيد مطلب لا يمكن إنكاره وهو من الوجوه التي يطلبها البليغ ، ويحشد لها الكلمات والمؤكدات ويغير من أجلها نظم العبارة وترتيب المفردات وهذا أمر لا ينكر ، لكن ما في الآية أعمق من هذا وأبعد غوراً ؛ وهذا ما نبه إليه ابن عاشور بقوله: "والمراد بالرسول هنا معناه الشرعي المعروف عند أهل الأديان ، وهو النبي المبلغ عن الله تعالى ، فهو لفظ لقبي دال على هذا المعنى ، وليس المراد به اسم المفعول بالمعنى اللغوي ؛ ولهذا حسن مجيئه حالاً مقيدة لـ(أرسلناك) لاختلاف المعنيين ، أي: بعثناك مبلغاً لا مؤثراً في الحوادث ، ولا أمارة على وقوع الحوادث النسبية، وبهذا يزول إشكال مجيء هذه الحال غير مفيدة إلا التأكيد ..."[1] .

ولرد قول أولئك المنكرين لهذه الحال بحجة عدم إفادتها جديداً نقول: إن هذا قد يكون صحيحاً -لو سلمنا به جدلاً- إذا كان الموقع الذي حلت فيه الكلمة لا يقبل غيرها ألبتة ، فهنا نقول إنها لو حذفت فيمكن فهمها ، أما ما ذكر من شواهد فهو ليس كذلك بل الموقع يحتمل ألفاظاً وأحوالاً أخرى ، وخير شاهد على ذلك ما نحن فيه ، فلو حذفت الحال: (رسولاً) فهل لا بد أن يكون تقديرها: (رسولاً) ، أم أنها تحتمل شيئاً آخر[2]؟!

---

(1) - التحرير والتنوير ٥/١٣٤ .

(2) - لم ترد الحال (رسولاً) بعد (أرْسلناك) إلا في هذا الموطن فهي لم تتكرر في القرآن بهذا التركيب أبداً ، وهذا يعني أن للسياق الذي وردت فيه أثراً في ذلك .

لاشك أنها تحتمل غيرها بدليل أنها جاءت بدلاً منها في الموقع ذاته أحوال أخرى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [١١٩ البقرة] وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [٨٠ النساء]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٤٥ الأحزاب] وغيرها كثير[١] فعلى هذا يمكن أن تكون الحال: رسولاً أو بشيراً، أو نذيراً ، أو حفيظاً أو غيرها مما ذكر ، وعلى هذا فتخصيص كل موقع بما اختص به له هدفه وبلاغته، وانتفى بهذا أن يكون المعنى مفهوماً مسبقاً من الفعل ؛ وليس في الكلام ما يحدد هذه الحال دون سواها لو حذفت ؛ وذلك لوجود الاحتمال ، وهذا يؤكد أن ذكر هذه الحال هنا له مغزاه وسره ؛ إذ فيه تحديد الوظيفة والهدف من الإرسال، ولو حذفت لما عرفنا ذلك ، وفيها أيضاً إعلام للمخاطَبِ وهو الرسول صلى الله عليه وسلم بوظيفته، وتبعته الكبرى التي تحملها، يقول الألوسي بعد هذه الحال: "إنها بيان لجلالة منصبه صلى الله تعالى عليه وسلم ومكانته عند ربه سبحانه بعد الذبّ عنه بأتم وجه"[٢]، إذاً الموقف هنا موقف تشريف وتنويه ، وهو أيضاً موقف تحديد لنوع المهمة والوظيفة ومقدارها ، وليس شيء أجل من الرسالة، ولا أعلى من مرتبتها ، فهي دليل الاصطفاء والاجتباء، لهذا اختص هذا الموقع من القرآن بكون الحال (رسولاً) ولم تتكرر في موقع آخر ، ثم إن فيها ملمحاً آخر مهماً وهو الإعلام بأنه ليس لك يا محمد إلا التبليغ عن الله أما التصرف في الخلق والكون فهو لله وحده ، وإلى هذا ألمح البقاعي بقوله: "(رسولاً) أي: تفعل ما على الرسل من البلاغ ونحوه ، وقد اجتهدت في البلاغ والنصيحة، ولم نجعلك إلهاً تأتي بما يطلب منك من خير وشر ..."[٣]، وهذا لا يفهم أبداً لو قيل: وأرسلناك للناس دون ذكر تلك الحال ، ولا يفهم كفهمه الآن لو قيل: بشيراً ، أو شاهداً ؛لأن لهذه الأحوال المقدرة معاني معينة وملامح أخرى قد تقرب وقد تبعد، وهذا يعني أن لكل مذكور وكل حال خصيصتها ومدلولها الذي لا يقوم به غيرها.

---

(١) - مثل : ١٠٥،٥٤ الإسراء، و ٥٦ الفرقان، و ٢٨ سبأ، و ٢٤ فاطر، و ٤٨ الشورى.

(٢) - روح المعاني الجزء الثالث الجزء الخامس ٩٠ .

(٣) - نظم الدرر ٣٣٧/٥.

ومن هذا القبيل قوله تعالى:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١٢ النحل] ، يقول أبو حيان: "وقرأ الجمهور:والشمسَ وما بعده منصوباً، وانتصب (مسخراتٍ) على أنها حال مؤكدة ... وهو إعراب الجمهور... وقرأ ابن عامر:والشمسُ وما بعده بالرفع على الابتداء والخبر،وحفص: والنجومُ مسخراتٌ برفعها"[١]، وعلى قراءة النصب والحالية ما فائدة ذكر الحال؛ إذ المعنى عليها:وسخر لكم الليل والنهار .. مسخرات ؟. نحا الزمخشري في بعض كلامه منحى غير رأي الجمهور ، حيث رأي: أن (مسخرات) يراد به المصدر، أي: أنواعاً من التسخير[٢] لكن ظاهر الكلام يرده ، وقراءة ابن عامر وحفص "يبعدان ... أن (مسخرات) بمعنى (تسخيرات) "[٣].

وعلى هذا نقول: (مسخرات) حال من كل ما سبق على نصب الجميع ، والمعنى على ذلك، وسخر كل هذا حال كونها مسخرات بأمره سبحانه ، فهما تسخيران مختلفان، والتغاير أدل على القدرة وأعظم علينا في المنة ، فإن مجيء الحال هنا بهذا اللفظ يدل أنها مسخرة من قبلُ تسخيراً غير الذي أنعم الله به على عباده ، والتسخير الأول وهو الذي في الفعل (العامل) تسخير النعمة والمنة، والتسخير الثاني الذي أفهمته الحال تسخير جبروت وقهر، وهذا من روائع البيان حيث اتفق اللفظان وتباين المعنيان.

وقد أشار الزمخشري من وجه آخر إلى هذا المعنى حينما قال:" فكأنه قيل ونفعكم بها حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره"[٤]، وما ذكره هنا هو الحق ، ويؤكد ذلك الملمح ما أشار إليه الألوسي عند حديثه عن تسخير تلك الكواكب للناس ، ثم انتقل متحدثاً عما يلي ذلك فقال: "وصرح بما هو أعظم شأناً منه[٥]، وهو أن تلك الأمور لم تزل ولا تزال مقهورة تحت قدرته منقادة لإرادته ومشيئته سواء كنتم أو لم تكونوا فليتدبر" [٦] ، وقد أشار ابن عاشور إلى هذا التغاير بين التسخيرين في القرآن فذكر أن نكتة اختلاف

---

(١) - البحر المحيط ٥١٢/٦ .

(٢) - انظر الكشاف ٥٦٧/٢، وهذا أحد معنيين أشار إليهما والآخر سيأتي .

(٣) - البحر المحيط ٥١٢/٦ .

(٤) - الكشاف ٥٩٧/٢ .

(٥) - أي: التسخير الأول المذكور في الفعل ؛ لأن حديثه كان عن تسخير الليل والنهار .

(٦) - روح المعاني المجلد السابع الجزء الرابع عشر ١٠٩ .

الإعراب في الابتداء والخبر على قراءة ابن عامر برفع الشمس وما بعدها هي "الإشارة إلى الفرق بين التسخيرين، وقرأ حفص برفع (النجوم) و(مسخرات)[٦] ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إن الأول واضح والآخر خفي لقلة من يرتب حركات النجوم"[٧].

ونحن إن وافقنا ابن عاشور على اختلاف التسخيرين فليس شرطاً أن نوافقه على توجيه ذلك؛ وذلك أننا إذا تأملنا ماذكر وجدنا الليل والنهار داخلين في التسخير الأول، وما بعده في التسخير الثاني وهذا على غير قراءة الحال وهي ما وجهه ابن عاشور ، لكن على قراءة الحال الكل داخل في التسخيرين ، تسخير سابق ثابت وهو (الحال) ؛ لأن الأحوال المتعلقة بالله سبحانه وخلقه وتدبيره لا تنتقل .

وإنني هنا ألمح شيئاً مهما وهو أن قراءتي الرفع تشيران إلى أن تسخير القدرة أظهر في الشمس وما بعدها ولعل في هذا تنبيهاً إلى أن هذه الكواكب هي التي وقع فيها الشرك فعبدت من دون الله لأنها هي المؤثرة فيما يراه الناس من ليل ونهار لذا جاءت (مسخرات) مبينة أن هذه الكواكب ليست على ما يظن المنجمون عبدة الكواكب بل هي تحت قهر الله وقوته ، والأمر كذلك على إعرابها (حالاً) فهي مسخرة لكم مذللة ، حالة كونها غير خارجة عن سلطان ربها فهي لا تضر ولا تنفع وأظن أن هذا معنى لا يمكن دفعه ولا رفعه.

ولو قلنا بمجرد التوكيد لما ضفرنا بمثل هذه اللمحات النيرة ، فهذه الكواكب العظيمة قد وقعت تحت قدرة الله وقهره فهي مسخرة منقادة ، والله بفضله ومنه قد ذللها لعباده وهي على تلك الحال فهو تسخير فوق تسخير ، ولو لم تذكر هذه الحال بحجة الاستغناء عنها ، لكان المذكور هو التسخير الأول فحسب وهو تسخير النعمة ، ولم يكن فيها إذّاك إلماحة إلى قدرة الخالق كما تدل عليه الحال ، ثم إنها لو حذفت لأشعر ذلك بأن تسخيرها هو بقدر محدود لا يتجاوز ما دل عليه فعل التسخير الأول ، ولكن لما قيل: (مسخرات) زاد ذلك في طمأنة نفوس العباد ، حيث إنهم أيقنوا أن الذي سخرها لهم بما يرونه من إفادة من منافعها دون أثر لهم كبير في ذلك هو القاهر لها المسيطر عليها ، ولو شاء لزاد في

---

(٦) ـ أي: دون البقية فهي منصوبة .
(٧) - التحرير والتنوير ٤/١١٦ .

تسخيرها وتذليلها لهم، وهذا يبين في ظهور المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء كتوقف الشمس ليوشع بن نون عليه السلام وانفلاق القمر لمحمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك ، فهذا تسخير غير الأول تسخير فوق المعتاد وهو ما يفهم من الحال بصورة أظهر وأدل منها من الفعل .

وأما ما وافقت فيه الحال عاملها في المعنى دون اللفظ -وهو أكثر من سابقه- فكقوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [٦٠ البقرة][1]، يقول أبو حيان: " (مفسدين) حال مؤكدة"[2]، فإن قيل: وهل يكون عثو بلا إفساد حتى يقيد به ؟.

قلنا : يقول البيضاوي عن (لا تعثوا): "لا تعتدوا حال إفسادكم وإنما قيده لأنه وإن غلب في الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد ، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله ، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً كقتل الخضر عليه السلام الغلام ..."[3]، ويفهم من كلام البيضاوي هنا أنه ليس كل عثو يكون فساداً، ولكلامه وجاهة -كما لا يخفى- ؛ لأنه حتى لو قيل : لا تفسدوا في الأرض مفسدين ، لكانت الحال دالة على معنى جديد ، فكيف الشأن مع تغاير اللفظ !.

إن في ذلك إشارة إلى أن الفساد غير العثو ، وذلك أن القتل والهدم مثلاً إفساد بلا شك للذوات والمنافع ، لكنه قد لا يكون إفساداً مذموماً على كل حال بل قد يكون هو إحقاق الحق كما في الجهاد ونشر دين الله ، فحتى يُعلم أن المراد هو الإفساد على وجه الإفساد جاءت الحال على ما جاءت عليه ، وجاءت الحال بالكلمة التي هي نص في الإفساد فقيل (مفسدين) ، أي: لا تفعلوا ما فيه فساد إذا كان على وجه الإفساد أما إن كان صلاحاً فلا بأس .

وقد دلت بعض معاجم اللغة على أن بين الكلمتين عموماً وخصوصاً، يقول الراغب: "العيْث والعِثِيّ متقاربان نحو:جذب وجبذ، إلا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي

---

(1) – ومثلها تماماً ما جاء في ٧٤ الأعراف، و٨٥ هود ، و١٨٣ الشعراء ، و ٣٦ العنكبوت .

(2) – البحر المحيط ٣٧٣/١ .

(3) – أنوار التنزيل مع حاشية البيضاوي عليه ٢٦٥/٢ ، ٢٦٦ .

يدرك حساً،والعِثيّ فيما يُدْرَك حكماً...وعلى هذا:(ولا تعثوا في الأرض مفـــسدين")[1]، ويقول ابن منظور:"قال ابن سيدة: عثا عُثُوّاً ،وعَثِيَ عثواً، أفسد أشد الإفساد"[2].

ويظهر بهذا أن الحال هنا زادت معنى جديداً ما كان ليكون لو حذفت ، ففيها بيـــان لنوع ذلك المنهي عنه أو قدره ، لذا قال الرازي:"فإن قيل : ... العثو الإفساد فيصير المعنى ولا تفسدوا في الأرض مفسدين ؟ قلنا : معناه : ولا تعثوا في الأرض بـــالكفر ، وأنـــتم مفسدون بسائر المعاصي"[3]، ويقول الدكتور الخضري موضحاً هذا المعنى: "... النهي عن العثو هو نهي عن الكفر باعتباره أشد الفساد ، وهو فساد معنوي كما فسره الراغـــب ، والاكتفاء به يفهم منه أن فسادهم مقصور على الفكر والعقيدة ، وأن حركتهم الحـــسية ضرباً في الأرض وتعاملاً مع مصالح العباد لا يشوبها خلل ولا يعتريها فساد ،فجاء الحـــال دافعاً لمثل هذا الوهم ، دالاً على أن فساد عقيدتهم كان مصحوباً بفساد آخر هو الخروج عن الاعتدال في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة كما هو تفسير الراغـــب للفساد[4] ، وبذلك يكون الجمع بين الفعل والحال غرضه نهيهم عن الكفر ، وما اقترن به من الإفساد في الأرض"[5] .

ومن هذا القبيل قوله تعالى عن بـــني إســـرائيل:﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [٨٣البقرة]، فقوله: ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ "جملة في موضع الحال المؤكـــدة ؛ لأن توليتم يغني عنه ، وقيل المعنى: توليتم بأبدانكم وأنتم معرضون بقلوبكم ، فعلى هـــذا هي حال منتقلة ..."[6].

والقول باختلاف المدلولين هو الحق ،وهو ما يدل عليه الاستعمال القرآني للمفردات، فإن الإعراض جاء في آيات عدة مشيراً إلى الإعراض بالقلب كما في قوله تعـــالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [١٢٤ طه]،وقولـــه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [٣٢ الأنبياء].

---

(١) – المفردات مادة عثى ٥٤٦ .
(٢) – لسان العرب مادة عثا ٢٩/١٥.
(٣) – مسائل الرازي ٥ .
(٤) – انظر المفردات مادة فسد ٦٣٦ .
(٥) – من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٦ .
(٦) – التبيان ٨٥/١ .

وفي القول باختلاف المدلولين توسيع المعنى فيشمل الحركة الحسية والمعنوية ، فبنو إسرائيل "جمعوا بين الحركة الحسية المعبرة عن رفضهم العمل الذي قطعه الله على أسلافهم ... وبين ما انطوت عليه جوانحهم من عدم الإذعان للحق والإعراض عنه"(١)، وقد نبه ابن عاشور من قبل إلى معنى هذا التخالف فقال: " (وأنتم معرضون) عن الوصايا التي تضمنت ذلك الميثاق أي: توليتم عن تعمد وجرأة وقلة اكتراث بالوصايا وتركاً للتدبر فيها والعمل بها"(٢) ، إذاً هناك تولٍ بالجسم ومعه انعقاد قلب ، ولعل صاحب المنار كان أكثر توضيحاً إذ قال: " ... وقد يتولى الإنسان منصرفاً عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ، ويوفيه حقه ، فليس كل متول : عن شيء معرضاً عنه ، ومهملاً له على الدوام ؛ لذلك كان ذكر هذا القيد (وأنتم معرضون) لازماً لابد منه، وليس تكراراً كما يتوهم ، وإنما هو متمم للمعنى ، ومؤكد للمبالغة في الترك المستفاد من التولي "(٣) .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [٤ المائدة]، فـ(مكلبين) حال من الضمير في علمتم(٤)، وعن سر هذه الحال مع أنه سبق ما يشعر بها ، يقول الزمخشري: "فإن قلت : ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بـ(علّمتم) ؟ قلت: فائدتها أن يكون مَنْ يعلم الجوارح نحريراً في علمه مدرباً فيه، موصوفاً بالتكليب"(٥).

وعلق على هذا ابن المنير فقال: "ولقد أحسن في التنبيه على هذا السر الخفي غير أن الحال بأصالتها منتقلة غير لازمة ، ومقتضى هذا جعلها من الصفات اللازمة لعلم الجوارح الثابتة له"(٦).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ

(١) – من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٧ .
(٢) – التحرير والتنوير ٥٨٤/١ .
(٣) – تفسير المنار المجلد الأول الجزء
(٤) – انظر الكشاف ٦٠٦/١ ، والتبيان ٤١٩/١ .
(٥) – الكشاف ٦٠٦/١ .
(٦) – الانتصاف بحاشية الكشاف ٦٠٦/١ .

ﭐلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [١٩ النمـل]، فـ(ضاحكاً) حال من سليمان[١]، وليس التبسم والضحك واحداً، بل بينهما خصوص وعموم ، والضحك أعم لذا قال الزمخشري: "يعني:أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك"[٢]؛لأن "أول مراتب الضحك التبسم"[٣]، أما الضحك فهو: "ظهور الثنايا من الفرح"[٤]؛ لذا قال أبو حيان عن هذه الحال: "أي:شارعاً في الضحك ومتجاوزاً حد التبسم إلى الضحك ، ولما كان التبسم يكون للاستهزاء وللغضب،كما يقولون: تبسم تبسم الغضبان، وتبسم تبسم المستهزئ، وكان الضحك إنما يكون للسرور والفرح أتى بقوله: (ضاحكاً")[٥].

وهنا يشير أبو حيان إلى ملمح مهم وهو أن هذه الحال لا بد منها هنا، لتحديد نوع التبسم إذ هو ليس بخالص للفرح ، بل قد يكون لخلافه ولو حذفت هذه الحال لربما تُوهم غير المراد، وقد أسهمت هذه الحال في بيان قدر السرور الذي امتلأت به نفس سليمان من سماع هذا الكلام العجيب من تلك النملة ، "فإبراز هذه المشاعر لا ينهض به إلا هذه الحال بما تنبئ عنه من فيض امتلاء النفس بالسرور ، كما قيل : ضحك حوضه :ملأه حتى فاض[٦] ، والاكتفاء بالابتسام يذهب بهذا كله"[٧] ، وأكتفي بهذه الشواهد لهذا النوع[٨] لننتقل بعده إلى ما جاء مؤكّداً لصاحب الحال .

ب- الحال المؤكدة لصاحبها .

من هذا ما سبق بحثه في الألفاظ الدالة على ذلك مثل: (جميعاً) و (كافة) وقد تقدم الحديث عنها مع دلالة المفرد[٩] ، وأما الشواهد الأخرى فمنها قوله تعالى: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ﴾ [٤١ البقرة] .

---

(١) – انظر البحر المحيط ٢٢٢/٨ .

(٢) – الكشاف ٣٥٦/٣ .

(٣) – أساس البلاغة مادة بسم ٤٧/١ .

(٤) – لسان العرب مادة ضحك ٤٥٩/١ .

(٥) – البحر المحيط ٢٢٢/٨ .

(٦) – انظر لسان العرب مادة ضحك ٤٥٩/١ .

(٧) – من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٥،٦ .

(٨) – انظر غير هذا مثلاً : ٧٥ البقرة، و ١٠٨ الأنعام، و ٩٢ النمل، و٣٣ مريم، و ٧٥ الأنبياء، و٣٣ غافر، و١٠ النمل، و٣ الزمر.

(٩) – انظر ص٢٩ من هذا البحث، ونكتفي بما ورد هناك.

يقول أبو حيان:" والظاهر أن (مصدقاً) حال من الضمير العائد على الموصول المحذوف، وهي حال مؤكدة ، والعامل فيها (أنزلت)، وقيل: حال من (ما) في قوله تعالى: (بما أنزلت)وهي حال مؤكدة أيضاً"(١)،فإن كان ذلك كذلك فما فائدة ذكر هذه الحال؟.

الكلام هنا مع بني إسرائيل ، ولا يعنى ذكر الحال أنه يمكن أن يكون المترل من عنده سبحانه على غير الحالة المذكورة ، بل فيه إيماء إلى عظم جرمهم لو كفروا ؛ لأن في هذا التركيب تنبيهاً على عظم صاحب الحال وعلى العلة من الأمر ، يقول ابن عاشور: "وفي تعليق الأمر باسم الموصول ... دون غيره من الأسماء نحو الكتاب أو القرآن ... إيماء إلى تعليل الأمر بالإيمان به، وهو أنه مترل من الله ، وهم قد أُوصوا بالإيمان بكل كتاب يثبت أنه مترل من الله ، ولهذا أتى بالحال التي هي علة الصلة ، إذ جعل كونه مصدقاً لما في التوراة علامة على أنه من عند الله"(٢)، وما كانت هذه المعاني لتكون لو حذفت هذه الحال بحجة أن ما قبلها دال عليها .

ويبدو أن هذه السمة كثيرة في الأحوال من القرآن الكريم والرسل الكرام ، فالقرآن نازل بالحق، وهو مصدق لما بين يديه ، وهو بلسان عربي مبين ، ولذلك مزيد بيان فيما سيأتي إن شاء الله(٣).

ج- الحال المؤكدة لمضمون الجملة .

يقول السيوطي عن هذه الحال: "وشرط الجملة كون جزئيها معرفتين ؛ لأن التأكيد إنما يكون للمعارف ، وكونهما جامدين لا مشتقين ولا في حكمهما ،وفائدتها: أما بيان تعيّن نحو : زيد أخوك معلوماً ... أو فخر نحو: أنا فلان شجاعاً ، ... أو تعظيم نحو: هو فلان جليلاً مهيباً، أو تحقير نحو : هو فلان مأخوذاً مقهوراً ، أو تصاغر نحو : أنا عبدك فقيراً إلى عفوك ، أو وعيد نحو: أنا فلان متمكناً فاتق غضبي"(٤).

وكما هو ظاهر فإن السيوطي قد ذكر لهذا الحال ستة أغراض مدارها القدح أو المدح، ولم يمثل لها بشيء من القرآن ، ويبدو أن شواهدها في القرآن أقل بكثير من شواهد

---

(١) – البحر المحيط ١/١٧٧ .

(٢) – التحرير والتنوير ١/٤٥٨ .

(٣) – في فصل التناسب بين الحال وصاحبها ص ٥٧٦، و ٦٠٦.

(٤) – همع الهوامع ٤/٤٠،٣٩ .

القسمين الأولين ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [٩١ البقرة]، يقول أبو حيان: " (مصدقاً) حال مؤكدة ، إذ تصديق القرآن لازم لا ينتقل"[١] ، ويقول الألوسي: "حال مؤكدة ... وقد قررت مضمون الخبر لأنها كالاستدلال عليه"[٢] ، ويقول ابن عاشور: " (مصدقاً) حال مؤكدة لقوله: (وهو الحق) "[٣] ، ولكن هل يعني هذا أن هذه الحال لم تضف جديداً ؟، كلا بل إنها هنا جاءت في موقعها؛ إذ لولا هذه الحال ما استقام الحصر في: (وهو الحق) المعني به القرآن ؛ لأنه وقع في مقابل كتابهم وهو حق أيضاً[٤] ، فبينت الحال أن الأحقية هنا منظور فيها إلى حال معينة ليست مقيدة لكنها مفسرة لوجه الحصر ، يقول ابن عاشور تتمة لكلامه السابق: "وعندي أنها مؤسسة ؛ لأن قوله: (مصدقاً لما معهم) يشعر بوصف زائد على مضمون: (وهو الحق) إذ قد يكون الكتاب حقاً ولا يصدق كتاباً آخر ولا يكذبه ، وفي مجيء الحال من الحال زيادة في استحضار شؤونهم وهيئاتهم"[٥] .

وكأن ابن عاشور هنا أراد التملص مما اشتهر من أن المؤكدة لا تضيف معنى زائداً ولذا جعلها مؤسسة ، ولست أرى ما يمنع من القول بالتوكيد مع المعنى الزائدة ، خاصة وأن قوله: (زائداً) يشعر بأن هنا قدراً مشتركاً من المعنى،وعلى هذا فالتوكيد أظهر ، وهو في موطنه هو البلاغة، ولا يعني هذا أن الحال إذا دلت على معنى إضافي نخرجها من دائرة التوكيد ؛ لأن التوكيد في حد ذاته يحمل سمات جديدة ، والدليل على هذا أن الجملة مع الحال المؤكدة لها معنى وبدونه لها معنى آخر ، وإلا كان ذكر الحال عبثاً وحاشا أن يكون في القرآن ذلك .

---

[١] - البحر المحيط ٤٩٢/١ .
[٢] - روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٣٢٤ .
[٣] - التحرير والتنوير ٦٠٨/٠١ .
[٤] - انظر روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٣٢٤ .
[٥] - التحرير والتنوير ٦٠٨/١ .

ويشير الألوسي إلى فائدة هذه الحال بقوله: "وقد قررت مضمون الخبر ؛ لأنها كالاستدلال عليه، ولهذا تضمنت رد قولهم: (نؤمن بما أنزل علينا) حيث إن من لم يصدق بما وافق التوراة لم يصدق بها"[(1)].

ومن الشواهد قوله تعالى:﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [١٢٦ الأنعام] ، يقول أبو حيان: "انتصب (مستقيماً) على أنه حال مؤكدة"[(2)]، والتأكيد هنا لمضمون الجملة السابقة فهو شامل للعامل والصاحب ، مثل: هذا أبوك عطوفاً[(3)]، وليس من شك أن صراط الله مستقيم لا عوج فيه ، ولكن لما كانت السبل المبعدة عن هذا الصراط كثيرة ، والشبه الصارفة عنه متعددة جاء وصفه بالاستقامة بل لزمه هذا الوصف، فلم يأت الصراط -فيما ظهر لي- إلا موصوفاً بالاستقامة، إظهاراً لوصفه المميز له عن السبل المنحرفة، وتنبيهاً أن غيره يوصف بالعوج والانحراف،فالحال هنا ملمحة إلى الضد في غير صراط الله، وهي السبل المنحرفة ، كما قال سبحانه جامعاً ذلك: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [١٥٣ الأنعام]، فجاءت الحال هنا كأنها تعليل للأمر باتباع ذلك الصراط دون غيره[(4)].

وبعد هذه التحليلات لعدد من الشواهد ، نقول إن إنكار وقوع هذه الحال -أعني المؤكدة- أمر لا يُقبل ، خاصة إذا كان دعامته أن الحال لم تفد جديداً ، وأن أصلها التبيين لا التوكيد كما يقول الشلوبيين[(5)]، وأنها لا تكون قيداً كما يقول الرضي[(6)]، وعمدتهم في ذلك أن المؤكدة هي ذات ما قبلها من عامل أو صاحب أو مضمون جملة ، وكيف يقيد الشيء بنفسه ؟!.

وهنا نقول مَنْ يثبت لنا أن الأصل في الحال أنها للتبيين ، لم لا تكون أحياناً للتبيين، وأحياناً للتوكيد ، وأحياناً للقصر حسب موقعها وسياقها ، إن هذا الأصل محل نظر ،

---

(1) - روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٣٢٤ .
(2) - البحر المحيط ٦٤١/٤ .
(3) - انظر روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ٢٣ .
(4) - ولمزيد من شواهد هذه الحال انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الثالث ٧ .
(5) - انظر شرح المقدمة الجزولية الكبير ٢٢٧/٢ .
(6) - انظر شرح الكافية ٤٩/٢ .

يحتاج إلى ما يدعمه ليكون مقنعاً ، وبناءً على هذا القول حُكم على المؤكدة بعدم الفائدة ؛ لذا أنكرها بعض النحويين، يقول السيوطي: "وإثباتها مذهب الجمهور ، وذهب المبرد والفراء والسهيلي إلى إنكارها ، وقالوا لا تكون الحال إلا مبينة، إذا لا حقيقة لهذه الحال"[1]، ويقول الدكتور محمد يسري زعير: "والذي نراه أنه لا حقيقة لهذه الحال"[2].

والحقيقة أنني بعد تتبع الشواهد والتخريجات التي ذكرها الدكتور للأحوال المؤكدة أستطيع القول بأن الخلاف لفظي لا ثمرة له ؛ إذ هو يقول بأنها مؤسسة ؛ لأن الضحك مثلاً في (تبسم ضاحكاً) ليس هو التبسم ، وكذلك التولي ليس هو الإعراض ، ونحن بهذا نلتقي في النهاية على أن الحال لم تذكر دون سبب ، ولم ترد عديمة الفائدة ، وأما التوكيد فإنه لا يمكن إنكاره في الشواهد المعنية ، وهي مع ذلك تحتمل معاني أخرى مساندة ، فالتبسم والضحك فيهما قدر مشترك فالحال من هذا الجانب مؤكدة ، وفيها قدر اختلاف فهي من هذا الجانب مؤسسة ، ثم إن التوكيد غرض مهم ، ومطلب يرغب فيه البليغ ، ويحشد في كلامه من المؤكدات ما يكون سبباً لرد شبهة، أو إقناع شاك ، فهو ليس أمراً ثانوياً ، والتوكيد بحد ذات فائدة ، فكيف بعدها نقول إنها لم تأت بفائدة ؟! وأما كونها لا تصلح قيداً ؛ لأنها بهذا تقيد ذاتها وهو لا يصح ، فإن هذا المردود ليس سببه نوع الحال ، بل شيء آخر ، يقول عنه ابن الحاجب: "بأن من الأفعال أفعالاً لا تقبل التقييد، وهي أفعال العلم ، فقولك : تحققت الإنسان قائماً ، فلم تجئ بقائم لتقييد التحقيق حتى ينتفي إذا قعد والتحقق مستمر ، وإذا ثبت ذلك في هذه الحال فلا فرق بين الحال التي يصح انتقالها والتي لا يصح"[3].

ومن عجيب أمرهم ما قاله ابن جني: "وحذف الحال لا يجوز ؛ وذلك لأن الغرض منها توكيد الخبر بها وما طريقه كذلك لا يليق به الحذف ، إذ الحذف مناف للتوكيد"[4]، وهذا كما نرى مصادم من بعض الوجوه لما قرر النحويون من أن الأصل التأسيس ، فابن جني هنا ينص على أن الغرض منها هو التوكيد من غير تعرض لنوع من أنواعها ، ثم رتب

---

[1] - همع الهوامع ٣٩/٤ .
[2] - فصل المقال في دراسة أساليب الحال ٢٣٩ .
[3] - الإيضاح في شرح المفصل ٣٤٣ .
[4] - الخصائص ٣٧٨/٢ .

على هذا عدم جواز الحذف، وهذا أيضاً يناقض القول بأنه لم يُستفد منها شيئاً ، وعلى القول برأيهم يكون المنطق أن ما فهم معناه من غيره فهو إلى الحذف أقرب ، فالتوكيد على هذا مسوغ للحذف لا مانع له، كما يقول ابن جني .

لكننا نعود فنقول ما ذكره ابن جني هنا يبين لنا أن الحال رغم ما قاله النحاة لا يُستغنى عنها في مكانها أياً كان نوعها ، وليس-في نظري- لتفصيل تلك الأنواع وإخراج بعضها كبير فائدة .

ثم إنه يلزم القائلين بإنكار الحال المؤكدة إنكار كل ما جاء للتوكيد ، كالنعت المؤكد وكالمفعول المطلق المؤكد لفعله، وكذلك ألفاظ التوكيد؛ لأنها يمكن الاستغناء عنها -على حد قولهم-ويتم الكلام بدونها،فلم تخصص الحال بهذا الحكم دون غيرها؟.

إن هذه المسائل: النعت والمفعول المطلق والتوكيد إذا كان معناها المقصود منها لا يتم إلا بتلك الإضافة الدالة على التوكيد مثلاً ، فلا بد إذاً من ذكرها ، وهذا يحتم علينا الإقرار بأنها لفائدة، وإلا كان ذكرها وحذفها سواء ، وكذلك الأمر في الحال .

٢-المسلمات والبدهيات .

وهي التي لا تتوقف معرفتها لو حذفت على نظر أو كسب بل هي كالضروري ، وقيل هي ما يفرض نفسه فرضاً على العقل ولا يترك مجالاً للشك[١] .

وما نذكره من شواهد ربما يندرج بعضه تحت ما سبق ذكره في الحال المؤكدة، لكننا أفردناه هنا لتميُّزه، فهو أوضح وأشد التزاماً،ومن هذا قوله تعالى في شأن بني إسرائيل : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [٦١ البقرة].

يقول الزمخشري:"فإن قلت:قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير حق، فما فائدة ذكره ؟ قلت : معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم؛ لأنهم لم يَقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيُقتلوا وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم ، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم"[٢]، ويذكر البقاعي أن هذا القيد فيه تنبيه على

---

[١] - انظر في هذا البدهيات في القرآن الكريم دراسة نظرية ١٠.

[٢] - الكشاف ١٤٦/١ .

أن قتلهم لا يقع إلا كذلك ، لكن هذا لا ينفي أن يكون هناك شبهة كظن التنبؤ[(١)]، ويؤيد ابن عاشور ما قاله الزمخشري فيقول: "فهذا القيد من الاحتجاج على اليهود بأصول دينهم لتخليد مذمتهم وإلا فإن قتل الأنبياء لا يكون بحق في حال من الأحوال"[(٢)]، وينحى أبو حيان منحى آخر فيقول: "بغير حق ... في موضع نصب على الحال من الضمير في (تقتلون) ...[و] هو توكيد ، ولم يَرِد هذا على أن قتل النبيين ينقسم إلى: قتل بحق وقتل بغير حق ، ... وإنما جاء هذا القيد للتشنيع لقتلهم، والتقبيح لفعلهم مع أنبيائهم ..."[(٣)]، ويقول الأنصاري: "فائدته التصريح بصفة فعلهم القبيح؛ لأنه أبلغ في الشناعة"[(٤)]، وهكذا يظهر لنا أن هذا الأمر البدهي كان له موقعه المهم في هذه الآية وما شابهها[(٥)]، وليس هناك ما يمنع أن كل ما ذكر فهو مقصود هنا، فمعلوم أن قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير حق؛ لأنهم معصومون مما يوجب لهم ذلك، ولكن لما كان بنو إسرائيل هم قتلة الأنبياء وأصبح ذلك من ديدنهم ربما توهم أن لهم شبهة في خاصة مع الكثرة وتكرر ذلك، فجاءت هذه الحال قاطعة كل توهم ، ثم إن فيها مع ذلك تنبيهاً لكل من يعلم حالهم أن ذلك هو بعض مبادئهم المنكوسة لزيادة بيان فضائحهم، وفي ذلك أيضاً التنصيص على نوع القبح في أفعالهم تخليداً لشناعتهم لا ليمدحوا ولكن ليلعنوا .

ومن البديهات والمسلمات ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [١٤٢ الأعراف] ، يقول الزمخشري: "و(أربعين) نصب على الحال، أي: تم بالغاً هذا العدد"[(٦)]، ويقول الرازي: "فإن قيل : وما الحكمة ههنا من ذكر الثلاثين ثم إتمامها بعشر ، وأيضاً فقوله: فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، كلام عار عن الفائدة ؛ لأن كل أحد يعلم أن الثلاثين مع العشر يكون أربعين"[(٧)] ؟ هذان استفهامان

---

(١) – انظر نظم الدرر ٤٢١/١ .

(٢) – التحرير والتنوير ٥٣٠/١ .

(٣) – البحر المحيط ٣٨٣/١ .

(٤) – فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ١٥٩ .

(٥) – مثل : ١١٢ آل عمران ، ١٥٥ النساء ، ٣٣ الإسراء .

(٦) – الكشاف ١٥١/٢ ، وبه قال الرازي انظر مفاتيح الغيب ١٤/ ١٨٥ ، وكذا ابن عاشور انظر التحرير والتنوير ٨٧/٩.

(٧) – مفاتيح الغيب ١٨٤/١٤ .

مهمان ، لكن يهمنا منهما الثاني ؛ لأنه مقصدنا هنا، ويجيب عنه الرازي بقوله: "والجواب عن السؤال الثاني أنه تعالى إنما قال: (أربعين ليلة) إزالة لتوهم أن ذلك العشر من الثلاثين ؛ لأنه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين ، كأنه كان عشرين، ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين ، فأزال هذا الإبهام"[1]، وقيل : بل هذا "إزالة توهم أن تكون عشر ساعات، أي: أتممناها بعشر ساعات"[2]، ويرى الزركشي أن الفائدة هنا هي دفع توهم عدم دخول العشر في المواعدة لذكرها مفردة عن الثلاثين "فأعاد ذكر الأربعين نفياً لهذا الاحتمال وليعلم أن جميع العدد للمواعدة"[3] ، وهذا ملمح وجيه ؛ لأن هذا الاحتمال يدخل النفس عند تلقي هذا الخبر،فكانت هذا الحال حسماً لكل تردد وتوهم.

ومن البديهات ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [٣٠ التوبة] ، يقول العكبري : " و(بأفواههم) حال ، والعامل فيه القول ..."[4]، ويجلي الزمخشري بديهية هذه الحال وسر ذكرها بقوله: "فإن قلت : كل قول يقال بالفم ، فما معنى قوله: (ذلك قولهم بأفواههم) ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما :أن يراد أنه قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته ... والثاني: أن يراد بالقول: المذهب ...كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ؛ لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب ..."[5]، وقال أبو حيان: "وقيل : معنى (بأفواههم) إلزامهم المقالة والتأكيد كما قال: ﴿ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [٧٩ البقرة] ..."[6]، وقال البقاعي: "ومعناه ... أن قائله لا عقل له، [فـ]ليس له معنى وراء ذلك ، ولبعده عن أن يكون مقصوداً لعاقل عبر فيه بالأفواه التي هي أبعد من الألسنة إلى القلوب"[7]، وقال الأنصاري: "فائدة قوله: (بأفواههم) مع أن القول لا يكون [إلا] بالفم:الإعلام بأن ذلك مجرد قول لا أصل له ، مبالغة في الرد

---

(١) – مفاتيح الغيب ١٤/١٨٥ ، وانظر نظم الدرر ٨/٧٤ .
(٢) – البحر المحيط ٥/١٦١ .
(٣) – البرهان في علوم القرآن ٢/٤٧٨ .
(٤) – التبيان ٢/٦٤٠ ، وانظر التحرير والتنوير ١٠/١٦٨ .
(٥) – الكشاف ٢/٢٦٤ .
(٦) – البحر المحيط ٥/٤٠٣ .
(٧) – نظم الدرر ٨/٤٣٩ .

عليهم"(١)، وقال ابن عاشور: "وهذا كناية عن كونه كاذباً ... وفي هذا إلزام بهذا القول ، وسد باب تنصلهم منه إذ هو إقرار بأفواههم وصريح كلامهم"(٢)، وأظن أن ما أشار إليه أبو حيان من قبل وما نص عليه ابن عاشور هنا هو الأبعد غوراً، والأقوى في بيان العلة والسر ؛ إذ من المعلوم أنه إذا أريد تأكيد نسبة القول إلى إنسان بحيث لا يبقى له مجال للتنصل منه، أنه يقال في الإخبار عن ذلك:قاله بلسانه، وقد يكون فيه-غير ذلك- دفع توهم غير المراد من المجاز كأن يكون قاله عن غيره، أونقل خبره نقلاً لا تثبت به نسبة.

ومما هو من قبيل البدهيات ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [٢٦ النحل] ، أي : فخر عليهم ساقطاً من فوقهم فهو حال من (السقف) (٣) ، و معلوم أن السقف يكون فوقهم ، فما فائدة ذكر الجهة إذاً ؟ يقول ابن جني : " لو قيل : فخر عليهم السقف و لم يقل : (من فوقهم) لجاز أن يُظَن به أنه كقولك : قد خرَّبتَ عليهم دارهم ... فإذا قال : (من فوقهم) زال ذلك المعنى المحتمل ، وصار معناه أنه سقط وهم تحته " (٤) ، وفيه فائدة أخرى وهي أنه " ربما خر السقف ولا يكون تحته أحد فلما قال ... (من فوقهم) دل هذا الكلام على أنهم كانوا تحته " (٥) ، و فيه فائدة ثالثة أن " كثيراً من السقوف يكون أرضاً لقوم وسقفاً لآخرين" (٦) فجاءت هذه الحال رفعاً لذلك التوهم المحتمل.

٣- ما جاء مكرراً أو مفصلاً.

وأقصد بهذا أن هناك أحوالاً تأتي مكررة بلفظها في السياق الواحد ، وهي وإن كانت نادرة إلا أنه لا بد من بيان سر تكرارها، وكذلك بعض الأحوال تأتي مفصلة مع إمكان جمعها .

فأما ما جاءت فيه الحال مكررة بلفظها فمثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ

---

(١) – فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ٣١١ .

(٢) – التحرير والتنوير ١٠ /١٦٩،١٦٨ .

(٣) – انظر إعراب القرآن وبيانه للدرويش ٥/٢٨٨ .

(٤) – الخصائص ٢/٢٧١ .

(٥) – مفاتيح الغيب ٢٠/٢٠ .

(٦) – البرهان في علوم القرن ٣/٦٧ ، وانظر توضيحاً أكثر في: نظرات لغوية في القرآن الكريم ١٤٦ والبدهيات في القرآن الكريم دراسة نظرية ٣٧ .

دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [٢١، ٢٢ الفجر] ، يقول أبو حيان : " (دكاً دكاً) حال كقولهم:باباً باباً أي:مكرراً عليهم الدك" [١]، ومثله (صفاً صفاً)[٢].

ونتساءل هنا عن سر ذكر اللفظ وتكريره ، أَوَ لا يكفي عنه الأول ؟!.

أما قوله تعالى: (دكاً دكاً) فليس المراد بالثاني فيه مجرد التأكيد وإن قيل به[٣] كما هو مفهوم كلام الزمخشري: "أي: كرر عليها الدك حتى عادت هباءً منبثاً"[٤]، والدك هو كسر الحائط والجبل ، وهو حط المرتفع بالبسط[٥]، فالتكرار في الكلمة مقصود منه التكرار في الفعل وهذا يعني القوة والشمول لكل ما يستحق الدك والتسوية: " (دكاً دكاً): أي مكرراً بالتوزيع على كل موضع نات فيها فيكون لكل جبل وأكمة وثنية وعقبة دك يخصه على حدته، ليفيد ذلك أنه دك مبالغ فيه فتصير جبالها وأكمامها[٦] هباءً منثوراً ... وهو كناية عن زلازل عظيمة لا تحملها الجبال الرواسي فكيف بغيرها"[٧]، وإلى هذا أشار الألوسي بعبارة أخرى فقال: "وتكريره للدلالة على الاستيعاب ، فليس الثاني تأكيداً للأول"[٨].

والسؤال الثاني هنا،لم جاء التكرار هنا بينما جاء الدك موحداً في قوله تعالى: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [١٤ الحاقة] ؟.

يقول ابن عاشور عن آية الفجر: " ولعل تأكيده هنا ؛ لأن هذه الآية أول آية ذكر فيها دك الجبال[٩]، وإذ قد كان أمراً خارقاً للعادة كان المقام مقتضياً تحقيق وقوعه حقيقةً دون مجاز ولا مبالغة، فأُكد مرتين هنا، ولم يؤكد نظيره في قوله: (فدكتا دكةً واحدةً) "[١٠].

و ما أظن أن هذا هو الوجه ، بل هو _ والله أعلم _ أن ما جاء في سورة الحاقة

---

(١) – البحر المحيط ١٠ / ٤٧٥ ، وهو مضمون كلام الزمخشري لكنه لم يصرح بالحالية انظر الكشاف ٧٥١/٤ .

(٢) – انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١٥٨/٣٠ .

(٣) – انظر التحرير والتنوير ٣٣٦/٣٠ .

(٤) – الكشاف ٧١٥/٤ وانظر مفاتيح الغيب ١٥٨/٣٠ .

(٥) – انظر لسان العرب مادة دك ٤٢٤/١ ، ٤٢٥ .

(٦) – كذا في النص ولعل الصحيح (وآكامها) .

(٧) – نظم الدرر ٣٧/٢٢ .

(٨) – روح المعاني المجلد الخامس الجزء الثلاثون ١٦٢ .

(٩) – من المعلوم أن آية الحاقة قبلها في ترتيب المصحف وفيها ذكر دك الجبال،لكنه قصد الترتيب في النزول فإن الفجر قبل الحاقة بكثير،فهي العاشرة في ترتيب النزول،والحاقة هي السابعة والسبعون، انظر التحرير والتنوير ١١١/٢٩ و٣١١/٣٠.

(١٠) – التحرير والتنوير ٣٣٦/٣٠ .

يتحدث عن الرجفة العظمى الكبرى الشاملة الشديدة[1] فهي في عمومها واحدة ، وقد أكدت بالوحدة تدليلاً على القدرة ، وأما ما هنا ففيها تصوير للترول الإلهي الحقيقي كما يليق بجلاله وعظمته من غير تأويل ولا تشبيه ومن غير تقدير مضاف ، وهذا يعني أنه الدك لتسوية الأرض لحشر العباد؛ لذا لم تذكر السماء هنا ، فهو تفصيل ينبئ عن عظيم القدرة وتخصيص للعموم في آية الحاقة، فحتى لا يفهم أن الدكة العظمى بقي منها ناتئ أو عَلَم مرتفع ، جاءت هذه الآية مبينة القدرة والقوة والاستطاعة والاستيعاب فلا منافاة بين الآيتين ، خاصة إذا علمنا أن العباد سيحشرون إلى أرض عفراء نقية كقرصة النقى ليس فيها علم لأحد[2] .

ومثل هذا (صفاً صفاً) يقول ابن عاشور: " فــ(صفاً) الأول حال من (الملك) ، و(صفاً) الثاني لم يختلف المفسرون في أنه من التكرير المراد به الترتيب والتصنيف ، أي: صفاً بعد صف، أو خلف صف، أو صنفاً من الملائكة دون صنف ، قيل ملائكةُ كل سماء يكونون صفاً حول الأرض على حدة"[3].

وقد جاءت الحال (صفاً) بغير هذا التكرار في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ﴾ [٤ الصف] .

والفرق ظاهر بين الحالين ففي آية الصف ليس التعدد مقصوداً ، بل الانضمام والاتحاد هو عين المراد ، وهذا يناسبه التوحد ؛ لأن التكرار يوهم التعدد ، ويؤيد مقصود التوحد الحال التي بعده: (كأنهم بنيانٌ مرصوص) .

ولو قيل في آية الفجر:ألا يمكن الاستغناء عن تكرار الحال بجمعها فيقال: "صافين"؟ قلنا: تكرار الحال هنا هو ما يتطلبه الموقف والمقام ؛ لأن التكرار يدل على الترتيب مع التعدد وهو اللائق بموقف الحشر وهو الذي جاء الوصف عليه ، ولو كان المراد تصوير اجتماع في اصطفاف واحد بلا تفاوت ولا تعدد لكان المناسب (صافين) ، كما جاء شبيه هذا في حفوف الملائكة عند فصل القضاء في قوله تعالى:﴿ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [٧٥

---

[1] – لابن عاشور إشارة إلى مثل هذا لكنه نقضها، انظر التحرير والتنوير ٣٣٧/٣٠ .
[2] – سبق تخريجه في ص ١١٤ من هذا البحث ، وهو في صحيح مسلم.
[3] – التحرير والتنوير ٣٣٧/٣٠ .

الزمر] .

أما ما جاء مفصلاً ويمكن جمعه فكقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [١٥الأحقاف]، فقوله جل ذكره:(كرهاً-كرهاً) بفتح الكاف وضمها حالان من ضمير الفاعل[1]. وكان يمكن أن يقال : حملته أمه ووضعته كرها، فلماذا عدل عن ذلك إلى التفصيل مع أن لفظ الحال واحد ؟ .

الجواب عن ذلك، أن السياق هنا سياق تفصيل وتبيين؛إذ الكلام عن التوصية بالإحسان إلى الوالدين ، والقصد خصوصاً إلى الأم ؛ لأنها المستضعفة ، ولأنها صاحبة المعاناة العظيمة في الحمل والوضع والتربية، لذا خصها الله سبحانه بقوله: (حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) ، وفي تفصيل الحالين وعدم دمجهما موافقة لسياق إظهار حق الأم على أولادها ، فالمراد إبراز حالين عظيمين لها ، كل منها يوصف بالكره منفصلاً عن الآخر تدليلاً على عظمة المشقة التي تجدها الأم فيهما، يقول ابن عاشور:"والمعنى : أنها حملته في بطنها متعبة من حمله تعباً يجعلها كارهة لأحوال ذلك الحمل،ووضعته بأوجاع وآلام جعلتها كارهة لوضعه" [2] .

إذاً فالغرض هنا هو إبراز أحوال المشقة التي تعانيها الأم في سبيل حمل المولود ووضعه ثم هو بعد ذلك يتنكر لهذا الجميل والمعروف، وإن من تأمل حال الحامل وما تعانيه من ثقل وإرهاق ، ثم ما يحصل لها عند الوضع من مكاره تشرف معها على الموت ، ثم نظر إلى حال الأولاد مع أمهم علم سر هذا التكرار المنبِّه إلى عظيم حقها ، وكبير معروفها عليهم .

ولو قيل حملته أمه ووضعته كرها، لربما توهم أن الحال من الوضع فقط؛ لأنه الأقرب وحتى لو قيل إنه منهما جميعاً لكان أقل بكثير من تصوير مشقتها مما جاء عليه النظم الكريم؛ لأن ما عليه النظم الكريم يشعر بأن كل حالة من الحالتين مستحقة أن توصف بالوصف المذكور منفردة .

٤- الحال الواجبة الذكر[3] .

ولعل هذا النوع يكون قسيماً لكل ما مضى ، فما سبق يوجد في السيـــاق ما يرشد إلى الحال-ولو ظاهراً-، فيكون ذكرها مثاراً للتساؤل، أما هذا النوع فهو بعكس ما سبق

---

(١) - انظر البحر المحيط ٩/٤٤٠ .

(٢) - التحرير والتنوير ٢٦/٢٩ .

(٣) - ذكر النحويون أنه يجب ذكر الحال في مواطن وجامع ذلك كله هو توقف المعنى عليها ، وأكتفي بهذا عن التفصيل والتنويــع الذي ذكروه؛ لأنه لا يخرج عما أشرنا إليه ، ولأن مقصودنا هنا التمثيل لا الحصر ، انظر في هذا لموضوع : همع الهوامع ٤/٥٩ .

فليس له ما يدل عليه ولا يستلزمه من مرادف، أو تكرير، أو بداهة ،لكن مع ذلك لا بد من ذكره ؛ لأنه المقصود، والكلام بدونه ناقص الدلالة، ولهذا ذكرت هذا النوع في مبحث الذكر لأنه الأليق به، ففي هذا الموطن يُفَسَّرُ وجوب ذكره وتُبْرزُ قيمته، وإذا كان فيما سبق له ما يدل عليه ويرشد إليه، فالحال هنا لا يقوم الكلام إلا بها لأنها محط الفائدة ، فهو من هذا الجانب يشارك ما سبق.

وذكر البلاغيون أن من أسباب الذكر كون الغرض متجهاً إلى ذلك المذكور[1]، يقول الزمخشري: " وإذا كان الكلام منصباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه، كأن ما سواه مرفوض مُطّرح، ونظيره قولك:حكم السلطان اليوم بالحق ، الغرض المسوق إليه قولك (بالحق) "[2] .

وهذا منطبق تماماً على الحال المقصودة بالنفي أوالنهي أو الاستفهام ،وهي التي يتوقف المعنى على ذكرها ، فهي مناط النفي أو النهي أو الاستفهام ، أو هي محط الفائدة كما في الإثبات، ومن شواهدها قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ﴾ [٤٣ النساء]، فالنهي هنا ليس عن الصلاة، بل هو عن الصلاة بالقيد المذكور ، بل هو في نهاية الأمر نهي عن السكر من أصله، ولو حذفت الحال لاختل المعنى وانقلب المراد فلا بد من ذكرها، ومثلها(جنباً) بعدها، وسيأتي مزيد بيان لذلك في القيود إن شاء الله[3] .

ومن الشواهدقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ [١٦ الأنبياء] فقوله جل ذكره: (لاعبين) حال من ذي الجلالة ، والمعنى متوقف عليها فلا بد من ذكرها،يقول ابن عاشور: " وهي حال لازمة إذ لا يستقيم المعنى بدونها "[4].

وهكذا يتبين لنا أن الحال لا يعني قولهم فيه: إنه فضلة أنه زائد، يحذف أو يبقى كيفما اتفق، كلا بل " معنى كونه فضله أنه ليس مسنداً ولا مسنداً إليه ، وليس معنى ذلك أنه يصح الاستغناء عنه " [5] .

---

[1] – انظر البلاغة القرآنية عند الزمخشري ٤١٠ .
[2] الكشاف ٨/٤ .
[3] – انظر ص ٣٧٨من هذا البحث.
[4] – التحرير والتنوير ٣٢/١٧ .
[5] – جامع الدروس العربية ٧٩/٣ .

ومثل هذه الأحوال كان ذكرها هو مُصحح الكلام ، فتأثيرها في السياق والمعنى كان رئيساً، وقد أقر النحويون بهذا الأمر كما في قول ابن هشام: "إن الحال قد يتوقف معنى الكلام عليها كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [٣٧ الإسراء] ..."[1].

---

[1] مغني اللبيب ٥٣٢/٢ .

ثانياً : الحذف .

حذف الحال يكون كغيره من وجوه الحذف في الذكر الحكيم له أسراره وأهدافه، والحذف يختلف عن غيره من أبواب البلاغة إذ هو من أدقها مسلكاً،وألطفها مأخذاً، فهو "شبيه بالسحر... ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر،والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق،وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن"[١]، وقد سماه ابن جني شجاعة العربية[٢]، وللحذف في القرآن أسرار كثيرة،وأهداف عامة من أهمها ما يأتي[٣] :

١- التفخيم والإعظام ، وذلك لقوة الدلالة على المحذوف وشهرته وعظم شأنه .

٢- التخفيف،وذلك لكثرة دوران المحذوف في كلامهم،كحذف حرف النداء أحياناً.

٣- رعاية الفاصلة ، وإن كان لابد من سر وراء الحذف غير الرعاية اللفظية .

٤- صيانة اللسان عن المحذوف ، وذلك إذا كان محتقراً .

٥- صيانة المحذوف عن اللسان، وذلك إذا كان معظماً مهاباً .

٦- إرادة تمكين المعنى ؛ لأن ما يتحصل بعد المشقة أمكن وأبقى .

٧- الاختصار والاحتراز عن العبث،وذلك إذا كان ظاهراً من دليل سابق أو لاحق .

٨- قصد التعميم، وذلك أن المعنى مع الحذف يكون أوسع منه مع الذكر؛ لأن في الذكر تحديداً .

وهذه الأغراض والأسرار وإن كانت عامة إلا أنها تشمل ما نحن بصدده من حذف الحال، يقول السيوطي:"الأصل في الحال أن تكون جائزة الحذف، وقد يعرض لها ما يمنع منه ككونها جواباً، ... أو مقصوداً حصرها، ... أو نائبة عن خبر ... أو منهياً عنها"[٤]، وقد تبين لي أن شواهد حذف الحال ليست قليلة[٥]، وإن كان أغلبها من مادة القول، ولعل هذا ما جعل ابن هشام يقول:"أكثر ما يرد ذلك إذا كان قولاً أغنى عنه القول"[٦].

وكثرة شواهد حذف الحال ترد ما قد يفهم من كلام ابن جني بأن حذفها قليل وأنه

---

[١] - دلائل الإعجاز ١٤٦ .

[٢] - انظر الخصائص ٣٦٠/٢ .

[٣] - انظر جل ذلك في البرهان في علوم القرآن ١٠٤/٣ وما بعدها .

[٤] - همع الهوامع ٥٩/٤ .

[٥] - ذكر لها الدكتور الحموز أكثر من مائة وخمسين شاهداً، انظر: التأويل النحوي في القرآن الكريم ٣٣٦/١ وما بعدها.

[٦] - مغني اللبيب ٧٢٩/٢ .

لا يحسن حيث يقول :"وحذف الحال لا يحسن؛ وذلك أن الغرض فيها إنما هو توكيد الخبر بها، وما طريقه طريق التوكيد غير لائق به الحذف؛ لأنه ضد الغرض ونقيضه،...فأما ما أجزناه من حذف الحال ...فطريقه أنه لما دلت الدلالة عليه ...جاز حذفه تخفيفاً، وأما لو عريت الحال من هذه القرينة، وتجرد الأمر دونها لما جاز حذف الحال على وجه"[1]، ووصف بعضهم حذفها بأنه شيء لطيف غريب[2]، وغير خاف أن اشتراط القرينة والدليلٍ على المحذوف أمر لا مجادلة فيه، وهو لا يخص الحال وحده، يقول الدكتور الحموز رداً على ابن جني -والحق معه- "... فلست أتفق مع ابن جني فيما ذهب إليه؛ لأن حذف الحال في التنزيل مطرد منقاس لكثرته وشيوعه"[3]، خاصة وأنه قد نُسب القول بالقياس للأخفش والمبرد في بعض أنواع الحال[4].

وقد رأيت أن أدرس حذف الحال على النحو الآتي:

١- حذف الحال في سياق القول .

٢- حذف الحال في غير سياق القول .

٣- حذف الحال لوجوده في النظير .

١- حذف الحال في سياق القول .

وهو أكثر مواضع حذفها ، كما قال ابن هشام من قبل ، وقال الدكتور الحموز بعد إحصاء شواهد ذلك: "ويشيع هذا النوع في التنزيل في مواطن كثيرة"[5]، وقد تبين لي أن الحذف في تلك الشواهد يكون في عمومه للأسباب الآتية :

أ- ضيق المقام عن التطويل بسبب الهلع الشديد أو الفرح العظيم .

ب- المبالغة في جعل المقول هو عين ما ناب عن القول أو أفهمه .

---

[1] - الخصائص ٣٧٨/٢، ٣٧٩ .

[2] - انظر إعراب القرآن المنسوب للزجاج ٧٨٣/٣ .

[3] - التأويل النحوي في القرآن الكريم ٣٣٧/١ .

[4] - انظر ذلك في: البرهان في علوم القرآن ١٧٩/٣ .

[5] - التأويل النحوي في القرآن الكريم٣٤٤/١ ں

ج- توفر العناية على القول دون القائل .

أ- ضيق المقام .

فأما ضيق المقام فهو الأكثر شواهد ، ومما جاء منه في سياق البشارة والسرور قوله تعالى:﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [٢٣، ٢٤ الرعد].

يقول أبو حيان: " وارتفع (سلام) على الابتداء و(عليكم) الخبر ، والجملة محكية بقول محذوف، أي: يقولون سلام عليكم"[١] ، وسر حذف (يقولون) أو (قائلين) التي هي الحال ، أن المقام يضيق عن التطويل ، خاصة وأن المحذوف مفهوم من الكلام فلا لبس ولا غموض ، فالمراد هنا المسارعة في تبشيرهم إكمالاً في تنعيمهم ، ولا شك أن الحذف هنا هو الأنسب ، فطُوي الكلام وذُكِرَ نصُّ البشرى ، إمعاناً في تأنيسهم ، يقول ابن عاشور: "وهذه تحية يقصد منها تأنيس أهل الجنة"[٢] .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [١٠٣ الأنبياء]،فقوله جل ذكره:﴿ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ﴾ مقول لقول محذوف تقديره: " قائلين لهم : هذا يومكم " [٣] ، وهو حال ، وقد طويت وحذفت لضيق مقام التبشير عن التطويل والزيادة، بل المقام للمسارعة بنوع التبشير ، فكيف إذا كان ذلك التبشير برضوان الله ونعيمه، ويدل لهذا تلقي الملائكة لهم عند خروجهم من قبورهم[٤] ، " والتلقي هو التعرض للشيء عند حلوله تعرض كرامة"[٥] ، فلما كان الحال على ما ذكر طُوي الكلام وأُسرِعَ في ذكر موضع التبشير والإيناس ، يقول البقاعي: " (وتتلقاهم) أي : تلقياً بالغاً في الإكرام (الملائكة)حيثما توجهوا ، قائلين : بشارة لهم (هذا يومكم)..." [٦].

---

(١) - البحر المحيط ٣٨٣/٦ ، وانظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١١٦/٥ .
(٢) - التحرير والتنوير ١٣٢/١٣ .
(٣) - البحر المحيط ٤٧١/٧ .
(٤) - انظر البحر المحيط ٤٧١/٧ .
(٥) - التحرير والتنوير ١٥٧/١٧ .
(٦) - نظم الدرر ٤٨٧/٢ .

ومثل هذا قوله تعالى:﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٤٣ المرسلات] ، فالحال محذوفة والتقدير: مقولاً لهم كلوا[١]. وأما ما جاء في سياق الترهيب والخوف فكقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [٢٢ الفرقان]، فقد قدر بعضهم قبل (لا بشرى) حالاً محذوفة تقديرها : يقولون وهي حال من الملائكة[٢]،وعلى كل حال فحذف هذا المقدر سببه ـ والله أعلم ـ إرادة المواجهة بمصير أولئك المكذبين بالبعث المنكرين لقدرة الله سبحانه، وكما أن المؤمنين تُعَجَّلُ لهم البشرى عند الموت وعند البعث فكذلك المجرمون المنكرون يعجل لهم السوء ، لذا طُوي الكلام وذُكِرَ منه ما يدل على المقصود، للإسراع في مواجهتهم بنفي البشرى عنهم زيادة في تأنيبهم وتعذيبهم، يقول الألوسي: " ويفيد الكلام سلب البشرى عن الكفار على أتم وجه لدلالته على أن المانع من حصول البشرى هو الإجرام ،ولا إجرام أعظم من الذين لا يرجون لقاءه عز وجل ويقولون ما يقولون فهم أولى به"[٣] .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى:﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [٣٧ فاطر]، وهذه صورة أخرى مروعة لحال أهل النار -أعاذنا الله منها- طُوي فيها القول: والتقدير:"قائلين:ربنا أخرجنا منها " [٤]، ولا شك أنه مقام يضيق عن تطويل الكلام ،كيف وهم في دركات النار يصرخون بأعلى أصواتهم معترفين بذنوبهم ولكن بعد فوات الأوان،إنه موقف مهيب رهيب يُوجَز معه الكلام، ويقل معه الحديث، لذا فطويت الحال هنا لبيان أن قولهم:(ربنا أخرجنا) ـ وهو معمول الحال ـ هو مضمون صراخهم،فهم يصرخون صراخاً ولا يقولون قولاً وفرق كبير بين الأمرين، فالأول دال على عظيم العذاب وشدته وهوله ، حتى كأنهم يطلبونه فلا يجدونه،ثم إن في الحذف نقلاً لهيئة فعلهم لا لقولهم وشتان ما بين الصورتين، وهذا الملمح سيتضح أكثر في المبحث القادم وهو :

ب- المبالغة في جعل القول هو عين ما أفهمه أو ناب عنه .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ

---

[١] – انظر التحرير والتنوير ٤٤٣/٢٩ .

[٢] – انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٦٨٦/٦ .

[٣] – روح المعاني المجلد العاشر الجزء التاسع عشر ٤ .

[٤] البحر المحيط ٣٦/٩ .

ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [١٣٢ البقرة]،فقوله جل ذكره:(يا بني) معمول لقول محذوف هو الحال عند البصريين والتقدير: قائلاً أو قائلَيْن بالتثنية [١]، وقد طوي هذا المقدَّر ولم يذكر في الكلام لبيان أن هذا الكلام المذكور هو نص الوصية ، ولا شك أن إخراج الكلام المعتنى به في صورة توصية أدل على كمال العناية به من إخراجه في صورة القول .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى:﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [٢٨٥ البقرة]، والحال المحذوفة هنا هي: يقولون أو يقول قبل: (لا نفرق بين أحد)،يقول أبو حيان:"وعلى كلا التقديرين فموضع هذا المقدر نصب على الحال"[٢].

وحذف الحال هنا للإعلام بأن من إيمانهم بالرسل قولهم هذا:(لا نفرق بين أحد منهم)، وهذا أعظم في مدحهم والثناء عليهم ،فكأن ما ذكروه هو ما يوضح مكنون قلوبهم ويبرز حقيقة إيمانهم،فإيمانهم هو قولهم:(لا نفرق بين أحد من رسله)،فحذف القول للتدليل على أن هذا المذكور هو عين ما مدحوا به أولاً في قوله: (آمن الرسول ...) .

ومن هذا قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [١٩١ آل عمران].

يقول الزمخشري: " (ما خلقت هذا باطلاً) على إرادة القول ، أي: يقولون ذلك ، وهو في محل الحال ، بمعنى: يتفكرون قائلين"[٣] .

وقد حذفت هذه الحال مبالغة في جعل هذا المنطوق هو النتيجة المتوقعة لهذا التفكير ولهذا "تواطأ الجمع من أولي الألباب على قول هذا التتريه والدعاء عند التفكر ، مع اختلاف تفكيرهم وتأثرهم ومقاصدهم"[٤]، والتفكر عبادة عظيمة وجليلة ، حتى قيل عن أبي الدرداء :كان أكثر شأنه التفكر[٥]، وفي حذف الحال هنا (يقولون) إشعار بالتحام هذا

---

[١] – انظر البحر المحيط ٦٣٧/١ ، وروح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٣٨٩ .
[٢] – البحر المحيط ٧٥٨/٢ .
[٣] – الكشاف ٤٥٤/١ .
[٤] – التحرير والتنوير ١٩٧/٤ .
[٥] – انظر التحرير والتنوير ١٩٧/٤،١٩٦ .

القول بتلك العبادة (التفكر) وعدم انفصاله عنها، ولو قيل : (يقولون) لربما أوهم ذلك أنه كلام مستأنف جديد منفصل عن سابقه، فلما سقطت الحال حصل الالتحام والتضام بين المقول والتفكر، وهو الأقرب والأعظم دلالة على نتيجة التفكر في ملكوت الله ، إذ أن العبد إذا تمعن فيما خلق الله، وأخذ ذلك منه مكانه اللائق فإنه لا يملك إلا أن يقول: (ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك)، وهناك ملمح آخر للحذف وهو أنه ربما أريد بالحذف إبراز أن هذا القول هو ما انطوت عليه نفوسهم وإن لم ينطقوه صراحة، لذا يقول ابن عاشور:"ويجوز عندي أن يكون (ربنا ما خلقت هذا باطلاً) حكاية لتفكرهم في نفوسهم، فهو كلام النفس يشترك فيه جميع المتفكرين لاستوائهم في صحة التفكر..."[(١)]، وهذا الملحظ يتجلى بصورة أظهر في قوله تعالى:﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [٨، ٩ الإنسان].

فقوله جل ذكره (إنما نطعمكم)، "هو على إضمار القول"[(٢)] "أي يقولون لهم، أي: للذين يطعمونهم، فهو في موضع الحال من ضمير (يطعمون) "[(٣)] .

قال بعضهم يجوز أنهم صرحوا بهذا الكلام ومقصدهم دفع المنة مهم على الفقراء وبيان أن إحسانهم إنما هو لوجه الله فلا معنى لمكافأة الخلق ، و قال أبو حيان " وهذا هو الظاهر " [(٤)] ، (و قال مجاهد أمَا إنهم ما تكلموا به ، ولكن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم به " [(٥)].

وهذا الأخير هو الأجدر-في نظري-وهو ما يدل عليه حذف القول، وهو الأقوى في مدحهم والثناء عليهم؛ لأن مواجهة الفقراء بذلك القول وإن كان على سبيل ما ذكر، إلا أنه لا يخلو من إيذاء للمتصدَّق عليه كما هو معلوم من الواقع وحال الناس، ولكن كون ذلك مما أخفوه في نفوسهم فهو أدل على إخلاصهم ،ومراعاتهم لمشاعر إخوانهم ، وحرصهم على قبول أعمالهم عند ربهم سبحانه ، لذا كان حذف الحال وهو القول إشارة إلى أن هذا من المكنون الذي لم يظهر، فكان الكلام مطابقاً للحال .

---

(١) - التحرير والتنوير ١٩٧/٤ .
(٢) - البحر المحيط ٣٦١/١٠ .
(٣) - التحرير والتنوير ٣٨٥/٢٩ .
(٤) - البحر المحيط ٣٦١/١٠ .
(٥) - البحر المحيط ٣٦٢/١٠،٣٦١ .

ج- توفر العناية على القول دون القائل .

من هذا قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٦٣ البقرة] ، فقوله جل ذكره (خذوا) مقول قول محذوف تقديره: قائلين لهم خذوا(١)، وهو حال وقد طويت هذه الحال لأن المقول هو غرض الكلام، والعناية به أعظم ، لأن المراد هنا هو أخذ الميثاق عليهم ، يقول مصطفى أبو شادي عن سر الحذف هنا إنه "لتوفر العناية على المقول؛ إذ هو الغرض المقصود ... وفيه استحضار لصورة رفع الطور فوقهم وكأنها ماثلة"(٢).

من هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [١٢٧البقرة] ،يقول الزمخشري: "أي: يقولان ربنا ، وهذا الفعل في محل النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله [بن مسعود] في قراءته، ومعناه:يرفعانها قائلين ربنا"(٣)،وفي بيان سر الحذف هنا يقول ابن عاشور:"والعدول عن ذكر القول إلى نطق المتكلم بما قاله المحكي عنه هو ضرب من استحضار الحالة،قد مهد له الإخبار بالفعل المضارع في قوله:(وإذ يرفع)حتى كأن المتكلم هو صاحب القول،وهذا ضرب من الإيغال"(٤)،ويقول مصطفى أبوشادي:"وحذف...اهتماماً بالمقول،ولاستحضارالصورة"(٥).

ونختم حديثنا هذا بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [١٧٢الأعراف](٦).

يقول أبو حيان: "وأشهدهم على أنفسهم بما نصب لهم من الأدلة قائلاً : ألست بربكم"(٧) وهذه الحال (قائلاً) محذوفة من الكلام ، وقد جاءت مادة القول حالاً في آية مشابهة هي قوله تعالى:﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ

---

(١) - انظر حاشية الشهاب على البيضاوي ٢٧٧/٢،والتحرير والتنوير ٥٤٢/١، وإعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١١٧/١.

(٢) - الحذف البلاغي في القرآن الكريم ١٢٧ .

(٣) - الكشاف ١٨٨/١ وانظر أنوار التنزيل مع حاشية البيضاوي عليه ٢٣٨/١، والبحر المحيط ٦١٩/١ .

(٤) - التحرير والتنوير ٧١٩/١ .

(٥)- الحذف البلاغي في القرآن الكريم ١٢٧ ،وسيأتي مزيد بيان لذلك في فصل:التصوير بالحال،انظرص٤٧٩من هذا البحث.

(٦) - ومثلها آية الأحقاف ٣٤ .

(٧) - البحر المحيط ٢٢٠/٥ .

وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [٣٠ الأنعام][(١)] .

فقوله تعالى: (قال) حال وهي المحذوفة في آية الأعراف ، يقول أبو حيان عن (قال) هنا:"ويحتمل عندي أن تكون حالية، والتقدير: إذ وقفوا على ربهم قائلاً لهم أليس هذا بالحق"[(٢)]، فما سر حذف الحال من آية الأعراف، وذكرها في آية الأنعام ؟ .

بتأمل هاتين الآيتين يظهر أن بينهما فرقاً ظاهراً فالحديث في آية الأنعام عن فصل القضاء، ووقوف العباد بين يدى ربهم ، فهو موقف حساب واستجواب ، فلا بد من إيضاح القائل والتنصيص عليه حتى لا يُظن أن ذلك بعض عمل الملائكة، خاصة وأن هناك محاورات كثيرة للملائكة مع العباد يوم القيامة ، لذا كان تحديد القائل هنا مهماً ولا يظهر ذلك إلا بإظهار (قال)، وقد جاء ما يدل على توليه سبحانه ذلك بذاته العلية ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم:"ما منكم أحد إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ..."[(٣)]، ولا شك أن إظهار الحال المصورة لتولية استجواهم سبحانه حيث يعرضون عليه لهو أهلع للقلوب، وأعظم في بيان عظم ذلك الموقف .

أما آية الأعراف فالحديث فيها عن أخذ الميثاق على بني آدم وهم في ظهور آبــائهم ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا منه سبحانه، ثم إن في الآية ما يدل على المحذوف ويرشد إليه مثل قوله تعــالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [١٧٢ الأعراف]، ثم إن في الحذف هنا إظهاراً لعظم شأن المذكور وهو أخذ الميثاق فبالحذف توفرت العناية عليه، وتوجه الاهتمام إليه، ثم إن فيه استحضاراً دائماً لتلك الــصورة، وهــذا أوقــع في الاتعاظ والائتمار لكل من يقرأ هذه الآية فهو يحس كأن الميثاق أخذ عليه الآن، فيتجــدد نشاطه ويعود إلى رشده، ويوحد خالقه ويمجده بما هو أهله سبحانه[(٤)] .

٢- حذف الحال في غير سياق القول .

وهو ليس في الكثرة مثل سابقه ، لذا سنذكر شواهده ونشير إلى الــسر فيهــا مــا

---

(١) – ومثلها في التصريح بالحال آية الزخرف ١٥ .

(٢) – البحر المحيط ٤/٤٨١،٤٨٠ .

(٣) – صحيح البخاري (مع الفتح) كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذّب ، ح(٦٥٣٩)، ١١/٤٠٨.

(٤)– انظر من الشواهد غير ما ذكر:٤٤آل عمران،٩٣،٧١،٦٣الأعراف،١٢٧التوبة، ١٠٣طه، ١٠الحج، ٤١الفرقان، ٥٤الشعراء، ٩٠النمل، ٣٦ص، ٦٦الواقعة، ٤٢المدثر، ١٢المرسلات .

استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، وقبل ذلك أحب أن أنبه إلى أن بعض الشواهد محل نظر ، خاصة ما كان فيه معمول الحال المحذوفة جاراً ومجروراً فإنه في الغالب يكون تقديراً لذلك المتعلّق، وهذا لا يدخل معنا هنا، بل سبقت مناقشته مع الجار والمجرور[1] أما ما نحن بصدده من شواهد فكقوله تعالى:﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [١٨٥البقرة] .

يقول ابن جني:"...فأما ما أجزناه من حذف الحال في قوله تعالى:(فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فطريقه أنه لما دلت الدلالة عليه من الإجماع والسنة جاز حذفه تخفيفاً ..."[2] ، وقدره الزمخشري بقوله:"أي:حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر..."[3] ، وكما نرى فسر الحذف عند ابن جني هو التخفيف ، والحق أننا لو نظرنا إلى هذا المحذوف لرأينا أنه معلوم بداهة لأن عدم العوارض هو الأصل ، أما الطارئ فهو المرض والسفر فكان لابدَّ من النص عليه، وما دام المحذوف معلوماً ودلائله واضحة وذكره لا يزيد في المعنى شيئاً فالبلاغة طيه وحذفه .

وشبيه بهذا قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ [٦المائدة] ، ففيها حال محذوفة تقديرها: إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون فاغسلوا ، لكنها حال معلومة معروفة دلت عليها الأحاديث القولية والفعلية وأصبحت من المسلمات فلا مجال لذكرها ، وليس من داع لإبرازها وليس فيها شك ولا مراء،وفي هذا الحذف والذي قبله تعويل على فهم السامع ومعرفته المسبقة بأن هذا الأمر معلوم لا يُنكَر ولا يُجحَد فلا يُحتاج إلى إظهاره وإبرازه .

وقال بعضهم بل الآية على ظاهرها وهي دالة على أن الوضوء واجب على كل من قام إلى الصلاة متطهراً كان أو محدثاً[4]، "وذهب الجمهور إلى أنه لا بد في الآية من محذوف وتقديره: إذا قمتم إلى الصلاة محدثين ، لأنه لا يجب الوضوء إلا على المحدث ويدل على هذا المحذوف مقابلة بقوله: (وإن كنتم جنباً فاطهروا) "[5] .

---

(1) – انظر مثالاً على ذلك لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [٥٢ آل عمران] ، أي :ذاهبا أو ملتجئاً وقد تقدم مناقشة ذلك في ص ١٥٤من هذا البحث.

(2) – انظر الخصائص ٣٧٨،٣٧٩/٢ ، و إعراب القرآن المنسوب للزجاج ٧٨٤/٣ .

(3) –الكشاف ٢٢٨/١ .

(4) – انظر الكشاف ٦٠٦/١ .

(5) – البحر المحيط ١٨٨/٤ .

وقد ذُكِرَ أن الخلفاء الراشدين وابن عمر كانوا يتوضأون لكل صلاة ، ولكن ذلك – والله أعلم على سبيل طلب الفضيلة، يقول ابن عاشور مبيناً أن دلالة هذا المحذوف ظاهره: "فمفهوم الشرط وهو قوله:(وإن كنتم مرضى)، ومفهوم النفي وهو: (فلم تجدوا ماء) تأويل بيِّن في صرف هذا الظاهر عن معناه ، بل في بيان هذا المجمل ، وتفسير واضح لحمل ما فعله الخلفاء على أنه لقصد الفضيلة لا الوجوب"[1].

ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [٥٨، ٥٩النحل]، يقول أبو حيان: " (أيمسكه) قبله حال محذوفة دل عليها المعنى، والتقدير: مفكراً أو مدبراً، (أيمسكه) "[2]، في هذه الآية برز حالان للمبشَّر بالأنثى وهما: (وهو كظيم) و(يتوارى) وحذفت الثالثة (مفكراً)، أو (حائداً) أو (متردداً)[3] فما سر حذفها ؟ .

لا شك أنه لو حذفت إحدى الحالين: (وهو كظيم) و (يتوارى) لما دل شيء عليها ؛ لذا كان لابد من ذكرها ، ولأن في ذكرهما تصويراً كاملاً للحال التي عليها المبشَّر بالأنثى، أما (متفكراً) أو (متردداً)، أو(حائداً)، فيدل عليها قوله:(يتوارى) و(أيمسكه على هون)، ثم إن في طي هذه الحال إشاعة وتعميماً لنوع الحال التي كان عليها المُبشَّر وهذا التعميم مقصود هنا ، فكأنهم كانوا متفقين في التواري والغيظ ، لكنهم يختلفون في الحال التي تعقب البشرى ويليها القرار فبعضهم يختلي متفكراً ، وبعضهم ينفرد متردداً ، وبعضهم يتوارى مراجعاً نفسه وكل هذه الأحوال وغيرها ممكن هنا وربما يمثل شرائح من تلك القبائل ،فهم وإن اتفقوا في الوأد إلا أنهم يختلفون في طريقته وما يعقبه ويسبقه من أحداث؛ لذا كان حذف الحال وما نتج من إشاعة وتعميم هو عين البلاغة هنا ، والله أعلم[4] .

ومن الشواهد قوله تعالى:﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا

---

[1] – التحرير والتنوير ١٢٩/٦ .

[2] – البحر المحيط ٥٤٩/٦ .

[3] – انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٣٢١/٥ .

[4] – ومن هذا القبيل آية آل عمران: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ...﴾ [٤٤] ، "أي: (ينظرون أيهم يكفل ، ودل على المحذوف (يلقون أقلامهم) " البحر المحيط ٤٥٩/٢ ، وقدره بعضهم: يتساءلون ، وبعضهم: يقولون وغيرها ، انظر أنوار التنزيل مع حاشية الشهاب عليه ٥٠/٣ ، وإعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٥١٠/١ ، فمن أجل استيعاب كل تلك الأحوال وجمعها حذفت الحال ؛ لأن في ذكرها تحديداً لبعض الواقع دون بعض، والله أعلم .

لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ﴾ [٧١ الكهف] ، يقول الدرويش: "ولا بد من تقدير محذوف، أي: فانطلقا يمشيان"[١]، وقد دل على هذه الحال المحذوفة الحديث الصحيح: "فانطلقا يمشيان على ساحل البحر..."[٢]، وسر حذف هذه الحال وضوح الدلالة عليها ؛ فقبلها الفعل (فانطلقا) وهو مشعر بذلك ، ثم هم في حالة سفر وهذه هي حالة المسافر ، ثم إن العناية متوجهة إلى نتيجة هذا الانطلاق ، فليس المعنى هنا هو بيان حالة الانطلاق كيف كانت ؟ إذ لا مسوغ لذلك بل المراد هو ماذا حصل بعد ذلك من ركوب السفينة وخرقها ؛ لأن هذا هو محط العبرة وموضع الفائدة هنا، فكان في إسقاط هذه الحال تهيئة للذهن للانتباه إلى المقصود ونقل له لتوجيه العناية إلى المهم .

وهكذا تتعدد الأسرار ويبقى هذا الكتاب الخالد مليئاً بالعجب والنوادر وقد ينعم الله على بعض عباده فيلهمه بعض تلك الكنوز وقد يحار الذهن ويعجز أمام تلك العظمة الباهرة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

٣- حذف الحال لوجوده في النظير .

هذا النوع تصلح شواهده لدراسة ذكر الحال وحذفها،لأننا إن راعينا المذكور مقابل المحذوف كان من قبيل الذكر،وإن كان العكس كان العكس، ولكن لما كان الأصل الذكر تساءلنا عن الحذف مما له نظير يماثله سواء أكان في آية واحدة، أم في آيات متعددة متتالية أو متفرقة .

فأما ما كان في آية واحدة فكقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ﴾ [٩٩ الأنعام] ، فإن الحال المذكورة هي من الرمان،وحذفت الحال من الأول(الزيتون) والتقدير: والزيتون متشابهاً[٣].

وسر الحذف -والله أعلم- الإلماح إلى اشتراكهما اشتراكاً كاملاً في الحالين المنصوص عليهما، ولو ذكرت الحال مع (الزيتون) ثم كررت مع (الرمان) لعلم من ذلك أن الحالين وإن اتفقا لفظاً إلا أنهما يختلفان مدلولاً ، تماماً كما مر بنا في قوله تعالى: "حملته أمه كرها ووضعته كرها" وليس هذا بمراد هنا،بل ما يدل على القدرة والإبهار والإتقان ودقة الصنع

---

(١) – إعراب القرآن الكريم وبيانه ٧/٦ .

(٢) – صحيح البخاري (مع الفتح) ، كتاب التفسير ، باب وإذ قال موسى لفتاه...، ح(٤٧٢٥) ، ٢٦٢/٨.

(٣) – انظر البحر المحيط ٥٩٩،٦٠٠/٤ .

هو اجتماعها في تلك الحال من حيث الاشتباه والاختلاف ، وفيه أيضاً إيماء إلى عظيم المنة على الخلق حيث جعلت هذه المزروعات على تلك الأحوال المتنوعة .

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [٥٨ الأعراف]،يقول أبو حيان عن قوله:(يخرج نباته):"حال محذوفة أي:يخرج نباته وافياً حسناً فحذفت لفهم المعنى والدلالة:(والبلد الطيب)عليها ولمقابلتها بقوله:(إلا نكداً)، ولدلالة:(بإذن ربه)؛لأن ما أذن الله في إخراجه لا يكون إلا على أحسن حال"[1].

وذكر ابن عاشور أن الكلام في هذه الآية من قبيل الاحتباك "إذ لم يذكر وصف الطِّيب بعد نبات البلد الطيب ، ولم تذكر الأرض الخبيثة قبل ذكر النبات الخبيث لدلالة كلا الضدين على الآخر ، والتقدير: والبلد الطيب يخرج نباته طيباً بإذن ربه ، والنبات الذي خبث يخرج نكداً من البلد الخبيث، وهذا صنع دقيق لا يُهمل في الكلام البليغ "[2].

وإضافةً إلى ما ذُكر فإن الحذف يوحي بأن المحذوف عام كثير الأوصاف والذكر يحدده ويضيق أفقه ، لذا كان عاماً مطلقاً ويدل لهذا كثرة التقديرات التي يمكن أن تذكرها فيمكن أن يقال (طيباً، كثيراً ، حسناً ، وافياً ، غزيراً ، نافعاً ، عاماً) وغير ذلك[3]، ولما كان ذكرها جميعاً ليس من دلائل البلاغة كان الحذف هو أفضل الطرق لإفهامها جميعاً ؛ لأن الذهن يذهب مع هذا المحذوف كل مذهب ، وكل ذلك في حدود المدح والحمد لوجود الدلائل على ذلك .

هذا ما كان فيه حذف في آية واحدة أما ما كان في آيات متتالية فمن شواهده قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [٩٠، ٩١ آل عمران] ، ففي الآية الأولى لم تأت الحال:(وهم كفار) بينما ذكرت في الثانية، والآيتان مشتركتان في عدم القبول من الكفار، وقد ذكر الزمخشري أن قوله تعالى: (لن تقبل توبتهم) كناية عن الموت على الكفر[4]، وهي

---

(١) - البحر المحيط ٥/٧٩ .

(٢) - التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ١٨٦ .

(٣) - انظر بعض هذا في روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ١٤٧ .

(٤) - انظر الكشاف ١/ ٣٨٣ .

بهذا شبيهة بالآية الثانية ، وقال ابن عاشور: "وإن كان المراد في الآية السابقة من (الذين ازدادوا كفراً)، الذين ماتوا على الكفر، كانت هذه الآية كالتوكيد اللفظي للأولى "[١]،وعلى هذا فما سر حذف الحال من الأولى وذكرها في الثانية ؟.

ذكر الرازي أن الكافر على ثلاثة أقسام : أحدها صاحب التوبة النصوح المقبولة فهذا المذكور في قوله تعالى: " إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم" ، وثانيها : الذي يتوب عن الكفر توبة فاسدة وهو المذكور في الآية السابقة المخبر عنه بأنه لن تقبل توبته ، والثالث : الذي يموت على الكفر من غير توبة البتة وهو المذكور في الآية التي تليها[٢] .

وهذا تعليل حسن وتقسيم يزيل الإبهام والآيات دالة عليه ، فالحال إذاً مختلفة بين الآيتين ، ففي الأولى نفي لقبول التوبة بسبب ازدياد الكفر ، ولا يعني هذا أنه لا تقبل توبة التائب من الكفر فهذا محسوم بالنصوص ولكن عدم قبولها مرهون بأسبابه من تأخيرها إلى حد الموت،أو كونها فاسدة،أما الآية الثانية ففيها تصريح بعدم قبول الافتداء ؛ لأنهم ماتوا على حالة الكفر ،لهذا لم تظهر الحال في الآية الأولى لوجود موانع أخرى تمنع قبول التوبة وهم متلبسون بها ، أما الثانية فلا ذكر للتوبة بل الذكر فيها لعدم قبول الافتداء وقد صُرّح معه بالسبب في ذلك وهو موتهم على الكفر ، فكان ذكر الحال معها ضرورياً لبيان سبب عدم القبول .

ومن ذلك قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام:﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ [٧٦ الأنعام]، فلم يذكر لهذا الكوكب حالاً مثل:(بازغاً) كما جاء فيما بعده:﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٧٧، ٧٨ الأنعام]، فما سر الحذف من الأول والذكر في الموضعين التاليين ؟.

يقول أبو حيان مجيباً عن هذا:" لم يأت في الكواكب:رأى كوكباً بازغاً؛ لأنه أولاً ما ارتقب حتى بزغ الكوكب؛ لأنه بإظلام الليل تظهر الكواكب بخلاف حالة القمر والشمس فإنه لما أوضح لهم أن هذا النير وهو الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون رباً،

---

[١] – التحرير والتنوير ٣/٣٠٥ .

[٢] – انظر مفاتيح الغيب ٨/١١٥ .

ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ على سبيل إلحاقه بالكواكب،والاستدلال على أنه لا يصلح للعبادة فرآه أول طلوعه وهو البزوغ، ثم عمل كذلك في الشمس ارتقبها إذ كانت أنـــور من القمر وأضوأ وأكبر جرماً وأعم نفعاً ومنها يستمد القمر على ما قيل، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبين أنها مساوية للقمر والكواكب في صفة الحدوث"[1] .

ويظهر بهذا أن تلك الحال لا مسوغ لذكرها مع الكوكب ؛ لأنه فات وقتها إذ قـــد رآه وقد جن الليل فلا ذكر للبزوغ ، لكن قد يقال لِمَ لم تذكر له حال أخرى مثل – فلما رأي: كوكباً نيراً أو مضيئاً أو كبيراً ؟ نقول : يبدو أنه ليس هناك تعيين لكوكب بعينـــه لكثرتها في جُنة الليل لذا لم يذكر لها حالاً ولم يحددها بصفة ، بينما الشمس والقمر لهمـــا عند الناس شأن، ويعرفهما كل أحد، ويعلمون مطالعهما ومشارقهما ؛ لذا ذكرهما بحـــال معينة وهي البزوغ؛ لأنها الحال التي يظهر بها شأنهما ثم استدل علـــى عجزهمـــا وعـــدم استحقاقهما الربوبية بضده، وهو الأفول ؛ لأنه أقل أحوالهما ولأنه دليل غيابها ونقصانها، والإله المستحق للعبادة ليست هذه صفته .

---

[1] – البحر المحيط ٤/٥٦٥ ، ٥٦٦ .

المبحث الثالث: تعدد الحال .

أنكر بعض النحويين تعدد الحال لصاحب واحد ، وأهمل آخرون بعض صوره ، والحق هو القول بالتعدد ، قال ابن هشام : " ولشبه الحال بالخبر والنعت، جاز أن تتعدد لمفرد وغيره " [1] ، وقد اجتمع لي من شواهد تعدد الحال في الذكر الحكيم ما يزيد على مائتين وخمسين شاهداً ، وقد حيرني هذا العدد في كيفية دراسته ، فرأيت _ بعد تأمل ونظر _ أن أجعله على التقسيم الآتي:

أولاً: أقسام تعدد الحال .

ثانياً: أنماط تعدد الحال في القرآن الكريم .

ثالثاً: أساليب تعدد الحال في القرآن الكريم .

رابعاً: قضايا مهمة في التعدد :

١- الترتيب بين الأحوال.

٢- العطف وعدمه.

٣- التداخل والترادف.

---

[1] - أوضح المسالك ٢/٣٣٥ .

أولاً: أقسام تعدد الحال .

تبين لي أن أقسام تعدد الحال عند النحويين هي :

١- تعدد الحال لصاحب واحد ، وله صورتان : بعاطف ، وبغير عاطف .

٢- تعدد الحال لمتعدد ، وله صورتان : ما كانت الحال فيه متحدة اللفظ والمعنى، وما كانت فيه الحال على غير ذلك .

١- تعدد الحال لصاحب واحد .

أ- كونه بعاطف .

هذه الصورة من صور التعدد كانت الأكثر وروداً في الذكر الحكيم -حسبما ظهر لي- رغم إنكار ابن هشام لها[1]، ثم إن هذا النوع كان أكثر من غيره تكَرُّراً وذلك ظاهر في الأحوال التي جاءت مبينة لوظيفة الأنبياء ، أو الكتب ، ثم إن هذا النوع أيضاً هو الأكثر في عدد الأحوال المتتالية من الصاحب الواحد فربما جاءت خمسة أحوال متتابعة كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [٤٥، ٤٦ الأحزاب] ، وقد كان العطف بالواو هو الغالب ،وأقل منه شواهد بالعطف بـ (أو) ، مثل قوله تعالى:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [١١فصلت] .

ومن القضايا البارزة في هذا النوع غير ما ذكر كثرة ذكر المقابل والمضاد في تلك الأحوال، وأقل منه ذكر الموافق فمثال الأول قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [٢٧٤ البقرة] [2]،ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٩٥ الأعراف][3] .

هذه القضايا الخمسة هي أبرز ما ظهر لي بعد النظر في شواهد هذه الصورة ، وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لذلك .

---

(1) - انظر أوضح المسالك ٢/٣٣٦ .

(2) - وانظر مثلها تماماً في ٢٢ الرعد ، و٣١ إبراهيم ، و ٢٩ فاطر.

(3) - وانظر مثلها تماماً ١٠٧ يوسف، و ٢٠٢ الشعراء،و ٥٣ العنكبوت ، و ٦٦ الزخرف.

ب- كونه بلا عاطف .

وهذه الصورة أقل من سابقتها وروداً في القرآن، وكذلك هي أقل تكرراً في النموذج الواحد، وهي تفوق الصورة السابقة بكثرة التعدد فيها بتكرار اللفظ ذاته في الموضع الواحد مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [٢٢ الفجر]، أو بذكر مرادفه مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ ﴾ [٤ المائدة]، أو بذكر ما يقرب من مرادفه وهو كثير مع (غير) كقوله تعالى :﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [١٤٠ الأنعام] ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ [٢٤ النساء]،﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [٣١ الحج]،كما أن هذه الصورة يكثر فيها تعدد الحال من غير العاقل على خلاف سابقتها،ومن شواهد ذلك قوله تعالى:﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ [١٠٦ طه]،وقوله تعالى:﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [٨١ الأنبياء] ، وقوله تعالى:﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [٢١ الحشر] وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [١٥-١٧ المعارج].

وهكذا نجد أن بين هاتين الصورتين توافقاً في وجوه واختلافاً في أخرى ، ولنا مع وجود العاطف من عدمه وقفة أخرى ستأتي إن شاء الله [١] .

٢- تعدد الحال لصاحب متعدد .

أ- ما كانت فيه الحال متحدة اللفظ والمعنى .

وفي هذه الصورة تثنى الأحوال أو تجمع ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [٣٣ إبراهيم]،وقوله تعالى:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١٢ النحل]، على قراءة نصب (مسخرات) ،"والأصل مسخراً ومسخراً ومسخرة ومسخراً ومسخرة، فلما اتحدت جمعت"[٢]، وإنما كان الأولى تثنيتها أو جمعها للاختصار والتخفيف من ذكر ألفاظ كثيرة وغيرها يغني عنها[٣] .

---

(١) - انظر ص ٢٧٣ من هذا البحث.

(٢) شرح التصريح على التوضيح ٣٨٦/١.

(٣) - انظر ضياء السالك (الحاشية) ٢٣٨/٢.

ب- ما كانت فيه الحال مختلفة المعنى .

وفي هذه الصورة يفرق بين الأحوال لعدم إمكان الجمع لاختلاف المعنى ، ولم أجد لهذه الصورة شواهد ظاهرة إلا مثل قوله تعالى﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٣٥ البقرة] على القول بأن (حنيفاً) حال من (ملة)، و(ما كان من المشركين) حال من إبراهيم[١] ، فالحال الأولى من الصاحب الأول، والحال الثانية من الصاحب الثاني، والمخالفة في التذكير والتأنيث سبق بيانها في الفصل الأول[٢]، وأظهر من هذا قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٣٢ النحل] فـــ(طيبين) حال من مفعول (تتوفاهم)، و(يقولون) حال من (الملائكة)[٣].

وعلى كل حال فهذا النوع بصورتيه محل نظر، فهناك من النحويين من لا يعده من قبيل التعدد جاء في حاشية يس على شرح التصريح قوله:"... وههنا بحث وهو أن مسألة الجمع ...والتثنية لا تدخل تحت تعدد الحال ، إذ الحال ثَمَّ واحدة ، كالخبر في (الزيدون قائمون) ... ، وأيضاً إذا تعددت الحال مع تعدد صاحبها وكل حال راجعة إلى صاحبها فلا تعدد في الأحوال"[٤].

والذي أراه أن هذا الرأي هو الحقيق بالقبول؛ لعدم وجود ما يسوغ القول بالتعدد فالحال المجموعة والمثناة في مثل الشواهد السابقة لا تعدد فيها ؛ لأنها لو فُك فيها الجمع أو التثنية لكان لكل صاحب حال تخصه، فيكون التقدير في آية إبراهيم: وسخر لكم الشمس دائبة والقمر دائباً، فأين التعدد ؟، ولذا وقع ابن هشام في التناقض عند قوله بالتعدد في مثل هذا ، ثم مَنَعَ أن يكون منه ما كان بعاطف حيث قال: "وليس منه : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٣٩ آل عمران]..."[٥]، ثم قال عما اتحد لفظه ومعناه، كقوله

---

[١]- انظر البحر المحيط ٦٤٦/١ ، والدر المصون ١٣٧/٢ .

[٢] - انظر ص٧٩ من هذا البحث .

[٣] - انظر التبيان ٧٩٥/٢ ، والحال في الأسلوب القرآني ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

[٤] -حاشية (يس) على التصريح ٣٨٦/١.

[٥]- أوضح المسالك ٣٣٦/٢ .

تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [٣٣ إبراهيم] : "والأصل:دائبة ودائباً"[١] ففسره بالعطف، قال الشهاب القاسمي منبهاً إلى هذا:"فيه بحث؛ إذ لو كان الأصل(ودائباً)بالعطف لم يكن من تعدد الحال على ما ادعاه هو "[٢].

وإنما ذكرت هذا النوع رغم أنه ليس من التعدد -على ماظهر لي- إعلاماً بالتقسيم العام عند النحويين، ولبيان أن هذا النوع إن كان لا بد من إلحاقه بالتعدد فالذي يهمنا منه قضية بلاغية تتعلق بسر الجمع والتثنية مع إمكان الإفراد ، وشواهد هذه القضية قد سبقت مناقشتها في الفصل الأول[٣] .

ثانياً: أنماط تعدد الحال في القرآن الكريم .

جاء تعدد الحال في القرآن الكريم على أنماط كثيرة ، أوصلها عضيمة -رحمه الله- إلى ما يقارب الثلاثين[٤]، وسأذكر مجمل تلك الصور بعد دمج بعض ما ذكر الشيخ عضيمة في بعضه، وإضافة ما لم يذكره إما اكتفاء بغيره ، وإما أنه لم يقصد بما ذكره الاستقصاء ، وسأترك ما ذكره دون استشهاد اعتماداً على وجوده في مصدره المشار إليه ، وما أضيفه أذكر له ما يمثله .

١- الحال مفردان .

٢- الحال مفردان ثم شبه جملة .

٣- الحال مفردان ثم جملة اسمية كقوله تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ ﴾ [٩٦، ٩٧ آل عمران] .

٤- الحال مفردان ثم جملة فعلية .

٥- الحال ثلاث مفردات متعاطفة كقوله تعالى:﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ﴾ [٣ النساء] .

٦- الحال أربع مفردات متعاطفة كقوله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى

---

[١] - أوضح المسالك ٣٣٧/٢ .

[٢] - حاشية يس على شرح التصريح ٣٨٦/١ .

[٣] - انظر ص ٧٧من هذا البحث .

[٤] - انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الثالث ٨٨ وما بعدها .

ﵟٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَﵞ [٣٩ آل عمران] .

٧- الحال خمس مفردات متعاطفة كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [٤٥، ٤٦ الأحزاب] .

٨- الحال مفرد ثم جملة اسمية .

٩- الحال مفرد ثم جملة فعلية .

١٠- الحال مفرد ثم شبه جملة كقوله تعالى:﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾ [٢٧الحج] .

١١- الحال مفرد ثم حالان شبه جملة .

١٢- الحال مفرد ثم جملتان اسميتان .

١٣- الحال مفرد ثم شبه جملة ثم مفرد .

١٤- الحال مفرد ثم جملة اسمية ثم مفرد ثم جملة اسمية .

١٥- الحال مفرد ثم شبه جملة ثم جملة ثم شبه جملة .

١٦- الحال جملتان اسميتان .

١٧- الحال أربع جمل متعاطفة كقوله تعالى:﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [٥-٧ النحل] .

١٨- الحال جملة اسمية ثم ثلاث مفردات متعاطفة،كقوله تعالى:﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [٤٦المائدة].

١٩- الحال جملة اسمية ثم حالان شبه جملة ثم مفرد .

٢٠- الحال جملتان فعليتان .

٢١- الحال جملتان فعليتان ثم مفرد ثم جملة اسمية كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ۝ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾ [٢٧-٣٠ المدثر] في قراءة نصب (لواحة) .

٢٢- الحال ثلاث جمل متعاطفة كقوله تعالى:﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [٢٢-٢٥ الطور].

٢٣- الحال خمس جمل فعلية متعاطفة كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [١٥٧ الأعراف] .

٢٤- الحال جملة فعلية ثم مفرد .

٢٥- الحال جملة فعلية ثم مفرد ثم جملة فعلية .

٢٦- الحال جملة فعلية ثم جملة اسمية .

٢٧- الحال جملة فعلية ثم جملة اسمية ثم مفرد .

٢٨- الحال جملة فعلية ثم جملة اسمية ثم جملة فعلية .

٢٩- الحالان شبه جملة .

٣٠- الحال شبه جملة ثم مفرد .

٣١- الحال شبه جملة ثم مفردان متعاطفان كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ [١٢ يونس] .

٣٢- الحال شبه جملة ثم ثلاث مفردات متعاطفة كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٩٧ البقرة].

٣٣- الحال شبه جملة ثم جملة فعلية .

هذه أظهر أنماط تعدد الحال ولا أدعي فيها الإحصاء الدقيق ، وإنما جمعت بين ما ذكره عضيمة-رحمه الله- وما تبين لي دامجاً المعطوف مع غيره، وكذلك الظرف والجار والمجرور في مسمى واحد، وقد رتبتها حسب الحال المبدوء بها، فأولاً المفرد ثم الجملة ثم شبهها، وقد تبين بعد النظر في تلك الأنماط ما يأتي :

أ- كثرة الحال المفردة في تصدر أنماط التعدد فقد شكلت ما يقارب نصفها ، أما وجودها

ضمن الأنماط الأخرى فقد فشت فيها حتى لم يخل منه إلا عشرة مواضع ؛ وذلك لأن في المفرد مدلولات كثيرة، وصيغاً متعددة،لاتكون في الجملة ولا شبهها، ففيه ما يدل على الواحد والمثنى والجمع، والتأنيث والتذكير، والتنكير والتعريف، والجمود والاشتقاق؛ لذا كثر وشاع .

ب- جاءت الجملة بنوعيها في المرتبة الثانية بعد المفرد في تصدر الأنماط ، وقد كانت الجملة الفعلية في هذا ضعف الجملة الاسمية،وربما تعود كثرة الجملة بحيث تقرب من المفرد إلى تنوعها أولاً من حيث الاسمية والفعلية ومن حيث النفي والإثبات ، ومن حيث المضي والمضارعة ، وثانياً إلى ما في الجملة -وخاصة الفعلية- من الدلالة على الحركة والتصوير وهو جانب لا ينوء به إلا هي .

ج- كانت الحال شبه الجملة هي الأقل في مثل هذا ، وخاصة الظرف منها، فإنه لا يوجد إلا نادراً ، وربما يعود ذلك إلى قلة الظرف موازنة بحروف الجر عموماً .

د- تدل هذه النماذج الكثيرة ، وتعدد الأحوال في النمط الواحد إلى خمسة أحياناً على أن الحال المتعددة شاركت بوضوح في تصوير أحوال وقضايا تحتاج إيضاحاً وبياناً ، أو تأكيداً وتثبيتاً ولا يتم هذا إلا بذكر كل ما يجلي ذلك من الأحوال ، وكان ذلك بارزاً في تصوير مهمات الرسل والكتب، ووصف ما للمؤمنين من النعيم يوم القيامة ، وكذلك ما للكافرين من الجحيم .

هـ- تعدد الأحوال يكون لدواعٍ تستدعيه منها :

١- رسم المشاهد كاملة كقوله تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [٤٣ إبراهيم] .

٢- استيفاء الأقسام والأحوال كقوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [١٩١آل عمران] ، قال الزركشي عن هذه الآية: "فلم يترك سبحانه قسماً من أقسام الهيئات"[1] .

٣- الاحتراس عن فهم غير المراد كما في قوله تعالى:﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ

---

[1] - البرهان في علوم القرآن ٤٧٢/٣ .

تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ [٢٢ طه] ، على أن (من غير سوء) حال، فقد جيء بها لدفع توهم غير المراد من المرض والعاهة .

٤- التقييد بأكثر من قيد وسيأتي موضحاً في فصل التقييد بالحال .

٥- استكمال جوانب المدح أو القدح، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [١١٢ الصافات]، يقول الزمخشري:" (من الصالحين) حال ثانية وورودها على سبيل الثناء والتقريظ ؛ لأن كل نبي لا بد أن يكون من الصالحين"(١).

٦- تأكيد الحال الأولى، كقوله تعالى:﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [٣١ الحج].

ثالثاً: أساليب تعدد الحال في القرآن الكريم .

لحظت أن هناك أساليب متميزة ومتكررة جاءت عليها الأحوال المتعددة ولعل من أهمها ما يأتي :

١- التعدد بذكر الشيء ومرادفه .

سواء أكان ذلك نفياً أم إثباتاً كقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [٤ المائدة]، وقوله تعالى: ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ [٢٨ المدثر].

٢- التعدد بذكر الشيء ونفي ضده .

وذلك كقوله تعالى:﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٩٥ الأعراف] وقوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [١٠٣ آل عمران] وقوله تعالى:﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [٢٤ النساء] وقوله تعالى:﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٣٥ البقرة] .

قال البقاعي عن هذه الآية: "ولما أثبت له الإسلام بالحنيفية نفى عنه غيره بقوله: (وما كان من المشركين)، قال الحرالي:فيه إنباء بتبرئة كيانه من أمر الشرك... ؛لأن نفي الشيء يفهم البراءة واللحاق بالمتأصل في مقابله ، فمن لم يكن مثلاً من الكافرين فهو من المؤمنين...لما في ذلك من معنيي إثبات الوصف ونفي مقابله ، ومثل هذا كثير الدور في

(١) - الكشاف ٥٩/٤ ، وانظر البحر المحيط ١٢٠/٩ .

خطاب القرآن ..."[1] .

٣- التعدد بذكر الشيء ثم نفيه .

وكقوله تعالى: ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ [١١٩ آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [٢ الحج] ، وهذا النوع يؤتى به لتصوير حالتين متضادتين يراد جمعهما في وقت واحد، وذكر التضاد فيها بنفي الشيء ذاته دون ذكر مناقضة مثل (يكرهونكم) ، أو(وهم عقلاء) لإثبات أقصى غايات التخالف بينهما، فالثانية ضد الأولى من جميع الوجوه لا من بعضها فقط ، ثم إن في هذا النوع اهتماماً بالحال الأولى إذ هي الأصل والثانية مبنية عليها ؛ لذا جاءت بلفظها لكن في صورة النفي إثباتاً للأولى .

٤- التعدد بذكر الشيء وضده .

و ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [٥٦ الأعراف] ، و قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ [٩٠ الأنبياء]، والمقصود من مثل هذا إثبات حالين في وضعين مختلفين متضادين ، وذكر كلاً منهما باللفظ المفصح عنه دليل على أن كلا الحالين محل عناية .

وهناك صور وأساليب أخرى لكن ما ذكرته هو الأظهر لكثرة تكرره ودورانه .

رابعاً: قضايا مهمة في التعدد .

ظهر لي من خلال استعراض شواهد التعدد ، أنه لا بد أن أشير إلى تقسيماتها المعروفة عند النحويين من خلال الشواهد القرآنية ، ثم أذكر أنماط تعددها ، ورأيت بعد ذلك أن أفرد القضايا البلاغية المتعلقة بهذا النوع تحت هذا العنوان المذكور ، ولعل أبرز ما سأتحدث فيه ما يأتي :

١- الترتيب بين الأحوال .

٢- العطف وعدمه .

٣- التداخل والترادف .

---

[1] - نظم الدرر ١٨٦/٢ .

١- الترتيب بين الأحوال .

لا شك أن ما جاءت عليه الأحوال المتعددة من ترتيب لهو مجال خصب للدراسة ؛ إذ لم يقدم بعضها على بعض و لم يؤخر بعضها عن بعض إلا لسر عظيم، ويظهر ذلك بشكل أوضح في الشواهد التي ورد فيها تناقل في المواقع ، و من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [١٩١ آل عمران] ، وجاء في آية أخرى بترتيب آخر كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾[١٢يونس]وهو كما نرى عكس الأحوال في الآية الأولى من حيث الترتيب،فالأول أصبح آخراً، والعكس بالعكس فما سر هذا التغاير؟ يقول أبوحيان عن سر ترتيب هذه الأحوال الثلاثة في سورة آل عمران:"وعلى الظاهر من تفسير الذكر[1] فتقديم القيام؛ لأن الذكر فيه أخف على الإنسان[2]، ثم انتقل إلى حالة القعود والذكر فيه أشق منه في حالة القيام؛ لأن الإنسان لا يقعد غالباً إلا لشغل يشتغل به من صناعة أو غيرها، ثم انتقل إلى هيئة الاضطجاع والذكر فيها أشق منه في هيئة القعود؛ لأن الاضطجاع هو هيئة استراحة وفراغ عن الشواغل[3]، ويمكن في هذه الهيئات أن يكون التقديم لما هو أقصر زمناً، فبدئ بالقيام؛ لأنها هيئةٌ زمانُها في الغالب أقصر من زمان القعود، ثم بالقعود؛ إذ زمانه أطول، وبالاضطجاع؛ إذ زمانه أطول من زمان القعود، ألا ترى أن الليل جميعه هو زمان الاضطجاع، وهو مقابل لزمان القعود والقيام وهو النهار ؟!

وأما إن كان الذكر يراد به الصلاة المفروضة،فالهيئات جاءت على سبيل الندرة[4]، فمن قدر على القيام لا يصلي قاعداً،ومن قدر على القعود لا يصلي مضجعاً، وأما إن كان يراد به صلاة النفل فالهيئات على سبيل الأفضلية؛إذ الأفضل التنفل قائماً ثم قاعداً ثم مضطجعاً"[5].

---

(١) – وهو عنده :الذكر باللسان مع حضور القلب، انظر البحر المحيط ٤٦٨/٣ .

(٢) – لأنه غالباً لا يكون مشغولاً بشيء ، هو وقت قد يضيع سدى ، فكان لهذا أولى الأوقات بإشغاله بالذكر .

(٣) – أو لأنه أكثر الأحوال انشغالاً بالملذات وهي ملهية عن الذكر فمن غلب نفسه وهواه واشتغل بالذكر حتى في تلك الحالة فهو الصبور المجاهد ، وليس الاضطجاع ـ في نظري ـ هو الفراغ من الشواغل على ما ذكر أبو حيان؛ لأنه لو كان كذلك لكان هو أسهل الحالات في الذكر كما هو حال القيام بل هو أسهل منه .

(٤) – هكذا هي في نسختين مطبوعتين، (طبعة دار إحياء التراث العربي الثانية ١٤١١هـ-١٩٩٠م) ١٣٩/٣، و (طبعة المكتبة التجارية (الباز)) ٤٦٩/٣، ولعل الصحيح (القدرة) لدلالة ما بعدها عليها، ولعدم استقامة المعنى على اللفظ الموجود بل الأحوال على عكسه تماماً ؛ فإن الأكثر هو الصلاة قياماً وأقله الصلاة اضطجاعاً،وربما يؤيد أن المراد الصلاة ما جاء في سورة النساء ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [١٠٣]، فإن السياق عن الصلاة والمعنى صلوا على هذه الأحوال، أو المراد الذكر المتصل بصلاة الخوف انظر في هذا الكشاف ٥٦٠/١ ، والبحر المحيط ٥٣/٤ والتحرير والتنوير ١٨٨/٥ .

(٥) – البحر المحيط ٤٦٩/٣ .

وهذا تحليل شامل ضاف لتلك الاحتمالات ، وأما آية يونس فإن الأمر فيها مختلف فقد بدئ فيها بحالة الاضطجاع ثم القعود ثم القيام فما سر ذلك ؟ .

السر في ذلك -والله أعلم- أن الأمر هنا يتعلق بدعاء المضطر ، وهناك بالذكر العام في الأحوال كلها فلما كان الدعاء في حال الاضطرار أعظم وأدعى للاستجابة من غيره جاء الترتيب على ما في النظم الكريم، يقول أبو حيان: "وابتدأ بالحالة الشاقة ، وهي اضطجاعه وعجزه عن النهوض، وهي أعظم في الدعاء وآكد ، ثم بما يليها وهي حالة القعود وهي حالة العجز عن القيام، ثم بما يليها وهي حالة القيام ، وهي حالة العجز عن المشي فتراه يضطرب ولا ينهض للمشي كحالة الشيخ الهرم"(١).

ومن الشواهد التي فيها تخالف قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٥٦ الأعراف] ، وجاء تقديم الرغبة على الرهبة في قوله تعالى في إجابة دعاء زكريا عليه السلام:﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ [٩٠ الأنبياء] فما سر المخالفة في ترتيب الأحوال بين الرغبة والرهبة مع أن الموضوع واحد وهو الدعاء ؟

جواباً على ذلك نقول : إن السبب في ذلك -والله أعلم- أن تقديم الخوف على الطمع في آية الأعراف جاء بعد ذكر النهي عن الإفساد ، وهذا يعني أن الأمر بالدعاء جاء عقب ذكر المعصية، فكان تقديم الخوف أولى ليكون أزجر لهم عن اقتراف المعاصي ، بينما في آية الأنبياء جاءت الآيات متتالية في الثناء على الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وجاءت هذه الآية كالتعليل لكل ما سبق ، مبينة حالهم في الدعاء ، ولما كان الحال ما ذكر من الطاعات العظيمة ، ومن شأن الذين تلبسوا بها وهم أكرم الخلق على الله (الأنبياء والمرسلون) ، كان تقديم الرغبة والرجاء أولى ؛ لأنها في حق من عصمهم الله من الزلل والعُجْبِ بالنفس والأمن من مكره سبحانه؛ لذا يعود الأمر إلى أصله في حقهم وهو أن رحمته سبحانه سبقت غضبه ؛ لذا قال سبحانه:(يدعوننا رغباً ورهباً) ، ومما يؤيد ما

---

(١) - البحر المحيط ٦/٢٠، وللاستزادة انظر البرهان في علوم القرآن ٣/٤٧٠، وقد سبق في الفصل الأول عند الحديث عن اللام في دلالة شبه الجملة بيان لسر التعبير باللام في (لجنبه) و(على) في (على جنوبهم)، انظر ص ١٥٧من هذا البحث.

ذُكِرَ قوله تعالى بعد ذلك: (وكانوا لنا خاشعين) ؛ فإن التعبير بالكون الماضي يدل على أن خوفه سبحانه سمة متأصلة فيهم فلا خوف عليهم من عجب أو تكاسل أو تواكل ، وإنما يقدم الخوف والترهيب في حق المتكاسل المعجَبِ بعمله المسرف على نفسه .

أما ما جاء من الترتيب في الأحوال المتعددة على نسق واحد كقوله تعالى:﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [٢١٣ البقرة] .

فـ (مبشرين ومنذرين) حالان من (النبيين)[١]،وقد جاءت البشارة والنذارة بهذا الترتيب أحوالاً من الأنبياء والرسل في أكثر من عشرة مواضع[٢]،وعن سر تقديم البشارة على النذارة في مثل هذا يقول أبو حيان:"وقدم البشارة ؛ لأنها أبهج للنفس وأقبل لما يلقي النبي،وفيها اطمئنان المكلف والوعد بثواب ما يفعله من الطاعة..."[٣] .

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٢٧٤ البقرة] [٤]، وسبب تقديم حالة الإسرار على الإعلان،أن صدقة السر أعظم وأفضل في العموم؛لذا قدم "الوقت الذي كانت الصدقة فيه أفضل،والحال التي كانت فيها أفضل"[٥]، وقال البقاعي : "وقدم من المتقابلين ما كان أقرب إلى الإخلاص اهتماماً به،دلالة على فضله"[٦].

وقال تعالى:﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ [٢٨٢ البقرة] .

يقول أبو حيان:"وانتصاب(صغيراً)و(كبيراً) على الحال من الهاء في أن تكتبوه..."[٧] ، أما سر التقديم فيقول عنه ابن عاشور: "وتقديم الصغير على الكبير هنا مع أن مقتضى الظاهر العكس كتقديم السِّنة على النوم في قوله تعالى: (لا تأخذه سنة ولا نوم) ؛ لأنه قصد هنا إلى التنصيص على العموم لدفع ما يطرأ من التوهمات في قلة الاعتناء بالصغير ،

---

[١] - انظر البحر المحيط ٣٦٤/٢ ، والتحرير والتنوير ٣٠٦/٢ .
[٢] - انظر مثلا: ١١٩ البقرة ، و١٦٥ النساء ،و ٤٨ الأنعام،و ١٠٥ الإسراء، وغيرها .
[٣] - البحر المحيط ٣٦٤/٢ .
[٤] - ومثلها: ٢٢ الرعد، و٣١ إبراهيم ، و٧٥ النحل،و٢٠ فاطر.
[٥] - البحر المحيط ٧٠١/٢ .
[٦] - نظم الدرر ١٧/٤ .
[٧] - البحر المحيط ٧٣٧/٢ .

وهو أكثر،أو اعتقادهم عدم وجوب كتابة الكبير لو اقتصر في اللفظ على الصغير"[1]،فابن عاشور هنا يشير إلى أنه لابد من وجود الحالين وعلى هذا الترتيب خصوصاً للسر الذي أشار إليه ، وهو كلام حقيق بالقبول كما ترى .

وقال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [٢٧ الحج] ، أي: مشاةً وركباناً ، يقول ابن القيم رحمه الله: "وأما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جليلة ، وهي أن الله شرط في الحج الاستطاعة ولا بد من السفر إليه لغالب الناس ، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلاّ على راكب ، وقدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتأكيداً ، ومن الناس من يقول: قدمهم جبراً لهم؛ لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول: إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم، وربما توهموا أنه غير نافع لهم فبدأ بهم جبراً لهم ورحمة"[2] .

ويبدو لي أن هذا الكلام يكون متوجهاً لو كانت الآية بالأمر لا بالخبر بأن يقال: (اقدموا رجالاً وعلى كل ضامر)، لكن الآية جاءت بالخبر فهو حكاية لما ستكون عليه الاستجابة، لذا فما ذكره الزركشي أولى في نظري، حيث يذكر في سبب ذلك؛ أن "الغالب أن الذين يأتون رجالاً من مكان قريب ، والذين يأتون على الضامر من البعيد، ويحتمل أن يكون من التقديم بالشرف؛لأن الأجر في المشي مضاعف،أما قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢٣٩]،مع أن الراكب متمكن من الصلاة أكثر من الماشي فجبراً له في باب الرخصة"[3] .

ولعل من أسباب تقديم حالة المشي في الحج التنبيه على عظم الاستجابة التي قذفها الله في قلوب الناس لتلك الدعوة تقويةً لقلب إبراهيم عليه السلام وتثبيتاً له-وإحياءً لهذا العبادة رغم ما فيها من المشاق،يقول ابن عاشور:"فالمقصود منه استيعاب أحوال الآتين تحقيقاً للوعد بتيسر الإتيان المشار إليه...؛ولكون هذه الحال أغرب قدم قوله تعالى:(رجالاً)..."[4] وفي التقديم أيضاً ما يشير إلى أنه إذا جاء هؤلاء الراجلون مشياً على أقدامهم ، فالراكبون

---

(١) - التحرير والتنوير ١١٤/٣ .

(٢) - بدائع الفوائد ٦٩/١.

(٣) - البرهان في علوم القرآن ٢٤٩/٣ .

(٤) - الكشاف ٢٨٨/١ .

من باب أولى ، وأما آية البقرة فالحديث فيها عن الصلاة في حالة الخوف والتقدير:(فصلوا راجلين)[١]، فهي حال وما بعدها معطوف عليها والعامل محذوف[٢]، وسبب تقديم (رجالاً) على (ركباناً) هو بيان ضرورة المحافظة على الصلاة وأدائها في أصعب الأحوال وهي الخوف وفي أشد حالاته وهي المشي إظهاراً لعظم شأن هذه الفريضة.

ومن الشواهد قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [٤٦سبأ] .

فقوله عز وجل (مثنى وفرادى) "في موضع نصب على الحال من الضمير في تقوموا أي: متفرقين اثنين اثنين ،وواحداً واحداً.، أو متجمعين ووحداناً"[٣].

الأصل أن يقدم الأقل في العدد ثم الذي يليه وهذا ما عليه الأعداد في القرآن الكريم، يقول الزركشي: "...جميعُ الأعداد،كُلُّ مرتبة هي متقدمة على ما فوقها ..."[٤]، وعلى هذا فما سر تقديم الأكثر على الأقل ؟ يقول أبو حيان: "وانتصب (مثنى وفرادى) على الحال ، وقدم (مثنى)؛ لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة، إذا [٥] انقدح الحق بين الاثنين فكر كل واحد منها بعد ذلك فيزيده بصيرة"[٦]، ويقول ابن القيم: "فأشار بقيامهم اثنين اثنين إلى المناظرة وفرادى إلى النظر والتفكير"[٧]، ويعلل الزركشي التقديم بقوله:"فوجه تقديم المثنى أن المعنى حثّهم على القيام بالنصيحة لله، وترك الهوى، مجتمعين متساويين،أو منفردين متفكرين، ولا شك أن الأهم حالة الاجتماع فبدأ بها"[٨] .

ويعلل البقاعي التقديم بتعليلين أولها قوله: "وقدمه إشارة إلى أن أغلب الناس ناقص

---

(١) – التحرير والتنوير ٢٤٣/١٧ .

(٢) – انظر البحر المحيط ٥٤٩/٢ .

(٣) الفريد في إعراب القرآن المجيد ٧٧/٤ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ٢٤٦/٣ .

(٥) هكذا وجدتها ، ولعل الأصح (فإذا) حتى لا يتعلق بها الكلام السابق .

(٦) البحر المحيط ٥٦١/٨، وانظر قريباً من هذا في التحرير والتنوير ٢٣٣/٢٢ .

(٧) الصواعق المرسلة ١٢٧٥/٤ .

(٨) البرهان في علوم القرآن ٢٤٦/٣ .

العقل"[1]، وهذا يقرب مما ذكره أبو حيان ، والثاني قوله: "ولما كان هذا القسم أكثر وجوداً في الناس قدمه"[2] .

وهكذا جاءت كل كلمة في موقعها لتعطي مدلولها الأعمق ولتقوم بما يتطلبه السياق من التأثير وإيضاح المراد ، فـ(مثنى) جاءت في غير موقعها المعهود.وكذلك (فرادى)؛ لأن ملة الكفر في قريش لما كانت رافضة للحق معاندة مكابرة ، مكذبة بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قال لهم الله عز وجل ذلك، أي: قوموا إخلاصاً لله واستحضاراً لعظمته على حالين: الاجتماع والتفرق، أو على صفتين: الثنائية والتفرد، وإنما قدم الاجتماع على الانفراد في هذا الموقع ؛ لأنه أعون على معرفة الحق بسبب التذكير، والتقويم، وتلاقح الفكر ، وهذا لا يحصل لواحد ، فإذا تمكن ذلك منه كان الانفراد أفضل له؛ لأنه أصفى لسره وأخلص لفكره ، وربما يكون المراد بيان أن كل حال تناسب فريقاً من الناس لأهما يجتمعان، وعلى هذا يكون تقديم الاجتماع ؛ لأنه الأكثر أو لغلبة الهوى على معظمهم .

"ولم يذكر غيرهما من الأقسام؛ إشارة إلى أهم إذا كانوا على هاتين الحالتين كان أجدر لهم بأن يعرفوا الحق من غير شائبة حظ، مما يكون في الجمع الكثير من الجدال واللفظ المانع من تهذيب الرأي، وتثقيف الفكر، وتنقية المعاني" [3] .

٢- العطف وعدمه .

جاءت الأحوال المتعددة على قسمين، أحدهما: المعطوف بحرف العطف،والآخر: الخالي من ذلك، وليس من شك أن المعنى مع وجود حرف العطف ليس مثله مع عدمه؛ لهذا يقول عبد الستار سعيد:"وأرى أنه من المفيد أن يوقف عند تعدد الحال مع وجود العاطف أو عدم وجوده،ثم تكتشف الأسرار عن طريق المقارنة بين التعدد بالعاطف وبدونه"[4].

وقد أشار هذا الباحث إلى قضية جوهرية في هذا الموضوع وهي أن الأحوال المتعددة

---

(1) نظم الدرر ٥٢٩/١٥ .

(2) نظم الدرر ٥٢٩/١٥ ، أي أن الاجتماع هو الكثير في الناس فقدم على الانفراد؛ لأنه الأقل في مثل هذا الموطن، وهو المشاورة في أمر يهم الجميع .

(3) نظم الدرر ٥٣٠/٥٢٩/١٥ .

(4) ـ الحال في الأسلوب القرآني ٣٥٣ .

الخالية من العاطف يكون المراد منها نقل الصورة كاملة في مشهد متصل دفعة واحدة ، كما في قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢١ الحشر] ، "فالحالان: متصدعاً وخاشعاً يتحققان عند رؤية الجبل دفعة واحدة دون سماح لوجود عاطف"(١)، وتحقق الحالين في وقت واحد أدل على عظم الاستجابة له سبحانه من الجبل الأصم العابد لله عبادة لا ندركها،وفيه دليل على عظم كلام الله، وتنبيه للإنسان كيف يعرض عنه، يقول أبو حيان: " وإذا كان الجبل على عظمه وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع فابن آدم كان أولى بذلك، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر"(٢) .

ويعني هذا أن الأحوال الخالية من حرف العطف لا يمكن الاستغناء ببعضها عن بعض، بل كلها مجتمعة في وقت واحد تدل على المراد ، قال الله تعالى:﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[٤٢، ٤٣ إبراهيم].

فـــ"الأحوال هنا متعددة لرسم المشهد كاملاً لأصحاب الأبصار يوم القيامة فهم مصوبون أبصارهم مما يدل على فزع ودهشة ، رافعون رؤوسهم لما في هذا اليوم من أشياء تحرك الساكن المطمئن، ثم إن عيونهم لا تطرف بل هي دائمة الفتح فهم مديمو النظر مشغولون ، وهم في هذا كله جبناء ضعفاء"(٣) .

إذاً الأحوال هنا ما جاءت لينفرد كلٌّ منها عن مجاوره بل لتتحد وتتآزر في رسم المشهد ؛ لذا لا يمكن أن يتم المعنى ولا أن تكتمل الصورة دونها جميعاً ، فهي صورة تكاملية ، تشترك كل هذه في رسمها مجتمعة، وهذا يعني أنه ليس المقصود فقط اجتماعها بل لابد من اندماجها كلها فينظر إليها على أنها صورة واحدة وكتلة واحدة .

ولهذا السبب لا نجد بين هذه الأحوال المتعددة على هذا النحو ما يشعر بالتناقض وإنما نجد ذلك ـــ أي التضاد ـــ واضحاً وكثيراً في الأحوال التي جاء معها العاطف ، وذلك

---

(١) – الحال في الأسلوب القرآني ٣٥٣ .

(٢) – البحر المحيط ١٤٩/١٠ .

(٣) – الحال في الأسلوب القرآني ٣٥١ .

مؤشر واضح أن خلوها من العاطف يعني قيامها بالمعنى دفعة واحدة وهذا لا يمكن أن يكون لو كانت متضادة المعنى مثل: الخوف والطمع ، أو التبشير والإنذار فهذه لابد فيها من توسط العاطف حتى يلتئم السياق ويقبل المعنى .

ومثل ما سبق في إرادة بيان الأحوال مجتمعة،شواهد كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٨ الأعراف]، فـــ(مذءوماً) : أي: لعيناً ، أو ملوماً أو منفياً أو ممقوتاً، و(مدحوراً): أي: مبعداً من رحمة الله أو الخير، وهما حالان من الشيطان[١]، مصوران باجتماعهما حالة خروجه فهو ملتبس بهما جميعاً في وقت واحد لا بأحدهما دون الآخر،ولا بأحدهما في وقت وبالآخر في وقت آخر ، بل هو اتحاد في الوقت وفي الحال ، ومما ظهر لي أيضاً أن الخالي من العطف يكثر في جانب التصوير، ويكثر أيضاً فيما لا يعقل ، ويظهر فيه أيضاً التكميل والاحتراس بحيث لو سقط أحد الأحوال حدث خلل أو توهم غير المراد كما في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [٨١ الأنبياء]، فقوله تعالى:(عاصفة) و (تجري) حالان من الريح[٢] وهي لا تعقل ، وكان لابد من الجمع بين هذين الحالين، إذ لو قيل: عاصفة فقط لربما توهم أنها عنيفة مدمرة لا يقدر هو عليها ، فهي خارجة عن أمره وطوعه ، فجاءت الحال الثانية مكملة للمعنى نافية كل توهم فقال: (تجري بأمره) ، وفي هذا من إتمام المنة عليه ما لا يخفى ، ولو قيل: (تجري بأمره) فقط، لربما توهم أنها ليست قوية؛ لأنها جارية بأمر بشر، والبشر ضعفاء ؛ لذا جاءت (عاصفة) لإظهار جانب القوة فيها .

هذا فيما كان بلا عاطف أما ما كان بعاطف فهو نوعان: ما كان بالواو وهو الأكثر، وما كان بـــ(أو) وهو الأقل ، فأما الأول فشواهده كثيرة جداً قد مضى منها عدد غير قليل، وسأذكر بعضاً مما لم يتم ذكره من قبل كقوله تعالى:﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا

---

[١] - انظر ذلك وغيره في البحر المحيط ٢٣/٥ ، ٢٤ .

[٢] - انظر البحر المحيط ٤٥٧/٧ .

وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [٩٧ الإسراء]،يقول أبو حيان:"وانتصب (عمياً) وما بعده على الحال"(١)، وهي حال حقيقية يحشرون عليها ، وفي دخول العاطف ما يشعر بأن كل واحدة من هذه الأحوال كافية في إظهار خزيهم وذلهم وضعفهم فكيف إذا اجتمعت، وربما يدل دخول العاطف على أهم أصناف فمنهم من يحشر أعمى ومنهم من يحشر أبكم ، ومنهم من يحشر أصم،ولو قيل:عمياً بكماً صماً لكان ذلك دليلاً على أن هذه الأحوال تجتمع في كل واحد منهم لا يتخلف منها شيء .

ومن الظواهر البارزة في المعطوف بالواو ، توسط الواو بين المتضادين ، ومن هذا قوله تعالى:﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٤١ التوبة]،فالخفة ضد الثقل ولو سقطت الواو لأشعر السياق بالجمع بين المتضادين وذلك أمر مرفوض، ووجود الواو دلنا على أن المراد حالان منفصلان عن بعضهما ، يقول عبد الستار سعيد: "نلحظ أن الخفة والثقل لا تجتمعان لإنسان في آن واحد،بل تحقق له إحداهما وهو مطالب في كليهما بالنفير"(٢).

ومن هذا قوله تعالى:﴿ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ [٧٥ النحل]، وقوله تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [٥٦ الفرقان]، وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [٢٠ لقمان].

وفي مثل هذه التراكيب يكون العاطف ضرورياً وإلا كان المعنى مرفوضاً ؛ لأن وجود الواو يعطينا أمرين: أولهما الجمع ، فصاحب الحال له حالان أو ثلاثة...، وثانيهما: أنهما لا يجتمعان مع بعضهما دفعة واحدة ؛ وذلك لأن الواو تقتضي العطف مع المغايرة وهي أيضاً لمطلق الجمع .

ويوضح أبو حيان جانباً من مدلول العطف بالواو في مثل هذه الشواهد حين يقول عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٥٦ الأعراف] :"وعطف أحدهما على الآخر يقتضي أن يكون

(١) – البحر المحيط ١١٦/٧ .

(٢) – الحال في الأسلوب القرآني ٣٥٤ .

الخوف والرجاء متساويين ؛ ليكونا للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة ، فإن انفرد أحدهما هلك الإنسان"[1]، والمراد هنا المزاوجة بينهما فهو (يخاف ويطمع) مرة هكذا ومرة هكذا، يراوح بينهما في أيامه ولياليه ، فهو لا يخاف أبداً فيقنط ، ولا يطمع أبداً فيتكل بل هو بينهما .

هذا ما يخص العطف بالواو ، أما العطف بـــ(أو) فيفهم منها تعدد الأحوال وتنوعها وأن المراد استقصاء الأقسام والأحوال ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [١٢ يونس] ، فقد أورد الزركشي سبب التقديم والترتيب هنا ثم اعترض عليه بأن ذلك النسق لا يتم إلا مع (الواو) وهنا عدل عنها إلى (أو) التي يسقط معها الاتساق والائتلاف بين تلك المعاني ، فأجاب عن ذلك مبيناً سر العطف بـــ(أو) هنا فقال: "قلت: يأتي التضرع على أقسام: فإن منه ما يتضرع المضرور عند وروده ، ومنه ما يقعده ، ومنه ما يأتي وصاحبه قائم لا يبلغ به شيئاً، والدعاء عنده أولى من التضرع ؛ فإن الصبر والجزع عند الصدمة الأولى ، فوجب العدول عن (الواو) ، لتوخي الصدق في الخبر والكلام بالائتلاف ويحصل النسق ، والخبر بذلك التأويل الأول عن شخص واحد ، وبالثاني عن أشخاص فغلب الكثرة ، فوجب الإتيان بـــ(أو) وابتدئ بالشخص الذي تضرع لأن خبره أشد فهو أشد تضرعاً ، فوجب تقديم ذكره ، ثم القاعد، ثم القائم فحصل حسن الترتيب وائتلاف الألفاظ ومعانيها"[2] .

وهذا الكلام فيه بعض غموض وتداخل ، ولكن يفهم منه أن وقوع (أو) بدلاً من (الواو) دل على أنها أحوال متعددة ليست مرتبطة بصاحب واحد ، بل هي تعطي الصورة المتكاملة لحالة الإنسان بعمومه عند وقوع الضر[3] لصاحب واحد لكنها لا تقع جملة واحدة ، أما إذا خلت الأحوال من الواو فإن المراد وقوعها جملة واحدة ، أو أن بعضها مكمل لبعض في المدح أو القدح أو الأقسام أو التصوير ؛ وهكذا يظهر لنا أثر العاطف أو عدمه في دلالة الأحوال المتعددة .

---

(١) – البحر المحيط ٧٠/٥ .

(٢) – البرهان في علوم القرآن ٤٧٢/٣ .

(٣) – انظر الحال في الأسلوب القرآني ٣٥٣ .

٣- التداخل والترادف .

الأحوال المترادفة (المتعددة): هي المتتالية عن صاحب واحد ، والأحوال المتداخلة هي التي صاحبها في حال أخرى(١) ، ولا شك أن هناك قدراً من الاشتراك بين النوعين لذا أحببت أن ألحق الحال المتداخلة بهذا المبحث ، خاصة وأن هناك شواهد احتملت هذا وذاك، وهي التي ستكون موضع التحليل في الغالب ، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [١٢٣ الأنعام] ، فقوله تعالى: "وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون" جملتان حاليتان ولكن هل هي حال مترادفة أم متداخلة ؟ .

يقول الألوسي:" (وما يشعرون) حال من ضمير (يمكرون)، أي: إنما يمكرون بأنفسهم والحال أنهم ما يشعرون بذلك أصلاً ، بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم"(٢)، وعلى هذا القول فهي حال متداخلة ، والمعنى عليها هو ما ذكره الألوسي ، أما على الترادف (التعدد) فيظهر ذلك في قول ابن عاشور: " (وما يمكرون إلا بأنفسهم) فالواو للحال أي: هم في مكرهم ذلك إنما يضرون أنفسهم... (وما يشعرون):جملة حال ثانية فهم في حالة مكرهم بالنبي متصفون بأنهم ما يمكرون إلا بأنفسهم وبأنهم ما يشعرون بلحاق عاقبة مكرهم بهم"(٣)، فعلى الترادف هذا معناها؛ لأنهما حالان لصاحب واحد ، وعلى التداخل الحال الثانية مستخرجة من الحال الأولى ، وأظن أن التداخل هنا أدل على المراد لأنه أدل على ضلالهم ، وأقدر على تصوير ضعفهم ومهانتهم في مقابل مكر الله وقوته ؛ لأن المعنى عليها أنهم يمكرون بأنفسهم ويضرونها ومع هذا هم لا يشعرون بذلك وهذا هو الضلال المبين.ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [١٢٠، ١٢١ الأعراف]، يقول أبو حيان :" أي:ساجدين قائلين، فـــ(قالوا) في موضع الحال من الضمير في (ساجدين) أو من السحرة"(٤)، فعلى التقدير الأول هي حال متداخلة ، وعلى الثاني مترادفة ، ولكن هل من اختلاف في المعنى؟، يقول

---

(١) - انظر شرح الحدود النحوية ١٦٩،١٦٨.

(٢) - روح المعاني الجلد الرابع الجزء الثامن ٢٠ .

(٣) - التحرير والتنوير ٨ القسم الأول ٥١ .

(٤) - البحر المحيط ١٤٠/٥ .

أبو حيان: "وعلى التقديرين فهم ملتبسون بالسجود لله شكراً على المعرفة والإيمان"[1].

وما قاله أبوحيان لا يعني اتحاد المعنيين على التقدير اتحاداً كاملاً ، بل بينهما فرق ، فعلى القول بالتداخل يكون (ساجدين) وحده حالاً من السحرة ، فليس لهم وقت الإلقاء إلا حالة السجود ، ثم لما سجدوا نشأت حال أخرى هي كونهم قالوا آمنا ، فهما حالان لحدثين مختلفين، وأرى أن هذا أقرب إلى الحالة التي كانوا عليها ، ثم إن وضع الإلقاء لا يناسبه إلا السجود ، وأما القول فالسجود أولى به ، وهذا القول هو ما يظهر من كلام أبي حيان حيث يقول: "ولما كان السجود أعظم القرب ؛ إذ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد بادروا به متلبسين بالقول الذي لا بد منه عند القادر عليه ..."[2]، وعلى القول بالترادف والتعدد يكون المعنى أن للسحرة حين الإلقاء حالين:السجود والقول ، فكأنه قيل: ألقي السحرة ساجدين وقائلين .

ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [٢، ٣ الأنبياء]، يقول أبو حيان: " و(استمعوه) جملة حالية وذو الحال المفعول في (ما يأتيهم) ، (وهم يلعبون) جملة حالية من ضمير (استمعوه)، و(لاهية) حال من ضمير (يلعبون) أو من ضمير (استمعوه) فيكون حالاً بعد حال "[3]، فهذه -كما نرى- أحوال ثلاث تولد بعضها من بعض على سبيل التداخل ، أو جاء بعضها بعد بعض على سبيل الترادف (التعدد)، وكلاهما ظاهر في كلام أبي حيان ، لكنه قدم القول بالتداخل .

ويظهر لي ـ والله أعلم ـ أن الأحوال المتداخلة تكون قيوداً في الأحوال الأصلية ويقصد منها الاحتراس أو دفع توهم غير المراد ، أو تكميل معنى في الحال الأولى لا يكمل إلا بها، وهذا واضح في هذه الآية التي نحن بصددها، ولعل ذلك يتضح في توجيه ابن عاشور بعدما ذكر حالية (إلا استمعوه) حيث قال: "وجملة (وهم يلعبون) حال لازمة من

---

(1) - البحر المحيط ٥/١٤٠ .

(2) - البحر المحيط ٥/١٤٠ .

(3) - البحر المحيط ٧/٤٠٧ .

ضمير الرفع في (استمعوه) مقيدة لجملة (استمعوه) ؛ لأن جملة (استمعوه) حال باعتبار أنها مقيدة بحال أخرى هي المقصودة من التقييد، وإلا لصار الكلام ثناءً عليهم ، وفائدة هذا الترتيب بين الجملتين الحاليتين الزيادةُ لقطع معذرتهم المستفادة من قوله (محدث) ..."[1] .

وشواهد الحال المتداخلة ليست في الكثرة مثل الحال المتعددة (المترادفة) ، لكن مع هذا لها شواهد لا تنكر ، ولها دلالتها التي يتغير بها المعنى عن الحال المتعددة[2] .

---

[1] – التحرير والتنوير ١٢/١٧ .

[2] – انظر مثلا من شواهد الحال المتداخلة غير ماذكر: ٨٧ ، ١٣٥ آل عمران، و ٤٣ المائدة، و ٥٤ الأعراف، و ٥٣ الدخان، و ٨ الحديد ، و ١٣، ١٤ نوح، وغيرها .

المبحث الرابع : تنوع الرابط.

لقد تحصل لي من دراسة الرابط في الجملة الحالية من الناحية النظرية كم كبير من الأقوال خاصة عند البلاغيين المعنيين بالشروح والتعليقات[1]، وبجمع ما قالوا في هذا الشأن _ حسبما تيسر لي _ وجدت أن أغلب تلك المناقشات الطويلة كانت تدور بعيداً عن التطبيق على النصوص، بل هي في مجموعها ردود ومناقشات تحاول تفسير وجود الرابط من عدمه ، وهذا حسن لكن العناية بالردود وتعليل الآراء أذهب ذلك الحسن ، وجعل الموضوع أشبه بمجادلات كلامية وتعليلات فلسفية يصعب فهمها أحياناً ، وقد ظهر لي فيها أيضاً -بعدما تحصل لي من كلامهم ما يقارب أربعين صحيفة- أن لا أدخل في متاهات تلك المناقشات والمناقضات ، بل أجعل الشواهد القرآنية هي الأصل ، ثم أقيد من كلامهم _ وهو لا يخلو من فائدة _ ما يقتضيه المقام .

وقد اعتنى شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني بموضوع الرابط في الحال ودرسه تحت عنوان: (فروق في الحال)،ومما قاله: "اعلم أن أول فرق في الحال أنها تجيء مفرداً،وجملة والقصد هنا إلى الجملة،وأول ما ينبغي أن يضبط من أمرها أنها تجيء تارة مع الواو وأخرى بغير الواو..."[2]وقد نبه عبد القاهر _رحمه الله_ على صعوبة هذا المسلك ووعورة طريقه بقوله:"وفي تمييز ما يقتضي الواو مما لا تقتضيه صعوبة"[3]، وروابط الجملة الحالية أشهرها:الواو والضمير،وقد يجتمعان وقد يفترقان فيتحصل من ذلك ثلاث صور:

١- الربط بالضمير وحده .

٢- الربط بالواو وحدها .

٣- الربط بالواو والضمير جميعاً .

---

(١) - أما عند النحويين فقد سبقت الإشارة إلى بعض كلامهم في التمهيد، وقد جمع الإمام صلاح الدين العلائي بين كلام النحويين والبلاغيين في بحث مطول في كتابه: الفصول المفيدة في الواو المزيدة ص١٥٥ ومابعدها ، وينظر أيضاً مقال : الشرط والقسم و (واو) الحال عند النحاة وفي كلام البلغاء، مجلة التراث العربي (دمشق) العدد ٥٠ في رجب ١٤١٣هـ ص١٥٣ -١٦٠،، وليس فيهما خُروج عما عند النحويين، والبلاغيين أصحاب الحواشي؛ لذا اكتفيت بالإشارة إليهما للفائدة .

(٢) - دلائل الإعجاز ٢٠٢ .

(٣) - دلائل الإعجاز ٢٠٢ .

وقد تعددت الآراء في قوة هذا الرابط وأصالته، فالخطيب مثلاً يرى أن الأصل في الربط هو الضمير فيقول: "وكل واحد من الضمير والواو صالح للربط ، والأصل الضمير بدليل الاقتصار عليه في الحال المفردة والخبر والنعت"[1] ، بينما يرى ابن يعقوب المغربي أن الاستدلال غير متوجه؛ لأن الحال المفردة لا تحتاج إلى رابط؛ " لأنها دالة على صاحبها بالوضع ، فالضمير فيها آل إليه الاشتقاق الموجب لتحمل الضمير "[2]، واستدل بعضهم لأصالة الضمير بأنه الأكثر استعمالاً ؛ لذا ذكر السعد أنه الأصل الذي لا يعدل عنه إلى غيره[3] ، وقد تبين ـ كما ذكر المغربي ـ أن الربط بالضمير أكثر مواقع ، فدل ذلك على أنه الأصل فيما يحتاج إلى الربط[4]، ويربط بالضمير " لكونه عبارة عن المرجع ، وأما الواو فلكونها موضوعة لربط ما قبلها بما بعدها، أو هي في أصلها للجمع، كما قيل: إن أصل هذه الواو الحالية هي العاطفة "[5].

أما من حيث قوة الربط فقد:" قيل الواو لأنها موضوعة له ، وقيل الضمير لـدلالته على المربوط به "[6]، وقد جمع العدوي بين ذلك فيما استظهره عنه الدسوقي بأن "الحاصل أن أصالة الضمير بحسب الاستعمال لا من حيث الوضع ، وأما الواو فهي أصل في الربط باعتبار الوضع " [7] .

وبعد تقليب النظر في موضع الرابط رأيت أن تكون دراسته من خلال ما يأتي:

١- أسباب ربط جملة الحال وفوائده.

٢- تنوع الرابط في الجملة الاسمية.

٣-تنوع الرابط في الجملة الفعلية.

٤- نتائج مهمة في الرابط .

---

[1] - الإيضاح ٢٦٧/١.

[2] - شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١٢٤/٣

[3] - انظر مختصر المعاني مع حاشية الدسوقي عليه ٨٨/٢

[4] - انظر شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١٢٤/٣

[5] - حاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٨٨/٢

[6] - حاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٨٨/٢

[7] - حاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٨٨/٢

١- أسباب ربط جملة الحال وفوائده .

الروابط الرئيسة في الجملة الحالية _كما رأينا_ اثنان: الضمير والواو سواء افترقا أم اجتمعا، ولكن قد يطرأ سؤال فحواه: ما علة احتياج الجملة الحالية إلى رابط ؟ ولماذا ربطت الجملة الحالية بالواو دون جملة الخبر والصفة ... ؟.

يجيب الرضي عن هذا بقوله: "إنما ربطوا الجملة الحالية بالواو دون الجملة التي هي خبر المبتدأ، فإنه اكتفي فيها بالضمير ؛ لأن الحال يجيء فضلة بعدم تمام الكلام ، فاحتيج في الأكثر إلى فضل ربط فصدرت الجملة التي أصلها الاستقلال بما هو موضوع للربط _ أعني الواو التي أصلها الجمع _ لتؤذن من أول الأمر بأن الجملة لم تبق على الاستقلال، وأما خبر المبتدأ والصلة والصفة، فإنها لا تجيء بالواو ؛ لأن[1] بالخبر يتم الكلام ، وبالصلة يتم جزء الكلام ، والصفة لتبعيتها للموصوف لفظاً، وكونها فيه معنى كأنها من تمامه فاكتفي في ثلاثتها بالضمير، بلى قد تصدر الصفة والخبر بالواو إذا حصل لهما أدنى انفصال ، وذلك بوقوعهما بعد إلا..."[2] .

وهكذا يتضح لنا أن علة الربط هي الاستقلالية والانفصال ، وربما يكون مرجع ذلك هو أصل الجملة قبل وقوعها حالاً ، فلما وقعت حالاً زاد طلب الرابط ؛ لأن الحال يأتي بعد تمام الإسناد، ولعل هذا يظهر بعضه في قول الدسوقي معللاً سبب الرابط في الجملة الحالية: " لأن الجملة وضعت لتفيد فائدة يحسن السكوت عليها _ بناء على القول بوضع المركبات _ ... ، والحاصل أن الجملة الحالية وجد فيها جهتان: جهة كونها جملة وهذه الجهة هي الجهة الأصل في الجملة الحالية، وجهة كونها حالاً، وهي عارضة، والأولى توجب احتياجها لما يربطها بما قبلها دون الثانية "[3].

والذي يظهر أن ما أشرنا إليه أسلم مما ذكره أخيراً بأن الحالية لا تُحْوج إلى الربط، بل هي تسهم فيه وتزيده ، وإن كان الأصل فيه هو أن الجملة في أصلها تحتاج إلى الربط لاستقلاليتها .

---

(١) – قال المحقق : أي: لأنه .

(٢) – شرح الرضي على الكافية ٤١/٢.

(٣) – حاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٨٨/٢ .

ويبدو أن هذا الملمح له وجاهته ؛ لأن الجملة عموماً إذا جاءت بعد شيء يطلبها فلا بد من رابط، وقد عد ابن هشام أحد عشر صنفاً من الكلام يحتاج إلى رابط، ومنها الجمل ذات المواقع المختلفة[1]، لكن الروابط قد تتفق وقد تختلف ، وقد تتعدد حتى تصل في بعض أنواع الكلام إلى عشرة روابط[2].

وإذا كان ما ذكر هو السبب العام لضرورة وجود الرابط، فإن للرابط فوائد مهمة في الجملة، ونخص هنا الواو في الجملة الحالية،ويمكن حصر ما ذكر من فوائد الربط فيما يأتي :

أ- إنشاء علاقة بين الجملة الحالية وبين الصاحب.

وهذا أمر في غاية الأهمية ؛ إذ كيف يؤتى بالحال لغرض مقصود هو بيان الهيئة إما على سبيل المدح أو القدح ، أو التفصيل والبيان أو التعليل أو لغير ذلك ثم لا ترتبط بصاحب الحال برابط، يقول ابن يعقوب المغربي: " وإنما احتاجت [الجملة الحالية] إلى رابط بسبب أن حال الاستقلال يبعد عن الإضافة إلى الغير المقصودة[3]، وروعيت هذه الحالة المحوجة للربط ؛ لأنها ألزم "[4] .

ب- التأكيد لرد الإنكار .

لقد ذكروا "أن الجملة الحالية قد يكون ارتباطها بما هي قيد له مظنة الإنكار فتستعمل الواو لإفادة تأكيد الربط لوضعها لذلك ..."[5] .

ج - الإرشاد إلى حالية الجملة .

وهذا الغرض ليس بذاك وقد رده السبكي ــ وهو محق ــ بأنه "... ليس في الواو والضمير فضلاً عن أحدهما ما يعيّن الجملة الحالية،فإنك إذا قلت: جاء زيد وقد ضرب عمراً ، احتمل أن تكون حالاً وأن تكون معطوفة " [6] .

---

(1) - انظر مغني اللبيب ٥٧٨/٢ وما بعدها .

(2) - انظر مغني اللبيب ٥٧٣/٢ وما بعدها .

(3) - هكذا قال: والصحيح : غير المقصودة ، لإيغال (غير)في الإبهام، ولعل المراد هنا: أن حال الاستقلال يُبعد عن الإضافة المقصودة ، أو لعله أراد بـــ(الغير) الصاحب، أي أن الاستقلال يبعد الحال عن صاحبها الذي تضاف إليه فلا بد من رابط حينئذ .

(4) - شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١٢٤/٢ .

(5) - شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١٢٤/٣ .

(6) - شروح التلخيص (عروس الأفراح) ١٢٤/٣ .

٢- تنوع الرابط في الجملة الاسمية .

جاءت الحال الجملة الاسمية مربوطة بالواو تارة ، وبالضمير تارة ، وبهما معاً تارة ثالثة، يقول المبرد عن هذا الأمر: "وإذا كان في الثانية ما يرجع إلى الأول جاز ألا تعلقه به بحرف العطف، وإن علقته به فجيد ، وإن كان الثاني لا شيء فيه يرجع إلى الأول فلا بد من حرف العطف..."[١].

أ- الربط بالواو وحدها .

تنفرد الواو في آيات كثيرة بربط الجملة الحالية الاسمية ، بل جعل بعضهم تركها نادراً، وقال الزمخشري هو شاذ وخبيث[٢]، وكأنه بهذا يرى وجوب الواو مع الاسمية ، ورد أبو حيان قوله بوجود الشواهد التي خلت من الواو[٣]، وهذا ما صرح به الخطيب بقوله:"وإن كانت الجملة اسمية فالمشهور أنه يجوز فيها الأمران ومجيء الواو أولى "[٤].

ومن تلك الشواهد قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٣٠ البقرة] ، فالجملة الحالية: (ونحن نسبح) مرتبطة بالواو ؛ لأنها مسوقة لبيان هيئتهم والثناء على ذواتهم ، والواو -وإن كان لا بد منها- إلا أنها دلت على أن ما بعدها هو علة ما قبلها ، ويلمح الدكتور منير سلطان شيئاً آخر مهماً ، حيث يقول: "وربط الحدث بالهيئة المصاحبة له بالواو أو طرحها ، إنما يهدف إلى رصد الحركة التي نتجت عن حدوث الحدث أو صاحبه، ... [فـ] إن وصلنا كان حدثاً صادراً عن فاعل متحرك ، ويكون الحدث جزءاً من حركته ... فتسبيح الملائكة تصوير لهيئتهم قبل جعل الخليفة في الأرض وفي أثنائه وفيما بعده إلى يوم القيامة، وهيئة التسبيح مغايرة لحدث جعل الإنسان خليفة في الأرض لذا وصلت بالواو، وحينذاك أضفت عليه عمقاً واتساعاً وحركة وجمالاً -والأمثلة عديدة- خذ مثلاً قوله تعالى:﴿ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ﴾ [١٨٧ البقرة] .. وكل هذه الأمثلة إثبات صريح للهيئة الحادثة..."[٥] .

---

[١] - المقتضب ١٢٥/٤

[٢] - انظر المفصل في علم اللغة ٨٢ .

[٣] - انظر البحر المحيط ٢٦٤/١

[٤] - الإيضاح ٢٧٥/١

[٥] - بلاغة الكلمة والجملة والجمل ٢٢٧، ٢٢٨ .

وكلام الدكتور على وجاهته يحتاج إلى مزيد من التدليل حتى يستقيم القول به ؛ لأن ما أشار إليه من التجدد والتحرك ربما يكون سببه دلالة الفعل لا الربط بالواو ، وليس من شك أن ما ذكره له نصيبه من الصحة ؛ لأن الأحوال المربوطة بالواو يغلب فيها أن تكون مغايرة للحدث الذي يتقدمها بخلاف الخالية من الواو فإنها تكون مرتبطة ملتئمة مع ما قبلها .

ومن الشواهد قوله تعالى:﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [٧١ هود]، فالجملة (ومن وراء إسحاق يعقوب)حال، يقول أبو حيان: "قال النحاس:والجملة حال داخلة في البشارة أي:فبشرناها بإسحاق متصلاً به يعقوب"[١]، وهناك أوجه أخرى لا تدخل معها الجملة في البشارة قال عنها أبو حيان:"ولا حاجة إلى القطع والعدول عن الظاهر المقتضي للدخول في البشارة" [٢].

وكما نرى فهذه الجملة محتاجة إلى الواو خاصة ؛ لأنه لا مكان للضمير فيها ، وهي بذلك معزولة، والهيئة لا بد أن ترتبط بالصاحب حتى يصح بيانها له ، والمقام مقام تبشير والسياق مقتضٍ لدخول الجملة في التبشير مع الإبقاء على كيانها المستقل ، فكان المناسب معها (الواو)؛ لأن (الضمير) لو ربطت به لنقلها من استقلاليتها إلى دمجها مع الصاحب أو الجملة السابقة، بإيجاد بعض علائق الجملة السابقة أو الصاحب فيها .

ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [٢٧ لقمان] ، فقوله جل ذكره: (والبحر يمده ...) أعربها الزمخشري حالاً ، وقال: "ويجوز أن يكون المعنى: وبحرها، والضمير للأرض"[٣]، وعلق أبو حيان على سؤال أثاره الزمخشري حول هذا الوجه بأن ما ذكره إنما هو "من واضح النحو الذي لا يجهله المبتدئون فيه ، وهو أن الجملة الاسمية إذا كانت حالاً بالواو لا تحتاج إلى ضمير يربط واكتفي بالواو فيها..."[٤] ، ولو تأملنا الجملة المعنية هنا لوجدناها مستقلة برأسها ؛ لذا احتاجت إلى ما يضمها إلى ما سبقها ، وما

---

[١] - البحر المحيط ١٨٣/٦ .
[٢] - البحر المحيط ١٨٣/٦ .
[٣] - الكشاف ٥٠١/٣ .
[٤] - البحر المحيط ٤٢١/٨ .

سبقها جملة مستقلة عنها أيضاً فليس من رابط إلا الواو التي هي لمطلق الجمع والضم ، وعلى تأويل الزمخشري (وبحرها يمده) يكون الرابط هو الضمير ولكن شتان بين المعنيين ، فهناك البحر مطلق غير معلق بشيء ، والضمير يقيد ذلك ويحده ويجعله مخصوصاً ببحر الأرض ، ثم إن استقلالية الجملة تجعلها أوسع أفقاً وأعظم هيبة ، والموقف يحتاج هذا الاتساع والانطلاق؛ لأن المراد بيان عظمة سعة كلمات الله ، ووجود الضمير يحدد ذلك ويخصصه وهذا لا يناسب المقام ، بينما الواو تبقي دلالة الجملة المستقلة لها دون علائق خاصة رابطة بل كل ما تفعله هو ضم الجملة إلى ما يطلبها مما سبقها .

ب- الربط بالضمير وحده .

لقد سبق أن بينا أن الشواهد عليه كثيرة[1] ولا داعي للقول بالندرة أو الشذوذ ، أو أنه خبيث يقول أبو حيان عن الجملة الاسمية:" وليس مجيئها بالضمير دون الواو شاذاً خلافاً للفراء ومن وافقه كالزمخشري"[2]، وننتخب من تلك الشواهد الكثيرة شيئاً يوضح المراد، فمن ذلك قوله تعالى:﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم٥٠، ٤٩]، فجملة (سرابيلهم من قطران) حالية من المجرمين، أو من المقرنين، أو من ضميره[3]، وهذه الحال على الترادف أو التداخل مسهمة في نقل صورة المجرمين وعذابهم في نار جهنم -أعاذنا الله منها- وربطت بما قبلها بالضمير، وهو إذا وجد فيمكن الاستغناء به عن الواو؛ لأنه أقوى في الربط لأن ربط الواو جمع وضم وربط الضمير ربط مرجعية وإعادة ، فذو الحال مع الضمير ماثل في الحال ذاتها وليس كذلك مع الواو ، ويبدو -والله أعلم- أن الاقتصار على الضمير مع جواز الواو يلمح منه القصد إلى إدخال الجملة الحالية فيما قبلها وعدم السماح لعنصر خارجي بالدخول بينها ، حتى كأنها وقعت موقع المفرد ، والمفرد لو توسط فيه الواو بين الحالين أفهم ذلك عدم اجتماع الحالين دفعة واحدة بخلاف لو سقطت الواو ، ولعل هذا الملمح مقصود هنا فالمراد نقل هذه الصورة كاملة ، فالرؤية واقعة على المنظر بأجمعه فهم

---

(١) - انظر بعضها في دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الأول الجزء الثالث ٦١٤ ومابعدها .

(٢) - البحر المحيط ١/٢٦٤ .

(٣) - انظر التبيان ٢/٧٧٥ ، والفتوحات الإلهية ٢/٥٣٦ .

مقرونون في الأصفاد ة والأغلال ، وفي الوقت ذاته هم متسربلون بالقطران ، وهذا التكامل والتداخل يظهر مع الضمير لا مع الواو .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[١٠٣ النحل] .

يرى الزمخشري أن جملة:(لسان الذي يلحدون إليه) مستأنفة[١]، ويرى أبو حيان أنها حالية ويقول:"وذلك أبلغ في الإنكار عليهم ، أي يقولون: ذلك والحالة هذه ، أي علمهم بأعجمية هذا البشر وإبانة عربية هذا القرآن كان يمنعهم من تلك المقالة،كما تقول:تشتم فلاناً وهو قد أحسن إليك أي:علمك بإحسانه لك كان يقتضي منعك من شتمه..."[٢].

ويظهر أن من أسرار إسقاط (الواو) هنا التعجيل بذكر علة التشنيع والإنكار عليهم ، إذ لو جاءت الواو في مثل هذا المقام، وكان التركيب: (إنما يعلمه بشر ولسان الذين يلحدون...)، لربما فهم منه أنه من ضمن قولهم ، فتكون الجملة أقرب إلى العطف فالواو في هذا المقام تبعد الجملة عن الحالية ولا تقربها .

ويبدو أن كل شواهد (كأن) الواقعة حالاً لها هذا الحكم فهي مرتبطة بصاحبها بالضمير دون الواو كقوله تعالى:﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٧ لقمان]،فقوله تعالى:﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾حال من ضمير(مستكبراً)،و(كأن في أذنيه وقراً)حال من ضمير(لم يسمعها)[٣].

ولعل السر في اطراد مجيء (كأن) حالية دون الواو في القرآن أن دلالة التشبيه تقوم مقام الرابط؛ لأن التشبيه في حد ذاته رابط ، لأنه لا بد له من أركان حتى يتم: المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه،والواسطة بين الركنين الرئيسين المشبه والمشبه به هي أداة التشبيه،فهي من هذا الباب جزء من الروابط،ولعل هذا ما يفهم من تعليق ابن يعقوب المغربي على ما ذكره الخطيب من أنه يحسن ترك الواو أحياناً مع الجملة الاسمية لأجل

---

(١) – الكشاف ٢/٦٣٥ .
(٢) – انظر البحر المحيط ٦/٥٩٦ .
(٣) – البحر المحيط ٨/٤١٠ .

دخول بعض الأحرف، حيث قال:"فإن عنى أن بعض الأحرف في أصلها يفيد معنى الارتباط كتشبيه ما قبلها بما بعدها في(كأن)مثلاً...فهذا لا يعم الحروف ..."[1].

لهذا لم تأت الواو في هذا المقام للاكتفاء برابطين الضمير والتشبيه ، وللإشعار بامتزاج الجملتين وتداخلهما ، والضمير يزيد ذلك قوة لأنه يجعل ذات الحال حالّةً في الحال ، ولا كذلك الواو .

ولانفراد الضمير بالربط وسقوط الواو مدلول آخر يتعلق بكون الحال بعضاً مما قبلها فهو كالتوكيد أو عطف البيان ، يقول الدكتور منير سلطان:"... فإن طرحنا الواو كان حدثاً متحركاً ، حدثاً مصوَّرةً هيئتُه حين وقع ... [و] لننظر إلى هذه الآية الكريـــمة : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [٦٠ الزمر]، فاسوداد وجوههم هيئة تصحبهم في الآخرة لما اقترفوه من إثم ولما سيلقونه من عذاب ولما يحسونه من ندم، والاسوداد هنا توكيد لما صدر عنهم من كذب،والتوكيد والمؤكد شيء واحد،كعطف البيان والبدل،ومثلها كل هيئة جاءت مفصولة عن الحدث الأصلي في الجملة مثل قوله تعالى:﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[١٢سبأ]... "[2]،والمتأمل لتلك الشواهد التي لم تصحبها الواو،يجد أنها تشبه البدل،أو هي في مقام التوكيد،والواو لا تسبق الجملة الحالية الاسمية المؤكدة،وعللوا ذلك بأن المؤكِّد والمؤكَّد كالشيء الواحد ولا يعطف الشيء على نفسه،يقول السعد إن الحال:" المؤكدة المقررة لمضمون الجملة... يجب أن تكون بغير واو البتة لشدة ارتباطها بما قبلها"[3].

ج- الربط بالواو والضمير معاً .

وهذا النوع هو الأكثر يقول أبو حيان:" واجتماع الواو والضمير في الجملة الواقعة حالاً أكثر من انفراد الضمير "[4] ، ويرى بعضهم أن سبب وجود الواو مع أن الضمير

---

(١) – شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ٣/١٥٦ ، ١٥٧ .
(٢) – بلاغة الكلمة والجملة والجمل ٢٢٧
(٣) – مختصر المعاني مع حاشية الدسوقي عليه ٢/٨٤
(٤) – البحر المحيط ١/٢٦٤ .

يغني عنها هو الاحتياط في الربط[1] ، أو لأجل التوكيد لوجود ما يستدعيه من إنكار ونحوه " فتستعمل الواو لإفادة تأكيد الربط لوضعها لذلك "[2] ، وشواهد هذا النوع لا يكاد يحصى كثرة ، يقول عضيمة ــ رحمه الله ــ عن رابط الجملة الحالية الاسمية:" الربط بالواو والضمير هو أكثر الأنواع في القرآن..."[3] ، وسنورد عليه بعض الشواهد للتدليل فحسب ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [١١٢ البقرة] .

يقول أبو حيان عن (وهو محسن): "جملة حالية وهي مؤكدة من حيث المعنى ؛ لأن من أسلم وجهه لله فهو محسن..."[4] ، وعلى هذا فهذه الآية وأمثالها رد على من قال بأن الواو لا تجامع الحال المؤكدة ، ولكن القول بكونها مؤكدة غير مسلم فقد أشار الزمخشري من قبل إلى أنها مبيّنة ، على ما استظهره أبو حيان من كلامه[5].

وعلى كل حال فالواو هنا مهمة ؛ لأن الجملة لو خلت منها لأصبحت أجنبية مستقلة والهدف هنا إلى ربطها بما قبلها لتكون قيداً في الإسلام ، يقول ابن عاشور: " جيء به جملة حالية لإظهار أنه لا يغني إسلام القلب وحده ولا العمل بدون إخلاص بل لا نجاة إلا بهما ، ورحمة الله فوق ذلك إذ لا يخلو امرؤ من تقصير "[6].

وقد أوجب عبد القاهر الواو في هذا النوع وهو ما كان المبتدأ فيه ضمير ذي الحال سواء أكان الخبر فعلاً أم اسماً وقال عنه:" لم يصلح بغير (الواو) البتة "[7] نحو: جاءني زيد وهو يسرع،أو وهو مسرع،والسر في هذا أن ذكر الضمير في أول الجملة وإن كان يوهم الاستغناء عن الواو إلا أنه في الحقيقة يبعدها عن الأول،"وذلك أنك إذا أعدت ذكر(زيد)فجئت بضميره المنفصل المرفوع كان بمنزلة أن تعيد اسمه صريحاً فتقول:جاءني

---

(1) – انظر شرح الرضي على الكافية ٤١/٢ .
(2) – شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١٢٤/٣١ .
(3) – دراسات لأسلوب القرآني الكريم القسم الأول الجزء الثالث ٦٢٣ .
(4) – البحر المحيط ٥٦٤/١ .
(5) – انظر الكشاف ١٧٨/١ ، والبحر المحيط ٥٦٤/١ .
(6) – التحرير والتنوير ٦٧٥/١
(7) – دلائل الإعجاز ٢٠٢ .

زيد،وزيد يسرع"[1]،وفي الآية يكون التقدير:(والمسلم محسن)،وعلى هذا فلا يمكن إدخال السرعة في صلة المجيء وضمها إليه في الإثبات،وكذا لا يمكن إدخال الإحسان في صلة الإسلام؛وذلك لأن إعادة الاسم (المسلم) أو (زيد) على ما عرفنا"لا يكون حتى تقصد استئناف الخبر عنه بأنه يسرع،وحتى تبتدئ إثباتاً للسرعة؛ لأنك إن لم تفعل ذلك تركت المبتدأ الذي هو ضمير زيد أو اسمه الظاهر بمضيعه..."[2].

وهذا التعليل من شيخ البلاغيين فيه عمق كبير وإقناع ، وإن كانت النواحي الأسلوبية والملامح البلاغية قد لا تخضع بصورة دائمة للضوابط والقواعد ، ولكن ذكر شيء يجمع أكثرها يستحق الإعجاب والتسليم ، وأكثر الشواهد في هذا النوع من هذا القبيل إن لم يكن كلها ، وقد مضى تحليل كثير منها وهي ما كان على مثال: (وأنتم تعلمون) (وهم يعلمون) (وأنتم ظالمون) (وأنتم تنظرون) .

وما يهمنا هنا هو أن الواو قارنت الضمير ؛ لأن الضمير -فيما يظهر- لم يكن في مثل هذه المواقع قوياً في الربط ؛ لذا احتيج إلى الواو على ما سبق بيانه ، وإنما كان ذلك ؛ لأن الضمير في مثل هذه الشواهد غير متمحض للربط ، بل هو في حكم الاسم الظاهر لذا لا يربط إلا بمقدار ما يربط الاسم الظاهر في جملة الخبر ، وفرق بينه وبين كونه زائداً عن المبتدأ والخبر وعائداً على ذي الحال فهو هناك متمحض للربط فلا يحتاج معه إلى الواو ، فلما كان الضمير بمنزلة الظاهر كانت دلالته على الاستئناف والاستقلال أعظم من دلالته على المعاد والمرجع ؛ لأن طلب الخبر له أعظم من طلب ما قبله له فلما كان ذلك كذلك، كان لابد من رابط آخر وليس ذلك إلا الواو .

والذي يظهر لي بعد هذا أن الرابط الحقيقي هو (الواو) ؛ لأنه لو كان للضمير شأن في الربط لما احتيج إليها ، ولا يحتج بوجود صورته ؛ لأن المهم هو تأثيره ، ولهذا لو سقطت الواو لنفرت الجملة، وانفصمت عرى الكلام .

---

(1) - دلائل الإعجاز ٢١٥ .

(2) - دلائل الإعجاز ٢١٥ ، ٢١٦

٣- تنوع الرابط في الجملة الفعلية .

الكلام في الجملة الحالية الفعلية هو عن الواو في الغالب أما الضمير فإن كل فعل محتمل له، ولأن أغلب أحوال الجملة الفعلية جاء بهذا وذاك؛ لذا ستكون الشواهد مجتمعة حتى يتضح أثر التنوع، وقد رأيت بعد استعراض الشواهد القرآنية وما قيل فيها أن كل فروع الجملة الفعلية تأتي بالواو وبدونها إلا ما ندر ، وفي هذه الأنواع خوض وكلام طويل يخرجنا عما نحن بصدده من دراسة أسرار الربط ؛ لذا رأيت أن اعتني بإيراد الشواهد لبعض تلك الأنواع مما جاء بالواو ودونها لمعرفة الفروق الدلالية بينها .

فمثلاً المضارع المثبت يقول عنه عبد القاهر:" لم يكد يجيء بالواو بل ترى الكلام على مجيئها [أي الجملة]عارية عن الواو"[1]،وبهذا لا يبقى إلا الضمير وقد جاءت الشواهد الكثيرة على هذا مثل قوله تعالى:﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[١٨٦ الأعراف] ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾[٦ المدثر] ولكن الصحيح أن المضارع المثبت جاء حالاً في مواضع كثيرة بالواو أحصى لها عظيمة ـ رحمه الله ـ أكثر من عشرين موضعاً[2]، وهذه المواضع وإن كان يغلب عليها احتمالات أخرى غير الحالية إلا أنها لا يمكن تجاهلها، وأما القول بتقدير ضمير قبلها فالأصل عدم التقدير، وما يهمنا الآن هو أن نجري موازنة دلالية بين ما كان بالواو، وما كان بالضمير فقط، ولعل ذلك يظهر في مثل قوله تعالى:﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [٤٩ البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[٦إبراهيم]،فقوله تعالى:(يذبّحون) في سورة البقرة "في موضع الحال إن شئت من (آل) ... وإن شئت جعلته حالاً من الفاعل في (يسومونكم) "[3]، وقال أبوحيان: "ويجوز أن يكون (يذبّحون) في موضع الحال من ضمير الرفع في (يسومونكم) "[4] وذكر البدلية والاستئناف أما (ويذبّحون) بالواو فقد قال العكبري عنها: " حال أخرى معطوفة على (يسومون) "[5].

---

(1) – دلائل الإعجاز ٢٠٤ .

(2) – انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الأول الجزء الثالث ٦٠٩ وما بعدها .

(3) – التبيان ٦١/١

(4) – البحر المحيط ٣١٣/١

(5) – التبيان ٧٦٤/٢

وليس في نظري ما يمنع كونها حالاً من ضمير الرفع في (يسومونكم) والواو (واو الحال) ، وشواهد ذلك غير خافية كما مر ، وعلى هذا فما سر الربط بالضمير فقط في آية البقرة (يذبّحون) بينما جاء الربط بالواو والضمير في آية إبراهيم (ويذبّحون) ؟ .

هناك تعليلات عامة لوجود الواو وعدمها، منها: قول الفراء:"فمعنى الواو أنهم يمسهم العذاب غير التذبيح كأنه قال:يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح،ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب،وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملاً في كلمة ثم فسرته فاجعله بغير الواو ،وإذا كان أوله غير آخره فبالواو..."[(١)]، وذكر أبو حيان قريباً من هذا،وهو أن المقصود مع حذف الواو التفسير،ومع الواو المغايرة[(٢)]،ويعلل الألوسي سبب كون التذبيح في سورة إبراهيم بالواو بأنه نوع آخر والمراد هو التعداد،وفيها ما يسوغ ذلك وهو "سبق وذكرهم بأيام الله)،وهو يقتضي التعداد"[(٣)].

وأرى – والله أعلم – أن سياق الحالين على هذين النمطين يصور لنا كيفية سوم العذاب فهو على نوعين: نوع يكون بالتذبيح فقط ، ونوع بالاستعباد والتذبيح ، والثاني هو ما تشعر به الواو ، فلما كان السياق في سورة إبراهيم سياق تذكير لبني إسرائيل بما سلف وبنعمة الله عليهم ناسب أن يذكر معه ما يبين صور التعذيب بكل ألوانها وهو أعظم في سياق ذكر النعمة والمنة ، فجاءت الواو المشعرة بأن ما بعدها مستأنف غير داخل فيما قبلها لذا لا بد من ربطه بها ، أما في آية البقرة فيكفي الربط بالضمير ؛ لأن المراد دخول التذبيح في سوم العذاب لأنه هو هو ، فهو في موقع البدلية ولا يعطف الشيء على نفسه .

ويتضح ما في الربط بالواو من دلالة التأكيد أحياناً لرد الإنكار كما هو في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٩١ البقرة] ، يذكر الزمخشري أن في هذه الحال (ويكفرون بما وراءه) رداً لمقالتهم[(٤)] ، وينص

---

(١) – معاني القرآن للفراء ٢/٦٩ وانظر البحر المحيط ١/٢١٣ .

(٢) – البحر المحيط ٦/٤١٠ .

(٣) – روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٢٥٤ .

(٤) – الكشاف ١/١٦٥

ابن عاشور على دلالة الربط بالواو بقوله: " وفي قرنه بالواو إشعار بالرد عليهم "[1].

ونجد هذا التغاير في الربط في الجملة المضارعية الحالية المنفية بما ، ولا ، ولم[2] ومن شواهد ما نفي بـ(لم) قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[٤٧آل عمران] فهذه الحال فيها (ولم يمسسني) (بالواو)،وجاء بالضمير فقط كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [١٤٧ آل عمران]، فهاتان الجملتان حاليتان منطوقهما واحد (ولم يمسني) ، و(لم يمسهم) إحداهما بالواو والضمير والأخرى بالضمير فقط فما سر ذلك ؟ .

بعد النظر في الشواهد المتقابلة لحظت أن ما ربط بالواو جاء في مواطن كان التعويل فيها على الحال والقصد فيها إليها، لذا زيد في الربط فألحقت الواو ، ومن تلك المواطن تسلط الإنكار أو الاستفهام على الحال مثل آية آل عمران (ولم يمسسني بشر) ؛ لأن الاستفهام متوجه إلى العلة في الاستغراب والاستبعاد فكان لزاماً عطف هذه الجملة وإدخالها في حيز الاستفهام لأنها مناطه، أما قوله تعالى: (لم يمسسهم سوء) بدون (واو) فالجملة قبله تامة ، والهدف ليس كله إلى الحال، وإن كان مطلوباً لذا اكتفي فيه بالضمير ؛ لأنه لو قيل: فانقلبوا بنعمة من الله ولم يمسسهم سوء، لأشعر ذلك بأن الجملة الحالية فيها رائحة الاستئناف فيكون المعنى المراد هو الإخبار عنهم بأنهم انقلبوا ورجعوا بنعمة من الله ، وكذلك لم يصبهم سوء ، لكن لما أريد أنهم رجعوا سالمين غانمين في حين كان التوقع أن يصيبهم مكروه جاءت بغير واو فقيل: (لم يمسسهم سوء) بياناً لاستواء النعمتين فيهم واجتماعهما لهم في وقت واحد ، وإظهاراً لبعد السوء عنهم ، فكأنه قيل: فانقلبوا بنعمة من الله لم يمسسهم سوء أصلاً .

ومن المواطن أيضاً التي فيها اهتمام بيّن بالحال ماجاءت فيه قبل انقضاء ركني الكلام، مثل قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [٨٢ الأنعام] ، فلو قيل: الذين آمنوا لم يلبسوا، لكان هو الخبر ، فكان لا بد من

---

[1] – التحرير والتنوير ٦٠٧/١

[2] – لمزيد من الاطلاع على الشواهد ينظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم الجزء الأول القسم الثالث ٦٠٣ ومابعدها.

الواو تقوية لرابط الجملة الحالية حتى لا يفهم غير المراد، وحتى يعلم أن ارتباط هذه الجملة بما قبلها ليس ارتباط إسناد ، بل هو ارتباط ضم وجمع تكملة لمعنى مهم في الجملة السابقة، لذا ذكرت الحال قبل تمام الخبر .

ومن ذلك وقوعها في حيز الشرط وقبل الجزاء مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [٢٨٣ البقرة] ولو قيل بغير الواو: (وإن كنتم على سفر لم تجدوا كاتباً) ، لكان معنى آخر ؛ لأن سقوط الواو يجعلها متهيئة للاندماج مع ما قبلها بحيث تكون الجملة الثانية في موضع جواب الشرط وهذا ليس بمراد هنا .

ومن ذلك مجيئها بين المتقابلين مثل قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾[٤١ المائدة] ، فالواو هنا في قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾حسنة لأنها أشعرت بالمغايرة وهي مقصودة في مثل هذا .

وقد سبق تحليل شواهد كثير للجملة الفعلية بكل أنواعها ، وتعرضنا هناك لمدلول وجود الواو من عدمه ، فاستغنينا بما هناك عن إعادته هنا [(١)].

٤- نتائج مهمة في الرابط .

في نهاية الحديث عن الربط بالضمير أو الواو أو بهما معاً أود الإشارة إلى ما يأتي:

أ- أن إدراك الفروق بين ما ربط برابط معين دون آخر هو من الصعوبة بمكان كبير؛ وذلك أنه ربما يتبين فيه الوجه أحياناً وأحياناً لا يتضح، ولله در عبد القاهر إذ يقول: "...فمحال أن يكون ها هنا جملة لا تصلح إلا مع (الواو) وأخرى لا تصلح فيها (الواو)، وثالثة تصلح أن تجيء فيها (بالواو) وأن تدعها...ثم لا يكون لذلك سبب وعلة، وفي الوقوف على العلة في ذلك إشكال وغموض ؛ وذاك لأن الطريق إليه غير مسلوك، والجهة التي منها تعرف غير معروفة"[(٢)].

---

(١) - انظر ص ١٠٣، و١١٠من هذا البحث .

(٢) - دلائل الإعجاز ٢١٢ .

ب- أن دلالة الضمير في الربط دلالة إرجاع وإشراك وإعادة، ولذا فهو أقوى، ودلالة الواو دلالة ضم وجمع وتكون للنافر من الجمل القابل للاستئناف والانفصال، يقول عبد القاهر عن مدلول الجمع فيها "وتسميتنا لها (واو حال) لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة"[1].

ج- أن الواو تأتي أحياناً لأجل تأكيد الربط يقول ابن يعقوب المغربي: "الجملة الحالية قيد يكون ارتباطها بما هي قيد له مظنة الإنكار فتستعمل الواو لإفادة تأكيد الربط"[2] .

د- الجمل التي تطلب الواو فيها انفصال ومغايرة لما قبلها، وأكثر أحوالها خالية من الضمير، لأنها لا تقبله ولا تتحمله فتحتاج الجملة إلى رابط خارجي وليس إلا (الواو) ، وأما الجمل التي ينفرد فيها الضمير بالربط، فالمنظور فيها إلى التداخل والاشتراك يقول عبد القاهر في هذا الأمر: "...اعلم أن كل جملة وقعت حالاً ثم امتنعت من (الواو) فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد، وكل جملة جاءت حالاً ، ثم اقتضت (الواو) فذاك لأنك مستأنف بها خبراً وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات ..."[3] .

هـ - أن الربط بالواو والضمير "قد كثر في الجمل الاسمية التي بدئت بالضمير، أما الربط بالضمير فقط فقد تحقق في الجمل الاسمية التي دخلت عليها (كأن) و (لا) التي لنفي الجنس[4]، كما كثر في الجمل الاسمية التي تقدم فيها الخبر على المبتدأ ... وقد ارتبطت جملة الحال في القرآن بالواو فقط في الاسمية التي بدئت بالعلم أو بالمعرّف بالألف واللام[5] ..."[6].

و- أن هناك روابط أخرى نذكرها للفائدة ، منها :

---

[1] - دلائل الإعجاز ٢١٤ .

[2] - شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١٢٤/٣ .

[3] - دلائل الإعجاز ٢١٣ .

[4] - وذلك لأن هذه الحروف فيها بعض معاني الربط فأغنت عن الواو .

[5] - وذلك لأن الاستئناف في الجمل المبدوءة بذلك أقرب من غيره، لقيام هذه الأنواع بنفسها .

[6] - الحال في الأسلوب القرآني ١٧٢ .

* **الاسم الظاهر .**

كما في قوله تعالى:﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[١١٥الأنعام]، يقول أبو السعود:" (لا مبدل لكلماته) إما استئناف ... وإما حال أخرى من فاعل (تمت) على أن الظاهر مغنٍ عن الضمير الرابط"[(١)].

* بعض الحروف مثل :

- (أل) .

كما في قوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٢٣٦ البقرة] ، فقد ذكر أبو حيان أن (على الموسع قدره ...) جملة تحتمل الاستئناف والحالية، وحينئذ هي مربوطة بضمير محذوف تقديره (منكم)، "وقد يقال إن الألف واللام نابت عن الضمير ، أي على موسعكم ..."[(٢)].

- (إلا) .

كما في قوله تعالى:﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[٤٩الكهف]، يقول ابن عاشور: "فجملة (أحصاها) في موضع الحال، والرابط بينها وبين ذي الحال حرف الاستثناء"[(٣)]،وقد نقل السيوطي من قبل الربط بـــ(إلا)،وأفاد أنه يحصل بها الاتصال[(٤)].

- (كأن) .

وذلك في شواهد كثيرة مثل:﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٧ لقمان] ، فجملة (كأن لم يسمعها)

---

(١) – تفسير أبي السعود ١٧٨/٣ ، وانظر الفتوحات الإلهية ٨١/٢ ، وانظر مثل هذه الآية ٤١ العنكبوت، ويراجع فيها دراسات في أسلوب القرآن الكريم الجزء الأول القسم الثالث ١٨٣ .

(٢) – البحر المحيط ٥٣٣/٢ .

(٣) – التحرير والتنوير ٣٣٩/١٥ .

(٤) – انظر همع الهوامع ٤٨/٤ .

حالية ، وقد أشار ابن يعقوب -كما سبق- إلى أن من أسباب ترك الواو في مثل هذا ما في (كأن) من دلالة التشبيه وهو في أصله يفيد الارتباط[1].

*** العموم .**

كما في قوله تعالى:﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [١٠الحديد]،يقول ابن عاشور: "والواو في:(ولله ميراث السموات والأرض) واو الحال وهو حال من ضمير (تنفقوا) باعتبار أن عموم السموات والأرض يشمل ما فيها،فيشمل المخاطبين فذلك العموم هو الرابط ..."[2].

هذا أظهر ما تبين لي ، وهذه الروابط لا تخرج عن الضمير والواو كما رأينا فهي إما مصاحبة لأحدهما أو نائبة عنه ثم هي قليلة ونادرة، وإنما أردت بذكرها التنبيه على بعض ما ذكروه في هذا الجانب، ولكي يتم به الموضوع ويكتمل .

وقبل أن نختم هذا المبحث لا بد أن نعلم أن جملة الحال إذا كانت لا تستغني عن الرابط حتى يلتئم سياقها مع صاحبها ، فإنها هي في ذاتها رابط لمجموعة من الجمل، ونجد ذلك جلياً في الحال المتداخلة التي ينحلّ بعضها من بعض مصورة في ذلك التسلسل المطلوب،والتوالد المشعر بالارتباط الوثيق بين تلك الأحوال، وقد أجاد الدكتور أحمد مختار البرزة في تحليل رائع لهذا الجانب يقول فيه: "ولجملة الحال شأن في الوصل على نحو يجعل ما بين الآيات كما بين حلقات متساوية في سلسلة واحدة، ومثال ذلك قوله تعالى:﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[٥ ،٦الأنفال] ففي هاتين الآيتين أربع جمل أحوال يخرج بعضها من بعض في تماسك وتتابع، تتابع الأعداد في سلسلة عددية متوالية وأحكم هذا الاطراد العناصر المشتركة فيما بينها، وأدلها إسناد أفعال تلك الجمل،كل منها إلى ضمير صاحب الحال وهو عمدة الربط...ومنها صيغة المضارع بدءاً من الجملة الثانية،ومنها اشتراكها في العلة وهو الخوف مما كان سبباً للخروج...مما جعل الأحوال الأربع على أوثق صلة بأول جملة،ويجعلها في تواصلها أشبه بأربع دوائر يمر طرف

---

[1] - انظر شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١٥٦/٣ ، ١٥٧ .

[2] - التحرير والتنوير ٣٧٣/٢٧ .

كل منها بمركز سابقتها" [١].

وينبه الدكتور البرزة في تحليله هذا إلى أثر هذا التواصل والربط بين تلك الجمل في المعنى، ويعلل ذلك تعليلاً حسناً بقوله:"وعلى ما لهذه العناصر اللفظية من أثر مرموق في الربط والاتساق فإن الغرض المعنوي له الأثر الأكبر،ذلك أن كراهة فريق من المؤمنين للقتال هو الدافع للجدال،والباعث على الخوف المثبط،فالجملة الحالية الأولى علة للأحوال الثلاثة من بعدها،وعندما تترّل جملة (يجادلونك) مكاناً وسطاً فإنها تأخذ أسبابها وبواعثها من الجانبين معاً من كره اللقاء،ومن الفزع المقعد،ومن لطف الفن أن تأتي جملة(يجادلونك) أول الآية لتعقد في صورتها الحركية ما بين الجملتين،وهي ما بين سببين من البواعث،ثانيهما ناشئ عن الأول أيضاً،فبهذا التركيب كان الربط المعجز"[٢].

والتعليل في الجملة الحالية يفسر كونها وسيلة ربط لارتباط العلة بالمعلول ، وإلى هذا ينبه الدكتور البرزة بقوله: "فالجمل الحالية ، وإن كانت بياناً للهيئات الخارجية أو النفسية الداخلية ، فإن من وراء الصورة فائدة إضافية هي تضمن علة تربط ما بين الآيات أو الجمل في الآية الواحدة، فتكون قوة من قوى التركيب الداخلية... فالجملة الحالية، لما لها من مضمون تعليلي ، وسيلة من وسائل الإحكام والتفصيل ، وتحقيق الوضوح..."[٣].

---

[١] – في إعجاز القرآن (دراسة تحليلية لسورة الأنفال ، المحتوى والبناء) ٤٤٥ .

[٢] – في إعجاز القرآن (دراسة تحليلية لسورة الأنفال ، المحتوى والبناء) ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

[٣] – في إعجاز القرآن (دراسة تحليلية لسورة الأنفال ، المحتوى والبناء) ٤٤٦ .

الفصل الثالث

أسرار التقييد بالحال

توطئة:

للقيود شأن كبير في صيغ الكلام المتعددة:إثباتاً ونفياً،واستفهاماً ونهياً وأمراً، وقد يكون سر التقييد ظاهراً بيناً ، وقد يكون غامضاً خفياً، وإذا تعلق به حكم شرعي فيه تحليل أو تحريم كان للحديث عن القيد أهمية خاصة، بل وخطورة كبيرة[١]، وحبذا لو أفردت دراسة للقيود المتعلقة بالأحكام الشرعية في الذكر الحكيم .

والقيود تكون ألفاظاً زائدة عن ركائز الإسناد: المبتدأ والخبر أو الفعل والفعل،و لا نعني بذلك أنها عديمة الفائدة، بل الأصل فيها أنها إذا ذكرت فوجْه القصد إليها، بل جعل عبد القاهر هذا الأصل كالواجب الذي لا سبيل إلى الشك فيه حيث يقول: "وجملة الأمر أنه ما من كلام كان فيه أمر زائد على مجرد إثبات المعنى للشيء إلا كان الغرضَ الخاص من الكلام، والذي يُقصد إليه، ويُزَجَّى القول فيه ، فإذا قلت : جاءني زيد راكباً ، وما جاءني زيد راكباً كنت قد وضعت كلامك لأن تثبت مجيئه راكباً أو تنفي ذلك، لا أن تثبت المجيء وتنفيه مطلقاً، هذا ما لا سبيل إلى الشك فيه"[٢].

وليس شرطاً في هذه القيود أن تأتي على وتيرة واحدة ومقصد واحد، بل تتعدد أغراضها،وتتنوع أهدافها،يقول الدكتور بسوني فيود:"تأتي التوابع والقيود في التراكيب لتحقيق أغراض ومقاصد ومزايا بلاغية يهدف إليها المتكلم"[٣]، ويقول أيضاً:"والتوابع والقيود في النظم القرآني الكريم، وراءها العديد من اللطائف والمزايا البلاغية التي تتجلى للناظر المتأمل والمتدبر الواعي،الذي أحسن النظر وأحكم التدبير ..."[٤].

والحال أحد هذه القيود[٥]، وهو لا ينفك عن هذه الوظيفة إلا قليلاً كما ينبئ عن ذلك قول ابن الناظم في تقسيم الحال بعمومها: تنقسم إلى قسمين: مقيدة ومؤكدة[٦]، خاصة إذا علمنا أنه حتى المؤكدة يكون فيها معنى زائد على مجرد التوكيد _على ما عرفنا

---

(١) انظر :من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد ١١، ١٤١٣هـ ص١ .

(٢) دلائل الإعجاز ٢٨٠ ، وانظر حاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٨٦/٢ .

(٣) من بلاغة النظم القرآني ٥٠ .

(٤) من بلاغة النظم القرآني ٥٠ .

(٥) انظر حاشية الدسوقي على مختصر المعاني ٨٦/٢ .

(٦) انظر المصباح في المعاني والبيان والبديع ٧٠ .

من قبل ـ[1] فيكون ذكرها قيداً بغض النظر عن توجه القصد إليه أو إلى غيره، وعلى هذا نستطيع القول إن الحال مقيدة في كل أحوالها وهذا ما نص عليه الشهاب بقوله:"...الحال مقيدة على أي وجه كان"[2]،فلو قلنا مثلاً جاء زيد راكباً، لوجدنا أن ركني الإسناد هما(جاء زيد) "والحال قيدت ذلك المجيء بقيد وأثبتت أن المجيء الذي أخبرت به مجيء مقيد لا مطلق" [3].

وقد يُظن أن التقييد في مثل هذا المثال لا قيمة له؛ إذ القصد ليس إليه، والصحيح أن الجملة ما دامت تستطيع الاستغناء عن الحال ثم هي تذكر معها بعد ذلك، فذلك لغرض مهم لابد من معرفته ، والتقييد هو أساس ذلك ؛ لأن الحال: (راكباً) لا يذكر إن كان القصد إلى الإخبار عن مجيء زيد فحسب، فلما ذكرت علمنا أن هناك مقصداً آخر فوق ذلك وهو بيان كيفية مجيء زيد، وعلمنا بهذا أن عناية المتكلم هي بالحال التي جاء عليها، أو بالمجيء وهيئته معاً، وكلاهما كان الحال فيها مهماً، وفهمنا أيضاً أن هناك دواع دعت المتكلم لإظهار الحال، كأن يكون المتوقع أن يجيء على هيئة مخالفة، أو أنه لم يعهد منه أن يكون على مثل تلك الحالة، أو غير ذلك من الأغراض ، وهي في ذلك كله لم تخرج عن التقييد؛ إذ المراد أن الحال قيدت المجيء بالركوب لأنها أخرجته من العموم،إذ لولاها لما علمنا على أي هيئة جاء:ماشياً راكضاً، مهرولاً،...فما دام هناك مجال للتعميم ثم جاء ما يخصصه فهو التقييد،وما زاد المتكلم هذه الزيادة إلا لغرض يقصده فهي ليست عبثاً، ولا من نوافل الكلم ، ولعل هذا ما حدا بعبد القاهر أن يعطي القيود الزائدة على مجرد الإثبات و النفي تلك الأهمية الكبرى، حتى جعلها محط العناية ومتوجه الكلام.

ولا شك أن ما أشار إليه من كون الحال في سياق النفي والنهي والأمر هي المقصودة والمعنية يعد قضية جوهرية في هذا الموضوع، ولكن هل حكمه الذي أطلقه يعد قاعدة مطردة واجبة أم أنها منخرمة ؟ .

---

(1) نظر ص ٢٢١من هذا البحث.
(2) حاشية الشهاب على البيضاوي ٢/ ٤٠ .
(3) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ٣/ ١١٩ .

لا شك أن ما قاله في غالبه متوجه مقبول وهو الأصل،لكن تعميمه على كـــل شـــيء لا تساعد عليه الشواهد[1]،وخروج الحال عن هذه القاعدة هو محط العناية والنظر في بحثنـــا هذا لما فيه من الغرابة وإن كان ذلك لايمنع من دراسة ما جاء على الأصـــل الـــذي قـــرره عبدالقاهر.

والتقييد بالحال جاء في سياقات متعددة: سياق الإثبات، وسياق النفـــي، وســـياق النهي، وسياق الاستفهام؛ لذا جعلت مباحث هذا الفصل على هـــذا الترتيـــب، وهـــذا التقسيـــم :

١– التقييد بالحال في الإثبات .

٢– التقييد بالحال في النفي .

٣– التقييد بالحال في النهي .

٤– التقييد بالحال في الاستفهام .

---

(١) انظر : من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٩.

المبحث الأول : التقييد بالحال في الإثبات.

جاءت الحال في سياق الإثبات في مقامات متعددة أكثرها يدور حول المدح والثناء، والقدح والتشنيع ، والتشريع والحكم ، وكانت الحال في مجموع ذلك متفاوتة الدلالـــة ، فأحياناً تكون هي موضع الاهتمام ، وأحياناً تكون تذكر لهدف مقصود غـــير التقييـــد ، وأحياناً يتوجه القصد إليها مع المقيَّد جميعاً، وبعد النظر في الشواهد رأيت أن أقسمها إلى ما يأتي:-

١- ما كان في سياق التعظيم والقدرة والمنة .
٢- ما كان في سياق المدح والثناء .
٣- ما كان في سياق التوبيخ والتشنيع .
٤- ما كان في سياق التشريع وبيان الحكم .
٥- ما كان في سياق الاحتراز ودفع التوهم .
٦- ما كان في سياق الأمر .

١- ما كان في سياق التعظيم والقدرة والمنة .

ويظهر ذلك في مثل قوله تعـــالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [٣٢ التوبة][(١)]،وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [٨ الصف] .

ومثلها كثيركقوله تعـــالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [٣٣ التوبة] .

والمراد فيها كلها واحد ، وهو تقييد ثبوت الحكم (إتمام النور) و (إظهـــار الـــدين) بأقصى أحواله تنبيهاً على المبالغة في ثبوته وبقائه في هذه الحال فكيف فيما دون ذلك من

---

(١) بعضهم يجعل مثل هذه الآية من باب النفي؛ لما في الفعل (يأبى) من معنى النفي ، ولكن لعدم صراحة النفي فيه، ولوجود آيات أخرى مشابهة في سياق الإثبات ذكرتها هنا ، انظر في دلالة النفي من عدمها: التحرير والتنوير ١٠/١٧٢ .

الأحوال، يقول ابن عاشور عن آية التوبة:" و(لو) في (ولو كره الكافرين) اتصالية، وهي تفيد المبالغة بأن ما بعدها أجدر بانتفاء ما قبلها لو كان منتفياً"[1]، فإتمام النور ، وإظهار الدين ثابت رغم كراهية الكفار والمشركين ، التي تحملهم على المكر والخديعة والإضرار والكيد بكل وجوهه[2].

وهذه الآيات مشعرة بعظيم قدرة الله وقوته سبحانه ، وهي تبعث الثقة في نفوس المؤمنين مهما رأوا من كيد المجرمين لهذا الدين وصدهم عنه، خاصة وأن التعليق جاء بأعلى الحالات وأقصاها، فهذه بشارة بظهور هذا الدين وانتشار نوره؛ لأنه إذا كان ذلك ثابتاً مع كيدهم وصدهم فكيف إذا سلم من ذلك، إنه أشد ثبوتاً وأعظم رسوخاً، وليس في التعليق بمثل هذا في جانب القدرة الإلهية إشعار بأن كيدهم له وزن، بل المراد إيقاف المؤمنين على حقائق ضعف الكائدين الكافرين وأهم لن يضروا الله شيئاً مهما كادوا وخططوا .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٤١ الرعد] ، يقول أبو حيان: " و الجملة من قوله: ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ في موضع الحال"[3]، وجاءت هذه الحال في سياق التمجيد والتعظيم ، والمدح والثناء له جل جلاله، فكان تقييد الجملة في غاية الحسن؛ إذ هي موضع القصد فيه، يقول ابن عاشور: "جملة ﴿ لَا مُعَقِّبَ ﴾ في موضع الحال، وهي المقيدة للفعل المراد ؛ إذ هي مصب الكلام؛ إذ ليس الغرض الإعلام بأن الله يحكم ، إذ لا يكاد يخفى، وإنما الغرض التنبيه إلى أنه لا معقب لحكمه..."[4].

وكما هو ظاهر هنا فالسياق سياق تمجيد وتعظيم ،ويدل لذلك ما في "بناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر..."[5] ، لذا كان هذا القيد مشاركاً في بيان علو شأن حكم الله جل جلاله، والقول بالحالية فيه أولى

---

[1] التحرير والتنوير ١٧٢/١٠ .
[2] انظر التحرير والتنوير ١٩١/٢٨ .
[3] البحر المحيط ٤٠١/٦ .
[4] التحرير والتنوير ١٧٢/١٣ .
[5] تفسير أبي السعود ٢٨/٥ .

ـفي نظري ـ من الاعتراض[1] ، لارتباط الحكم دوماً بهذه الحال ، فهو في كل أحواله على هذه الهيئة، ولا يقال فيه إن الحال منتقلة فلا يصلح هذا المعنى؛ لأن الأحوال من الذات العلية لا تنتقل بل هي ثابتة مستمرة، ولا يصلح القول بأن التقييد إنما هو بالمنتقلة؛ لأن بعض القيود للاحتراز وإكمال جوانبِ المدح ـ كما هو الحال هنا ـ وما هذا شأنه لابد من استمراريته ودوامه مع صاحبه وإلا تخلف المدح به ، ثم إن في سوق هذا الحال من حكمه سبحانه تعريضاً بحكم غيره سبحانه، فكل حكم سوى حكمه عرضه للنقص وعدم النفاذ .

ومن مظاهر القدرة ، ودلالات العظمة ما جاءت في شأن ضرب المثل لنور الله في قلب عبده المؤمن كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٣٥ النور] .

فقوله جل ذكره ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ جملة حالية[2]، وليس المراد تقييد حصول الإضاءة بها، بل المعنى: "يكاد يضيء في كل حال حتى في حالة لم تمسسه فيها نار"[3]، فقرب الإضاءة إذاً حاصل على كل حال، وإنما ذكرت جملة الحال لتقييده بأقصى الحالات بعداً، للتدليل على أن ما دون ذلك مسلّم ثابت، أي أنه مع مس النار أشد إضاءة وأعظم ، ولا يأتي هذا المعنى المشعر بشدة الصفاء والنقاء إلا بهذه الحال مع (لو) المشعرة بالمبالغة ، يقول القرطبي عن معنى هذا التركيب إنه: "مبالغة في حسنه وصفائه وجودته"[4]، ويقول الدكتور الخضري عن الحال: "الغرض منها ثبوت الإضاءة على جميع الأحوال"[5].

وهذا مثل عظيم لتشبيه نور الله في قلب عبده المؤمن وكيفية قبوله للحق واهتدائه إليه، بفطرته وتوفيق الله له، فهو في كل أحواله مستعد لذلك صالح قلبه لتلقي النور[6].

---

(١) جعله الألوسي هو الأولى، انظر روح المعاني المجلد السابع الجزء الثالث عشر ١٧٤ .

(٢) انظر البحر المحيط ٤٧/٨ ، والتحرير والتنوير ٢٤٢/١٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٤٢/١٨ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٩/١٢.

(٥) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ١٥ .

(٦) انظر بيان ذلك في: بدائع التفسير ٢٥٥/٣ وما بعدها .

ومما جاء في إظهار قدرة الباري جل جلاله، قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٤١ النـور]، فقوله جل ذكره:(صافات) حال من الطير[1]، ولكن ما سر تقييد تسبيح الطير بهذه الحال خصوصاً، علماً أنه يسبح حتى في غير هذا الحال ؟.

لعل الأظهر في سر التقييد هنا هو الدلالة على القدرة الإلهية الباهرة، فقد جاءت هذه الحال مصورةً الحالَ الأعجب للطير؛ لأنه أدل على القدرة، يقول البقاعي: "ولما كان أمر الطير أدل لأنه أعجب قال مخصصاً: (والطير صافات) أي: باسطات أجنحتها في جو السماء... وإمساكه لها في الجو مع أنها أجرام ثقيلة وتقديره لها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته"[2].

وإذا كان شأن الطير في هذا المقام هو الأعجب فَخُصص بالذكر بعد ذكر من في السموات والأرض فمن المناسب ذكر الحالة الأغرب فيه ألا وهي صف الأجنحة ، وقد نبه على هذا الأمر بصورة أظهر من غيره أبو السعود بقوله: "وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في جملة ما في الأرض لعدم استقرار قرارها فيها ، واستقلالها بصنع باهر وإنشاء رائع ، قصد تسبيحها من تلك الجهة لوضوح إنبائها عن كمال قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها ، حسبما يعرب عنه التقييد بقوله: (صافات) أي تسبحه سبحانه حال كونها صافات أجنحتها..."[3]، ويؤيد هذا أن ذكر القبض لم يرد هنا مع ذكر السموات والأرض، لأن " الاقتصار على صف الأجنحة دون اتباعها بحركة القبض مع استمراره في الطيران أدل على قدرة الله"[4] ، ولا يعنى هذا أن القبض لا يدل على القدرة لكن المقصود أن الصف أدلّ منه وأظهر، وهذا الملمح هو الحقيق بالقبول لا ما ذكره ابن عاشور من أن المراد هو المقابلة فحسب حيث يقول:"وتخصيص الطير بالذكر من بين المخلوقات للمقابلة بين مخلوقات الأرض والسماء، بذكر مخلوقات في الجو بين السماء

(١) البحر المحيط ٥٦/٨ .
(٢) نظم الدرر ٢٨٨/١٣ .
(٣) تفسير أبي السعود ١٨٣/٦ .
(٤) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني١١ .

والأرض؛ ولذا قيدت بـــ(صافات) "[١]، وأبعد من هذا ما أورده الألوسي ــ ولم يؤيده ــ من أنه يجوز أن يكون المراد أن إفراد الطير يدل على تسبيح خاص له لا يدخل فيما سبقه؛ لما للطيور من أصوات ظاهرة، لكن الحال المقيدة لا تساعد على هـــذا؛ لأنهـــا لم تتعلـــق بالصوت بل بالحركة الدالة على القدرة العظيمة المناسبة لما سبق من تسبيح الملكوت كلـــه له سبحانه، لذا قال الألوسي عن هذا الرأي: "لكن التقييد بالحال على هـــذا، حالـــه في الحسن دون حاله على ما سبق"[٢].

وإذا كان ما سبق هو بعض دلائل قدرته سبحانه، المتمثل في قوته سبحانه وجبروتـــه وقهره، وفي إبداعه جل شأنه في خلقه، فإن من ذلك أيضاً منته على خلقه، وإنعامه عليهم، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [٥٠ البقرة] .

هذه الآية مع ما قبلها تضمنت العديد من الـــنعم الدنيويـــة والدينيـــة علـــى بـــني إسرائيل[٣]،وزيادة التقييد بالحال:(وأنتم تنظرون) مع ذكر إغـــراق عـــدوهم:(فرعـــون وجنوده) هي من هذا القبيل؛إذ إن إغراقه فرعون لم يكن لأجل نظرهم،بل لأجل طغيانـــه وتجبره وصدوده وإيذائه، فإغراقه حاصل حتى ولو لم يكن بمعاينتهم ؛لذا فذكر الحال هنـــا وتقييد الإغراق بها لا يعني تعلق الفعل بها وجوداً وعدماً كما هـــو المعهـــود في غالـــب التقييد،بل القيد هنا لشيء فوق هذا،وهو ما ذكـــره ابـــن عاشـــور بقولـــه:" (وأنـــتم تنظرون)جملة حالية ...وهذه الحال زيادة في تقرير النعمة وتعظيمهـــا ، فـــإن مـــشاهدة المـــنْـــعَم عليه للنعمة لذةٌ عظيمة،لا سيما ومشاهدة إغراق العدو أيضاً نعمة زائدة، كما أن مشاهدة فرق البحر نعمة عظيمة لما فيها من معجزة تزيدهم إيماناً وحـــادث لا تتـــأتى مشاهدته لأحد ..."[٤].

ومما جاء على سبيل الامتنان أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴾ [٧٢ الأنبياء]، فالحديث هنا إبراهيم عليه السلام ، وقد أعطاه الله

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٩/١٨ .
(٢) روح المعاني المجلد التاسع الجزء الثامن عشر ١٨٨ .
(٣) انظر مفاتيح الغيب ٦٧/٣ .
(٤) التحرير والتنوير ٤٩٦/١ .

إسحاق زيادة على مطلبه بعدما رزقه إسماعيل تكرماً منه سبحانه، وقد جاءت الحال هنا (نافلةً) مقيدة للهبة لإبراز عظيم المنة منه سبحانه[1]، يقول خضر عبد السلام أبو طالب: "وتأتي كلمة (نافلة) في هذا المثال لبيان أن هبة الله إسحاق ويعقوب عليهما السلام لخليله إبراهيم تمت حال كونها زيادة منه سبحانه في رضاه عنه وتكريمه له"[2].

ولعل مما يصور عظيم فضله -سبحانه- على عباده،ورحمته بخلقه تلك الحال الواردة في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [٦ الرعد] ، فقوله جل ذكره: ﴿ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ حال من الناس[3]،ولكن ما سر التقييد بها ، مع أنه معلوم أن الله يغفر للناس غير متلبسين بهذا القيد،بل عفوه عن المطيعين التائبين أقرب؟.

وقد خاض المفسرون في معنى هذه الآية بتأويلات كثيرة، أظهرها عندهم أن المراد هو الإمهال لهم وتأخير العذاب إلى أجل،وهذا المعنى وإن كان لا يُنكر لكن سر التقييد فيه لا يظهر كما ينبغي،بل الأقرب في هذا أن المراد هو بيان عظيم حلمه سبحانه مع أمثال هؤلاء المستخفين بالعذاب المستعجلين له رغم كثرة العبر التي سبقتهم ، فهو سبحانه مع هذا كله حليم غفور،لذا ألمح ابن عباس إلى هذا المعنى بقوله:"ليس في القرآن آية أرجى من هذه"[4].

وقد نبه ابن عاشور إلى سر هذا القيد بقوله:"وفائدة هذه العلاوة إظهار شدة رحمة الله بعباده في الدنيا،كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٤٥ فاطر]،وجملة:(وإن ربك لشديد العقاب)احتراس لئلا يحسبوا أن المغفرة المذكورة مغفرة دائمة تعريضاً بأن العقاب حال بهم من بعد" [5].

(١) انظر بعض هذا في التحرير والتنوير ١٠٩/١٧ .
(٢) من فيض الرحمن في بلاغة النحو في القرآن ٤٠١ .
(٣) انظر البحر المحيط ٣٥٣/٦ .
(٤) البحر المحيط ٣٥٣/٦ .
(٥) التحرير والتنوير ٩٤/١٣ .

وهذا تحليل رائع يظهر فيه سر التقييد والمقابلة بين الرحمة والعذاب، فلما أريد بيان سعة الرحمة جاء ذكر المغفرة والعفو في سياق أعظم مقتضيات البطش والتعذيب،ثم ذكرت شدة العذاب بعد ذلك للموازنة،ولكن رحمته سبحانه سبقت غضبه؛ لذا تقدمت وذكر معها ذلك القيد (على ظلمهم)، ولقد أجاد الدكتور الخضري في بيان ذلك بقوله "...ولو حذف هذا القيد لبدا أن الغلبة للعقاب مقارنة بين مؤكدات الجملتين (إن ربك لذو مغفرة للناس)،(وإن ربك لشديد العقاب) حيث تساوت المؤكدات فيهما، وتفردت الأخيرة بما وصف به العذاب من بالغ الشدة، فجاء الحال:(على ظلمهم) لا ليعادل الكفتين،بل ليغلب جانب المغفرة ؛ لأن عدل الله يمنع من عقاب غير الظالمين، في حين تشمل رحمته من يشاء الله المغفرة له من الظالمين،وليس هذا القيد بناف المغفرة عن غير الظالمين، كما هو الشأن من توجه الغرض إلى القيد،ونلاحظ هنا أن النص على المغفرة لظالمي أنفسهم بالمعصية هو من باب الترقي في المغفرة ؛ لأن من يغفر للمتمادي على المعصية ، تكون مغفرته للتائب أعظم وأشمل"[1].

٢- ما كان في سياق المدح والثناء .

ومما يظهر فيه هذا الجانب جلياً ، ما كانت فيه الحال مصورة لأشد أحوال الفعل بعداً وذلك لتأكيد حصول ما دون ذلك من باب أولى، وهذا ظاهر في أكثر شواهد (لو) الوصلية وهي كثيرة نذكر منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [٢٢١ البقرة] ، فقوله جل ذكره: (ولو أعجبتكم) و (ولو أعجبكم) جملتان حاليتان، وهو مفهوم كلام الزمخشري حيث يقول عن المعنى: "ولو كان الحال أن المشركة تعجبكم وتحبونها ، فإن المؤمنة خير منها مع ذلك"[2]، وهو أولى من تقدير حال محذوفة كما هو شأن كثير من المفسرين[3].

---

(١) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني١٢ ، ١٣ .

(٢) الكشاف ١/٢٦٤ .

(٣) انظر ذلك عند أبي حيان وغيره ، البحر المحيط ٢/٤١٨ .

والمهم في كل ذلك سر تقييد إثبات خيرية المؤمن والمؤمنة على الكافر والكافرة بحالة الإعجاب التي هي مظنة تفضيل الكافر والكافرة، وهل يعني ذلك أنها إذا أعجبتهم بمثيرات الجمال أو كثرة المال أنها تكون خيراً من المؤمنة ؟ كلا فليس هذا بمراد ، وهو أسلوب كثير الدوران في القرآن، والغرض منه في عمومه ما أشار إليه أبو حيان بقوله: "وقد ذكرنا أن هذا يكون لاستقصاء الأحوال ، وأن ما بعد (لو) هذه إنما يأتي وهو مناف لما قبله بوجه ما ، فالإعجاب مناف لحكم الخيرية..."[(١)]، فالمراد إذاً هو المبالغة في إثبات الخيرية للمؤمنة على أعلى مستوى، خاصة مع إطلاق صفة الإعجاب بالمشركة من غير تحديد له بجهة معنية أو صفة خاصة .

وهذا المعنى كثير مع (لو) الوصلية التي هي بمعنى (إن) الشرطية[(٢)]، ولكن لخصائص تختص بها أوثرت على غيرها في مثل هذه المواضع،وتكررت كثيراً في مثل هذا المجالات،يقول ابن عاشور عنها وعن دلالتها: " و(لو) وصلية للتنبيه على أقصى الأحوال التي هي مظنة تفضيل المشركة..."[(٣)]، والتقييد بأقصى الحالات يكون لأمرين متداخلين ، أولهما الاستقصاء الكامل للأحوال بدلالة الأَوْلى ، والثاني: التنبيه على أن ما دون ذلك من الأحوال فالفعل فيه آكد وأثبت وأحق بالتسليم[(٤)]، فيكون المراد : أن المشركة وإن كانت فائقة في الجمال والمال والنسب فالأَمَة المؤمنة خير منها ، فكيف إذا كانت المشركة مساوية أو أقل، وهذا يدل على أن الخيرية ثابتة للمؤمنة على كل حال في مقابل ذكر المشركة [(٥)].

ومن شواهد (لو) الوصلية أيضاً قوله تعالى في مدح المؤمنين:﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [٩الحشر]، فقوله جل ذكره: (ولو كان بهم خصاصة) جملة " في موضع الحال و(لو) وصلية وهي: التي تدل على مجرد تعليق جوابها بشرط يفيد

(١) البحر المحيط ٢/٤١٨ .
(٢) انظر البحر المحيط ٢/٤١٨ .
(٣) التحرير والتنوير ٢/٣٦٢ .
(٤) انظر تحليلاً رائعاً لهذا الشاهد في: من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ١٣ ، ١٤ .
(٥) انظر بعض هذا في: البحر المحيط ٢/٤١٨ .

حالة لا يظن حصول الجواب عند حصولها، والتقدير: لو كان بهم خصاصة لآثروا على أنفسهم ، فيعلم أن إيثارهم في الأحوال التي دون ذلك بالأحرى دون إفادة الامتناع"(١).

فذكر الحال إذاً ليست لتقييد الفعل بحالة معينة ينتفي الفعل عند وجودها، وهي هنا حصول الخصاصة ، بل المراد هو المبالغة في المدح الثناء عليهم بالإيثار على أنفسهم في كل الأحوال، حتى في أعظم الحالات حاجة وهي كونهم ذوي فقر وفاقة ، فكيف يكون حالهم في غير تلك الحال ، إنهم أشد كرماً وأعظم عطاء !.

ومما جاءت فيه الحال مشعرة بالمدح غير (لو) الوصلية قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [١٣٤ آل عمران] فالحال هنا (في السراء والضراء)، ولعلنا نتساءل ما المقصود بالتقييد بها ، مع أن ذكرها بهذا التقابل يستوجب الأحوال كلها ، ولو حذفت وكان الكلام مطلقاً لشمل الأحوال كلها فما سر التنصيص على هذا القيد وهو بهذه المثابة ؟.

ليس من شك أن في التنصيص على مثل هذه القيود من المدح والثناء ما ليس في الإطلاق؛ لأن الإطلاق قد يُتوهم منه أنهم ينفقون في حال اليسر فحسب، والاقتصار على أحد القيدين يفهم منه أن الآخر غير مراد؛ لذا كان لا بد من ذكرهما جميعاً ، فيتحصل من هذا أن التقييد يراد منه الثناء ودفع التوهم ، يقول الزمخشري: "لا يخلون بأن ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل... أو في جميع الأحوال؛ لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة..."(٢)، ويظهر من أول كلام الزمخشري أن المراد إنفاقهم بوجود الحالتين معاً، وهو ما نص عليه أبو حيان بقوله: "ويحتمل التقييد بهاتين الحالتين، ويحتمل أن يعنى بها جميع الحالات..."(٣).

والذي يظهر أنه ليس المراد أن الإنفاق مربوط بوجود حالتي المسرة والمضرة جميعاً ، بحيث إذا وجدت إحداها منفردة فلا إنفاق، لأن هذا ما لا يناسب مقام المدح،وإنما المراد عموم حالات الإنفاق،لكن لذكر هاتين الحالتين سراً يقول عنه ابن عاشور:" وكان الجمع

(١) التحرير والتنوير ٩٤/٢٨ .
(٢) الكشاف ٤١٥/١ .
(٣) البحر المحيط ٣٤٦/٣ .

بينهما هنا؛ لأن السراء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة، فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال الذي هو عزيز على النفس قد صارت لهم خلقاً لا يحجبهم عنه حاجب،ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة"(١).

ومن هذا القبيل قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [٦٤ الفرقان] ، فهذه الآية تبين صفة من صفات عباد الرحمن ، جاءت في معرض مدحهم والثناء عليهم، ومن ذلك قيامهم بالليل وصلاتهم لربهم بالأسحار، وقد جاءت الحالان (سجدا وقياماً) مقيِّدتين للمبيت حتى يتسق مع سياق المدح، وإلا فلا مدح للبيات دون ذكر هذين الحالين، يقول الحسن البصري ـ رحمه الله ـ :"يبيتون لله على أقدامهم ويفرشون له وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم خوفاً من ربهم"(٢)، ويظهر لنا أن محط العناية وموضع المدح هو الحال، وقد جاء القيد متعدداً لاستيفاء الحالات، والتنويه بأطول حالات الصلاة، كل ذلك إتماماً في مدحهم يقول ابن عاشور: "فالمعنى يصلون: فوقع إطناب في التعبير عن الصلاة بركنيها تنويهاً بكليهما"(٣)، وقدم السجود لفضله "فإنها حالةٌ أقرب ما يكون العبد فيها من الله"(٤).

ومما هو مكمّل لهذا ما جاء في صفة أخرى من صفاتهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [٧٢ الفرقان]،فقوله تعالى:(كراماً) حال مقيِّدة للمرور،القصد منها مدحهم والثناء عليهم ، يقول ابن عاشور مبيناً هذا الملمح: "ومعنى (مروا كراماً) أنهم يمرون وهم في حال كرامة ، أي غير متلبسين بالمشاركة في اللغو فيه ؛ فإن السفهاء إذا مروا بأصحاب اللغو أنسوا بهم ووقفوا عليهم وشاركوهم في لغوهم، فإذا فعلوا ذلك كانوا في غير حال كرامة ... وهذا ثناء على المؤمنين بترفعهم على ما كانوا عليه في الجاهلية"(٥).

---

(١) التحرير والتنوير ٩١/٤ .
(٢) مفاتيح الغيب ٩٤/٢٤ .
(٣) التحرير والتنوير ٧٠/١٩ .
(٤) البحر المحيط ١٢٧/٨ .
(٥) التحرير والتنوير ٧٩/١٩ .

٣- ما كان في سياق التوبيخ والتشنيع .

وهذا اللون كثير في شأن الكفار والمشركين ، لأنهم هم أهل ذلك ، يقول الله عز وجل في شأن أهل الكتاب:﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [١١٣ البقرة] .

يقول أبو حيان: " (وهم يتلون الكتاب) جملة حالية أي: وهم عالمون بما في كتبهم تالون له،وهذا نعي عليهم في مقالتهم تلك؛إذ الكتاب ناطق بخلاف ما يقولونه..."[١]، فالتقييد هنا بالجملة الحالية يراد منه التشنيع عليهم في مقالتهم تلك، ولو عُدم هذا القيد لما فُهم من الكلام من توبيخهم وتقبيح فعلهم ما يفهم منه مع القيد، يقول ابن عاشور: " (وهم يتلون الكتاب):جملة حالية جيء بها لمزيد التعجب من شأنهم..."[٢].

وأما عن سر التقييد بالجملة الحالية دون المفردة في هذا المقام فيقول ابن عاشور: "وجيء بالجملة الحالية؛ لأن دلالتها على الهيئة أقوى من دلالة الحال مفردة ؛ لأن الجملة الحالية بسبب اشتمالها على نسبة خبرية تفيد أن ما كان حقه أن يكون خبراً عدل به عن الخبر لادعاء أنه معلوم اتصاف المخبر عنه به ، فيؤتى به في موقع الحال المفردة على اعتبار التذكير به ولفت الذهن إليه فصار حالاً له"[٣].

والذي ظهر لي أن التقييد الذي يفهم منه التشنيع أو التوبيخ يكثر مجيئه بالجملة الحالية المبدوءة بالضمير نحو:(وهم يعلمون) (وأنتم تعلون) (وأنتم تبصرون) (وأنتم تسمعون)[٤] ،ومن هذا قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١٤٦ البقرة]، فتقييد كتماهم للحق بحال العلم أشنع وأقبح ؛ لأن الجاهل قد يعذر أحياناً، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٤ المجادلة] .

---

(١) البحر المحيط ٥٦٥/١ .
(٢) التحرير والتنوير ٦٧٦/١ .
(٣) التحرير والتنوير ٦٧٦/١ .
(٤) انظر في هذا: الضمير المنفصل في النظم القرآني دراسة بلاغية تطبيقية (رسالة ماجستير) ٢٠٨ وما بعدها .

يقول أبوحيان:" (وهم يعلمون) جملة حالية، يقبّح عليهم؛ إذ حلفوا على خلاف ما أبطنوه فالمعنى:وهم عالمون متعمدون"[1]،ومما لاشك فيه أن هذا القيد زاد في التشنيع عليهم،وإلا فالحلف بالكذب شنيع في ذاته، لكنه إذا اقترن بالعلم الدال على وضوح ذلك لهم وعدم وجود مبرر له من نسيان أو شبهه أو غير ذلك لا شك أن ذلك أشنع وأقبح، يقول ابن عاشور:"(وهم يعلمون) جملة في موضع الحال، وذلك أدخل في التعجيب؛ لأنه أشنع من الحلف على الكذب لعدم التثبت في المحلوف عليه"[2].

ومن هذا النوع قوله تعالى في غير التقييد بالعلم: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [٥١ البقرة][3].

يقول الألوسي: "والجملة الاسمية في موضع الحال... وفائدة التقييد بالحال الإشعار بكون الاتخاذ ظلماً بزعمهم أيضاً لو راجعوا عقولهم بأدنى تأمل..."[4]، ويبين ابن عاشور أن فائدة الحال هي قطع حجتهم فيقول:"وقوله:(وأنتم ظالمون) حال مقيدة لـ(اتخذتم) ليكون الاتخاذ مقترناً بالظلم من مبدئه إلى منتهاه، وفائدة الحال الإشعار بانقطاع عذرهم فيما صنعوا، وأن لا تأويل لهم في عبادة العجل ، أو لأنهم كانوا مدة إقامتهم بمصر ملازمين للتوحيد محافظين على وصية إبراهيم ويعقوب لذريتهما بملازمة التوحيد، فكان انتقالهم إلى الإشراك بعد أن جاءهم رسول انتقالاً عجيباً؛ فلذلك كانوا ظالمين في هذا الصنع ظلماً مضاعفاً..."[5]، وينص الدكتور الخضري على أن الغرض هنا ليس متوجهاً إلى القيد ، بل المراد الفعلي هو النعي على الفعل نفسه، "فإن التقييد بجملة الحال (وأنتم ظالمون) لا يدل بمفهومه على أنه لا حرج في عبادة العجل إذا لم تكن مقرونة بالظلم ، كما هو الشأن حين يتوجه الغرض إلى القيد وحده ، فأي معصية يرتكبها من تقلب في نعم الله أكثر من أن يعبد العجل من دونه ؟!..."[6].

---

(١) البحر المحيط ١٢٩/١٠ ، ومثل هذا آية ٧٨،٧٥ آل عمران.

(٢) التحرير والتنوير ٤٩/٢٨ .

(٣) ومثلها تماماً آية ٩٢ البقرة ،وفيها كلام مطول للشهاب في دلالة الحال أو الاعتراض انظر حاشية الشهاب على البيضاوي ٣٣١/٢.

(٤) روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٢٥٨ .

(٥) التحرير والتنوير ٥٠٠/١ .

(٦) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني١٧ .

فالمراد إذاً من هذا القيد هو إنكار الفعل بالكلية ، وما النص على حالة الظلم هنا إلا لما ذكر من قطع العذر وإقامة الحجة ، بأنهم وصلوا إلى أعلى غايات الضلال ، إشعاراً بشناعة فعلهم وقبح صنيعهم .

ومما جاء فيه التقييد بالحال المفردة لقصد التشنيع قوله تعالى:﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [٦٩ الفرقان]، فمعلوم أن من يخلد في النار فهو مهان ذليل فما سر التقييد بالحال هنا إذاً ؟.

يقول ابن عاشور: " (مهاناً) حال قصد منها تشنيع حالهم في الآخرة ، أي يعذب ويهان إهانة زائدة على التعذيب بأن يشتم ويحقر"[١]، وما قاله ابن عاشور متوجه كما نرى ، وإن كان للبقاعي ملحظ آخر ، وهو أن القيد بالحال هنا هو للاحتراز ، يقول: "ولعله للاحتراز عما يجوز من أن بعض عصاة هذه الأمة -الذين يريد تعذيبهم- يعلمون أنهم ينجون ويدخلون الجنة فتكون إقامتهم -مع العلم بالمآل- ليست على وجه الإهانة"[٢]، وهذا توجيه لا ينكر أيضاً ، وإن كان الأول أظهر منه وأعم .

ومما جاء على سبيل التشنيع أيضاً قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [٢٥ الفتح]، فهذه الآية تشير إلى صنيع المشركين بالمؤمنين في الحديبية ومنعهم لهم، وقد نصت الآية على أن المنع وقع على شيئين هما المسجد الحرام والهدي، وهذان الأمران من أعظم ما يوجب لهم اللوم بين العرب،ولذا جاءت الحال:(معكوفاً)[٣] من (الهدي) متمشية مع هذا المراد، إذ ليس الغرض في التقييد به هنا إخراج غير المعكوف، لأنه وصف زائد، واللوم هو على منع الهدى عموماً،والغرض من ذكر هذه الحال منصرف إلى الفعل بعمومه وما ذكر الحال إلا زيادة في التشنيع عليهم، يقول ابن عاشور:"وفائدة ذكر هذا الحال التشنيع على الذين كفروا في صدهم المسلمين عن البيت، بأنهم صدوا الهدايا أن تبلغ محلها حيث اضطر المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية، فقد عطلوا بفعلهم ذلك شعيرة الله، ففي ذكر الحال تصوير لهيئة الهدايا وهي

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٧٥ .
(٢) نظم الدرر ١٣/٤٢٧ ، ٤٢٨ .
(٣) قال الراغب : ((والهدي معكوفاً : أي محبوساً ممنوعاً)) المفردات مادة عكف ٥٧٩ .

محبوسة"[1]، والآية -كما هو ظاهر- تسوق بعض شناعات أفعال الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهي أيضاً مظهرة لعموم العرب ذلك الجرم الذي أقدمت عليه قريش و لم يسبقها إليه أحد ، فكانت الحال (معكوفاً) ناقلة لصورة الهدي محبوساً دون البيت،فأسهمت بذلك في زيادة اللوم لهم، والتشنيع على فعلهم، وهي مشعرة أيضاً أن هذه الحال (معكوفاً) ما كان ينبغي أن تكون للهدي أبداً، لكنها حصلت من قريش فكانت بذلك وصمة عار في جبينهم .

٤- ما كان في سياق التشريع وبيان الحكم .

يكثر في هذا الجانب مجيء الحال في سياق الشرط ، وأكثره بعد الشرط وقبل الجواب، وذلك لأن الجواب مرتبط بذلك القيد ، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة ١٧٣]،فقوله تعالى: (غير باغ ولا عاد) حالان مقيدان لحل أكل المضطر، ولابن عاشور ملمح آخر في وجه التقييد بها حيث يقول: "وقوله: (غير باغ ولا عاد) حال، البغي: الظلم والعدوان والمحاربة والقتال ، ومجيء هذه الحال هنا للتنويه بشأن المضطر في حال إباحة هذه المحرمات له، بأنه أكلها غير باغ ولا عاد؛ لأن الضرورة تلجئ إلى البغي والاعتداء، فالآية إيماء إلى حد الضرورة وهي الحاجة التي يشعر عندها من لم يكن دأبه البغي والعدوان بأنه سيبغي ويعتدي، وهذا تحديد منضبط"[2]، وما يظهر من كلام ابن عاشور أنه جعل ذكر القيد مؤشراً لضبط الحاجة ، وما يدل عليه مذهب الجمهور هو أن المضطر لا يأكل إلا قدر ما يسد رمقه ولا يشبع ولا يتزود[3]، فيكون المقصود تقييد السماح بالأكل بهذين القيدين .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٨/٢٦ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢٠/٢ ، ١٢١ .

(٣) انظر روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٤٢ ، ومثل هذه الآية ٣ المائدة ، و١٤٥ الأنعام ، و١١٥ النحل .

فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[٢٩،٣٠ النساء]،فـ(عدوانا وظلماً) "مصدران في موضع الحال"[١]، وفائدة التقييد بهما يبينها أبو حيان بقوله: "... الإشارة بـ (ذلك) إلى ما وقع النهي عنه في هذه الجملة من أكل المال بالباطل وقتل الأنفس؛ لأن النهي عنهما جاء متسقاً مسروداً ثم ورد الوعيد حسب النهي ،وذهب إلى هذا القول جماعة، وتقييد أكل المال بالباطل بالاعتداء والظلم على هذا القول ليس المعنى أن يقع على جهة لا يكون اعتداء وظلماً، بل هو من الأوصاف التي لا يقع الفعل إلا عليه ، وقيل إنما قال: (عدواناً وظلماً) ليخرج منه السهو والغلط وما كان طريقة الاجتهاد في الأحكام ، وأما تقييد قتل الأنفس على تفسير قتل بعضنا بعضاً بقوله: عدوانا وظلماً ؛ فإنما ذلك لأن القتل يقع كذلك، ويقع خطأ واقتصاصاً"[٢].

وإذا كان ما ذكره أبو حيان متوجهاً ، فإن ما أشار إليه ابن عاشور بقوله: "وإنما قيّده بالعدوان والظلم ليخرج أكل المال بوجه الحق"[٣] ليس بمقبول ؛ لأن الأكل بالباطل لا يمكن أن يكون أكلاً بحق؛ لذا تحصل لنا مما سبق أن التقييد بالحال هنا إن كان لقتل الأنفس فهو متوجه لوجود الخطأ والعمد ، وإن كان للنهي عن أكل المال بالباطل فليس الغرض فيه إلى القيد ؛ لأنه لا مفهوم له حينئذ،بل يكون المراد التشنيع والتقبيح لذلك الفعل من أصله، وهذا كثير في القرآن وقد سبقت له شواهد، فليس المراد تعلق الفعل أمراً ونهياً بذلك القيد، بل المقصود تشنيع وإنكار الفعل ذاته وهو الأكل بالباطل،وأنه لا يكون إلا على هاتين الحالتين .

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى في قتل الصيد:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ [٩٥ المائدة] ، فقوله تعالى : (متعمداً) "حال من ضمير الفاعل في (قتله) "[٤]، يقول أبو حيان: "الظاهر تقييد القتل بالعمد فمن لم يتعمد فقتل خطأ بأن كان ناسياً لإحرامه أو رماه ظاناً أنه ليس بصيد

---

[١] التبيان ١/٣٥١ .

[٢] البحر المحيط ٣/٦١٢ ، وعلى هذا جاءت الآيات الصريحة في قتل النفس وجاء التقييد فيها بالعمد والخطأ كما في ٩٢ ، ٩٣ النساء ، وانظر في التقييد بذلك: التحرير والتنوير ٥/١٥٧ وما بعدها .

[٣] التحرير والتنوير ٥/٢٥ .

[٤] التبيان ١/٤٦٠ .

أو عدل سهمه الذي رماه لغير صيد فأصاب صيداً فلا جزاء عليه ، وروى ذلك عن ابن عباس..."[1]، وعلى هذا فالقيد وهو الحال هو محط الفائدة ، وإليه يتوجه الغرض، والحكم يدور معه وجوداً وعدماً ، يقول ابن عاشور: "وقوله (متعمداً) قيد أخرج المخطئ: أي في صيده..."[2].

وعلى هذا القول فلا إشكال، لكن على قول الجمهور:أبي حنيفة ومالك والشافعي أنه ليس للتقييد وفيه يقول الشهاب:"وليس ذكر العمد للتقييد عند الجمهور"[3]، وعلى هذا فما فائدة ذكر هذا القيد، إذا كان الحكم لا يتعلق به، فيكون إيجاب الضمان على إتلاف العامد والمخطئ سواء ؟ ولو أريد تعميم الحالات هنا لكان التقييد بأدناها ، وما فوقه يكون من باب أولى، فلما جاء التقييد بأعلاها في هذا المقام كان لا بد من السؤال عن سر ذلك ؟ .

أجاب الشهاب عن شيء من هذا بعد أن أفاد أن ذكر العمد ليس للتقييد " بل إما ؛ لأنه المورد أو لأنه الأصل ، والخطأ ملحق به للتغليظ والإشعار بأنه يستوي فيه العمد والخطأ ، ووجه الدلالة أنه لا وبال ولا انتقام في الخطأ..."[4].

والاستدلال كما هو ظاهر غير مقنع ، بل إن كونه لا وبال عليه وهو مخطئ يجعل القيد مقصوداً هنا؛ لأن صاحب الوبال هو المتعمد، وقال الشنقيطي:"قالوا لا مفهوم مخالفة لقوله (متعمداً)؛ لأنه جرى على الغالب، إذ الغالب ألا يقتل المحرم الصيد إلا عامداً، وجرْي النص على الغالب من موانع اعتبار دليل خطابه،أعني مفهوم مخالفته، ... وقال ابن بكير من المالكية: قوله سبحانه:(متعمداً) لم يرد به التجاوز عن الخطأ،وذكر التعمد لبيان أن الصيد ليس كابن آدم الذي ليس في قتله عمداً كفارة"[5].

وبهذا يتبين لنا مما تقدم أن ذكر هذا القيد كان من باب الغالب ، أو لأنه الأصل ، أو لبيان مخالفة الحيوان للإنسان في هذا، ولكن يظهر -والله أعلم- أن القيد هنا مقصود ،

---

(1) البحر المحيط ٣٦٤/٤ .
(2) التحرير والتنوير ٤٤/٧ .
(3) حاشية الشهاب على البيضاوي ٥٤٦/٣ .
(4) حاشية الشهاب على البيضاوي ٥٤٦/٣ .
(5) أضواء البيان ١٤٤/٢.

وأن الناسي يخرج وكذلك المخطئ والمكره، وبهذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير، وغيرهم، وهو الرواية الثانية في مذهب الإمام أحمد بن حنبل[1]؛ وذلك لمفهوم القيد، ولأن الأصل براءة الذمة فمن ادعى شغلها فعليه الدليل ، قال الشنقيطي: "وهذا القول قوي جداً من جهة النظر والدليل"[2]، وهذا لا يلغي إشعار القيد بتقبيح هذا الفعل مع هذه الحال، وإرادة التنفير منه، والنهي عنه .

ومما جاء فيه التقييد في جانب التشريع في غير سياق الشرط قوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [١٢ النساء]، فقوله جل ذكره:" (غير مضار) حال من ضمير الفاعل في يوصي"[3]، وهذا القيد مقصود هنا، والتقييد منسحب على ما تقدمه وذلك لتكرر فعل الإيصاء، يقول أبوحيان: "وينبغي اعتبار هذا القيد ، وهو انتفاء الضرر فيما تقدم من ذكر قوله: من بعد وصية يوصي بها ، توصون ، يوصين ، ويكون قد حذف مما سبق لدلالة ما بعده عليه فلا يختص -من حيث المعنى- انتفاء الضرر بهذه الآية المتأخرة"[4]، وعلى هذا فالقيد مقصود في نظائر هذا الفعل (يوصي) ولو لم يذكر معها .

٥- ما كان في سياق الاحتراز ودفع التوهم .

قد يشعر سوق الكلام أحياناً بمعنى قريب لا يكون مراداً، أو ربما لا تكون دلالة الكلام على كل المراد كافية فتأتي الحال، مبينة للمقصود، دافعة كل توهم غير مراد ، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ [١٠٩هود]،يقول الزمخشري:"فإن قلت:كيف نصب (غير منقوص) حالاً عن النصيب الموفى؟، قلت: يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى

---

[1] - انظر: المغني٥/ ٣٩٧، وانظر في الرواية الأخرى وهي القول بالكفارة : مسائل الإمام أحمد برواية ابن هانئ النيسابوري ص ١٦٣.

[2] - أضواء البيان ١٤٤/٢ .

[3] - التبيان ٣٣٧/١ ، وانظر أنوار التتريل وحاشية الشهاب عليه ٢٢٧/٣ .

[4] - البحر المحيط ٥٤٨/٣ ، ٥٤٩ .

وهو كامل، ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه، وثلث حقه أو حقه كاملاً أو ناقصاً"[(١)]، ويرى أبوحيان قول الزمخشري هذا مَغْلطة، والحال عنده للتوكيد ؛ لأن التوفية تقتضي الإكمال[(٢)]،ولو سلمنا بهذا جدلاً فما سر هذا التوكيد وما الداعي له ؟.

إذا علمنا أن التوفية هنا هي للعذاب والنكال اتضح لنا أن زيادة القيد بالحال كان المقصود منها التوكيد ، احترازاً من فهم غير المراد ،فإن مواقف الوعد والوعيد تحتاج فضل تأكيد، ولما كانت التوفية خاصة في جانب الوعيد قد ينتابها عفو أو صفح جاء القيد قاطعاً كل توهم، زائداً في حجم الوعيد الذي صيغ في صورة وعد سخرية بهم ، يقول ابن عاشور: "فوقع قوله: (غير منقوص) حالاً مؤكدة لتحقيق التوفية زيادة في التهكم ؛ لأن من إكرام الموعود بالعطاء أن يؤكد له الوعد ويسمى بالبشارة"[(٣)]، وينص خضر عبد السلام أبو طالب على الاحتراس هنا فيقول: "وانظر إلى هذه الحال التي جعلت الاحتراس يقع من النفس والقلب موقعه من السمع، فمع أن وعد الله حق وصدق[(٤)]... إلا أن الحال جاءت لتؤكد أن الجزاء كامل لا ينقص منه شيء..."[(٥)].

ومما هو من قبيل الاحتراس قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [١٣ لقمان]،فقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ حال من لقمان[(٦)]، ولو قيل: ما فائدة هذا القيد مع أنه ليس من مستلزمات القول ، والجملة دونه مستقرة مستقيمة ؟.

يرى ابن عاشور أن فائدة الحال هي " الإشارة إلى أن قوله هذا كان لتلبس ابنه بالإشراك "[(٧)]، والذي يظهر أن ذكر الحال هنا يقصد منها بيان كيفية القول بغض النظر عن السبب الداعي لهذا، لكن لما جاء بعده ما يشعر بعظم الأمر الموعوظ فيه وهو الشرك

---

(١) الكشاف ٤٣١/٢ ، ٤٣٢ ، واعترض عليه ابن المنير بأن التوفية تقتضي وتستلزم عدم النقصان ، والوجه عنده أن التوفية بمعنى الإعطاء ، ومن قال : أعطيت فلاناً حقه ، كان جديراً بأن يؤكده بقوله: غير منقوص ، انظر الانتصاف بحاشية الكشاف ٤٣٢/٢.

(٢) انظر البحر المحيط ٢١٥/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ١٦٩/١٢ .

(٤) والصحيح أنه هنا وعيد ؛ لأنه في سياق التهديد وإنما جاء على صورة الوعد لما سبق ذكره .

(٥) من فيض الرحمن في بلاغة النحو في القرآن ٣٣٠ .

(٦) انظر البحر المحيط ٤١٣/٨ .

(٧) التحرير والتنوير ١٥٤/٢١ .

وُجِد ما يمكن أن يتوهم معه أنه أغلظ له وعنفه ، فجاءت الحال مقيدة للقول في هذا الشأن وهو أنه كان على حال الوعظ، والوعظ -كما قال الخليل- هو: "تذكيرك إياه بالخير ونحوه مما يرق له قلبه"[١]، وقيل بل هو: "زجر مقترن بتخويف"[٢].

وعلى هذا فالأقرب أن تكون فائدة التقييد هي دفع توهم اللوم والتعنيف، ويمكن أن يكون التقييد هنا للثناء والمدح للقمان، خاصة وأن الحال جاءت على هذا التركيب: (وهو يعظه) بتقديم المسند إليه وبناء الفعل عليه بما يفيد التوكيد والاستمرارية المفهومة من الجملة الاسمية ، وقد ذكر ابن أبي الدنيا أن لقمان ما زال يعظ ابنه حتى مات[٣].

ومن شواهد مجيء القيد بالحال للاحتراز ودفع توهم غير المراد ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [٥٣ الزخرف] ، فهذا حكاية لبعض كلام فرعون في موسى عليه السلام بعدما وصفه بالمهانة وعدم الإبانة ، وهو لجهله خيّل لقومه أن الرسالة لها شعارات تعرف بها كشعارات الملوك ؛ لذا قال ما قال من إلقاء الأسورة والتشييع ، وكان مجيء هذه الحال: (مقترنين) من الملائكة من هذا القبيل رغم أن السياق مستغنٍ عنها ـ في الظاهر ـ بما دلت عليه ألفاظه ، فكان ذكرها لغرض مهم في نفس فرعون ، يقول ابن عاشور مبيناً ذلك: " فهذه الحال مؤكدة لمعنى (معه) لئلا يحمل معنى المعية على إرادة أن الملائكة تؤيده بالقول،من قولهم:قرنته معه فاقترن،أي مقترنين بموسى وهو اقتران النصير لنصيره"[٤]، فهذا القيد مراد منه دفع توهم غير المراد من جهة ، ومن جهة إفحام موسى عليه السلام ؛ لأن فرعون ظن أن ذلك لن يكون له ، فالقيد يبين ثقة فرعون بقوله وشدة تحديه، وأنه أراد الاقتران المعروف المعهود عند أمثال الملوك من الحاشية والحرس .

---

(١) كتاب العين ٢/٢٢٨ .
(٢) المفردات مادة وعظ ٨٧٦ .
(٣) انظر ذلك في روح المعاني المجلد الحادي عشر الجزء الحادي والعشرين ٨٥ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٥/٢٣٣ .

٦- ما كان في سياق الأمر .

ومما هو من قبيل الإثبات ما جاء في سياق الأمر وشواهده كثيرة وسنناقش بعضاً منها، وخاصة ما وُجد فيه ملمح زائد على مجرد التقييد،كأن يراد بالحال زيادة الحث على الالتزام بالأمر، والعمل به ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَءامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [٤١ البقرة] ، فقوله جل ذكره: ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال ، إما من (ما) الموصولة ، أو من الضمير العائد عليها في (أنزلت)[١]، ولا يعني ذكر الحال أن ما أنزل الله يمكن أن يكون على غير هذه الحال ، فالحال لم تذكر لتقييد الأمر بها ، وإلا للزم هذا المفهوم ، بل ذكرها هنا لهدف فوق ذلك وهو إظهار أن الإيمان بهذا المنزّل هو المسلك الذي لا ينبغي لكم الحياد عنه ؛ إذ كيف لا تؤمنون به وهو على هذه الحال من التصديق والموافقة لما معكم من الكتب السماوية، فهذا رافد ودافع إلى المسارعة بالانصياع للأمر، يقول أبو السعود:"وتقييد المنزل بكونه مصدقاً لما معهم لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر، فإن إيمانهم بما معهم مما يقتضي الإيمان بما يصدقه قطعاً"[٢]، ويرى ابن عاشور أن الحال علة للصلة وعلامة على كونه من عند الله ، يظهر هذا من قوله: "وفي تعليق الأمر باسم الوصول... إيماء إلى تعليل الأمر بالإيمان به... ولهذا أتى بالحال التي هي علة الصلة؛إذ جعل كونه مصدقاً لما في التوراة علامة على أنه من عند الله"[٣].

والذي يظهر أن مجيء الحال هنا كان للترقي في مسوغات الأمر وضرورة الانصياع له، فأولاً لأنه منزّل من عند الله،وثانياً لأنه مصدق لما معهم،فما عذرهم في عدم الإيمان به!.

وتجيء الحال مشعرة بالمدح ومعه التعريض بالضد بقصد التشنيع والتقبيح، ومن هذا قوله تعالى:﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ [٢٥ النساء] .

هذه الآية في بيان بعض أحكام الإماء، فالضمير في (فانكحوهن) وما بعده يعود على (فتياتكم المؤمنات)، وفي هذا السياق عدد من القيود كلها أحوال في سياق الأمر ،

---

[١] انظر البحر المحيط ٢٨٦/١ ، ويبدو أن أبا حيان يميل إلى الرأي الثاني وتقديره: أنزلته مصدقاً .

[٢] تفسير أبي السعود ٩٥/١ .

[٣] التحرير والتنوير ٤٥٨/١ .

وهي (بالمعروف)[(١)]، (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان)[(٢)]، وهذه الأحوال والقيود وإن كان الظاهر فيها تقييد الأوامر بها إلا أن فيها ملحظاً فوق ذلك ، وهو ما نريد الإشارة إليه دون الدخول في الخلافات الفقهية المتعلقة بهذه الأحكام .

يقول أبو السعود:" (محصنات):...أي حال كونهن عفائف عن الزنا (غير مسافحات) ،حال مؤكدة أي غير مجاهرات به،(ولا متخذات) عطف على (مسافحات) ... أي غير مجاهرات بالزنا ,ولا مسرات به" [(٣)]، وهذا الاستقصاء في الأحوال والتفصيل فيها ، ليس لمجرد تقييد الأمر بذلك ، بل هو للإشارة إلى ما في الإسلام من الحرص على العفاف والطهر، والنظافة والنقاء، ولأن الإماء في الغالب كن هن صويحبات مثل هذه الأوصاف دون الحرائر، فكان لابد من تقييد نكاحهن بهذه القيود، لما ذكرنا، ولحفزهن أيضاً على ضرورة حماية أنفسهن من الوقوع في حمأة الرذيلة ، لأن إحداهن آنذاك لن تكون مقبولة من أحد، ثم إن في ذكر هذه القيود وتعددها تعريض بما كان عليه أهل الجاهلية من أنواع السفاح والزنا، وكانوا قريبي عهد بذلك فكان هذا التقييد مشيراً إلى مدح الإحصان والعفاف ومحذراً من الرذيلة والخنا، وهو في الوقت ذاته تعريض بخسة ما كان عليه الجاهليون من إباحة بعض أنواع السفاح وخاصة ما خفي منها، يقول أبو حيان:"وهذا تقسيم الواقع؛لأن الزانية إما أن تكون لا ترد يد لامس،وإما أن تقتصر على واحد،وعلى هذين النوعين كان زنا الجاهلية" [(٤)].

ولا شك أن في ذكر هذه الأحوال إضافة إلى ما ذكر تشنيعاً لما كانوا عليه في الجاهلية خاصة في أمر الإماء وكثرة البغاء فيهن بإذن مواليهن،فكان لا بد من نقل تلك الصورة الشنيعة تحذيراً منها ,وتنفيراً من الوقوع فيها؛لأن النفوس ما زالت تألفها لقرب العهد بالجاهلية، يقول ابن عاشور عن هذه القيود:"قصد منها تفظيع ما كانت ترتكبه الإماء في الجاهلية بإذن مواليهن لاكتساب المال بالبغاء ونحوه،وكان الناس يومئذ قريباً عصرهم بالجاهلية"[(٥)].

---

(١) وهذه الحال محتَمَلة ، ويصح أن يتعلق الجار والمجرور بغير الحال، انظر روح المعاني المجلد الثالث الجزء الخامس ١٠ .

(٢) انظر التبيان ٣٤٩/١ البحر المحيط ٥٩٧/٣ .

(٣) تفسير أبي السعود ١٦٦/٢ .

(٤) البحر المحيط ٥٩٧/٣ .

(٥) التحرير والتنوير ١٦/٥ .

ومما هو قريب من هذا في المدح وإرادة التعريض ما جاء في قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء ١٣٥] ، فقوله جل ذكره﴿ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ...﴾ حال[١] مبينة لأقصى حالات التجرد في الشهادة، وليس لهذه الحال مفهوم خطاب بحيث يُظن أن الشهادة إذا كانت على النفس والقرابة يصح فيها تغييب الحق، بل المراد هنا تعليق الأمر بالقسط بالشهادة بأعظم حالة يتوقع فيها الجور والظلم، أو الإتيان بها على غير وجهها ليعلم أن ما دون ذلك من باب أولى؛ لأن من قام بالشهادة على وجهها على نفسه ولو مع الضرر فهو إلى ذلك أقرب مع الأبعدين، يقول أبو حيان: "ومجيء (لو) هنا لاستقصاء جميع ما يمكن فيه الشهادة، [فإنه] لما كانت الشهادة من الإنسان على نفسه بصدد ألا يقيمها؛ لما جبل عليه المرء من محاباة نفسه ومراعاتها، نبه على هذه الحال، وجاء هذا الترتيب في الاستقصاء في غاية من الحسن والفصاحة، فبدأ بقوله: (ولو على أنفسكم)؛ لأنه لا شيء أعز على الإنسان من نفسه،ثم ذكر الوالدين وهما أقرب إلى الإنسان،وسبب نشأته وقد أمر ببرهما وتعظيمهما والحوطة لهما،ثم ذكر الأقربين وهم مظنة المحبة والتعصب، وإذا كان هؤلاء أمر في حقهم بالقسط والشهادة عليهم، فالأجنبي أحرى بذلك"[٢].

ولا يمنع ما في (لو) الوصلية من المبالغة والاستقصاء ، أن تكون هذه الحالة معرِّضة بما كان عليه الجاهليون من التعصب والنصرة ولو بالباطل، والتنبيه على أن هذا مما يجب أن يُترك ولا يُسار عليه، والذي يدل على هذا أن (لو) تدل على أن هذه الحال مما تعودت النفوس عليه حتى كأنه غير مستنكر، فيمكن للإنسان أن يشهد بالحق على الأجنبي أو له، أما مع نفسه وقبيلته فمقتضى القرابة المستقر فيهم أن ينصر بني قومه حتى ولو بجحد الحقائق، حتى يصرف الضر عنهم أو يصرف النفع إليهم ، وهذا ما يجليه ابن عاشور بقوله:"وموقع المبالغة من (لو) الوصلية أنه كان من عادة العرب أن ينتصروا بمواليهم من القبائل ويدفعوا عنهم ما يكرهونه، ويرون ذلك من إباء الضيم، ويرون ذلك حقاً عليهم، ويعدون التقصير في ذلك مسبة وعاراً يقضي منه العجب...ويعدون الاهتمام بالآباء والأبناء في الدرجة

---

(١) انظر البحر المحيط ٩٥/٤ ، والتحرير والتنوير ٢٢٥/٥ .

(٢) البحر المحيط ٩٤/٤ ، ٩٥ .

الثانية...فكانت الآية تبطل هذه الحمية وتبعث المسلمين على الانتصار للحق والدفاع عن المظلوم"[1].

وليس ينكر ما في الحال هنا من الدعوة القوية إلى قول الحق والتجرد في بيان الحقائق ولا تظهر كل هذه المعاني لو حذفت هذه الحال .

وإذا كنا قد رأينا فيما سبق كيف جاء تشنيع الأمر على صفة التعريض فإنه قد يكون التقريع والتوبيخ للمعنيين بالأمر،والتشنيع لحالهم ظاهراً مباشراً كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[١١٩آل عمران]،فقوله جل ذكره:(موتوا بغيظكم):"صيغة أمر ومعناها الدعاء...والباء للحال أي:تموتون ومعكم الغيظ،وهو على جهة الذم على قبيح ما عملوا...قال بعض شيوخنا هذا ليس بأمر جازم...وليس بدعاء...وإنما هو أمر معناه التوبيخ والتقريع كقوله:﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [٤٠ فصلت]..."[2]، والذي يظهر لي أن المراد بهذا القيد تشنيع نهايتهم وإرهابهم وتخويفهم ، فإن هذا من قبيل قول الزمخشري:"ونقول في الأمر أيضاً:مُت وأنت شهيد،وليس مرادك الأمر بالموت ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات،وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته وإظهاراً لفضلها على غيرها،وأنها حقيقة بأن يُبحث عنها"[3]، إلا أن ما ذكره الزمخشري هو في المدح وما هنا في جانب الذم، لكنه هو هو فكأنه قيل: موتوا وأنتم مغتاظون، فليس المراد أمرهم بالموت، بقدر أن المراد كونهم على تلك الحالة فهي محط العناية من الأمر تشنيعاً لها وترهيباً لهم وتخويفاً،ولعلنا نجد شيئاً من هذا في قول الألوسي:"والمحسِّن لذلك[4] ما فيه من الإشارة إلى ذمهم حيث أنهم قد استحقوا هذا الموت الفظيع والحال الشنيع"[5].

وقد تجيء الحال في سياق الأمر دالة على إرادة الترهيب والتخويف كما في قوله تعالى:﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [٦٤ طه].

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٢) البحر المحيط ٣/٣٢١ .
(٣) الكشاف ١/١٩٢ .
(٤) أي: الأمر بالموت بالغيظ .
(٥) روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ٤٠ .

فهذه الآية مبينة لبعض شأن فرعون وملئه في التآمر على موسى عليه السلام وقد جاءت الحال (صفاً) في سياق الأمر: أي مصطفين[1]، والسر في تقييد الأمر بها؛ لما فيه من مظاهر القوة والإرهاب لأنهم في موقف منازعة ومخاصمة والظهور فيه للقوي، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: (وقد أفلح اليوم من استعلى) ، ويلمح من كل هذا عظم ما وقع في قلوبهم من هيبة موسى عليه السلام، مع أنه ليس معه من النصراء ما يرهب، لكن من كان الله معه فهو المهاب، يقول أبوحيان:"وتداعوا إلى الإتيان(صفاً)؛لأنه أهيب في عيون الرائين، وأظهر في التمويه"[2].

والسر عند أبي حيان -كما نرى- هو الإرهاب والتخويف ، والتمويه ، وكأنه يشير إلى خوفهم وقلة اعتمادهم على قدرة السحرة ، لعلمهم أنه عمل بشري وأن أكثره تمويه وتخييل وهذا لا يغني من الحق شيئاً ، فاحتاجوا للتغطية على هذا النقص الذي يحسونه ويعرفونه إلى تكثير العدد وإظهاره في صورة القوة والإبهار -ولو على مرأى المشاهد- بمجيئهم إلى ساحة الإلقاء صفوفاً، يقول الألوسي: "أُمروا بذلك ؛ لأنه أهيب في صدور الرائين وأدخل في استجلاب الرهبة من المشاهدين"[3].

---

(1) انظر البحر المحيط ٣٥١/٧ .

(2) البحر المحيط ٣٥١/٧ .

(3) روح المعاني المجلد الثامن الجزء السادس عشر ٢٢٥ .

المبحث الثاني : التقييد بالحال في النفي

القيود مع النفي لها أوضاع متفاوتة ودلالات متنوعة، فأحياناً يكون النفي منصرفاً إلى القيد وحده،وأحياناً يكون إلى الفعل وحده،وأحيانا يكون لهما معاً، والتقييد بالحال في أسلوب النفي لا يخرج عن هذا،وبهذا صرح الألوسي بقوله:"وقد ذُكر أن الحال بعد الفعل المنفي، وكذا جميع القيود قد يكون راجعاً إلى النفي قيداً له دون المنفي مثل:ما جئتك مشتغلاً بأمورك،بمعنى:تركت المجيء مشتغلاً بذلك،وقد يكون راجعاً إلى ما دخله النفي مثل:ما جئتك راكباً، ولهذا معنيان:أحدهما-وهو الأكثر- أن يكون النفي راجعاً إلى القيد فقط ويثبت أصل الفعل فيكون المعنى:جئت غير راكب، وثانيهما: أن يقصد نفي الفعل والقيد معاً بمعنى انتفاء كل من الأمرين،فالمعنى في المثال: لا مجيء ولا ركوب،وقد يكون النفي متوجهاً للفعل فقط من غير اعتبار لنفي القيد وإثباته"[١].

وهذا التفصيل هو الذي تدل عليه الشواهد،ولكن يبقى الأصل-وهو الأكثر- أن ينصب النفي على القيد وحده،وفي هذا يقول عبد القاهر:"ها هنا أصل وهو أنه من حكم النفي إذا دخل على كلام، ثم كان في ذلك الكلام تقييد على وجه من الوجوه أن يتوجه إلى ذلك القيد،وأن يقع له خصوصاً..هذا مما لا يشك فيه عاقل"[٢]،والذي يظهر من كلام عبد القاهر أنه يوجب ذلك في كل الشواهد، ولكن سيظهر لنا أن هناك صوراً غير قليلة تخلف فيها هذا الأصل،ووراء هذا الخروج عن الأصل سر عظيم ومعنى كبير،ويبقى ما ذكره عبد القاهر هو الغالب لا اللازم، وسيظهر هذا -إن شاء الله- من خلال الشواهد المتعددة التي جاءت في سياقات مختلفة أبرزها ما يأتي:

١- ما كان في سياق التعظيم وبيان القدرة والمنة .

٢- ما كان في سياق المدح والثناء .

٣- ما كان في سياق الذم والتشنيع .

---

(١) روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ٦٢، وفيه كلام جيد عن التقييد فليراجعه من أراد الاستزادة .

(٢) دلائل الإعجاز ٢٧٩ .

٤- ما كان في سياق التشريع وبيان الحكم .
٥- ما كان في سياق الرد والإنكار .

١- ما كان في سياق التعظيم وبيان القدرة والمنة .

وعلى هذا جاء قوله تعالى:﴿ رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [١٩١ آل عمران]، فقوله تعالى (باطلاً) :"الأحسن من أعاريبه انتصابه على الحال من (هذا) وهي حال لا يستغنى عنها نحو:﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [١٦الأنبياء]،لا يجوز في هذه الحال أن تحذف لئلا يكون المعنى على النفي"[(١)].

ولا يعنى التقييد بنفي البطلان واللعب أنه كان يمكن أن يكون ذلك، بل المقصود من بناء الجملة على هذا القيد التعريض بالغافلين عن دقائق خلقه سبحانه، وباهر صنعه في هذا الكون،كما أن فيها تنويهاً بشأن المؤمنين المتفكرين المتأملين في ملكوته ، يقول أبوحيان: "ولمّا تضمنت هذه الجملة الإقرار بأن هذا الخلق لم يكن باطلاً ، والتنبيه على أن هذا كلام أولي الألباب الذاكرين لله على جميع أحوالهم...دل على أن غيرهم من أهل الغفلة والجهالة يذهبون إلى خلاف هذه المقالة، فنزهوه تعالى عما يقول أولئك المبطلون مما أشار إليه تعالى في قوله:(لاعبين)..."[(٢)]، ويشير ابن عاشور إلى جانب آخر من دلالات هذا القيد فيقول: "...فهي حال لازمة الذكر في النفي ، وإن كانت فضلة في الإثبات...فالمقصود نفي عقائد من يفضي اعتقادهم إلى أن هذا الخلق باطل أو خلي عن الحكمة ، والعرب تبني صيغة النفي على اعتبار سبق الإثبات كثيراً"[(٣)].

ويشير ابن القيم -رحمه الله- إلى أنه ليس المقصود من هذا إثبات وجود من يقول ببطلان هذا الخلق وأنه عديم الحكمة ؛ لأنه لا يمكن أن يقول به أحد، "ولم يخطر هذا بقلب بشر حتى ينكره الله على من زعمه ونسبه إليه"[(٤)]، وقد أوضح ابن عاشور توجيه هذا الكلام بقوله عن آية الأنبياء: "فليس بناء الكلام على أن يكون الخلق لعباً منظوراً فيه

---

(١) البحر المحيط ٤٧١/٣ .
(٢) البحر المحيط ٤٧١/٣ .
(٣) التحرير والتنوير ١٩٨/٤ .
(٤) بدائع التفسير ٥٣٨/١ .

إلى رد اعتقاد معتقد ذلك ، ولكنه بني على النفي أخذاً لهم بلازم غفلتهم عن دقائق حكمة الله بحيث كانوا كقائلين بكون هذا الصنع لعباً"[1].

ومما هو من مظاهر القدرة والعظمة ما جاء في قوله تعالى:﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [٨٨ الإسراء] ،فالحال في قوله تعالى:﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ليست هي محط النفي، إذ لو كانت كذلك لكان المعنى أنهم إذا تظاهروا وتظافروا يمكن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهذا ليس هو المراد قطعاً، بل النهي متوجه إلى الفعل، فالمراد نفي الإتيان بمثل هذا القرآن عنهم البتة على كل حال، وما ذُكِرَ القيد هنا إلا لتأكيد نفي الفعل على كل أحواله، وجاء التعليق هنا بأعلى أحواله وأجدرها لو كان ذلك ممكناً، ومع ذلك فقد نفى عنهم ذلك، فعُلم من هذا أنهم إذا لم يستطيعوا فعل ذلك حال الاجتماع فهم في غيره أذل وأحقر، يقول ابن عاشور: "والمعنى:ولو تعاون الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لَمَا أتوا بمثله فكيف بهم إذا حاولوا ذلك مفترقين ، وفائدة هذه الجملة تأكيد معنى الاجتماع المدلول عليه بقوله (لئن اجتمعت...) أنه إجماع تظافر على عمل واحد ومقصد واحد"[2].

وهذه الآية مظهرة لعجز المشركين الذين هم أرباب البيان، أمام عظمة هذا القرآن العظيم الباهر بحسن نظمه ومعناه ، الدال أنه نزل من حكيم خبير .

ومما هو قريب من هذا في الغرض والمقصد ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ ﴾ [٧٣ الحج] .

يقول الزمخشري:"فإن قلت:ما محمل (ولوا اجتمعوا له) قلت:النصب على الحال، كأنه قال:مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم لخلقه وتعاونهم عليه ..."[3]، ومعلوم أن المراد هنا هو نفي قدرتهم على خلق الذباب عموماً، فما فائدة القيد بالحال بعد ذلك،رغم أنه لا يخرج به مفهوم مع ذكره، فلا يمكن أن يكون المفهوم أنهم يخلقونه

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/١٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٣/١٥ .

(٣) الكشاف ١٧١/٣ .

إذا اجتمعوا له؟.

إن المقصود هنا هو نفي الفعل بأقصى حالاته لا لتقييده بها، بل لبيان أن أدناها منفي أيضاً من باب أولى،فالغرض إذاً هو نفي الفعل من أصله،وما ذِكرُ القيد إلا للمبالغة في ذلك،يقول ابن عاشور عن المعنى:"أي:لن يستطيعوا ذلك الخلق وهم متفرقون،بل ولوا اجتمعوا من مفترق القبائل وتعاونوا على خلق الذباب لن يخلقوه"[1] ،وكل هذا من دلائل قدرة الباري جل جلاله إذ أعجزهم بأحقر مخلوق وأصغره وأذله،وتحداهم في ذلك بأقصى حالات اقتدارهم وهو اجتماعهم فعجزوا وذلوا[2].

٢- ما كان في سياق المدح والثناء .

وهذا ظاهر جلي في صفات المؤمنين ، كما يدل على ذلك قوله تعالى:﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [٢٧٣ البقرة]، فقد جاء التقييد هنا بالحال (إلحافاً) في سياق نفي السؤال في معرض مدح المحتاجين من المؤمنين،وقد اختُلف في توجيه النفي هنا، أهو إلى القيد كما هو الظاهر، أم هو إلى القيد والمقيد جميعاً؟.

وقد ذكر هذين الرأيين الزمخشري،وكأنه يرى الأول حيث يقول:"ومعناه إن سألوا سألوا بلطف ولم يلحوا، وقيل: هو نفي السؤال والإلحاف جميعاً..."[3]، وعلى القول الأول فالسؤال حاصل منهم، والمنفي عنهم هو قيده -وهو الحال-(إلحافاً)، وهذا لا يمكن رده بالكلية ؛لأن ظاهر الكلام عليه وليس فيه محذور يوجب رده ، لكن لعل غيره أوفق بالمقام منه، يقول الدكتور الخضري:"فظاهر القيد نفي الإلحاح في السؤال ولكن القرائن اللفظية- من وصفهم بالتعفف واحتياج التعرف على فقرهم إلى علامات تبدو على مظاهرهم- تدل على أنهم لا يسألون الناس أصلاً،وحينئذ يكون القصد إلى نفي القيد

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٢/١٧ .

(٢) انظر الكشاف ١٧١/٣ .

(٣) الكشاف ٣٩٨/١ .

والمقيد جميعاً..."[١].

وهذا القول -وهو نفي الفعل والقيد معاً- بيّن الوجاهة، وأكثر انطباقاً على مقام المدح والثناء، ولكن يبقى بيان السر وراء هذا التقييد ما دام الأمر على ما ذكر، ولم لَمْ يكن السياق: لا يسألون الناس ، أو لا يلحفون ؟ .

يقول الطبري -رحمه الله-: "فإن قال قائل: ... فما وجه: قوله: لا يسألون الناس إلحافاً، وهم لا يسألون الناس إلحافاً ولا غير إلحاف؟ قيل: وجه ذلك أن الله تعالى ذكره لما وصفهم بالتعفف، وعرّف عباده أنهم ليسوا أهل مسألة بحال، بقوله: (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف)، وأنهم إنما يعرفون بالسيما زاد عباده إبانة لأمرهم ، وحسن ثناء عليهم، بنفي الشره والضراعة التي تكون في الملحين من السُّؤَّال عنهم"[٢].

وما يفهم من كلام الطبري هنا أن الثناء وقع عليهم بالفعل على حدته ، وبالقيد على حدته فهما مدحتان:فهم لا يسألون أصلاً ؛ لأنهم متعففون مهما بلغت بهم الحاجة، ثم مدحوا بالقيد مدحاً مباشراً ، وتلويحاً بغيرهم ، يقول القاسمي: "وفيه تنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً،واستيجاب المدح والتعظيم للتعفف عن ذلك"[٣]، ويرى ابن عاشور أن التعريض جاء من الجملة كلها بقيدها حيث يقول:"وتعين أن قوله : (لا يسألون الناس إلحافاً)تعريض بالملحفين في السؤال،أي:زيادة فائدة في عدم السؤال"[٤]، ويمضي الدكتور الخضري موافقاً سابقيه في دلالة القيد على التعريض فيقول: "...ثم جاء القيد فأضاف مدحاً آخر وهم أنهم صانوا أنفسهم عما يتعرض له آخرون من التبذل ومضايقة الناس بالإلحاح في المسألة، وهذا المدح تضمن في طيه غرضاً آخر هو التعريض بمن كانوا على هذه الصفة"[٥].

والحقيقة أن ذكر هذه المدحات في صورة جملة مشتملة على قيود يظهر منها أكثر

---

(١) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني١٨ .

(٢) جامع البيان المجلد الثالث الجزء الثالث ٩٩.

(٣) محاسن التأويل ٣/ ٣٥٠، وقد ذكر القاسمي في تفسير هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم :((ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان وإنما المسكين الذي يتعفف،اقرؤوا إن شئتم:{لا يسألون الناس إلحافاً})), صحيح البخاري(مع الفتح)، كتاب التفسير، باب:(لايسألون الناس إلحافاً)، ح (٤٥٣٩)، ٨/ ٥٠.

(٤) التحرير والتنوير ٣/ ٧٧ .

(٥) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ١٩ .

من معنى أعظم في الدلالة على المدح مِنْ لو وُجِّه المدح صريحاً بتلك الصفتين: عدم السؤال وعدم الإلحاح؛لأن سياقها في جملة ذات قيود يجعلها أوسع أفقاً، فهذا التركيب مازال محتملاً للمعنى الأول وللمعنى الثاني،وعدُّوا من وجود السؤال استقراءَ أبي هريرة غيرَه الآية ليُضَيِّفَه، وهو عالم بها[1]، " فالتعبير بالتعفف يفيد الاجتهاد في العفة والمبالغة فيها، والتقييد بالإلحاف يدل على وقوع السؤال قليلاً جداً أو على وجه التلويح لا التضرع كما يؤيده المعرفة بالسيما "[2].

فهذا الوجه -وهو وجود السؤال-لا يمكن رده بالكلية ، خاصة إذا وجد ما يلوّح إليه كقصة أبي هريرة السابقة ، ويبقى المعنى الثاني ظاهر الوجاهة ، قوياً في المِدْحة .

ثم إن في ذكره على هذه الصورة ملمحاً آخر وهو التعريض ؛ لأن مسألة الإلحاح مقترنة في العرف بالسؤال وإن كانت ليست من لوازمه، فعند ما يأتي السياق على هذا النمط يبرز التعريض-وهو كثير في التقييد بالأحوال-فيكون المدح به أعظم والإشادة أظهر؛ وذلك لأن الصفات إذا عرضت هذا المعرض كانت أوقع وأعظم مدحاً .

وهناك ملمح يشير إليه أبوحيان، وهو أن المراد هو تعليق الفعل بأقصى حالاته وأولاها فإذا انتفى ذلك فغيره من باب أولى، يقول أبو حيان: "وقيل معنى (إلحافاً) أنه السؤال الذي يستخرج به المال لكثرة تلطفه، أي: لا يسألون الناس بالرفق والتلطف ، وإذا لم يوجد هذا، فلأن لا يوجد بطريق العنف أولى"[3]، وهذا مبني على معنى خاص في (إلحافاً) وإن كان السياق ليس عليه .

وينبه أبو حيان أيضاً إلى لطيفة أخرى تتعلق بسر التقييد بالإلحاف خاصة دون غيره من حالات السائل فيقول:"ونبه على نفي الإلحاح دون غير الإلحاح لقبح هذا الوصف، ولا يراد به نفي هذا الوصف وحده ووجود غيره..."[4].

ومما جاء في مدح المؤمنين أيضاً قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا

---

[1] انظر صحيح البخاري(مع الفتح)، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتخليهم عن الدنيا، ح(٦٥٤٢).

[2] نظم الدرر ١٠٦/٤ .

[3] البحر المحيط ٧٠٠/١ .

[4] البحر المحيط ٦٩٩/١ ، وانظر بدائع التفسير ٤٤١/١ ، ٤٤٢ .

فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [١٣٥آل عمران]،فالجملة الحالية:(وهم يعلمون) جاءت في سياق النفي، وقد اختلفت الأقوال فيها،هل النفي متوجه إليها وحدها،أو هو متوجه إليها وإلى الفعل جميعاً، أو هو متوجه إلى الفعل فحسب ؟ .

أما أن النفي متوجه إلى القيد وحده فهذا لا يمكن هنا، لأن ذلك يعني إثبات أهم يصرون على الفعل إذا عدم ذلك القيد، وهذا لا مدحة فيه بل هو إلى الذم أقرب؛ وذلك أن الفعل (وهو الإصرار) مذموم أصلاً[1]، فنفيه بقيد يُقصد تقييده به يعني إثباته دون هذا القيد، وإثبات الإصرار مذموم على كل وجه فلا مفهوم إذاً للقيد .

وأما أن النفي متوجه إلى الفعل والقيد جميعاً،فهذا رأى الزمخشري حيث يقول: " (وهم يعلمون) حال من فعل الإصرار، وحرف النفي منصب عليهما معاً، والمعنى وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها، وبالنهي عنها وبالوعيد عليها؛ لأنه يعذر من لا يعلم قبح القبيح"[2].

ولكن على هذا القول يصح أن يقال إهم ربما يصرون على الذنب إذا لم يكونوا عالمين بذلك، وهذا ليس بمناسب لمقام الثناء بالتوبة والاستغفار وسرعة الأوبة، وإنما هو _كما هو ظاهر عند الزمخشري_من باب الإعذار لا المدح ، والمقام مقام مدح وثناء، يقول الدكتور الخضري عن رأي الزمخشري وما يترتب عليه "وأحسب أن هذا الوصف مما لا يُمتدح به المتقون الذين وعدهم الله بواسع المغفرة والجزاء العظيم ، ولا يعقل أن من بلغوا هذه المترلة يمكن أن يقع منهم الإصرار على الذنب..."[3]؛ لذلك فالرأي الأحرى بالقبول هو ما ذكره الألوسي بقوله:"والظاهر أن المناسب فيها توجيهه [أي النفي] إلى الفعل فقط من غير اعتبار لنفي القيد وإثباته،والمراد:(لم يصروا عالمين) بمعنى أن عدم الإصرار متحقق البتة"[4]،وللدكتور الخضري بيان حسن لسر التقيد هنا يقول فيه: "وأرى _والله أعلم بمراده_أن قوله:(و لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) جاء تعريضاً بمن يواقعون المعاصي ويصرون عليها، وتقييده بالحال زيادة في تقبيح حالهم، والتشنيع على

---

(١) يقول الطبري: ((وأولى الأقوال ... بالصواب عندنا قول من قال : الإصرار : الإقامة على الذنب عامداً، أو ترك التوبة منه، ولا معنى لقول من قال :الإصرار على الذنب مواقعته؛ لأن الله عز وجل مدح بترك الإصرار على الذنب مُواقِع الذنب))، جامع البيان المجلد الخامس الجزء الرابع ٩٨.

(٢) الكشاف ٤١٧/١ .

(٣) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٢٣ .

(٤) روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ٦٢ ، ومن أراد الاستزادة فليراجع كلامه ففيه طول وتفصيل لم نذكره هنا .

من يكون منهم هذا الإصرار مع علمهم بقبح ما يرتكبونه،ومحل المدح للمتقين في هذا التعريض أن هؤلاء يسارعون إلى التوبة واستغفار ربهم فور وقوع المعصية في الوقت الذي يُغرق فيه قوم أنفسهم في المعاصي مصرين عليها ، متجاهلين عقاب الله ووعيده..."[1].

ومع أن هذا الرأي هو الأوجه إلا أنه يمكن أن يكون القيد مقصوداً، فيكونون ممدوحين بعدم الإقامة على الذنب في حالة علمهم به، وهذا ظاهر، وهو يعني أنهم غير ممدوحين في غير هذه الحالة، وهي إصرارهم مع عدم العلم، بل هم إذاك معذورون، فالمدح لهم في حالة معينة، والعذر لهم في غيرها كما هو رأي الزمخشري، وفي مدحهم بتلك الحالة خصوصاً تمييز لهم، وتعريض بغيرهم ممن علم المعصية وأصر عليها عامداً قاصداً رغم وضوح الدليل عنده وإقراره به، فعلى هذا هم ثلاث طوائف:طائفة ممدوحة وهي التي جاء نفي الإصرار عنهم مقيداً بهذه الحال،وطائفة معذورة وهي الخارجة بمفهوم هذا القيد، وهي التي جهلت الذنب والنهي عنه والوعيد عليه، وطائفة مذمومة وهي التي تفهم من مدح الطائفة الأولى، وهي التي علمت الذنب وأقرت به ثم أصرت عليه مكابرة وعناداً .

وأظن أن هذا تخريج متوجه لا مطعن فيه غير أن فعل الإصرار أصلاً مذموم فكيف يخصص بحال دون حال؟ نقول:نعم هو مذموم مع العلم بالذنب،وأما الذي يجهل الحكم، أو لديه فيه شبهة وأقام على الذنب لا مكابرة وعناداً،ولكن جهلاً منه أو تأولاً، فهذا ليس بمذموم ، بل هو معذور .

وبهذا فلا مانع من القول بتوجه النفي إلى الفعل والقيد معاً ، ويكون منطوق القيد مدحاً ومفهومه إعذاراً، يقول أبو السعود:"والتقييد بذلك لِمَا أنه قد يُعذر من لا يعلم ذلك إذا لم يكن عن تقصير في تحصيل العلم به"[2].

وبعد هذه الآراء نقول إن من عظمة القرآن الكريم أن الآية أحياناً تكون قريبة مفهومة لا يستغلق فهمها على من قرأها أو استشهد بها ، كما هو الحال في هذا الآية ، لكنه عند محاولة بيانها وتفسير مضمونها وإظهار إعجازها يضعف العقل ويكل الذهن، وأحياناً ربما يتراجع أمام هذه المعجزة الخالدة .

---

(1) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني٢٥ .

(2) تفسير أبي السعود ٢/٨٧ .

ومما يدل على المدح أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [٣٣ الأنفال]، ففي هذه الآية جملتان حاليتان ، هما: (وأنت فيهم) و(وهم يستغفرون) وسياقهما واحد، والمراد منها واحد وهو المدح والثناء ، يقول الزمخشري عن المعنى: "وما كان ليعذبهم وأنت فيهم، وهو معذبهم إذا فارقتهم"[١]، فالعذاب منفي عنهم بهذا القيد، وفي هذا من التعظيم له صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى يقول أبو حيان:" فالمعنى ما كانت لتعذب أمتك وأنت فيهم، بل كرامتك عند ربك أعظم "[٢]، وذكر عن ابن عباس أنه قال:"لم تعذب أمة قط ونبيها فيها"[٣]، فنفي العذاب هنا متعلق بالحال المذكورة وجوداً وعدماً،وهذا غاية التكريم له صلى الله عليه وسلم حيث منع العذاب عنهم وهم أعداؤه بسبب وجوده ببدنه بينهم، فكيف بوجود سره والإيمان به ومحبته... أفليس رفع العذاب حينذاك أولى وأحرى![٤].

وكان يمكن أن يُنفى عنهم العذاب دون هذا القيد تكرماً منه سبحانه ، لكن في تعليق ذلك بوجوده صلى الله عليه وسلم ما يدل على عظيم مترلته صلى الله عليه وسلم عند ربه ،يقول البقاعي:"(وأنت):أي يا أكرم الخلق (فيهم)؛فإنه لعين تجازى ألف عين وتكرم"[٥].

أما القيد الثاني فهو: (وهم يستغفرون) وهو الضمان الثاني من العذاب لهذه الأمة، وأما الأول فقد ارتفع بموته صلى الله عليه وسلم[٦] ..، والمختار عند الطبري أن المعنى "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد وبين أظهرهم مقيم، حتى أُخرجك من بين أظهرهم ؛ لأني لا أهلك قرية وفيها نبيها، (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) من ذنوبهم وكفرهم ولكنهم لا يستغفرون من ذلك، بل هم مصرون عليه فهم للعذاب مستحقون"[٧]، وهذا

---

(١) الكشاف ٢١٧/٢ .

(٢) البحر المحيط ٣١١/٥ .

(٣) البحر المحيط ٣١١/٥ .

(٤) انظر بدائع التفسير ٣٣٥/٢ .

(٥) نظم الدرر ٢٧١/٨ ، وينظر التحرير والتنوير ٣٣٤/٩ .

(٦) انظر البحر المحيط ٣١٢/٥ ، وقد ورد في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:((أنزل الله عليّ أمانين لأمتي، {وما كان الله ليعذبهم...} الآية، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة)) قال عنه الترمذي: حديث حسن غريب، سنن الترمذي ، كتاب التفسير، (سورة الأنفال)، ح(٣٢٩٠)، وقد ضعفه الألباني -رحمه الله- انظر ضعيف سنن الترمذي ح(٥٩٧) ص ٣٧٨.

(٧) جامع البيان المجلد السادس الجزء التاسع ٢٣٨.

يعني أن الاستغفار لم يحصل فوقع العذاب، وهو ما صرح به الزمخشري بقوله:" (وهم يستغفرون) في موضع الحال، ومعناه نفي الاستغفار عنهم، أي: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم ... ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون، ولا يُتوقع ذلك منهم...،وقيل:معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر ، وهم المسلمون بين أظهرهم..."[١].

وعلى قول الزمخشري هذا ومن قبله فالنفي مسلط على القيد ، وإذا كان ذلك كذلك فما فائدة تقييد الفعل به ، و لم لم يُنْفَ من أول الأمر ، أو يقع في صورة التعليل كأن يقال لن يستغفروا وسيعذبهم الله ، أو : سيعذبهم الله لأنهم لن يستغفروا ؟

إجابة عن ذلك نقول:في نظم الآية بالقيد المذكور تنويه بشأن الاستغفار والمستغفرين، وحث لهم على الإسلام،وأن نجاتهم فيه إن شاءوا، فلا شك أن التقييد هنا وقع موقعاً حسناً في تعظيم شأن الاستغفار، وبيان أنه أحد الضمانات من العذاب لو حصل منهم ذلك، وقد نصر الطيبي -فيما ذكره عنه الألوسي- تخالف الضمائر وأن المقصود نفي العذاب عن الكفار باستغفار من فيهم من المؤمنين، وقال:"إنه أبلغ لدلالته على استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة،وإسناد الاستغفار إلى ضمير الجميع لوقوعه فيما بينهم ولجعل ما صدر عن البعض...بمنزلة الصادر عن الكل"[٢]، وقيل بل المراد بالاستغفار هو ما كان يصدر من المشركين حيث قيل إنهم ندموا حين أمسوا وقالوا: غفرانك اللهم[٣].

فهذه أقوال ثلاثة:أن الاستغفار من المؤمنين،أو أنه من المشركين حين ندموا، أو أن المراد الرجوع عن الكفر وهو لم يحصل،وعلى هذا فما دلالة القيد على هذه الأحوال الثلاثة؟ يقول عنها الألوسي حسب الترتيب المذكور:"أياً ما كان فالجملة الاسمية في موضع الحال إلا أن القيد مثبت على الوجهين الأولين، منفي على الوجه الأخير... والقيد في الكلام المنفي قد يكون لتقييد النفي، وقد يكون لنفي التقييد بمعنى انتفاء كل من الفعل والقيد، أو القيد فقط ، أو الفعل فقط..."[٤].

---

(١) الكشاف ٢/٢١٧ .

(٢) روح المعاني المجلد الخامس الجزء التاسع ٢٠٠ .

(٣) انظر روح المعاني المجلد الخامس الجزء التاسع ٢٠٠ .

(٤) روح المعاني المجلد الخامس الجزء التاسع ٢٠١ .

ويبدو أن الأظهر هو قول الطبري والزمخشري، وقد أيده أيضاً ابن عاشور موجهاً التقييد فقال: "وجملة (وهم يستغفرون) حال مقدرة أي: إذا استغفروا الله من الشرك، وحسّن موقعها هنا أنها جاءت قيداً لعامل منفي فالمعنى: وما كان الله معذبهم لو استغفروا ، وبذلك يظهر أن جملة (وما لهم ألا يعذبهم الله) صادفت محزها من الكلام: أي لم يسلكوا ما يحول بينهم وبين عذاب الله، فليس لهم أن ينتفى عنهم عذاب الله، وقد دلت الآية على فضيلة الاستغفار، وبركته بإثبات أن المسلمين أمنوا من العذاب الذي عذب الله به الأمم ؛ لأنهم استغفروا من الشرك باتباعهم الإسلام..."[1]، وبهذا يتضح لنا أن القيد هنا للإشعار بهذه الفضيلة على ما سبق بيانه .

ومما هو على سبيل المدح قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [٥٢ يوسف]،فقوله تعالى:(بالغيب) حال من الفاعل أو المفعول[2]، وقد اختلفوا في هذا الكلام ممن هو؟، فقال بعضهم هو من كلام يوسف عليه السلام، وبه قال الزمخشري[3] والأكثرين، وقد نص على هذا الرازي بقوله: "القول الأول وهو قول الأكثرين أنه قول يوسف عليه السلام"[4].

وقيل: بل هو من قول امرأة العزيز، قال أبوحيان: "والظاهر أن هذا من كلام امرأة العزيز، وهو داخل تحت قوله: (قالت)، والمعنى: ذلك الإقرار والاعتراف بالحق ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته..."[5].

وظاهر من سياق الكلام أن الرأي الثاني أوجه؛ لأنه وإن كان وصل كلام إنسان بكلام آخر مما لا ينكر إلا أن القول باتساق الكلام واستمراريته أليق وأوجه ما لم يترتب عليه محذور لفظي أو معنوي ، والكلام هنا متسق متسلسل فليس للعدول عنه إلى غيره ما يبرره[6]، وهذا ما أكده ابن عاشور بقوله:"ظاهر نظم الكلام أن الجملة من قول امرأة

---

[1] التحرير والتنوير ٩/٣٣٥ .

[2] انظر البحر المحيط ٦/٢٨٩ .

[3] انظر الكشاف ٢/٤٧٩ .

[4] مفاتيح الغيب ١٨/١٢٣ .

[5] البحر المحيط ٦/٢٨٨ .

[6] انظر بعض هذا في مفاتيح الغيب ١٨/١٢٣ .

العزيز، وعلى ذلك حمله الأقل من المفسرين"[1]، وعلى هذا فهل يعني ذكر القيد هنا أنها خانته في الشهادة ؟.

يجيب عن هذا ابن عاشور بقوله:"والباء في(بالغيب) للملابسة أو الظرفية...ومحل المجرور في محل الحال من الضمير المنصوب،...تمدحت بعدم الخيانة على أبلغ وجه إذ نفت الخيانة في المغيب وهو حائل بينه وبين دفاعه عن نفسه، وحالة المغيب أمكن لمريد الخيانة أن يخون فيها من حالة الحضرة؛لأن الحاضر قد يتفطن لقصد الخائن فيدفع خيانته بالحجة"[2].

وفي ذكر هذا القيد على هذه الصورة نفي للخيانة أصلاً ، فليس المراد أنها لم تخنه بالغيب لكنها خانته في الحضرة ، فهذا مما لا يتفق مع موقف التبرئة لنفسها ، ثم إن موقف الشهادة والحضور تصعب فيه الخيانة أو تعدم،فكان هذا القيد إلماحاً منها إلى براءة ساحتها في كل الأحيان شاهدِها وغائبِها، وكان ذلك بطريق الأولى ؛ لأنها إذا لم تخنه بالغيب وهو الموطن الحرى بذلك فلن تخونه في حضوره من باب أولى، أي لا خيانة أصلاً .

وقد نبه الدكتور الخضري على هذا الأمر وأوضح سر القيد بقوله: "وكأنها أرادت أن تنفي عن نفسها تهمة الإضرار به والكيد له، وأنها حين راودته عن نفسه فأبى ، وألقت به في غياهب السجن،لم تكن تقصد إيذاءه،وإنما كانت تريد تطويعه لتحقيق رغبتها بدليل أنها الآن أقدمت طائعة على الاعتراف وتبرئته،وليس موجوداً بينهم يدافع عن نفسه"[3].

وكلام الدكتور -على وجاهته-يشعر بأنها أرادت تغطية سوءتها معه من قبل، وتبرير خطئها في حقه، والذي يظهر من السياق يدل على ندمها ورجوعها وصدقها فيما قالت ، فهي تقرر أنها تريد أن يصله أنها صدقت ونطقت بالحق وبرّأت ساحته مما اتهمته به سابقاً فهي معترفة بالخطأ ، وتعلل كل هذا بأنها تريد أن يعلم ذلك عنها فهو برهان صدقها؛ إذ لو أرادت الكذب عليه في غيبته لفعلت، لكنها الآن غيرها في سابق عهدها ، ومما يعضد ما قلناه احتمالُ كون الكلام من يوسف ، فهل يصح فيه لو قيل به ما أشار إليه الدكتور في

---

[1] التحرير والتنوير ٢٩٢/١٢ .

[2] التحرير والتنوير ٢٩٢/١٢ ، ٢٩٣ .

[3] من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني٢٢ .

حقها أو شيئاً يشبهه ، إنه لن يقول بذلك أحد ؛ لأن هذا الكلام حينئذ هو عنوان التجرد والتزاهة كما قال أبو السعود: "وأياً ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها"[1]، وكذلك الأمر معها هي بعد صدقها وإنصافها فهو يدل على نزاهتها في عدم الكذب والخيانة بزور القول في غياب الخصم ، وهذا هو ما يظهر لا أنها أرادت تبرير أعمالها السابقة وأنها لم تخطئ فيها كما يفهم من كلام الدكتور .

ومما هو مدح ظاهر للمؤمنين ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ [٧٣ الفرقان]، فقد أخذ أكثر المفسرين -على ما سيأتي- بالغالب في لسان العرب فقالوا بتوجه النفي إلى القيد،ولعل من أولهم الزمخشري حيث ذكر أن قوله تعالى: " (لم يخروا عليها) ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى..."[2]، وذكر ابن عطية هذا الوجه الأول أولاً، وقال:"يكون المعنى لم يكن خرورهم بهذه الصفة بل يكون سجداً وبكياً... وكان الذي يخر أصم وأعمى هو المنافق أو الشاك..."[3]، وكان أبو حيان أشد إيضاحاً لهذا الرأي حيث قال: "النفي متوجه إلى القيد الذي هو (صم وعميان) لا الخرور الداخل عليه، وهذا الأكثر في لسان العرب أن النفي يتسلط على القيد، والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها بآذان واعية وأعين راعية ، بخلاف غيرهم من المنافقين وأشباههم ، فإنهم إذ ذكروا بها كانوا مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها في ظاهر الأمر وكانوا (صماً وعمياناً) حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها..."[4]، وهذا القول هو قول الأكثر فقد قال به مع من تقدم البيضاوي، والبقاعي ، الشهاب، والألوسي، والقاسمي[5] .

---

(1) تفسير أبي السعود ٢٨٥/٣ .

(2) الكشاف ٢٩٥/٣ .

(3) المحرر الوجيز ٤٤/١٢ .

(4) البحر المحيط ١٣٢/٨ . ومن قوله: (والمعنى) إلى آخر كلامه إنما هو كلام الزمخشري بتغيير يسير، انظر الكشاف ٢٩٥/٣ ، وقد أثار ابن القيم هذه القضية وتساءل عن وجود الخرور من عدمه لكنه لم يجب بنفي أو إثبات، انظر كلامه في بدائع التفسير ٣١٨/٣ .

(5) انظر أنوار التتريل مع حاشية الشهاب عليه ١٥٨/٧،ونظم الدرر ٤٣٣/١٣، وحاشية الشهاب على البيضاوي ١٥٩/٧، وروح المعاني المجلد العاشر الجزء التاسع عشر ٥٢ ، ومحاسن التأويل ٢٨٣/١٢ .

والرأي الثاني وهو ما قال عنه ابن عطية "والتأويل الثاني ذهب إليه الطبري[1] وهو أن يخروا (صماً وعمياناً) وهي صفة للكافر أو هي عبارة عن إعراضهم وجهدهم في ذلك ، وقرن ذلك بقوله:قعد فلان يشتمني وقام فلان يبكي، وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام ، وإنما هي توطيات في الكلام والعبارة"[2].

وهذا يعني أن النفي يعم القيد والمقيد جميعاً فليس هناك خرور أصلاً، وقد نصر ابن عاشور هذا القول وضعف الآخر بكلام حسن علل فيه وجه القوة والضعف، فقال:" (صماً وعمياناً) حالان من ضمير (خروا) مراد بها التشبيه...أي يخرون كالصم والعميان في عدم الانتفاع بالمسموع من الآيات والمُبصَرِ منهما مما يذكّرون به، فالنفي على هذا منصب إلى الفعل وإلى قيده ،وهو استعمال كثير في الكلام وهذا الوجه أوجه، ويجوز أن يكون توجه النفي إلى القيد كما هو استعمالٌ غالبٌ...فالمعنى: لم يخروا عليها في حالة كالصمم والعمي،ولكنهم يخرون عليها سامعين مبصرين، فيكون الخرور مستعاراً للحرص على العمل بشراشر القلب كما يقال: أكب على كذا، أي: صرف جهده فيه ، فيكون التعريض بالمشركين في أنهم يصمون ويعمون عن الآيات ومع ذلك يخرون على تلقيها تظاهراً منهم بالحرص على ذلك، وهذا الوجه ضعيف ؛ لأنه إنما يليق لو كان المعرَّض بهم منافقين وكيف والسورة مكية !، فأما المشركون فكانوا يعرضون عن تلقي الدعوة علناً قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [٢٦ فصلت] وقال: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [٥ فصلت] "[3].

وإذا كان ابن عاشور قد وجه نفي أصل الفعل وضعف ما سواه بما وجه ، فكيف نجعل نفي الخرور عن المؤمنين على ما ذكر مما يمدحون به مع أنه جاء مثبتاً لهم على وجه المدح في غير آية كقوله تعالى:﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ﴾ [٥٨ مريم] ، و﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ

---

(1) انظر جامع البيان المجلد الحادي عشر الجزء التاسع عشر ٥١.

(2) المحرر الوجيز ٤٤/١٢ .

(3) التحرير والتنوير ٨١/١٩ .

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [١٥السجدة][1] .

يجيب عن هذا الدكتور الخضري بإجابة مسددة مرجحاً فيها النفي العام فيقول: "أما نفي الفعل من أصله فهو الذي أميل إليه بناءً على ما تعلق به من حرف الجر (على) وهو لا يتعدى فعل الخرور به إلا حيث يقع الإيذاء و الإضرار بمدخوله كما في قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٢٦ النحل] ...أما خرور الطاعة والتعظيم فلم يجئ في القرآن متعدياً بـــ(على)،وإنما جاء متعدياً بـــ(اللام) ، أو جاء غير متعدٍ بالحرف...فالخرور بما تعدى إليه منفي عن المؤمنين..."[2]، وهذا يعني أن الخرور يمدح به ويذم بحسب الحرف المعدّى به الفعل .

والملحوظ أن ابن عاشور بنى كلام وتضعيفه لقول الجمهور على نوع المعرَّض بهم، وأن السورة مكية،ولكن كلامه غير مسلم لأن الأكثرين-كما سبق- يرون فيها التعريض بالمشركين والمنافقين على السواء،والمشركون وإن قالوا ما قالوا إلا أنهم كانوا يتسللون إليه صلى الله عليه وسلم وهو في مكة خفية فيستمعون القرآن،فالاستماع منهم حاصل لا يمكن دفعه،وأما حجة الدكتور الخضري بأن التعدية بـــ (على) لا توافق إثبات الخرور للمؤمنين؛لأنها تدل على الإيذاء في مدخولها،فليس هذا بمسلم أيضاً،وقد استشهد الدكتور على مراده ببعض ما ذكره صاحب لسان العرب، والعجيب أن ابن منظور ذاته ذكر الآية ونص فيها على معنى الجمهور وهو إثبات الخرور حيث يقول:"وقوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [٧٣ الفرقان] تأويله:إذا تليت عليهم خروا سجداً وبكياً سامعين مبصرين لما أمروا به ونهو عنه"[3]، ثم ماذا يمكن أن يعدى به الفعل هنا غير (على) أيقال:خروا لها صماً وعمياناً،فهذا لا يكون ولا يستقيم،فلا يصح الاستدلال بمعنى التعدية ما دام السياق لا يرتضى غيرها .

وإنني أظن أنه لا مانع من مراعاة الحال وقصدها بالنفي دون الفعل ، حيث لا يترتب

---

(1) وغيرها مثل ١٠٠ يوسف ، و ١٠٧ ، ١٠٩ الإسراء .

(2) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني٢١ ، ٢٢ .

(3) لسان العرب مادة خرر ٤/٢٣٤ .

على ذلك محذور ، بل إن التعريض فيه أقوى من النفي المطلق ؛ لأن نفي ما عهد حصوله أقوى في التعريض بثبوت ضده مما لم يعهد حصوله لأنه لا إثبات فيه أصلاً[1].

وعلى كل حال، فالقولان لا يبعدان كثيراً،فالقائلون بهذا وذاك كلهم يجمعون على أن الهدف من التقييد بالحال هو للتعريض بغير المؤمنين،يقول الدكتور الخضري مبيناً هذا الأمر: "والرأيان يلتقيان حول ما أفاده القيد ، وهو التعريض بمن يستقبلون آيات الله معرضين عنها مدبرين عن العمل بها"[2].

ولبعضهم في بيان وجه التعريض بهذا القيد ، وبالسياق الذي ورد فيه إلماحات حسنة منها قول الألوسي: "وفي التعبير بما ذكر دون: أكبوا عليها سامعين مبصرين ونحوه، تعريض لما عليه الكفرة والمنافقون إذا ذكروا بآيات ربهم ، والخرور السقوط على غير نظام وترتيب وفي التعبير به مبالغة في تأثير التذكير بهم"[3]، ويقول القاسمي: "وإنما عبر بنفي الضد تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون من شدة الإعراض والإباء والنفرة المستعار لها (الخرور) على تلك الحال استعارة بديعة لما فيها من إسقاط عن الإنسانية إلى البهيمية بل إلى أدنى منها ؛ لأنها تسمع وتبصر وقد نفيا عنهم... ويرحم الله الحسن البصري فقد قال: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى"[4]، وذكر الدكتور الخضري: "أن القرآن أخرج التعريض بهم في هذه الهيئة الشنيعة وهي هيئة الساقط على الأرض بلا وعي ولا إدراك مهلكاً نفسه من حيث يريد أن يهلك ما ألقى نفسه عليه، ولا تكتمل هذه الصورة إلا بأن يكون الساقط أصم لا يسمع إنذاراً أو تحذيراً،أعمى لا يبصر ما هو خار عليه"[5].

ومما لا يلحق بالمدح ما جاء في قوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [١٨ النمل] .

---

(١) وهناك قول بأن الهاء في (عليها) تعود على المعاصي، ولو صحَّ هذا لكان النفي لأصل الفعل ، وقد أشار إلى هذا البيضاوي وأهمله، وأحسن الشهاب بالتعليق عليه بقوله :"والهاء في قوله :(عليها) إذا كانت للمعاصي فالنفي لأصل الفعل ، ولبعد ما ذكر عن السياق لم يرتضه "،حاشية الشهاب على البيضاوي ١٥٩/٧،وانظره أيضاً في:روح المعاني المجلد العاشر الجزء التاسع عشر ٥٢ .

(٢) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني٢١ .

(٣) روح المعاني المجلد العاشر الجزء التاسع عشر ٥٢ .

(٤) محاسن التأويل ٢٨٣/١٢ .

(٥) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني٢٢ .

يقول أبو حيان: " (وهم لا يشعرون) جملة حالية ، أي إن وقع حطم فليس ذلك بتعمد منهم،وإنما يقع وهم لا يعلمون بحطمنا"[1]،ويقول أبو السعود:" (وهم لا يشعرون) حال من فاعل (يحطمنكم) مقيدة لتقييد الحطم بحال عدم شعورهم"[2].

ومعلوم أنه كان يمكن أن يخلو الكلام من هذه الحال ويتم عند قوله: (لا يحطمنكم سليمان وجنوده) ، ولكن زيد هذا القيد لإبراز حسن الأدب من هذا المخلوق (النملة) مع سليمان عليه السلام وما آتاه الله من الملك ، ومع حسن الأدب حسن الإعذار لو حصل الإيذاء ، ما أروعه من قول وما أكثر عبره، وقد تحدث ابن القيم عن هداية الله للنمل ومما ذكره عنها إنذارها لقومها وتعليلها لذلك ثم اعتذارها لنبي الله سليمان عليه السلام وجنوده بأنهم لو حصل منهم شيء فإنهم لا يشعرون، "فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم..."[3]،وقال الألوسي أيضاً مشيراً إلى هذه المعاني "وأياً ما كان ففي تقييد الحطم بعدم الشعور بمكانهم المشعر بأنهم لو شعروا بذلك لم يحطموا ما يشعر بغاية أدب النملة مع سليمان عليه السلام وجنوده،وليت من طعن في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم تأسى بها فكف عن ذلك وأحسن الأدب"[4].

ولا شك أن هذه المعاني الرائعة ما كانت لتكون لو حذف هذا القيد ، وفوق ما في هذا القيد من حسن الأدب ما يدل على مدح سليمان وجنوده ، وأنهم لا يتعمدون الإيذاء، فقولها هذا تزكية لهم ، وثناء عليهم .

٣- ما كان في سياق الذم والتشنيع .

ومن هذا القبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١٠٠ المائدة]، فقوله تعالى:

---

(١) البحر المحيط ٨/٢٢١ .

(٢) تفسير أبي السعود ٦/٢٧٨ .

(٣) بدائع التفسير ٣/٣٣٤ .

(٤) روح المعاني المجلد العاشر الجزء التاسع عشر ١٧٨ .

﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ ... ﴾ جملة حالية[١] ليس النفي متوجهاً إليها، بل هو متوجه إلى الفعل، فالمراد نفي المساواة أبداً بين هذين الصنفين من جميع الوجوه، فيكون بهذا ذكر القيد لغرض آخر غير تقييد النفي به، وذلك الغرض هو التنبيه على أن هذه الحالة التي لو وجدت ـ والأصل ألا تكون ـ وهي الإعجاب بكثرة الخبيث فإنها لا توجب له أدنى مساواة بالطيب، وفي هذا من المبالغة في نفي استوائها وتفضيل الطيب وبيان خبث الخبيث ما لا يخفى، يقول الألوسي: "أي: لا يستويان على كل حال مفروض"[٢]، ويشير ابن عاشور إلى الغرض من القيد هنا رغم عمومية النفي فيه وفي غيره فيقول: "ولما كان المعلوم أن الخبيث لا يساوي الطيب وأن البون بينهما بعيد ، علم السامع من هذا أن المقصود استنزال فهمه إلى تمييز الخبيث من الطيب في كل ما يلتبس فيه أحدهما بالآخر..."[٣].

وهذا الأسلوب مع (لو) الاتصالية فاش في القرآن ، ويذكر معها دائماً أقصى الحالات، إعلاماً أن ما دون ذلك فهو من باب أولى نفياً أو إثباتاً أو غير ذلك .

وفي جعل الحال متعلقة بصفة في الخبيث وهي ممدوحة لو كانت في غيره ومع هذا هي مذمومة فيه ما يشعر بشدة الذم والتنفير منه، لأن الكثرة المعجبة يكون فيها من دواعي الحسن ما يجعلها فائقة لغيرها، لكنها في الخبيث لا ترفع من خبثه شيئاً لو كانت فيه، فليس وراء هذا من الذم والتشنيع حبة خردل .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [١٧ التوبة]، فقوله جل ثناؤه: (شاهدين) حال[٤]، ومعنى شهادتهم على أنفسهم فيها أقوال خمسة ذكرها أبوحيان منها: تلبيتهم بالشرك، وإقرارهم بعبادة الأصنام، واعترافهم بتسمية (المشرك)، وظهور أفعال الكفر فيهم، وطوافهم بالبيت عراةً[٥].

والملحوظ أن المعنى المراد تام بدون هذا القيد ، فهو مفهوم من قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ

---

[١] انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٣/٢٦ ، و التحرير والتنوير ٧/٦٤ .
[٢] روح المعاني المجلد الرابع الجزء السابع ٣٧ .
[٣] التحرير والتنوير ٧/٦٣ .
[٤] انظر مفاتيح الغيب ١٦/٨، والبحر المحيط ٥/٣٨٦ .
[٥] انظر البحر المحيط ٥/٣٨٦ .

﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ ، فكان يكفي عن التقييد بالحال ، لسبق ذكر وصف الشرك لهم، فما سر هذا التقييد إذاً ؟ .

إن الذي يظهر أن النفي متوجه إلى الفعل، وليس إلى القيد ؛ لأنه ليس المراد تقييد النفي بالحال، بل المقصود نفي استحقاق عمارة المشركين للمساجد بالكلية شهدوا بالكفر أم لم يشهدوا، لذا قيل إن معنى (ما كان للمشركين): "أي لا ينبغي لهم ولا يليق وإن وقع"[1]، فهو نفي للاستحقاق ، وبعضهم جعله نفياً للوجود والتحقق وحينئذ يكون الغرض إلى القيد، وعلى هذا فالقيد على المعنى الأول قيد زائد لغاية مهمة وهي التشنيع عليهم ، فكأنه قيل إنهم بعداء وليسوا بأهل لعمارة المساجد لشركهم فكيف وهم على تلك الحال من الشهادة على أنفسهم بالكفر ، يقول الألوسي: "وظاهره أن النفي في الكلام راجع إلى المقيد وحينئذ لا مانع من أن يكون المراد من (ما كان) نفي اللياقة...، والغرض إبطال افتخار المشركين بذلك؛ لاقترانه بما ينافيه وهو الشرك"[2]، ويضيف أيضاً قوله: "وحمل بعضهم (ما كان) على نفي الوجود والتحقق ، وقُدِّرَ بأن يعمروا بحق ، لأنهم عمروها بدونه ، ولا حاجة إلى ذلك على ما ذكرنا"[3].

وعلى هذا القول يكون النفي موجهاً إلى القيد وقد أشار إلى ذلك الألوسي بقوله: "وجُوِّزَ أن يوجه النفي إلى القيد كما هو الشائع وتُكُلِّف له بما لا يخلو من نظر"[4]، وظاهر أن الألوسي يرد هذا القول، وهو كذلك ؛ لأن المعنى يكون عليه أنهم ما كان لهم ذلك حال شهادتهم بالكفر، ويكون لهم ذلك في غيرها وهذا لا يقول به أحد .

ولكن ما يمكن قبوله هو أن يكون النفي متوجهاً إلى القيد والمقيد جميعاً ، فالفعل منفي وهو مع هذه الحال أشد نفياً ، ولعل ابن عاشور قد يبين بعض هذا بقوله: "وقد جاء الحال في قوله: (شاهدين على أنفسهم بالكفر) مبيناً لسبب براءتهم من أن يعمروا مساجد الله وهو حال من ضمير (يعمروا)...الداخل في حكم الانتفاء، أي انتفى تأهلهم لأن يعمروا مساجد الله بحال شهادتهم على أنفسهم بالكفر ،فكان لهذه الحال مزيد اختصاص

---

(1) روح المعاني المجلد الخامس الجزء العاشر ٦٤ .

(2) روح المعاني المجلد الخامس الجزء العاشر ٦٤ .

(3) روح المعاني المجلد الخامس الجزء العاشر ٦٤ .

(4) روح المعاني المجلد الخامس الجزء العاشر ٦٤ .

بهذا الحرمان الخاص من عمارة مساجد الله ، وهو الحرمان الذي لا استحقاق بعده"[1]، وقد ذكر ابن عاشور أن إشراكهم بالله وكفرهم بحد ذاته موجب للحرمان من عمارة المساجد ؛ لأن المساجد لله وحده "فهذه أول درجة من الحرمان ، ثم كون كفرهم حاصلاً باعترافهم به موجب لانتفاء أقل حظ من هذه العمارة ، وللبراءة من استحقاقها ، وهذه درجة ثانية من الحرمان"[2].

ولعله يتضح مما سبق أن نفي الفعل مقرر هنا لكونهم مشركين ، وأما التقييد فقد يكون لزيادة النفي وتأكيده ، أو هو للتشنيع عليهم في جمعهم بين ما يدّعون ويفتخرون به من عمارة البيت، وبين شهادتهم بالكفر على أنفسهم ، ولا شك أن القيد هنا أعطى مدلولاً مهماً في نفي استحقاقهم للعمارة بما لا يترك مجالاً لمجادل .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [٩٦، ٩٧ يونس]،فقوله جل ذكره:﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [3]، والمعنى مفهوم حتى لو حذفت هذه الحال، لكن في ذكرها فائدة فوق المعنى المباشر القريب ، فإن هذا القيد أشعر بخطورة هذا الأمر ، فأولئك الذين صدوا و صدفوا عن آيات الله وعصوا رسوله حتى حقت عليهم كلمة الله بالعذاب والخسران،لا يمكن أن يأمنوا في حال من الأحوال ، حتى في حال مجيء كل الآيات، وهذا تيئيس مرعب مخيف لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وفيه تحذير من سلوك طريقهم،يقول أبو حيان: "وفي ضمن الألفاظ التحذير من هذه الحال وبعث على المبادرة إلى الإيمان، والفرار من سخط الله"[4]، ومجيء هذا القيد مع (لو) الوصلية الدالة على أقصى الحالات والمجيء بكلمة (كل) زاده دلالة على استحكام نفي الإيمان عنهم البتة ، يقول ابن عاشور: " و (لو) وصلية للمبالغة ، أي لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية ، فكيف إذا لم تجئهم بعض الآيات"[5]، وابن عاشور يشير هنا إلى أن

---

(1) التحرير والتنوير ١٤٠/١٠ .

(2) التحرير والتنوير ١٤٠/١٠ .

(3) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٢٩٨/٤ .

(4) البحر المحيط ١٠٧/٦ .

(5) التحرير والتنوير ٢٨٧/١١ .

التقييد بمثل هذا القيد -وهو شبه مطرد مع لو الوصلية[1]- مراد منه التعليق بأعظم حالات الفعل رجاءً للقبول والهداية للتنبيه على الامتناع، وأن ما دون ذلك من باب أولى ، فهنا الأيمان منفي عنهم في أرجى حالة يمكن أن يؤمنوا فيها وهي رؤية كل الآيات، وما دام هذا منفي عنهم فمن باب أولى ألا يؤمنوا بما دون ذلك من بعض الآيات، وهذا يدل في آخر الأمر على أن المراد نفي الإيمان عنهم كلياً ، ولكن في ذكر القيد تصوير لعظم هذا التيئيس تنفيراً من فعلهم ،وإرهاباً لغيرهم،يقول ابن عاشور: "وهذا الكلام للمشركين، ...وتحذير من أن يكونوا مظهراً لمن حقت عليهم كلمة الشقوة ، وإنذار بوشك حلول العذاب بهم"[2].

٤- ما كان في سياق التشريع وبيان الحكم .

من هذا قوله سبحانه:﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [٦٠ النور]،فقوله تعالى:(غير متبرجات) حال من ضمير (النساء)، ولكن هل النفي منصب على القيد فيكون نفي الحرج عنهن مقيداً بهذا القيد ، فإن وجد فعليهن الحرج وإلا فلا ؟ يظهر أن هذا ما نحا إليه الزمخشري[3]، وأبو حيان[4] وكثيرون، وكان ابن عاشور أوضحهم عبارة إذ قال: "أي تَعَفُّفُهن عن وضع الثياب عنهن أفضل لهن، ولذلك قيد هذا الإذن بالحال وهو: (غير متبرجات بزينة) أي: وضعاً لا يقارنه تبرج"[5]، ولابن المنير رأى آخر يقول فيه: "ويظهر لي -والله أعلم- أن قوله تعالى: (غير متبرجات) من باب:

على لاحب لا يهتدي بمناره[6] .

أي: لا منار فيه فيهتدى به،وكذلك المراد هنا:والقواعد من النساء اللاتي لا زينة لهن

---

[1] ومن شواهد (لو) الوصلية الواقعة مع جملتها حالاً في سياق النفي ما يأتي: ١٠٦ المائدة ، ١٩ الأنفال ، ١١٣ التوبة، ١٧ يوسف ، ١٨ فاطر ، ٥٢ الأحزاب ، ٢٢ المجادلة .

[2] التحرير والتنوير ٢٨٧/١١ .

[3] انظر الكشاف ٢٥٥/٣ .

[4] البحر المحيط ٧٨ .

[5] التحرير والتنوير ٢٩٨/١٨ .

[6] هذا صدر بيت لامرئ القيس ، وعجزه : إذا سافه العود النُّباطي جرجرا، انظر ديوان امرئ القيس ص ٩٥.

فيتبرجن بها؛ لأن الكلام فيمن هي بهذه المثابة،وكأن الغرض من ذلك أن هؤلاء استعفافهم[1] عن وضع الثياب خير لهن، فما ظنك بذوات الزينة من الثياب،وأبلغ ما في ذلك أنه جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف إيذاناً بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة، هذا في القواعد فكيف بالكواعب"[2].

وفي نظري أن ما بنى عليه ابن المنير كلامه غير صحيح ؛ لأن الزينة في هذا الصنف من النساء لا يمكن نفيها البتة، بل هي موجودة في بعض النساء، فمنهن رغم تقدم سنها وقعودها عن الحيض والولد، إلا أن فيها ملحةً وجمالاً فكيف لو جمعت مع ذلك ألواناً أخرى من الزينة التي كانت مستورة من قبل، يقول أبوحيان منبهاً على هذا الجانب: "ورب عجوز يبدو منها الحرص على أن يظهر بها جمال"[3]، ولم يتبين لي الوجه الذي استدل به ابن المنير على أن وضع الثياب لا مدخل له في العفة، وقد نص هو على أن عدم وضع الثياب في حق القواعد هو من الاستعفاف،فمقتضى الكلام أن وضع الثياب له مدخل في العفة، لا أنه لا مدخل له كما ذكر، وما دمنا قلنا بوجود الزينة أصلاً حتى في القواعد ولو في بعضهن دون بعض، علمنا من هذا أن القيد مقصود هنا، والمراد منه دفع توهم الإطلاق،فلو قيل: لا جناح عليهن أن يضعن ثيابهن، لكان ذلك مطلقاً بلا حدود فجاءت الحال هنا مقيدة له بحال معينة ، وهناك حال أخرى جاءت في سياق النفي وهي (بزينة) فإن الباء للملابسة[4]، أي غير متبرجات حالة كون هذا التبرج بزينة ، وقد يقال: إن التبرج يقتضي الزينة أو يغني عن ذكرها، فما فائدة ذكر هذا القيد والحال هذه ؟، فائدة ذلك -والله أعلم- هو الإفادة بأن القيد المذكور في وضع الثياب مقيد هو الآخر، فلا جناح على القواعد بوضع الثياب بشرط عدم التبرج، وأن لا يكون هذا التبرج بزينة، وهذا يعني أن التبرج وهو التكشف إذا لم يكن فيه زينة فإنه ينتفي معه القيد الأول، فلا يكُنَّ متبرجات أصلاً ؛ لأن وضع الثياب بحد ذاته تكشف وتبرج، وإلى هذا المعنى يلمح ابن عاشور بقوله: "والتبرج:التكشف، والباء في (بزينة) للملابسة فيؤول إلى أن لا يكون

---

(1) هكذا نصه ، والمراد : (استعفافهن).

(2) الانتصاف بحاشية الكشاف ٣/٢٥٥.

(3) البحر المحيط ٨/٧٠ .

(4) انظر التحرير والتنوير ١٨/٢٩٨ .

وضع الثياب إظهاراً لزينة كانت مستورة،والمراد إظهار ما عادة المؤمنات ستره... فالتبرج بالزينة: التحلي بما ليس من العادة التحلي به في الظاهر من تحمير وتبييض وكذلك الألوان النادرة"[١].

وهذا يعني أن هذا القيد الثاني: (بزينة) كان لرفع توهم الإطلاق في كل تكشف وتبرج فعلم منه أنه تبرج مخصوص وهو ما كان بهذا القيد، وظهر أيضاً أن القيد الثاني كان هو العمدة وما قبله مترتب عليه،فهو قيد في قيد وانخرام واحد منها يعني تخلف الجميع ، وللألوسي كلام يفهم منه أن (بزينة) ليست داخلة في مفهوم (التبرج) ، وهذا يؤيد ما سقناه سابقاً فهو يقول:"وليست الزينة مأخوذة من مفهومه [أي التبرج] ، حتى يقال إن ذكر الزينة من باب التجريد"[٢].

٥- ما كان في سياق الرد والإنكار .

وعلى هذا جاء قوله تعالى:﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [١٥٧النساء]،فقوله سبحانه (يقيناً) محتمل للحالية أي:"ما قتلوه متيقنين كما ادعوا ذلك في قولهم (إنا قتلنا المسيح) "[٣]، والنفي في هذا السياق ليس متوجهاً إلى القيد كما هو الغالب، بل هو إلى الفعل فليس ثمة قتل أصلاً بدليل قوله سبحانه بعده: (بل رفعه الله إليه) ، ولو قيل بتوجه النفي إلى القيد وحده -على الغالب- لكان القتل مثبتاً ، لكن ليس على الحالة المذكورة ، وهذا مدفوع بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة الدالة على حياة عيسى وأنه لن يموت إلا في آخر الزمان بعد قتل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٨/١٨ .

(٢) روح المعاني المجلد التاسع الجزء الثامن عشر ٢١٧، والتجريد هو: ((أن ينتزع من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة، مبالغة في كمالها فيه)) معجم البلاغة العربية ١٢٤ .

(٣) الكشاف ٥٨٧/١ ، ٥٨٨ ، ويبدو أن غير الحالية أظهر في المعنى ، لأن المراد على الحالية الإعلام بأنهم قتلوا من قتلوا وهم شاكون في كونه عيسى ، وأما على التوكيد فيكون المعنى أنه إخبار من الله أن اليقين أنهم لم يقتلوه وهو الأليق بالمعنى والواقع ، وقد بين الرازي هذا بلا إعراب، انظر مفاتيح الغيب ٨١/١١ ، وقد نصر ذلك البقاعي أيضاً ووجهه، انظر نظم الدرر ٤٦٦/٥ ، أما أبو حيان فيظهر أنه يرجح الحالية حيث ذكرها أولاً ونصّ عليها ، وأما ضمير (قتلوه) ففيه كلام كثير،وما عليه الجمهور أنه يعود على عيسى والمعنى صالح ، انظر البحر المحيط ١٢٨/٤ .

الدجال ، يقول الألوسي: "ولا يرد أن نفي القتل المتيقن يقتضي ثبوت القتل المشكوك لأنه لنفي القيد !، ولا مانع من أنه قُتِل في ظنهم فإنه يقتضي أنه ليس في نفس الأمر كذلك..."[1]، وقد نبه ابن عاشور إلى توجه النفي إلى القيد والمقيد جميعاً فقال: "ويصح أن يكون في موضع الحال من الواو في: (قتلوه) أي: ما قتلوه متيقنين قتْلَه ، ويكون النفي منصباً على القيد والمقيد معاً، بقرينة قوله قبله: (وما قتلوه وما صلبوه) أي: هم في زعمهم...ليسوا بموقنين بذلك للاضطراب الذي حصل في شخصه حين إمساك من أمسكوه..."[2] ويبدو -والله أعلم- أن فائدة هذا القيد مع أن نفي الفعل مفهوم دونه هي تكذيب مقالتهم السابقة: (إنا قتلنا المسيح)، ورد كلامهم، وإن كان هو يفهم من مجرد نفي القتل إلا أن في ذكر هذا القيد (يقيناً) بمعنى: متيقنين ما يدل على وجود الشك عند المدعين لهذه الجريمة أنفسهم ، فهم مضطربون شاكون، وهذا القيد يؤكد النفي ويقويه ويدعمه بإثبات الشك عندهم هم، وبذلك تنسف مقالتهم نسفاً.

---

[1] - روح المعاني المجلد الثالث الجزء السادس ١١ .

[2] - التحرير والتنوير ٢٣/٦ .

المبحث الثالث: التقييد بالحال في النهي .

لقد علمنا من قبل أن النفي المسلط على جملة فيها قيد له ثلاث حالات، والنهي أخو النفي؛ لذا فالحالات الثلاث منطبقة عليه أيضاً وهي: أن يكون النهي مسلطاً على القيد فحسب وهذا الأكثر والأغلب في لسان العرب، وأن يكون النهي مسلطاً على الفعل والقيد معاً، وأن يكون النهي مسلطاً على الفعل وحده، وللقيد غرض آخر وسر زائد، وإن كنا قد وجدنا فيما سبق سياقات متعددة يأتي فيها التقييد مثل: المدح والثناء والتعظيم، والتشنيع والدم، والرد والإنكار، والتشريع والأحكام فإننا هنا لا نجد ذلك واضحاً وضوحه فيما سبق، وسبب ذلك بَيِّن وهو أن كل ما هنا هو من المنهيات؛ لذا فجانب الذم والتشنيع والإنكار أظهر من غيره، وعلى هذا فسيكون عرض الشواهد من خلال ما يأتي:

١- ما كان في سياق الحث والتوجيه.
٢- ما كان في سياق التوبيخ والتشنيع.
٣- ما كان في سياق التشريع وبيان الحكم.

١- ما كان في سياق الحث والتوجيه .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [١٣٢البقرة]، وقوله:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [١٠٢آل عمران]، لقد سبق أن ذكرنا آية البقرة في وجوب تأخير الحال لكننا لم نتحدث عن سر التقييد بها على هذه الصورة العجيبة، حيث دخل النهي على الموت فأوهم أن النهي عنه، وهم لا يد لهم في ذلك، وإنما المنهي عنه في الحقيقة شيء آخر، وهذا من دقائق النظم الكريم في صور النهي المقيد بالحال حيث تراه " وقد وضع فيه المقيد في موضع، وذلك ليتسلط النهي عليه، ويكون الغرضَ الخاص من الكلام، مبالغةً في الحث على إتيانه أو اجتنابه، وهو لون عجيب من ألوان

مخالفة الظاهر في أساليب التقييد بالحال " [1]، ولقد أبدع الزمخشري في تجلية هذا الأسلوب بكلام مطول منه: " معناه: فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لاتصل إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته، فإن قلت فأي نكتة في إدخال حرف النهي على الصلاة وليس بمنهي عنها؟ قلت: النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة، فكأنه قال: أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة "[2].

ويظهر لي -والله أعلم- أن هذا النوع من التقييد على هذه الصورة يكون في حال طلب تلازم القيد مع المقيد مع الاهتمام بشأن القيد، حتى كأن الفعل بدونه منهي عنه لا قيمة له، وهذا ظاهر في المثال الذي ذكره الزمخشري، " وكذلك المعنى في الآية: إظهار أن موتهم لا على الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، أو أن من حق هذا الموت ألا يحل فيهم ..."[3]، وقد ذكر ابن عاشور أن للعرب طرقاً في النهي المراد فيه لازمه: منها أن يكون النهي عنه مما لا قدرة للمخاطب على اجتنابه، فيدلوا بذلك على أن المراد نفي لازمه مثل...لا أعرفنّك تفعل كذا... ومنها أن يكون المنهي عنه مقدوراً للمخاطب ولا يُراد النهي عنه بل عما يتصل به، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ، ومنها أن يكون المنهي عنه ممكن الحصول، ويقصد بالنهي تعميمه على الأمرين معاً إذا اجتمعا مثل: لا تجئني سائلاً[4].

والذي يظهر -والله أعلم- أن الآية من النوع الأول لا الثاني كما أورده ابن عاشور؛ لأن الموت غير مقدور للمخاطب، وهذا ظاهر في قول الزجاج: " إن قال قائل كيف ينهاهم عن الموت وهم إنما يُماتون؟ فإنما وقع هذا على سعة الكلام، وما تكثر استعماله العرب نحو قولهم: لا أرينك ههنا...والمعنى من الآية: الزموا الإسلام، فإذا

---

(1) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣٥.

(2) الكشاف ١٩٢/١، ١٩١ .

(3) الكشاف ١٩٢/١ .

(4) التحرير والتنوير ٧٢٩/١ بتصرف .

أدرككم الموت صادفكم مسلمين "[١]، وينص الدكتور الخضري على هذا بقوله: " توجه النهي ظاهراً إلى الموت وهو غير مقدور للمخاطبين والمراد النهي عن مفارقة الإسلام حين الموت"[٢].

ويشير القرافي إلى ملمح آخر حيث يقول: "فإن قلت: اللفظ يقتضي النهي عن الموت في غير هذه الحالة، والموت لا ينهى عنه مطلقاً لا في هذه الحالة ولا في غيرها، فكيف جاء النهي عنه؟ قلت: القاعدة أن النهي لا يرد إلا فيما يمكن كسبه جلباً ودفعاً، وأن ما لا يمكن اكتسابه جلباً ولا دفعاً إذا ورد طلب جلبه أو دفعه بالأمر أو النهي يتعين صرف ذلك إما إلى ثمرته أو إلى سببه... وكذلك هذه الآية معناها اجتنوا الأسباب التي يأتيكم معها الموت وأنتم غير مسلمين... فهو من باب النهي عن الشيء في اللفظ، فالمراد سببه"[٣]، وهذا يعني أن النهي إذا كان عن أمر غير مقدور عُلم أن المراد هو ما اتصل به، وفي هذا تأكيد للنهي بصورة أعمق وشحذ للهمم للتنبه والاستعداد، يقول أبو حيان: " وقد تضمن هذا الكلام إيجازاً بليغاً ووعظاً وتذكيراً... وهذا على الحقيقة نهي عن تعاطي الأشياء التي تكون سبباً للموافاة على غير الإسلام "[٤].

ومما جاء على هذا النحو قوله تعالى:﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [١٣٩آل عمران] ، فعلى القول بحالية الجملة ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ -وهو الأظهر-[٥] لا يكون القيد هو مقصد النهي، فليس مفهوم هذه الحال أمرهم بالهوان والحزن في غير هذه الحالة، أو حتى جواز ذلك لهم؛ لأن المؤمن عزيز دائماً ولا يطلب الذلة ولا يسعى إليها بل يدفعها ويرفعها، وتعليق النهي بالحال يفهم منه غير هذا، ثم إن الآية جاءت بعد ما أصاب المسلمين من الجراح وفوات الغنيمة يوم أحد، وقد أوجد فيهم ذلك شيئاً من الحزن والضعف، فجاء النهي عن ذلك لا تعليقاً بهذه الحال، بل لحفز الهمم وتنشيط العزائم، وكان ذكر هذه الحال ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ خير معين في ذلك؛ لأن فيها تصريحاً بعلوهم على

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٢١٢/١ .

(٢) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣٥ .

(٣) الاستغناء في أحكام الاستثناء ٦٢٨ ، ٦٢٩ .

(٤) البحر المحيط ٦٣٧/٢ .

(٥) انظر الكشاف ٤٢٨/١، والبحر المحيط ٣٥٣/٣،قال أبو حيان:((أي: لا تحزنوا عالين أي: منصورين على عدوكم)).

عدوهم، وهذا يزيد من ثقتهم ويقوي من عزائمهم، فالسياق كله على هذا، ولعل ذلك مما جعل الألوسي يقول: " والظاهر أن حقيقة النهي غير مرادة هنا، بل المراد التسلية والتشجيع، وإن أريدت الحقيقة فلعل ذلك بالنسبة إلى ما يترتب على الوهن والحزن من الآثار الاختيارية، أي: لا تفعلوا ما يترتب على ذلك"[(١)]، ولعل ما ذكرناه كان أوضح، فالمعنى العام الذي عليه المفسرون، أن المراد هو التسلية، كما يقول الزمخشري: " ولا تهنوا ولا تحزنوا تسلية من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم "[(٢)].

والذي يظهر أن النهي منصب على الفعل والقيد جميعاً أخذاً بقاعدة الترقي في هذا الجانب أي: أنتم منهيون عن الضعف والحزن دائماً، وفي هذا الحالة وهي العلو والغلبة من باب أولى، فأنتم عنها أشد نهياً؛ وذلك لأن الحزن مما لا ينهى عنه إلا مقصوداً به سببه أو عاقبته أو شيء متعلق به وكذلك ضعف النفس فهي أمور جبلية، فعلمنا من هذا أن المقصود هو الحث على ضد أسباب المنهي عنه، والحال مرشحة لهذا مقوية له، وهذا قريب مما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [١٣٢البقرة]، يقول ابن عاشور: " والوهن والحزن حالتان للنفس فالنهي عن الوهن والحزن في الحقيقة عن سببيهما وهو الاعتقاد، كما ينهى الإنسان عن النسيان و كما ينهى عن فعل غيره في نحو: لا أرينّ فلاناً في موضع كذا، أي لا تتركه يحل فيه؛لذا قدم على هذا النهي﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ [١٣٧آل عمران] ... إلخ، وعقّب بقوله: (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) "[(٣)] .

فنخرج من هذا إلى أنه ليس في القيد دلالة على الإذن بالضعف والهون حال علو الأعداء، بل تلك حال منشطة زائدة في مقصد النهي، ويشهد لهذا التعليق بالإيمان (إن كنتم مؤمنين)[(٤)] فالمؤمن لا يليق به الهون والضعف مع الأعداء على أية حال كان، فكيف إذا كان عالياً عزيزاً وهو دائماً كذلك، بدلالة هذه الحال في هذا الموقف (بعد أحد)،

---

(١) روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ٦٦ .

(٢) الكشاف ٤١٨/١ .

(٣) التحرير والتنوير ٩٨/٤ .

(٤) يقول أبو حيان: ((وتعلّق قوله: (إن كنتم مؤمنين) بالنهي فيكون ذلك هزاً للنفوس يوجب قوة القلب، والثقة بصنع الله، وقلة المبالاة بالأعداء)) البحر المحيط ٣٥٣/٣ .

وبدلالة آيات أخرى تبين أن الغلبة لجند الله والعزة لهم ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [١٧٣الصافات]، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٨ المنافقون]، يقول ابن عطية: " ومن كرم الخلق ألا يهن الإنسان في حربه وخصامه، ولا يلين إذا كان محقاً، وأن يتقصى جميع قدرته ولا يضرع ولو مات "[١] .

ومما جاء على سبيل الحث والحض قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [١٥الأنفال] ، يقول الزمخشري:" (زحفاً) حال من الذين كفروا، ... والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفروا، فضلاً أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، أو حال من الفريقين، أي: إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم، أو حال من المؤمنين..."[٢]، وما أشار إليه الزمخشري أولاً اللائق بمقام البلاغة، وهو نهيهم عن التولي في أعلى أحواله وأشدها إرهاباً، وهو كون العدو أضعافاً مضاعفة يزحفون على الأرض من كثرتهم، وإذا كان النهي عن التولي واقعاً في هذه الحالة فما دونها من باب أولى، يقول الشهاب: "فإذا نهوا عن الانهزام ممن هو أكثر منهم ففي غيره بطريق الأولى"[٣]، وهذا " يؤول إلى معنى: لا تولوهم الأدبار على كل حال"[٤]، وقد لخص كل هذا الزمخشري بعبارة بارعة -كما رأينا- وتبعه البيضاوي[٥]، وأبو حيان[٦].

وهو توجيه في غاية الحسن وقد أجاد الدكتور الخضري في تحليل عبارة البيضاوي[٧] المأخوذة من كلام الزمخشري بقوله: " في عبارة البيضاوي الأخيرة دلالة واضحة على أن النهي عن تولية الأدبار ليس مخصوصاً بما إذا كان العدو أضعاف جيش المسلمين، بل إن النكير على الفرار حين يتساوى الجيشان، أو يقل عدد الكفار يكون

---

(١) المحرر الوجيز ٢٣٩/٣ .

(٢) الكشاف ٢٠٦/٢ .

(٣) حاشية الشهاب على البيضاوي ٤٤٧/٤ .

(٤) التحرير والتنوير ٩/ ٢٨٧ .

(٥) انظر أنوار التنزيل مع حاشية الشهاب عليه ٤٤٧/٤ .

(٦) انظر البحر المحيط ٢٩٢/٥ .

(٧) التي نصها: ((...فلا تولوهم الأدبار بالانهزام فضلاً عن أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم)) انظر أنوار التنزيل وحاشية الشهاب عليه ٤٤٧/٤ .

أشد، والعقاب حينئذ أوجب، فالقيد ليس هو محط النهي، وإنما ذكر تعظيماً لأمر الفرار، وإبعاداً لروح الانهزام أن تتسلل إلى نفوس المسلمين..."[1] .

وإذا كان هذا هو المعنى والسر، على أن الصاحب هو المفعول، فماذا عساه يكون المعنى لو كان الحال من الفاعل من المؤمنين ؟ .

ذكر أبو السعود أن هذا القول يأباه النهي عن الفرار؛إذ لا معنى لتقييد نهي المؤمنين عن التولي بكثرهم،إذ لا داعي للفرار حينئذ،بل داعي الفرار هو كثرة العدو[2]، وقال ابن عاشور عن مفهوم هذا القيد: " ومفهومه أنهم إذا كانوا قلة فلا نهي "[3] .

ونحن لسنا مع أبي السعود في رد هذا القول جملة وتفصيلاً، ولامع ابن عاشور في المفهوم الذي ذكره، بل لهذا حظ من النظر وله أشباه سبقت، وليس للقيد مفهوم هنا بل النهي عن الفرار حاصل على كل وجه، وإنما تخصيصه بما ذكر لعلة وسبب، فعندما يقيد نهي المؤمنين عن الفرار بكثرة جيشهم فالمراد بذلك التشنيع عليهم في ذلك الفعل لو فعلوه إذ ليس له ما يسوغه، وهذا ما نبه إليه الألوسي بقوله: " وتقيد النهي بذلك...لتفظيع أمر الإدبار؛ لِمَا أنه مناف لتلك الحال..."[4]، وربما يؤيده في إرادة تقبيح الفعل في كل الأحوال وفي تلك الحالة خصوصاً العدولُ عن لفظ الظهور إلى الأدبار، يقول الألوسي: " وعدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقبيحاً للانهزام وتنفيراً عنه "[5]، وهذا التعليل مقبول كما نرى، لكنه ليس في درجة القول الأول الذي قيد فيه " العامل بأعلى أحواله ليكون ما دون هذه الحال أوجب وآكد "[6] .

وفي نظري ليس هناك ما يمنع عد المعنيين صحيحين من غير تخطئة ولا رد لأحدهما وإنما هو ترجيح ونظر، ولعل في مجيء القيد هنا (زحفاً) مصدراً دون (وهم يزحفون) أو: (وأنتم تزحفون) ما يجعل الآية تحتمل أكثر من معنى، إضافة إلى ميزة المبالغة في المصدر،

---

(1) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ١٦، ١٧ .

(2) انظر تفسير أبي السعود ١٢/٤ .

(3) التحرير والتنوير ٢٨٧/٩ .

(4) روح المعاني المجلد الخامس الجزء التاسع ١٨٠ .

(5) روح المعاني المجلد الخامس الجزء التاسع ١٨١ .

(6) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ١٦ .

ولو قيل بالجملة لتحددت الحال إما من المؤمنين وإما من الكافرين، وهذه ميزة متكررة في القرآن تحتاج إلى كشف ودراسة.

ومما هو من قبيل التوجيه إلى المرغوب والنهي عما يقدح في صفات المؤمنين ما ورد في قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [٢٠ الأنفال] فالخطاب هنا للمؤمنين، يُنهون فيه عن التولي، وقد جاء النهي بقيد الجملة الحالية (وأنتم تسمعون)، التي يقول أبو حيان عنها:" جملة حالية، أي لا يناسب سماعكم التولي ولا يجامعه "[١]، وليس النهي عن التولي مختصاً بالقيد المذكور، بل منهي عنه على كل حال؛ لذا فلا بد أن يكون لهذا القيد غرض زائد على مجرد التقييد، وهذا ما وضحه أبو السعود بقوله: " (وأنتم تسمعون) جملة حالية واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي مطلقاً... لا لتقيد النهي عنه بحال السماع... أي لا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن..."[٢]، أما غرض التقييد فيقول عنه ابن عاشور: " والمقصود من هذه الحال تشويه التولي المنهي عنه؛ فإن العصيان مع توفر أسباب الطاعة أشد منه في حين انخرام بعضها"[٣]، فنعلم من هذا أن المراد هو النهي عن التولي عموماً، والإشعار بأنه يكون مع السماع أشد نهياً، والغرض من تشويه هذا الفعل هو إرشاد المسلمين إلى ما ينبغي من وجوب الإقبال على ما أمر الله به ورسوله، والتنفير من مخالفة طاعته سبحانه ورسوله ﷺ.

ومما هو من هذا القبيل قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٢٧الأنفال]، فأيّاً ما كان سبب نزول هذه الآية[٤]، فإن الجملة الحالية فيها: (وأنتم تعلمون) ليست قيداً في النهي؛ لأن خيانة الله ورسوله منهي عنها أبداً، وليس ذكر القيد هنا ليخرج الجاهل ومن على شاكلته، بل المراد التأنيب والتثريب والتوبيخ، إذ كيف يجامع هذا ذاك، والقصد بعد هذا إلى إنكار الخيانة جملة وتفصيلاً أن تكون من المؤمنين، يقول أبو حيان: " (وأنتم تعلمون) جملة حالية أي: وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله فكان ذلك أبعد لكم من الوقوع في الخيانة؛ لأن العالم بما يترتب

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٩٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤/١٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٩/٣٠٣ .

(٤) انظر في هذا الكشاف ٢/٢١٣ وما بعدها، والبحر المحيط ٥/٣٠٧ .

على الذنب يكون أبعد الناس عنه..."[1]، ويقول الشهاب: " وليس المراد بما ذكر التقييد على كل حال "[2]، وقد نبه إلى كل هذا ابن عاشور بكلام جميل يقول فيه: " وهي حال كاشفة والمقصود منها تشديد النهي، أو تشنيع المنهي عنه؛ لأن النهي عن القبيح في حال معرفة المنهي أنه قبيح يكون أشد؛ ولأن القبيح في حال علم فاعله بقبحه يكون أشنع،... وليس المراد تقييد النهي عن الخيانة بحالة العلم بها؛ لأن ذلك قليل الجدوى، فإن كل تكليف مشروط بالعلم وكون الخيانة قبيحة أمر معلوم "[3]، والذي ينبغي علمه أن مثل هذا التوجيه ليس مثل ما يوجه للكفار، بل هو من باب التنفير والتشنيع للفعل قصداً إلى التوجيه والإرشاد إلى ما ينبغي أن يكون، أن ما يخص الكفار فالقصد فيه إلى التوبيخ والإنكار، والتهديد والوعيد.

ومما يظهر فيه التوجيه والإرشاد بصورة أوضح قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [٢الحجرات]، يقول ابن عاشور: " وموقع قوله:(فوق صوت النبي)موقع الحال من (أصواتكم)،أي: مجاوزة صوت النبي... "[4]، وهذه الآية توجه إلى أدب رفيع يليق بمقام النبوة، وتعلم المؤمنين كيف يتكلمون مع نبيهم عليه الصلاة والسلام، بما يتفق مع مقامه الرفيع، فهو ليس كأحدهم يخاطبونه كيف شاءوا، ويرفعون أصواتهم بحضرته، كلا بل له حقوق يجب مراعاتها ومنها خفض الصوت عنده، ومراعاة جانب الأدب في مخاطبته صلى الله عليه وسلم، وذكر الحال هنا في سياق النهي ليس لتقييده بها، حتى يفهم أن رفع الصوت عالياً ما دام دون صوت النبي يكون مسموحاً به، بل المراد من التعليق بالحال هنا إنكار رفع الأصوات بعمومه إذا كان خارجاً عن حدود الأدب كما يفعله الأعراب الجفاة، يقول الألوسي بعد ذكره لقراءة التشديد (لاتُرَفِّعُوا):"ليس المعنى فيها أنهم نُهوا عن الرفع الشديد تخيّلاً أن يكون ما دون التشديد مَسُوغاً لهم، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون،وهو نظير قوله تعـالى

---

(1) البحر المحيط ٥/٣٠٧ .

(2) حاشية الشهاب على البيضاوي ٤/٤٦٣ .

(3) التحرير والتنوير ٩/٣٢٤ .

(4) التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٢٠ .

: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١٣٠ آل عمران] "[١]، ويؤكد ابن عاشور هذا المسلك فيقول: "ولا مفهوم لهذا الظرف؛ لأنه خارج مخرج الغالب، إذ ليس المراد أنه إذا رفع النبي صلى الله عليه وسلم صوته فارفعوا أصواتكم بمقدار صوته، والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وبحضرته إذا كلم بعضكم بعضاً كما وقع في صورة سبب النزول، ولقد تحصل من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله؛ إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتاً عنده ... "[٢] .

وهكذا اتضح أن ذكر الحال هنا ليس لقصد التقييد؛ لوفاء معنى النهي قبلها، ولكن لإظهار قبح هذا الفعل بذكر أشنع صورة مبالغة في نفي الفعل كله، وهذه المبالغة مناسبة لما كان عليه الأعراب من الشدة والغلظة ورفع الصوت في الخطاب، فكان لابد من تأديبهم وتهذيب أخلاقهم في تعاملهم مع النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بما يناسب حالهم.

---

(١) روح المعاني المجلد الثالث عشر الجزء السادس والعشرون ١٣٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٢٠/٢٦ .

٢- ما كان في سياق التوبيخ والتشنيع.

وهذا كثير في جانب الكفار والمشركين، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٢٢البقرة]، فهل يعني القيد هنا ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه يصح اتخاذ الأنداد حال الجهل؟ .

يجيب عن هذا الشيخ زادة بالتفصيل فيقول: " ... لا يكون المقصود من ربط هذه الجملة الحالية بالحكم السابق -وهو تكليفهم بالانتهاء عن الشرك وإثبات الند له تعالى- تقييدَ ذلك الحكم بعلمهم ... وإلا فيلزم انتفاء التكليف المذكور عند انتفاء قيده الذي هو علمهم بالمفعول المقدر اعتباراً بالمفهوم المخالف..."[(١)] .

إذاً ليس توجه النهي هنا إلى القيد بل هو إلى الفعل؛ لأن الأصل هو النهي عند اتخاذ الأنداد على كل حال، ولكنَّ في هذا القيد تنبيهاً على عظم جرمهم، وتشنيعاً عليهم في فعلهم؛ لأن هذا الفعل وإن كان مذموماً على كل حال فإنه مع حالة العلم أشد شناعة وذماً، يقول الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى (وأنتم تعلمون)؟ قلت معناه: وحالكم وصفتكم أنكم من صحة تمييز بين الصحيح والفاسد... بمترلة لا تدفعون عنه... أنتم العرافون المتميزون، ثم إن ما أنتم عليه من أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل..."[(٢)]، وينص البيضاوي على أن الهدف ليس التقييد المعروف بل هو التوبيخ والتثريب،فيقول: " وأنتم تعلمون) حال من ضمير (فلا تجعلوا) أي:وحالكم أنكم من أهل العلم والنظر ... وعلى هذا فالمقصود منه التوبيخ والتثريب لا تقييد الحكم وقصره عليه..."[(٣)] .

ويفهم أبو حيان من هذا القيد فهماً آخر هو الدعوة إلى توحيد الله وإفراده، وهو ملحظ حسن يقول فيه: " (وأنتم تعلمون): جملة حالية، وفيها من التحريك إلى ترك الأنداد وإفراد الله بالوحدانية ما لا يخفى "[(٤)]، ويلمح البقاعي ما في القيد من مادة العلم

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوي ١٩٠/١، وأشار إلى أن المقصود من القيد هو التوبيخ والتقريع .
(٢) الكشاف ٩٦/١ .
(٣) أنوار التتريل مع حاشية الشهاب عليه ٣٩،٤٠/٢ .
(٤) البحر المحيط ١٦٢/١ .

ويبني عليه قوله: " وما أحسن قوله في تأنيبهم وتنبيههم على ما أزروا بأنفسهم: (وأنتم يعلمون) أي: والحال أنكم ذوو علم على ما تزعمون، فإنه يلوّح إلى أن من أشرك به مع قيام هذه الأدلة لم يكن ممن يصح منه العلم، فكان في عداد البهائم... وفي تعقيبها لما قبلها غاية التبكيت على من ترك هذا القادر على كل شيء وعبد ما لايقدر على شيء "[(١)] .

وينبه ابن عاشور على لطيفة أخرى لهذا القيد فيقول: " وقد جعلت هاته الحال محط النهي والنفي تمليحاً في الكلام للجمع بين التوبيخ وإثارة الهمة، فإنه أثبتَ لهم علماً ورجاحة الرأي، لتثير همتهم ويلفت بصائرهم إلى دلائل الوحدانية، ونهاهم عن اتخاذ الآلهة... وجعله لا يجتمع مع العلم توبيخاً لهم على ما أهملوا من مواهب عقولهم... وهذا مترع تهذيبي عظيم ... وقد أومأ قوله: (وأنتم تعلمون) إلى أنهم يعلمون أن الله لا ند له، ولكنهم تعاموا وتناسوا فقالوا: إلا شريكاً هو لك ..."[(٢)] .

وبعد هذا فلا قبول لقول من قال إن المراد هو تقييد النهي بحالة العلم؛ لأن العلم هو مناط التكليف ولا تكليف عند عدم الأهلية[(٣)]، وهو قول مردود للمفهوم الخاطئ المترتب عليه؛ ولأنه مقرر عندهم وحدانية الله في الخلق والتدبير وكل أفعاله سبحانه، ولأن الدلائل أكثر من أن تحصى على وحدانيته، ولأن عبادتهم لأصنام لا تضر ولا تنفع في غاية سخافة العقل[(٤)] .

ومن هذا القبيل قوله تعالى:﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٤٢البقرة] .

يقول الزمخشري موضحاً سر هذا القيد مع لبس الحق بالباطل، وكتم الحق: " (وأنتم تعلمون): في حال علمكم أنكم لابسون كاتمون، وهو أقبح لهم؛ لأن الجهل بالقبيح ربما عُذر راكبه "[(٥)]، وقول الزمخشري هذا يوحي بأن النهي موجه للقيد والمقيد جميعاً،

---

(١) نظم الدرر ١/١٥٢، ١٥٣، ١٥٤ .

(٢) التحرير والتنوير ١/٣٣٥ .

(٣) أشار إلى هذا الرأي -لاعلى سبيل التأييد- كل من الشهاب في: حاشيته على البيضاوي ٢/٤٠، ٤١ والألوسي في: روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ١٩١ .

(٤) انظر حاشية الشهاب على البيضاوي ٢/٤٠، ٤١، وروح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ١٩١، وانظر أيضاً من أسرار القيد بالحال في القرآن الكريم ٢٦ .

(٥) الكشاف ١/١٣٣ .

فاللبس المذكور والكتمان منهي عنهما، ويزداد النهي في حالة العلم، ولعل هذا ما يتضح من قول أبي السعود: "أي: حال كونكم عالمين بأنكم لابسون كاتمون ... وليس إيراد الحال لتقييد النهي به كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ﴾ [٤٣ النساء]، بل لزيادة تقبيح فعلهم إذ الجاهل عسى يعذر "(١).

وفي قول الزمخشري وأبي السعود بعذر الجاهل ما يشعر بمفهوم في القيد، وأن بعض النهي توجه إليه، فالجاهل بلبس الحق بالباطل وكتمان الحق ربما يعذر، ولست أظن أن هذا هو المراد؛ لأن لبس الحق بالباطل لا يمكن أن يُفعل إلا عن علم، وكذا ما عطف في سياقه من كتمان الحق فهو مكمل له، وهذا الكلام مسوق لأهل الكتاب: (اليهود) فهم ليسوا جهلة، لكنه حكاية لفعلهم وإظهار لسوء صنيعهم، فالمقصود هو النهي عن الفعل من أصله من غير نظر إلى قيد، ومن ثم فلا مفهوم للقيد هنا في النهي بل هو لغرض خارج عن ذلك، هو زيادة الإنكار واللوم على فعلهم، ولا يعني بحال أنهم يعذرون بجهلهم، ولعل هذا ما يفهم من كلام أبي حيان حيث لم يذكر عذرهم بل قال: " المقصود أن من كان من أهل العلم والاطلاع على ما جاءت به الرسل، لا يصلح له لبس الحق بالباطل ولا كتمانه، وهذه الحال وإن كان ظاهرها أنها قيد في النهي عن اللبس والكتم، فلا تدل بمفهومها على جواز اللبس والكتم حالة الجهل؛ لأن الجاهل بحال الشيء لا يدري كونه حقاً أو باطلاً، وإنما فائدتها: أن الإقدام على الأشياء القبيحة مع العلم بها أفحش من الإقدام عليها مع الجهل بها"(٢)، ويقول الشهاب " ... تقييد النهي المقصود منه زيادة تقبيح حالهم "(٣)، وهذا كلام -كما نرى- عليه مخايل القبول والقوة، فالأمران مذمومان في حالتي العلم والجهل لكنهما مع العلم يكونان أشد ذماً، وأعظم قبحاً .

وعلى القول بحالية (وتكتمون) على قراءة عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه(٤)، فالغرض واحد وهو استقباح اللبس بالباطل مصاحباً لكتمان الحق، وإلا فهو مذموم على

---

(١) - تفسير أبي السعود ٩٦/١ .

(٢) - البحر المحيط ٢٩٢/١ ، وهو قول الألوسي انظر روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٢٤٦ .

(٣) - حاشية الشهاب على البيضاوي ٢٤٠/٤ .

(٤) - انظر البحر المحيط ٢٩٠/١ .

كل حال، ولكن الذي يظهر -وهو أقوى في المعنى- النهي عن كل منهما على حدته، لا جعل أحدهما قيداً للآخر[1].

ومما جاءت فيه الحال مظهرة شناعة الجرم للتنفير منه في أعلى درجاته وصوره قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١٣٠آل عمران]،فالحال هنا (أضعافاً) ليست قيداً في النهي، وإلا كان أكل الربا على غير هذه الحال مسموحاً به، ولكن هناك غرض آخر جاءت من أجله الحال، يلمح إلى بعض ذلك الزمخشري بقوله: " نهى عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه "[2]، وتبعه أبو السعود بقوله: " قوله عز وجل: (أضعافاً مضاعفة) ليس لتقييد النهي به بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة توبيخاً لهم بذلك "[3].

والتوبيخ الذي ذكر الزمخشري وأبو السعود هو بعض مدلولات الحال هنا، وربما يكون أدناها، فالأمر أعظم من التوبيخ ولو أنه قال: التنفير والتشنيع لكان أوفق بالمقام وأقرب؛ وذلك لأن الوارد في الآية التقييد بأعلى حالات أكل الربا كما نص عليه ابن المنير، والسر في هذا -مع أنه خلاف المألوف في التقييد بأدنى الحالات ليكون ما فوقها منهياً عنه من باب أولى- أن النهي إذا خص بالأعلى " فلفائدة التدريب على الانكفاف عن القبح مطلقاً من الانكفاف عن الأقبح "[4]، وإلى هذه الشناعة يشير أبو حيان بقوله: " وانتصب (أضعافاً) [على الحال] فنهوا عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها... وأشار بقوله: (مضاعفة) إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عاماً بعد عام، والربا محرم جميع أنواعه، فهذه الحال لا مفهوم لها، وليست قيداً في النهي؛ إذ مالا يقع أضعافاً مضاعفة مساوٍ في التحريم لما كان أضعافاً مضاعفة "[5] .

---

(1) - انظر البحر المحيط ١/٢٩٠ .

(2) - الكشاف ١/٤١٤ .

(3) - تفسير أبي السعود ٢/٨٤ .

(4) - الانتصاف بحاشية الكشاف ١/٤٦٩ .

(5) - البحر المحيط ٣/٣٤٠ . وانظر روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ٥٥ .

وقد أجاد ابن عاشور في بيان سر القيد هنا، وأوضح أن هذا الربا أنواع، فمنهم من يجعل الدَّين مضاعفاً بمثله إلى الأجل من أول مرة، وإذا زاد الأجل زادت الأضعاف، ومنهم من يرابي بزيادة دون الضعف ثم تزيد بزيادة الآجال، يقول ابن عاشور عن هاتين الصورتين والحال معهما: " فإن كان الأول فالحال واردة لحكاية الواقع فلا تفيد مفهوماً؛ لأن شرط استفادة المفهوم من القيود أن لا يكون القيد الملفوظ به جرى لحكاية الواقع، وإن كان الثاني فالحال واردة لقصد التشنيع وإراءة هذه العاقبة الفاسدة، وإذ قد كان غالب المدينين تستمر حاجتهم آجالاً طويلة، كان الوقوع في هذه العاقبة مطرداً، وحينئذٍ فالحال لا تفيد مفهوماً كذلك؛ إذ ليس القصد منها التقييد بل التشنيع، فلا يقتصر التحريم بهذه الآية على الربا البالغ أضعافاً كثيرة، حتى يقول قائل: إذا كان الربا أقل من ضعف رأس المال فليس بمحرم، فليس هذا الحال هو مصب النهي عن أكل الربا حتى يتوهم متوهم أنه إن كان دون الضعف لم يكن حراماً "[1] .

والقصد إلى التشنيع فيما يخص الربا ظاهر هنا، فالحال دالة عليه والصفة (مضاعفة) دالة عليه كذلك، والتعبير بالأكل مصور لشناعة شرهم ونهمهم في المال المحرم[2]، وهذا ما ينفر المؤمن من مقارفة ذلك الإثم العظيم، يقول الدكتور الخضري: " وكأني بهذا القيد يجسد للمؤمنين صورة الظلم في الربا، وكيف أنه ينتهي إلى ابتلاع أموال المضطرين إلى التعامل به مما يستثير في المؤمنين دوافع الكراهية له وتنفير طباعهم منه، حين يبدو أمامهم في هذه الصورة البشعة المدمرة لحياة الأسر والمجتمع، فتتولد فيهم الرغبة عن هذا النوع من التعامل والبعد عنه وهذا هو السر في أن عبر بالأكل... ، وكان تسليط النفي[3] على القيد مبالغة في هذه الصورة المزرية للمتخم الذي لا يشبع ..."[4].

ومما له علاقة بأكل المال وكان القيد فيه -وهو الحال- هو موضع الشناعة ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟

---

[1] - التحرير والتنوير ٤/٨٦ .
[2] - انظر في هذا روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ٥٥ .
[3] - لعله (النهي) .
[4] - من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣٤ .

أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [٢النساء]، فهذه الآية تتحدث عن الأوصياء وتعاملهم مع أموال اليتامى، وقد جاءت الحال (إلى أموالكم)[1] مقيدة للنهي في قوله جل ذكره: (ولا تأكلوا أموالهم)، ولكن هل التقييد مقصود هنا، فيكون مفهوم الخطاب: أنه إذا لم يكن لكم أموال فكلوا أموالهم واستحلوها؟ كلا ليس هذا مراداً وإن قيل به[2]، فأكل أموال اليتامى منهي عنه على كل حال فما سر هذا القيد إذاً؟.

لقد استوقف هذا القيدُ الزمخشريَ،فأجاب عنه بما يشفي حيث قال: " ... فإن قلت قد حرم عليهم أكل مال اليتيم وحده ومع أموالهم، فلم ورد النهي عن أكله معها؟ قلت: لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال –وهم على ذلك يطمعون فيها– كان القبح أبلغ والذم أحق، ولأنهم كانوا يفعلون كذلك فنعى عليهم فعلهم وسمّع بهم ليكون أزجر لهم "[3]، وينبه ابن المنير على قضية مهمة هنا، وهي أن التعليق جاء هنا بأعلى درجات الأكل وهو كونهم أغنياء، مع أن المتبادر إلى الذهن أن يقيد النهي بأدنى الدرجات وهو الفقر ليكون ما فوقه منهياً عنه من باب أولى، فما سر هذه المخالفة في الآية ؟، يقول ابن المنير: " أبلغ الكلام ما تعددت وجوه إفادته، ولا شك أن النهي عن الأدنى وإن أفاد النهي عن الأعلى إلا أن للنهي عن الأعلى أيضاً فائدة أخرى جليلة لا تؤخذ من النهي عن الأدنى، ...[وهي] أن المستقر في النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغنى عنه أقبح صور الأكل، فخصص بالنهي تشنيعاً على من يقع فيه، حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء دعاه ذلك إلى الإحجام عن أكل ماله مطلقاً، ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم، ولا تكاد هذه الفائدة تحصل لو خصص النهي بأكله مع الفقر..."[4] .

---

(١) انظر التبيان ٣٢٧/١ .

(٢) وممن قال به أبو حيان حيث عد ذلك ((قيداً للاحتراز، فإنه إذا كان الولي فقيراً جاز أن يأكل بالمعروف))، البحر المحيط ٥٠٢/٣، وليس المعنى على ما قال بل إن مراد التشنيع أظهر وأبين لما في (إلى) من دلالة الضم والجمع ، ولوجود ما يدل على غناهم وهو قوله تعالى: (إلى أموالكم) فهم أصحاب أموال وليسوا بفقراء .

(٣) الكشاف ٤٦٩/١ .

(٤) الانتصاف بحاشية الكشاف ٤٦٥/١ .

ولا شك أن ما نقلته هذه الحال لهو صورة منفرة لجشع وشره بعض الأوصياء يقول البقاعي: " ولا تأكلوا أموالهم... مجموعة (إلى أموالكم) شرهاً وحرصاً وحباً في الزيادة من الدنيا"[١]، ويبدو أن التنصيص على هذه الحال فيه إلماح إلى كثرة وقوع هذه الصورة من الأوصياء، ولأنها صورة خفية لا يظهر فيها أكل مال اليتيم للناس حتى يحاسَب عليه الوصي، فكان التقييد بها مع أنها ليست محط النهي لإذهاب تلك العادة من أساسها، وللقضاء على هذه الصورة من أصلها، حتى ينقطع عذر كل معتذر أو متحايل، وحتى يرهب كل حائز لمال اليتيم من الوقوع في هذه الخصلة الخبيثة، يقول ابن عاشور: " وليس قيد (إلى أموالكم) محط النهي، بل النهي واقع على أكل أموالهم مطلقاً ... ولكن لما كان الغالب وجود أموال للأوصياء وأنهم يريدون من أكل أموال اليتامى التكثر، ذكر هذا القيد رعياً للغالب، ولأنه أدخل في النهي لما فيه من التشنيع عليهم..."[٢]، وقد تضمن هذا النهي ألواناً من المبالغات الدالة على عظم الجرم، وليس ذلك بغريب لأن اليتيم ضعيف وكل يطمع في حقه لذا كان الترهيب في جانبه عظيماً دائماً، ومن تلك المبالغات الدالة على شناعة الأمر: التعبير بالأكل " والأكل في العرف العربي نقيصة مزرية تنفر منها طباعهم، حين يكون ملء البطن سبباً في التعدي والظلم ... ثم آية الآيات في هذا الإعجاز حرف الجر (إلى) ... بدلالته على الانتهاء ليوحي بأنهم يدخرون أموالهم إلى ما بعد الانتهاء من أكل أموال اليتامى، ولا تمتد أيديهم إلى أموالهم إلا بعد فراغهم مما استطاعوا نهبه من أموال مَنْ وُلوا أمرهم..."[٣] ، وهذا كلام في غاية الإتقان والتحقيق، وعليه مخايل التسديد والتوفيق، ومن تلك المبالغات وصفه بعد ذلك بقوله: (إنه كان حوباً كبير) يقول أبو السعود: "(كبيراً) مبالغة في بيان عظم ذنب الأكل المذكور، كأنه قيل: من كبار الذنوب العظيمة لا من أفنائها "[٤] .

---

(١) نظم الدرر ١٧٨/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٢١/٤ .

(٣) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣٠ .

(٤) تفسير أبي السعود ١٤١/٢، ومعنى أفنائها: من أطرافها أي صغارها ولممها، جاء في اللسان ((أفناء أي: أخلاط،... أفناء الناس ... قوم نزاع من ههنا وههنا ...، وكذلك أفناء الناس انتشارهم وتشعبهم)) لسان العرب مادة (فني) ١٦٥/١٥ .

و مما هو مكمل للنهي السابق ما ورد في قوله تعالى في شأن أموال اليتامى أيضاً :
﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ [النساء٦] .

قال الزمخشري عن الحال: (إسرافاً وبداراً): " أي مسرفين ومبادرين كبرهم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون في إنفاقها..."(١)، وهو يشير إلى الحالية وقد قدمها وهي الأصح معنى، وأشار إلى المفعول لأجله بعده، يقول أبو حيان: " وانتصب (إسرافاً وبداراً) على أنهما مصدران في موضع الحال، أي مسرفين ومبادرين..."(٢)، والإسراف هو الإفراط في الفعل وهو أيضاً الخطأ في مواضع الإنفاق، وأما البدار فهو ما كان يقوله الوصي لأكل مال محجور : أبادر كبره لكيلا يرشد ويأخذه قاله ابن عباس رضي الله عنهما (٣) ، وعلى هذا فهل يعني التقييد بالحال هنا أن أكل أموال اليتامى مباح في غير هاتين الحالتين؟.

يجيب أبو حيان عن هذا بقوله: " وليس تقييد النهي بأكل أموال اليتامى في هاتين الحالتين مما يبيح الأكل بدونهما، فيكون من باب دليل الخطاب "(٤)، ولم يرتض الدكتور الخضري ما يفهم من القول بكون النهي منصباً على الفعل وحده وتكون الحال معللة، بل الذي يفهم من كلامه قوله بأن النهي موجه إلى القيد والمقيد جميعاً(٥)، وهذا هو الحق، فإن تسليط النهي على الفعل وحده يعني أن المراد هو النهي عن أكل أموال اليتامى في كل حال دون مراعاة للقيد المذكور: وهذا يفوت المغزى من ذلك التقييد، وما فيه من إلماح إلى ما يجوز من الأكل للموصي وهو ما كان محتاجاً إليه بالمعروف، وكذلك القول بتسليط النهي على القيد وحده فإنه يعني أن الأكل جائز في غير هاتين الحالتين، ومعلوم أن هذا

(١) الكشاف ١/٤٧٤ .
(٢) البحر المحيط ٣/٥٢١ .
(٣) انظر المحرر الوجيز ٤/٢٤ .
(٤) البحر المحيط ٣/٥٢٠ .
(٥) انظر من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣١،٣٢ .

مردود؛ لأن ما ذكر لا يستوعب كل حالات النهي، فلم يبق إلا أن يكون النهي موجهاً إلى الأكل والقيد معاً، فالأكل منهي عنه وخاصة مع هذا القيد، فالمراد التنصيص على أشنع الحالات؛ لذا عبر بالنهي عن الأكل بالإسراف والمبادرة، ليدل على أن غيره من باب أولى، يقول الشهاب: " وتخصيص الأكل الذي هو أساس الانتفاع وتكثر الحاجة إليه يدل على النهي عن غيره بالطريق الأولى "[(1)]،ولا شك أن الإنفاق بلا حدود والمسارعة خوف كبر اليتيم بتبذير المال لأجل نفع النفس أو حرمان الأيتام منه لهو من أشنع الأعمال،وربما يكون من أكثرها شيوعاً ؛لذا كان التنصيص عليه دون غيره من أنواع الأكل المحرم، يقول ابن عاشور:"... وأياً ما كان فليس القصد تقييد النهي عن الأكل بذلك،بل المقصود تشويه حالة الأكل،... والمفاعلة هنا قصد منها تمثيل هيئة الأولياء في إسرافهم في أكل أموال محاجيرهم عند مشارفتهم البلوغ،وتوقع الأولياء سرعة إبّانة، بحال من يبدر غيره إلى غاية والآخر يبدر إليها فهما يتبادران، كأن المحجور يسرع إلى البلوغ ليأخذ ماله، والوصي يسرع إلى أكله لكيلا يجد اليتيم ما يأخذ منه "[(2)] ، والقول بأن النهي موجه إلى المقيد والقيد جميعاً يفهم معه أن هناك وجهاً يصح الأكل معه، وهو ما قررته الآية بعد ذلك ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ، فكان التقييد هناك بالحال ضرورياً حتى لا ينهى عن الأكل كله، واقتصر من أحوال الأكل المحرم على ما ذكر لما سبق من شيوع ذلك، أو إرادة تشويهه، يقول الدكتور الخضري: " ... فهو بهذا القيد كشف عن سوء نواياهم، بقدر ما كشف عن سوء تصرفهم وأظهرهم في أقبح حالة تنفر منها الطباع وتشمئز منها النفوس...، وهذا هو السر في العدول عن التعبير (لا تسرفوا فيها)..."[(3)]، ويضاف إلى ذلك أن هاتين الحالتين خفيتان لا يمكن الاطلاع عليهما فيجد فيهما الوصي غير الأمين بغيته في تبديد مال اليتيم، ثم إن هاتين الحالتين هما مما يسوله الشيطان ويزينه للإنسان في صورة كسب المال بطريق سهل، وربما يلبس عليه فيه بأنه لا تبعة عليه في ذلك، فهي تسويلات شيطانية، وأعمال مشبوهة ربما يتساهل فيها

---

(1) حاشية الشهاب على البيضاوي ٣/٢١١ .

(2) التحرير والتنوير ٤/٢٤٤ .

(3) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣٢.

الأوصياء؛لذا جاء التنصيص عليها خصوصاً للحذر والحيطة ، يقول محمد رشيد رضا: "...فهاتان الحالان: الإسراف وبدار ومسابقة كبر اليتيم ببعض التصرف هما من مواضع الضعف التي تعرض للإنسان فنبه الله عليهما، ونهى عنهما، ليراقب الولي ربه بهما إذا عرضتا له"(١) .

وهكذا يتضح لنا كيف جاءت الحال كاشفة لأوضاع الأوصياء في هاتين الآيتين، فأولاهما بينت حال الأوصياء الأغنياء مع الأيتام في أول أعمارهم، وكيف أن بعضهم يرغب في حيازة مال اليتيم إلى ماله، في صورة يظهر فيها الجشع والشره وحب الدنيا، وتغيب فيها ملامح الرحمة والرأفة بهذا الضعيف، والآية الثانية أظهرت حال الأوصياء عند مشارفة الأيتام سن البلوغ، وكيف أن بعضهم يصيبه سعار المال فيحاول مسابقة اليتيم قبل بلوغه ليبدد ماله، وليستفيد منه بقدر ما يستطيع بوجوه من الإنفاق ليست مطلوبة،وبهذا التصوير الشنيع لتلك التعاملات الخاطئة عالجت الآيتان حالات الأوصياء مع محاجيرهم، بحيث لم تترك لهم مدخلاً ولا حيلة، إن كان في القلب وازع ورادع .

ومما جاءت فيه الحال مظهرة شناعة الجرم والخطيئة ما ورد في رد عادة الجاهلية في إرث النساء، كما هو بين في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ ﴾ [١٩النساء] ، فقد جاء في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: " كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية "(٢)، إنها صورة من صور انحراف الجاهلية في التعامل مع المرأة حيث يعدونها من سقط المتاع ويرثونها معه، فجاءت الآية بنفي الحِلّ عن هذه الصورة فقيل: (لا يحل) وهذه الصيغة وإن كان ظاهرها أنها نفي إلا أنها في الحقيقة نهي يقول ابن عاشور: " وصيغة (لا يحل) صيغة نهي صريح؛ لأن الحل هو الإباحة في لسان العرب ولسان الشريعة، فنفيه يرادف معنى التحريم "(٣) .

---

(١) تفسير المنار المجلد الثاني الجزء الرابع ٣١٨ .

(٢) صحيح البخاري (مع الفتح)، كتاب التفسير ، باب {لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً}، ح (٤٥٧٩) ٩٣/٨.

(٣) التحرير والتنوير ٢٨٢/٤ .

وقد جاء ذم هذه الصورة من التعامل وتشنيعها من أوجه عدة، منها: نفي الحل عنها من أول الأمر للإشعار بأن الإسلام جاء بضد ما كان عليه الجاهليون من استحلال ذلك فهو مبطل له، ولعله أدل على التحريم من النهي، لما في الخبر من دلالة الاستقرار حتى كأنه أمر مستقر ثابت لا مجال للمجادلة فيه، يقول الدكتور الخضري: " وأخرج النهي في صورة الخبر مبالغة في الدلالة على امتثال المؤمنين الذين صَدَّرَ الله بندائهم هذا النهي "[(1)] ،

ومنها : تعدية فعل الوراثة إلى النساء " بتزيل النساء مترلة الأموال الموروثة لإفادة تشنيع الحالة التي كانوا عليها في الجاهلية "[(2)] ، ومنها: الحال (كرهاً) من النساء[(3)] فإن المعنى لا يحل لكم أن "تأخذوهن على سبيل الإرث كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أو مكرهات"[(4)]، وليس ذكر الحال هنا لتقييد الحرمة به ، فيكون ما عداه مباحاً ، كلا ؛ لأن أصل هذا الفعل مذموم مرذول، يقول أبو حيان: "والمراد نفي حال الوراثة في حال الطوع والكراهة، لا جوازها في حال الطوع استدلالاً بالآية..."[(5)] .

والذي يظهر من كلام أبي حيان –وهو الحق- أن المراد هو النهي عن حال الوراثة من أصلها، فيكون النهي مسلطاً في الحقيقة على المقيد ويكون توجهه للقيد في الدرجة الثانية ويكون ذكر القيد " لزيادة التوبيخ والتشنيع والمناداة على كمال القبح، حيث يكون التوارث إكراهاً، وسلباً لإرادة الإنسان، وتسليط النهي ظاهراً على الكره، وإن كان إرثهن منهياً عنه تنبيهاً على وجوب احترام مشاعر المرأة ورغباها المشروعة، وتأكيداً لحقها في اختيارها الحياة الكريمة مع من تكون له سكناً وتمنحه صادق ودها "[(6)] .

وهذا هو السر ذاته في الاقتصار على هذه الحال (كرهاً) دون (طوعاً وكرهاً) كما هي في آيات وسياقات أخرى[(7)]، فإن هذا يؤكد أن ذكر الحال والقيد ليس إلا

(1) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣٣ .

(2) التحرير والتنوير ٢٨٣/٤ .

(3) انظر التبيان ٣٤٠/١ .

(4) الكشاف ٤٩٠/١ .

(5) البحر المحيط ٥٦٧/٣ .

(6) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣٣،٣٤ .

(7) كقوله تعالى:{وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً}[٨٣ آل عمران]، ومثلها: ١٩ النساء، و٥٣ التوبة،و١٥ الرعد.

للتشنيع؛ لذا ذكر ما يقوم بهذه الوظيفة وهو (الكره) دون (الطوع)، أو لأن " غالب أحوالهن أن يكن مجبورات على ذلك"[1] ، فالنفي في الآية جاء بالغالب الأكثر .

ومما جاء فيه النهي مرتبطاً بحال مقصود منها التنفير من صفة معينة وذمها ما ورد في قوله تعالى:﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ [٢١ المائدة]،فقوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ " حال من الفاعل في ترتدوا"[2]، "أي: لا ترجعوا عن مقصدكم منقلبين خوفاً من الجبابرة..."[3].

والكلام هنا من موسى لقومه حاثاً لهم على دخول الأرض المقدسة، وناهياً لهم عن الارتداد، ومعلوم أن النهي عن الارتداد لا يقتصر على الحالة المذكورة، وعلى هذا فلا تكون الحال قيداً في النهي فتتوجه إليه دون المقيد، بل الظاهر أن النهي متوجه إلى القيد والمقيد جميعاً، والمقصود النهي عن الارتداد من أصله، وهو مع الحال أشد نهياً، فالمراد من ذكر الحال هنا التشنيع عليهم، فإذا كان النهي عن الارتداد مذكوراً مع ما يقبحه ويشينه وينفر منه وهو قوله: (على أدباركم) فهذا دليل على إرادة النهي عن الارتداد من أصله .

ومنبع التشنيع هنا من الصورة التي يصورها حرف الجر هنا وهو (على) فهو يصور لنا كأن أدبارهم أصبحت أرضاً يفرون عليها، وهذا في غاية المبالغة في بيان الجبن والخور، يقول ابن عاشور: "... عدى بـ(على) الدالة على الاستعلاء، أي استعلاء طريق السير، نُزّلت الأدبار التي يكون السير في جهتها مترلة الطريق الذي يسار عليه"[4]، ومما يؤكد هذا التشنيع على من يفعل هذا الفعل ما جاء عليه النظم الكريم دون أن يقال: ولا تهربوا أو تنهزموا، فهذا التقدير ليس فيه من الشناعة كما في صورة التركيب في الآية، لخلوه من القيد المذكور المصور لتلك الحالة الشنيعة .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [٧٧ المائدة] ،

---

(١) البحر المحيط ٥٦٧/٣ .

(٢) التبيان ٤٣٠/١ .

(٣) روح المعاني المجلد الثالث الجزء السادس ١٠٦ .

(٤) التحرير والتنوير ١٦٢/٦ .

فقوله جل ذكره: (غير الحق) محتمل الحالية، وصاحب الحال إما الضمير الفاعل في (تغلو) - وهو الأظهر- والمعنى عليه: لا تغلوا مجاوزين الحق، أو هو حال من (دينكم) أي: لا تغلوا فيه وهو باطل بل اغلوا فيه وهو حق[1]، وعلى القول الثاني في الصاحب يكون (الحال) قيداً في النهي كما هو ظاهر من كلام السمين، وجعله السمين مقتضى كلام الزمخشري الذي قال: "الغلو في الدين غلوّان: غلو حق وهو أن يفحص عن حقائقه، ويفتش عن أباعد معانيه، ...وغلو باطل: وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة..."[2]، وقد جعل الزمخشري أهل طائفته (المعتزلة) من النوع الأول ومن سواهم من النوع الثاني، وعلى القول بكون الحال من فاعل الغلو، فما فائدة هذا القيد، مع أنه معلوم أن الغلو منهي عنه على كل حال، وما ذكره الزمخشري ليس بقوي؟.

نقول: يؤتى بالقيد أحياناً في سياق النهي للنهي عن الفعل من أصله، فلا يكون الغرض هو التقييد بل التشنيع، فكأنه قيل: أنتم منهيون عن الغلو في الدين بكل صوره، ثم أُلحقَت الحال (غير الحق) إمعاناً في النهي والتنفير، ومبالغة في تشنيع هذا الفعل، حتى كأنه قيل: الغلو في الدين منهي عنه على كل حال، فكيف وهو لا يكون إلا على هذه الحالة (غير الحق).

ويرى ابن عاشور أن (غير الحق) قيد في النهي وهو بهذا يوافق الزمخشري، لكن ما ذكره من التعليل شيء يمكن الاقتناع به بخلاف الزمخشري، يقول ابن عاشور: "عدل عن أن يقال: باطلاً إلى (غير الحق) لما في وصف غير الحق من تشنيع الموصوف، ... وأريد أنه مخالف للصواب احترازاً عن الغلو الذي لا ضير فيه مثل المبالغة في الثناء على العمل الصالح من غير تجاوز لما يقتضيه الشرع، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ [١٧١ النساء][3].

وعلى رغم ما في كلام الطاهر من الوجاهة إلا أن ما قدمناه أليق بمقام الفصاحة والبلاغة ثم إن الحق المذكور في آية النساء لا يحتمل قطعاً أن يكون استثناءً من الغلو حتى

---

[1] انظر كل هذا في الدر المصون ٤/٣٨٠.

[2] الكشاف ١/٦٦٦.

[3] التحرير والتنوير ٦/٢٩٠.

نقول إن من الغلو ما يكون حقاً ، بل هو أقرب إلى أن يكون الكلام استئنافاً جديداً، والحق المذكور المعني به القول لا الغلو، وأما ما ذكره من الغلو الذي لا ضير فيه فليس بمسلم ؛ لأنه لم يجاوز الحد وما لم يجاوز المشروع فليس بغلو أصلاً .

ويشبه ما سبق في التنفير من الشيء بذكر حال من أحواله في سياق النهي عنه ما ورد في قوله تعالى عن ناقة صالح عليه السلام: ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٧٣ الأعراف]،فقوله تعالى:(بسوء) الباء فيه إما للتعدية أو للمصاحبة فيكون في موضع الحال[١]، وعلى القول بالحالية فما فائدة هذا القيد، وقد فُهم من النهي قبله؟ .

يقول الشهاب مبيناً طبيعة المس: " ولا يلزم من المجاورة والمس التأثير، ألا ترى أنه لا يلزم من مس السكين الجرح والقطع، ويلزم من عدم المس عدمه بطريق الأولى، فلا وجه لما قيل إن عليه منعاً ظاهراً، فإن المنهي عنه ليس مطلق المس بل هو المقيد بمقارنة السوء كالنهي في قوله: ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ [٤٣ النساء] إلا أن يجعل (بسوء)حالاً من الفاعل،والمعنى:ولا تمسوها مع قصد السوء بها فضلاً عن الإصابة "[٢] ، والملحوظ أن الشهاب فرق في توجه النهي على الإعرابين، فجعله أولاً متوجهاً إلى القيد، فالنهي هو عن المس المقيد بالسوء وما عداه فلا نهي، وأما على الحالية فالنـــــهي -كما يظهر- متوجه إلى القيد والمقيد جميعاً، وجاء تقييد نهي الفعل بأقل الحالات ضرراً تنبيهاً على أن ما فوقه أعظم وأشد، وهذا ما يفهم من قوله (فضلاً عن الإصابة) .

وعلى هذا فالقول بالحالية أولى لما فيه من تقييد الفعل بأدنى الحالات إعلاماً بأن ما فوقها أولى بالنهي والمنع، وهذا أبلغ من توجه النهي مباشرة بدون هذا القيد، ولهذا جزم ابن عاشور بالحالية فقال:"والباء في قوله: (بسوء) للملابسة وهي في موضع الحال من فاعل

---

[١] انظر الدر المصون ٥/٣٦٣ .

[٢] حاشية الشهاب على البيضاوي ٤/٣١٠، وأورد الألوسي كلام الشهاب كاملاً لكنه جعل {ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى} مع المعنى الثاني، انظر روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ١٦٣، ولعل ما ذكره الشهاب أصح في المعنى بغض النظر عن الإعراب؛ لأنه لا يصلح أن يقال في آية الصلاة: لا تقربوا الصلاة مع السكر فضلاً عن غيره، وهذا هو المعنى الذي يوافق ما ذكره عن آية الاستشهاد، فلعله سوء نقل فقط .

تمسوها أي بقصد سوء"[١]، وكل ما في الآية يدل على شدة النهي ومن ذلك التعبير بالمس، وتسليط النهي عليه ثم ذكر القيد الدال على مجرد مصاحبة السوء لذلك المس، يقول ابن عاشور: " وأنيط النهي بالمس بالسوء ؛ لأن المس يصدق على أقل اتصال شيء بالجسم فكل ما ينالُها مما يراد منه السوء فهو منهي عنه..."[٢] .

ومما جاء تشنيعه من الصفات مشية الكبر كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [٣٧ الإسراء] .

يقول أبو حيان:" وانتصب (مرحاً) على الحال أي:مَرِحاً، ... والمرح هو السرور والاغتباط بالراحة والفرح، وكأنه ضُمّن معنى الاختيال؛ لأن غلبة السرور والفرح يصحبها التكبر والاختيال...وقرأت فرقة...(مَرِحا) بكسر الراء وهو حال أي: لا تمش متكبراً مختالاً"[٣] .

ولا شك أن النهي هنا ليس عن المشي في الأرض فذلك مما لا يُنهى عنه، ولكن عن القيد المذكور وهو التكبر والخيلاء، وإنما لم يكن النظم :ولا تمرح في الأرض؟ لما في النظم الكريم من المبالغة في النهي عن هذه الحالة، حيث وقع النهي في النظم الكريم أول ما وقع على المشي في الأرض وهذا تنبيه إلى جرم عظيم؛ إذ كيف ينهى عن المشي فيها وعليها وليس للناس غناء عن ذلك، فلما جاء القيد عُلم أنه المراد من النهي، ولو قيل: لا تمرح لم يكن فيه ما ذكرنا، ثم إن فيما عليه النظم الكريم إظهاراً أن هذه الحالة هي المذمومة من المشي على الأرض وما عداها فمباح، ولا شك أن تخصيصها بذلك وجعلها قيداً في ذلك المباح الفسيح يدل على أنها مبغوضة مشنوءة منه سبحانه.

وللألوسي كلام يحسن ذكره هنا يقول فيه على قراءة الكسر (مَرِحاً): " قيل وهذه القراءة باعتبار الحكم أبلغ من قراءة المصدر المفيد للمبالغة بجعله عين المرح نظير ما قيل في: زيد عدل؛ لأن الوصف واقع في حيز النهي الذي في معنى النفي، ونفي أصل

---

[١] - التحرير والتنوير ٢١٩/٨ .

[٢] التحرير والتنوير ٢١٩/٨ . وللاستفادة ينظر: المس في القرآن الكريم وأسراره البلاغية ٩٨ .

[٣] البحر المحيط ٤٩/٧ ، ٥٠ .

الاتصاف أبلغ من نفي زيادته ومبالغته؛ لأنه ربما يشعر ببقاء أصله في الجملة، ... وأُورِد على ما قيل أن فيه تفضيلَ القراءةِ الشاذة على المتواترة وهو كما ترى..."[١] .

وما قاله الألوسي متوجه لو كان السياق نفياً، وحتى مع النهي له حظ من النظر إذا نظرنا إلى أن المصدر يدل على المبالغة، وهذا المصدر هو القيد فكأن المنهي عنه هو المبالغة في المرح ولا يمنع أن يكون ما دون ذلك غير منهي عنه، بينما (مَرِحا) وصف مشتق ويكون تقييد النهي به عاماً إذْ لا مبالغة فيه فيكون المنهي عنه هو كلَ مدلوله، هذا هو مفهوم كلام الألوسي، لكن يَرِد عليه أن قراءة الوصف شاذة، وأن ما يترتب على مفهوم المبالغة في المصدر لا وجود له؛ لأن النهي متوجه إلى المصدر بكليته كما سبق أن بينا،وقد أوضح الألوسي هذا بقوله:"ولذا فضل بعضهم القراءة بالمصدر كالأخفش،وجعل المبالغة المستفادة منه،راجعة إلى النهي ومنع كون ذلك بعيداً..."[٢] ، وعلى هذا فالمبالغة التي في المصدر زادت النهي مبالغة، فصار النهي عن التكبر على أبلغ وجه، ويدل لهذا التقييد بـــ(الأرض)، فهو ليس "للاحتراز عن المشي في الهواء أو على الماء ؛ لأن هذا خارق ولا يحترز عنه، بل للتذكير بالمبدأ والمعاد وهو أردع عن المشي مشية الفاخر المتكبر، وأدعى لقبول الموعظة، كأنه قيل: لا تمش فيما هو عنصرك الغالب عليك الذي خُلقت منه وإليه تعود، والذي قد ضم من أمثالك كثيراً: مشية الفاخر المتكبر[٣]، وقيل للتنصيص على أن النهي عن المشي مرحاً في سائر البقع والأماكن لا يختص به أرض دون أرض، والأول ألطف "[٤]

ومثل هذا تماماً آية [١٨ لقمان] : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ، يقول ابن عاشور: "قوله: (ولا تمش في الأرض مرحاً) تمثيل كنائي عن النهي عن التكبر

---

(١) روح المعاني المجلد الثامن الجزء الخامس عشر ٧٥ .

(٢) روح المعاني المجلد الثامن الجزء الخامس عشر ٧٥ .

(٣) لعله قد فهم هذا المعنى من التعبير بـــ (في) دون (على) كما هو الحال مع المؤمنين { يمشون على الأرض هوناً}[٦٣ الفرقان]؛ وذلك لأن (في) تشعر بأن الأرض ظرف لهذا المتكبر وهي محيطة به لا مفر له منها، فلا وجه للاستعلاء، وفي هذا تذكير له بحقارته وصغره فعلام الاختيال وأنت هذا شأنك؟ أما مع المؤمنين فلبيان عز الإيمان، وأن مشيتهم هي المشية التي يحبها الله جيء بـــ (على) إظهاراً لجانب الرفعة معهم.

(٤) روح المعاني المجلد الثاني الجزء الخامس عشر ٧٥ .

والتفاخر، لا عن خصوص المشي في حـــال المرح فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره... "[1] .

ومما يظهر فيه التشنيع بصورة أظهر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ﴾ [٣٣ النور]، فإن جملة (إن أردن تحصناً) حالية ؛ لأن المعنى ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء وهن مريدات التحصن، ووقوع جملة الشرط حالاً جائز على الصحيح كما قرره أبو حيان[2]، وعلى هذا الوجه وهو ظاهر الصلاحية، فماذا يكون الغرض من هذا القيد؟ وهل يكون النهي عن الإكراه على البغاء مرتبطاً بهذا القيد (إن أردن تحصنا) وجوداً وعدماً؟.

إجابة على ذلك نقول: تعددت الأقوال في سبب الترول، ومن أظهرها ما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه "أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة كان يكرههما على الزنا، فشكيا ذلك إلى رسول فترلت "[3].

وما يهمنا هنا هو دلالة هذا التركيب وما فيه من القيود، وقد جمع أبو حيان أقوالاً كثيرة في هذا منها: أن القيد هو محط النهي " والنهي عن الإكراه على الزنا مشروط بإرادة التعفف منهن؛ لأنه لا يمكن الإكراه إلا مع إرادة التحصن، أما إذا كانت مريدة للزنا فإنه لا يتصور الإكراه... وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من خبر الشاذ النادر...،وقال بعضهم: هذا الشرط ملغى، وقال الكرماني:هذا شرط في الظاهر، وليس بشـــرط كقوله : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [٣٣ النور]، مع أنه وإن كان لم يعلم خيراً صحت الكتابة، وقال ابن عيسى: جاء بصيغة الشرط لتفحيش الإكراه، وقال لأنها نزلت على سبب فوقع النهي على تلك الصفة..."[4] .

وإنما ذكرت كلام أبي حيان لأنه جامع، وإلا فالقول الأول هو مقتضى كلام الزمخشري، الذي يرى أن الإكراه لا يتأتى إلا مع مريدة التحصن أما المواتية الطائعة فلا يسمى آمرها مُكْرِهاً ولا أمره إكراهاً[5] فالقيد على هذا مسوق لتعليل ذكر الإكراه، ورد

---

(1) التحرير والتنوير ٢١/١٦٧،١٦٦ .

(2) انظر البحر المحيط ٥/٢١٦ .

(3) صحيح مسلم، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى:{ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء} ، ح(٣٠٢٩)، ٤/١٨٣٣.

(4) البحر المحيط ٨/٤١،٤٠ .

(5) انظر الكشاف ٣/٢٣٩ .

ابن المنير هذا القول بأنه لم يجب بما يشفي، وعنده " أن فائدة ذلك - والله أعلم- أن يبشع عند المخاطب الوقوع فيه، لكي يتيقظ أنه كان ينبغي له أن يأنف من هذه الرذيلة وإن لم يكن زاجر شرعي، ووجه التشنيع... أن مضمون الآية النداء عليه بأن أَمَتَه خير منه؛ لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة، وهو يأبى إلا إكراهها عليها، ولو أبرز مكنون هذا المعنى لم يقع الزاجر من النفس موقعه، وعسى هذه الآية تأخذ بالنفوس الدنية، فكيف بالنفوس العربية "[1] .

وهذا كلام حسن وملحظ جيد، ويذكر الرازي أن ظاهر الآية يقتضي جواز الإكراه على الزنا عند عدم إرادة التحصن أي الرضا، لكن هذا ممتنع لما سبق عند الزمخشري من أنه لا إكراه مع الرضا، وذكر أيضاً أن الشرط ربما يكون وارداً على سبيل الغالب وليس له مفهوم خطاب حتى يلزم منه المحذور المذكور من الظاهر[2] .

وليس الوجه – هو ما ذكره الزمخشري ولا الرازي[3] - بل هو ما أشار إليه ابن المنير، وأما قول الزمخشري ومن تبعه إن الإكراه لا يكون إلا مع عدم الرضا بالزنا، فهذا لا يعني أن ذكر الشرط هو لتعليله فقط، بل هو لفائدة أكبر وهي التشنيع، حتى كأنه قيل إن البغاء قبيح مستقذر مع رضاهن فكيف وهن طالبات للتعفف، وإلى هذا المعنى أشار البقاعي بقوله عن القيد: " في ذلك زيادة تقبيح للإكراه على هذا الفعل، حيث كانت النساء مطلقاً يتعففن عنه مع أنهن مجبولات على حبه، فكيف إذا أُذنَ لهن فيه، فكيف إذا أُلجِئْن إليه، وأشار بصيغة (التفعل) وذكر الإرادة إلى أن ذلك لا يكون إلا عن عفة بالغة، وزاد في تصوير التقبيح بذكر التزام هذا العار في قوله (لتبتغوا...) "[4]، وهذا الترقي الذي أشار إليه البقاعي هو مدلول القيد المذكور، وقد نص أبو السعود على الهدف من هذا القيد بمثل ما ذُكِر، وبين أن القيد ليس لتخصيص النهي حيث قال: " وقوله تعالى: (إن أردن تحصناً) ليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا، وإخراج ما عداها

---

(1) الانتصاف بحاشية الكشاف ٢٣٩/٣ .

(2) انظر مفاتيح الغيب ١٩٢/٢٣ .

(3) فهم ابن عاشور من كلام الزمخشري والرازي أن الآية نزلت توطئة لتحريم البغاء ،وأنه لم يحرم بعد كحال الخمر تماماً، انظر: التحرير والتنوير ٢٢٦/١٨ ؛ لذا قالوا ما قالوا في الآية، مع أن هناك إجماعاً على تحريم الإكراه على الزنا بأي حال كان، حكى ذلك الألوسي، انظر روح المعاني في المجلد التاسع الجزء الثامن عشر ١٥٧، وابن عاشور يحكي الإجماع أيضاً، لكن الإشكال عنده هل التحريم بهذه الآية أم بغيرها، ومع هذا فهو يشارك غيره في دلالة هذا القيد على التشنيع، انظر التحرير والتنوير ٢٢٦/١٨ .

(4) نظم الدرر ٢٦٩/١٣ .

من حُكمه، ... بل للمحافظة على عادهم المستمرة حيث كانوا يكرهوهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه...وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه من القبائح ما لا يخفى؛ فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من إمائه فضلاً عن أمرهن به أو إكراههن عليه، لا سيما عند إرادهن التعفف فتأمل ودع عنك ما قيل من أن ذلك لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن..."[١].

٣- ما كان في سياق التشريع وبيان الحكم .

ومن هذا ما جاء في قوله:﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ ﴾ [١٨٧البقرة]، فالنهي هنا منصرف إلى القيد وهو الجملة الحالية :﴿ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ ، وهو الغالب في لسان العرب، يقول أبو حيان:"والجملة في موضع الحال أي لا تباشروهن في هذه الحال..."[٢]، فالقيد هنا هو مَقْصد النهي، إذ مباشرة النساء دون هذا القيد ليست منهياً عنها، فجاءت الحال لبيان حدود هذا النهي وقيدته بهذا القيد، وقد استدل بعضهم بهذا القيد على أن من خرج من المسجد فباشر خارجاً جاز ؛ "لأنه حصر المنع من المباشرة حال كونه فيه، وأجيب بأن المعنى لا تباشروهن حال ما يقال لكم إنكم عاكفون في المساجد، ومن خرج من المسجد لقضاء الحاجة فاعتكافه باق"[٣] .

ويبدو أن هذا الفهم جاء من القيد المصاحب للحال وهو (في المساجد)، وقد نبه أبو حيان إلى أن " النهي عن الشيء مقيداً بحال لها متعلق لا يدل على أن تلك الحال إذا وقعت من المنهيين يكون ذلك المتعلق شرطاً في وقوعها..."[٤]، ويستدل أبو حيان بهذا على أن ذكر هذا القيد في الحال (في المساجد) لا يدل على اشتراط المسجد في الاعتكاف، بل مجيئه على هذا لأنه الغالب .

وهذا القول من أبي حيان يرد القول السابق من جواز المباشرة للمعتكف خارج المسجد، والصحيح أن المسجد شرط في الاعتكاف، قال الشهاب: " وإلا لما كان للتقييد

---

(١) تفسير أبي السعود ١٧٣/٦ ، وانظر روح المعاني المجلد التاسع الجزء الثامن عشر ١٥٧ .

(٢) البحر المحيط ٢٢٠/٢ .

(٣) روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٦٩ .

(٤) البحر المحيط ٢٢١/٢ .

فائدة"[1] أي بقوله (في المساجد)، وحكى ابن عاشور الإجماع في هذا بقوله: " وأجمعوا على أنه لا يكون إلا في مسجد لهاته الآية"[2]، فعلمنا من هذا أن قيد القيد له أثر في القيد الأول وبالتالي في النهي المسلط عليه، فلو لم يكن الاعتكاف في المسجد لكان باطلاً، ومن ثم فلا نهي عن المباشرة لانتقاض القيد بانتقاض متعلقة ، ويفهم من هذا القيد (وأنتم عاكفون..) أيضاً " أن الوطء يفسد الاعتكاف؛ لأن النهي للتحريم وهو في العبادات يوجب الفساد..."[3]، وهكذا يظهر لنا كيف أسهم هذا القيد في تحديد مدى النهي بصيغة معينة وحالة خاصة .

ومما جاء في بيان بعض أحكام خطبة النساء قوله تعالى:﴿ وَلَاْ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [٢٣٥ البقرة]، فعلى قول الجمهور أن السر هنا على بابه وليس هو الزنا ولا النكاح ، يقول أبو حيان : " فعلى هذا القول... ينتصب (سراً) على الحال أي: مستسرين"[4] والتقدير للمفعول لا تواعدوهن النكاح سراً ، والسؤال الآن هل الحال هنا لتقييد النهي بها، أم لا؟ .

الذي يظهر من كلام أبي حيان ــ في رده الأقوال حتى قول الجمهور- أنه لا مفهوم للقيد هنا " لأنهم نهوا عن المواعدة سراً وجهراً، فلا فائدة في تقييد المواعدة بالسر"[5]، ويقول ابن عاشور: " والسر أصله ما قابل الجهر... والظاهر أن المراد به في هاته الآية حقيقته[6]... أي لا تكتموا المواعدة، وهذا مبالغة في تجنب مواعدة صريح الخطبة في العدة"[7] .

وبهذا نعلم أن القيد وإن لم يكن هو مقصد النهي إلا أنه لا يخلو من فائدة وإلا كان ذكره عبثاً، وإذا كانت المواعدة ممنوعة سراً وجهراً، كان ذكر السر خصوصاً لأنها

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي ٤٧٥/١ .

(٢) التحرير والتنوير ١٨٥/٢ ..

(٣) روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ٦٩ .

(٤) البحر المحيط ٥٢٢/٢ .

(٥) البحر المحيط ٥٢٣/٢ .

(٦) وقد أعربه صفة لمفعول مطلق أي: وعداً صريحاً سراً .

(٧) التحرير والتنوير ٤٥٣/٢ .

الحالة الأشنع في النهي هنا فقد يصاحبها ما لا يصاحب الجهر، ويرى ابن عاشور ملمحاً آخر قريباً من هذا فيقول: " وإذا كان النهي عن المواعدة سراً، عُلم النهي عن المواعدة جهراً بالأولى... "[1] .

وهذا كلام حري بالقبول، وبه يتضح الاستثناء بعد ذلك (إلا أن تقولوا قولاً معروفاً) فهو استثناء متصل، ويكون المعنى " لا تساروهن في أمر النكاح في حالة من الحالات إلا أن تقولوا قولاً معروفاً، أي في هذه الحالة يجوز المسارة وما عداها تحرم المسارة في ذلك"[2] .

ومما جاء في بيان المحرمات من النساء قوله تعالى:﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [٢٢ النساء]، فقوله جل ذكره: (من النساء) في موضع نصب على الحال إما من مفعول نكح المحذوف وهو العائد على (ما)[3] أو من (ما) ذاتها[4]، وليس ذكرها هنا لتقييد النهي بها، بمعنى أنه يجوز نكاح ما نكح الآباء إذا لم يكن من النساء؛ لأن هذا لا يتصور أصلاً وإذا كان كذلك فما فائدة هذا القيد؟، الأكثر على أن قوله تعالى:(من النساء) بيان لـــ(ما)، وهذا ظاهر لكن ما فائدته إذ معلوم أن المنكوح سيكون من النساء ؟ تحدث الألوسي عن سر هذا القيد بقوله: "ونكتته مع عدم الاحتياج إليه؛ إذ المنكوحات لا يكن إلا نساءَ التعميمُ، كأنه قال: أيَّ امرأة كانت، واحتمال كونه رفع توهم التغليب في (آبائكم) وجعله أهم من الأمهات حتى يفيد أنه نهي للبنت عن نكاح منكوح أمها لا يخلو عن خفاء "[5]، ونكتة ذكر (من النساء) – في نظري– هي قصد التنصيص على موضع البشاعة في هذا النكاح المذموم المسمى عندهم (نكاح المقت)[6] ، وهي وإن كانت معلومة إلا أن في ذكرها ما يزيد في تشنيع هذه الشناعة حتى يكون التنفير منه على أعلى مستوى.

ومما يدل لهذا أن السياق كله سياق تنفير ونهي وزجر، فجاء القيد مسايراً لهذا الاتجاه، وكذلك القيد الثاني: (إلا ما قد سلف) فهو ليس للإباحة، وإنما هو من ذكر ما

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٥٤ .

(٢) الاستغناء في أحكام الاستثناء ٦٣٠ .

(٣) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ١/٧١٣ .

(٤) انظر روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ٢٤٨ .

(٥) روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ٢٤٨ .

(٦) هذا اسمه في الجاهلية ويسمى الولد منه المقتي انظر الكشاف ١/٤٩٣ .

يستحيل في صورة الممكن مبالغة في رده، يقول الزمخشري: " والغرض المبالغة في تحريمه وسد الطريق إلى إباحته، كما يعلق بالمحال في التأبيد نحو قولهم: حتى يَبْيَضّ القار، وحتى يلج الجمل في سم الخياط "[1] .

وقد نص ابن القيم -رحمه الله- على نكتة لطيفة هنا في الاستثناء وهي أن النكاح المذكور بعد النهي عنه لو حصل فهو سفاح لا يثبت به نسب ولا ولد، أما ما قد سلف فيثبت به الولد والنسب، قال ــرحمه اللهــ " فأفاد الاستثناء فائدة عظيمة وهي أن ولد مَنْ نَكَحَ ما نكح أبوه قبل التحريم ثابت النسب وليس ولد زنا "[2].

فعلمنا مما سبق أن النهي منصب على الفعل دون القيد، وقد كان ذكر القيد لإظهار موضع الشناعة تذكيراً بها للتنفير منها، وتغليظ للنهي عنها .

وما هو في جانب التشريع ما جاء في حكم الصلاة في قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ﴾ [٤٣ النساء]، فقوله جل ذكره: (وأنتم سكارى) "حال من ضمير الفاعل في (تقربوا")[3]، وهو قيد في النهي على الظاهر، فليس المراد النهي عن قربان الصلاة عموماً، بل بذلك القيد خصوصاً، يقول أبو حيان:"وظاهر الآية يدل على النهي عن قربان الصلاة في حالة السكر، وقيل المراد النهي عن السكر؛ لأن الصلاة قد فرضت عليهم وأوقات السكر ليست محفوظة عندهم ولا بمقدرة، لأن السكر قد يقع تارة بالقليل وتارة بالكثير، وإذا لم يتحرر وقت ذلك عندهم تركوا الشراب احتياطاً لأداء ما فرض عليهم من الصلوات"[4] .

والذي يظهر أن المراد هو النهي عن السكر من أصله وأن مُتَوَجَّه النهي هو القيد ذاته، ويكون العدول عن أن يقال: لا تسكروا عند الصلاة للمبالغة في النهي عن السكر، خاصة مع تسليط النهي على قربان الصلاة، وقد ألمح إلى بعض هذا أبو حيان بقوله: " وبالغ تعالى في النهي عن أن يصلي المؤمن وهو سكران بقوله: (ولا تقربوا الصلاة)؛ لأن

---

(١) الكشاف ٤٩٣/١ .

(٢) بدائع الفوائد ٦٨،٦٩/٣.

(٣) التبيان ٣٦٠/١ .

(٤) البحر المحيط ٦٤٩/٣ .

وقد أحسن الشيخ زادة الموازنة بين النهي هنا والنهي في آية ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [١٣٢ البقرة]،حيث قال:" هو خطاب للذين آمنوا ونهي لهم عن الشراب المؤدي إلى السكر المخل بالفهم حال وجوب الصلاة عليهم، ونظيره قوله سبحانه وتعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) فهو ليس نهياً عن الموت وإنما هو أمر بالمداومة على الإسلام حتى يأتيهم الموت وهم في تلك الحال..."[١]

ومعلوم أن الصلاة عبادة موقوتة لا ينهى عنها،وهذا ما يصرف النهي عن المـقيَّد البتة، ويجعله منصباً بكليته على القيد،يقول أبو السعود:"... وأياً ما كان فليس مرجع النهي هو المقيَّد مع بقاء القيد مرخصاً بحاله، بل إنما المراد هو القيد مع بقاء المقيَّد على حاله ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [١٠٣ النساء]، كأنه قيل: يا أيها الذين آمنوا لا تسكروا في أوقات الصلاة..."[٢]

وقد أجاد الدكتور الخضري في إيضاح العلاقة بين النهي عن قربان الصلاة ظاهراً والنهي عن السكر أصالةً فقال: " والمراد توجيه النهي أصالة إلى السكر عند الصلاة؛ إلا أن العدول إلى ما عليه النظم فيه مبالغة في اجتناب السكر والتنفير منه وكفى أن يقال للمؤمن: لا تقرب الصلاة، وهو يعلم مدى النهي عن تأخيرها عن مواقيتها، وهو لا يدري متى يسترد عقله ليدرك الصلاة أو لا يدركها، ثم إن النهي لم يكن عن الصلاة، وإنما عن القرب منها...وكل ذلك يضيع لو قيل: لا تسكروا عند الصلاة... وهاهنا نهي بطريق أبلغ عن السكر؛ لأن الصلاة به ليست بصلاة... [وقد] تفوق النظم القرآني بأن سلط النهي على القرب من الصلاة، لا على الصلاة زيادة في المبالغة في التنفير من السكر ليكون ذلك تمهيداً قوياً لتحريمها أبداً"[٣] .

والنهي عن السكر هو ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم من هذه الآية، لذا كانوا لا يشربون الخمر بعد نزولها بين الصلوات، فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصحون إلا وقد ذهب أثرها[٤]،ومن هذا نعلم أنهم فهموا أن النهي ليس عن الصلاة بل هو عن السكر في أوقاتها .

---

(١) حاشية زادة على البيضاوي ٣٧/٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ١٧٩/٢ .

(٣) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣٦،٣٧ .

(٤) انظر البحر المحيط ٦٤٧/٣ .

المبحث الرابع: التقييد بالحال في الاستفهام.

للاستفهام -كما هو معلوم- معان يخرج إليها مخالفاً الأصل فيه، الذي هو: "طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل"[1]،وقد جاءت الحال في سياق الاستفهام في معانيه المجازية المتعددة التي أبرزها: الاستفهام الإنكاري، والاستفهام التعجبي، والاستفهام التوبيخي، والاستفهام التقريري.

وهذه المعاني تتداخل كثيراً في الشواهد القرآنية، مما يجعل تمييزها عن بعضها صعباً، وقد جعلت تقسيم الشواهد مبنياً على تلك الأنواع، لا على سبيل التمييز الذي لا يقبل التداخل، بل على سبيل التصنيف والتقريب فحسب:

١- ما كان في سياق الإنكار والتعجب.
٢- ما كان في سياق التوبيخ والتقريع والتشنيع.
٣- ما كان في سياق الاستبعاد.
٤- ما كان في سياق التقرير.

١- ما كان في سياق الإنكار والتعجب .

وعليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [١٣٩البقرة]، يقول أبوحيان في المراد من هذه الآية: "والظاهر إنكار المجادلة في الله حيث زعمت النصارى أن الله هو المسيح، وحيث زعم بعضهم أن الله ثالث ثلاثة، وحيث زعمت اليهود أن الله له ولد، وزعموا أنه شيخ أبيض الرأس واللحية...فأُنكر عليهم كيف يدّعون ذلك والرب واحد لهم، فيجب أن يكون الاعتقاد فيه واحداً"[2]،وجعل أبو السعود الهمزة للإنكار فقال:"والهمزة للإنكار والتوبيخ...(وَهُوَ

---

(١) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١/١٨١ .

(٢) البحر المحيط ١/٦٥٨ .

رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ)جملة حالية،وكذلك ما عطف عليها أي:أتجادلوننا والحال أنه لا وجه للمجادلة أصلاً لأنه تعالى ربنا:أي مالك أمرنا وأمركم")[1].

وظاهر من هذا أن المراد هو إنكار المحاجة أصلاً كما هو ظاهر من كلام أبي السعود، ولا يعني ذكر القيد، أن المحاجة تصح في غير هذه الحال ؛ لأن هذه الحال لازمة لا انفكاك عنها، فعلمنا من هذا أن المقصود هو بيان وجه الإنكار وإلقام الخصم الحجر، حتى يكون أعظم في رد مقالتهم، ودحر ادعائهم من أنهم أصحاب الديانة الصحيحة وأنهم الشعب المختار الذي لا يكون النبي إلا منه، وغير ذلك مما سبقت الإشارة إليه ونظراً لقبح ادعائهم وعجيب أمرهم، جاء هذا الإنكار حاملاً معنى التعجب، وجاءت القيود لمساندة هذا الإنكار والترقي في دفعه ورفعه، يقول ابن عاشور: "...كان لقوله: ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ موقع في تأييد الإنكار...، أي: كيف تحاجوننا في هاته الحالة المعروفة التي لا تقبل الشك، وبهذه الجملة حصل بيان لموضوع المحاجة، وكذلك جملة:﴿ وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ وهي عطف على الحال ارتقاءً في إبطال مجادلتهم... وجملة: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾، عطف آخر على جملة الحال وهي ارتقاء ثالث..."[2] .

ومن هذا النحو إنكار شعيب على قومه في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [٩٢هود] ، فهو ينكر عليهم مراعاتهم له من جهة نسبه وقومه، لا من أجل خالقه جل جلاله، ولا شك أن المراعاة من أجل الخالق أعظم وأجل[3]، وقد جاءت الحال: (وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ...)[4] مظهرة لشناعة فعلهم حيث جمعوا بين ما لا سبيل إلى جمعه، مع ترجيح جانب الرهط وهم الأذلاء، على ما يخص الخالق سبحانه وهو العظيم القهار، يقول أبو السعود: "وإنما أنكر عليهم أعزِّيَّة رهطه منه تعالى مع أن ما أثبتوه إنما هو مطلق عزة رهطه، لا أعزِّيَّتهم منه عز

---

(١) تفسير أبي السعود ١٦٩/١، وانظر روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٣٩٨ وما بعدها .

(٢) التحرير والتنوير ٧٤٥،٧٤٦/١ .

(٣) انظر البحر المحيط ٢٠٢/٦.

(٤) يقول ابن عاشور: ((وجملة (واتخذتموه..) في موضع الحال من اسم الجلالة: أي الله أعز في حال أنكم نسيتم ذلك)) التحرير والتنوير ١٥١/١٢،وما في كلام أبي السعود يشعر بأن الصاحب هو (هم) وهو الذي عليه المعنى الجزل كما لا يخفى .

وجل مع الاشتراك في أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ، حيث أنكر عليهم أولاً ترجيح جَنَبَةِ الرهط على جَنَبَةِ الله تعالى، وثانياً بنفي العزة بالمرة، والمعنى: أرهطي أعز عليكم من الله؛ فإنّه مما لا يكاد يصح والحال إنكم لم تجعلوا له تعالى حظاً من العزة أصلاً"[1] .

فالإنكار إذاً مسلط على القيد والمقيد؛ لأن التفضيل لرهطهم عليه سبحانه منكر بلا شك، ثم إن نسيانهم لجانبه جل جلاله وعدم الاهتمام بشأنه، والإغراق في ذلك على ما يدل عليه (وراءكم) منكر عظيم آخر، بل هو أشد من الأول، فكان قرن هذا بهذا مؤذن بشدة الإنكار وتعظيمه، ومشعر بشناعة جرمهم وسوء صنيعهم ، وليس المعنى أنه لولا قيد الحال لكان تفضيلهم لرهطهم عليه سبحانه مما يمكن أن يكون حقاً .

ومن هذا ما كان من إنكار إبليس وتعجبه من أمره بالسجود لآدم كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء٦١] ،يقول الزمخشري: " (طيناً) حال إما من الموصول والعامل فيه (أسجد)، على: أ أسجد له وهو طين، أي أصله طين، أو من الراجع إليه من الصلة على: أأسجد لمن كان وقت خلقه طيناً"[2]،والاستفهام في العامل للإنكار والتعجب[3]، وهو منبئ عن كبر وبطر، وتعالٍ وترفع؛ إذ إن إبليس بقوله هذا قد جمع بين مدح ذاته وتحقير آدم عليه السلام -وحاشاه ذلك-، فالتوجه في الإنكار -فيما يظهر- هو إلى القيد؛ لأنه هو موضع المفاضلة وسبب الامتناع عن السجود، ولهذا كان جعل الحال من الموصول أظهر في بيان شأنه مع آدم فالمعنى عليه: أأسجد له وهو طين مخلوق، قال الألوسي: "قال في الكشف وهو أبلغ؛ لأنه مؤيد لمعنى الإنكار وفيه تحقير له عليه السلام -وحاشاه-، بجعله نفس ما كان عليه لم تَزُل عنه تلك الذلة، وليس من جعله حالاً من العائد هذه المبالغة، ... وذكر الخلق مع أنه

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٣٦/٤.

(٢) الكشاف ٦٧٧/٢.

(٣) البحر المحيط ٧٧/٧.

يكفي في المقصود أن يقال: لمن كان من طين أدخل في المقصود، مع أنه فيه على ما قيل إيماءً إلى علة أخرى وهي أنه مخلوق والسجود إنما هو للخالق تعالى مجده"[1]، ولا شك أن هذه العلة أيضاً على هذا القول أظهر منها على القول الآخر.

ومما جاء على سبيل الإنكار والتعجب قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [٥٠ الكهف] .

يقول الزمخشري: " (أ فتتخذونه) الهمزة للإنكار والتعجب"[2]، وفيها معنى التوبيخ أيضاً، والمعنى: أَبَعْدَ ما ظهر من إبليس ما ظهر من الفسق والعصيان والعداوة لكم، تتخذونه وذريته أولياء من دون الله المستحق للعبادة سبحانه[3]،وقوله تعالى: (من دوني) حال من (أولياء)، و(وهم لكم عدو) حال من (إبليس وذريته)، ولا يعني ذكرها تقييد الاتخاذ بها بحيث يُظن أنه بغير هذا القيد يصح الاتخاذ، بل إنه من المقطوع به إنكار الاتخاذ من أصله، وعلى هذا فلا بد من غرض آخر للحال غير التقييد المتبادر إلى الذهن، وهذا ما يبينه أبو السعود بقوله: "وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الإنكار وتشديده، فإن مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعاً"[4]، وقوله: (تأكيد الإنكار وتشديده) دليل على أن الإنكار حاصل دون هذه الحال، لكنه معها أشد وأشنع، فالمراد إنكار القيد والمقيد جميعاً لا القيد وحده، ويرى ابن عاشور أن الحال معللة للإنكار فيقول: "الاستفهام مستعمل في الإنكار والتوبيخ للمشركين؛ إذ كانوا يعبدون الجن قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [١٠٠ الأنعام]، ولذلك علل النهي بجملة الحال وهي جملة (وهم لكم عدو")[5] ..

---

[1] روح المعاني المجلد الثامن الجزء الخامس عشر ١٠٩.

[2] الكشاف ٧٢٧/٢.

[3] انظر البحر المحيط ١٩٠/٧.

[4] تفسير أبي السعود ٢٢٨/٥ .

[5] التحرير والتنوير ٣٤١/١٥ .

والذي يظهر أن جعل الحال لمجرد التعليل يقلل من أثرها في تشنيع هذا الأمر، والترقي في إنكاره، ولعلنا نجد عند الدكتور الخضري ما يجلي هذا الجانب بصورة أوضح في الحالين حيث يقول: " (من دوني) و(هم لكم عدو) حالان سلط عليها الإنكار ظاهراً، لما فيهما من كمال السفه، وغاية الجرأة على الله تعالى ومخالفة أمره... وهذان القيدان لا شك تعاونا في رسم أقبح صورة تمجها العين، وينكرها العقل وإن كان اتخاذ الأولياء من إبليس وذريته في حد ذاته أمراً قبيحاً على أي حال وقع"[1] .

ومن شواهد الإنكار والتعجب، ما كان من مشركي مكة في إنكار رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿ أَءنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾ [٨ ص]، فقوله جل ذكره: (من بيننا) "متعلق بحال من الضمير في (عليه")[2]، وهذا سوق لكلام الملأ من قريش وإنكارهم لترول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم خصوصاً من بينهم، يقول الزمخشري: "أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم ويترل عليه الكتاب من بينهم، ...وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم"[3].

وهذا يعني أن سبب صدودهم هو ما في قلوبهم من الحسد، يقول أبو السعود: "وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوي"[4] .

ويؤيد هذا أن أشراف القوم الحريصين على ملك الناس والسيادة هم الذين يتفوهون بمثل هذا، ويدعم هذا أيضاً ذكر هذا القيد (من بيننا) فهو محط إنكارهم، فلو كان من غيرهم أو من أشرافهم لما كان لهم اعتراض هذا ظاهر كلامهم، وإن كان مرادهم شيئاً

---

(١) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٤٠.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ١٠٦/١٢.

(٣) الكشاف ٧٤/٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢١٦/٧ .

آخر، وهو مثل قولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [٣١ الزخرف].

يقول ابن عاشور: "والاستفهام إنكاري، ومناط الإنكار هو الظرف (من بيننا) وهو في موضع حال من ضمير (عليه)، فأنكروا أن يُخص محمد صلى الله عليه وسلم بالإرسال وإنزال القرآن دون غيره منهم"[١] .

وعلى رغم أن هذا المعنى هو القريب المتبادر وهو كون (من بيننا) هو قيد الإنكار إلا أن المراد -والله أعلم- أبعد من ذلك، فليس مقصودهم بهذا القيد أنه لو كان من غيرنا لقبلنا، وإن كان هذا ليس بممتنع، لكن مرادهم إنكار عموم الرسالة وإنزال الكتاب من الله، لكن أخرجوه في هذه الحالة تصويراً لمكنون نفوسهم من الحسد والحقد، وإلا فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس من سوقتهم ولا عامتهم بل هو من أشرافهم، وما ذكروه إنما هو تعليل قريب في الظاهر له مغزى أبعد وهو الإنكار للرسالة من أصلها، وعلى هذا فالإنكار موجه إلى القيد والمقيد جميعاً، وهذا ما أشار إليه أبو السعود بقوله : "ومرادهم إنكار كونه ذكراً متزلاً من عند الله عز وجل كقولهم : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [١١ الأحقاف]"[٢]، وهذا ما نبه إليه ابن عاشور بعد كلامه السابق الموهم لكون القيد هو المقصود حيث يقول: "ولم يريدوا بهذا الإنكار تجويز أصل الرسالة عن الله، وإنما مرادهم استقصاء الاستبعاد، فإنهم أنكروا أصل الرسالة كما اقتضاه قوله تعالى:﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[٤ص]وغيره من الآيات..."[٣] .

ومما أنكره الله عز وجل على ناسبي الذرية إليه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ [١٥، ١٦ الزخرف]، فقوله تعالى: (وأصفاكم بالبنين) جملة يصح أن تكون حالاً من فاعل (اتخذ) ، ويصح أن تكون معطوفة على (اتخذ)[٤]، يقول أبوحيان: " (أم اتخذ مما يخلق بنات)

---

[١] التحرير والتنوير ٢٣/٢١٣ .

[٢] تفسير أبي السعود ٧/٢١٦ .

[٣] التحرير والتنوير٢٣/٢١٤،٢١٣ومثل هذه الآية تماماً قوله تعالى:﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾[٢٥ القمر].

[٤] انظر في هذا الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ١٣/٧٢ .

استفهام إنكار وتوبيخ لقلة عقولهم؟كيف زعموا أنه تعالى اتخذ لنفسه ما أنتم تكرهونـــه.. [و] جعل لكم صفوة ما هو محبوب وذلك البنون؟ "[1] .

والمقصود من ذكر هذه الحال هنا تأكيد الإلزام وإظهار شناعة قياسهم الفاســد؛ إذ كيف يتخذ الصنف الأدنى ويصطفيكم أنتم بخير الصنفين، هذا يرده من له أدنى مـسكة عقل، وعموم المراد هنا هو إبطال هذا الزعم من أصله، وليس المراد أنه لو لم يـصطفكم بالبنين فلا إنكار في اتخاذه البنات، هذا مما لا ينكره أحد،ولكن جاء سياق الإنكار عليهم على هذه الصورة إمعاناً في رد حجتهم بما تقتضيه العقول السليمة، وفي هذا من التـدليل على سخف عقولهم وقلة فهمهم ما لا يخفى،يقول أبو السعود:"هبوا أنكم اجترأتم علـى إضافة اتخاذ جنس الولد إليه سبحانه مع ظهور استحالته وامتناعه، أما كان لكم شيء من العقل ونبذة من الحياء حتى اجترأتم على التفوّه بالعظيمة الخارقة للعقول، من ادعـاء أنـه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين وأعلاهما،وترك له شرهما وأدناهما"[2]

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن القول بالحالية هو ما تظهر فيه هذه المعاني بـصورة أوضـح من العطف؛ إذ في (الحالية) إضافة إنكار إلى إنكار، فالاتخاذ منكر وهو في الصورة المذكور أشد إنكاراً وأشنع حالاً، ولعل هذا ما نبه إليه ابن عاشور ببعض قوله: عن (وأصـفاكم) حيث قال: "فهذا ارتقاء في إبطال معتقدهم بإبطال فرض أن يكون الله يتبنّى الملائكة سداً على المشركين باب التأويل، والتنصل من فساد نسبتهم البنات إلى الله، فلعلهم يقولون ما أردنا إلا التبني،كما تنصلوا حين دفعتهم براهين بطلان إلهية الأصنام فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٣الزمر] وقـالوا : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [١٨ يونس]... وجملة: (وأصفاكم) في موضع الحال، والنفي الحاصل من الاستفهام الإنكاري منصبٌّ إلى قيد الحال، فحصل إبطال اتخـاذ الله البنـات بدليلين؛ لأن إعطاءهم البنين واقع فنفي اقترانه باتخاذه لنفسه البنات يقتضي انتفاء اتخـاذ البنات، فالمقصود اقتران الإنكار بهذا القيد، وبهذا يتضح أن الواو في جملـة (أصـفاكم)

---

[1] البحر المحيط ٩/٣٦٣ .

[2] تفسير أبي السعود ٨/ ٤٢ .

ليست واو العطف؛ لأن إنكار أن يكون أصفاهم بالبنين لايقتضي نفي الأولاد أي: الذكور عن الله تعالى"[1] .

ويتمم هذا الإنكار والإبطال ما جاء في الآية بعده في قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [١٨ الزخرف]، فقوله جل ذكره: (وهو في الخصام) جملة حالية [2]، والمراد هنا تكرير الإنكار وتثنية التوبيخ، وإقامة حجة جديدة عليهم فيما زعموا[3]، يقول ابن عاشور (أومن ينشأ..): "عطف إنكار على إنكار... والنشء في الحلية كناية عن الضعف عن مزاولة الصعاب بحسب الملازمة العرفية فيه، والمعنى: أن لا فائدة في اتخاذ الله بنات لا غناء لهن، فلا يحصل له باتخاذها زيادة عزة فهذا احتجاج إقناعي خطابي... والمقصود من هذا فضح معتقدهم الباطل، وأنهم لا يحسنون إعمال الفكر في معتقداتهم وإلا لكانوا حين جعلوا لله بنوة أن لا يجعلوا له بنوة الإناث، وهم يَعُدّون الإناث مكروهات مستضعفات"[4] .

وهذا يعني أن هذه الآية بما فيها من القيود الدالة على ضعف جنس البنات ارتقاء آخر في إبطال دعوى المشركين، وعجباً لتلك العقول كيف لا تنتبه بعد هذه التنبيهات العقلية والحجج الدامغة فتنظر في عاداتها المستحكمة، وعقائدها الموروثة عن الآباء والأجداد !، وكيف يحكمون بتلك المقاييس المختلة، فيجعلون لأنفسهم وهم الضعفاء النوع الأفضل عندهم، ويجعلون للخالق العظيم النوع المرذول عندهم، إنه التناقض الذي يدل على فساد عريض في عقولهم ومعتقداتهم.

٢- ما كان في سياق التوبيخ والتقريع والتشنيع.

ومن هذا ما كان من تشنيع جريمة قوم لوط،كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [٨٠، ٨١ الأعراف]، فقوله جل ذكره: (ما

---

[1] التحرير والتنوير ١٨١/٢٥ .

[2] انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ٧٣/١٣

[3] انظر بعض هذا في تفسير أبي السعود ٤٢/٨

[4] التحرير والتنوير ١٨٢/٢٥،١٨١ .

سبقكم بها من أحد من العالمين) مستأنفة عند بعضهم[1]، وحالية عند آخرين[2]، وعلى القول بالحالية ـ وهو الأظهر ـ فلا يعني ذلك تقييد الإنكار بها، بمعنى أن الفاحشة لا تكون منكرة إذا لم تكن على تلك الحال، بل إن الفاحشة منكرة على كل وجه.

وعلى هذا فلا بد من غرض وراء هذا القيد، وهذا ما يبينه أبو السعود بأن الجملة "مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبيح قبيح واختراعه أقبح..."[3]، وإنما قال تأكيد النكير وتشديد التوبيخ؛ لأن ذات النكير والتوبيخ مفهوم بغير الحال، والحق أن ذكر هذا القيد المشعر بكونهم السابقين يشعر من أول الأمر بعظم جرمهم؛ لأن كل أحد يمدح بالسبق إلا في الرذائل فإنه لا يرضى أحد أن يوصف بها فضلاً عن أن يكون هو مخترعها وصاحب السبق فيها؛ لأن ذلك هو غاية الذم، ولقد أجاد الألوسي في بيان سر هذه الجملة بقوله: "ولا يتوهم أن سبب إنكار الفاحشة كونها مخترعة ولولاه لما أنكرت؛ إذ لا مجال له بعد كونها فاحشة، ووجه كون هذه الجملة مؤكدة للنكير أنها مؤذنة باختراع السوء، ولا شك أن اختراعه أسوأ، إذ لا مجال للاعتذار عنه..."[4] .

وهكذا يتبين أن التوبيخ هنا والتشنيع مضاعف، وذلك لعظم الجريمة وخطورتها وخروجها عن العادة في القبح، فناسب هذا كله هذا التشديد في النكير عليهم، فكان فيما عليه النظم الكريم إضافة توبيخ إلى توبيخ وجرم إلى جرم، وذلك لأنهم ارتكبوا جرمين: الفاحشة واختراعها، فكانت زيادة القيد موافقة لمزيد شناعة فعلهم "فالإنكار في مثل هذا ينصب على الجمع بين المقيد والقيد زيادة في تفظيع العمل والتشنيع على أصحابه"[5]، من غير أن يُظن أن تفرد كل منهما ليس مذموماً.

ويستمر القرآن في بيان فحش هذه الفاحشة وتشنيع أمرها في صورة أخرى من صور قبحها، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ

---

(1) انظر الكشاف ٢/١٢٥ .

(2) البحر المحيط ٥/١٠٠، وصاحب الحال عنده إما الفاعل وإما الفاحشة .

(3) تفسير أبي السعود ٣/٢٤٥ وهي عنده مستأنفة لا حالية لكن المدلول لا يتغير كثيراً.

(4) روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ١٦٩ .

(5) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣٨ .

أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [٨١ الأعراف][١]، وسياق الكلام على الإنكار وقد قرئ (أئنكم) "بهمزتين صريحتين وبتليين الثانية بغير مد وبمد أيضاً على أنه تأكيد للإنكار السابق وتشديد للتوبيخ، وفي زيادة (إن) و(اللام) مزيد توبيخ وتقريع كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد...وفي إيراد لفظ الرجال دون الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة في التوبيخ"[٢] .

ومما أسهم في بيان القبح وزيادته مع هذا الحشد الهائل الحالُ: (شهوة)، فليس ذكرها تقييداً للإنكار بها، بمعنى أن إتيان الرجال إذا لم يكن على حال الشهوة فلا ضير فيه، بل المراد هو ما تقدم في الحال السابقة: زيادة تشنيع الشنيع، وتقبيح القبيح، ويشير إلى بعض هذا أبو السعود بعد ذكر الحالية فيقول: "وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغي له أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الشهوة، ويجوز أن يكون المراد الإنكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة،كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي: متجاوزين النساء اللاتي هن محل الاشتهاء كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [٧٨ هود] "[٣] .

ويظهر أن ما ذكره أبو السعود أولاً ليس هو اللائق بالنظم الكريم، فليس المراد توجيههم هنا إلى ما ينبغي بقدر أن يكون المراد إظهار قبح فعلتهم، لذا فجانب الإنكار والتشنيع فيهم ظاهر لا ينكر، فالتقييد بـ(شهوة) لتأكيد انتكاس فطرهم وتحولها، فإن اشتهاء الرجل الرجل مما لا يمكن أن يقبله ذوق ، أو يرتضيه طبع سليم ؛ لذا كان النص عليها ناعياً عليهم بشناعة وبشاعة ونكارة هذا الجرم العظيم، يقول ابن عاشور: "والمقصود ... تفظيع الفاحشة وفاعليها بأنهم يشتهون ما هو حقيق بأن يُكره ويُستفظع"[٤]، وأما الحال الثانية (من دون النساء)ففيها إظهار لموضع الشهوة الحقيقي، وذكر هذا مع ذاك لبيان عظم المفارقة التي وقعوا فيها، وإظهار قدر الانتكاسة التي ارتكسوا فيها، ومقدار الانحراف والشذوذ الذي صاروا إليه، يقول ابن عاشور: "وقوله: (من دون النساء) زيادة في التفظيع وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس قيداً للإنكار، فليس إتيان الرجال مع

---

(١) ما يقال عن هذه الآية يقال عن قوله تعالى:﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ...﴾ [٥٥النحل] .

(٢) تفسير أبي السعود ٣/٢٤٥ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣/٢٤٥ .

(٤) التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ٢٣١ .

إتيان النساء بأقل من الآخر فظاعة، ولكن المراد أن إتيان الرجال كله واقع في حالة من حقها إتيان النساء"[1]، وينص الدكتور الخضري على أن القيد والمقيد جميعاً مقصودان بالإنكار، وأن الجمع بين هذين الجرمين لهو دليل الانحطاط إلى مراتب البهائم؛ لأنهم جمعوا بين قبائح عدة كل منها كاف لتنفير الفطر منهم،واستعداء الخلق عليهم،واستثارة مشاعر الكره ضدهم[2] .

وإذا كانت فاحشة قوم لوط قد جاءت في هذه الآية بهذه الصورة من التشنيع، فقد وردت في موضع آخر حاملة دلالة أخرى كما في قوله تعالى: ﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [١٦٥ الشعراء] ، فقوله جل ذكره : (من العالمين) حال من فاعل (أتأتون) أو من (الذكران) والمعنى على الأول: أ تأتون الذكران حال كونكم مخصوصين دون العالمين، وعلى الثاني: أتأتون الذكران حال كونهم من العالمين، ولا يعني ذكرها إخراج مفهومها من الذم، بل المراد زيادة الذم، حيث دلت هذه الحال على أنهم يختارون الذكران كأن الإناث أعوزتهم، أو أنهم المختصون من العوالم كلها بهذا الفعل الشنيع، فحتى الحيوانات لا يكون منها ذلك ولا عبرة بالنادرة، يقول الرازي: "أي أنتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة"[3]، وهذا المعنى الأخير هو ما اختاره ابن عاشور حيث قال: " وقوله:(من العالمين) الأظهر فيه أنه في موضع الحال من الواو في (أتأتون) ...والمعنى: أتأتون الذكران مخالفين جميع العالمين من الأنواع التي فيها ذكور وإناث، فإنها لا يوجد فيها ما يأتي الذكور، فهذا تنبيه على أن هذا الفعل فظيع مخالف للفطرة ، لا يقع من الحيوان العُجْم فهو عمل ابتدعوه ما عمله غيرهم"[4] .

ومما جاء بإضافة أخرى لتشنيع عملهم هذا قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ [٥٤ النمل]، فقوله جل ذكره:(وأنتم تبصرون) حال من فاعل (أ تأتون) وأظهر معانيها أنهم كانوا لا يتحاشون من إظهار ذلك على وجه

---

(١) التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ٢٣١ .

(٢) انظر من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني٣٩ بتصرف.

(٣) مفاتيح الغيب١٣٩/٢٤، وانظر بعض هذا في تفسير أبي السعود ٢٦٠/٦، وروح المعاني المجلد العاشر الجزء التاسع عشر ١١٥.

(٤) التحرير والتنوير ١٧٩/١٩ .

الخلاعة، لذلك كان توبيخهم عظيماً[1]، يقول أبو السعود: " (وأنتم تبصرون) جملة حالية من فاعل (تأتون) لتأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ فإن تعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع..."[2] .

وهذا يعني أنهم جمعوا إلى جرمهم جرماً آخر وهو المجاهرة بها أمام الناس، وهو خلق رذيل يدل على دناءة نفوسهم وعدم نفورها من القبح، يقول ابن عاشور(وأنتم تبصرون): "حال، زيادة في التشنيع أي: تفعلون ذلك علناً يبصر بعضكم بعضاً، فإن التجاهر بالمعصية معصية؛ لأنه يدل على استحسانها وذلك استخفاف بالنواهي"[3] .

وهكذا يتضح لنا من كل ما سبق أن تشنيع هذه الرذيلة وبيان قبحها جاء بصور متعددة أكثرها في صورة تقييد بالحال، ولا يقصد منه مفهوم الخطاب، وهذا التنوع في التشنيع يدل على عظم الجرم وشناعته ومنافاته لأدنى مقاييس الذوق، وانتمائه إلى أقذر الأخلاق وأحط العادات، وهو شذوذ غريب يوجد في بعض مجتمعات المدنية الحديثة، وفيما ذكر من ذم وتقبيح عبرة لمن يعتبر .

ومما هو مستنكر قبيح أن يجمع الإنسان بين سبل الهداية، والدعوة إلى الضلال، كما فعل بعض أهل الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [٤٤النساء] .

يقول العكبري:" (يشترون) حال من الفاعل في (أوتوا) ، و(يريدون) مثله، وإن شئت جعلتهما حالين من الموصول وهو قوله تعالى:(من الذين أوتوا) وهي حال مقدرة"[4]، وعلى هذا القول تكون الحال قيداً في التعجب المدلول عليه بالهمزة في: (ألم تر) يقول ابن عاشور: "وجملة (يشترون) حالية فهي قيد لجملة (ألم تر) "[5]، والمقصود من هذا القيد هو التوبيخ الشديد لهم والتشنيع العظيم عليهم؛ إذ كيف يجمعون الوحي وشراء الضلالة،يقول أبو حيان:"ودل لفظ الاشتراء على إيثار الضلالة على الهدى، فصار ذلك

---

[1] انظر مفاتيح الغيب ١٧٥/٢٤ .
[2] تفسير أبي السعود ٢٩٢/٦ .
[3] التحرير والتنوير ٢٨٨/١٩ .
[4] التبيان ٣٦٣/١ .
[5] التحرير التنوير ٧١/٥ .

نعياً شديداً عليهم، أو توبيخاً فاضحاً لهم، حيث هم عندهم حظ من علم التوراة والإنجيل ومع ذلك آثروا الكفر على الإيمان..."[1] .

ويرى أبو السعود أن الاستئناف هنا أفضل حيث يقول: " وقوله: (يشترون الضلالة) قيل هو حال من واو (أوتوا)، ولا ريب في أن اعتبار تقدير اشترائهم المذكور في الإيتاء مما لا يليق بالمقام، وقيل هو حال من الموصول أي: ألم تنظروا إليهم حال اشترائهم، وأنت خبير أنه خال عن إفادة أن مادة التشنيع والتعجيب هو الاشتراء المذكور وما عطف عليه، والذي تقتضيه جزالة النظم الكريم أنه استئناف مبين لمناط التشنيع ومدار التعجيب..."[2].

والذي يظهر أن ما أشار إليه أبو السعود من كون الجملة المعنية هي مناط التشنيع والتعجب، أن ذلك في الحال أظهر منه في الاستئناف؛ لأنه إذا قيل بالاستئناف وتقدير سؤال أصبح ذلك مفصولاً عن مدلول الهمزة السابقة، بينما إذا قلنا بالحالية صار الكلام أكثر ارتباطاً، وكان الحال هو مناط التشنيع والتعجب، ويكون ذلك أبلغ؛ لأن فيها جمعاً بين معرفتهم بالكتاب وما فيه من الهداية وبين صدودهم عن ذلك وشراء الضلالة وهذا أشنع في حقهم، إذ مَنْ هذا حاله من المعرفة والعلم لا يتوقع منه مثل هذا الفعل الشنيع الذي هو نقيض مقتضى علمهم ومعرفتهم، وما أشار إليه من أن في الحال ربطاً للإيتاء بالاشتراء فهم أُعطوا الكتاب حالة كونهم يشترون الضلالة لا يليق بالمقام ؛ لأنه يوحي بسبق الحال للإيتاء، والمنكر عليهم هو تصرفهم بعد إيتائهم الكتاب، وفي نظري أن ذلك لا يمتنع فهو يدل على تأصلهم في الضلال والانحراف، ثم إنه يلمح من الحال أن اشتراءهم الضلالة صاحب إعطاءهم الكتاب وهذا يشعر بسرعة طلبهم للباطل، ولا شك أن ما ذكره في الاستئناف متوجه لا يدفع .

ومثل هذه الآية تماماً قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [٥١ النساء]،

---

[1] البحر المحيط ٦٥٨/٣ .

[2] تفسير أبي السعود ١٨١/٢ .

فقوله تعالى: (يؤمنون)، و(يقولون) حالان على ما ظهر في الآية السابقة[1]، والمقصود هنا بيان أحوال أخرى متناقضة مع علمهم بالكتاب، يقول أبو حيان: "أي أن أحوالهم متنافية فكونهم أوتوا نصيباً من الكتاب يقتضي لهم أن لا يقعوا فيما وقعوا فيه ولكن الحامل لهم على ذلك الحسد"[2] .

ومما جاء في توبيخ المتهاونين بالعذاب،وبيان كيف يكون حالهم عند حلوله في قوله تعالى:﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [٥١ يونس]، فالاستفهام في قوله جل ذكره: (ألآن) للتوبيخ والتقريع[3]، ولا شك أن تأخر إيمانهم حتى رؤية العذاب رغم وجود الإنذار والآيات منكر مذموم، وليس ذكر الحال (وقد كنتم...) دليلاً على التقييد به؛ لأن الإنكار متحصل دونه، وإنما هو للزيادة في التأنيب؛ لأنهم جمعوا ذنبين: التأخير في الإيمان، واستعجال العذاب على صورة الاستهزاء، يقول أبو السعود: " (وقد كنتم به تستعجلون)... جملة وقعت حالاً من فاعل (آمنتم) المقدر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادة التنديم والتحسير"[4] .

وقد ذكر الطيبي سر ذكر الاستعجال هنا دون التكذيب الذي هو المتبادر فيكون النظم: (وقد كنتم به تكذّبون)،فقال:"وكان ذلك تهكماً منهم وتكذيباً واستبعاداً ، وفي العدول [أي: عن التكذيب] استحضار لتلك المقالة الشنيعة فيكون أبلغ من(تكذّبون) "[5].

ولعله ظهر لنا مما سبق مع هذه الآية، أن ذكر الحال بعد فعل مُنْكَرٍ من أصله يُقصد به الزيادة في الإنكار، أو التوبيخ والتقريع، وكل ما كان على هذه الشاكلة فالإنكار والتوبيخ منصبان فيه على القيد والمقيد جميعاً، وليس على أحدهما مُعلّقاً بالآخر، وإنما يقصد من قرنهما معاً إبراز مدى شناعة المنكر، أو عِظَمِ موجب التقريع والتوبيخ .

---

(1) انظر التبيان ٣٦٥/١ .
(2) البحر المحيط ٦٧٦/٣ .
(3) انظر البحر المحيط ٧٠/٦ .
(4) تفسير أبي السعود ١٥٣/٤ .
(5) روح المعاني المجلد السادس الجزء الحادي عشر ١٣٥ .

ومما هو قريب مما سبق قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٨٣، ٨٤ النمل]، في هاتين الآيتين توبيخ وإنكار لأولئك الذين لم يمعنوا النظر في آيات الله الحقيقة بالتصديق والاتباع، بل واجهوها بالتكذيب من أول الأمر، يقول الزمخشري عن قوله جل ذكره: (ولم تحيطوا بها علماً): "الواو للحال، كأنه قال: أكذبتم به بادئ الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب..."[١]، ويقول أبو حيان: " (قال أكذبتم بآياتي): استفهام توبيخ وتقريع وإهانة"[٢] .

ومن المعلوم لكل أحد أن التكذيب بآيات الله مذموم لذاته ومؤاخذ صاحبه به،فكيف إذا صاحب ذلك الاستخفاف بأمرها، وعدم التأمل فيها،لا شك أن ذلك أشنع وأسوأ، لذا كان لمجيء القيد هنا من زيادة اللوم والتقريع ما لا يخفى،وليس هو وحده المقصود من الإنكار والتقريع بل هو والمقيد جميعاً، يقول أبو السعود:" (ولم تحيطوا بها علماً) جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ومؤكدة للإنكار والتوبيخ" [٣].

ولا شك أن القول بتوجه مدلول الهمزة إلى القيد والمقيد جميعاً هو اللائق بمثل هذا المقام؛ لأنه يراد بيان شناعة فعلهم هذا مقترناً بتلك الحال، لأن ذلك أشد في التشنيع عليهم إذ فيه إشارة إلى خفة عقولهم وطيش أحلامهم كيف جمعوا بين ما يشبه النقيضين، ولعل هذا بعض ما أشار إليه الألوسي بقوله: "والهمزة لإنكار الجمع والتوبيخ عليه كأنه قيل: أجمعتم بين التكذيب بآياتي وعدم التدبر فيها"[٤]، وينص الدكتور الخضري، على أن اقتران التكذيب منهم بالمسارعة وعدم النظر في أمور يتوقف عليها مصيرهم، لهو دليل على بالغ حمقهم وغاية جرأتهم في الاستهانة بتلك الآيات وهي من الوضوح بحيث لا تخفى على من طلب الحق وبحث عن النور "وتوجيه الإنكار إلى القيد، وهو التسرع وعدم التثبت لا يدل على أن التكذيب غير منكر في ذاته إذا جاء بعد النظر والإحاطة؛ لأن التكذيب بآيات الله

---

(١) الكشاف ٣٨٥/٣ .

(٢) البحر المحيط ٢٧٠/٨ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣٠٢/٦ .

(٤) روح المعاني المجلد العاشر الجزء العشرون ٢٨ .

مقرون دائماً بالجهل والتعنت ولا يمكن أن يؤدي العلم والنظر إلى التكذيب حتى يصح فهمه من القيد"[1] .

ومما هو شبيه بما سبق في التوبيخ على ما لا ينبغي فعله لعدم ما يسوغ ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٨ الحديد] .

يقول الزمخشري: " (لا تؤمنون) حال من معنى الفعل في (ما لكم) كما تقول: ما لك قائماً؟ بمعنى ما تصنع قائماً،أي:وما لكم كافرين بالله، والواو في (والرسول يدعوكم) واو الحال، فهما حالان متداخلتان... والمعنى: وأي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج"[2] .

ولأبي السعود كلام رائع حول هذين الحالين يقول فيه: " (وما لكم لا تؤمنون بالله) استئناف[3] مسوق لتوبيخهم على ترك الإيمان... بإنكار أن يكون لهم في ذلك عذر...[فيكون] توجيه الإنكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقق المسبب، لا إلى السبب والمسبب جميعاً كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [٢٢ يس] [فـ] ما الاستفهامية قد تكون لإنكار سبب الوقوع ونفيه فقط كما فيما نحن فيه، وفي قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [١٣ نوح] فيكون مضمون الجملة الحالية محققاً، فإن كلاً من عدم الإيمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أُنكر وبقي سببه، وقد تكون لإنكار سبب الوقوع ونفيه، فيسريان إلى المسبب أيضاً كما في قوله تعالى: (ومالي لا أعبد...) فيكون مضمون الجملة الحالية مفروضاً قطعاً؛ فإن عدم العبادة أمر مفروض حتماً قد أنكر ونفي سببه فانتفى نفسه أيضاً،وقوله تعالى:(والرسول يدعوكم) ... حال... مقيدة لتوبيخهم على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه"[4] .

وهكذا يظهر لنا أن الحال الأولى كانت للإنكار عليهم في عدم الإيمان مع الإشعار بانتفاء سبب الكفر، والثانية للإنكار عليهم بالكفر مع وجود وتحقق ما يوجب عدمه وهو

---

(١) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٤٠ .

(٢) الكشاف ٤/٤٧٣ .

(٣) وهو يرى الاستئناف، لكن يستفاد من كلامه في دلالة التركيب بعمومه عند من قال بالحالية .

(٤) تفسير أبي السعود ٨/٢٠٥ .

دعوة الرسول وكذلك الحال الثالثة: (وقد أخذ ميثاقكم) فهو من باب الترقي في التوبيخ والإنكار .

وشبيه بهذا قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح ١٣،١٤] .

يقول أبو السعود: " (مالكم لا ترجون لله وقاراً) إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقاراً ...، على أن الإنكار متوجه إلى السبب فقط مع تحقق مضمون الجملة الحالية لا إليهما معاً ... أيْ: أيُّ سبب حصل لكم حال كونكم غير معتقدين لله تعالى عظمة موجبة لتعظيمه بالإيمان به والطاعة له؟، (وقد خلقكم أطواراً) أي: والحال أنكم على حال منافية لما أنتم عليه بالكلية، وهي أنكم تعلمون أنه تعالى خلقكم تارات: عناصر ثم أغذية، ثم أخلاطاً، ثم نطفاً، ثم علقاً، ثم مضغاً، ثم عظاماً ولحوماً، ثم أنشأكم خلقاً آخر، فإن التقصير في توقير مَنْ هذه شؤونه في القدرة القاهرة والإحسان التام التي مع العلم بها مما لا يكاد يصدر عن العاقل"(١).

٣- ما كان في سياق الاستبعاد .

ولهذا فيما سبق ملامح، لكنه ربما يكون أكثر وضوحاً في مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٧٥]، فقد تعددت الأقوال في سبب نزول هذه الآية، وقد علق عليها أبوحيان بعد ذكرها بقوله: "وهذه الأقاويل كلها لا تخرج عن أن الحديث في اليهود اللذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم الذين يصح فيهم الطمع أن يؤمنوا"(٢)، والخطاب في (أفتطمعون) قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وجُمعَ تعظيماً، وقيل: للمؤمنين أو بعضهم، والهمزة فيها معنى الإنكار الموجب للاستبعاد، والمعنى: استبعاد إيمان اليهود(٣).

---

(١) تفسير أبي السعود ٣٨/٩ .

(٢) البحر المحيط ٤٣٨/١ .

(٣) انظر البحر المحيط ٤٣٨/١ .

وبين أبو حيان دلالة القيد في الحال بحسب العامل بالحال فقال: "والواو في قوله: (وقد كان فريق) ...واو الحال ويحتمل أن يكون العامل في الحال قولــه: (أفتطمعــون)، ويحتمل أن يكون (أن يؤمنوا) فعلى الأول يكون ... الحال قيداً في الطمع المـستبعد، أي يستبعد الطمع في إيمان هؤلاء وصفتهم هذه، وعلى الثانية يكون المعنى: استبعاد الطمع في أن يقع من هؤلاء إيمان ... فعلى هذا يكون الحــال قيــداً في إيمــانهم، وعلــى كــلا التقديرين...فمحصوله أن وجود هذه الحال لا يجامع الاتباع، ولا يناسب الطمع، بل إنما كان يناسب الطمع ويتوقع الاتباع انتفاء هذه الحال"(١) .

والذي يظهر من كلام أبي السعود أن الإنكار منصب على الطمع، حيــث يقــول: "والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده... لا لإنكار الوقوع، وقوله تعالى: (وقد كــان فريــق منهم) الجملة حالية مؤكدة للإنكار حاسمة لمادة الطمع"(٢)، ويقول الألوسي: "الاستفهام للاستبعاد أو للإنكار التوبيخي... وحاصل الآية استبعاد الطمع في أن يقع مــن هــؤلاء السفلة إيمان، وقد كان أحبارهم ومقدموهم على هذه الحالة الشنعاء"(٣)، وظاهر من هذا القيد (وقد كان فريق منهم) أن المراد منه التعليل لاستبعاد إيمانهم أو إنكار الطمــع فيــه، والحال يجيء معللاً في مواطن كثيرة، والتعليل مهم في القناعــة بالــشيء ويعــين علــى الاستجابة للأمر، ويجلي المبهم من الإنكار، أو الاستبعاد، أو التعجب، وهكذا كان القيد هنا كاشفاً عن سر هذا الاستبعاد، يقول ابن عاشور: "وقوله (وقد كان...) جملة حاليــة هي قيد إنكار الطمع في إيمانهم فيكون قد عُلل هذا الإنكار بعلتين: إحداهما بالتقريع على ما علمناه(٤)، والثانية بالتقييد بما علمناه"(٥) أي بالحال المقصودة هنا .

ومما هو في صورة الاستبعاد وفيه معنى التعجب قوله تعــالى: ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [٧٢ هود]،يقول أبو حيان عــن

---

(١) البحر المحيط ٤٤٠/١، ٤٣٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ١١٦/١ .

(٣) روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٢٩٨، ٢٩٩ .

(٤) يشير إلى ما سبق هذه الآية من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ... ﴾ [٧٤ البقرة] .

(٥) التحرير والتنوير ٥٦٧/١ .

(أ ألد): "استفهام إنكار وتعجيب"[1]، ويبدو أن المقصود من هذا التعجب هو استبعاد سارة زوجة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حصول الولد ، خاصة بعد بلوغ ذلك العمر الطويل، فهي بنت تسع وتسعين وهو ابن مائة وعشرين، وكلتا الجملتين (وأنا عجوز ، وهذا بعلي شيخاً) وقعتا "حالاً من الضمير في (أ ألد) لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله، أي: أألد وكلانا على حالة منافية لذلك، وإنما قدمتْ بيان حالها على بيان حاله عليه الصلاة والسلام؛ لأن مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر، إذ ربما يولد للشيوخ من الشواب، أما العجائز داؤهن عقام، ولأن البشارة متوجهة إليها صريحاً، ولأن العكس في البيان ربما يوهم من أول الأمر نسبة المانع من الولادة إلى جانب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وفيه ما لا يخفى من المحذور ..."[2] .

والحال في هذه الآية هي موضع الاستبعاد لا الولادة[3]، فهي غير مستغربة إلا بالقيد المذكور في الحالين، وقد جاء تعليل الاستبعاد والتعجب بحالين؛ لأن مثل هذه الحالة يشترك فيها الزوجان، فكان ذكر القيدين دليلاً على شدة التعجب واستبعاد الأمر؛ لأن أحد هذين القيدين كاف في حجب الولد فكيف إذا اجتمعا، ويدل تقييد التعجب والاستبعاد بهذين القيدين أيضاً على عظم منة الله على إبراهيم عليه السلام وزوجه، وهو إشارة واضحة إلى عظيم قدرة الباري جل جلاله، وليس يعني قولنا: (الاستبعاد) أنهما يعترضان على قدرة الباري -حاشاهما ذلك- لكن المراد أن هذا مستبعد في العادة لمن كان في مثل حالهما، وعلى هذا جاء قوله تعالى أيضاً: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر ٥٣، ٥٤] .

يقول أبوحيان: " (على أن مسني الكبر) في موضع الحال"[4]، والآية تبين ما كان من إبراهيم واستنكاره خبر البشارة على كبره، وقد سبق استبعاد زوجته لذلك، لكننا نلحظ هنا أن التعجب جاء معللاً بحال واحدة وهي الخاصة بـ (إبراهيم) عليه السلام، ولعل سبب هذا أنها هناك ذكرت ما يخصها وما له علاقة بذلك من جهة زوجها، أما

---

(1) البحر المحيط ٦/١٨٤ .

(2) تفسير أبي السعود ٤/٢٢٥، ٢٢٦ .

(3) انظر التحرير والتنوير ١٢/١٢٠ .

(4) البحر المحيط ٦/٤٨٥ .

الزوج هنا فلم يذكر إلا ما يخصه لأن هذا كاف في حجب الولد فلا فائدة من ذكر سواه،وقد أكد إبراهيم استبعاده للأمر،واستنكاره للبشرى بقوله(فبم تبشرون)[١] ،ومحط الاستبعاد والتعجب هنا هو الحال ذاهّا لا الفعل، وهذا اللون كثير فيما إذا كان بين الفعل والقيد تباين أو ما يقارب التناقض أحياناً، يقول أبوالسعود: " تعجب عليه الصلاة والسلام من بشارتهم بالولد في حالة مباينة للولادة"[٢]، وعلى القول بأن الهمزة للإنكار يكون المعنى إنه " لاينبغي أن تكون البشارة مع الحال المذكورة"[٣]، وعلى كل حال فالحال هنا بيان لعظيم منته سبحانه على عبده، وليس قول إبراهيم هذا إلا من هذا القبيل لا أنه ينكر قدرة الله، يقول أبو السعود: "وكان مقصده عليه الصلاة والسلام استعظام نعمته تعالى عليه، في ضمن التعجب العادي المبني على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه كما ينبئ عنه قول الملائكة: (فلا تكن من القانطين) دون أن يقولوا: من الممترين أو نحوه"[٤] .

٤- ما كان في سياق التقرير .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا۟ اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١٢ الحجرات]، فهذه الآية من أعجب ما جاء في تصوير شأن المغتاب، ونظراً لعظم خطيئة من يفعل هذا الفعل، وما يترتب عليه من إفساد في المجتمع فقد جاء النهي عنه في صورتين: الأولى صريحة وهي: (ولا يغتب بعضكم بعضاً)، والثانية في صورة استفهام تقريري جمع في سياقه حشداً من المنفرات من هذا الفعل الشنيع، وجاءت الحال (ميتاً)[٥] منسجمة مع هذا السياق مساهمة في تشنيع الصورة، التي أجاد الزمخشري التنبيه على دقائقها بقوله: " (أيحب أحدكم) تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه، وفيه مبالغات شتى منها:

---

(١) انظر البحر المحيط ٤٨٥/٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٨١/٥ .

(٣) روح المعاني المجلد السابع الجزء الرابع عشر ٦١ .

(٤) تفسير أبي السعود ٨١/٥، ٨٢ .

(٥) انظر الكشاف ٣٧٣/٤ .

الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى (أحدكم) والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً"[1]، ويضاف إلى ذلك التعقيب بقوله تعالى: " (فكرهتموه) حملاً على الإقرار وتحقيقاً لعدم محبة ذلك، أو لمحبته التي لا ينبغي مثلها... وعبر بالماضي للمبالغة "[2]، أي : في ثبوت كراهية ذلك ، وأنها مما استقر في النفوس وجبلت عليه الطباع، وقد جاءت الحال (ميتاً)في هذا السياق لا للتدليل على أن المكروه من أكْل لحم الأخ هو هذه الحالة وما عداها فليس مكروه، بل معلوم أن ذلك مكروه على كل حال لكنه في حالة الموت أفظع وأشنع، ثم إن في مجيء الحال بعنوان الموت إكمالاً لصورة من وقعت عليه الغيبة، "لأن الميت لا يحس وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب، ثم هو في التحريم كآكل لحم الميت"[3] ، ولاشك أن هذه المعاني وهذا العمق في المعنى والإغلاظ في التشنيع ما كان ليتم على سوقه لو حذفت هذه الحال ، فهي في هذا السياق المصور لكل ألوان الشناعة ذروةُ الفظاعة وكمال التنفير، إنها صورة "تعافها النفس وتنفر منها الطباع، وينكرها العقل والشرع، وجاء الحال (ميتاً) حلقة في سلسلة مبالغات تضغط كل منها على النفس، وتضرب كل واحدة على وتر من أوتار الحس، فتزيده مجافاة واشمئزازاً، وإسقاط هذه الحال وإن كان لا يمنع من إنكار أكل لحم الأخ، إلا أنه دونه بكثير في نفرة الطبع والتأذي من رؤيته؛ لأن النفس لا تقبل على الميت من لحوم الحيوانات، وربما يفضل المضطر الموت على الإقدام عليه، فكيف بلحم الميت من الآدميين"[4] .

وبعد هذه الجولة مع التقييد بالحال في أسلوب الاستفهام، لابد أن نقول إن تقسيم الشواهد لا يعني بالضرورة حصرها فيما وضعت فيه، وإنما ذلك اجتهاد وتقدير، وإلا فمثل هذه الأساليب تتداخل كثيراً، ويكثر عند أئمة التفسير إطلاق أسماء متعددة على الأسلوب الواحد، وإنما مرادي من هذا التقسيم جعل الشواهد معزوة إلى مجموعات

---

(1) الكشاف ٣٧٣/٤ .
(2) روح المعاني المجلد الثالث عشر الجزء السادس والعشرون ١٥٨، ١٥٩ .
(3) البحر المحيط ٥٢٠/٩ .
(4) من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٤١ .

متشابهة ينتظمها اتجاه واحد وذلك -بلا شك- أفضل من سرد الــشواهد متتاليــة دون تقسيم.

ومن الملحوظ -كما أشار إليه الدكتور الخضري[1]- أن شواهد هــذا النــوع لهــا صورتان بارزتان: إحداهما تكون فيها الحال مناقضة في الظاهرة أو تقــرب مــن ذلــك لعاملها، وكأنه يقال فيها: كيف يجمع بين هذا و ذاك؟، وثانيتهما: تكون فيها الحال غير مناقضة لعاملها ولا مشعرة بذلك، لكنها مذمومة منكرة ، أو تكون مسهمة في رفع درجة الإنكار أو التشنيع أو التوبيخ.

---

(1) انظر من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٣٧ .

الفصل الرابع

التصوير بالحـــــــال

المبحث الأول: التصوير بطريق التشبيه .

المبحث الثاني : التصوير بطريق المجاز .

المبحث الثالث: التصوير بطريق الكناية .

المبحث الرابع : التصوير بوسائـــل أخرى .

توطئة:

لقد آثرت مصطلح(التصوير)[1] هنا ؛ لأنه أوسع دلالة من غيره فهو يشمل مكونات التصوير في علم البيان : كالتشبيه ، والمجاز اللغوي والعقلي، ويندرج تحته أيضاً التصوير بالجرس ، والإيحاء ، والظل ، والحركة ، واللون ، وغير ذلك مما يذكره المحدثون في هذا الجانب.

ويجب أن نعلم أن هذا المصطلح ليس بدعاً،ولا غريباً على الدراسات البلاغية المتعلقة بالقرآن بل هو معلوم وأدواته معروفة،يقول الزمخشري بعد ذكر التشبيه كاشفاً عن بعض أغراضه: " والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار،حتى تبرزها وتكشف عنها وتصورها للأفهام " [2]، ويظهر هذا بصورة أوضح في قوله عن سر تأثير التشبيه التمثيلي:"...لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها؛لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها ..."[3].

وإذا كان هذا الأمر واضحاً في التشبيه،فهو كذلك في المجاز بنوعيه؛ لأنهما يدخلان دخولاً ظاهراً فيما يسمى(بالتشخيص)[4]،وكذلك (التجسيم ، والتجسيد)[5] وهما بعض ألوان التصوير[6]،وقد نص الدكتور أبو موسى على تنبه الزمخشري إلى مثل هذا فقال: "والزمخشري يدرك ما في الاستعارة من القدرة على التصوير والتشخيص"[7]، والتصوير ليس خاصاً بالحال، وإنما هو سمة عامة في كتاب الله،وهو أمر اعتنى به سيد قطب ـ رحمه الله ـ عناية خاصة في كتابه:(التصوير الفني في القرآن الكريم)،وسنورد من ذلك ما يخص الحال إن شاء الله، وذلك من خلال المباحث الآتية :

المبحث الأول : التصوير بطريق التشبيه .

المبحث الثاني : التصوير بطريق المجاز.

المبحث الثالث: التصوير بطريق الكناية.

المبحث الرابع : التصوير بوسائل أخرى .

---

[1] التصوير: هو نقل الصورة أو رسمها بالألفاظ والعبارات ، انظر نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ٩١،٩٠.

[2] الكشاف ٣ / ٤٥٥ في كلامه عن آية ٣ العنكبوت.

[3] الكشاف ٣ / ٤٧٨ في كلامه عن آية ٢٨.

[4] هو:((إبراز الجماد أو المجرد من الحياة من خلال الصورة بشكل كائن متميز بالشعور والحركة والحياة)) المعجم الأدبي ٦٧.

[5] هو :((إبراز الماهيات والأفكار العامة والعواطف في رسوم وصور وتشابيه محسوسة،هي في واقعها رموز معبر عنها)) المعجم الأدبي ٥٩.

[6] انظر ذلك بتوسع في : جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير ١٠٢وما بعدها ، وفيه تأصيل جيد لمفهوم هذه المصطلحات عند السابقين والمحدثين.

[7] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٩٩.

المبحث الأول : التصوير بطريق التشبيه

للتشبيه أدوات تختلف وتتنوع في مدلولها، ويمكن تعريفها بأنها :"ما يتوصل به إلى وصف المشبه بمشاركته المشبه به في الوجه، وهي: الكاف، وكأن، ومثل، وشبه، وما في معناهما ..."[1]، والأدوات التي لا نزاع فيها هي: الكاف وكأن، وما عداهما فهو محل نظر، فبعضهم يلحقها بالأدوات الدالة على التشبيه وبعضهم يخرجها منها؛ لأنها إخبار بالمشاهة ؛ لا أنها أدوات داخلة على المشبه به[2] .

وما يهمنا هنا هو أن هاتين الأداتين الرئيستين : (الكاف) و (كأنّ) قد جاءتا مع مدخولهما في موضع الحال في شواهد كثيرة ، وبخاصة (كأنّ) ؛ لذا ستكون الدراسة لهذا الموضوع على النحو الآتي :

أولاً : ما كان أداة التشبيه فيه (الكاف).

ثانياً : ما كان أداة التشبيه فيه (كأنّ).

---

(1) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان ٢١٢ .

(2) انظر شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ٣ / ٣٨٦ وأدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ١٥ وما بعدها.

أولاً : ما كان أداة التشبيه فيه (الكاف)[1].

(الكاف) تدل على التشبيه بجميع استعمالاتها؛ لذلك فهي الأصل في التشبيه، لبساطتها ولأن هذا المعنى لا يفارقها أبداً ، يقول محمد الشريف:"وهو معنى لا يكاد يخرج عنه شاهد من شواهدها في القرآن الكريم"[2]، ويحسن بنا هنا أن نذكر بعضاً من خصائص هذه الأداة حتى يظهر الفرق في التصوير بها دون غيرها،ومجمل هذه الخصائص ما يأتي[3]:

١- أنها تختص بتشبيه الأفعال والأحوال المدلول عليها بالمصدر ببعضها عندما يكون القصد إلى مطلق المشابهة في حصول الفعل، لا مماثلة مخصوصة .

٢- اتساع مجالها في الاستعمال،واتساع مدلول التشبيه فيها ليشمل أغراضاً متعددة،من بيان الحال ومقداره، وتقريره، وامكان المشبه، وتزيينه،وتقبيحه، واستظرافه ...إلخ.

وهذا لا يتحقق بكلتيه في الكلمات التي تحمل معنى المشابهة مثل : (شبه ، ومثل) وغيرها، أما (كأن) فتشترك مع (الكاف) في جوانب وتختلف عنها في أخرى، ومن ذلك أن (الكاف) تتميز بسعة الاستعمال ، بينما (كأنّ) تأتي في مواطن التقارب الشديد في التشبيه، وسيأتي بيان ذلك قريباً إن شاء الله.

وشواهد (الكاف) الواقعة في موضع الكاف ليست قليلة لكنها غالباً ما تحتمل أوجهاً أخرى مع الحالية، وسأنتقي بعض الشواهد التي يتضح فيها هذا الجانب ، فمن تلك الشواهد قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [٢٦٤ البقرة] ؛ إذ يجوز في (الكاف) في قوله جل ذكره : (كالذي ينفق) أن تكون في " محل النصب على الحال، أي : لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق..."[4].

وهذه الآية تصوير لحال المنافق الذي يخرج ماله ليراه الناس، ولا يقترن مع ذلك إيمان حقيقي، بل هو كافر بالله واليوم الآخر، وهذه الصورة المتكررة من المنافقين في كل زمان

---

(١) انظر أحكام (الكاف) ومعانيها في : رصف المباني ٢٧٢، والجنى الداني ٧٨.

(٢) معجم حروف المعاني في القرآن الكريم ٢ / ٧٩٥ .

(٣) انظر ذلك في أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ١١٩ وما بعدها.

(٤) الكشاف ٣١٢/١، وانظر البحر المحيط ٦٦٢/٢.

ومكان ذكرت هنا للتنفير منها ، وتحذير المؤمنين أن يقعوا فيها؛ لأنها سبيل إلى بطلان أعمالهم، لهذا جاءت الآية الكريمة بالنهي عن المراءاة في الصدقات والمن والأذى فيها، وقد جمعت الآية بين ذلك جمعاً رائعاً، فالنهي مسلط من أوله على المن والأذى في الصدقة؛ لأن في هذين الخصلتين إيذاءً للمُحْسَن إليه ، ولأن في ذلك إظهاراً للفضل فيدخل في المراءاة والمفاخرة، ثم شُدد ثانياً في النهي بتشبيه حالهم تلك - إن فعلوها - بحال المنافق الكافر المرائي، ولا شك أن هذا أشد وقعاً في النفوس من لو قيل لهم : لا تبطلوا صدقاتكم مرائين الناس، أو رئاء الناس، لما في التشبيه الناقل لهيئة المنافق الكافر من تشويه هذا الفعل؛ لأن النفوس المؤمنة مجبولة على النفور من كل ما يتصل بالكفر والنفاق وأهله، فضلاً عن أن يكونوا مُشْبِهين لهم في عملهم ذلك بما يوحي باقتدائهم بهم فيه،يقول أبو حيان :"أي:لا تبطلوا مشبهين الذي ينفق ماله بالرياء"[(١)]، والذي يظهر أن القول بالحالية أقوى هنا من القول بالنعت لمصدر على تقدير: إبطالاً كإبطال إنفاق المنافق المرائي[(٢)] ؛ لأن الكاف على القول بالحالية "لا تكون للمماثلة بين الأفعال وإنما لتشبيه الذوات"[(٣)]، ولا شك أن التنفير من هذا العمل في جانب استحضار هيئة المشبه بهم وهم المنافقون أظهر منها في النهي عن مماثلة أعمالهم فقط كما هو مدلول الوصف .

ولعل هذا ما جعل ابن عاشور يقدم القول بالحالية حيث يقول : "(الكاف) ظرف مستقر هو حال من ضمير (تبطلوا) ، أي : لا تكونوا في إتباع صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس وهو كافر لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وإنما يعطي ليراه الناس وذلك عطاء أهل الجاهلية ... لغرض من هذا التشبيه تفظيع المشبه به ، وليس المراد المماثلة في الحكم الشرعي ..."[(٤)].

ويبين الدكتور محمد شادي بعض جوانب هذا التصوير موضحاً ارتباط الصور في هذا المشهد ببعضها، وتآزرها في التنفير من هذا الفعل فيقول: "...ولهذا جاء في السياق

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٦٦٢ .

(٢) انظر الكشاف ١ / ٣١٢ ، والبحر المحيط ٢ / ٦٦٢ .

(٣) أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ١٢٩ .

(٤) التحرير والتنوير ٣ / ٤٨ .

نفسه[1] تصويرٌ يحذر من كل هذا [2] ... [إنه] تحذير شديد من المن والأذى نلمحه في المشبه به الذي يزجر كل منّان ... ثم ينتقل إلى تصوير بمقدار الإحباط ومداه بقوله: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ [٢٦٤البقرة] ... [وهنا] نرى المشبه به يقع مشبهاً ... فهو مَركز الصورتين والجامع بين التشبيهين ..."[3].

ومما جاءت فيه الحال ناقلةً صورة بشعة بقصد التنفير منها ما ورد في قوله تعالى عن المرابي: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [٢٧٥ البقرة]، فالكاف في قوله جل ذكره:(كما يقوم) في موضع الحال، ويصح أن تكون في موضع النعت لمصدر محذوف، والذي يظهر من تقدير الزمخشري أنه يقول بالحالية؛ لأن المعنى عنده:"أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين" [4]، وبه يقول القرافي وتقديره عنده :"لا يقومون في حالة من الحالات إلا في حالة شبههم بمن يتخبطه الشيطان من المس"[5]، وهو أول القولين عند أبي حيان حيث يقول: "الكاف في موضع الحال أو نعتاً لمصدر محذوف ..."[6] ، والفرق بينهما أن في القول بالحالية تشبيهاً للذات بالذات والهيئة بالهيئة أما في النعت فالتشبيه للأفعال ، ولا شك أن الأدخل في التنفير من حال أولئك المسعورين بالدنيا هو التشبيه بالهيئات ؛ لأنها أقدر على نقل تلك الصورة المروعة لآكل الربا يوم القيامة ، ومما يدل على أن المراد هو ذلك لا الأفعال قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الطبراني عن عوف بن مالك : "إياك والذنوب التي لا تغفر: الغلول، فمن غل شيئاً أتى به يوم القيامة ، وأكل الربا، فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط"[7] .

ويظهر هنا الاهتمام بشأن إبراز هذه الصورة للمرابي يوم القيامة وذلك بنفي كل

---

(١) أي: بعد آية الإنفاق والدعوة إلى الإخلاص .

(٢) أي: المن والأذى والرياء .

(٣) أساليب البيان والصورة القرآنية ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٤) الكشاف ١ / ٣٢٠ .

(٥) الاستغناء في أحكام الاستثناء ٦٣٢ ، ٦٣٣ .

(٦) البحر المحيط ٢ / ٧٠٥ .

(٧) ذكره الألوسي في: روح المعاني المجلد الثاني الجزء الثالث ٤٩، وهو في مجمع الزوائد ١١٩/٤،وقال الهيثمي:((فيه الحسين بن عبد الأول ، وهوضعيف)).

هيئات القيام مما يجعل النفس تتطلع إلى الهيئة التي يكون عليها ، ثم تأتي الحال مجرّدة حالته التي يلقى ربه عليها يوم القيامة ، إنها صورة مرعبة مخيفة ؛ لأن الإنسان مجبول على الخوف من هيئة المصروع وعلى الفزع منها، فكيف إذا تخيل نفسه ذلك المصروع وأمام العالمين كلهم في موقف هو أحوج ما يكون فيه إلى الطمأنينة والسكينة، وقد ذكروا في صفات قيامه وهيئته ألواناً:منها أنه ينهض على هيئة المجنون، وقيل :يقوم مسرعاً مفزوعاً، وقيل : ينهض ويسقط[1]، وكلها صور مفزعة يكفينا فيها بيان القرآن، فماذا يتخيل العقل من إنسان يقوم والشيطان متلبسه كما يدل عليه قوله سبحانه: (من المس) ثم هو يصرعه ويخبطه، والتخبط هو الضرب المتوالي من كل جهة[2].

إنها صورة مخيفة بكل المقاييس شارك السياق كله بألفاظه ودلالاته في إبرازها، ولنترك سيد قطب -رحمه الله- يجلي لنا ذلك حيث يقول : "إنها الجملة المفزعة، والتصوير المرعب: (لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) ، وما كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة، صورة الممسوس المصروع ، وهي صورة معروفة معهودة للناس، فالنص يستحضرها لتؤدي دورها الإيجابي في إفزاع الحس لاستجشاشه مشاعر المرابين، وهزها هزة عنيفة تخرجهم من مألوف عادتهم في نظامهم الاقتصادي، ومن حرصهم على ما يحققه لهم من الفائدة"[3].

وما كانت الصورة لتأخذ أبعادها التي هي عليها الآن لو جاءت الحال بغير التشبيه بأن يقال: لا يقومون إلا مصروعين ؛ لما في التشبيه من نقل صورتين، صورة معهودة معروفة وهي حال الممسوس، وصورة أخرى لم تشهدها العيون بعد، بل ستكون يوم القيامة، فحتى تظهر الصورة كاملة والمشهد تاماً ببشاعته وشناعته ورهبته جاء التشبيه بما هو معروف؛ إذ معلوم من دلالة التشبيه أن المرابي ليس ممسوساً ، ومع هذا يبعث يوم القيامة على تلك الهيئة للإعلام بأنها عقوبة خاصة به، تظهر فيها فضيحته ، وشدة عذابه ، فيا له من تصوير رادع لمن كان في قلبه وازع ! لكنه حب الدنيا الذي أعمى العيون عن

---

[1] انظر حاشية الشهاب علي البيضاوي ٢ / ٦٠٢ .
[2] انظر روح المعاني المجلد الثاني الجزء الثالث ٤٩ .
[3] في ظلال القرآن ١ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

قبح تلك الصورة وهولها .

ومما جاءت فيه الحال في صورة تشبيه قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [١٢٩ النساء]، فالكاف في قوله جل ذكره: (كالمعلقة): "في موضع نصب على الحال"[(١)]، والمعلقة هي التي ليست بذات بعل ولا مطلقة ، والمراد النهي عن الجور على المرغوب عنها فتمنع من حقها في القسمة من غير رضاها [(٢)]، ويظهر ما في التصوير بالحال هنا من استجاشة مكامن الرحمة والشفقة في الأزواج على زوجاهم اللاتي رغبوا عنهن وأهملوهن؛ إذ كيف يكون هذا من إنسان مؤمن يترك هذه المسكينة حبيسة عنده[(٣)] فلا هو يطلقها ولا هو يعطيها قسمها، ولم يأت النهي هنا عن الجور مباشراً فقط، بل جيء معه بالصورة المعبرة المرئية؛ لأنها أعظم تأثيراً، فالعين ترى الشيء المعلق ، فهو ليس إلى الأرض ولا إلى السماء ، وهذه الصورة بكل ما تحمل من الإيحاءات والدلالات التي منها استشعار اضطراب تلك المرأة وقلقها وعدم استقرارها على حال،حتى لتصبح حياها مليئة بالتعب والعناء والزعزعة والقلق[(٤)] ، -نقلتها (الكاف) التي لا يشترط معها أن يكون التشابه من كل وجه ، بل هو هنا في الوجه المذكور من عدم الانحياز إلى قرار ، وهذا ظلم ظاهر ، وقد أخرج في هيئة صورة مبينة لحال تلك المسكينة، صورة مرئية، يقول الدكتور محمود حمدان : "الكاف بمعنى (شبه) لدلالتها على الشبه في صورة مرئية وهيئة مشاهدة وإن كانت في المشبه على سبيل التخييل ؛ إذ شبهت المرأة بالشيء المعلق بعلاّقة ، لا يستقر على الأرض ولا على ما علق به"[(٥)].

إنها صورة ناقلة لبعض ظلم الأزواج مظهرة شناعة هذا العمل وشدة الظلم فيه ، مما يجعل النفس المؤمنة تنفر منه أشد النفرة ، ولهذا كانوا يخافون من الجور في القسم بين النساء ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : "اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني

---

(١) التبيان ١ / ٣٩٦ ، وانظر البحر المحيط ٤ / ٨٩ .

(٢) انظر الكشاف ١ / ٥٧٢ ، والبحر المحيط ٤ / ٨٠ .

(٣) في قراءة أبي : فتذروها كالمسجونة ، وقراءة عبد الله ؛ فتذروها كأنها معلقة ، وفسرها ابن عباس بقوله : كالمحبوسة بغير حق. انظر البحر المحيط ٤ / ٨٩ .

(٤) انظر من بلاغة القرآن ١٩٨ .

(٥) أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ١٧٠ .

فيما تملك ولا أملك"[١]، وبلغ من خوف بعضهم من الجور في القسمة ــ كما هو حال معاذ رضي الله عنه ــ أنه إذا كان عند إحدى زوجتيه لم يتوضأ في بيت الأخرى ، فماتتا بالطاعون فدفنهما في قبر واحد[٢].

ومما جاءت فيه الحال مصورة لقدوم العباد على رهم يوم القيامة ما ورد في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [٩٤ الأنعام] ، يقول العكبري : " (كما خلقناكم) الكاف في موضع الحال، وقيل:هي صفة لمصدر محذوف: أي مجيئاً كمجيئكم يوم خلقناكم"[٣]، وقد سبق أن القول بالحالية في مثل هذا يعني تشبيه هيئة وذات بذات، وأما على القول الثاني فيكون من تشبيه الفعل بالفعل، والأول أدل على التصوير المراد منه إظهار حال العباد يوم القيامة ومدى ضعفهم ، فهم يقدمون على رهم منفردين يشبهون حالهم أول خلقهم، يقول ابن عاشور: "وقوله: (كما خلقناكم أول مرة) تشبيه للمجيء أريد منه معنى الإحياء بعد الموت الذي كانوا ينكرونه فقد رأوه رأي العــين ..."[٤].

ويا لها من صورة ما أعظم شأنها في هذا السياق! فالخطاب هنا للظالمين المنكرين - كما يدل عليه ما قبل الآية وما بعدها-وهي تبين حال هؤلاء المستكثرين بأتباعهم وأموالهم في الدنيا كيف يقدمون يوم العرض على رهم فرادى لا يملكون شيئاً ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [٩٤ الأنعام]، وحتى يتم تصوير المشهد كاملاً بما فيه من دلالة على ضعفهم وقلة حيلتهم مع ما كانوا عليه في الدنيا من المنعة ، وأيضاً لرد شبهتهم في إنكار المعاد جاءت الحال (كما خلقناكم) مذكرة لهم بحالهم من قبل، وهي حال لا يمكنهم إنكارها ولا التنصل من الاعتراف بها، وهي حالة تدل من جانب على قدرة الخالق العظيم ، وعلى أنه المنعم المتفضل وأنه المستحق للعبادة لا ما سواه ، وتدل من جانب آخر على أن الإنسان أصله الضعف ومع هذا هو يجادل ويتكبر، فكانت هذه الحال المصورة ناقلة لصورة التفرد التي يقدمون بها على الله عياناً كأنها أمامهم، يقول الدكتور محمود

---

[١] سنن الترمذي ، كتاب النكاح ، باب ماجاء في التسوية بين الضرائر ، (١١٤٢)، ٣/٤٤٦.
[٢] انظر الكشاف ١ / ٥٧٣ ، والبحر المحيط ٤ / ٨٩ .
[٣] التبيان ١ / ٥٢٢ .
[٤] التحرير والتنوير ٧ / ٣٨٢ .

حمدان أي : "... منفردين عن الأولاد والأموال والأوثان التي عبدتموها من دون الله ، تشبهون في هذه الصورة وهذه الهيئة ما كنتم عليه عند الخلق الأول ..."[1]، ولو قيل:فرادى فقط، لما كان فيه من الدلالة على المراد كما هو الحال مع التشبيه؛ لأن في التشبيه استحضاراً للصورة بما يجعلها ماثلة للعيان فيكون تأثيرها أعمق وأبعد.

ومما جاءت فيه الحال مشاركة في جزئيات التشبيه التمثيلي ما ورد في قوله تعالى في شأن أحد ضُلاّل بني إسرائيل: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١٧٥، ١٧٦ الأعراف]، فأصل التشبيه بالكلب، ولكن في حال معينة، وتلك الحال وقعت موقع الحال ، يقول الزمخشري:"فإن قلت: ما محل الجملة الشرطية ؟ قلت: النصب على الحال،وكأنه قيل : كمثل الكلب ذليلاً دائم الذلة لاهثاً في الحالتين"[2]، "وهذا التمثيل من مبتكرات القرآن"[3]، وقد أشار ابن عاشور إلى أنه تشبيه تمثيل مركب،وجه الشبه فيه منتزع من متعدد،ولكنه أنكر أن يكون مآل التشبيه إلى إظهار خسة المشبه[4]، وليس القول على ما قال، بل الخسة مراده هنا، وهو مفهوم كلام الزمخشري ، وليس من منافاة بين القول بالتمثيل والقول بدلالة التشبيه على الخسة؛ لأن مجرد التشبيه بالكلب يدل على الدونية، فكيف إذا خصصت بعض أحواله الخسيسة المشعرة بذلك بل هي أخس أحواله[5]

ولا شك أن الجملة الحالية الشرطية أسهمت في رسم ذلك المشهد المنفر لمن صد عن آيات الله ورضي بالدنيا وأخلد إليها، إنها صورة اللهث في الكلب المنبئة عن التعب والنصب فيما لا طائل تحته، فـ"نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد، إذا نحن بهذا المخلوق لاصقاً بالأرض ملوثاً بالطين ، ثم هو مسخ في هيئة كلب يلهث إن طورد ويلهث

---

(1) أدوات التشبيه ودلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ١٣٩ .

(2) الكشاف ٢ / ١٧٨ .

(3) التحرير والتنوير ٩ / ١٧٧ .

(4) انظر التحرير والتنوير ٩ / ١٧٨ .

(5) انظر مجمل هذا في الكشاف ٢ / ١٨٧ .

إن لم يطارد ..."[1] .

ومن الأحوال المصورة لقدرة الله سبحانه وعظيـــم آياته ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ [٣٢ الشورى] ، فقوله جل ذكره: (كالأعلام) في محل نصب من (الجوار)[2]، والآيات هنا كلها ترسم مشهداً حاضراً يعرفه كثير من الناس أو يسمعون عنه، إنه مشهد السفن الضخمة وهي تمخر عباب البحر، وهي تسير مع الرياح أو تقف، وهي في كل ذلك تحت قهر القهار ورحمته ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [٣٣ ، ٣٤ الشورى] ، ومجيء الحال هنا على هذه الكيفية ، أي بالتشبيه دون أن يقال: الجوار المنشآت في البحر عظيمةً، لما في التشبيه من التصوير الماثل للعيان والاعتبار به حينئذ أعظم، فقوله: (كالأعلام) حال مصورة لعظم تلك السفن المائجة في البحر، والتشبيه بالأعلام وهي الجبال العظيمة للدلالة على كبر أجرام السفن وهذا ملحظ مهم هنا؛ لأن النعمة حينئذ تكون بها أكثر،والعبرة بها أظهر[3]، كيف لا يكون ذلك وهذه الأجرام الضخمة المليئة بالبشر وما به يقوم معاشهم، تطيش فوق الماء دون أن تغوص فيه، إنها آية ونعمة،يقول سيد قطب -رحمه الله-: "والسفن الجواري في البحر كالجبال آية أخرى من آيات الله، آية حاضرة مشهودة، آية تقوم على آيات كلها من صنع الله دون جدال، هذا البحر من أنشأه ؟ مَنْ من البشر أو غيرهم يدعى هذا الادعاء ؟ ومن أودعه خصائصه من كثافة وعمق وسعة حتى يحمل السفن الضخام ؟ وهذه السفن من أنشأ مادها، وأودعها خصائصها فجعلها تطفو على وجه الماء ؟ ..."[4] .

وللدكتور أحمد بدوي ملمح جميل في سر إيثار المشبه به حيث كان بلفظ (الأعلام) دون (الجبال) ، فيذكر أن كلمة (الجبال) أوثرت مع الموج في قوله تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [٤٢ هود][5]، "أما عند وصف السفن فقد آثر كلمة (الأعلام)

---

[1] في ظلال القرآن ٣ / ١٣٩٦ .

[2] انظر تفصيل إعرابها في التبيان ٢ / ١١٣٤ .

[3] انظر التحرير والتنوير ٢٥ / ١٠٥ .

[4] في ظلال القرآن ٥ / ٣١٥٩ .

[5] وسيأتي الحديث عن هذه الآية في مبحث التصوير بالصفة إن شاء الله ، ص ٥٥٣ من هذا البحث.

جمع عَلَم بمعنى جبل وسر إيثارها هو أن الكلمة المشتركة بين عدة معانٍ تتداعى هذه المعاني عند ذكر هذه الكلمة،ولما كان من معاني العَلَم (الراية) الّتي تستخدم للزينة والتجميل،كان ذكر الأعلام محضراً إلى النفس هذا المعنى ، إلى جانب إحضارها صورة الجبال، وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظاً عند ذكر السفن الجارية فوق البحر، تزين سطحه، فكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معاً، وفي كلمة (الأعلام) وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء"[1].

[1] من بلاغة القرآن ٢٠٠ ، ٢٠١ .

ثانياً : ما كان أداة التشبيه فيه (كأن)[1].

لا شك أن (كأنّ) تختلف في مدلولها عن أختها (الكاف) بغض النظر عن كونها بسيطة، أو مركبة ، فنحن هنا سنتعامل معها على أنها وحدة متكاملة لها مدلولها ولها خصائصها، التي تميزها عن (الكاف) ومن ذلك ما يأتي :[2]

١- أنها تحمل من المبالغة في التشبيه ما لا يكون في الكاف؛لذا فهي تستعمل حيث يقوى الشبه ويشتد،لذا قالت بلقيس لما رأت العرش:﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ [٤٢النمل]، بينما (الكاف) فيها إلحاق للناقص بالكامل، وهذا فرق جلي بينهما، يظهر في مثل قولك: زيد كالأسد، وكأن زيداً الأسد، ففي التشبيه بـــ (كأن) "زيادة لم تكن في الأول، وهي أنْ تجعله من فرط شجاعته، وقوة قلبه، وأنه لا يروعه شيء بحيث لا يتميز عن الأسد، ولا يقتصر عنه، حتى يُتوهم أنه أسد في صورة آدمي..."[3].

٢- أن محط العناية والاهتمام مع (كأن) هو المشبه ؛ لأن المبالغة في التشبيه وتأكيده مقتضى حال يكون فيها المشبه في محل العناية به، لذا لابد أن يكون له ذكر سابق.

٣- تأتي (كأن) فيما يكون فيه غرابة من التشبيه، وذلك لكون المشبه به غير محقق الوقوع لكونه مستحيلاً، أو بعيداً عن المشبه، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ ﴾ [٣٢ المائدة].

٤- أن هناك فرقاً في درجة التشبيه وقوته بين (كأنْ) المخففة، و(كأنّ) المثقلة، فالأخيرة أقوى لكثرة حروفها وقوة أصواتها.

٥- أن (كأن) وخاصة المكفوفة بـــ (ما) والمخففة تجيء عند إرادة تشبيه الشيء بنفسه باعتبار حالين مختلفين كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [٦ الأنفال] فشبههم الله في حال خوفهم عند الخروج ، بحالهم لو كانوا يساقون إلى الموت وهم ينظرونه .

وبعد هذه الإلماحة السريعة لهذه الخصائص، فلابد أن نعلم أن أكثر شواهد (كأنّ)

---

[1] انظر أحكام (كأنّ) ومعانيها في: رصف المباني ٢٨٤، والجنى الداني ٥٦٨.

[2] انظر تفصيل هذه الخصائص في: أدوات التشبيه دلالتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ٢٠٩ ، وما بعدها .

[3] دلائل الإعجاز ٢٥٨.

جاءت حالاً، وهذا يعني أن التصوير بالحال التشبيهية كثير في القرآن إضافة إلى ما ذكرناه مع (الكاف)، ثم إن (كأن) بكل أصنافها قد جاءت في مواضع حالية وهي (كأنّ) المشددة وهي الأكثر، و(كأنْ) المخففة، و(كأنما) المكفوفة بـــ (ما)، ونظراً لكثرة شواهدها رأيت أن أقسمها على النحو الآتي:

أ- ما كان لتصوير شدة عذاب الله وقدرته .

وقد جاءت الأحوال التشبيهية في هذا الجانب مصورة هيئة العذاب، وهيئة المعذبين، والثاني هو الأكثر، وكل الآيات كانت عن الأمم السابقة، فأما ما كان مصوراً لهيئة العذاب فلم يرد عليه إلا قوله تعالى:﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٧١ الأعراف] ، فالحديث هنا عن بني إسرائيل عندما رفضوا أحكام التوراة ، فرفع الله الطور فوق رؤوسهم ثم أمروا بقبول أحكام كتابهم، فانصاعوا لذلك من هول الموقف[١] ، يقول أبو حيان مبيناً هذه الصورة المروعة لذلك النتق:"والجملة من قوله :(كأنه ظله) في موضع الحال، والمعنى:كأنه عليهم ظله، والظلة ما أظل من سقيفة أو سحاب، وينبغي أن يحمل التشبيه على أنه بظلة مخصوصة ... فالمعنى ـ والله أعلم ـ : كأنه حالة ارتفاعه عليهم ظله من الغمام، وهي الظلة التي ليست تحتها عمد، بل إمساكها بالقدرة الإلهية وإن كانت أجراماً، بخلاف الظلة الأرضية فإنها لا تكون إلا على عمد، فلما دانت هذه الظلمة الأرضية فوقهم بلا عمد شبهت بظلمة الغمام التي ليست بلا عمد"[٢].

ولا شك أن هذا المشهد الذي صورته الحال هنا مشهد مثير دال على القدرة الإلهية، خارق للعادة، وقد كان يكفي الإخبار برفع الجبل، ولكن في ذكر الحالين (فوقهم) و(كأنه ظله) قطع لكل توهم لغير المراد، وتنصيص على موضع العبرة والقدرة وإخبار أن الجبل أصبح فوق رؤوسهم، وحتى تكتمل الصورة وتأخذ كل أبعادها المشعرة بالرهبة والخوف

---

(١) الكشاف ٢ / ١٧٥ .

(٢) البحر المحيط ٥ / ٢١٧ ، وهكذا نصه وهو غير مستقيم ، ولعل الصحيح (التي ليس لها عمد) : والصحيح أيضاً : (الظلــة) لا (الظلمة) في الموضعين .

في ذلك الموقف العصيب جاءت الحال التشبيهية المقربة لتلك الصورة التي ما عهد مثلها .

ياله من مشهد حقيقي واقع ! جبل معلق بين السماء والأرض والناس تحته، وهم في محيطه غير خارجين عنه كما ينبئ عنه تظليله لهم، يقول الدكتور أحمد بدوي مبيناً تآزر الكلمات في تصوير المشهد:"وإذا أنت تأملت أسلوب الآية الكريمة، وجدت هذا التعبير أقوى من أن يقال:وإذ صار الجبل كأنه ظله؛ لما في كلمة (نتق) من تصوير انتزاع الجبل من الأرض تصويراً يوحي إلى النفس بالرهبة والفزع، ولما في كلمة (فوقهم) من زيادة هذا التصوير المفزع وتأكيده في النفس ، وذلك كله يمهد للتشبيه خير تمهيد، حتى إذا جاء مكن للصورة في النفس ، ووطد من أركانها ، ومع ذلك ليس التشبيه في الآية عملاً إضافياً، بل فيه إتمام المعنى وإكماله، فهو يوحي بالإحاطة بهم ، وشمولهم ، والقرب منهم قرب الظلة من المستظل بها، وفي ذلك ما يوحي بخوف سقوطه عليهم"[١].

إنها صورة تبين حجم الآيات التي تُعرض على مسامع بني إسرائيل وأعينهم ، ومع ذلك فهم يؤمنون قليلاً ثم يكفرون.

أما ما يصور هيئات المعذبين فبعضه يكون بتشبيه حالهم بعد العذاب بما هو شاهد ومعروف للناس، وبعضه يكون بتشبيه حالهم بعد العذاب ببعض حالهم قبل تنعمهم وغنائهم وهي حال معاكسة، وهي التي أشرنا إليها في خصائص (كأن) من قبل.

فأما الأول وهو التشبيه بما هو مرئي مشاهد فكقوله تعالى في شأن عاد لما كذبوا : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [١٩، ٢٠ القمر].

يقول أبو حيان موضحاً هذه الصورة المرعبة لهلاك القوم:"والجملة التشبيهية حال من الناس...شبههم بأعجاز النخل المنقعر،إذ تساقطوا على الأرض أمواتاً وهم جثث عظام طوال،والأعجاز:الأصول بلا فروع قد انقلعت من مغارسها،وقيل:كانت الريح تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس ..."[٢] ، وعلى أي تقدير فهي صورة مبينة لهيئة بشعة صاروا إليها بتكذيبهم، وهي ناطقة بقدرة الله وقوته ، فلك أن تتخيل جثثاً متناثرة

---

(١) من بلاغة القرآن ١٩٩ .

(٢) البحر المحيط ١٠ / ٤٢ .

ومتراكمة من كثرتها، متروعة الرؤوس في محيط من الأرض، كأنهم في تلك الهيئة جذوع نخيل بالية ساقطة على الأرض ، لا حياة فيها، ويكتمل هذا المشهد بقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [٧ الحاقة]، إنها صورة مروعة للموت الجماعي، ولانتهاء الحياة من ميدان كان يعج بها، فلا حركة ولا عمل ، كل شيء انتهى بقدرة القدير سبحانه، يا لها من صورة موحشة، لم يبق فيها إلا أصوات الرياح من خلال تلك الأعجاز الخاوية ، تبعث مزيداً من الوحشة والخوف، إنه تصوير بديع يجعل الإنسان بكل جوانحه معه : بشعوره وعقله وفطرته فيقشعر جلده ويرجف فؤاده، كيف لا يكون ذلك "والمشهد مفزع مخيف ، وعاصف عنيف"[١] ، قد تآزرت فيه كل مقومات الإرهاب والتخويف، يقول الدكتور محمود حمدان : "وهذا التشبيه بما صاحبه من الفعل (تترع) ووصف النخل بـــ (منقعر) والتشبيه بالأعجاز لا بالنخلة كلها ، وأداة التشبيه (كأن)[٢] كل ذلك يؤكد المشابهة بين هؤلاء ، والنخل المقلوع من مغارسه"[٣].

وكما هو ظاهر فهذه الصورة بكل ما فيها من دلالات مرتكزها على التشبيه ؛ لأنه أوضح أنواع التصوير ، والترهيب والتخويف يحتاج إلى مثل هذا النقاء في التمثيل حتى يبلغ التأثير مبلغه، ثم إن الصورة عندما تكون في بيان الهيئة والحال يكون تأثيرها بيناً ـــ ولعل هذا يعلل كثرة التصوير بالحال في الذكر الحكيم خاصة بالتشبيه ـــ ؛ وذلك لأن بيان الهيئة يكون مصحوباً بعوامل تساعد على استشعار جوانب الصورة فيه ، و من تلك العوامل (الصاحب ، والعامل) فبالربط بين هذه العوامل والأركان تكتمل جوانب الصورة مع الحال فيتم المراد.

ومما جاءت فيه الحال مصورة لما حل بالأقوام من العذاب ما كان على سبيل تشبيههم ببعض أحوالهم ، وهذا ما سبقت الإشارة إليه في خواص (كأن) فإنه يشبه الأمر بها بنفسه في حالين مختلفين، ومن هذا قوله تعالى في شأن قوم صالح (ثمود) : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

---

[١] في ظلال القرآن ٦ / ٣٤٣١ .

[٢] ذكرنا أن من خصائص (كأن) أنها تجيء لما فيه غرابة ، وهذا العذاب الذي أخذ به قوم هود (عاد) كان غريبـــاً وعجيبـــاً في شدته وتدميره ، يلمح إلى هذا أبو حيان بقوله : ((وتكرير التهويل بالاستفهام قبل ذكر ما حل بهم وبعده ، لغرابة ما عذبوا به من الريح ، وانفرادهم بهذا النوع من العذاب)) البحر المحيط ١٠ / ٤١ .

[٣] أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ٢١٢ .

ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [٦٧ ، ٦٨ هود][1]، فالملحوظ هنا أن التشبيه جاء بـــ(كأن) المخففة في كل الشواهد ، وقد علل أحد الباحثين هذا التغاير في أداة التصوير(كأن) بين الثقل والخفة، بأن ذلك عائد إلى المراد منها، فالخفيفة أقل دلالة على التوكيد والمبالغة من المثقلة [2]، ولكن هذا لم يظهر لي فيما نحن فيه؛ فالموقف يحتاج إلى التأكيد والمبالغة في نقل صورة حال المعذبين بعد العذاب، اللهم إلا أن يقال إن ما جاءت فيه (كأن) مخففة فيما يخص صور العذاب كان لا يخص العذاب ذاته ولا المعذبين وقت التعذيب، بل هو لحالهم بعد ذلك وهذا أهون،فالتشبيه هنا لثمود بعد إهلاكهم بحالهم قبل أن يقيموا ويغنوا أي بالعدم؛ لأن معنى (لم يغنوا) أي لم يقيموا[3]، فالمراد أنه لم يبق لهم شيء مما يكون به الغناء لا في الأنفس ولا في الأموال بل هو هلاك عام.

لاشك أنها صورة مذكرة ومخيفة في الوقت ذاته ؛ لأنها دالة على حجم الدمار الذي حل بهم، حتى كأنهم بعد تعذيبهم لا وجود لهم من قبل، ولا عجب في هذا فتلك قدرة الله القوي العزيز .

ب - ما كان لتصوير بعض أحوال المؤمنين .

ومن هذا ما ورد في شأن عصى موسى عليه الصلاة والسلام كما في قوله تعـــالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ ﴾ [١٠النمل]، فالرؤيا هنا بصرية بلا شك،و (تهتز) جملة في موضع الحال من الهاء في (رآها)،وكذلك الجملة التشبيهية:(كأنها جان) حال من فاعل (تهتز)[4]وهي حال متداخلة،لكنها تعود لصاحب واحد هو العصا، والحق أن الحالين مصوران ، فأما الأولى (تهتز) فهي موحية بالحركة والاضطراب ، وتشديد الزاي وما فيها من الأزيز يوحي بتلك الحركة المتوالية ، فهو

---

[1] ومثل هذه الآية ما جاء في آية [٩٢ الأعراف] في شأن قوم شعيب ، وما ورد في آية [٢٤ يونس] في تشبيه الحياة الدنيا وأهلها.

[2] انظر أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ٢٢٣ وما بعدها .

[3] انظر التحرير والتنوير ١٢ / ١١٥ .

[4] انظر التبيان ٢ / ١٠٠٥ .

تصوير بالجرس والإيحاء ، ثم في الحال الثانية إيضاح لحال الاهتزاز العجيب الغريب ؛ لذا جاءت معها (كأن) ، فقد شبهت العصا "حالة اهتزازها بالجان ، فقيل هو صغار الحيات، شبهها به في سرعة اضطرابها وحركتها ، مع عظم جثتها"[1].

وقد كشفت هذه الحال بهذا التصوير الموضح للحقائق كيف أن العصا الجامدة الساكنة التي لا تتحرك قد تحولت بقدرة القدير إلى جسم حي عظيم متحرك نشط ، شديد الاهتزاز[2] ، إنها صورة ماثلة كأننا نراها الآن في وضوحها وجلائها ، ولما كان هذا الحدث خارقاً للعادة ، فزع منه موسى بجبلته البشرية ، وخاف من هذا التغيير المفاجىء ، ومن هذه الصورة الجديدة لعصاه، لكنها قدرة القدير سبحانه ، الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

ومن هذا القبيل أيضاً ما جاء في بيان حال المؤمنين في خروجهم لغزوة بدر كما في قوله تعالى :﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [٦ الأنفال]،فهذه الحال (التشبيهية)[3] جاءت معها (كأن) المكفوفة بـــ (ما) ليكون تصويرها من أول وهلة للحدث ، لأنها داخلة على الفعل ، وليتسنى تشبيه حالهم تلك بحال أخرى متخيلة لكنها يمكن أن تقع ، فكانت الحال بكل هذه المقومات صورة صادقة لمكنونات النفس،خاصة في مواجهة العدو والتيقن بأنها ربما تذهب معه المهج وتزهق الأرواح، فذلك الفريق من المؤمنين رأى قلة عدد المسلمين وعدم استعدادهم للغزو، فعظم عليه الأمر، فصور الله حالهم تلك بهذه الحال الناطقة:(كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) "شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يُسار بهم إلى الظفر والغنيمة[4] بحال من يساق على الصفا إلى الموت وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا شك فيها"[5].

إنها صورة تجعل متخيلها يعيش أحداثها ويتقمص أشخاصها، وهذا هو عمق

---

(1) البحر المحيط ٨ / ٢١٣ .

(2) انظر التحرير والتنوير ١٩ / ٢٢٨ .

(3) انظر التحرير والتنوير ٩ / ٢٦٨ .

(4) هذا هو ما قدره الله لهم ، لكنهم خرجوا وفي بعضهم خوف من لقاء العدو كما جاء في الحديث حيث قال بعـــضهم : ((لا والله ما لنا طاقة في قتال العدو))، رواه الطبراني في المعجم الكبير، ح(٤٠٥٦)، ١٧٤/٤، قال عنه الهيثمي: إسناده حسن، مجمـــع الزوائد ٧٦/٦.

(5) البحر المحيط ٥ / ٢٧٦ .

التصوير، والإعجاز في تشبيهات القرآن ، إن التعبير القرآني هنا "يعيد تمثيل الموقف بمشاهده وحوادثه وانفعالاته وخفقاته ، ليعيشوه مرة أخرى ، ولكن في ضوء التوجيه القرآني ، فيروا أبعاده الحقيقية التي تتجاوز بدراً والجزيرة العربية والأرض كلها..."(١) ، إننا اليوم ونحن نقرأ هذه الآيات، ونتأمل تلك الصور ، نحس معها بتواصل عجيب ، فيجد القارئ أنه متشبع بالجو النفسي الذي تشحنه فيه تلك الصورة ، حتى كأنه ليعيش بعض أحداثها ويتعاطف مع أشخاصها .

وفي صورة أخرى فيما يخص المؤمنين تأتي الحال التشبيهية مظهرة المراد ، مجلية المقصود، ولنتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ [٤ الصف] ، يقول الزمخشري : "وقوله :(صفاً كأنهم بنيان) حالان متداخلان"(٢) ، وهذه صورة أخرى للمؤمنين في القتال ، صورة يحبها الله عز وجل ، ويندب إليها لأنها من مظاهر الاتحاد والارتباط، وتداخل الحالين ينبئ عن تكميل ثانيهما لأولهما في المشهد والدلالة ، يقول البقاعي: "ولما كان الاصطفاف يصدق مع التقدم والتأخر اليسير نفى ذلك بقوله حالاً بعد حال:(كأنهم) أي : من شدة التراص والمساواة بالصدور والمناكب والثبات في المراكز (بنيان) وزاد في التأكيد بقوله: (مرصوص) ، أي : عظيم الاتصال شديد الالتحام ..."(٣).

جاءت الحال التشبيهية - كما رأينا - مصورة لهيئة واقعية للاصطفاف، وهذا التشبيه لا يدل على مجرد النظام ، بل هو يتعدى ذلك إلى ما وراء هذا النظام والانتظام من القوة والمنعة والحفظ لما وراءه، فالبنيان المرصوص قوي متماسك ، صامد أمام أنواع التخريب والهدم حافظ ـ بإذن الله ـ لما وراءه، وهكذا يجب أن تكون الفئة المؤمنة في ساحة الوغى؛ لأن منظر الاصطفاف على هذه الهيئة يشعر بالهيبة والإرهاب للعدو، وينبئ عن العزة في نفوس المؤمنين، ومن مدلولات هذه الصورة أن التلاحم والتعاون والعمل مع المجموعة المؤمنة هو المطلوب ، فلابد من تلاقي القلوب ، واتحاد الأهداف ، والعمل في صف

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٤٨٢ .
(٢) الكشاف ٤ / ٥٢٣ .
(٣) نظم الدرر ٢٠ / ٨ .

واحد، وهذا وإن كان مطلوباً في كل ميدان فهو في ميدان القتال ومنازلة الأعداء أظهر وأبين، يقول سيد قطب -رحمه الله - مجلياً دلالة هذه الصورة : "وهذه الصورة التي يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم ، وتوضح لهم معالم الطريق، وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذي يرسمه التعبير القرآني المبدع: (كأنهم بنيان مرصوص) بنيان تتعاون لبناته وتتضام وتتماسك ، وتؤدي كل لبنة دورها، وتسد ثغرها ؛ لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها، تقدمت أو تأخرت سواء ، وإذا تخلت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها أو على جانبيها سواء، إنه التعبير المصور للحقيقة لا لمجرد التشبيه العام، والتعبير المصور لطبيعة الجماعة ، ولطبيعة ارتباطات الأفراد في الجماعة ، ارتباط الشعور، وارتباط الحركة ، داخل النظام المرسوم ، المتجه إلى هدف مرسوم"[1].

ج - ما كان لتصوير بعض أحوال الكافرين والمنافقين.

كان تصوير أحوال الكافرين والمنافقين أكثر كمّاً مما يخص المؤمنين، وأكثر ما تردد من تلك الصور،ما كان متعلقاً بصدودهم عن ذكر الله وآياته كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١٠١ البقرة]، فـ "الضمير في (جاءهم) عائد على بني إسرائيل أو على علمائهم... [و] (كأنهم لا يعلمون) جملة حالية، وصاحب الحال (فريق)... وهو تشبيه لمن يعلم بمن يجهل؛ لأن الجاهل بالشيء لا يحفل به ولا يعتد به؛ لأنه لا شعور له بما فيه من المنفعة... أي:كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله، لا يداخلهم شك لثبوت ذلك عندهم وتحققه؛وإنما نبذوه على سبيل المكابرة والعناد"[2].

وهذا التشبيه من قبيل ما سبق من تشبيه الشيء بنفسه في حالتين مختلفتين ، فبنو إسرائيل يقرأون الكتاب وهم متحققون منه، لكنهم عناداً ومكابرة تركوه وهجروه ،

---

[1] في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٥٥ ، ومما هو من تصوير حال المؤمنين ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [٣٤ فصلت] ، وهي صورة ناقلة لمدى نظافة الصدور بعد إشاعة المعروف والإحسان والسماحة بين المؤمنين، العدو كأنه ولي حميم، حالان متضادان، ونقلة كبيرة تصورها لنا هذه الحال التشبيهية، وتعلمنا قدر تأثير المعروف والإحسان.

[2] البحر المحيط ١/٥٢٠ - ٥٢٢ .

فشبه الله حالهم تلك بحال من لا يعلم لذلك الكتاب قدراً، ولا شك أن في هذا التصوير والتشبيه تشديداً في النكير عليهم؛ لأن مقتضى حالهم يضاد هذه الحالة فكيف يكونون عليها ، ثم إنه لو قيل : (نبذوه) دون هذه الحال التصويرية ، لما كان في ذلك بيان لإيغالهم في النبذ على صورة غير معهودة من أمثالهم ، ولهذا جاءت (كأن) ، وشكلت مع مدخولها هذه الحال التي أوقفتنا على قدر ذلك الصدود والجحود والخبث ، وصورت صنيعهم بما لم يعهد مثله من أمثالهم .

والآية تتآزر ألفاظها في نقل تلك الصورة الشنيعة لفعلهم ، ومن ذلك قوله تعالى : (وراء ظهورهم) ، والتعبير بـــ (نبذوه) والنبذ هو الطرح ، كلها صور متآزرة تصور في نفس قارئها مقدار ذلك الجرم الذي ارتكبوه في حق كتاب ربهم ، يقول سيد قطب – رحمه الله- :"والمقصود طبعاً أنهم جحدوه وتركوا العمل به ، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم، ولكن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس، ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة، تصور هذا التصور تصويراً بشعاً زرياً، ينضح بالكنود والجحود، ويتسم بالغلظة والحماقة، ويفيض بسوء الأدب والقحة، ويدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة، حركة الأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهور"[(١)] ومما يصور ذلك العنف، ومدى ذلك السوء، الصورة الثانية:(كأنهم لا يعلمون)، إن هذه الجملة قامت مقام صور كثيرة كلها تقرر مدى الحال التي وصلوا إليها مع كتاب ربهم.

ومن صور الإعراض أيضاً نوع آخر يتبين من خلال هذه الصورة المعبرة في قوله تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٦، ٧ لقمان]،فهذا تصوير لحجم الإعراض وشدته من كل مجرم يريد الصد عن هذا الحق المبين،والكتاب العظيم، وهكذا كان شأن النضر بن الحارث، حيث كان يشتري كتب الأعاجم ويحدث قريشاً بحديث رستم واسفندار، ويقول : أنا أحسن حديثاً من محمد[(٢)]، "تضمنت هذه الآية ذم المشتري من وجوه : التولية

---

(١) في ظلال القرآن ١ / ٩٥ .

(٢) البحر المحيط ٨ / ٤١١ .

عن الحكمة ، ثم الاستكبار، ثم عدم الالتفات إلى سماعها ، كأنه غافل عنها، ثم الإيغال في الإعراض بكون أذنيه كأن فيهما صمماً يصده عن السماع"[1]، إنها صور متلاحقة – كما نرى – مدارها كلها التشنيع، وذروة التصوير فيها الجملتان الحاليتان (كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقراً)[2] ، بما فيه من ترق في المبالغة في التصوير ، يقول ابن عاشور : "وكرر التشبيه لتقويته مع اختلاف الكيفية في أن عدم السمع مرة مع تمكن آلة السمع، ومرة مع انعدام قوة آلته ، فشبه ثانياً بمن في أذنيه وقر ، وهو أخص من معنى (كأن لم يسمعها)"[3].

إن هذه الصورة الممقوتة هنا تلاحق كل من سخر وقته ولسانه وماله في الصد عن سبيل الله، إنها تصور حالة الإعراض بكلمات ترسم لنا مشهداً مهيناً لذلك المشتري إذا تعرض لقوارع القرآن التي تخشع لهم الجبال الصم ، أما هو فيولي ويعرض ، إن ذكر التولية هنا يُلمَح منه الهروب والنكوص والانهزام أمام عظمة القرآن ، ثم هو نكوص وهروب وإعراض يدل على نفس خبيثة غير مقدرة للقرآن قدره.

إن ذلك الإعراض والتولي عن الكتاب الخالد هو بحجم إعراض من لم يسمع القرآن أصلاً و لم يعرفه ، بل هو كإعراض من به صمم فهو لا يسمع أصلاً ومن ثم لا يبالي ولا يهتم ، إنها صورة بشعة لذلك الفعل الشنيع مع الكتاب الخالد ، يسوقها لنا القرآن لتبين مكنونات أعداء القرآن وما انطوت عليه صدورهم، لكنهم لن يضروه شيئاً وإنما يضرون أنفسهم .

ومن صور الإعراض الشنيعة التي صورها القرآن لنا ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [٤٩-٥١ المدثر] فهاهنا تصريح بالإعراض كما في قوله تعالى:(معرضين) وهي حال، وبينت حجم هذا الإعراض الحال التشبيهية(كأنهم حمر مستنفرة)[4]، وهذه الآية بيان لحال الضالين عند سماع القرآن وقراءته وتدبره،إنها الصورة المتكررة لآحادهم وجماعاتهم، صورة متكررة في

---

(١) البحر المحيط ٨ / ٤١١ .

(٢) انظر التبيان ٢ / ١٠٤٣ ، والبحر المحيط ٨ / ٤١١ .

(٣) التحرير والتنوير ٢١ / ١٤٤ .

(٤) انظر التبيان ٢ / ١٢٥١..

الأمم السابقة- كما رأينا مع اليهود - وفي هذه الأمة، لكنها تبين شدة النفور بشكل غير ما سبق، إنها صورة جديدة في ظاهرها لكنها متسقة مع ما سبقها في المضمون، حيث "شبههم في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه، بحمر جدت في نفارها مما أفزعها،وفي تشبيههم بالحُمُر مذمة ظاهرة،وتهجين لحالهم بّين،كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [٥ الجمعة]، وشهادة عليهم بالبله،وقلة العقل، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو إذا رابها رائب..."[1].

إنها حالة عجيبة حقاً تستحق هذا التعجب (فما لهم عن التذكرة معرضين) ، ومما يزيدها عجباً مقدار هذه النفرة من هذا الحق المبين، إن الحري بأمثالهم وهم أرباب البيان أن يقبلوا عليه لا أن ينفروا منه، ثم إن نفورهم لم يكن مألوفاً بل كان مثاراً للعجب في أصله ونوعيته، إنه أمر مذموم فيهم لذا اخرج في صورة مشعرة بالمقت والذم ، وهكذا كل صور الإعراض، لكنها في هذه الصورة أشد وضوحاً ؛ لأنها صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب، يقول سيد قطب رحمه الله : "ومشهد حمر الوحش وهي مستنفرة تفر في كل اتجاه ، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه، مشهد يعرفه العرب ، وهو مشهد عنيف الحركه، مضحك أشد الضحك حين يشبه به الأدميون حين يخافون ! فكيف إذا كانوا إنما ينفرون هذا النفار الذي يتحولون به من آدميين إلى حُمُر، لا لأنهم خائفون مهددون بل لأن مذكراً يذكرهم بربهم ومصيرهم،ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف الزري المهين، وذلك المصير العجيب الأليم؟ ، إنها الرشية المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله في صلب الكون[2] ، تتملاه النفوس فتخجل وتستنكف أن تكون فيه، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل ، ويطامنون من الإعراض والنفار، مخافة هذا التصوير العنيف"[3].

وليس بعد هذا التحليل من كلام، فقد بين فيه سيد- رحمه الله - على عادته سر

---

(1) الكشاف ٤ / ٦٥٦.

(2) رحم الله سيد قطب : فقد كان مبدعاً في بيان أسرار التصوير في القرآن ، لكن ليته تحاشى مثل هذه الألفاظ والعبارات التي كان غيرها أليق منها بكلام العليم الخبير.

(3) في ظلال القرآن ٦/٣٧٦٢.

التصوير والهدف منه، وتأثيره في قارئه والمطلع عليه،وفي أهله الذين نزل فيهم قبل ذلك[1].

وإذا كان ما سبق هو بعض صور الإعراض، فهذه صورة الحال المعرض الذي رضي الضلالة طريقاً ومسلكاً، قال الله تعالى :﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [١٢٥ الأنعام] (كأنما يصعد) جملة حالية[2]، يقول أبو حيان : "والجملة التشبيهية معناها انه كما يزاول أمراً غير ممكن ؛ لأن صعود السماء مثل فيما يبعد ويمتنع من الاستطاعة ..."[3].

والذي يظهر أن الجملة التشبيهية جاءت هنا لبيان الضيق والحرج ومقداره ، وهنا لا يتناسب مع ما ذُكِر،بل لعل فيما ذكره ابن عطيه وجهاً أقرب حيث يقول: "وتحتمل الآية أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كئود، كانه يصعد بها الهواء، ... و(يصعّد) ، معناه يتكلف من ذلك ما يشق عليه"[4]،والمهم في هذا كله تلك الصورة المخيفة لمن أعرض عن ذكر ربه، إنها صورة تتآزر الكلمات في رسم مشاهدها فـــ(ضيّقاً) بالتشديد للمبالغة في الضيق، و(حرجاً) "لتاكيد معنى الضيق ؛ لأن في الحرج من معنى شدة الضيق ما ليس في (ضيق)..."[5]،ثم تأتي الحال التشبيهية لبيان مقدار ذلك الضيق والحرج في صورة يجعلها بعضهم متخيلة غير واقعة، يقول ابن عاشور:"مُثّل حال المشرك حين يُدعى إلى الإسلام أو حين يخلو بنفسه فيتأمل دعوة الإسلام، بحال الصاعد ، فإن الصاعد يضيق نفسه في الصعود، وهذا تمثيل هيئة معقولة بهيئة متخيلة؛ لأن الصعود في السماء غير واقع"[6] ، لكننا نقول إن الهيئة المشبه بها محسوسة لا متخيلة، حتى في وقت المخاطبين فإنهم يدركون كيف يضيق صدر من صعد عقبة كؤوداً ، أو جبلاً شاهقاً، ويعلمون ما يصيبه من الحرج والضيق في ذلك الصعود ، فلم لا يكون التشبيه على ظاهره، خاصة وأنه وجد اليوم الصعود في السماء بهذه المركبات الضخمة، وثبت ما يلحق الإنسان فيها من الضيق والحرج كلما صعد ، وتلك بعض عظمة القرآن ، فمعانيه قابلة ومتسعة لمثل هذا وزيادة.

---

(1) انظر كلاماً جيداً للدكتور أحمد بدوي في: من بلاغة القرآن ١٩٩.
(2) انظر التبيان ١ / ٥٣٨.
(3) انظر البحر المحيط ٤ / ٦٤٠ وهو مقتضى كلام الزمخشري : انظر في الكشاف ٢ / ٦٤.
(4) المحرر الوجيز ٦ / ١٤٧.
(5) التحرير والتنوير ٨ / ٦٠.
(6) التحرير والتنوير ٨ / ٦٠.

ومما تكتمل به الصورة صياغة الفعل (يصّعّد) بما فيه من تشديد، فهو صورة مكتملة مشعرة بذلك الجهد المضني الذي يحسه الصاعد في السماء، وكذلك حال المعرض الذي اجتالته الشياطين فأظلم قلبه فأصبح مستوحشاً، يضيق كلما سمع ذكر الله، إنها صورة معبرة واقعة، يشهد بها بعض من هذا حالهم ، يقول سيد قطب - رحمه الله - في بيان هذا المشهد:"وهي حالة نفسية تُجَسَّم في حالة حسية، من ضيق النفس ، وكربة الصدر،والرهق المضني في التصعد في السماء! وبناء اللفظ ذاته (يَصَّعّد) - كما هو في قراءة حفص- فيه هذا العسر والقبض والجهد،وجرسه يخيل هذا كله ، فيتناسق المشهد الشاخص مع الحالة الواقعة مع التعبير في إيقاع واحد ..."[1].

ونختم هذه المشاهد المصورة لأحوال المعرضين عن دين ربهم، بهذا المشهد الذي يجسد فئة شديدة الضرر على المسلمين، تظهر المسكنة والانصياع وهي الداء العضال ، والسوس الناخر، إنها فئة المنافقين ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ ﴾ [٤ المنافقون]، فقوله جل ذكره: ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ ﴾ جملة في موضع الحال من المنافقين المدلول عليهم بالضمير في (قولهم)[2] ، والملحوظ في هذه الصورة التي قامت بها الحال التشبيهية أنها صورة ساكنة، فرغم أن المشبَّهِين فيها أحياء يتكلمون ويذهبون ويجيئون، لكنهم شُبهوا بالخشب التي لا عقل فيها ولا روح، يقول الزمخشري:"شُبهوا في استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير - بالخشب المسند إلى حائط ؛ ولأن[3] الخشب إذا انتفع بها كان في سقف أو جدار او غيرهما من مظاهر الانتفاع،وما دام متروكاً فارغاً غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع ..."[4] وقال أبو حيان: "شبهوا بالخشب لعزوب أفهامهم وفراغ قلوبهم من الإيمان ..."[5] ويقول ابن عاشور:"شبهوا بالخشب المسند، تشبيه التمثيل في حسن المرأى وعدم الجدوى..."[6].

---

(1) في ظلال القرآن ٣ / ١٢٠٣.

(2) انظر التبيان ٢ /١٢٢٤

(3) هكذا في النص ولعل الأوضح أن يقال (؛ لأن الخشب ...) بدون واو.

(4) الكشاف ٤ / ٥٤٠.

(5) البحر المحيط ١٠ / ١٨٠.

(6) التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٤٠.

والحق أنه تشبيه بديع عجيب غريب، لذا جيء فيه بـــ (كأن)[1] ، تشبيه يستوعب كل ما ذكر من التعليلات والصور وزيادة ، إنها صورة ناطقة معبرة اختصرت كل صفات المنافقين وملامحهم في جملة واحدة ، إنها صورة تشارك ما سبقها في ذم هذا الصنف وتحقيره، إذ يكفيهم أن يوصفوا بأنهم كالخشب، كفى بهذا ذلة ومهانة، تماماً كما وصف صناديد قريش بأنهم حمر مستنفرة، إنها "صورة فريدة مبدعة ، تثير السخرية والهزاء والزراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس، وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفزع والحقد والكنود ... فهم أجسام تعجب لا أناسي تتجاوب ..."[2]، ولا يعني هذا أنهم لا خطورة منهم ،كلا بل هم العدو الحقيقي الأول لقربهم وتداخلهم في الصف، فهم أمام العيون على ما وُصف ، وإن غابوا كانوا السوس والداء.

د ـ ما كان لتصوير البعث والنشور .

كانت الشواهد المتعلقة بهذا الجانب مشحونة بالأحوال المصورة،بكل سماتها ونواحيها ويظهر ذلك جلياً في مثل قوله تعالى:﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّـهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [٧ القمر].

إنه مشهد مذهل من مشاهد الحشر يوم القيامة تسوقه لنا هذه الآية ، إنه مشهد إجابة الناس إلى ما تفزع منه النفوس وتهلع منه القلوب، وقد جاءت الأحوال الخمسة (خشعاً أبصارهم، يخرجون... كأنهم جراد...، مهطعين...، يقول الكافرون)[3] لرسم وقائع هذا المشهد المخيف، إنه تصوير بالجرس والصيغة كما في (خشعاً) وما فيها من التشديد الدالّ على عظيم ذلتهم ، وتصوير بالحركة والإيحاء في (يخرجون) (مهطعين) أي:مسرعين مادي أعناقهم ، أو ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم[4] ، تصوير بالتشبيه (كأنهم جراد منتشر) ، كلها صور متناسقة يكمل بعضهما بعضاً في رسم مشهد الحشر العظيم ، ياله من مشهد ما أعظم شانه، كيف لا يكون كذلك ووصْفه تقشعر منه الأبدان فكيف بحقيقته

---

(1) انظر أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ٢١٣.

(2) في ظلال القرآن ٦ / ٣٤٥٧.

(3) انظر التبيان ٢ / ١١٩٣.

(4) انظر الكشاف ٤ / ٤٣٢.

ومعاينته،نسأل الله الرحمة؟!.

وتأتي الصورة التشبيهية وسط هذا العقد من الأحوال المصورة ، فتبرز كثرة الخلق وتموجهم واختلاط بعضهم ببعض، يقول البقاعي : "كأنهم في كثرتهم وتراكم بعضهم على بعض من كبيرهم وصغيرهم ، وضعيفهم وقويهم ، جراد منتشر : أي منبث متفرق حيران"[1] ثم هم مع هذه الكثرة والحيرة والانتشار مسرعون إلى الداعي مع ماهم فيه من الخوف والذعر، صور متلاحقة يعجز العقل البشري عن تصورها، لكنها ستكون يوماً ما حقيقة ماثلة يشهدها الناس، يقول سيد قطب - رحمه الله - : "وهو مشهد من مشاهد ذلك اليوم ، يناسب هوله وشدته ظلال السورة كلها ... هو متقارب سريع ، وهو مع سرعته شاخص متحرك مكتمل السمات والحركات..."[2]، يقول الدكتور أحمد بدوي : "ها هم أولاء قد بعثوا خارجين من أجداثهم في كثرة لا تدرك العين مداها، وماذا يستطيع أن يرسم لك تلك الصورة ، [التي] تدل على الغزارة والحركة والانبعاث أفضل من هذا التشبيه الذي أورده القرآن"[3]، ويقول ملك حسن بخش: "تأمل كيف يركز التشبيه هنا على الكثرة والتموج والانتشار على غير نظام، مع تسليط الضوء على معنى التخاذل والضعف والوهن الذي هم فيه والمتجلي في أبصارهم الخاشعة"[4].

وهذا مشهد آخر قريب من سابقه لكنه متوجه إلى عباد الأوثان المشركين بالله ، مشهد يصور حالهم يوم القيامة، مع استحضار حالهم في الدنيا مع آلهتهم، إنه الوارد في قوله تعالى :﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [٤٣، ٤٤ المعارج].

ياله من ربط بين الدنيا والآخرة،ربط فيه إرهاب ووعيد،وزجر وتهديد، إنها صورة يألفها الكفار عندما كانوا يهرعون إلى أنصابهم وأصنامهم، إنها الصورة ذاتها يوم القيامة لكنها بحجم أعظم،وفي ظرف عصيب، وكرب رهيب،يقول ابن عاشور: "شبه إسراعهم يوم القيامة إلى الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها؛ لأن لهذا الإسراع

---

[1] نظم الدرر ١٩ / ١٠١.

[2] في ظلال القرآن ٦ / ٣٤٢٩.

[3] من بلاغة القرآن ٢٠٧.

[4] أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم ٢٢٧.

اختصاصاً بهم، وفي هذا التشبيه إدماج لتفظيع حالهم من عبادة الأصنام، وإيماء إلى أن إسراعهم يوم القيامة، إسراع دع ودفع وجزاء على إسراعهم للأصنام"[1].

وهذا -كما هو ظاهر- ربط موفق يقع ابن عاشور على مثله كثيراً، وإلى مثل هذا يشير السيد قطب - رحمه الله - بقوله:"... وفي مشهدهم وهيئتهم وحركتهم في ذلك اليوم ما يثير الفزع والتخوف... فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه، وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا، لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب في الأعياد ويتجمعون حولها، فهاهم أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم ...ثم تتم سماهم بقوله (خشعاً أبصارهم ترهقهم ذلة)... صورة ذليلة عانية لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون"[2].

ويتجلى لنا من هذه الشواهد أثر الأحوال في تصوير تلك المشاهد، ففي المشهد الأول خمسة أحوال، وفي هذا المشهد أربعة أحوال (سراعاً)، (كأنهم إلى نصب) (خاشعة أبصارهم) (ترهقهم ذلة)[3] ، وهذا يؤكد لنا منزلة الحال في بيان الصور، ولعل معاد ذلك إلى كونها بياناً للهيئات فهي أقرب إلى التصوير من غيرها[4].

هـ - ما كان لتصوير نعيم الجنة .

ويظهر هذا في بيان أحوال صنفين من أصناف النعيم في الجنة وهما ، الحور العين ، والغلمان المخلدون.

فأما الحور العين فقد جاء في شأنهن قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [٤٨، ٤٩ الصافات]،فالجملة التشبيهية إما حال من (قاصرات الطرف)،وإما نعت ثان[5]،وعلى كلٍ فالمراد هو تشبيه(الحور العين)ببيض النعام المكنون في عشه،...ولونها بياض به صفرة حسنة، وبها تشبه النساء ...ومنه قول امرئ القيس:

---

[1] التحرير والتنوير ٢٩ / ١٨٣.

[2] في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٠٣.

[3] انظر بعض ذلك إلى التبيان ٢ / ١٢٤١.

[4] ومما له تعلق بهذا الجانب ما جاء في ٢٧ ،٤٥ يونس ، و٣٥ الأحقاف ، و ٤٦ النازعات .

[5] انظر في النعت الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ١٣/ ٥٦ وفي الحالية انظر : الجملة الحالية في القرآن الكريم، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الثالث الآداب (١)، عام ١٤١١هـ ص ٤٢.

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل[١]

وعن ابن عباس: البيض المكنون: الجوهر المصون، واللفظ لا ينبو عن هذا القول..."[٢].

والذي يظهر أن قول ابن عباس هو الأظهر؛ لأن المراد المشابهة في الحفظ والحماية، وفي كون البيض سريع العطب إذا تعرض لما يفسده، وكذلك المرأة، فالحور العين محفوظات مصونات[٣]، وهذا الجانب هو ما تقوم به هذه الحال ، أما الجمال وحسن التبعل فقد جاء موضحاً في آيات وأحاديث، فبقي هذا الجانب الذي جاء بيانه في صورة تشبيهية،لتصوير مدى الحفظ والحماية لهن مما يجعل القلب يطمع فيهن، ويرغب إليهن، وهذا ما يظهر من كلام سيد قطب- رحمه الله- إذ يقول : "وهن كذلك مصونات مع رقة ولطف ونعومة(كأنهن بيض مكنون)لا تبتذله الأيدي ولا العيون"[٤].

وأما الصورة الأخرى للحور العين فهي الواردة في قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [٥٦، ٥٨، ٥٧ الرحمن] ، فالجملة التشبيهية هنا مثل سابقتها محتملة للحالية والوصفية[٥] وفيها تصوير آخر للحور العين، في تشبيههن بالياقوت والمرجان، ووجه الشبه إما لما في الياقوت من إملاس وشفوف، والمرجان من إملاس وجمال منظر، وإما لصفاء الياقوت وحمرة المرجان[٦]، والذي يظهر أن معنى الصفاء مراد هنا، بدلالة الحديث إنه ليرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن[٧]، وكذلك الجمال والنفاسة، إنها صورة الجمال الفائق بما لم يعهد مثله من الصفاء والنقاء والألوان الزاهية فيهن أوفي لباسهن، إنها صورة ترتاح لها النفس وتشرق لها الروح، صورة منادية بعظيم فضل الله ونعيمه الذي ادخره لعباده، نسأل الله من عطائه وكرمه.

يقول الدكتور أحمد بدوي مبيناً روابط الصورة في التشبيهين السابقين : "ليس في

---

[١] هو أحد أبيات معلقته، انظر ديوان امرئ القيس ٣٨.

[٢] البحر المحيط ٩ / ١٠٢.

[٣] وحتى بيت امرئ القيس يؤيد هذا فقد صرح بالمراد بقوله : خدر لا يرام خباؤها، فهي محفوظة مخبأة.

[٤] في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٨٧.

[٥] انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٩ / ٤١٦.

[٦] انظر البحر المحيط ١٠ / ٦٩ ، ٧٠، وانظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٧٠.

[٧] صحيح البخاري (مع الفتح)، كتاب بدء الخلق، باب ماجاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ، ح(٣٢٤٥)، ٦/٣٧٦.

الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون فحسب، وإنما هو لون صاف حي فيه نقاء وهدوء، وهي أحجار كريمة تصان ويحرص عليها، وللنساء نصيبهم من الصيانة والحرص، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن فقربت بذلك الصلة وأشد الارتباط، أما الصلة التي تربطهن بالبيض المكنون فضلاً عن نقاء اللون فهي الرفق والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما، أو لا ترى في هذا (الكنّ) أيضاً صلة تجمع بينهما وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع ، ولكن للنفس نصيب أي نصيب"[(١)].

أما الغلمان فقد جاء فيهم قوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [٢٤ الطور] فالجملة التشبيهية(كأهم لؤلؤ مكنون)، إما حال وإما نعت[(٢)]، ونلحظ في هذه الصورة الالتقاء مع وصف الحور من جانب وهو (الكنّ) والحفظ، والمخالفة من جانب أنه المشبه به هنا اللؤلؤ بينما هناك البيض، ولعل سبب هذا ما أشرنا إليه من قبل من كون البيض يحتاج إلى الحفظ لا لنفاسته ولكن لسرعة عطبة ، أما هنا فللنفاسة واللون،يقول ابن عاشور :"وشبهوا باللؤلؤ المكنون في حسن المرأى"[(٣)]، إنها صورة متكررة لنعيم الجنة، صور نابضة بالأنس والبهجة والجمال، صورة سرها أعظم من تحليل البشر له ؛ لأن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

و- ما كان لتصوير عذاب النار .

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ [٣٢، ٣٣ المرسلات]، فقوله جل ذكره:(كأنه جمالة صفر) جملة تشبيهية محتملة للوصفية وللحالية[(٤)]، وهذه الصور مع سابقتها ترسم مشهداً مروعاً لنار جهنم وشدها ، يقول أبو حيان "شبه الشرر أولاً بالقصر، -وهو الحصن- من جهة العظم ومن جهة الطول في الهواء، وثانياً بالجمال لبيان التشبيه"[(٥)].

---

(١) من بلاغة القرآن ١٩٣.

(٢) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ١٤ / ٢٤.

(٣) التحرير والتنوير ٢٧ / ٥٤.

(٤) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ١٥ / ٢٠٤.

(٥) البحر المحيط ١٠ / ٣٧٨.

إنها صورة مخيفة فيها حركة وألوان وأحجام ضخام، إنها النار، أقل أجزائها وهي الشرارة كالقصر العظيم، ثم هي مشتعلة حمراء باقية على التهابها كما ينبئ عنه قوله: (كأنه جمالة صفر) فهو "تشبيه له[1] في حجمه ولونه وحركته في تطايره بجمالات صفر"[2]، إنه مشهد مخيف في وصفه فكيف بحقيقته، "هذا هو الشرر فكيف بالنار التي ينطلق منها الشرر؟!"[3].

وبعد هذه الجولة مع التصوير بالحال بطريق التشبيه، يتضح لنا أن حجم التصوير بالحال ليس بالقليل ويكفي دليلاً على هذا أن نقول إن كثيراً من شواهد الأداتين الرئيستين في التشبيه وهما (الكاف) و (كأن) كانت حالاً ، أو على الأقل محتملة له ، فأما (كأن) المشددة والمخففة والمكفوفة فشواهدها تقارب الأربعين كلها كانت الجملة فيها في موضع الحال إلا ما ندر[4] ، وأما الكاف، فكثير من شواهدها محتمل للحالية سواء أكانت مجردة، أم معها لواحق مثل (كذلك، كما) ، وكثيراً ما كان ينص أبوحيان على الحالية فيها على رأي سيبويه ، ثم إن المتأمل لتلك الأحوال المصوّرة بالتشبيه يتبين له أن فيها خفاءً واستتاراً إما لتعلقها بالغيب غير المنظور، وذلك فيما يختص بأمور الآخرة، أو أحداث الأمم الغابرة، وإما بتعلقها بمكنونات النفوس ، وذلك فيما يختص بشؤون الناس من مؤمنين وكافرين، وقد انقسمت التشبيهات تبعاً لهذا إلى قسمين: قسم يكون المشبه به فيها شيئاً خارجاً عن المشبه، وقسم يكون هو بعض أحوال المشبه، وهذا الأخير كثير مع (كأن) المخففة والمكفوفة.

ولهذه الأمور كلها كان لابد من كشف ذلك الخفاء والاستتار، وليس شيء في هذا أظهر دلالة من التشبيه المصوّر ، الذي يجعل ما لا يدرك لغيبته أو لبعده كأنه شاخص أمام مرآة العين، فإذا حصل ذلك وتمثلت الصورة أمام القارئ أو السامع حصل الهدف منها ، إما حضاً عليها، أو تنفيراً منها.

---

[1] أي: الشرر.

[2] التحرير والتنوير ٢٩ / ٤٣٧.

[3] في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٩٤.

[4] انظر في ذلك: الجملة الحالية في القرآن الكريم ، مجلة جامعة الملك سعود المجلد الثالث الآداب (١) ، عام ١٤١١هـ، ص ٤٢ وما بعدها.

وما ظهر لنا من خلال هذه الدراسة هو بعينه ما صرح به دارسون وباحثون تعرضوا للتشبيه في القرآن بعمومه ، فهذا الدكتور محمد شادي يقول:"... وإنما يعتمد القرآن على التشبيه في إبراز المعاني الدقيقة أو الخافية، كإخلاص العبادة لله وحده ، ونفي الشركاء ، وإبراز ضعفهم ، كما يعتمد عليه في كشف الخفي من تفكير المنافقين ونفسياتهم ، فضلاً عن الأمور الغيبية كتصوير حركة الكون عند قيام الساعة ، وغير ذلك من الأمور التي قد تدق على الأفهام، وتحتاج إلى الإبانة، والتصوير الجلي "[1]

ومما هو ملحوظ أيضاً في تلك الصور أنها ربما تتعدد للموقف الواحد ، كما رأينا ذلك في قضية البعث والنشور ، وفي تصوير الإعراض عن ذكر الله ، وهذا له أسبابه وأسراره، فالسياق له أثره في ذلك ، فربما ذُكرت في سياق (ما) جوانب لا تذكر مع غيره وهكذا ، ثم إن لصاحب الحال أثراً في صيغة التشبيه ونوعه ، وقد يكون سبب التنوع إرادة استكمال جوانب الصورة، بحيث إذا دُرست مجتمعة أعطت صورة متكاملة ، وإذا درست منفردة في سياقها أعطت مدلولها الانفرادي ، وهذا إعجاز في حد ذاته ، ومبحث يحتاج إلى تأمل ونظر[2].

---

[1] أساليب البيان والصورة القرآنية ٤٦٤.

[2] وللاستزاده من هذا الموضوع يحسن الاطلاع على دراسة جيدة في الموضوع بعنوان : أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم لـ (ملك حسن بخش).

المبحث الثاني: التصوير بطريق المجاز

قضية المجاز قضية جدلية كبرى، خاض فيها الأولون والآخرون لصلتها الوثيقة بالمعتقد، وخصوصاً صفات الله سبحانه،فأنكرها بعضهم بالكلية وزعموا أن المجاز كذب ، قال ابن قتيبة عن هؤلاء: "وهذا من أشنع جهالاهم، وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم، ولو كان المجاز كذباً، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً، كان أكثر كلامنا فاسداً ..." (١)، وتوسع آخرون وزعموا أن اللغة كلها مجاز، وهذا ليس بحق أيضاً؛ لأنه معارض بالحقائق الشرعية الدينية،والحقائق العرفية الواقعية(٢)، وتوسط قسم ثالث فأثبتوه بضوابط وقواعد مستوحاة من اللغة ودلالتها ومن أهمها القرائن المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، يقول ابن قتيبة وهو من هؤلاء: "وقد تبين لمن قد عرف اللغة ، أن القول يقع فيه المجاز ..."(٣).

وقد اشتهر عن أعلام علماء أهل السنة إنكارهم للمجاز ، وعلى رأس هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – وكلامه في هذه القضية متميز عن غيره ، ومن جاء من بعده كان مقلداً له، وما يُنسب إليه من نفي المجاز ينسب إليه مثله في إثباته بشروطه، وقد أثبت القاسمي عنه ما نصه :"نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله ، وبالتأويل الجاري على نهج السبيل، ولم يوجد في شيء من كلامنا ... إنا لا نقول بالمجاز والتأويل ، والله عند لسان كل قائل، ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب، وما فتح به الباب إلى هدم السنة والكتاب،واللحاق بمحرفة أهل الكتاب والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه أن القرآن مشتمل على المجاز ... وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم ...إلى إنكار أن يكون في القرآن مجاز ... وخيار الأمور التوسط والاقتصاد" (٤).

فيتضح لنا من هذا ، أن التوسط في هذه القضية هو الحق ، وأن الأصل في الكلام

---

(١) تأويل مشكل القرآن ١٣٢.

(٢) انظر شواهد من ذلك عند ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن ١٠٦ وما بعدها، وانظر أيضاً من بلاغة القرآن ٢٢٤.

(٣) تأويل مشكل القرآن ١٠٩.

(٤) محاسن التأويل ١٧/ ١٥٢

الحقيقة ولا يقال فيه بالمجاز إلا بدليل صارف عن تلك الحقيقة ، وصفات الله – بحمده ومنته – في مأمن من ذلك ، إذ لا دليل على صرف اللفظ فيها عن ظاهره ؛ لأن العقل كليل في كنهها فيبقى ما هـذا شأنه على ظاهره من غير جدال ولا نزاع ، يُثْبَت ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تشبيه ولا تكييف ، أما ما كان للعقل مجال فيه وهو ما يجري من الكلام بين الناس ، أو كانت الدلائل اللفظية الصارفة للحقيقة فيه بينة، فلا مانع من القول بالمجاز حينذاك؛ لأنه بعض أساليب العرب في كلامها، ويستعمله في الكلام حتى عامة الناس وسوقتهم ، فهو أمر لا يمكن دفعه.

وللأسلوب المجازي تأثير عجيب في النفس ؛ لأنه يخرج بها عن المألوف، فينشط الذهن والعقل ، يقول ابن الأثير : "وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبعي في بعض الأحوال حتى لَيَسْمَحُ بها البخيل ، ويَشجع بها الجبان ... ويجد المخاطب عند سماعها نشوة كنشوة الخمر ... وهذا هو فحوى السحر الحلال"(١).

والمجاز بعمومه قسمان :

١- مجاز لغوي.

٢- مجاز عقلي.

وفي ضوء هذين القسمين سيكون الحديث عن التصوير بالحال بطريق المجاز، وسنتجاوز – غالباً – التعريفات والتقسيمات ، ونخلص مباشرة إلى قضية التصوير؛ لأنها محور دراستنا هذه.

---

(١) المثل السائر ١ / ١٣٦.

١- التصوير بالمجاز اللغوي.

المجاز اللغوي : هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة ما، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي وهو نوعان :

أ- استعارة ، وذلك إذا كانت العلاقة هي المشابهة.

ب- مجاز مرسل ، وذلك إذا كانت العلاقة غير المشابهة.[١].

أ- الاستعارة.

شواهد الاستعارة كثيرة موازنة بغيرها ، ولكننا في دراستنا هذه لن نتعرض لأنواع الاستعارة وتفصيلاتها - غالباً - بل نهتم بما توحي به من التصوير ورسم المشاهد، وقد أقر أهل الذوق أن للاستعارة قدرة فائقة في هذا المجال ، يقول عنها عبد القاهر موازناً لها بالتشبيه:"... فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً،والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية ، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر أعز منها، ولا رونق لها ما لم تَزِنْها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكُنْها ، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطّفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود رُوحانية لا تنالها إلا الظنون"[٢].

ولعلنا من خلال ما نعرض من شواهد نلتمس تلك الميزات في الاستعارة، ولنتأمل هذه المشاهد الكونية المعبرة ، وكيف كانت الاستعارة فيها هي مدار الصورة وقطبها ، حتى جعلتها نابضة بالحركة والحياة والتأثير ، يقول الله عزل وجل في شأن الأرض تكون جرداء ثم يترل عليها المطر فتنبت من كل زوج هيج : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [٥ الحج]، فكلمة (هامدة) حال من الأرض ؛ لأن الرؤية بصرية[٣]، وهي مستعارة لجفاف الأرض وزوال نبتها حيث لا حياة[٤]، ولكن في إيثار هذه الكلمة المستعارة الرامزة بدلاً من الكلمة القريبة المباشرة

---

[١] انظر تفصيل ذلك في الإيضاح ٢ / ٣٩٤ وما بعدها.

[٢] أسرار البلاغة ٤٣.

[٣] انظر إعراب القرآن وبيانه للدرويش ٦ / ٣٩٤.

[٤] انظر التحرير والتنوير ١٧ / ٢٠٣.

سراً يبينه سياق الكلام كله، فهذه الجملة مع ما سبقتها دلائل مسوقة للرد على منكري البعث، فكانت بذلك كلمة (هامدة) في غاية الروعة في تصوير حالة الموت، فهي توحي بجسم لا حراك فيه ، وإن كان أصله الحركة ، إنها تشعر بحالة مخيفة لتلك الصحراء المترامية لا نبت فيها ولا ماء، ولا حركة ولا حياة ، بل هي هامدة ورغم كل هذا الجو المشحون بانقطاع سبل الحياة الذي تشيعه هذه الكلمة بظلالها،إلا أنه سبحانه قادر على إحيائها،فهو ينزل المطر فتهتز وتتحرك وتنبت، إنها صور متقابلة،خمود وهمود،ثم حركة وإنتاج وحياة ، كلها تصور قدرة القدير سبحانه.

وما يجعل النفس البشرية الضعيفة تخشع أمام هذا البيان البديع والتصوير المعجز ذلك التخالف في الألفاظ المستعارة ، ففي المشاهد السابقة كانت الكلمة المستعارة موطن التصوير هي (هامدة)، وفي مشهد آخر كانت (خاشعة)[1] كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَـرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [٣٩ فصلت]، فهما نصان متماثلان متشابهان ، لكن اختلفت اللفظتان فلماذا ؟.

إنه أسلوب القرآن المثير المعجز، يقول ابن عاشور: "والخشوع:التذلل ، وهو مستعار لحال الأرض إذا كانت مقحوطة لا نبات عليها ؛ لأن حالها في تلك الخصاصة كحال المتذلل"[2].

إنه سياق آخر غير السياق وإن تشابهت الألفاظ ، لذا جاءت كل لفظة مصورة المراد أكمل تصوير في موضعها ، ولقد تنبه إلى هذا الأمر سيد قطب وعالجه بأسلوبه المتميز بعيداً عن إجراءات البلاغيين المعهودة حيث يقول: "عند التأمل السريع في هذين السياقين، يتبين وجه التناسق في (هامدة) و (خاشعة) ، إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج ، فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها (هامدة) ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود ، يتسق معه تصوير الأرض بأنها (خاشعة) ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت ، ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا الإنبات والإخراج ، كما زاد هناك ؛ لأنه لا محل لهما في جو العبادة

---

[1] وهي ((حال ؛ لأن الرؤية من رؤية البصر)) الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٢٣١.

[2] التحرير والتنوير ٢٠ / ٤٣.

والخشوع ، ولم تجئ (اهتزت وربت) هنا للغرض الذي جاءتا من أجله هناك ، إنهما هنا تُخيِّلان حركة للأرض وخشوعها ، وهذه الحركة هي المقصودة هنا ؛ لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم، ولكي لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكناً وكل الأجزاء تتحرك من حوله ، وهو لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة ، يسمو على كل تقدير ..."[1].

وما ذكره سيد قطب ـ رحمه الله ـ شيء رائع جميل ، لكن ـ في نظري ـ أجمل من هذا لو قيل: إن هذا التغاير في الكلمتين في المشهد هو آية من آيات الإعجاز في هذا الكتاب العظيم ؛ إذ الهدف العام من السياقين واحد لا كما ذكر رحمه الله ، إن الهدف هو إثبات البعث في صورة مشاهدة ماثلة لا يمكن إنكارها ولا دفعها ، وهو ظاهر في الآية الثانية بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٣٩ فصلت]، لكن عظمة هذا القرآن تتجلى في مثل هذا التوافق الكامل في الأغراض والسياق والألفاظ ، فالكلمة تؤدي مهمتها العامة والخاصة على حد سواء ، فهناك في مشهد الحياة والموت جاءت (هامدة) لمناسبتها التامة للسياق والهدف؛ لأنها كلمة تشعر بانقطاع الحركة والحياة كما ذكر سيد ـ رحمه الله ـ ، وزاد معها ذكر الإنبات ؛ لأن السياق كله عن الموت والقدرة على الإحياء، والهدف كذلك هو إثبات البعث ، أما في آية فصلت فالسياق عبادي والهدف إثبات البعث ، والكلمة القرآنية تُوافِقُ بينهما فجاءت (خاشعة) لتناسب السياق العبادي تماماً ، ولتؤدي المهمة العامة - وهي إثبات البعث - كما ينبغي ، إن الخشوع مناسب لمظهر العبادة العام في المشهد كله ، وكذلك هو مناسب لقحوط الأرض وموتها فهي خاشعة لا حركة فيها، وبهذا يكون ذكر الاهتزاز والإنبات هنا لبيان قدرة القدير جل شأنه في البعث ، وإبراز صورة إحياء الأرض بعد موتها في مشهد متحرك؛ لأن الحركة دليل الحياة ، فهي هنا مثلها في آية الحج لا كما ذكر سيد قطب رحمه الله.

وهذا مشهد آخر من المشاهد النابضة بالحياة يقول الله عز وجل:﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ

---

[1] التصوير الفني في القرآن٩٢ .

لَوَاقِحَ ﴾ [٢٢ الحجر] فقوله جل ذكره:(لواقح) حال من الرياح[١]،وهذه الكلمة في هذا السياق أعطت مدلولات متعددة، فهي إما أن تكون ذاتها(لاقحاً)كالناقة، وضدها الريح العقيم، وإما أن تكون هي الملقحة فهي الفاعلة[٢] ، وهي على كل ذلك مستعارة[٣] ، وما يهمنا هنا ما ترسمه من ظلال خلال وجودها في هذا السياق ، فنحن لا نرى شيئاً من ذلك، لكنها صورة موجودة وإن لم نرها، إنه مشهد من مشاهد القدرة في هذا الكون ، فهذه الرياح تحمل اللقاح من شجرة إلى شجرة ، وهي أيضاً تسوق السحاب وتلقحه بالمزاوجة بين الحرارة والبرودة فيه، إنها حركة دائبة متصلة تصورها لنا هذه الكلمة في الكون المشاهد من حولنا وإن كنا لا ندرك تفاصيل ذلك تمام الإدراك، يقول ابن عاشور:"ومن بلاغة الآية إبداء هذا الوصف، لإفادة كلا العملَيْنِ اللذيْنِ تعملهما الرياحُ..."[٤]،فهي حاملة للقاح فأشبهت الناقة ، وهي أيضاً تقوم بنقله من شجرة إلى شجرة ، فأشبهت الفحل.

وهذا مشهد آخر مثير من مشاهد الكون أيضاً،جاءت الكلمة الحالية المستعارة فيه مصورة للمشهد بما لا مزيد عليه، تصويراً يجسد المنظر وينقل إلينا كل دلالاته،إنه ما يظهر في قوله تعالى:﴿ وءايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [٣٧ يس]، فقوله تعالى: (نسلخ)حال[٥]مصورة،وقد أطال ابن عاشور في إجراء الاستعارة فيها[٦]، لكن ما رآه الدكتور أحمد بدوي _في نظري_ أليق حين دعا إلى نبذ الجمود عند تلك القوانين التي تهتم بنوع الاستعارة وطريقة إجرائها من غير بيان للجمال الفني لهذا اللون من التصوير، حيث يقول:"وليست مثل هذه الدراسة بمجدية في تذوق الجمال، وإدراك أسراره،ومن الخير أن نتبين الأسرار التي دعت إلى إيثار الاستعارة على كلمة (الحقيقة)"[٧].

وقد كان سيد قطب رحمه الله رائداً في هذا المجال ، حيث نحا بالتصوير منحى جديداً

---

(١) انظر التبيان ٢ / ٧٨٠.
(٢) انظر تفصيل المعاني في البحر المحيط ٦ / ٤٧٤.
(٣) انظر التحرير والتنوير ١٤ / ٣٧.
(٤) التحرير والتنوير ١٤ / ٣٧.
(٥) انظر التحرر والتنوير ٢٣ / ١٢ ، ١٧.
(٦) انظر التحرير والتنوير ٢٣ / ١٧ ، ١٨.
(٧) من بلاغة القرآن ٢١٧.

وجعله فناً قائماً بذاته ، وأبدع في تجلية صور القرآن ، وهاهو ذا يقول عن هذا الكلمة (نسلخ) "والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة – في هذا الموضع – تعبير فريد ... تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير"[1]، ويقول الدكتور أحمد بدوي : "فكلمة (نسلخ) تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلاً قليلاً ، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء ، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل"[2].

ولقد حاولت جاهداً أن أصل إلى سر التعبير بالسلخ هنا عن هذه الظاهرة، بينما جاء في مواضع أخرى بالتغشية، والإيلاج ، والتكوير كقوله تعـالى : ﴿ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ [٥٤ الأعراف] ، وقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ [٦١ الحج]،وقوله تعالى:﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ ﴾ [٥ الزمر]، فلم يظهر لي ما يمكن أن يكون مقنعاً، لكن في هذا الموضع الذي جاء به التعبير بالسلخ يمكن أن يقال إنه مليء بالظواهر الكونية وثيقة الصلة بهذه الظاهرة، وهي الشمس وحركتها والقمر ومنازله، ثم إن كل ما في هذه المشاهد هنا متحرك، والمطلوب التأمل في الآية بدليل قوله تعالى:

(وآية لهم الليل ...)، فكأنه جيء هنا مع هذه الظواهر من المشاهد بما يكون مبهراً لاوياً العنق للتأمل ، فجاء مع الشمس جريانها ، ومع القمر منازله وكلها معالم يراها العرب ويعرفونها، ومع الليل والنهار السلخ للفت الأنظار إلى أنه من أعظم ما في هذه الآية من الدلالات، فالتعبير يوحي بالالتصاق والالتحام، وأنه لا يُزال هذا عن ذاك إلا بقدرة قادر، وإنه الله وحده الذي أجرى الشمس وقدر منازل القمر ، ثم التعبير يوحي بالانفصال الكامل بعد ذلك فالليل ليل والنهار نهار لا تداخل بينهما بعد السلخ ، إنها صورة لافتة لعظيم القدرة في آية متكررة ، وهذا ما يشير إلى الرضي بقوله : "المراد نخرج منه النهار ، ونستقصي تخليص أجزائه حتى لا يبقى من ضوء النهار شيء مع ظلمة الليل، فإذا الناس قد دخلوا في الظلام، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ والسلخ إخراج الشيء مما لابسه والتحم به ، فكل واحد من الليل والنهار متصل بصاحبه اتصال الملابس بأبدانها

[1] في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٦٨.
[2] من بلاغة القرآن ٢١٨.

والجلود بحيواناتها"[١] .

ويفيد هذا التعبير أن الليل والظلام أكثر وأعم من النهار والضوء ، لما يوحي به السلخ من أن المسلوخ دائماً أقل من جرم المسلوخ منه ، فكأن الأساس هو الظلام ، وقد أثبت العلم الحديث أن الكون غارق في ظلام دامس ، فكأن النهار قطعة في ذلك الليل تسلخ منه فيعود إلى حاله[٢] .

وإنني أقول بعد هذا إن التعبيرات المختلفة في لفظهـــا عن هذه الظاهـــرة وهي : (نسلخ) و (يغشى) و (يولج) و (يكور) تشير إلى دلائل بعيدة في الظاهرة ذاتها ، وتفسر اختلافات ربما لاندركها اليوم ، والذي لا نشك فيه أنه يوجد في هذه الظاهرة هذه الصور: السلخ، والتغشية، والإيلاج ، والتكوير، ولكل منها وجهه في التفسير ، وسياقه الخاص الذي اقتضاه ، وهدفه العام الذي يقصد إليه.

وننتقل من المشاهد الكونية إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة، إنه الذي تصوره هذه الآية، ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [٩٩ الكهف]، فكلمة (يموج) هنا حالية[٣]، ومعلوم أن الذي يموج هو الماء ، ولكن في استعارة هذه الكلمة من تصوير الموقف ما يهول العقل ، إنها كلمة تصور ذلك الحجم البشري الهائل من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، إن العين ليروعها أحياناً عدد الحجاج وهم يطوفون ويتداخل بعضهم في بعض في مرأى العين حتى إنها لا ترى أجساماً بل حركة موجية مذهلة، فكيف بتلك الأعداد يوم الحشر، (يموج في بعض) إنه تصوير على قلة كلماته ناقل لتك الحركة الهائلة والجموع الغفيرة[٤]، يقول الدكتور أحمد بدوي : "فكلمة (يموج) لا تقف عند حد استعارتها لمعنى (الاضطراب) بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشاداً لا تدرك العين مداه، حتى صار هذا الحشر الزاخر كبحر ، ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب ، ولا تأتي كلمة (يموج) إلا موحية

---

[١] تلخيص البيان في مجازات القرآن.

[٢] انظر وجوه من الإعجاز القرآني ١٣٤.

[٣] انظر التحرير والتنوير ١٦ / ٤٠.

[٤] وقد يكون المراد يأجوج ومأجوج وهذا تصوير لاضطرابهم في بعضهم بعد بناء السد ، وعلى كل حال ، فالمقصود من التصوير واحد.

بهذا المعنى ودالة عليه"[1].

هذه بعض نماذج الصور الاستعارية المبينة للهيئة والحال[2]، وأما قوله تعالى عن النار:﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [١٦ ، ١٧ المعارج]، ففيه أحوال منها (نزاعة) و (تدعو)، وقد قال ابن عاشور:"والدعاء في قوله:(تدعو) يجوز أن يكون غير حقيقة بأن يعتبر استعارة مكنية ... ،أو جهنم تدعو حقيقة بأن يخلق الله فيها أصواتاً تنادي الذين تولوا أن يردوا عليها فتلتهمهم"[3].

وما ذكره ابن عاشور أخيراً هو الحق ، فلا مجاز هنا على خلاف ما درج عليه البلاغيون، وهناك ملحظ مهم، وهو أن ما يخص الذات العلية وما يتصل به سبحانه من صفات وأسماء وما يصدر منه من أقوال، وكذلك ما كان من نبيه صلى الله عليه وسلم ، فيجب أن يجرى على ظاهره، لعدم القرينة المانعة من إرادة الأصل ؛ ولأنه لا مدخل للعقل في كل هذا، أما ماصدر منا نحن البشر فسبيله إلى ما تعارفنا عليه من الدلالات، فلو قال قائل: قلمي يدعوني للكتابة علمنا أنه مجاز، فلابد من التفريق في هذه المستويات الكلامية من حيث الحكم بالحقيقة والمجاز.

وفيما يخص كلام النار وطلبها للمتكبرين المتجبرين ، فقد جاء فيها قوله صلى الله عليه وسلم: " يخرج يوم القيامة عنق من النار ، له عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق يقول : إني وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين"[4]، فلا مجال بعد هذا للقول بالمجاز، ومع هذا تبقى الكلمة مصورة للمشهد المرعب المخيف ، بل إن الحقيقة في مثل هذا أشد تأثيراً في النفوس ، وأقوى في الوعظ ، فلك أن تتصور النار العظيمة المخيفة وهي تنادي أهلها الفارين عنها لتنـــزع

---

[1] من بلاغة القرآن ٢١٨ ، وقد نقل الدكتور بكري شيخ أمين كلام الدكتور أحمد بدوي بنصه في هذه الصورة وغيرها من غير إشارة أو إحالة، انظر ذلك في التعبير الفني في القرآن ١٩٧ ، ١٩٨.

[2] انظر غير ذلك مثلاً كلمة (يقذفون) في قوله تعالى: ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [٥٣سبأ] ، في التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٤٤ ، وكلمة (خاسئاً)في قوله تعالى:﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ [٤ الملك]، وهي حال من البصر، انظر روح المعاني المجلد الخامس عشر الجزء التاسع والعشرين ٨.

[3] التحرير والتنوير ٢٩ / ١٦٤.

[4] رواه الترمذي في صفة النار، باب صفة جهنم، ح(٢٥٧٧)، وقال : حديث حسن صحيح غريب ، وهو في جامع الأصول (١٠ / ٥١٨)،وقال المحقق إسناده حسن.

أطرافهم ، وتشوي وجوههم نسأل الله العافية، وقد كان سيد قطب – رحمه الله – موفقاً حين أشار إلى هذه القضية المهمة في التصوير والتشخيص ، حيث قال عن وصف النار بالشهيق والغيظ ... "والتعبير في ظاهره يبدو مجازاً تصويرياً لحالة جهنم،ولكنه – فيما نحس – يقرر حقيقة ، فكل خليقة من خلائق الله ، حية ذات روح من نوعها ، وكل خليقة تعرف ربها ، وتسبح بحمده، ... وهذه الحقيقة وردت في القرآن في مواضع شتى تشعر بأنها تقر حقيقة مكنونة في كل شيء من هذا الوجود ، فقد جاء بصريح العبارة في القرآن (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) و(ويا جبال أوبي معه) وهي تعبيرات صريحة مباشرة لا مجال فيها للتأويل ..."[1].

وما أجدر دارسي البلاغة والإعجاز أن يلتفتوا إلى هذا الأمر فهو ميزان دقيق، بدلاً من تلك التأويلات التي يخبطون فيها حتى عطل بعضهم الخالق جل جلاله من صفاته، وأنكر من حيث يشعر أو لا يشعر عبادة الكون لخالقه بالكلام والتسبيح والصلاة بعدِّ كل ذلك من قبيل المجاز.

الاستعارة في الحرف .

يذكر البلاغيون من أنواع الاستعارة الاستعارة في الحرف، وذلك لكونه جاء في موضع ليس له، أو أن حقيقته مدخوله تأبى ذلك الحرف، وهو كثير في حروف الجر الواقعة موقع الحال، وقد سبقت من ذلك شواهد كثيرة جداً في دلالة الجار يمكن الرجوع إليها[2]، ومما تبين لي من خلال تلك الشواهد الكثيرة المصورة، أن (على) جاءت في كل شواهدها أو جلها على هذا النحو؛ لأن مدخولها في الغالب يكون معنوياً ، وبدخولها عليه تجسده فتتكون الصورة المرادة ومما جاءت فيه (على) مصورة مع مدخولها قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ ﴾ [١١ الحج]،فـ (على حرف) حال أي: مضطرباً متزلزلاً[3] كزلزلة من يكون على حرف شفير أو جبل أو غيره لا قرار له ...[4]، فدلت (على) هنا على علوه على ذلك الحرف الذي ليس له معه قرار، ودل الجار على تعرضه لما

---

[1] في ظلال القرآن ٦ / ٦٣٣٤.

[2] انظر ص ١٢٩وما بعدها من هذا البحث.

[3] انظر التبيان ٢ / ٣٩٤.

[4] نظم الدرر ١٣ / ١٧.

يسقطه عن حرفه ذلك من أمواج الفتن إما ضراً وإما نفعاً، ولاشك أن المستعلي على ما ليس بقرار هو أكثر عرضة للسقوط والميل ممن كان مستقراً ثابتاً، فـــ(على) هنا دالة على الاستعلاء لا التمكن، وجاء المجرور (حرف) بمدلوله المميز لإكمال عوامل السقوط؛ لأنه مما لا يمكن عليه الاستقرار ، فكيف بحال من اعتلاه ثم اعتراه ما يصرفه ويميله ويسقطه.

إنه مشهد متكامل حي للمضطرب المتذبذب في دينه ، مشهد يشعر بالنهاية المتوقعة في كل لحظة ، كل ذلك يرسمه هذا الحرف مع مدخوله في عبارة موجزة، يقول سيد قطب ــ رحمه الله ــ:"إن الخيال ليكاد يجسم هذا (الحرف)، الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس، وإنه ليكاد يتخيل الاضطراب الحسي في وقفتهم، وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب"[1].

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى:﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [٧٨ القصص] ، فقوله تعالى:(على علم) حال[2]،تصور تكبر قارون ونسبته تحصيل المال لنفسه[3]وهذا الحرف (على) لا يكاد يأتي في موضع إلا ويشعر بالاستعلاء، الذي ينتج عنه إما الظهور وإما القهر ، وإما التمكن ... "وقد يستعمل في الأفعال الشاقة المستثقلة على قول من يقول : قد سرنا عشراً وبقيت علينا ليلتان ... وكذلك يقال في الاعتداد على الإنسان بذنوبه وقبيح أفعاله: قد أخرب عليّ ضيعتي ... وأبطل على انتفاعي"[4].

ومما جاءت فيه (على) موهمة معنى التعليل قوله تعالى :﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ ﴾ [١١٩ آل عمران]، فقوله سبحانه: (عليكم) يجوز أن يكون حالاً أي : حانقين عليكم[5] و جعل الألوسي (على) بمعنى (اللام) فقال : " عضوا عليكم أي : لأجلكم"[6].

وليس قول الألوسي بمسلم؛لأن لـــ(على) موقعاً ومعنى لا تقوم به اللام، والعكس صحيح،و(على) هنا تحمل دلالتها المتميزة المنبثقة من معناها الأصلي (الاستعلاء) فهي

---

(١) التصوير الفني في القرآن ٣٦.
(٢) انظر التبيان١ / ١٠٢٦.
(٣) الحال في الأسلوب القرآني ٢٩٧.
(٤) الخصائص ٢ / ٢٧٠،٢٧١.
(٥) انظر التبيان ١ / ٢٨٨، وانظر الدر المصون ٣ / ٣٦٩.
(٦) روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ٣٩.

"تصوير يجسد حال هؤلاء المنافقين، وقد امتلأت نفوسهم غيظاً وحقداً على المؤمنين وأعياهم أن يجدوا متنفساً له، إلا بالنيل منهم والكيد لهم، فانكفأوا على أناملهم يعضونها ، ويفرغون فيها ما فاضت به نفوسهم ، وكأنهم من فرط غيظهم فقدوا وعيهم فأطبقت أنيابهم على أناملهم ، ظناً منهم أنهم يلتهمون أجساد المسلمين ويتشفون فيها ، فقل لي بربك أكان يمكن أداء هذه الصورة بكل هذه الإيحاءات والظلال لو أن هذا النظم جاء هكذا : عضوا لكم الأنامل من الغيظ"[1].

ومن هذا مجيء (الباء) في موضع يشعر بأنه ليس لها،وذلك كقوله تعالى:﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [٥٠ البقرة] .

يقول الزمخشري:"فإن قلت:ما معنى بكم؟،قلت فيه أوجه ، أن يراد أنهم يسلكونه ويتفرق الماء عند سلوكهم فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين كأنما يوسط بينهما ، وأن يراد فرقناه بسببكم وبسبب إنجائكم، وأن يكون في موضع الحال، بمعنى فرقناه ملتبساً بكم" [2]

والقول بأن التفريق كان ببني إسرائيل لم يرتضه ابن المنير لوقوع التفريق بالعصا لا بهم وهو بهذا يعترض على القول الأول للزمخشري [3]، وله - في نظري - قدر كبير من القبول ، أما أن يكون الفرق لأجلهم ولأجل إنجائهم فإنه ليس المعنى الذي يدل عليه النظم أكمل دلالة وإن كان لا يُنكر ، لكن القول بالحالية أوضح معنى وأوسع مدلولاً ؛ إذ هو أدل على القدرة وأعظم في إظهار المنة عليهم يقول ابن عاشور مبيناً هذا المدلول : "أي كان فرق البحر ملابساً لكم، والمراد من الملابسة أنه يغرق وهم يدخلونه ، فكان الفرق حاصلاً بجانبهم"[4].

ويجلي هذا المعنى بصورة أوضح الدكتور الخضري بقوله: "وأرى أن للباء بما فيها من الإلصاق إيحاء بعظم قدرة الله تعالى ، وبالغ فضله على بني إسرائيل حيث فرق بهم البحر وهم ملاصقون له ملتبسون بمصدر الهلاك الذي أودى بعدوهم ، فأنجاهم وأغرق عدوهم

---

[1] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٩١.
[2] الكشاف ١ / ١٣٨.
[3] انظر الانتصاف بحاشية الكشاف ١/ ١٣٨.
[4] التحرير والتنوير ١ / ٤٩٤.

وهم منه جد قريب كما يعبر عنه قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وذلك معنى الملابسة ..."[1].

وليس ينكر الذوق السليم تلك الصورة المروعة التي يشعر بها الجار في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [٢٥ الفرقان]، فالباء تفيد بدلالتها على الإلصاق والمصاحبة، أن التشقق حصل ملابساً للغمام، ويالها من صورة تلك التي ينقلها معنى المصاحبة،إن منظر الغمام إذا ملأ السماء مروع مخيف، فكيف إذا صاحب التغيير الهائل من تشقق السماء العظيمة،وتكوير الكواكب،وتبديل الكون كله،إنه مشهد مذهل يكاد يذهب بالعقول عند تخيله فكيف بحقيقته يوم القيامة،ولو قيل:مع الغمام، أو للغمام، لما كانت الصورة من الدقة والدلالة كما هي عليه في النظم القرآني الكريم.

وتُشعر (الباء) أحياناً بمدلول الاستعلاء (على) لترسم مشهداً مميزاً، ولتؤكد مدلولاً غير مدلول (على) ومن هذا قوله تعالى :﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ...﴾ [٩٧ مريم] ، فقوله جل ذكره: (بلسانك) في موضع الحال أي بلغتك، أو الباء بمعنى على[2] وقيل هي للسببية[3].

والقول بالمصاحبة وهي الحالية هو الأليق هنا ؛ لأن (على) تشعر باستعلاء التيسير على لسانه صلى الله عليه وسلم ، وليس هذا هو المدح اللائق به ، بل غاية مدحه صلى الله عليه وسلم أن يكون تيسير الحق والهدى مصاحباً لكلامه وحديثه دوماً ، فكل قوله هدى وحق ، هذا ما تدل عليه (الباء) الدالة على المصاحبة والملابسة، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [٣ ، ٤ النجم]، فالتعبير (بالباء) يدل على ما تدل عليه (على) ولكن مع توجيه معناها إلى مدح خالص له صلى الله عليه وسلم في ظهور الحق مع كل كلمة يقولها،وتظهر المدحة بهذه الخصيصة لأنها مع (قريش) أهل البيان والفصاحة ، ولعل هذا هو السر في مجيء المجرور (لسان) دون (لغة) للإشعار بأن كل ما تحرك به لسانه فهو حق وهادٍ إلى الخير، وهذا من دلائل نبوته وصدقه في دعوته صلى الله عليه وسلم.

---

[1] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ١٦٧.

[2] انظر التبيان ٢ / ٨٨٣.

[3] انظر التحرير والتنوير ١٦ / ١٧٦.

وليس يخفى ما في دخول (في) على (الصرة) من تجسيد لها وجعلها ظرفاً يحتوي المرأة المقبلة (سارة) في قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [٢٩ الذاريات].

قال العكبري : قوله تعالى: (في صرة) هو حال من الفاعل[١] وذكر الألوسي مع الحالية القول بزيادة (في)[٢] ، ولكن أ هذا كاف في تفسير مجيء هذا الحرف في هذا الموضع أم أن في هذا تفويتاً لكثير من خصائص النظم!.

وقد نبه البقاعي على بعض مدلول هذا الحرف هنا حيث يقول : "ولما كانت قد امتلأت عجباً ، عبر بالظرف فقال :(في صرة) أي صيحة وكرب، من الصرير قد أحاط بها فذهب وهمها في ذلك كل مذهب"[٣]، وأوضح الدكتور الخضري المراد بقوله: "...كان لهول الخبر ومفاجأته أثر كبير أفقدها اتزانها وأذهلها عن نفسها ، فأطلقت صيحتها المدوية تعبيراً عن دهشتها مما سمعت، دون أن تبالي بمن في بيتها من ضيوف غرباء عنها ، والمبالغة في شدة الصيحة وعظمها لا يبرزها إلا أن تُجعل ظرفاً يغطي على سارة ويحتويها ، حتى وكأن السامع انشغل بالصيحة عن الصائح ، وهو ما يعبر بدقة عن شدة وقع الخبر على قلبها"[٤] ، وهل لو قيل : فأقبلت امرأته صارة أي: صائحة أن تظهر لنا كل هذه المعاني وتنتشر كل هذه الظلال؟ لاشك أن ذلك لن يكون.

وهذه (من) الجارة ترسم في هذا السياق بمدلولها على الابتداء– وإن أشعرت بالتعليل- قدر الخوف والرعب في قوله تعالى:﴿ ... يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [١٩ البقرة]، فقوله:(من الصواعق) يمكن أن يتعلق بـــ(يجعلون) ويمكن أن يكون في موضع الحال أي:خائفين من الصواعق، قيل:و(من) هنا للتعليل "أي من أجل الصواعق"[٥]،وإذا كان كذلك فما سر العدول إلى (من)؟.

---

[١] التبيان ٢ / ١١٨١.

[٢] انظر روح المعاني المجلد الرابع عشر الجزء السابع والعشرين ١٣.

[٣] نظم الدرر ١٨ / ٤٦٤.

[٤] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ١٢٤ ، ١٢٥.

[٥] البحر المحيط ١ / ١٤١.

الحقيقة أن القول بدلالة (مِنْ) على التعليل هنا غير مسلم بها وإن أشعرت به أول الأمر، بل "دلالتها على الابتداء هي التي تجسد مشاعر الرعب والفزع الذي استبد بالسائرين في هذا الجو المظلم برعوده وبروقه ، وكيف استولى عليهم الخوف حتى كادوا يضعون أصابعهم بكاملها في آذانهم لأول بارقة من الصواعق ، فكيف حين تتوالى عليهم ... وتشتد؟ فالإسراع إلى وضع أصابعهم من بدء الصواعق يتعاون فيه معنى الابتداء مع المبالغة بالمجاز المرسل ليرسم صورة مجسدة للحياة القلقة الوجلة، التي يعيشها المنافقون"[(١)].

ونجد (إلى) تشعر بمعنى (الباء) ظاهراً كما في قوله تعالى:﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة ١٤]، أي: منحازين إليهم فهي على هذا حال ، ولكن لم أوثرت (إلى) على (الباء) فلم يكن: خلوا بشياطينهم؟ يذكر الطبري في جواب ذلك توجيهات منها "أن الجالب للباء المعنى الذي دل عليه الكلام من انصراف المنافقين عن لقاء المؤمنين إلى شياطينهم خالين بهم، لا قوله:(خلو)، وعلى هذا التأويل لا يصلح في موضع (إلى) غيرها لتغير الكلام بدخول غيرها من الحروف مكانها، وهذا القول عندي أولى بالصواب؛ لأن لكل حرف من حروف المعاني وجهاً هو به أولى من غيره، فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها ، ولـ(إلى) في كل موضع دخلت من الكلام حكم، وغير جائز سلبها معانيها في أماكنها"[(٢)]،ويقول الراغب:"خلا فلان بفلان صار معه في خلاء ، وخلا إليه انتهى إليه في خلوة"[(٣)]، ويرى الدكتور الخضري بناء على ذلك أن (إلى) كشفت هنا عن دخائل نفوس المنافقين وغايتهم وهو لقاء إخوانهم من الشياطين بما يدل على أنهم خرجوا من أجله وهو جهتهم الحقيقية ...[(٤)].

والذي أراه أن هناك ملمحاً مهماً أشار إليه الراغب ، بل هو في غاية الأهمية وهو كون المنتهى إليه مستقراً في خلوته، فشياطينهم ورؤساؤهم الموجهون لهم لا يشاركونهم في ذهابهم وإيابهم ، بل هم قابعون في أوكارهم، فكأنك تنظر إليهم يتشاورون ويخططون ويرسمون المكائد، فيعود الأتباع ويخلون إليهم لا بهم، للتزود بمزيد من خطط الصد عن

---

(١) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣٦٠.

(٢) جامع البيان المجلد الأول الجزء الأول ١٣٠، وكلامه هذا يحسن أن يكون هو معتمد التوجيه لمعاني هذه الحروف.

(٣) المفردات مادة خلو ٢٩٨.

(٤) انظر من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣٨٤.

دين الله ، و (إلى) هنا أشعرت بخطر أولئك ، وأنهم الرؤوس التي يعاد إليها ويُنتهى إليها في تلك الأمور الخطيرة والتدبيرات الكيدية، ولو قيل: بشياطينهم لما كان فيه إشعار بالرجوع إليهم وأنهم منتهى الكيد والحيلة، ولم يُشعر بأنهم قد نذروا أنفسهم لهذا العمل الشيطاني واختلوا له يأتيهم الأتباع ليصدروا عن توجيهاتهم الشيطانية.

وهذه (عن) الجارة تجسد لنا معنى عجيباً في قوله تعالى :﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [٢٣ يوسف]،فـــ(عن نفسه)حال "أي:راودته مباعدة له عن نفسه"[١] وأما عن تفسير (عن) ودلالتها فيقول الزمخشري : "كأن المعنى خادعته عن نفسه أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه"[٢]، ولعل ابن عاشور قد أصاب بقوله : "مباعدةً له عن نفسه أي: بأن يجعل نفسه لها ... فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه في نفسه"[٣].

ولو قيل:(على) بحرف الاستعلاء لكان المدلول غير هذا؛ لأن (على) مع هذا الفعل تدل على الشيء المطلوب حصوله[٤] كما جاء عن موسى عليه السلام قوله: "والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ..."[٥] ، فلو كان: راودته على نفسه لكان المعنى طلبته نفسه من غير إبعاد أو مجاوزة ، وهذا لا ينبئ عما كان في نفسها ، بل الذي في نفسها أنه قد بلغ حبه شغاف قلبها ، ولم تنس أنها صاحبة منصب وجمال وأنه عانٍ عندها، فهي لشدة حبها له وسلطتها عليه أرادت أن تبعد إرادته عن نفسه وتجعلها لها ،وقد سلكت في ذ لك شتى الحيل والسبل وبخاصة المكر والخديعة والإغراء، والحقيقة أن في (عن) ما يصور قدر حرصها لنيل مطلبها "وفي ضمن ذلك إيماء أن ما تبغيه منه هو خسارة النفس وضياعها ، وذلك ما يقتضيه مجاوزة النفس والبعد عنها"[٦].

---

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ٢٥٠.
(٢) الكشاف ٢ / ٤٥٤ ، ٤٥٥.
(٣) التحرير والتنوير ١٢ / ٢٥٠.
(٤) انظر التحرر والتنوير ١٢ / ٢٥٠.
(٥) صحيح البخاري (مع الفتح)، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى:{ وكلم الله موسى تكليماً } ح(٧٥١٧)،٤٨٧/١٣.
(٦) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم٣٢٠، وللفائدة انظر روح المعاني المجلد السادس الجزء الثاني عشر٢١٠، ٢١١.

ب- المجاز المرسل.

لم أجد للمجاز المرسل شواهد متميزة ، وقد اختلطت بعض شواهده ببعض أنواع الكناية وبخاصة (النسبة) منها ، ومما عده بعضهم من قبيل المجاز المرسل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ... ﴾ [١٤٣البقرة] يقول محيي الدين الدرويش عن بعض جوانب البلاغة في الآية : " المجاز المرسل في قوله : (على عقبيه) و العلاقة هي المصير والمآل ..." . [١] ، فقوله جل ذكره : (على عقبيه) : " في موضع الحال ، أي ناكصاً على عقبيه ، و معناه أنه رجع إلى ما كان عليه لم يُخِلّ في رجوعه ، بأنه [٢] عاد من حيث جاء إلى الحالة الأولى التي كان عليها فهو قد ولى عما كان أقبل عليه ومشى أدراجه التي تقدمت له ، و ذلك مبالغة في التباسه بالشيء الذي يوصله إلى الأمر الذي كان فيه أولاً " [٣].

والذي يظهر أنها إلى الكناية أقرب وستأتي لها نظائر قريباً ، يقول أبوحيان : "وقوله : (على عقبيه) : كناية عن الرجوع عما كان فيه من إيمان أو شغل ، والرجوع على العقب أسوأ أحوال الراجع في مشيه ... فلذلك شبه المرتد عن الدين به" [٤] ، ويقول ابن عاشور عن هذا التركيب : " أي انقلب على طريق عقبيه ، وهو هنا استعارة تمثيلية للارتداد عن الإسلام رجوعاً إلى الكفر السابق " [٥] ، وعموماً فهذا التركيب ينقل صورة مذمومة ترتسم أمامنا عندما نقرأ هذا الأسلوب (على عقبيه) .

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه ٢٠٣/١.

(٢) هكذا في النص ، ولعل الصحيح : كأنه عاد، أو : بأن عاد .

(٣) البحر المحيط ٢ / ١٧.

(٤) البحر المحيط ٢ / ١٧.

(٥) انظر التحرير والتنوير ٦ / ٤.

٢- التصوير بالمجاز العقلي .

وهو النوع الثاني من أنواع المجاز ، "وهو الذي يقع في النسبة الإسنادية مثل أنبت الربيع الزهر، ونهار محمد صائم ، وليله قائم ، وفي النسبة الإيقاعية كقوله تعالى :﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [١٥١ الشعراء] وفي النسبة الإضافية مثل : صلاة العصر ومكر الليل"[١].

وما يهمنا هنا هو أثر هذا الأسلوب في الكلام ، وشأنه في التصوير يقول عنه عبد القاهر :"هو كنـــز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلِق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان"[٢]، ويقول الدكتور عبد الفتاح لاشين"للمجاز العقلي أثر كبير في توسعة اللغة ، وتغيير صورة العبارة بحيث تعين الأديب على أداء معانيه بصورة مختلفة ..."[٣]، ويقول الدكتور محمد شادي : "...فإن المجاز العقلي صورة من صور الإبانة عن المعنى بطريقة مؤثرة، إذ يستوعب أرق المشاعر ويبرزها في صورة حية"[٤].

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أقسامه ، وعلاقاته ، بل سنعرض بعض شواهده المتعلقة بموضوعنا لنعرف من خلالها أثره في نقل الصورة ، ولعل من أظهر تلك الشواهد ما جـــاء في شأن النهار ووصفه بالإبصار ، وقد أشار إلى هذا من قبل ابن قتيبة ، حيث ذكـــر أن من شواهد ما جاء فيه المفعول به على لفظ الفاعل قولـــه تعـــالى :﴿ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً ﴾ [١٢ الإسراء] أي: مبصراً بها [٥]، ومثل هذا قوله تعـــالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ [٦٧ يونس] وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [٨٦ النمل] وقولـــه تعـــالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ [٦١ غافر]، فهذه الآيات كلها وقعت فيها كلمة (مبصراً)،

---

[١] أساليب البيان والصورة القرآنية ٢٣٢ ، وانظر أقسامه وعلاقاته في الإيضاح ١ / ٩٨ وما بعدها.

[٢] دلائل الإعجاز ٢٩٥.

[٣] المعاني في ضوء أساليب القرآن ١٦١.

[٤] أساليب البيان والصورة القرآنية ٣٣٧.

[٥] انظر تأويل مشكل القرآن ٢٩٦.

حالاً من النهار[1] ، وقد أسند فيها الإبصار إلى النهار، يقول أبوحيان عن آية يونس:"...وأضاف الإبصار إلى النهار مجازاً ؛ لأن الإبصار يقع فيه ... أي يبصرون فيه مطالب معايشهم"[2].

ولكن ما سر هذا الوصف مع النهار بينما جاء مع الليل بذكر العبرة مصرحة (لتسكنوا فيه)، إن هذه الكلمة المشعرة بالحياة والأحياء (مبصراً) صورت تماماً حال النهار بما فيه من حركة ودأب وعمل ، وليس شيء أليق بهذا المقام من صفات العقلاء من وصف الإبصار، لما في النهار من النور، ولأنه دون الإبصار لا عمل ولا إنتاج ، وللمبالغة في كون النهار بهذه المثابة أُسند الإبصار إليه تصويراً لحالة أهله ، فهو إن كان مبصراً فكيف هم إذاً ؟!.

يقول الألوسي : "(والنهار مبصراً) أي: ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب في أمور معاشهم ، فبولغ حيث جعل الإبصار الذي هو حال الناس حالاً له، ووصفاً من أوصافه التي حصل عليها حيث لا ينفك عنها ، ولم يسلك في الليل هذا المسلك؛ لمَا أن تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار في الإبصار"[3]، ويقول ابن عاشور : "ووصف النهار بمبصر مجاز عقلي للمبالغة في حصول الإبصار فيه حتى جعل النهار هو المبصر ، والمراد : مُبْصَراً فيه الناس، ومن لطائف المناسبة أن النور الذي هو كيفية زمن النهار شيء وجودي فكان زمانه حقيقاً بأن يوصف بأوصاف العقلاء ، بخلاف الليل فإن ظلمته عدمية فاقتصر في العبرة به على ذكر الفائدة الحاصلة فيه وهي أن يسكنوا فيه"[4].

ومما يمكن قوله هنا :إن هذه الكلمة (مبصراً) جاءت في سياق الإنعام على الخلق والمنة عليهم، وفي الوقت ذاته جاءت الإشارة إلى أنها آية ، فقد ختمت الآية بقوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [٦٧ يونس] ، إذاً نحن أمام نعمة وآية ، ويشهد لهذا

---

(1) انظر مثلاً في آية يونس الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٥٧٦، وإعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٤ / ٢٧٣، والكلمة تحتمل وجهاً آخر هو المفعولية.

(2) البحر المحيط ٦ /٨٤.

(3) روح المعاني المجلد العاشر الجزء العشرون ٢٩ والكلام عن آية النمل.

(4) التحرير والتنوير ١١ / ٢٢٧.

أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [١٢ الإسراء].

فكانت الآية الأظهر في الليل هي في كونه سكناً للناس سباتاً لهم ، ولا يشك شاك أن النوم آية من آيات الله وأصله في الليل ، فالليل آية لكنها ممحوة (فمحونا آية الليل) فتعلقها ليس بالإبصار بل بالراحة والسكون ، وأما النهار فأظهر آياته رؤية الكون ، وانطلاق الناس للكد والكسب ، شكراً لله على نعمته بالعبادة والعمل ، وكذا التأمل في آياته لا يمكن أن يتم دون الإبصار ، فكانت هذه الكلمة منبئة عن الآية والنعمة معاً ، وبهذه الصياغة كانت داعية إلى الشكر والتفكير ، ومنبهة لمن غفل وكفر .

ويظهر أيضاً زيادة على ما سبق أن في ذكر الإبصار مع النهار ، وجعله هو ذاته مبصراً تعريضاً بالمشركين[١] ، وكيف يكون منهم هذا والآيات الدالة على وحدانية الله يرونها بأبصارهم في ضوء النهار ويرون منته وعطاياه ، حتى إنه لمن شدة ظهور تلك الآيات فيه ودلالتها لتكاد تبصر بل هي كذلك يقول ابن عاشور : "وفي إدماج الاستدلال بالامتنان تعريض بأن الذين جعلوا لله شركاء جمعوا وصمتين هما : وصمة مخالفة الحق ، ووصمة كفران النعمة"[٢]، والحق أن هذه الكلمة ، وهذا الوصف للنهار دون الليل مبهر عجيب ، ومهما قلنا فيه من التحليل والتعليل ، فإن الإنسان يقف أمام هذه العظمة متقزماً صغيراً لا يملك إلا أن يقول : سبحان الله ، إنني متيقن أن هذا الاطراد في وصف النهار بهذا الوصف الخارج عن المألوف وراءه من أسرار الكون ما وراءه، وليس علم البيان وحده هو القادر على كشفه بل لابد من علوم أخرى تتآزر في ذلك ، وحتى لو حصل ذلك فستبقى هذه العظمة ما بقي هذا الكتاب ، والعجيب في الأمر أن الكل يعتبر بمثل هذه الآية، البدوي والقروي والجاهل ، وكذلك العالم الفلكي المتخصص فلله ما أعظم الإعجاز وما أشد غفلتنا! ويلفت ابن عاشور الأنظار إلى تعليل آخر لهذا التعبير فيقول عن آية الإسراء ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [١٢الإسراء] : "ومعنى كون آية النهار مبصرة أن الشمس جعل ضوؤها سبب إبصار الناس الأشياء، فـ(مبصرة) اسم فاعل (أبصر)

---

[١] ومما يدل لهذا الآية السابقة وهي ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [٦٦ يونس].

[٢] التحرير والتنوير ١١ / ٢٢٧.

المتعدي ، أي جعل غيره باصراً ، وهذا أدق معنى وأعمق في إعجاز القرآن بلاغة وعلماً ، فإن هذه حقيقة في علم الهيئة"(١).

ونجد هذه الكلمة المصورة ذاتها مع غير النهار ، نجدها مع الآيات بعمومها، كما في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [١٣ النمل]، يقول أبو حيان: "وانتصب (مبصرة) على الحال ... ونسب الإبصار إليها على سبيل المجاز "(٢) ويقول ابن عاشور: "والمبصرة الظاهرة صيغ لها وزن اسم فاعل الإبصار على طريقة المجاز العقلي، وإنما المبصر الناظر إليها"(٣)، والآيات المقصود هنا هي التسع الواردة في الآية قبلها التي عرضها موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون وقومه ، إنها ليست آية واحدة بل آيات، وإنها ليست خفية بل ظاهرة جلية، إنها ذاتها مبصرة ، من شدة وضوحها تدعو كل من رآها إلى التصديق، ولكنه الاستكبار والعلو، فما من مخرج لهم إلا أن يصموها بالسحر كما هي عادة المبطلين.

إن كلمة (مبصرة) بهذا الإسناد إلى الآيات لتعطي كل هذه الدلالات ، وما كانت كلمة أخرى لتقوم بهذا لو قيل:واضحة، إن هذا التصوير المبدع يجعلنا الآن نتحسس تلك الآيات،وكأنها كائن حي يبصر، بل ويدعو غيره ليبصره، إمعاناً في إظهار وضوحها وقوة إقناعها، وتعريضاً بسفاهة عقل فرعون وقومه حين ردوا مثل هذه الآيات الواضحات يقول سيد قطب – رحمه الله – : "هذه الآيات الكثيرة العدد ، الكاشفة عن الحق، حتى ليبصره كل من له عينان، ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة، فهي تبصر الناس وتقودهم إلى الهدى ومع هذا قالوا عنها: إنها سحر مبين ... (ظلماً وعلواً")(٤).

وجاءت هذه الكلمة أيضاً في موضع آخر مع آية خاصة هي الناقة كما في قوله تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [٥٩ الإسراء]،يقول أبو حيان: "انتصب مبصرة على

---

(١) التحرير والتنوير ١٥ / ٤٤ ، وما قلناه هنا ينطبق على بقية الآيات المذكورة، وللاستزادة انظر في آية[٨٦ النمل]، البحر المحيط ٨ /٢٧١ ، والتحرير والتنوير ٢٠ / ٤٣ ، ٤٤ وفي آية ٦١ غافر، التحرير والتنوير ٢٤ / ١٨٥.

(٢) البحر المحيط ٨ /٢١٦، وانظر روح المعاني المجلد العاشر الجزء التاسع عشر ١٦٨.

(٣) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٣٢.

(٤) في ظلال القرآن ٥ / ٢٦٣٠.

الحال.."[1]، وغير خاف هنا أنه ليس المراد أنها مبصرة بعينيها فهذا أمر بدهي معلوم، لكن المقصود أن الناقة كلها آية، وكلها تدعو إلى إبصارها لوضوحها "فالمعنى أنها مفيدة البصيرة،أي اليقين، أي تجعل من رآها ذا بصيرة وتفيده أنها آية"[2]، إن هذه الكلمة (مبصرة)، (ومبصراً) في كل مواقعها توجد في الذهن أولاً صورة لكائن حي معجب مبهر، يبصر هو في ذاته، ومن إبهاره ووضوحه يدعو غيره للإبصار وهذا التجسيم يعطي عمقاً خاصاً لوضوح تلك الآيات، ويرشد إلى قوة الإقناع فيها لمن تأملها وصرف بصره وبصيرته إليها.

وهذه صورة أخرى من صور المجاز العقلي تجسم لنا الحدث، وتظهر قدر الحدث وقوته، قال تعالى في بيان جناية فرعون وشنيع فعلته: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [٤ القصص][3] ومعلوم لكل أحد أن متولي التذبيح هم جنوده وجلاوذته، ولكن أُسند إليه التذبيح إلصاقاً لهذه الجريمة الشنعاء به من أول الأمر؛ لأنه هو الأساس فيها والآمر بها ، إن إسناد التذبيح إليه ليصور لنا حجم الجريمة في ذاتها ، فهي تذبيح وليست ذبحاً ، إنها إغراق في إزهاق الدماء بصورة تنفر منها العجماوات فكيف بالقلوب البشرية ، ويصور كذلك حجم تلك الجريمة منسوبة إليه حتى كأنك تتخيله سفاحاً غارقاً في الدماء والأشلاء لآلاف الأطفال ، وهو ما يزال يعمل سكينه في رقابهم، إن الفعل المضارع ببنيته وصيغته ليوحي باستحضار تلك الصورة المروعة لكثرة الذبح ، وذلك الشاخص فيها هو فرعون ، إن النفس لا تملك إزاء هذه الصورة إلا أن تجمع له كل أنواع الكره والاحتقار،وما كانت تلك المعاني لتتوارد على العقل والعاطفة لو قيل : يذبح جنودُه أبناءَهم .

وهذه صورة أخرى معبرة واصفة مشخصة للنفسية التي ترسمها، إنها الجملة الحالية في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ... ﴾ [٤٠ آل عمران] ، لم

---

[1] البحر المحيط ٧ / ٢٧.

[2] التحرير والتنوير ١٥ / ١٤٤.

[3] وقد سبق الحديث عن حالية مثل هذه الجملة في آية [٤٩ البقرة] ، و[٦ إبراهيم]،انظر ص ٢٩١من هذا البحث .

يكن التعبير : بلغت الكبر ، بل قيل :(بلغني الكبر)، "وكأن الكبر يزاحمه حيث لا يريده..."[(١)]، إنها صورة مجسدة محسوسة مصورة لنفسية شيخ كبير بشر بالولد وامرأته عاقر ، وكأنه يصور هذا الكبر قد قطع عليه أمنيته حيث طلبه فأدركه ، وكأن الكبر يمضي إلى غاية قد بلغها من زكريا ، وتلك الغاية لا يكون معها ما اشتهاه من الولد غالباً ، إنها صورة تعلل وجه الاستغراب من جانب ، وتشير إلى الفرحة والاستشعار بمنة الله عليه من جانب آخر ، حيث إن مَنْ هذه حاله فلا يولد له غالباً، فكانت نسبة بلوغ الكبر إياه مشعرة بهذا ، يقول ابن عاشور عن هذا النظم العجيب : "وفائدته إظهار تمكن الكبر منه ، كأنه يتطلبه حتى بلغه كقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ " [٧٨ النساء][(٢)].

[(١)] أساليب البيان والصورة القرآنية ٣٣٧، وقد أورد الآية مثالاً على المجاز العقلي.

[(٢)] التحرير والتنوير ٣ / ٢٤٢.

المبحث الثالث : التصوير بطريق الكناية

سبق أن أشرنا مع المجاز المرسل إلى التركيب الكنائي (على عقبيه)، ولتكرر وروده وظهور كونه من قبيل الكناية ، أحببت أن أعرض بعض شواهده مع شواهد أخرى للكناية حتى تكتمل أدوات التصوير البياني مع ما سبق: من التشبيه والمجاز بنوعيه.

جاء هذا التركيب (على عقبيه)وما ماثله على سبيل الذم في كل مواقعه في القرآن الكريم،ومن ذلك قوله تعالى:﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ... ﴾ [١٤٤ آل عمران].

يقول ابن عاشور: "والانقلاب : الرجوع إلى المكان ... وهو هنا مجاز في الرجوع إلى الحال التي كانوا عليها، أي: حال الكفر، و(على) للاستعلاء المجازي ؛ لأن الرجوع في الأصل يكون مُسبباً على طريق ..."[١].

ومن هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [٧١ الأنعام]، فقوله: (على أعقابنا) إما متعلق بـــ (نرد) أو" في موضع نصب على الحال من المستكن في (نرد) أي وننكص منقلبين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام"[٢].

وفي كل هذه الشواهد كان هذا التركيب الكنائي مصوراً للارتداد من الإيمان للكفر، وهذا أبلغ في تشنيع هذا العمل من اللفظ الصريح المجرد، "إذ ليس ثمة أسمج ولا أقبح من رؤية الإنسان معكوس الخلقة، مخالفاً للمألوف المعتاد"[٣]، إن هذا التركيب يلقي في الحس حركةً حسيةً متخيلة للارتداد المعنوي عن الدين، بارتداد قوم على أعقابهم ارتداداً حسياً حياً متحركاً متخيلاً[٤]، إنها صورة مخزية مشوهة للارتداد ، صورة تحس قبحها النفس، وتراها العين، ويقرب من هذه الصورة في الذم والتقبيح صورة الانهزام حينما تُجَسَّم في

---

[١] التحرير والتنوير ٤ / ١١٣.

[٢] الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ١٧٠.

[٣] إعراب القرآن الكريم وبيانه الدرويش ١ / ٢٠٣.

[٤] انظر نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ١٥٦.

أقبح أشكالها كما في قوله تعالى:﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ [٢١ المائدة]، فالحال (على أدباركم) من الواو في ترتدوا[١] مصورة لقبح الانهزام خوفاً من الجبارين، وفي ذكر (الأدبار) زيادة تقبيح لتلك الحالة ، وفي حرف الجر (على) تشخيص وتجسيم لتلك الصورة، يقول ابن عاشور : "... (على) الدالة على الاستعلاء ، أي: استعلاء طريق السير، نزلت الأدبار التي يكون السير في جهتها منـــزلة الطريق الذي يسار عليه"[٢].

وهذا إلماح حسن لملامح تلك الصورة،فقد دل ذكر الحرف(على) مع الأدبار ومع الأعقاب في الصورة السابقة،على تخيّل أن الأدبار والأعقاب أصبحت طريقاً يكون الارتداد والنكوص عليه،وهي صورة هلامية،لكنها مشعرة بالقبح والذم على كل حال.

ومما جاءت فيه الحال مصورة _بالكناية_ الذلّ والهوان قوله تعالى:﴿ ... حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [٢٩ التوبة]، فقوله جل ذكره:" (عن يد) في موضع الحال، أي:يعطوا الجزية أذلة" [٣]، وهي كناية عن الذلة سواء أكانت اليد بمعنى القوة ، أوكانت باقية على معناها، يقول ابن القيم رحمه الله: "أما قوله (عن يد) فهو في موضع النصب على الحال ، أي: يعطوها أذلاء مقهورين ، هذا هو الصحيح في الآية"[٤]، وفي هذه الحال تصوير لمجاوزة الأموال لتلك اليد على هيئة إعطاء لا عن عزة وقوة بل عن مهانة وذلة، يقول الدكتور الخضري: "... لم يكتف القرآن بقبولهم الجزية، حتى يكون رضاهم هذا صادراً عن استسلام تام ومصحوب بالذلة البالغة، ضماناً لعدم قدرتهم على تجميع صفوفهم والعودة إلى حرب المسلمين، وقوله :(عن يد) تجسيد لهذا المعنى بما يدل عليه من عجزهم عن الإمساك بأموالهم، وكأن هذه الأيدي لا تقوى على حبس المال ومنعه من التفلت منها، والابتعاد عنها، وهو غاية الضعف والهوان"[٥].

ومن التصوير الكنائي ما جاء في قوله تعالى :﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ... ﴾ [٦٣ الفرقان] فقوله جل ذكره (هوناً) حال ، وهي كناية عن التواضع

---

[١] انظر التبيان ١٠ / ٤٣.

[٢] التحرير والتنوير ٦ / ١٦٣.

[٣] التبيان ٢/٦٤٠ .

[٤] بدائع التفسير ٢/٣٥١، ٣٥٢ .

[٥] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٣٠٨.

واللين والرفق "ولو وضعنا مثلاً كلمة (برفق) بدلاً من كلمة (هوناً) لدل الكلام على التواضع أيضاً، ولكان معنا في الجملة صورة للكناية ، ولكنها تكون هابطة المترلة إذا قيست بما جاء في الآية الكريمة ، لأن كلمة (هوناً) تساعد بصورها وجرسها وحروفها ، وإيقاعها على رسم صورة للتواضع ولين المشي تعجز عن تصويره بهذه الدقة كلمة (برفق) ونحوها"[1].

ومما جاء فيه تجسيد المعنى في صورة محسوسة قوله تعالى :﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٍ ﴾ [٢٥ القصص]، فهذا مشهد متكامل حي متحرك، صورت فيه الحالان (تمشي) و(على استحياء)[2] المنظر أدق تصوير حتى كأننا ننظر إليه، ومن اللافت للنظر تجسيد الحياء وهو الأمر المعنوي الممدوح في النساء على أنه شيء يُمشى عليه، إنه من غلبة الحياء عليها واستمراريته معها أصبح متصلاً بها كاتصال الطريق بالماشي عليه فهي لا تستغني عنه، وهو لا ينفك عنها، " ياالله ويا لروعة كلامه المعجز المبين! لقد تجسد الحياء ، فكان بساطاً ممدوداً على طريقها إلى موسى، إنها لا تمشي على الأرض، ولكنها تمشي على حياء تتعثر فيه قدماها،وتقصر به خطاها، ويضطرب له كيانها"[3]،وفي (على) إضاءة بأن الحياء لم يغلبها بل هي تغلبه إذا شاءت؛ لذا أفصحت عن مرادها في غير لعثمة ولا اضطراب[4] ، فهو إذاً الحياء الممدوح ، والخلق النبيل في النساء، وهذا عنوان العفة ودليل الطهارة، يقول ابن عاشور: (و(على) للاستعلاء المجازي للتمكن من الوصف والمعنى : أنها مستحية في مشيتها، أي: تمشي غير متبخترة ولا متثنية،ولا مظهرة زينة ... والاستحياء مبالغة في الحياء..."[5]، ويقول عبد الستار أحمد سعيد:"وفي هذا القول حالان الأولى جملة (تمشي) وهي تصور إحدى البنتين وقت مجيئها، فهي تقطع الطريق خطوة خطوة،وتأتي الحال الثانية (على استحياء) من الضمير في الأولى،لتصورها في هذه الحال،فهي تخطو خطوة خطوة متجهة إلى (موسى)،وقد تمكن منها الحياء فضل تمكن،ولعل ذلك ما يكشفه التعبير القرآني بـــ(على")[6].

---

(1) من بدائع النظم القرآني ٧١.
(2) انظر البحر المحيط ٨ / ٢٩٨.
(3) التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٣٣٦.
(4) انظر في ظلال القرآن ٥ / ٢٦٨٧.
(5) التحرير والتنوير ٢٠ / ١٠٣.
(6) الحال في الأسلوب القرآني ٢٦٢.

المبحث الرابع : التصوير بوسائل أخرى

لا يعني ما ذكرناه سابقاً من وسائل التصوير أنها تنحصر في علوم البيان، بل كل ما يمكن أن يشكل الصورة يعد من هذا القبيل ، ولعل مما هو ظاهر في القرآن الكريم تنوع أدوات التصوير فيه، فقد تجد مشهداً كاملاً طويلاً ، وآخر مقتضباً مختصراً ، ثم تجد أدوات التصوير أحياناً تتزاحم في رسم المشهد ولاسيما في الاستدلالات على البعث والنشور، وكذلك مشاهد يوم القيامة ، و " قد يستقل لفظ واحد لا عبارة كاملة، برسم صورة شاخصة ، لا بمجرد المساعدة في إكمال صورة ، وهذه خطوة أبعد من الخطوة الأولى [١]، وأقرب إلى قمة جديدة في التناسق ، خطوة يزيد من قيمتها أن لفظاً منفرداً هو الذي يرسم الصورة ، تارة بجرسه الذي يلقيه في الآذان ، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال، وتارة بالجرس والظل جميعاً" [٢] ، وليس هذا فقط بل هناك أدوات أخرى تسهم في تكوين الصورة التي هي: " تجسيم لمنظر حي أو مشهد خيالي ، يتخذ من اللفظ أداة له ، وهناك بالإضافة إلى التجسيم : اللون، والظل ، والإيحاء ، والإطار، وكلها عوامل لها قيمتها في تشكيل الصورة وتقويمها " [٣] .

إذاً فهناك التصوير بالجرس والصوت ، والظل والإيحاء ، واللون ، بل وحتى الحذف كان في القرآن مصوراً ، وسنتحدث عما يبين ذلك من خلال ما يأتي :

١ – التصوير بالجرس .

٢ – التصوير باللون .

٣ – التصوير بالحذف .

---

(١) وهي التي يكون التصوير فيها بالتشبيه والمجاز .

(٢) التصوير الفني ٧١، والنقد الأدبي أصوله ومناهجه ٤٠.

(٣) المذاهب النقدية ٢٠٤.

أولاً : التصوير بالجرس[١] :

لجرس الكلمة وصوت حروفها تأثير لا يُنكر في تشكيل الصورة في الخيال، "والحروف تختلف قوة وضعفاً وتتباين في جرسها ورنّاها،ويتبع ذلك اختلاف الكلمات التي تتكون منها في وقعها على السمع، وفي متزلتها في أداء المعنى، وفي إشارقما لانفعالات خاصة،وألوان من الإحساس... فالحروف اللينة الهادئة الجرس تبعث الارتياح،والقوية تناسب مواقف الزجر والتعنيف،والممدودة تناسب موطن النصح والإرشاد"[٢]

ودلالة الجرس في القرآن بينة لا تنكر ويظهر ذلك في تكرار الحروف ، وتشديدها، وأوصافها من الشدة والرخاوة ونحو ذلك ، وسأذكر أولاً شواهد التصوير في الحال المفردة ثم الحال الجملة، فمن شواهد التصوير بالجرس في الحال المفردة تكرار الراء في (مدراراً) في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ [٦ الأنعام] ، يقول البقاعي :"ولما كان المراد المطر،كان التقدير: حال كونه (مدراراً) أي ذا سيلان غزير متتابع ؛ لأنه مبالغة من الدر"[٣]،وقد جاءت هذه الكلمة مصورة للكثرة والغزارة بكل مكوناتها فهي صيغة مبالغة، وفيها تكرار لحرف الراء الذي يشعر بتكرر هطول المطر وتتابع قطراته، وهي مصوغة من مادة (در) التي أصلهـــا من" در اللبن دروراً وهو كثرة وروده على الحالب "[٤] ، إضافة إلى ما يشعر به ارتباط هذه الكلمة باللبن من الدلالة على النفع ، والأذن بمجرد سماع جرس هذه الكلمة وما تتضمنه من إيحاءات تدرك كثرة الخير وعموم نفعه إذ "من لوازم ذلك كثرة الأنهار والأودية بكثرة انفجار العيون من سعة ري طبقات الأرض"[٥].

ومن هذا القبيل تتابع التاءات في (تترى) في قوله تعالى :﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا

---

[١] الجرس هو الصوت المجروس ، وهو الصوت نفسه ، وهو الصوت الخفي ، وعند ابن سيدة هو الحركة والصوت ، انظر لسان العرب مادة جرس ٦/ ٣٥ ، وبهذا يكون هذا المصطلح صادق الدلالة على المراد منه ، وفيه ربط بين صوت الحرف ومدلوله الحركي والساكن ، انظر نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ١٠٤ ، ١٠٥.

[٢] من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن) ٢٧.

[٣] نظم الدرر ٧/ ٢٣، ومثل هذه الآية ما جاء في قوله تعالى ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [٥٢ هود]، انظر تحليلاً جميلاً للطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٩٦/١٢ ، وكذلك ما جاء في آيه [١١نوح]

[٤] حاشية زادة على البيضاوي ٢ / ١٥٣ .

[٥] التحرير والتنوير ٧ / ١٣٩ .

يُؤْمِنُونَ﴾ [٤٤المؤمنون]، فــ(تترى) سواء أكانت بالألف أم بالتنوين حال من (رسلنا)[١]، لكن اختلف في مدلولها "فعن الأصمعي : واحداً بعد واحد وبينهما مهلة ، وقال غيره هي من المواترة وهي التتابع بغير مهلة"[٢]، وقال الطاهر بن عاشور : "ولا يقال: (تترى) إلا إذا كان بين الأشياء تعاقب مع فترات وتقطع ... وأما التعاقب بدون فترة فهو التدارك"[٣]، وهذا يعني أن دلالة الكلمة بأصل وضعها على التتابع ثابتة، وهو ما يشعر به تتابع التائين فيها، وعلى القول بأنه التتابع بغير مهلة ففي تقارب التائين والتصاقهما ما يشير إلى ذلك، ولكنه لا يَقْطَعُ به.

ومما يلحق بتكرار الحرف وتأثيره مجيئه مشدداً كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ [١٥، ١٦ المعارج] ، فهذه الكلمة (نزاعة)، جاءت مصورة بوقعها الشديد لشدة نزع النار لأعضاء وأطراف أهلها، فإن تكرار حرف (الزاي) أعطى مدلولاً على تكرار ذلك النزع، ودمج الحرفين وتشديدهما أشعر بشدة ذلك النزع ، فهو نزع جمع بين التكرار والشدة ، وذلك غاية الألم وشدة العذاب ، وهذا ما يفهم من قول البقاعي: " (نَزَّاعَةً لِلشَّوَى) أي: هي شديدة النزع لجلود الرؤوس بليغته فما الظن بغيره من الجلد... ثم يعود كما كان في الحال ليروا التعب الذي كانوا ينكرونه في أنفسهم في كل لحظة"[٤]، ويقول الطاهر بن عاشور:" والنزاعة مبالغة في النزع وهو الفصل والقطع" [٥] ، وهذا من سنن العرب في كلامها، فقد "جعلوا تكرير العين[٦] في المثال [٧] دليلاً على الفعل...؛وذلك لأنهم جعلوا الألفاظ دليلة المعاني،فأقوى اللفظ أن يقابل به قوةُ الفعل"[٨].

وبالنظر في موضع هذا الحال نجد أن السياق كله ينقل "صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل، والرغبة الجامحة في الإفلات ! صورة مبطنة بالهول ، مغمورة بالكرب، موشاة

---

[١] انظر البحر المحيط ٧ / ٥٦٤ ، والدر المصون ٨ / ٣٤٤ .
[٢] الدر المصون ٣٤٦/٨ ، وللراغب كلام قريب من الرأي الثاني ، انظر المفردات ١٦٣ .
[٣] التحرير والتنوير ٦١/١٨.
[٤] نظم الدرر ٢٠/ ٣٩٨.
[٥] التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٦٤.
[٦] مثل له ابن جني بـــ (كسّر ، وقطّع ، وفتّح ، وغلّق) ، و(نزّاعة) شبيهة بما ذكر في تشديد العين فهي على (فعّالة) .
[٧] ((يريد بالمثال البناء)) قاله محقق الخصائص ٢ /١٥٥.
[٨] الخصائص ١٥٥/٢ ، وانظر من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن) ٥٧.

بالفزع ترتسم من خلال التعبير القرآني الموحي" (١) ، ولا شك أن هذه الحال أسهمت في رسم ذلك المشهد المفزع بجرسها المميز الناقل لصورة مرعبة من ذلك الهول(٢)، إنه نزع النار الشديد لجلود وأطراف وأعضاء المعذبين فيها ، فلله ما أعظمه من هول وما أفظعها من صورة ! نسأل الله السلامة والعافية .

وإذا كان ما سبق أظهر لنا دلالة التكرار والتشديد في الصيغة ، فإننا ربما نجد بعض الألفاظ خلت من التكرار والتشديد لكنها تكون مصورة لمعناها بحرف تشتمل عليه ، ومن ذلك حرف (الخاء) في كلمة (مواخر) في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [١٤ النحل](٣)، "فهذا الحرف يحمل إلى أذن السامع صوت البواخر وهي تمخر عباب البحر، وتشق أمواج الماء، أملاً في الخير ، وابتغاءً للرزق"(٤)، ولا عجب في هذا إذا علمنا أن من معاني المخر ما حكاه الطبري بقوله:"والمخر في كلام العرب:صوت هبوب الريح إذا اشتد هبوبها، وهو في هذا الموضع:صوت جري السفينة بالريح إذا عصفت..."(٥)، إذاً الكلمة دالة على الصوت بوضعها، مصورة له بجرسها .

والحقيقة أن هناك ارتباطاً ملموساً بين نبر (الخاء) وصوت الماء،خاصة الكثير المتدفق منه،ولذا قال سبحانه عن الجنتين :﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [٦٦الرحمن]، لتصوير الكثرة والقوة ، وكذلك صوت الماء إذا شقته الجواري التي كالأعلام ، ودلالة صوت الحرف على معناه أمر غير مستنكر بل قضى به حذاق العربية ورأوا أنه من أساليب العرب ، يقول ابن جنى : "فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها ... وذلك أكثر مما نقدره ، وأضعاف ما نستشعره"(٦) .

ولعل من هذا (الصاد) في قوله تعالى:﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ [١٧ المدثر]، سواء أكانت

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٦٩٧.

(٢) دلالة التهويل في هذه الكلمة أشار إليها الزمخشري و أبو حيان ، انظر الكشاف ٤ /٦١٠ ، والبحر المحيط ٢٧٥/١٠.

(٣) وهي هنا حال من (الفلك)؛لأن الرؤية بصرية ،انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢٢٠/٣،٢١٩،ومثلها آيه[١٢ فاطر].

(٤) من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن) ٤٥.

(٥) جامع البيان المجلد الثامن الجزء الرابع عشر ٨٩ ، وانظر في معاني(المخر)المفردات مادة مخر ٧٦٢ .

(٦) الخصائص ١٥٧/٢ .

(صعوداً) وصفاً للعقبة الشديدة التصعّد الشاقة أم هي جبل في النار [1]، فإن الصاد أقوى من غيرها في تصوير الصعود في كل ما هو شاق من جبل ونحوه ،"فجعلوا الصاد لقوتها مع ما يشاهد من الأفعال المعالجة المتجشمة ... ومشقة الصاعد ظاهرة مباشرة معتدة متجشمة فالأثر فيها أقوى فكانت بالحرف الأقوى-وهو الصاد - أحرى"[2] .

وهنا جاءت الحال لتصوير مدى الإرهاق الذي يلحق الصاعد ، والجهد الذي يبذله ؛ لذا لم تكن الحال بلفظ يفيد الصعود غير ما ذكر لما في (الصاد) من الدلالة على التعب والنصب لنبرها وشدتها وقوتها ، وهذا يؤكد أن الجرس القوي الصاخب ، يصور معنى قوياً يشبهه ، أما الجرس الهادئ والحروف الرخوة اللينة فهي ترسم معنى هادئاً ، وتصور مشهداً تعلوه السكينة ومن ذلك الشواهد الآتية :

قال الله تعالى :﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [٦٣ الفرقان]، فـــ(هوناً) هنا حال [3] مصورة لهيئة المؤمنين في مشيهم "والمعنى:أنهم يمشون بسكينة ووقار، لا يضربون بأقدامهم، ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً"[4]؛ فانظر كيف جاءت هذه الكلمة بجرسها الهادئ ناقلة للصورة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن في مظهر من مظاهر حياته ، والمقصود التواضع و اللين ، وقد جاءت الآية كلها حاثة على هذا الخلق الرفيع ، و من ذلك اختيار اسم (الرحمن) المشعر بوصف الرحمة الأبلغ الذي أنكره الكفار فقـــالوا : ﴿ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [٦٠ الفرقان]،ومن ذلك قوله تعالى:﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ففيه تذكير لهم بما هم مخلوقون منه وما يصيرون إليه، مما يزيدهم تواضعاً وسكينة لربهم ، ثم "عبر عن حالهم بالمصدر مبالغة في اتصافهم بمدلوله حتى كانوا إياه [5] فقال : (هوناً")[6] .

وجاء هذا الوصف للمؤمن في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي منـــها قولـــه:

[1] انظر المفردات مادة صعد ٤٨٤ ، ونظم الدرر ٢١/ ٥٢ ، والتحرير والتنوير ٢٩ / ٣٠٧ .
[2] الخصائص ٢ / ١٦١.
[3] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٦٤٠ ، والبحر المحيط ٧ / ١٢٦ .
[4] الكشاف ٣ / ٢٩١ .
[5] لعله لو قيل : حتى كانوا كأنهم إياه لكان أظهر .
[6] نظم الدرر ١٣/ ٤٢٠.

"المؤمنون هينون لينون كالجمل الأَنف، إن قيد انقاد ، وإذا أنيخ على صخرة استناخ"(١) ، وقد أبدع ابن القيم في بيان دلالة هذا الجرس موازناً له بـ (الهُوْن) الذي هو وصف الكفار فقال: " (والهَوْن)...الرفق واللين ، (والهُون) بالضم : الهوان ، فالمفتوح منه صفة أهل الإيمان، والمضموم: صفة أهل الكفران"(٢)، "وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن(٣)، بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها... و(الهَون) بفتح الهاء من الشيء الهين ... وأما (الهُون) بالضم فهو الهَوان فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان ، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهَون، فوصف مشيهم بأنه مشي حلم ووقار وسكينة، لا مشي جهل وعنف وتبختر..."(٤) ، وإذا كان ابن القيم قد أوضح مدلول الضم والفتح في كلمة (هَوْن) فإن الدكتور السيد عبد الفتاح حجاب قد أظهر دلالة الحروف التي تكونت منها الكلمة على المراد فقال: "وكلمة (هَوْناً) أدق وألطف وأحق من كلمة (هيناً) أو (ليناً) أو (برفق) أو (في تواضع) أو نحو ذلك، فحرف (الهاء) لا تكاد تحس به ، وليس له الجرس القوي الذي لبعض الحروف الأخرى ، ثم إن الفم لا يكاد ينفتح به حتى يعود إلى الانطباق على الواو الساكنة في خفاء أشد، فهذه الكلمة بخصائصها الصوتية أنسب الكلمات للتعبير عن حركة المشي اللين الرفيق"(٥).

ومن ذلك ما تصوره كلمة (وَهْناً)(٦)من الضعف في قوله تعالى:﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [١٤ لقمان]، وهي مركبة من الحروف ذاتها في (هَوْناً) لكن اختلف ترتيبها، ومازالت رغم ذلك تشترك معها في أصل المعنى وهو السكون(٧) لكنها هنا تظهر فيها سمة الضعف، يقول البقاعي: "أي:حال كونها ذات وهن تحمله في أحشائها، وبالغ بجعلها نفس الفعل دلالة على شدة.ذلك الضعف بتضاعفه كلما

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته، ح(٦٦٦٩)، ١١٣٢/٢ .

(٢) بدائع التفسير ٣/ ٣٠٣.

(٣) الأرجل بـــ (هوناً) والألسن بـــ (سلاماً) .

(٤) بدائع الفوائد ٢ / ١٥٩ .

(٥) من بدائع النظم القرآني ٤٥.

(٦)وهي في الموطن المذكور حال من الفاعل أو المفعول ، انظر التبيان ١٠٤٤/٢، والفريد في إعراب القرآن المجيد ٩/٤ .

(٧)وتقليب المادة الواحدة وردها إلى معنى واحد مهَيَع نبه إليه ابن جني وانتصر له وسماه الاشتقاق الأكبر، انظر الخصائص ١٣٣/٢.

أثقلت"[١] .

ومما يصور السكون مع السعة (رَهْواً) في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [٢٤ الدخان]، فهذه الكلمة (رَهْواً) جاءت حالاً [٢]مصورة لهيئة البحر بعدما خرج منه موسى عليه السلام وأصحابه،و سكون الهاء فيها يُلمح إلى سكون الماء بعد ذلك التموج الذي أصابه وبعد اعتلائه حتى أضحى كالطود العظيم، تلك الحركة العنيفة يسكن البحر بعدها على حاله، المنخفض منه والمرتفع ، وتأتي الواو المفتوحة بلا قيد لتنفتح معها الشفتان إلماحاً إلى سعة ذلك الانفتاح والانفراج الذي أصاب البحر ، يقول البقاعي عن هذه الكلمة (رَهْواً): " أي منفرجاً واسعاً ساكناً بحيث يكون المرتفع من مائة مرتفعاً، والمنخفض منخفضاً كالجدار" [٣]، وليس بخاف كيف صوّرت هذه الكلمة بجرسها هذه الأوصاف الثلاثة :الانفراج، والسعة، والسكون – أكمل تصوير .

وهناك كلمات توحي إليك بالصورة إيحاءً ، ويرسم ظلها في خيالك شيئاً من دلالتها، ومن هذا كلمة (زحفاً) في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾ [١٥الأنفال]، فإنها توحي بسيل من البشر، كأنه من كثرته لا يستطيع أن يجري أو يمشي وإنما هو يزحف زحفاً،إننا نتخيل مع هذه الكلمة أن الجيش كتلة واحدة تجر نفسها على الأرض لثقلها.

ومن هذا أيضاً كلمة (جثياً) في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ [٦٨ مريم]،يقول أبو حيان:" (جثيا) حال مقدرة ، وعن ابن عباس:قعوداً، وعنه : جماعات جماعات، جمع جثوة وهو المجموع من التراب والحجارة ، وقال مجاهد والحسن والزجاج : على الركب ، وقال السدي : قيامـــاً على الركب لضيق المكان بهم"[٤].

وكل ما ذكر تصوره هذه الكلمة بما يعن للخيال عند قراءتها من تلك الجموع الباركة على الركب المتزاحمة حول نار جهنم كأنهم يطلبون نفعها وهم يصلون حرها، تعلوهم الذلة ، ويخيم عليهم الهوان ، يقول ابن عاشور : "وهذا الجثو هو غير جثو الناس

---

[١] نظم الدرر ٥١ / ١٦٤
[٢] انظر التبيان ٢ / ١١٤٦ ، والفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٢٧٣ .
[٣] نظم الدرر ١٨ / ٢٦ .
[٤] البحر المحيط ٧ /٢٨٧ .

في الحشر المحكي بقوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [٢٨ الجاثية] فإن ذلك جثو خضوع لله ، وهذا الجثو حول جهنم جثو مذلة"[١].

ومن هذا أيضاً كلمة (لواذاً) المصورة لحركة المنافقين في قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُم لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦ ﴾ [٦٣ النور] ، فقوله جل ذكره:(لواذاً) حال من الواو في (يتسللون)، وهي تصور خبث المنافقين وانسلالهم خفية من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وستر بعضهم لبعض ، وهي حركة متبادلة فيهم كما تدل عليه صيغة الفاعلة (لواذاً) فهي مصدر لاوذ[٢].

ولعله اتضح الآن قدر تأثير الجرس في نقل الصورة ، وكذلك إيحاء الكلمة وظلها، وقد بدا ذلك جلياً في شواهد الحال المفردة ، ويظهر ذلك أيضاً في شواهد الحال الجملة، ولكن دلالة الصيغة والبنية هنا أظهر منها في المفردة ، ويبقى للصوت والجرس دلالته وتأثيره .

ومما تآزرت فيه الحروف مع صياغة الكلمة و إيحاءاتها وظلالها ما جاء في قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [٣٨ التوبة] ، فقوله تعالى : (اثّاقلتم) فيها قراءة على الأصل (تثاقلتم) ؟ ، وعلى الاستفهام الإنكاري التوبيخي (أثّاقلتم) ، وهي على كل ذلك في موضع الحال[٣].

ومما لا شك فيه أن في (اثّاقلتم) بالتشديد والإدغام ما ليس في (تثاقلتم) من المعاني، ومرد ذلك إلى تركيب الحروف ومدلولها فـ(اثاقلتم) صورت بثقلها في النطق الثقل عن الجهاد الناتج عن حب البقاء وكره مشقة السفر ، ولا عجب في ذلك فقد جاءت هذه الآية مصورة لحال المسلمين في غزوة العسرة (تبوك) ، وكانت في زمن جدب وحر شديد، وكانت حين طابت الثمار فعظم على الناس الخروج وأحبوا المقام[٤]، فجاءت هذه الكلمة دالة بتركيب حروفها على تلك المعاني ، مصورة لذلك أدق تصوير ، يقول البقاعي: " (اثاقلتم) أي : تثاقلتم تثاقلاً عظيماً، وفيه ما لم يذكروا له سبباً ظاهراً بما أشار إليه الإدغام،

---

(١) التحرير والتنوير ١٦ / ١٤٧ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٨/ ٣١٠ .

(٣) انظر البحر المحيط ٥ / ٤١٩ .

(٤) انظر البحر المحيط ٥ / ٤١٩

إخلاداً وميلاً إلى الأرض" [١]، يقول سيد قطب ـرحمه اللهـ : "تسمع الأذن كلمة (اثاقلتم)... فيتصور الخيال ذلك الجسم المثّاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل، إن في هذه الكلمة طَنّاً على الأقل من الأثقال، ولو أنك قلت:تثاقلتم، لخف الجرس ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة، التي رسمها هذا اللفظ "[٢].

وهذا الثقل المتخيَّل من هذه الكلمة يبين لنا حجم المثقلات التي تجذب إلى الأرض، حتى كأنهم معها لا يقوون على النهوض ، ياله من تصوير لمكنونات النفوس ، وأسرار الضمائر، " إنها ثقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض، ثقلة الخوف على الحياة والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع، ثقلة الدعة والراحة والاستقرار، ثقلة اللذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب، ثقلة اللحم والدم والتراب، والتعبير يلقي ... كل هذه الظلال بجرس ألفاظه (اثاقلتم) ، وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل ، ... ويلقيها بمعنى ألفاظه :(اثاقلتم إلى الأرض) وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح ، وانطلاق الأشواق"[٣] .

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى :﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [١٥ ، ١٦ ، ١٧ إبراهيم] ؛ فهذه الآية تنقل لنا صورة مروعة من صور العذاب يوم القيامة ، الذي منه سقيا الماء الصديد ، الجامع بين نتن الرائحة وغاية الحرارة ، فهو لا يُقْبل بحال، فجاءت كلمة (يتجرعه)[٤] بجرسها المصور لبيان طريقة الشرب، والصفة التي يكون عليها، ونوع المشروب من حيث القبول والرد، وصوت جرع المشروب الذي لا يساغ ، كل ذلك بصيغة واحدة هي : (يتجرعه) ؛ وذلك لأن (الجرع) هو بلع الماء [٥] وهو يحدث صوتاً قريباً من جرس هذه الكلمة، وفي التشديد الذي انطوت عليه هذه اللفظة ، وما تحمله هي بأصل دلالتها ما يشعر بتكرر

---

[١] نظم الدرر ٨ / ٤٦٨.
[٢] التصوير الفني في القرآن ٧٢ ، وانظر الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم ٢٤ ، ٢٥.
[٣] في ظلال القرآن ٣/١٦٥٥.
[٤] وهي تحتمل كونها صفة لـــ(ماء) أو حالاً من ضمير(يُسقى)، أو هي مستأنفة، انظر التبيان ٢/٧٦٥، والبحر المحيط ٦/٤٢٠.
[٥] انظر التحرير والتنوير ١٣ / ٢١١

ذلك، وهذا أعظم في التعذيب، يقول البقاعي:"يتجرعه أي يتكلف بلعه شيئاً فشيئاً لمرارته وحرارته فيغص به،ويلقى من الشدة مالا يعلم قدره إلا الله"(١)، ويقول الألوسي: "يتكلف جَرْعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه"(٢)، فلله ما أعظم هذا القرآن كيف نقل لنا كل هذه المعاني بكلمة واحدة مصورة معبرة!.

ومما هو من هذا القبيل في تصوير عذاب أهل النار قوله تعالى:﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [١٩، ٢٠ الحج]، فقوله جل ذكره (يصهر) جملة حالية من الحميم(٣)، وفيه قراءة أخرى للحسن بالتشديد والفتح (يُصَهَّر)(٤)، والصهر هو إذابة الشحم(٥) ، ويكون ذلك بالنار أو بحرارة الشمس(٦)، ولو عدنا إلى السياق الذي وردت فيه هذه الحال لوجدنا تصوير شدة العذاب فيه ظاهراً فمن ذلك قوله تعالى: (قُطِّعت) "فصيغت صيغة الشدة في القطع للإشارة إلى السرعة في إعداد ذلك لهم"(٧)،ومن ذلك التنصيص على نوع الثياب وأنها (من نار)،ومن ذلك غشيان الحميم لهم(يصب من فوق رؤوسهم الحميم)، وفي بناء الفعل للمجهول إشارة إلى مفاجأتهم بذلك زيادة في إفزاعهم ، حيث قيل :(يُصْهر) وهذه الكلمة مشعرة عند ذكرها بالحرارة والذوبان؛ لأنها ارتبطت بهذا المدلول، وفي قراءة التشديد - وهي الشاهد - دلالة أخرى على المبالغة والتكثير (٨) والتكرار،ويدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم :"إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان"(٩)، فلا إله إلا الله ما أعظم هذا العذاب، يشربون ناراً، ويلبسون ناراً ،ويعيشون في النار.

---

(١) نظم الدرر ١٠ / ٣٩٩ .

(٢) روح المعاني المجلد السابع الجزء الثالث عشر ٢٠٢.

(٣) الدر المصون ٨ / ٢٤٩ .

(٤) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٥٢٥ ، والبحر المحيط ٧ / ٤٩٦ .

(٥) انظر المفردات مادة صهر ٤٩٤ .

(٦) انظر التحرير والتنوير ١٧/٢٣٠ .

(٧) التحرير والتنوير ١٧ / ٢٣٠ .

(٨) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٥٢٥ ، والدر المصون ٨ :/ ٢٤٩ .

(٩) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٤٩٦/٧،وهو في سنن الترمذي،كتاب صفة جهنم،باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، ح(٢٠٨٧)،٧٠٥/٤،قال عنه الترمذي:حسن صحيح غريب، وقال الألباني:ضعيف، انظر ضعيف الترمذي، ح(٤٧٦).

ومما جاء في شأن الكفار أيضاً قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [٨٣مريم]،فقوله تعالى:(تؤزهم) في موضع الحال[١] ، يقول الزمخشري: " الأز والهز والاستفزاز أخوات، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج ، أي تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوسواس"[٢]،وإذا كان ذلك كذلك فما سر اختيار (الأز) على أخواته؟ لا شك أن في (تؤزهم) من الدلالة ما ليس في (تهزهم) ولا فرق بينهما إلا في الحرف الأول، هذا ما يؤكده ابن جني في حديثه عن تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني حيث يقول: "من ذلك قوله سبحانه وتعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ أي:تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى: تهزهم هزاً والهمزة أخت الهاء ، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة ؛ لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز؛ لأنك قد تهز مالا بال به، كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك"[٣]، وهكذا يسهم الحرف، بجرسه قوة وضعفاً ، في إبراز معنى جديد، وإضافة دلالة أخرى للكلمة لم تكن فيها من قبل ، وذلك من خلال تكراره أو تشديده ، أو إحلاله مكان غيره .

وبعد عرض هذه النماذج للجملة الفعلية ، ننتقل إلى ما يخص الجملة الاسمية ، ومن شواهدها قوله تعالى في شأن المنافقين وحال بعض من يتلقى كلامهم : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٤٧التوبة]، فقوله جل ذكره: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ ﴾ جملة اسمية في موضع الحال ويجوز فيها الاستئناف[٤] وجاء المبتدأ في هذه الجملة كما نرى بصيغة معينة هي (سماعون) ولم تكن (سامعون) لِما في (سمّاعون) من الدلالة على المبالغة في الاستماع والإنصات، ومرد تلك المبالغة إلى تكرير الحرف وتشديده، فهم قوم شديدو الاستماع حريصون عليه، وقد قيل:إن المراد أنهم جواسيس يستمعون أخبار المؤمنين ثم ينقلونها،وهو

(١) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٤١٧ .
(٢) الكشاف ٣ / ٤٢ .
(٣) الخصائص ٢ / ١٤٦ .
(٤) انظر الدر المصون ٦ / ٦١ .

ما رجحه الطبري -رحمه الله-[1] ، وقيل: المراد أن فيكم مطيعين يقبلون كلامهم ويستمعون له وهو قول الجمهور[2]، ولعل في مجيء الكلمة على هذه الصيغة (سمّاعون) ما يرجح قول الطبري؛ لأنها تشعر بتشديدها بشدة اهتمامهم بالسماع ، وهذا يكون أظهر في حق الجاسوس الذي هذا عمله ، وما يؤيد ذلك أيضاً التعبير بـ (في) دون (من) أو (مع) فكأنهم دخلاء ليسوا منهم، لكنهم لإتقان عملهم (الجاسوسية) كانوا (فيكم) ، ولعله يؤيد هذا ما علل به الطاهر بن عاشور مجيء الكلمة على هذه الصيغة حيث يقول:"وجاء (سمّاعون) بصيغة المبالغة للدلالة على أن استماعهم تام ، وهو الاستماع الذي يقارنه اعتقاد ما يُسمع كقوله (سماعون للكذب، سماعون لقوم آخرين) ... قال النحاس: الأغلب أن معنى (سمّاع) يسمع الكلام، ومثله (سمّاعون للكذب) وأما من يقبل ما يسمعه فلا يكاد يقال فيه إلا سامع مثل قائل"[3].

ومما ظهر فيه الجرس المجلجل قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [٣٦، ٣٧ فاطر]، فقوله جل ذكره: (وهم يصطرخون) جملة اسمية يمكن أن تكون مستأنفة ، ويمكن أن تكون حالية مبينة لبعض هيئاتهم في النار، وإلى هذا أشار البقاعي بقوله: "والحال أنهم يصطرخون فيها"[4]، وما لا مراء فيه أن (يصطرخون) فيها من الدلالة والقوة ما ليس في (يصرخون) مع أن المادة واحدة، لكن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وقد بوّب ابن جني لذلك في الخصائص فقال:باب في قوة اللفظ لقوة المعنى، وقال فيه:"فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني ثم زيد فيها شيء،أوجبت القسمة له زيادة المعنى به"[5]، ويقول الرازي:"والاصطراخ من الصراخ،والصراخ صوت المعذب"[6]، إذاً هذا ليس صراخاً عادياً، بل هو فوق ذلك

(١) انظر جامع البيان المجلدالسادس الجزء العاشر ١٤٦.
(٢) انظر البحر المحيط ٥ / ٤٣٠ .
(٣) التحرير والتنوير ٢١٨/١٠ .
(٤) نظم الدرر ١٦ / ٦٢ .
(٥) الخصائص ٣ / ٢٦٨ .
(٦) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٦ .

بكثير، إن الجرس العنيف هنا يصور الجهد والمشقة في ذلك الصياح الناقل لشدة عذابهم فهم لا يصرخون بل (يصطرخون)، "أي:يوجدون الصراخ فيها بغاية ما يقدرون عليه من الجهد في الصياح بالبكاء والنواح"(١)، فهم يصيحون ويستغيثون فتختلط الأصوات وتعلو من شدة ما نالهم من عذاب الجحيم، يقول الطاهر ابن عاشور"و(يصطرخون) مبالغة في يصرخون؛ لأنه افتعال من الصراخ وهو الصياح"(٢).

ويبدو أن قوة الجرس وعلو النبرة سمة عامة في تصوير حال أهل النار يوم القيامة، وقد مضى من ذلك شيء غير قليل ، وأما مع المؤمنين فالجرس هادئ والرحمة ظاهرة، ولو تأملنا – فيما نحن فيه – الآيات التي سبقت آية الاستشهاد وهي للمؤمنين لوجدناها تصور نعيماً مادياً ملموساً ونفسياً محسوساً فهم ﴿ يُحَلَّوْنَ (٣) فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ فاطر] ، "فالجو كله يسر وراحة ونعيم ، والألفاظ مختارة لتتسق بجرسها وإيقاعها مع هذا الجو الحاني الرحيم، حتى (الحَزَن) لا يُتكأ عليه بالسكون الجازم ، بل يقال (الحَزَن) بالتسهيل والتخفيف، والجنة (دار المقامة) و النَّصَبُ واللغوب لا يمسالهم مجرد مساس ، والإيقاع الموسيقي (٤)للتعبير كله هادئ ناعم رتيب" (٥)، أما مع أهل النار "فنرى القلق، والاضطراب وعدم الاستقرار على حال" (٦)إنهم يعذبون﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [٣٦فاطر] ؛ لذا فهم (يصطرخون فيها)، إنه تصوير لهيئة صراخهم "صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء ، متناوح من شتى الأرجاء ، إنه صوت المنبوذين في جهنم (وهم يصطرخون فيها) ، وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه

---

(١) نظم الدرر ١٦ / ٦٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٢ / ٣١٨ .

(٣) (يحلون) جملة في موضع الحال على أحد وجهين فيها ، انظر : الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٩١ ، فهي داخلة فيما نحن فيه ؛ لأن جرسها هادئ مشعر بالتكريم والحفاوة .

(٤) الموسيقى أضحت علماً على آلات اللهو المصاحبة للغناء ، فكان الأولى ترك التعبير بها عن جرس الكلمات القرآنية وتناسقها، مع اعتذارنا للأستاذ سيد قطب – رحمه الله – فإنه ما قصد المشابهة .

(٥) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٤٥.

(٦) في ظلال القرآن ٢٩٤٥/٥.

المعاني جميعاً"(١).

وأما الجرس المصور للسكون والخفاء والخفوت فنجده في الحال الجملة الاسمية في قوله تعالى :﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ [٢٣ القلم] ، "المخافتة والخَفْت : إسرار المنطق"(٢)، "والتخافت: تفاعل من خَفَت إذا أسر الكلام"(٣)، وقد جاءت هذه الكلمة (يتخافتون) مصورة أدق تصوير _ بجرسها وصيغتها _ حال أولئك الأبناء المنكرين لنعمة الله ، الذين أزمعوا حرمان المساكين من خير تلك الجنة، فهم قد استعدوا وهيئوا وانطلقوا وكأننا ننظر إليهم وهم يتحدثون في خفوت خوفاً من تسلل الخبر، أو شيوع السر ، والكلمة توحي بتواطئهم على هذا الفعل ، وذلك بما فيها من دلالة المفاعلة، وهذا يعكس مدى الكيد الذي انطوت عليهم نفوسهم الشريرة واجتماعهم على ذلك الأمر، ويقرّب البقاعي صورة فعلهم ذاك بقوله : " يتخافتون : أي يقولون في حال انطلاقهم قولاً هو في غاية السر، كأنهم ذاهبون إلى سرقة من دار هي في غاية الحراسة، من الخفوت وهو الخمود"(٤) ، ولكن لما كانت دلالة الخفوت على الخفاء والهمس والضعف أظهر من دلالة الخمود اختير معها التاء ؛ لأنها حرف مهوس مناسب تماماً للهمس في التناجي الخفي بخلاف الدال في (الخمود).

وإذا كان ما سبق يظهر فيه أثر الجرس ، فإن هناك ألفاظاً تكون موحية بلفظها راسمة بظلها، تشعر وأنت تقرأها بدلالة معينة ومشهد خاص، ومن هذه الكلمات المعبرة المصورة بالإيحاء والظل ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [٥٨، ٥٩ النحل] ، فكلمة (يتوارى) حال مكملة لما قبلها في رسم ذلك المشهد المحزن لذلك المبشَّر بالأنثى كيف يعلوه الهم، ويبلغ منه كل مبلغ حتى يظهر ذلك على سحنة وجهه،وحتى لا يفتضح أمره، ولا يحرج أمام جبابرة العادات، وعابدي الأعراف من بني قومه (يتوارى) منهم ويستخفي، إنها كلمة ترسم صورته وهو

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩٤٥/٥.

(٢) المفردات مادة خفت ٢٨٩.

(٣) التحرير والتنوير ٨٣/٢٩.

(٤) نظم الدرر ٠٢ / ٣١٠ .

يستتر منهم، ويختبئ من أعينهم بكل شيء يمكن أن يواريه .

ومن هذا أيضاً تصوير حالة موسى عليه السلام عندما خرج من قومه خائفاً، كما في قوله تعالى :﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [٢١ القصص]، فكلمة (يترقّب) توحي لنا بتتابع الحركة من موسى يميناً وشمالاً ، إن هذه الكلمة : "ترسم هيئة الحذر المتلفت،... والعبارة هنا تبرز قيمة اللفظ المصور للفزع في موطن"[١].

ومن هذا أيضاً ما تلقيه كلمة (يتمطى) من ظلال في الذهن من صورة مبغوضة ممقوته تتضح من خلال قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ [٣٣ القيامة] ، فـــ (يتمطى) أصلها : يتمطط، أي يمشي المُطيطاء وهي التبختر ، وذلك بأن يتمدد في مشيه كبراً، أو يمد مطاه أي: ظهره كبراً أيضاً[٢] ، والجمهور على أن المقصود أبو جهل ، وقد كانت هذه مشية بني مخزوم ، وكان هو يكثر منها[٣]، وكم هي صورة كريهة تلك التي صورها القرآن، فلو قيل (يتبختر)، أو (يتكبر)، أو (يختال) لكان فيها ملامح من مدح وثناء، أما يتمطى فهي صور مزرية مضحكة، فهو يمط أجزاء جسده على صورة كريهة، يقول سيد قطب -رحمه الله-:"والتعبير القرآني يتهكم به، ويسخر منه، ويثير السخرية كذلك، وهو يصور حركة اختياله بأنه (يتمطى)، يمط في ظهره ويتعاجب تعاجباً ثقيلاً كريهاً"[٤].

---

[١] التصوير الفني في القرآن ٧٤ ، والحديث فيه عن آية [١٨ القصص] ، وانظر الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم ١٧٦.

[٢] انظر التبيان ٢ / ١٢٥٥ .

[٣] انظر التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

[٤] في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٧٣

ثانياً : التصوير باللون.

تعدد الألوان واختلافها آية من آيات الخالق جل جلاله سواء أكانت في الناس، أم في الجبال والشجر والدواب، قال تعالى :﴿ وَمِنْ ءايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [٢٢ الروم]، والسبيل الأول لإدراك اللون هو العين، والعين هي أوضح وأقرب ناقل للصور إلى الذهن ؛ لذا فالألوان ترتبط دوماً بصورة كامنة لها في الخيال،فبمجرد ما يقرع السمع اسم لون من الألوان فإنها ترتسم له صورة وخيال في ذهن الإنسان، ويتأثر هذا الارتباط بين اللون ومدلوله بنواحٍ نفسية وذوقية تخص كل إنسان ، وإن كانت هناك خصائص مشتركة بين أكثر الناس، فقد يفرح إنسان لرؤية لونٍ كالأصفر، وقد يتشاءم منه آخر، أو ينفر، وهكذا في كل الألوان(١).

وعلى هذا فليس بمنكر أن يكون اللون هو أحد أدوات التصوير البارزة في اللغة ، وقد جاءت في القرآن ألوان متعددة ، وكان أكثرها تكراراً الأبيض ثم الأخضر ، ثم الأسود، ثم الأصفر ، أما الأزرق والأحمر فلم يرد كل منهما إلا مرة واحدة(٢) ، وقد جاءت بعض هذه الألوان في موضع الحال مصورة المقصود دالة على المراد ، وسيكون لنا مع بعض تلك الشواهد هذه الوقفات .

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ [٢٢ طه]، فقوله جل ذكره: (بيضاء) حال من اليد(٣)، وهي ترسم صورة محسوسة لليد لكنها تكون مكروهة غالباً؛ لأن بياض اليد يكون من البرص، فحتى يعطي اللون دلالته المادحة جاء القيد: (من غير سوء) لرفع توهم غير المراد ، والأبيض هو جماع كل الألوان ، ومنه تنتج ألوان الطيف(٤) ، وهو يرتبط غالباً في النفس بالنقاء، وفي الثوب بالطهارة، وفي الوجه بالسرور والنعمة،وفي الجلد بالمرض،وفي العين بالعمى، وهكذا "قد

---

(١) انظر الألوان في القرآن الكريم ١٣ .
(٢) دراسات لغوية في القرآن ١١٧ .
(٣) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٤٣٣.
(٤) انظر الألوان في القرآن الكريم ٥٢ .

يعطي اللون تأثيراً معيناً في وصف شيء، ويعطي تأثيراً غيره في وصف شيء آخر "[١].

ومن شواهد التصوير باللون ما جاء في قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [٢١ الزمر] ، فالرؤية هنا بصرية، لذا فقوله جل ذكره: (مصفراً) حال من الزرع المدلول عليه بضمير النصب في (فتراه)[٢]، واللون الأصفر لون مقدس عند بعض الديانات على درجات بينهم ، وأظهر ما يكون ذلك عند البراهمة ثم البوذيين ثم النصارى الأوربيين [٣]، "وفي علم الألوان الوظيفي يعد اللون الأصفر الفاقع دعوةً مثيرة لبصر الإنسان، وإذا مال إلى الأخضر أصبح مريحاً بعض الشيء،وكلما زاد الأخضر زاد هدوءاً وراحة، وكذلك اعتبر التحليل النفسي للألوان أن الأصفر الفاقع يثير الغيرة والتنافس بين البشر"[٤] هذا في العموم،وإلا فالأصفر قد يكون باعثاً على السرور أو النفور أو غيره بحسب موصوفه، فالذهب الأصفر يوحي بالجمال والزينة ، والوجه الأصفر يوحي بالمرض والشحوب ، والنبات الأصفر يوحي بالنضوج أحيانا ، وبالنهاية والموت في أحيان أخرى[٥].

وفي الآية الكريمة لوحة كبيرة فيها صور عدة يمر بها النبات، وينظره الإنسان ليعتبر ، فالزرع مختلف الألوان ، وتلك آية من آيات القدير سبحانه ، ثم يهيج فيتحول كله إلى اللون الأصفر، وهو قمة النضوج ، وبداية النهاية ، إنها صورة متنامية مرئية للقدرة الإلهية على الإحياء والإماتة ، إن الاصفرار في مثل هذه الآية يخيل للإنسان صورة مخيفة موحشة لا حياة فيها ، وإن هذه الصورة لتظهر للإنسان جلياً عندما ينظر في روض أخضر مليء بالحياة والأحياء ثم يذبل قليلاً قليلاً حتى يصفر،عندها يحس الإنسان بقرب النهاية ووحشة المكان ، إنها صورة معبرة واعظة.

---

(١) دراسات لغوية في القرآن ١١٦ .

(٢) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ١٨٩.

(٣) انظر اللغة واللون ٢١٩ .

(٤) الألوان في القرآن الكريم ٨١ .

(٥) انظر الألوان في القرآن الكريم ٨٣ .

ومن شواهد التصوير باللون ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [١٠٢طه] ، فقوله جل ذكره:(زرقاً) حال من المجرمين[١]، والزرقة لون مذموم عند العرب في العينين ، وهم يتشاءمون بذلك[٢] ، وهو أيضاً قبيح في جلد الإنسان ؛ لأنه يشبه ما أصابه حرق نار [٣] ، ويكني العرب به عن اللؤم ، وهو في التعبيرات الحديثة مرتبط بالكره والخوف[٤]، فهذه الحال (زرقاً) نقلت لنا صورة لونية للمجرمين يوم القيامة وهم يحشرون إلى النار، وقد ازرقت عيونهم من العطش ، وربما عميت وذهب نورها [٥] فهم يحشرون عمياً وبكماً وصماً ، إنها صورة موحية بالعذاب والهوان، إنه " مشهد خوف وضيق "[٦] " وهكذا كانت الصورة ، سرها اللون، واللون كلمة واحدة بعيدة المعاني... "[٧] .

ومما شارك اللون فيه في رسم المشهد ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [٦٠ الزمر] ، فاللون الأسود هنا هو بعض أجزاء الجملة الحالية[٨]،وقد جاء في القرآن في مواضع وصفاً للجبال،والخيط، والوجوه ،وأكثر مواطنة مع الوجوه،وهو فيها مذموم أشد الذم؛لأنه"رمز الحزن والألم والموت، كما أنه رمز الخوف من المجهول...ولكونه سلب اللون يدل على العدمية والفناء"[٩].

وما في الآية الكريمة تصوير شاخص باللون لأولئك الكافرين المكذبين ، فوجوههم سوداء مظلمة كأنما أغشيت قطعاً من الليل؛ لأن قلوبهم سوداء من الكفر والمعاصي، إنه مشهد مروع فالناس صنفان:أصحاب الوجوه البيضاء وهم المؤمنون،وأصحاب الوجوه

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٦ / ٢٤٥ .
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ١١ / ٢٤٤ .
(٣) انظر التحرير والتنوير ١٦ / ٣٠٤ ، أما عند اليهود فهو لون مقدس فهو لون الرب (يهوه) انظر اللغة واللون ١٦٤ .
(٤) انظر شواهد ذلك في اللغة واللون ٧٨ .
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن ١١ / ٢٤٤ .
(٦) دراسات لغوية في القرآن ١٢٥ .
(٧) الألوان في القرآن الكريم ١٠٤ .
(٨) انظر البحر المحيط ٩ / ٢١٦ .
(٩) اللغة واللون ١٨٦ .

السوداء وهم الكفار﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [١٠٦ آل عمران]، صورة مخيفة، ومنظر رهيب لركام من البشر قد أظلمت وجوههم واحلولكت " من الخزي ، ومن الكمد ، ومن لفح الجحيم"[١].

وهكذا رأينا كيف شارك اللون في التصوير،ومن الملحوظ أن كل الأحوال اللونية المصورة كانت من المعذبين،ودالة على النهايات المؤلمة[٢]، إلا اللون الأبيض فقد جاء على سبيل المدح والثناء،ولذا فهو كثير مع المؤمنين ؛لأنه لون النقاء والصفاء والطهر والعفاف.

---

[١] في ظلال القرآن ٥ / ٣٠٥٩ .

[٢] وخاصة اللون الأزرق والأسود وهما لونا أثر النار ، وقد جاءت حال لونية من النار تجمع كل ذلك وهي قوله تعالى ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [٢٨ المدثر] ، على قراءة النصب((أي : شديدة التغير بالسواد والزرقة واللمع والاضطراب والتعطيش ونحوها . .. من شدة حرها ، تقول العرب : لاحت النار الشيء : إذا أحرقته وسودته)) ، نظم الدرر ٢١ / ٦٠.

ثالثاً : التصوير بالحذف .

طي الكلام قد يكون سبيلاً لإبراز الأحداث وتقريب الصور،وذلك أنه يسهم أحياناً في رسم شخوصها، وإحياء مشاهدها بحذف ما يدل على الحكاية، وذكر المشهد حياً نابضاً، وحذف الحال من هذا القبيل، وقد سبق مناقشة أثر حذف الحال في الدلالة ، وهنا سنشير إلى إسهام الحذف في التصوير .

قال الله تعالى :﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [١٢٧ البقرة]، فالحال المحذوفة هنا: هي جملة (يقولان) ربنا ، وفي طيها من الكلام إحياء للمشهد، واستحضار سريع لبناء البيت من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كأنا نراهما رأي العين "إنهما أمامنا حاضران نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان ، فنغمة الدعاء ... وجو الدعاء كلها حاضرة، كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة، وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل، رد المشهد الغائب الذاهب حاضراً ، يُسمع ويُرى، ويتحرك يشخص، وتفيض فيه الحياة"(١) ، "وكم في الانتقال من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز، ... ورأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، يقولان: ربنا ، إنها في هذه الصورة حكاية ، وفي الصورة القرآنية حياة ، وهذا هو الفارق الكبير، إن الحياة في النص لتثبُ متحركة حاضرة، وسر هذه الحركة في حذف لفظة واحدة، وذلك هو الإعجاز"(٢).

وهذا مشهد آخر تسهم الحال المحذوفة فيه إسهاماً واضحاً، حتى إنك لتراه نابضاً بالحياة كأنك تشهده أمامك، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ [١٢٧ التوبة] .

هذا مشهد من المشاهد الغامضة للمنافقين، المصورة لخبثهم وكيدهم، وقد أبرز النص حالهم عند نزول الوحي بهذه الصورة الحية،كأنهم أمامنا الآن يتهامسون ويتشاورون ثم ينصرفون عن الخير والهدى، ولو قيل:نظر بعضهم إلى بعض قائلاً أو متسائلاً : هل يراكم من أحد ؟ لكان ذلك حكاية لقولهم ، وما في الآية الكريمة استحضار لهيئتهم وتصرفهم

(١) في ظلال القرآن ١ / ١١٤ .

(٢) التصوير الفني في القرآن ٤٥.

لحظة نزول الوحي بالقرآن ، يقول سيد قطب -رحمه الله-: "وإننا حينما نتلو الآية لنستحضر مشهد هؤلاء المنافقين ، وقد نزلت سورة ، فإذا بعضهم ينظر إلى بعض ويغمز غمز المريب"[1] ،"فإضمار القول للإشعار بهمس الحديث حتى كأن العيون هي التي تسأل، وكأنهم يستفهمون بمجرد النظر مبالغة في الاستخفاء"[2].

وهكذا رأينا كيف تآزرت أدوات التصوير في نقل المشاهد القرآنية على أنماط تثير العجب ، وتخلب اللب ؛ فالصور الغائبة أو الغامضة ، من العوالم الغيبية و مكنونات النفوس ينقلها التشبيه بوضوحه ونقائه ، و بعث الحياة وتشخيص الجمادات ، وتجسيم المعنويات يصورها المجاز بنوعيه ، و تقريب المشاهد و استحضارها و إحياؤها واستنفار الحواس و إثارة الشعور ، يقوم به الجرس و الصيغة و الإيحاء و اللون والحذف.

---

[1] في ظلال القرآن ٣ / ١٧٤٢ .

[2] أساليب البيان والصورة القرآنية ٥٠٥.

الفصل الخامس

موازنة بين أسرار التعبير بالحال والتعبير بالصفة

المبحث الأول: في الدلالـــــة .

المبحث الثاني : في النظم .

المبحث الثالث: في التقييد .

المبحث الرابع : في التصوير .

توطئة:

هناك قدر مشترك لا يمكن إنكاره بين الحال والصفة، وبينهما صلة رحم قوية تتمثل في تعانقهما في كثير من الدلالات، وقد نص كثير من علماء اللغة على هذا الالتقاء بينهما، أصطفي من كلامهم هذه النتف،يقول أبو حيان:"... والحال والصفة متلاقيان من حيث المعنى "[(١)]، وهذا بالنظر العام فكل منهما وصف لصاحبه، ويقول أيضاً في معرض كلامه عن دلالة كل منهما:"والحال والصفة قد يجيئان وفيهما معنى التعليل..."[(٢)].

وبالنظرة الأولى نجد أن الحال والصفة يلتقيان في أكثر المسائل التي تخصهما ومن ذلك:

١ –**الأنواع** : فكل منهما يكون مفرداً وجملة وشبه جملة.

٢– **التقييد** : فكل منهما قد يكون قيداً لشيء في صاحبه.

٣ –**الإفراد والتعدد** : فكل منهما يأتي مفرداً ومتعدداً.

٤ –**التصوير** : فكل منهما جاء مصوراً بالتشبيه والمجاز ووسائل أخرى.

٥– **الذكر والحذف**: فكل منهما يمكن أن يكون مذكوراً ويمكن أن يكون محذوفاً.

وغير ذلك من القضايا الفرعية، التي تظهر من خلال التحليل والاستشهاد، ونظراً لظهور هذا التشابه فقد حاول بعض أهل العلم بيان وجه العلاقة بين الحال والصفة، فهذا ابن يعيش يلمح إلى تلك العلاقة بقوله:" كل ما جاز أن يكون صفه يجوز أن يكون حالاً " [(٣)] .

إذاً هناك خصوص وعموم بينهما ، ويرى ابن النحاس فيما ينقله عنه السيوطي بأن الصفة هي الأصل فيقول : " وأما شبهها بالصفة ، فإن الصفة أصل الحال ، والحال منقولة من الصفة إلى الظرفية ؛ ولهذا لا تكون الحال في الغالب إلا اسم فاعل أو مفعول ، وأسماء الفاعل والمفعول إنما كانت فيه ليوصف بها، لا لتكون مفعولاً فيها"[(٤)].

ومن المعلوم أن الحكم بأن الصفة هي الأصل قضية جدلية ربما لا تنتهي، لذا كان قول ابن القواس في ذكر بعض أوجه الشبه أقرب إلى طبيعة اللغة حيث يقول: "... الحال لها

---

(١) البحر المحيط ٣ / ١٩٤.

(٢) البحر المحيط ٨ /١٩٨ ، وانظر مزيداً من هذا في شروح التلخيص ١٢٠/٣ وما بعدها ، وخاصة في مواهب الفتاح.

(٣) شرح المفصل ٢ /٦٧.

(٤) الأشباه والنظائر ٢ /٢٤١.

شبه بالصفة من حيث أن كل واحد منهما لبيان هيئة مقيدة"[1] ، وهذه قضية لا يمكن إنكارها ؛ لأن الشواهد شاهدة بها ، معلنة عنها ، وليس يعني ما قلناه أنه لا توجد فروق في الصناعة النحوية والدلالات الأسلوبية، بل توجد ولكنها في مجملها فروق لفظية ، ومع ذلك فلها دلائلها المعنوية التي تجعل كلاً منهما قسماً مستقلاً برأسه، له قواعده وضوابطه ، وقد نقل السيوطي الفروق بينهما بقوله:"وقال في البسيط: الفرق بينهما من عشرة أوجه:

أحدها: أن الصفة لازمة للموصوف ، والحال غير لازمة ، ولذلك إذا قلت: جاء زيد الضاحك،كانت الصفة ثابتة له قبل مجيئه، وإذا قلت: جاء زيد ضاحكاً كانت صفة الضحك له في حال مجيئه فحسب.

الثاني : أن الصفة لا تكون لموصوفين مختلفي الإعراب ، بخلاف الحال ، فإنها قد تكون من الفاعل والمفعول.

الثالث : أن الصفة تتبع الموصوف في إعرابه ، بخلاف الحال.

الرابع : أن الحال تلازم التنكير ، والصفة على وفق موصوفها.

الخامس: أن الحال تتقدم على صاحبها، وعلى عاملها القوي عند البصريين بخلاف الصفة فإنها لا تتقدم على موصوفها.

السادس: أن الحال تكون مع المضمر بخلاف الصفة.

السابع : أن الحال ليس في عاملها خلاف ، وفي عامل الصفة خلاف.

الثامن : أن الحال يغني عن عائدها الواو بخلاف الصفة.

التاسع : أن الصفة أدخل من الحال في باب الاشتقاق.

العاشر: أن الصفات المتعددة لموصوف واحد جائزة،وفي الأحوال المتعددة كلام"[2].

وبتأمل هذه الفوارق نجد بعضها مردوداً بالنصوص الصريحة الصحيحة كما هو شأن الفرق الأخير وقد سبق بيان ذلك [3]، وبعضها لفظي صناعي ، ولسنا نجد فيها إلا فرقاً واحداً مؤثراً في المعنى تأثيراً بيناً وهو الأول ، ولسنا ننكر بقية الفوارق ولا أنه ربما يبنى عليها فروق دلالية،كلا، بل إن مقصودنا أن مجالات التوافق المعنوية أكثر من مجالات

---

(1) الأشباه والنظائر ٢ /٢٦٦.

(2) الأشباه والنظائر ٢ /٢٦٦، ٢٦٧.

(3) انظر ص ٢٥٦ من هذا البحث.

التخالف، وهذا يعني قرب هذين الأسلوبين، ولعل هذا ما يفسر تآزرهما في كثير من الشواهد، واشتراكهما في إظهار المعاني، بل وأحياناً تداخلهما مع بعضهما، فهناك مئات الشواهد تحتمل الحالية والوصفية ، فمن هذا المنطلق كانت هذه الموازنة ، التي لا أدعي فيها أنني سأخلص إلى نتائج نهائية؛ لأن ذلك لا يكون إلا باستقصاء شواهد الصفة ودراستها والحكم عليها في ضوء أساليب الحال ، سواء أكان ذلك من ناحية الصور الأسلوبية التي ورد عليها كل منهما، أم ناحية المعاني التي دل عليها كل منهما، وهذا عمل يحتاج إلى رسالة كاملة، وما هنا فصل في رسالة ، لهذا سأركز على الظواهر العامة، والقضايا المشتركة البارزة منتخباً بعض شواهد الصفة ومحللاً لها على نحو ما سبق في الحال بغير توسع ، ولأن كل ما سبق كان عن الحال ، فسأجعل التركيز هنا على الصفة، مع الإشارة كلما سنحت الفرصة إلى دلالة الحال في مثل الشاهد المدروس ، احترازاً من التكرار والإعادة، وإفساحاً لعرض أكبر عدد من شواهد الصفة؛ ولهذا رأيت أن تكون مباحث هذا الفصل على نحو ما تقدم في فصول الرسالة عن الحال، وذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول : في الدلالة.

المبحث الثاني : في النظم.

المبحث الثالث : في التقييد.

المبحث الرابع : في التصوير.

المبحث الأول : في الدلالة

مبنى الكلام في دلالة الحال والصفة على الأنواع التي يأتيان عليها في الكلام العربي ، وهما في هذا الجانب متوافقان، فأنواعهما واحدة هي : المفرد ، والجملة ، وشبه الجملة، ومعلوم أن لكل نوع دلالته الخاصة به، وقد سبق الكلام مطولاً عن دلالة الحال في كل ذلك ، في الفصل الأول من هذه الرسالة ، لهذا سيكون الكلام هنا عن الصفة ودلالتها من خلال هذه الأنواع ، مع الإلماح أحياناً إلى الحال حسب ما يقتضيه المقام، أو الإحالة إلى ما مضى، ولن يكون الحديث هنا مسهباً كما كان في الحال ، وإنما هي إشارات والماحات توضح المراد، وتبرز الدلالة، وستكون دراسة الدلالة لهذه الأنواع من خلال محورين هما :

- الدلالة النوعية للصفة.
- الدلالة التنوعية للصفة.

أولاً: الدلالة النوعية للصفة.

قد تأتي الصفة مفردة أو جملة أو شبه جملة، ولكل من ذلك دلالته ومواطنه ، وحجمه من الكثرة والقلة ، وقد سبق بيان الفوارق الرئيسة بين هذه الأنواع في دراسة الحال ، وهنا سنعرض بعض الشواهد مبرزين اختيار أحد الأنواع في موقعه على الآخر.

وقبل أن ندخل في الموضوع فلابد أن نشير إلى أن شواهد الصفة ليست بعيدة من حيث الكثرة عن شواهد الحال ، ثم هي تتقارب معها في حجم الأنواع ، فقد جاءت الصفة جملة (بنوعيها) فيما يزيد على سبعمائة شاهد ، وفي الحال كانت شواهد الجملة قريباً من الألف ، وأما شبه الجملة فقد زادت شواهدها على الألف في كل منهما ، وأما الحال المفردة والصفة المفردة ، فلم يتبين لي فيها عدد معين لكنه كثير جداً ، وأستطيع القول بعد هذا إن شواهد هذين الأسلوبين ليست متباعدة في العدد، فشواهد كلٍ منهما في مجموعهما ما بين ألفين وخمسمائة إلى ثلاثة آلاف شاهد، وإن كانت الحال قد تزيد

قليلاً، وهذا يعني أن شواهدهما مجتمعة تقرب من ستة آلاف شاهد[1].

وهذه الأعداد تعطينا مؤشرات أولية عن قدر المساحات التي غطتها الصفة والحال في القرآن الكريم، ولا شك أن استخلاص خصائص كلٍ منهما من خلال هذا العدد الضخم لا يكون سهلاً،ولأننا في هذا الفصل نبحث عن أسرار التعبير بالصفة فلن نكثر من التقسيم والتوزيع بل سندلف مباشرة إلى الشواهد للنظر في بعض تلك الأسرار.

وقد نظرت في بعض الموصوفات المتكررة في القرآن فوجدت من أكثرها دوراناً كلمة (القوم) معرَّفةً ومنكرةً وقد جاءت في أكثر مواقعها موصوفة ، وقد تعدد وصفها ، فجاءت فيما يزيد على مائة مرة موصوفة بالمفرد ، المعرَّف مثل (الظالمين ، الكافرين ، الفاسقين، المجرمين ، الخاسرون ، الضالين ، المفسدين ، الصالحين) ، والمفرد المنكّر مثل: (آخرين ، مسرفون ، كافرين، مسحورين ، منكرون ، عابدين ، عادون ، كافرون ، جبارين ، خصمون ، صالحين ، مؤمنين ، عمين).

وجاءت موصوفة بالجملة الفعلية فيما يقارب ثمانين موضعاً ، شكلت منها الجملة المضارعية أكثر من ستين موضعاً جاء الوصف فيها بـــ (يؤمنون ، يعلمون ، يعقلون ، يوقنون ، يفقهون يذكرون، يشكرون ، يعقلون ، تجهلون ، يتقون ، يفرقون ، يتفكرون ، يسمعون، يظنون ، يعدلون، لا يؤمنون ، لا يعلمون ، لا يفقهون ، لا يعقلون) ، وأما الماضوية فشواهدها أقل ، ومما جاء منها: (ظلموا ، قد ضلوا ، كفروا ، نكثوا ، غضب الله عليهم ، ما أتاهم ، ما أنذر أباؤهم ...) ، وأما الجملة الاسمية فلا تكاد تذكر هنا ، وأما شبه الجملة فوصف (القوم) بها قليل أيضاً ومنه ، (من قبلكم ، بينكم ، بينهم).

ومن خلال ما سبق نجد أن الحال المفردة هي الطاغية ثم تتبعها الجملة الفعلية ثم الماضوية ، ومما يلحظ أيضاً طغيان أوصاف الكفرة وكثرتها ، وسبب ذلك - والله اعلم - أن أكثر المقصود (بالقوم) في القرآن هم الكفار، لذا جاءت الأوصاف مناسبة للموصوف، وبالنظر في الصفة المفردة والجملة نجد أنه لا تداخل في الأوصاف بينهما ، فلا نجد مثلاً (للقوم المؤمنين) على وفاق :(لقوم يؤمنون) وكذلك بقية الشواهد ، وهذا يعني أن المعنى الذي حملته الأفعال لا يصلح أن تقوم به الأسماء ، وذلك لأن ما جاءت فيه الأفعال كان

---

[1] وقد اعتمدت في بعض هذه الإحصاءات على ما ذكره الدكتور الحموز في كتابه التأويل النحوي في القرآن الكريم ٩٨٣/٢.

شيئاً متجدداً ، لابد فيه من الإعادة والنظر مثل: (لقوم يعقلون)، (يشكرون)، (يعدلون)، (يتفكرون) وقد يزداد النعي على القوم فتذكر معهم الصفة الدالة على تجدد ذلك الفعل الشنيع منهم مرة بعد مرة مثل: (قوم تجهلون)، أو تُنفى عنهم الصفة الحسنة ليثبت لهم ضدها مثل:(قوم لا يفقهون)، (لا يعلمون)،(لا يؤمنون)، وبالعموم فالصفة الجملة الفعلية ـوخصوصاً المضارعيةـتأتي في مواضع الحركة والتجدد،وتأتي لتصوير الحدث واستحضاره .

أما الصفات المفردة فنجدها تجلي سجايا ثابتة فيهم مترسخة لديهم مثل: الكفر ، والفسق، والضلال ، والظلم ، والإجرام، والإفساد ، والخسران ... إلخ ، وسنقف هنا مع بعض هذه الشواهد لالتماس بعض الفروق الدلالية بين هذه الأنواع: الصفة المفردة، والجملة ، وشبه الجملة، وسنركز على الشواهد التي تجمع أكثر من نوع.

فأما الصفة المفردة والجملة فنجدهما في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [٤٠ النور]، فقوله جل ذكره:(لجي) و(يغشاه) صفتان لــ(بحر)[1]، وقد جاءت الأولى مفردة والثانية جملة فعلية ؛ وذلك لأن العمق في البحر ثابت مستقر، فهو وصف لازم له، وأما غشيان الموج فهو متجدد، ومظهر العظمة فيه والإخافة هو تحركه وعلوه وهبوطه، فهو في حركة دائبة ، ولا يصور ذلك إلا الفعل المضارع، الذى يساعد على استحضار الصورة في انطباق الأمواج وعلو بعضها على بعض مما يزيد من نسبة الظلمة والإخافة ، ثم وصَفَ الموج بالجملة الاسمية (من فوقه)،ثم وصَفَ الموج الثاني بالجملة الاسمية أيضاً (من فوقه سحاب)[2] ؛ وذلك لإظهار ديمومة تلك الأمواج وبيان قربها كما ينبئ عنه تقديم الظرف (من فوقه) ، فكأن بداية الموج من فوق الثاني مباشرة ، وهذا يزيد في الظلمة، وكذلك الصفة الأخيرة (من فوقه سحاب) ؛ ولهذا قيل بعدها: (ظلمات بعضها فوق بعض).

وليس المراد هنا نقل هيئة الأمواج حتى يكون المقام للحال، بل المقصود إبراز صفات ذلك البحر المظهر لحجم الظلام المضروب مثلاً لظلام الكفر والمعاصي والإعراض عن الله، ولو جاء الحال فقيل مثلاً :كظلمات في البحر يموج، لأشعر ذلك بأن تلك الأوصاف

---

(1) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٦٠٤، ٦٠٥.

(2) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٦٠٥.

والظلمات والاضطرابات آنيّة مؤقتة مصاحبة لحالة من حالات البحر،وهذا لا يتفق مع المقصود،بل ما يطابقه هو إظهار أن تلك الظلمات ثابتة مستقرة دائمة.

وإنه ليتضح فارق المدلول بين المفرد والجملة في مثل قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [٢٦٣ البقرة]، فلو قيل: خير من صدقة متبوعة بأذى لكان المعنى غير المعنى؛ لأن الفعل هنا أعظم دلالة على شناعة إتباع الصدقة الأذى والمنّ ، لأنه يُشخّص أمامك كيف يتبع الأذى الصدقة في صورة حركية حتى كأنه يريد القضاء عليها، ثم إن في الفعل من الدلالة على أن هذا الفعل ناشئ طارئ ما لا يخفي، ولو قيل: متبوعة لدل ذلك على أنها صفة سابقة في الصدقة معروفة فيها، والمراد إنكاره هنا أن تُلحق الصدقة بمنٍّ أو أذى لا إنكار صفة سابقة فيها ، فلا يقوم الاسم هنا مقام الفعل أبداً، ولو قيل بالحالية: خير من الصدقة يتبعها أذى، لأشعر ذلك بأن المنكر هو حالة وقتية، وليس الأمر في حقيقته كذلك ؛ لأن صاحب الصدقة إذا منّها وآذى بها المحسَن إليه بقيت غصة ذلك المنّ والأذى معه أبداً، ثم إن المقصود الشيوع في كل صدقة هذه صفتها،وفي الحالية تضيق لتلك الدائرة، فالمراد هنا الوصف لا الهيئة.

ونجد هذا أيضاً في قوله تعالى :﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [١٨٣ آل عمران] ، فإن الفعل هنا (تأكله) صفة تنقل حركة الأكل، وتستحضرها ، وهذا هو طلب اليهود في عهد النبي صلى اله عليه وسلم فهم يريدون أن يحدث الأكل وقت طلبهم ، لا أنهم يرغبون في رؤية قربان قد أكلته النار فمضى وانقضى، وليس يخفى أن استحضار الصورة والدلالة على النشوء والتجدد هو من خصائص الفعل المضارع ، وهذه السمة في الفعل ظاهرة في كل استعمالاته ، وقد رأينا ذلك جلياً مع الحال(١).

وأما النعت بالمفرد فإنه يختلف ، لأنه يأخذ من الاسم المنعوت به مدلوله ، كالعِظم في (عظيم) ، والشدة في (شديد) وهكذا ، ثم إن السجايا والطباع والمعنويات لا يصلح لها إلا الاسم، لهذا طغى هذا الجانب في الصفات بخلاف الأحوال ، ونظرة واحدة لصفات العذاب والثواب في القرآن توضح ذلك .

وأما الجار والمجرور فيختلف مدلوله بحسب نوع الحرف ومعنى مدخوله، وقد ظهر لنا

---

(١) انظر ص ٢١و٨٧ من هذا البحث.

من ذلك شيء كثير في الحال[1] ، أما الصفة شبه الجملة فتظهر في مثل قوله تعالى في شان الصابرين : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [١٥٧ البقرة]، فحرف الجر هنا (من) بدلالته على الابتداء ، مع لفظ (رب) يشكل مدلولاً خاصاً ، يوضح ذلك أبوحيان بقوله عن تلك الصلوات : " ووصَفها بكونها (من ربهم) ليدل بـــ (من) على ابتدائها من الله ، أي تنشأ تلك الصلوات وتبتدئ منه تعالى،... وأتى بلفظ (الرب) لما فيه من دلالة التربية والنظر للعبد فيما يصلحه ويربيه به"[2].

وليس بخاف هنا عظم المناسبة بين ما يجد صاحب المصيبة من اللوعة والأسى ، والهم والحزن، وبين إيقاع هذا الوصف (من ربهم) وما فيه من تسكين الألم ، وإذهاب الحزن، فالصلوات والرحمات من الرب جل جلاله، وكفى بذلك طمأنة للنفوس المفزوعة.

هذه لمحة سريعة وموازنة خاطفة بين الأنواع الثلاثة للصفة : المفردة، والجملة ، وشبه الجملة، وسنحاول فيما يلي استجلاء بعض أسرار هذه الأنواع بشيء من التفصيل من خلال دراسة بعض صور التقسيم الداخلي لكل نوع ، كما فعلنا مع الحال من قبل.

ثانياً: الدلالة التنوعية للصفة .

لكل نوع من أنواع الصفة أقسام داخلية خاصة أو مشتركة مع غيره ، تسهم في تغير المدلول وسنشير هنا إلى أهم تلك الأقسام ، وهذا ما نقصده بالتنوع ، وأما الأنواع فهي العامة التي سبقت : المفرد ، والجملة ، وشبه الجملة.

١- الصفة المفردة .

رأيت أن أدرس مدلولها من خلال ما يأتي :

أ–من أسرار التنوع في الصفة المفردة.

ب– من أسرار مخالفة الأصل في الصفة المفردة.

أ- من أسرار التنوع في الصفة المفردة.

ليس شرطاً أن يكون ما أذكره هنا من الأنواع مختصاً بالصفة المفردة ، بل قد يكون

---

(١) انظر ص ١٣٠ومابعدها من هذا البحث.

(٢) البحر المحيط ٢/٥٩.

كذلك، وقد يكون مشتركاً في الأنواع الأخرى، لكنني لن أذكر هنا إلا ما يخص المفردة ، ثم إن هذه الأنواع هنا أظهر منها مع أي نوع آخر ، وهذا التنوع الذي نقصده يتضح في مثل:

***النعت الحقيقي والسببي.**

***النعت المشتق والجامد.**

*** النعت الحقيقي والسببي .**

وسنقف مع النعت السببي؛ لأنه هو الأقل وهو المخالف للأصل، وهو يشترك مع الحال في التسمية،فهناك حال سببي ونعت سببي، وقد جمع بينهما عضيمة ــ رحمه الله ــ في العنوان ، فقال: " النعت السببي والحال السببي " ثم ساق الشواهد متداخلة[1]، لكن كانت زيادة شواهد النعت على الحال ظاهرة بينة ، والنعت السببي هو: الذي يوضح صفة لشيء له ارتباط بالمتبوع،وهو بهذا يعد ظاهرة تحتاج إلى تفسير،ومن شواهده قوله تعالى:﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴾ [٦٩ البقرة]،فقوله جل ذكره:(فاقع) نعت لصفراء[2] وهو سببي ولو كان حقيقياً لكان : صفراء فاقعة ، يقول المُنْتَجَب الهمذاني: "فلا فرق بين قولك صفراء فاقعة، وصفراء فاقع لونها ؛ لأن اللون من سببها وملتبس بها" [3]، وليس هذا بمسلم وإلا لما تفاضل الكلام بعضه على بعض ، ولا ما كان من مزية في التعبير بهذا دون ذاك، بل إنهما ليفترقان، فالنعت السببي فيه من المدلول ما ليس في الحقيقي، وذلك من ربط شيئين في صفة واحدة دون تكرار ، وهذا الربط يشعر بالعلاقة التي لا تنفصم بين الأول والثاني، يقول ابن عاشور مبيناً هذا الأمر: "...وإضافته[4] لضمير البقرة دلت على أنه اللون الأصفر ، فكان وصفه بفاقع وصفاً حقيقياً، ولكن عدل عن أن يقال :صفراء فاقعة إلى : صفراء فاقع لونها، ليحصل وصفها

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الثالث ٤٨٩.

(٢) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ١/ ٣١٠

(٣) الفريد في إعراب القرآن المجيد ١ /٣١٠

(٤) أي: (لونها).

بالفقوع مرتين، إذ وُصف اللون بالفقوع، ثم لما كان اللون مضافاً لضمير الصفراء كان ما يجري عليه الأوصاف جارٍ على سببيِّه"[1] ، ونفهم من هذا أن النعت السببي فيه من التأكيد ما ليس في الحقيقي ، وهذا ظاهر في كل شواهده يقول ابن عاشور: "وقوله (فاقع لونها) احتيج إلى تأكيد الصفرة بالفقوع وهو شدة الصفرة ؛ لأن صفرة البقرة تقرب من الحمرة غالباً فأكده بفاقع، والفقوع خاص بالصفرة"[2]،ولكن هذا لا يعلل اختلاف الأسلوب؛ لأن الحقيقي:(صفراء فاقعة)، يقوم بهذا ، فالأمر إذاً مرتبط بالعنصر الزائد وهو اللون هنا، فالتأكيد جاء مرتين على ما أوضحه ابن عاشور ، وجاء من جهتين، فالبقرة صفراء واللون أصفر، ففي ذكر (اللون) تحديد لِمُنْصَرَف الصفرة، إذ لو قيل: بقرة صفراء فاقعة، لربما توهم أن الوصف لعيونها، أو لشعرها، فكان في ذكر اللون على سبيل النعت السببي تحديد للمعنيّ بالفقوع، وفيه أيضاً ربط بين اللون والبقرة حتى يعلم أن ما ذكر هو للون البقرة لا لشيء آخر ، وهذا هو مطلبهم كما قال سبحانه: ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ [٦٩ البقرة].

والنعت السببي فيه اختصار وتكثيف للمعاني، ففي قوله تعالى:﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [٧٥ النساء]، نجد أن الموصوف الأول وهو (القرية) قد ذكر للإعلام بأنه مبتدأ الإخراج ، وذكر الثاني وهو (أهلها) لنسبة الظلم إليه ، وحتى لا يتوهم أن الظلم من القرية ذاتها على سبيل المجاز بأن تكون مقحوطة أو قليلة الخيرات ، ثم إن في اشتماله على ضمير الأول ما يجعل العلاقة بينهما مستحكمة ، فيتم بذلك الجمع بين الإخراج وسبب الإخراج، وأهل القرية، مع تأكيد ذلك ، كل هذا بثلاث كلمات (القرية الظالم أهلها).

ويظهر أن النعت السببي يكون فيما يحتاج إلى تأكيد بسبب توقع احتمال غير المراد، وذلك عند كثرة ما يصلح لتقدير الوصف له، وهذا ظاهر في شواهده خاصةً مع النبات والجبال، كما في قوله تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [٢٧ فاطر] يقول أبو حيان: " وقال: (مختلف ألوانها) ؛ لأن البياض والحمرة

[1] التحرير والتنوير ١ / ٥٥٣.
[2] التحرير والتنوير ١ / ٥٥٣.

تتفاوت بالشدة والضعف فأبيض لا يشبه أبيض ، وأحمر لا يشبه أحمر وإن اشتركا في القدر المشترك " [(١)] ولما انتفت الكثرة والتعدد لم يحتج إلى ذلك في (غرابيب سود) يقول أبو حيان: "والظاهر أنه ذكر الغربيب ، وهو الشديد السواد ، ولم يذكر فيه (مختلف ألوانه) ؛ لأنه من حيث جعله شديد السواد _ وهو المبالغ في غاية السواد _ لم يكن له ألوان، بل هذا لون واحد بخلاف البيض والحمر فإنها مختلفة"[(٢)]، وهذه الخصائص في النعت السببي نجدها بينة أيضاً في شواهد الحال، بل أحياناً تتوافق الحال والصفة فيه حتى في اللفظ ، وذلك كقوله تعالى:﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ [١٤١ الأنعام]، فالحال (مختلفاً أكله) تشبه الصفة ، في أن كلاً منهما توسط بين شيئين لهما علاقة ببعضهما فرُبط بينهما في الوصف أو الهيئة ، فكان ذلك دالاً على التوكيد مع الاختصار فكأنه قيل: جدد بيض وحمر مختلفة، وألوانها مختلفة، والنخل والزرع مختلفاً ، وأكله كذلك لكن في آية فاطر جاءت الصفة ؛ لأن لفت الأنظار كان للصفات الثابتة في الجبال وهي صفات لا تتحول عنها ، وأما آية الأنعام فهي تتحدث عن النخل والزرع وثمارها ، في حالة خاصة وهي اختلاف الأكل، وهي هيئة لا تظهر إلا عند نضوج الثمار فهي ليست ثابتة مستمرة لذا لا تصلح معها الصفة ، خاصة وأن الحديث عن الإنشاء والخلق، كما ينبئ عنه قوله تعالى: (أنشأ جنات معروشات)، وليس هو عن أوصاف ثمارها الثابتة، وكونها مختلفة متنوعة كما في قوله سبحانه:﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [٢٧ فاطر] ؛ لذا كان الحال أوفق بالمقام وأدل على المراد .

*النعت الجامد والمشتق .

تشترك الحال والصفة في أن الأصل فيهما الاشتقاق ، وإن كانت الصفة في الاشتقاق أدخل من الحال كما سبق ذكره[(٣)] ولكن قد يختلف هذا الأصل فتكون الحال جامدة وقد بينا شيئاً من أسرار ذلك فيما سبق[(٤)]، وكذلك الأمر بالنسبة للصفة، وسنقف مع نماذج

---

(١) البحر المحيط ٩/٢٩.

(٢) البحر المحيط ٩/٢٩.

(٣) انظر ص ٤٨٢من هذا البحث.

(٤)انظر ص ٣٧ من هذا البحث.

من مجيء الصفة جامدة لما فيها من الأسرار المتعلقة بنوع الجامد، ومما هو من هذا القبيل النعت بالمصدر، وهو من الكثرة بحيث عده المجمع اللغوي قياسياً [(١)]، وقد عد النحويون "النعت بالمصدر أبلغ من غيره،لما فيه من جعل المنعوت هو النعت:أي هو نفس المعنى مبالغة"[(٢)]، ويتضح ذلك من خلال قوله تعالى:﴿وَجَآءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [١٨ يوسف] ، يقول الزمخشري "...وُصِف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه... وقرئ (كذباً) نصباً على الحال، بمعنى جاءوا به كاذبين"[(٣)]، ونلحظ هنا تعانق دلالتي الحال والصفة في المصدر وهو المبالغة، وقد نص أبوحيان على ذلك في الحال في قوله تعالى:﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [٢البقرة] فقال: " وبولغ بجعل المصدر حالاً " [(٤)]، لكن في الصفة هنا تكون المبالغة منصرفة إلى الدم وهذا حق فهو دم مكذوب بل بلغ من الكذب درجة بحيث يكون هو عين الكذب ، وفي الحال تكون المبالغة منصرفة إلى إخوته، بحيث يكونون هم عين الكذب، لكن الوصفية هنا أدق دلالة وهي التي عليها القراءة،يقول البقاعي: " (كذب) أي مكذوب ، أطلق عليه المصدر مبالغة لأنه غير مطابق للواقع ؛ لأنهم ادعوا أنه دم يوسف عليه الصلاة والسلام ، والواقع أنه دم سخلة ذبحوها ولطخوه بدمها " [(٥)].

ولا نكاد نجد موطناً يحتاج إلى مبالغة في الوصف إلا جيء فيه بالمصدر ، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [١ الجن] ، فالجن ذهلوا من عظمة القرآن لما سمعوه فوصفوه بقولهم :(عجباً) على سبيل المبالغة في التعجب من شأنه، يقول ابن عاشور: " ووصْف القرآن بالعجب وصف بالمصدر للمبالغة في قوة المعنى ، أي: يعجب منه ، ومعنى ذلك أنه بديع فائق في مفاده " [(٦)].

ومن الجوامد التي ينعت بها اسم الإشارة،كما في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [٢٨ التوبة]،

---

(١) انظر النحو الوافي ٣ / ٤٦٢.

(٢) التركيب النحوي وشواهده القرآنية ٣ / ١٨٤.

(٣) الكشاف ٢ / ٤٥١.

(٤) البحر المحيط ١ /٦٤، ويقول ابن عاشور عن دلالة المصدر (هدى) :((حصل من وصف الكتاب بالمصدر من وفرة المعاني ما لا يحصل لو وصف باسم الفاعل فقيل : هادٍ للمتقين)) التحرير والتنوير ١ /٢٢٦.

(٥) نظم الدرر ١٠/٣١.

(٦) التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٢١.

فقد وصف العام باسم الإشارة (هذا) ، واسم الإشارة له مدلول إيضاحي مهم ، وله مدلول تعييني، فالوصف باسم الإشارة يشعر بالاهتمام بالموصوف ، ويؤكد تحديده دون غيره مما يمكن أن يلتبس به، وأحياناً يكون لرفع شأن الموصوف، والحديث في هذه الآية عن قضية مهمة وهي أمر المسلمين بعدم تمكين الكفار من قربان المسجد الحرام ، ثم حدد لهم الوقت فقال: (بعد عامهم) ثم "حقق الأمر وأزال اللبس بقوله : (هذا) "[(١)] وهو أبلغ من لو قيل: بعد عامهم الحالي ، لما في الإشارة من التحديد والإبانة التي لا لبس معها ، يقول ابن عاشور: " ووصف العام باسم الإشارة لزيادة تمييزه وبيانه"[(٢)]، ولاسم الإشارة مدلول آخر غير الإبانه والتمييز، وهو التهويل والتعظيم ومن هذا قوله تعالى :﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ... ﴾ [١٤ السجدة] ، وهو هنا صفة (ليومكم)[(٣)] "جيء به للتهويل، وجوزوا كونه مفعول (ذوقوا)... والوصفية أظهر أي: فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل ، وترككم التفكير فيه والتزود له بالكلية"[(٤)] ، ويقول ابن عاشور : "والإشارة بـــ(هذا) إلى اليوم تهويلاً له"[(٥)].

ومن الجامد الموصوف به الأسماء الموصوله كالذي واللتي وأخواتهما ، وإذا كان للإشارة مدلولات خاصة ، فكذلك الأمر بالنسبة للاسم الموصول مع مراعاة مدلول الصلة وأثره في توجيه المعنى، ولنقف مع قوله تعالى:﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٢٤ البقرة]، فقد جاء الوصف هنا بـــ (التي وقودها ...) ، وإنما يوصف بالموصول حينما تكون صلته معلومة للمخاطب ، فكيف الحال هنا والخبر معها غيبـــي؟.

قال بعضهم إيقاد النار بالناس والحجارة معلوم للمخاطبين من قوله تعالى:﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [٦ التحريم]، أو أنهم سمعوه من رسول الله

---

(١) نظم الدرر ٨ /٤٢٩.
(٢) التحرير والتنوير ١٠ / ١٦٠
(٣) انظر البحر المحيط ٨/٤٣٦.
(٤) روح المعاني المجلد الحادي عشر الجزء الحادي والعشرون ١٢٩ ، ١٣٠.
(٥) التحرير والتنوير ٢١ / ٢٢٦.

صلى الله عليه وسلم أو من أهل الكتاب(١) وقيل بعض هذا مردود ؛ لأن آية التحريم مدنية بدليل القصة التي فيها(٢).

وعلى كلٍ فيهمنا هنا سر الوصف بالموصول ، يقول ابن عاشور : "وتعريف النار للعهد ووصفها بالموصول المقتضي علم المخاطبين بالصلة_كما هو الغالب في صلة الموصول_ لتتريل الجاهل مترلة العالم بقصد تحقيق وجود جهنم ..."(٣) ، والمقام هنا مقام تهديد وتخويف، والوصف بالموصول دون أن يقال:النار الموقدة بالناس، لما في الوصف بالصلة من إخراج الكلام مخرج الثابت المتقرر المتحقق، وهذا أهلع للقلوب وأعظم في مقام التحدي.

وقد يراد من الوصف بالصلة إظهار عظم الآية والمنة وذلك بحسب السياق ، ويظهر هذا في مثل قوله تعالى:﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ [١٦٤ البقرة]، فالآية في مجملها تعرض عدداً من آيات الله الباهرة في الكون، وفيما بين يدي الإنسان من مسخرات، والفلك في البحر من ضمن تلك الآيات الدالة على قدرة الباري جل جلاله، يقول أبو حيان: "وصفها بهذه الصفة من الجريان؛لأنها آيتها العظمى،وجعل الصفة موصولاً صلته (تجري) فعل مضارع يدل على تجدد ذلك الوصف لها في كل وقت يراد منها،وذكر مكان تلك الصفة على سبيل التوكيد؛ إذ من المعلوم أنها لا تجري إلا في البحر "(٤).

ومما جاء الوصف به من الجامد (ذو) وأخواتها، ومن شواهدها قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [٤ آل عمران] ، يقول أبو حيان بأن: "الوصف بـــ(ذو) أبلغ من الوصف بصاحب،ولذا لم يجئ في صفات الله (صاحب)..."(٥) ،ويعلل الألوسي أبلغية (ذو) بمعنى (صاحب) على (منتقم) فيقول: "واختيار هذا التركيب على (منتقم) مع اختصاره ، لأنه أبلغ منه ، إذ لا يقال صاحب

---

(١) انظر الكشاف ١ / ١٠٢ ، والبحر المحيط ١ / ١٧٥.
(٢) انظر الانتصاف بحاشية الكشاف ١ / ١٠٢ ، ١٠٣، وانظر حاشية الشهاب على البيضاوي ٢ / ٨٠.
(٣) التحرير والتنوير ١ /٣٤٥.
(٤) البحر المحيط ٢ / ٧٩ ،و انظر التحرير والتنوير ٢ / ٨٠.
(٥) البحر المحيط ٣ / ١٨.

سيف إلا لمن يكثر القتل لا لمن معه السيف مطلقاً"[١]، ويقول ابن عاشور: "وجيء في هذا الوصف بكلمة (ذو) الدالة على الملك للإشارة إلى أنه انتقام عن اختيار لإقامة مصالح العباد ..."[٢].

وقد أوثر الوصف بـــ(ذو) في مواضع كثيرة على غيره كما في قوله تعالى:﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [٥٨ الكهف]،وقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [٥٨ الذاريات] ،فلم يكن:الرحيم،والقوي،أو:صاحب الرحمة،وصاحب القوة،ومثل هذا مواطن كثيرة[٣] ؟.

وقد وجه أبوحيان ذلك بقوله : "والوصف بـــ(ذو) أشرف عندهم من الوصف بـــ(صاحب) ؛ لأنهم ذكروا أن (ذو) أبداً لا تكون إلا مضافة لاسم ، فمدلولها أشرف، ولذا جاء: ذو رعين، وذو يزن... ولم يسمعوا بصاحب رعين ، ولا صاحب يزن ونحوها، وامتنع أن يقول في صحابي: أبي سعيد أو جابر: ذو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاز أن يقول: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك وصف الله تعالى نفسه بقوله: (ذو الجلال) ، و(ذو الفضل)..."[٤].

وقد ذكر الألوسي الفرق بين (صاحب) و(ذو) عند قوله تعالى:﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [٤٨ القلم]،فبين أن (ذو) تكون بمعنى صاحب، "إلا أنه فُرِّق بينهما بأن [ذو] أبلغ من صاحب، قال ابن حجر:لاقتضائها تعظيم المضاف إليها والموصوف بها بخلافه،ومن ثم قال سبحانه في معرض مدح يونس:﴿ وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [٨٧الأنبياء]،و[في] النهي عن اتباعه:(ولا تكن كصاحب الحوت)؛إذ(النون) لكونه جعل فاتحة سورة أفخمُ وأشرف من لفظ(الحوت)..." [٥].

ويفهم من هذا أن في (ذو) من المدح ما ليس في صاحب ، بل لعلها أي (ذو) لا تكون في الذم فلا يقال مثلاً :ذو بهتان وذو غدر ، وإنما يقال: صاحب بهتان وصاحب

---

[١] روح المعاني المجلد الثاني الجزء الثالث ٧٨.

[٢] التحرير والتنوير ٣ / ١٥١.

[٣] انظر مزيداً من الشواهد في: دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الثالث ٤٩٦ وما بعدها.

[٤] البحر المحيط ١ / ٤٥٦ وقد وعد ــ رحمة الله ــ ببيان الفرق بين ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [٨٧ الأنبياء]، و﴿ كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [٤٨ القلم] ، عند الحديث عن آية القلم ، لكني لم أجده عنده فيما أشار إليه.

[٥] روح المعاني المجلد الخامس عشر الجزء التاسع والعشرون ٤٥.

غدر، يقول الكفوي:"واشترط في (ذو) أن يكون المضاف أشرف من المضاف إليه بخلاف صاحب، يقال: ذو العرش، ولا يقال:صاحب العرش، ويقال: صاحب الشيء ، ولا يقال: ذو الشيء ..."[1]، ثم إن في (ذو) من دلالة الاتصال بمضافها ما ليس في (صاحب)، وما ليس في الاسم المجرد، ولعل هذا ما يبينه قول ابن عاشور: "...(ذو) كلمة يتوصل بها إلى الوصف بالأجناس...وهي تشعر بقوة أو وفرة ما تضاف إليه، فلا يقال: ذو إنصاف إلا لمن كان قوي الإنصاف..."[2].

وهناك أنواع أخرى من الوصف بغير المشتق،نشير إليها في عجل، منها الوصف بأسماء العدد نحو ما جاء في قوله تعالى:﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَـٰثَةً﴾ [٧ الواقعة]،ومنها الوصف باسم الذات كقوله تعالى:﴿وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾[١٦سبأ]،وغير ذلك[3].

ولعله ظهر من خلال ما سبق أن الصفة تلتقي مع الحال في بعض الجوامد مثل المصدر وما فيه من دلالة المبالغة ، وكذلك في أسماء العدد ، وقد جاء منه في الحال قوله تعالى : ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ [١٥٥الأعراف]، وكذلك بعض أسماء الذات وهو كثير في الحال بخلافه في الصفة[4]، وهناك جوامد في الصفة لا تكون حالاً وذلك مثل أسماء الإشارة ، والموصولات، وذلك لأن هذه المبنيات تفتقر إلى غيرها في إتمام معناها، وبيان الهيئة في الحال لا ينهض به إلا ما كان مستقلاً بذاته، ثم إن دلالتها على الهيئة متعذرة لعدم توافق مدلولها مع ذلك.

ب- من أسرار مخالفة الأصل في الصفة المفردة.

تظهر مخالفة الصفة للأصل في الصور الآتية:

- في الإعراب.
- في العدد.
- في الجنس.

---

[1] الكليات ٤٦٠.

[2] التحرير والتنوير ٨/٨٦.

[3] انظر التركيب النحوي وشواهده القرآنية ٣ / ١٨٢ وما بعدها.

[4] انظر شواهده في الحال في : الحال في الأسلوب القرآني٤٨ وما بعدها.

* - المخالفة في الإعراب(القطع).

الأصل في النعت أن يتبع منعوته في الإعراب ، وهذا من مفارقات الصفة للحال، ولعل هذا يشير إلى ارتباط الصفة بموصوفها ؛ لأنها مرتبطة بالذات، وأما الحال فلأنه يتبع الهيئات لزم حالة واحدة هي النصب لما فيها من الخفة، ولتعذر ما يمكن أن يوافقه؛ إذ الهيئة شيء لا يدرك بل هي مفهومة من فحوى الكلام.

وهذا الأصل في الصفة قد يعرض له ما يوجب قطع النعت عن منعوته"فلا يوافقه في الإعراب ويكون ذلك لداعٍ بلاغي، كالتشويق وتوجيه الأذهان نحو المبالغة في المدح ، أو الذم، أو الترحم ..."(١) .

ومن شواهد القطع قوله تعالى:﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [١٦٢ النساء]، يقول الزمخشري: " (المقيمين) نصب على المدح لبيان فضل الصلاة، وهو باب واسع ..."(٢) ومن هذا قوله تعالى:﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [٩١، ٩٢ المؤمنون]، فقوله تعالى:(عالم) قرئ بالجر على الإتباع، وقرئ بالرفع على القطع، يقول ابن عطيه: "والمعنى: هو عالم... والابتداء عندي أبرع"(٣) ، وفي هذين الشاهدين كان القطع للمدح ، سواء أكان في صورة جملة فعلية فعلها (أمدح)، أم في صورة ابتداء وخبر على الاستئناف.

وأما القطع للذم فقد جاء في قوله تعالى:﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [٤ المسد]، فقوله تعالى:(حمالة) بالنصب قراءة عاصم، والرفع قراءة الباقين(٤)،والقطع هنا على قراءة النصب، وتلتقي الصفة هنا مع الحال في القطع، فيصح أن تكون (حمالة) حالاً من (امرأته)(٥)، فيكون المقصود على الوصفية ذكر صفتها التي تناسب إحراقها بالنار يوم

---

(١) التركيب النحوي وشواهده القرآنية ١٨٩ ، وللقطع أحكام ذكرها النحويون يمكن مطالعتها في النحو الوافي ٣ / ٤٨٨.

(٢) الكشاف ١ / ٥٩٠.

(٣) المحرر الوجيز ١١ / ٢٥٠.

(٤) انظر البحر المحيط ١٠ / ٥٦٧.

(٥) انظر التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٠٦.

القيامة وهي حمل الحطب، فيكون هذا "على طريقة التوجيه والإيماء إلى تعليل تعذيبها بذلك"(١).

وعلى الحالية يكون في ذلك استحضار لحالتها وهيئتها التي كانت عليها في الدنيا، "وفيه من التوجيه والإيماء ما وقع في قراءة الرفع " (٢) ، وبهذا تلتقي الصفة مع الحال في مثل هذه الجوانب مع بقاء الصفة واصفة للذات،والحال واصفة للهيئة، ولكن التعليل فيه على الوجهين ظاهر بين(٣).

ولعله تبين مما سبق أن الصفة تقترب كثيراً من الحال ، بل أحياناً تلتقي معه حتى في المدلول (كالتعليل) مثلاً، وأحياناً تلتقي معه حتى في التقسيم النوعي كما رأينا في (السببـــي)، وكما هو ظاهر في قضية الاشتقاق والجمود، ويظهر التقاء الصفة المفردة وتآزرها مع الحال بقوة في الحال الموطئة وهي الجامدة الموصوفة مثل:(قرآناً عربياً) و(حلالاً طيباً) وقد سبق بيان ذلك موسعاً في موضعه(٤).

*- المخالفة في العدد.

ولهذا صور منها مجيء المنعوت مفرداً والنعت جمعاً كما في قوله تعالى:﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [٢ الإنسان].

يقول أبوحيان" (أمشاج) صفة للنطفة...والنطفة أريد بها الجنس؛فلذلك وصفت بالجمع كقوله تعالى:﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾[٧٦ الرحمن] ، أو لتتريل كل جزء من النطفة نطفة" (٥) ويقول ابن عاشور:"فإذا كان (أمشاج)... جمعاً كما جرى عليه كلام الفراء(٦)... ،كان وصف النطفة باعتبار ما تشتمل عليه النطفة من أجزاء مختلفة الخواص، فيصير كل جزء من النطفة عضواً،فوصف النطفة بجمع الاسم للمبالغة،أي:شديد الاختلاط"(٧).

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٠٦.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٠٦.

(٣) ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [١٨ البقرة] فقد قرئ بالنصب على الحالية.

(٤) انظر ص ٥١ من هذا البحث.

(٥) البحر المحيط ١٠ / ٣٥٩ ، ولعله لو قال :(أو لتتريل كل جزء من النطفة مترلة النطفة) لكان أوضح.

(٦) انظر معاني القرآن ٣/٢١٤.

(٧) التحرير والتنوير ٢٩ / ٣٧٤.

ويبدو - والله اعلم - أن في جمع الصفة هنا تدليلاً على أن هذه النطفة وإن كانت واحدة في جملتها إلا أنها تحوي من الأخلاط المكونة للجنين ما يصح معه وصفها بالجمع؛ لأن هذه النطفة عالم كامل فيه مكونات العظام واللحم والدم ، وفيه مواقع الحواس ، وفيه صفات الوراثة ، فيه كل هذا وزيادة؛ لذا جاءت الصفة جمعاً للإشارة إلى تلك العظمة في الخلق، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومن صور المخالفة أيضاً أن يكون الموصوف جمعاً والصفة مفردة كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [٢٥ البقرة].

يقول ابن عاشور : "وقوله (مطهرة) هو بزنة الإفراد، وكان الظاهر أن يقال : (مطهرات) كما قرئ بذلك ، ولكن العرب تعدل عن الجمع مع التأنيث كثيراً لثقلهما ؛ لأن التأنيث خلاف المألوف والجمع كذلك ، فإذا اجتمعا تفادوا الجمع بالإفراد وهو كثير شائع في كلامهم لا يحتاج إلى استشهاد"[1].

ولم يأت هذا الوصف (مطهرة) في القرآن إلا مفرداً مخالفاً لموصوفه المجموع[2] ، ولعل من السر وراء ذلك إرادة الإشعار بتساويها في الصفة، واتساقها فيها حتى كأنها صفة لشيء واحد لا أشياء، ففي هذه الآية يُشعر الوصف بالمفرد أن الطهر صفة موحدة في تلك الأزواج، وهي صفة متسقة في كل الموصوفات، ولو قيل بالجمع: (مطهرات) لربما أوهم ذلك أن الطهر مختلف من واحدة لأخرى، والمراد التساوي في هذا الأمر حتى كأنهن واحدة، وإفراد الوصف مشعر بهذا، ولعل مثل هذا يفهم من قول أبي حيان عن إفراد كلمة(كلمة) في قوله تعالى:﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [٦٤ آل عمران] مع أن المقصود بها (كلمات) حيث يقول:"وإما لكون الكلمات مرتبطة بعضها ببعض، فصارت في قوة الكلمة الواحدة إذا اختل جزء منها اختلت الكلمة ..."[3].

وليس يخفي ما في هذا الوصف من المدحة لهن، والتشويق لطلبهن، واختيار هذه الكلمة دون غيرها لما فيها من الدلالة على النزاهة عن كل ما يشين، وقد ذكر أبو حيان

(1) التحرير والتنوير ١ / ٣٥٧.
(2) انظر ١٥ آل عمران ، ٥٧ النساء ، ١٤ عبس ، ٢ البينة.
(3) البحر المحيط ١٩٤/٣.

في المراد بها هنا أقوالاً كثيرة ثم جمعها بقوله:"ظاهر القول يقتضي أنهن مطهرات من كل ما يشين،لأن مَنْ طهره الله ووصفه بالتطهير كان في غاية النظافة والوضاءة"[1] ، ويلمح أبوحيان إلى دلالة أخرى هنا فيقول:"ومجيء هذه الصفة مبنية للمفعول، ولم تأت (ظاهرة)،أو (ظاهرات) أفخم؛ لأنه أفهم أن لها مظهراً وليس إلا الله تعالى"[2].

وهذا مما تلتقي فيه الصفة مع الحال، وقد سبق بيان مدلول الحال المفردة(مفتحة) في قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ [٥٠ ص]، حيث قال البقاعي عن الإفراد فيها: " وأشار جعل هذا الوصف مفرداً أن تفتيحها على كثرتها كان لهم في آن واحد حتى كأنها باب واحد"[3].

ونقف أخيراً مع قوله تعالى:﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾ [٨٠ البقرة] ، فقد جاءت الصفة (معدودة) مفردة والموصوف جمعاً، وفي موضع آخر جاءت الصفة على الأصل مجموعة كما في قوله تعالى في آية الصيام:﴿ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍ ﴾ [١٨٤ البقرة].

وبعد الاطلاع على أقوال المفسرين، وجدت أنهم يقولون بأن (معدودة) أو (معدودات) كلاهما كناية عن القلة ؛ لأن المعدود دائماً قليل ، وأما تعليل الإفراد والجمع فيذكر بعضهم أنه من أساليب العرب في كلامهم ، وكلاهما فصيح[4]، وقد كان أكثرهم اهتماماً بتعليل ذلك تعليلاً معنوياً ابن عاشور حيث يقول : "... إنهم إذا أرادوا التنبيه على كثرة ذلك الجمع أجروا وصفة على صيغة جمع المؤنث ليكون في معنى الجماعات ، وأن الجمع ينحل إلى جماعات كثيرة ، ولذا فأنا أرى أن (معدودات) أكثر من (معدودة)، ولأجل هذا قال تعالى :﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾ ؛ لأنهم يقللونها غروراً أو تغريراً، وقال هنا[5] (معدودات) لأنها ثلاثون يوماً..."[6]، وهذا الكلام لا مزيد عليه وهو يكفينا عن كثير من التحليل والتعليل.

---

[1] البحر المحيط ١٩٤/٣، انظر مثلاً البحر المحيط ١ / ٤٤٨ و ٢ / ١٨٠ ، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٢ / ٣٠٧ و ٤٦١.
[2] البحر المحيط ١٩٠/١، هكذا في المطبوع ولعل الصحيح :(طاهرة أو طاهرات ...؛ لأنه أفهم أن لها مطهِّراً).
[3] نظم الدرر ٤٠١/١٦.
[4] انظر مثلاً البحر المحيط ١ / ٤٤٨ و ٢ / ١٨٠ ، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٢ / ٣٠٧ و ٤٦١.
[5] أي: عن أيام الصيام فحديثه عنها.
[6] التحرير والتنوير ١٦١/٢.

***- المخالفة في الجنس.**

من المعلوم أن الأصل أن تتبع الصفة موصوفها في التذكير والتأنيث، ولكن قد يأتي ما يخالف ذلك، ولذلك أوجه منها: أن يكون الموصوف مؤنثاً والصفة مذكراً ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [٦٤ آل عمران]، يقول الزمخشري: "(سواء...) أي مستوية بيننا وبينكم..."[١]، وقال أبو حيان: "(سواءٍ) بالجر على الصفة"[٢] وأما عن سر الوصف بالمذكر دون المؤنث فيجيب عنه ابن عاشور بقوله: "... وعلى كل معنى فالسواء غير مؤنث وصف به (كلمة) وهو لفظ مؤنث ؛ لأن الوصف بالمصدر واسم المصدر لا مطابقة فيه"[٣] ، وكلمة (سواء) هنا فيها قراءة بالنصب على الحالية، وبهذا تلتقي الصفة والحال في المدلول إلى حد كبير ، وإلى هذا الالتقاء هنا يشير أبو حيان بقوله : "والحال والصفة متلاقيان من حيث المعنى"[٤] .

ويبدو لي – والله اعلم – أن الوصف بالمصدر هنا هو في غاية المطابقة ، لأن المصدر يدل على القليل والكثير ، وهو بحسب موصوفه ، والموصوف هنا هو (كلمة) ، قال أبو حيان : "وعبر بالكلمة عن الكلمات..."[٥]، وعلى هذا فالموصوف يدل على المفرد والجمع بمنطوقه وبمفهومه ، والمصدر كذلك ، ولو قيل : مستويات بالجمع لدل على الكلمات دون الكلمة والعكس صحيح ، وكذا الأمر بالنسبة للتذكير والتأنيث ، فالكلمة هنا ليس شرطاً أن تكون كلاماً بل يصح أن يكون معناها : تعالوا إلى أمر سواء ، أو شان سواء ، والمصدر خير ما يدل على هذا التنوع في الموصوف ، فهو المطابق من كل هذه الوجوه لموصوفه.

وكذلك الأمر في قوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً

---

[١] الكشاف ١/٣٧١.
[٢] البحر المحيط ٣/١٩٤.
[٣] التحرير والتنوير ٣ / ٢٦٩.
[٤] البحر المحيط ٣ / ١٩٤.
[٥] البحر المحيط ٣ / ١٩٤.

مَّيْـتًا﴾ [٤٨ ، ٤٩ الفرقان][1] ، فقد جاءت الصفة فيه (ميتاً) بالتذكير والموصوف (بلدة) مؤنثة ؛ لأن " البلدة في معنى البلد في قوله: (فسقناه إلى بلد ميت) وأنه غير جار على الفعل كفعول ومفعال ومفعيل " [2]، ويظهر مراد الزمخشري من قول الألوسي:"...أو لأن (ميتاً) من أمثلة (المبالغة) ، التي لا تشبه المضارع في الحركات والسكنات ، وهو يدل على الثبوت فأجري مجرى الجوامد"[3].

والآية ــ كما لا يخفى ــ تظهر عظيم قدرة الله في أمر ظاهر مشاهد وهو إحياء الأرض وإنباتها بعد ما كانت هامدة كالميت الذي لا حراك فيه ، فالمقصود بيان كون الأرض المحياة لا حياة فيها من قبل، ثم بقدرة الله أنبتت وأزهرت، فالمراد إنزال هذه الأرض الهامدة مترلة الميت الذي سلب عنه التذكير والتأنيث والألقاب والأحساب ، ولم يبق له إلا اسم (الميت) ذكراً كان أو أنثى صغيراً كان أو كبيراً ، وبالتالي فهو اسم لكل من فارقته الحياة ، وهذا أبلغ في بيان عظيم قدرة الله في الإحياء ولو قيل: (ميتة) على الأصل لدل ذلك على أنها لم تبلغ الموت الذي هو مفارقة الحياة ، الموت الذي يستوي فيه الجنسان ، الموت الذي يصح معه تشبيه الأرض بالميت دون نظر إلى صفته أو جنسه أو لونه فالعناية كلها بشأن الموت ، يقول ابن عاشور مبيناً هذا الأمر بعدما أشار إلى قول الزمخشري السابق: "وأحسن من هذا أنه أريد به اسم الميت ، ووصْف البلدة به، وصف على معنى التشبيه البليغ"[4].

هذه إشارات إلى بعض مدلولات الصفة المفردة النوعية والتنوعية ، وسنتحدث بعد هذا قليلاً عن بعض مدلولات الصفة الجملة ثم شبه الجملة حتى يتم المقصود.

٢-الصفة الجملة .

جاءت الصفة جملة بنوعيها في مواطن كثيرة جداً في القرآن[5] ، وكان طغيان الفعلية

---

(1) ومثل هذه الآية ١١ الزخرف ، ١١ ق.

(2) الكشاف ٣ / ٢٨٤ ، ٢٨٥.

(3) روح المعاني المجلد العاشر الجزء التاسع عشر ٣١.

(4) التحرير والتنوير ١٩ / ٤٨ ، وللاطلاع على مزيد من شواهد المخالفة في الصفة ينظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الثالث ٥٠٥ وما بعدها.

(5) انظر شواهدها في دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الثالث ٦٣٣ وما بعدها، والتأويل النحوي في القرآن الكريم ٢/٩٨٣ وما بعدها.

فيها ظاهراً ، وسنتحدث هنا عن دلالة التنوع في الجملة الوصفية من خلال ما يأتي :

أ – من أسرار التنوع في الجملة الفعلية.

ب– من أسرار التنوع في الجملة الاسمية.

أ- من أسرار التنوع في الجملة الفعلية .

جاءت الجملة الفعلية صفة بنوعيها : المضارعية ، والماضوية ، وكانت الأولى أكثر شيوعاً فيما تبين لي، ولاشك أن مدلول المضارع غير مدلول الماضي، وسنقف مع بعض الشواهد التي تبين ذلك،ومنها قوله تعالى:﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [٥٤ المائدة] ،فقوله تعالى: (يحبهم ويحبونه) جملتان مضارعتان في موضع جر صفة لقوم[(١)] ، وفي التعبير بالمضارع دون الماضي (أحبهم وأحبوه) ودون الاسم(محبّ لهم ، محبين له) ما يشعر بتجدد الحب آناً بعد آن، إنه حب متجدد يزداد وينمو.

والوصف بالمضارع يقرب الصورة كأنها أمام العين، ويستحضرها مهما كانت بعيدة، سواء أكان ذلك للتشويق،أم للتنفير، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [٢٥ البقرة] ، فقوله جل ذكره: (تجري) جملة فعلية في موضع الصفة لجنات[(٢)]، ولاشك أن المضارع هنا أسهم في استحضار صورة الجريان لذلك المنساب، وذلك أبهج في النفس وأحلى في المنظر ، ولاسيما في الجنة : "حصباؤها الدر والياقوت واللؤلؤ ، فتتكسر تلك المياه على ذلك الحصى ، ويجلو صفاء الماء بهجة تلك الجواهر ..."[(٣)]، "وأكمل محاسن الجنات جريان الماء في خلالها ، وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر ... وقوله : (من تحتها) يظهر أنه قيد كاشف قصد منه استحضار حالة جري الأنهار ... فهذا الوصف جيء به لتصوير الحالة للسامع لقصد الترغيب..."[(٤)] .

ولعله لا يخفى ما في المضارع من الدلالة في قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ

---

(١) انظر البيان ١ / ٤٤٥.

(٢) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ١ / ٢٥١.

(٣) البحر المحيط ١ / ١٨٣.

(٤) التحرير والتنوير ١ / ٣٥٥.

أَفْوَاهِهِمْ﴾ [٥ الكهف] حيث جاءت جملة (تخرج) صفة لـــ (كلمة)[١] ، يقول ابن عاشور: "وجملة (تخرج) صفة لـــ(كلمة) مقصود بها ...[بيان] جرأتهم على النطق بها ، ووقاحتهم في قولها، والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخييلاً لفظاعتها..."[٢].

وفي الفعل المضارع من دلالات التعجب ما ليس في غيره ، ولعل مرد ذلك إلى قدرته على الاستحضار والتصوير ، ولما فيه أيضاً من الدلالة الحركية ، قال تعالى :﴿ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ [٣٦ يوسف] ، فقد دلت الصفة (تأكل) على استمرارية عملية الأكل وكأنها جارية وقت التكلم، ويظهر ذلك أيضاً في مثل قوله تعالى:﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [٢٠ طه]، فقد وصفت الحية بالمضارع (تسعى) للإشعار بالقدرة الإلهية، وللإعلام أنها حية حقيقية تتحرك وتمشي ، يقول ابن عاشور : "ووصف الحية بـــ(تسعى) لإظهار أن الحياة فيها كاملة بالمشي الشديد"[٣].

وإذا كان الفعل المضارع له مدلوله في الإثبات فكذلك الأمر إذا كان منفياً مع زيادة مدلول أداة النفي ، ولنقف مع قوله تعالى :﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [١٥ محمد]، فقد وصف فيه اللبن بـــ(لم يتغير طعمه)، بالفعل المنفي، إشعاراً بأن المنفي هنا هو المكروه من أوصاف اللبن في الدنيا، فإنه لا يخفى أن اللبن سريع التغير، وفي ذلك إيماء إلى فضل نعيم الجنة على ملذات الدنيا[٤] ، ثم إن في نفي تغير الطعم استغناءً عن أوصاف كثيرة لا تستطاب في اللبن، ككراهة رائحته وتغيرُّ صفته ولونه؛ لأن لذة اللبن في مذاقه،لذا كان نفي ذلك عنه أبلغ من إثبات ضد المنفي، وفي وصف العسل جيء بالاسم فقيل:(مصفى) ولم يكن (يـــُصفى)؛ لأن المضارع يشعر بأن التصفية تحصل له وقت ورودهم عليه ، وهذه منغصة للتنعم به ، وإنما هو مصفى من قبل مجهز لهم ، إظهاراً لتكريمهم وإبرازاً لمقدار نعيمهم فكان النعت المفرد هنا أدل من المضارع في بيان المراد.

---

[١] انظر البحر المحيط ٧ / ١٣٨.

[٢] التحرير والتنوير ١٥ /٢٥٢.

[٣] التحرير والتنوير ١٦ / ٢٠٦.

[٤] انظر بعض هذا في روح المعاني المجلد الثالث عشر الجزء السادس والعشرين ٤٨.

وللفعل المضارع المبني للمجهول دلالته أيضاً التي تميزه عن غيره ، ولعل بعض ذلك يظهر في مثل قوله تعالى:﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[٢٤ المدثر]، فقد وصف الوليد بن المغيرة القرآن بأنه سحر يؤثر، أي:"يُروى ويُتعلم من سحرة بابل ونحوهم" [1]، وليس يخفى ما في بناء الفعل للمجهول دون إسناد ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم من إرادة الإشعار بأن ذلك السحر سهل مطروح لمن أراد تعلمه،فهو وإن كان عجباً إلا أنه مما يُروى ويُتعلم،وهو بهذا يجمع بين القدح في القرآن،ورفع نفسه بأنه على علم بمصدر ذلك.

وإذا كانت هذه بعض دلالات المضارع الواقع في موضع الصفة ، فإن للماضي مدلولات أخرى، وهو أقل شيوعاً من المضارع ، والماضي يدل في أصله على انقضاء الحدث وانتهائه.

ومما دل فيه الماضي على تأكيد حصول الوصف قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٥٢ الأعراف]،فجملة (فصلناه) صفة لـــ(كتاب)[2]، وهي لتأكيد حصول التفصيل في هذا الكتاب ببيان الأحكام والمواعظ والقصص بما فيه صلاح الناس ، وهذا قريب من تعليل النهي في قوله تعالى:﴿ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [١٣ الممتحنة] ، فقد جاء وصف القوم هنا بـــ (غضب الله) و (قد يئسوا) وهما فعلان ماضيان ، فالأول يشعر بثبوت وصف الغضب من الله عليهم ، والثاني فيه تأكيد زائد بما تدل عليه (قد) من أن هذا الوصف فيهم مستقر ثابت، قد مضى وانتهى وانطوت عليه قلوبهم وتيقنوه ، لِمَا هم عليه من الأعمال الخبيثة التي أعظمها الكفر بالله .

ولو تأملنا ما أوردناه هنا لرأينا أن مدلول المضارع المثبت أو المنفي ، وكذلك الماضي مع (قد) أو دونها لا يخرج في عمومه عما سبق تفصيله مع الحال ، لكن الذي يختلف هو الغاية والقصد، والسياق الذي ورد فيه التركيب ، فهو إما أن يكون للصفة وإما أن يكون للحال ، ولإيضاح ذلك نقف عند قوله تعالى :﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [٧٩ المائدة] فقد جاء الوصف هنا بالفعل (فعلوه) ولم يكن : لا يتناهون عن المنكر فعلوه ،

---

(١) روح المعاني المجلد الخامس عشر الجزء التاسع والعشرون ١٥٦.

(٢) انظر البحر المحيط ٥ / ٦٢.

أو قد فعلوه فيكون الفعل في موضع الحال ، ولا يصلح هذا في موضع ذاك ؛ لأن المعنى مع الحالية أن المذموم فيهم هو عدم تناهيهم عن منكر معروف لديهم في حالة خاصة هي وقت فعله ، ومعلوم أن بعض المنكرات لها آثار تدل عليها كحانات الخمر وأدوات اللهو وبيوت البغاء ، ومثل هذا لا يتوقف خطره بتوقف الفعل المنكر؛ لذا يجب إنكارها في كل وقت وحين وعلى كل حالة، فلما كان المقصود ذمهم على مقارفة كل منكر وعدم تناهيهم عنه صغيراً كان أو كبيراً، جاء الموصوف مُنَكَّرًا وجاء الوصف فعلاً ماضياً للتدليل على أن هذا الفعل متأصل فيهم ، قديم عندهم، فهو ليس طارئاً ولا وقتياً، والوصف أدل على التصاق الصفة بالذوات من الحال، فالصفة هنا (فعلوه) تشعر بمزيد من التشنيع لفعلهم القبيح؛ إذ المنكر قبيح في حد ذاته فكيف إذا اجتمعوا عليه وفعلوه و لم ينكر بعضهم على بعض، فعلمنا من الصفة أن هاتيك المنكرات هذا وضعها الدائم لذا استحقوا اللعن والطرد، وجيء بالمضارع في (يتناهون) لاستحضار الصورة زيادة في التقبيح وإلا فمن المعلوم أن التناهي في أصله يكون عن منكر حاضر لا ماضٍ.

ب- من أسرار التنوع في الجملة الاسمية.

للجملة الاسمية صور كثيرة، فمنها ما يكون مبدوءاً بالضمير، ومنها ما يكون مبدوءاً بالاسم الظاهر، ومنها ما يكون مثبتاً ومنها ما يكون منفياً، ومنها ما يكون فيه تقديم وتأخير، ومنها ما يكون غير ذلك، ولكل شيء دلالته، ولكن استعراض ذلك يطول، لذا سنعرض طرفاً من ذلك يحصل به المطلوب إن شاء الله.

فأما الجملة الاسمية المبدوءة بالاسم الظاهر فقد يكون المراد منها هو إبراز ذلك الاسم للاهتمام به ولبناء شيء عليه كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [١٣٣ آل عمران] ، حيث اشتملت هذه الآية على أنواع الصفة الثلاثة فقد جاءت الصفة الأولى (من ربكم) شبه جملة، وقد أوثرت فيها الوصفية على الإضافة مع إمكانها فلم تكن (مغفرة ربكم) "لقصد الدلالة على التعظيم"[1]

---

[1] التحرير والتنوير ٤ /٨٩.

[2] التحرير والتنوير ٤ / ٨٩ ، وآية الحديد هي ﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [٢١].

ولما في (من) من الدلالة على الابتداء المشعر بأن ذلك مصدره من الله ، والصفة الثانية كانت للجنة وهي جملة اسمية (عرضها السموات والأرض) وكان يمكن أن يقال: جنة عريضة، لكنها لا تقوم بما تقوم به الجملة من دلالة ، يقول ابن عاشور: "ووصف الجنة بأن عرضها السموات والأرض على طريقة التشبيه البليغ بدلالة التصريح في نظيرتها في آية سورة الحديد"[٢] ، ولاشك أن في جعل العرض مبتدأً مخبراً عنه بالسموات من التدليل على السعة ما لا يخفى ؛ لأن العرض هو أقصر الامتدادين، فإن كان هذا شأنه فكيف بالطول! وأما الصفة الثانية للجنة فقد كانت جملة فعلية فعلها ماضٍ : (أعدت للمتقين) ، وليس يخفى ما في الماضي هنا من التشويق لنيل تلك المطالب، فالجنة معدة مهيأة تنتظر المتقين المؤمنين.

وأما الجملة المبدوءة بالضمير ، فإنها غالباً تكون دالة على التوكيد ؛ لما فيها من إبراز الضمير الدال على الموصوف ، حتى كأنه مذكور مرتين ، ومن شواهد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ [١٣ محمد]، وقوله سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ [٣٦ ق]، ونقف مع قوله تعـالى : ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [١٠٠ المؤمنون]، فجملة (هو قائلها) اسمية وقعت في موضع الصفة لكلمة، وأشعرت بتأكيد نسبة قول صاحبها لها وفي هذا يقول ابن عاشور: "(فجملة هو قائلها) وصف لــ(كلمة)، أي كلمة هذا وصفها، وإذا كان من المحقق أنه قائلها لم يكن في وصف (كلمة) به فائدة جديدة فتعين أن يكون الخبر مستعملاً في معنى أنه لا وصف لكلمته غير كونها صدرت من فيّ صاحبها"[١].

ومن أنواع الجملة الاسمية ما تقدم فيها الخبر على المبتدأ ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [٢٤، ٢٥الأحقاف] ، ففي هذه الآية صفتان للريح : أولهما اسمية (فيها عذاب أليم) ، والثانية فعلية (تدمر)[٢]، فما سر ذلك ولِمَ لَمْ يكن في الأولى (ريح تؤلم ، أو مؤلمة) وفي الثانية (ريح فيها تدمير أو مدمرة)؟.

---

[١] التحرير والتنوير ١٨ / ١٢٤.

[٢] انظر روح المعاني المجلد الثالث عشر الجزء السادس والعشرين ٢٦.

جواباً على ذلك نقول إن الجملة الاسمية : (فيها عذاب أليم) دلت بتركيبها هذا على أن العذاب مظروف في تلك الريح وأنها وعاؤه الذي يحمله ، وأشعر ذلك بأن الأصل فيها أنها لغير العذاب ، لكن قد يجندها الله جندياً من جنوده متى شاء ، فالجملة بهذا التركيب وبدلالة الجار والمجرور في الخبر، والوصف بـــ (أليم) في المبتدأ تدل على عظم تلك الريح والعذاب الذي فيها،وقد دلت صياغتها هذه على مناسبة قولهم: (هذا عارض ممطرنا)؛ لأنهم تعودوا من مثل ذلك المرْأى المطر والخير، فجاء الجواب بأنها وإن كان ظاهرها كذلك إلا أن العذاب مخبوء فيها، فمتى أرادها الله لإهلاك عباده أمرها فأتمرت ، يقول ابن عاشور:"وجعْل العذاب مظروفاً في الريح مبالغة في التسبب؛لأن الظرفية أشد ملابسة بين الظرف والمظروف من ملابسة السبب والمسبب"[1].

وأما (تدمر) فجاءت فعلية ، لاستحضار صورة التدمير الهائلة، وللدلالة على التغير الهائل الذي أحدثته ، وتُكْمِل الحالُ : (بأمر ربها) مدلولَ الصفة فيظهر بذلك أن الأمر كله لله ، يقول ابن عاشور : "وفائدة هذه الحال تقريب كيفية تدميرها كل شيء ، أي تدميراً عجيباً بسبب أمر ربها..."[2].

ولعله يظهر مما سبق بموازنته بما مضى في الحال أن الدلالات متقاربة إلى حد كبير ، بل في كثير من الشواهد تحتمل اللفظة أن تكون صفة وأن تكون حالاً ، وإنما مرادنا بما أوردنا من شواهد التدليل على هذا التقارب الكبير في المواقع ، وفي الأنواع ، وفي الدلالات ، وربما يعود المدلول فيما ذكرنا هنا وفي الحال إلى نوع الكلمة أو صيغتها بغض النظر عن كونها حالاً أو صفة وهذا أمر لا يُنكر ، لكن نحن ندرسه في سياقات معينة هي هنا الحال والصفة ، فظهر من كل ما مضى توافق كبير يصعب دفعه ورفعه.

٣- الصفة شبه الجملة .

جاءت الصفة ــ كما هو شأن الحال ــ شبه جملة بقسميها : الجار والمجرور والظرف وتوافقت مع الحال أيضاً في أن الجار والمجرور فاق الظرف أضعافاً مضاعفة ، وهذا مؤشر

---

(1) التحرير والتنوير ٢٦ / ٥٠.

(2) التحرير والتنوير ٢٦ / ٥٠ ، وينظر للاستزادة من شواهد الجملة الاسمية الوصفية وتنوعها:دراسات لأسلوب القــرآن الكــريم القسم الثالث الجزء الثالث ص ٦٥٥ وما بعدها.

آخر لشدة التشابه بين الأسلوبين ، وسنذكر بعض الشواهد التي تظهر بعض مدلولات هذين القسمين:

أ- الجار والمجرور .

لقد تنوعت حروف الجر مع مجرورها في موضع الصفة تنوعاً كبيراً ، وقد رأينا في الحال شيئاً كثيراً من هذا[1] ، وأما هنا فسنذكر بعضاً من تلك الحروف ومدخولاتها للوقوف على شيء من أسرار هذا التعبير ، ومن ذلك الجر بـــ (من) كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ ﴾ [٥ البقرة]، فهذا وصف للمتقين ، وكان يمكن أن يقال: (أولئك على هدى رهم) بالإضافة، فعدل عن الإضافة إلى الوصف لسر عظيم ، يبينه أبو حيان بقوله:"في وصف الهدى بأنه من رهم أي: كائن من رهم تعظيم للهدى الذي هم عليه ، ومناسبة ذكر الرب ههنا واضحة، أي لكونه رهم، بأي تفاسيره فسرت ناسب أن يهيء لهم أسباب السعادتين الدنيوية والأخروية"[2]، ويضيف ابن عاشور إلى كلام أبي حيان قوله:"مع الإشارة بأهم بمحل العناية من الله..."[3] .

وقد يحتاج السياق أحياناً إلى الوصف بالجار والمجرور في موضع ، وفي آخر يكون الوصف بالمفرد أوفق كما في قوله تعالى:﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ [٢٣ البقرة] وقوله تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم ﴾ [٣٨ يونس]،فالسورة وصفت مرة بالجار والمجرور (من مثله) ومرة بالمفرد (مثله)، وسر ذلك _ والله أعلم _ أن التحدي في سورة البقرة كان رداً على شكهم في القرآن المنزل،حيث كانوا ينكرون أصل إنزاله، فكان التحدي معهم بأدنى صُوَرِه فقيل:(من) الدالة على التبعيض والتجزئة، وفي سورة يونس نسبوا هذا المقول إلى محمد صلى الله عليه وسلم وادَّعوا أنه افتراه، فكأن هذا اعتراف منهم بقدرة البشر على صوغ ذلك البيان العظيم، فكان لابد من الترقي معهم وإلقامهم الحجر فقيل لهم:(مثله) أي

---

[1] انظر ص١٢٩ومابعدها من هذا البحث.

[2] البحر المحيط ١ / ٧٣.

[3] التحرير والتنوير ١ / ٢٤٥، وهذا النوع كثير في القرآن انظر مثلاً : ٤٩ ، ١٠٣ ، ٢٣٣ البقــرة ، و ٤٥ ، ١٠٣ ، ١٣٦ آل عمران ، و٦ المائدة ، ١٠٤و الأنعام ، و٦٣ الأعراف.

إن كان محمد قادراً على هذا فأين أنتم عن ذلك ، و لم لا تأتون بمثل ما يأتي به(١).

ومن شواهد حرف الجر (اللام) ما جاء في قوله تعالى:﴿ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ﴾ [٢٤٦ البقرة]، إذ كان يمكن أن يقال:(لنبيهم) ، لكن في العدول إلى الوصفية (لهم) ما يشعر بعظيم جرمهم، وأن هذا الكلام صادر منهم لنبي خاص بهم ، والوصف باللام ومدخولها يوحي بأن الله منعم عليهم بذلك النبي ، فكيف يكون ذلك منهم معه.

ومن شواهد الجر (بالباء) ما في قوله تعالى:﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ [٢٦٥ البقرة]، يقول أبو حيان: " الباء في (بربوة) ظرفية وهي في موضع الصفة ... وخص الربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها "(٢) ، وهذا يعني أن الصفة هنا لزيادة الحسن والبهاء وجمال المنظر ، وجاءت بالجار والمجرور دون أن يقال:كمثل جنة عالية ،أو مرتفعة، أو حسنة ، لما في ذكر الربوة من إلقاء الصورة في الخيال ؛ لأنها مما يعرف حسنه الناس، وما يراد تحسينه ففي الغالب يبرز في صورة محسوسة، يقول ابن عاشور : " وتخصيص الجنة بأنها في ربوة ؛ لأن أشجار الربا تكون أحسن منظراً وأزكى ثمراً ، فكان لهذا القيد فائدتان : إحداهما : قوة وجه الشبه كما أفاده قول: (ضعفين)، والثانية :تحسين المشبه به الراجع إلى تحسين المشبه في تخيل السامع "(٣)، وجاءت الباء هنا مع أن المعنى لـ(في) ـ كما يظهر ذلك لأول وهلة ـ ، حتى يفاد ملابسة الجنة للربوة من غير أن تكون الربوة مغطية لها فتحجب جمالها كما هو مدلول (في) الظرفية لو قيل:كمثل جنة في ربوة.

ومن شواهد (على) الجارة قوله تعالى :﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٢٥١ البقرة] فقوله جل ذكره : (على العالمين) متعلق بمحذوف صفة لـ (فضل)(٤)، وليس يخفى ما في (على) من الاستعلاء الدال على تمكن هذا الفضل منهم ، يقول أبوحيان : "وما من أحد : إلا ولله عليه

(١) ولهذا توجيهات أخرى يطول ذكرها، انظرها في الكشاف ١ / ٩٨ ، وملاك التأويل ١ / ٣٧، والبحر المحيط ١ / ١٦٩ ، والتحرير والتنوير ١ / ٣٣٧.

(٢) البحر المحيط ٢ /٦٦٧.

(٣) التحرير والتنوير ٥٢/٣.

(٤) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١ / ٣٧٤.

فضل"[١] وكان المجرور هنا (العالمين) للدلالة على عموم هذا الفضل ، يقول ابن عاشور:"وعلق الفضل بالعالمين كلهم ، لأن هذه المنة لا تختص"[٢] .

وبعد هذه النماذج لابد من أن نذكر أن الوصف بـــ(مِن) ومدخولها كان هو الأكثر والأعم، وخاصة ما كان مثل:(منهم) و(منكم)،(ومن ربهم) وهذا هو الحال مع الحال ، إلا أنه هناك يكثر في تقدم الصفة على موصوفها؛ لأنها حينئذ تكون حالاً ، وهذا أيضاً جانب من جوانب الالتقاء الدلالي بينهما ، يقول ابن القيم:"من كليات النحو: كلُّ صفةِ نكرةٍ قدمت عليها انقلبت حالاً لاستحالة كونها صفة تابعة مع تقدمها، فجعلت حالاً ففارقها لفظ الصفة لا معناها ؛ فإن الحال صفة في المعنى"[٣]، والمعنى المراد هو الذي يحدد ترتيب الكلم فأحياناً تتقدم الصفة،وأحياناً لا تتقدم، وقد أوردنا في مبحث التقديم والتأخير موازنة بين الصفة والحال في مثل هذا الأمر،اتضح منها أن المعول عليه هو المعنى المقصود[٤].

ب- الظرف .

رأينا في الحال أن شواهد الظرف الواقعة حالاً قليلة وكذلك مع الصفة ، وفيما تبين لي كان نصيب الظرف في الحالية أكثر من نصيبه في الوصفية ، ومن الظروف التي وقعت صفة ما يأتي : (بين ، دون ، عند ، مع ، يومئذ ، فوق ، وراء)[٥].

وسنقف مع بعض شواهد هذه الظروف ، والتي من أبرزها وأكثرها (عند) ومن شواهدها قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [٨ الرعد]،فقوله جل ذكره: (عنده) يصلح أن يكون نعتاً لـــ (شيء) أو (لكل) أو (لمقدار)[٦] وعلى الأخير يكون حالاً لأنه

---

[١] البحر المحيط ٢ / ٥٩٦.

[٢] التحرير والتنوير ٢ / ٥٠٣.

[٣] بدائع الفوائد ٤ / ٧٨١ .

[٤] انظر ذلك مفصلاً في فصل (الحال والنظم) مبحث: التقديم والتأخير، ص ١٨٥ وما بعدها من هذا البحث.

[٥] بعض هذه الظروف قليل الورود مثل الأربعة الأخيرة ، ومن شواهدها ما يأتي : (مع) قال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [١٣ العنكبوت] ، (يومئذ) : قال تعالى : ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ [٨٩ النمل] وهو هنا محتمل للنعت وللظرفية ، (فوق) قال تعالى: ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [١١ النساء] (وراء) قال تعالى:﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [٧ المؤمنون ، ٣١ المعارج].

[٦] انظر التبيان ٢ /٧٥٣.

مقدم على موصوفه النكرة، وعلى كل هذه الأعاريب له وجه ومعنى، فإن قيل إنه صفة (لشيء) ، فالمعنى كل شيءٍ كائنٍ عند الله بمقدار ، ولا يبعد عنه إذا كان نعتاً لـ (كل) وأما إن كان حالاً من لـ (مقدار) فالمعنى : كل شيء بمقدار حال كونه عند الله ، فالعندية متعلقة بالمقدار وهناك العندية للشيء ، وكل هذه المعاني صحيحة ، ويظهر لي أن المعنى على الحالية والوصفية على هذا الترتيب لا يبعد كثيراً ؛ لأنه يجتمع في كونه بمقدار ؛ لأنه عند الله ففيهما جميعاً معنى التعليل ، أما لو تأخر الظرف فكان نعتاً خالصاً لمقدار بحيث قيل : كل شيء بمقدار عنده ، لتغير المعنى ، ولكان المقصود أن المقدار عند الله فهو تقدير إلهي ، فيكون المعنى: وكل شيء بمقدار كائنٍ عند الله.

ومن الظروف (بين) ، وقد جاء نعتاً في قوله تعالى :﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [٢١٣ البقرة]، فقوله جل ذكره: "(بينهم) في موضع الصفة .. أي كائناً بينهم"[١] ، ولا يخفى ما في ذكر هذا الوصف بهذا الظرف الدال على البينية من الإشعار بكون البغي خارجاً منهم منبعثاً عنهم ، يقول ابن عاشور عن سر ذكر هذا الظرف إنه:"للتنصيص على أن البغي بمعنى الحسد وأنه ظلم في نفس الأمة وليس ظلماً على عددها"[٢].

وحتى على بقاء البغي بمعنى الظلم ، والشرك ظلم ، فيكون المراد أن هذا التجاوز كان بمباركة بعضهم بعضاً ،وليس هو من عدو تسلط عليهم ، فالبينية هنا أشعرت بعظيم جرمهم، وقطع العذر عنهم، وتشنيع فعلهم ذلك، وقد كنت كتبت هذا ، ثم وقعت على كلام أوفق مما أوردت وأوضح عبارة وهو قول الألوسي : "و(بينهم) متعلق بمحذوف صفة (بغياً) وفيه إشارة -على ما أرى - إلى أن هذا البغي قد باض وفرخ عندهم ، فهو يحوم عليهم ويدور بينهم لا طمع له في غيرهم ، ولا ملجأ له سواهم، وفيه إيذان بتمكنهم في ذلك وبلوغهم الغاية القصوى فيه، وهو فائدة التوصيف بالظرف، وقيل: أشار بذلك إلى أن البغي أمر مشترك بينهم وأن كلهم سفل، ومنشأ ذلك مزيد حرصهم على الدنيا

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٦٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢ /٣١٠، هكذا نصه والسياق يشعر بأن المراد (من عدوها).

وتكالبهم عليها"[1].

وهذا يذكرنا بما سبق في الحالية في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ...﴾ [١٨٨ البقرة]، وكيف أسهمت الحال في تشنيع أكل الأموال حالة كون ذلك الأكل منهم وفيهم ؛ إذ كيف يجتمعون على المحرم اجتماعهم على الطعام الشهي يضعونه بينهم.

ومما احتمل الظرفية والوصفية ما جاء في قوله تعالى :﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٤٤ الأعراف]، فقوله جل ذكره: (بينهم) يصح أن يكون معمولاً لأذّن فيكون ظرفاً له ، ويحتمل أن يكون صفة لمؤذن[2].

والذي يظهر لي أن المعنى على الظرفية أقوى؛ لأن إبراز مكان المؤذّن ومعرفته ، أهم من إبراز صفته ، خاصة في ذلك الموقف، لما هو معلوم من أن للموقع أثراً في سماع الصوت، والمؤذن: هو المُعَلِم وهو إسرافيل أو جبريل أو غيره من الملائكة[3]، وموقعه بين الفريقين :أصحاب الجنة وأصحاب النار،وهذا الموقع والمكان له أهميته فمنه هذا الإعلان الخطير الفارق بين أهل النعيم وأهل الجحيم، وهو أيضاً مكان ذبح الموت فينظره الفريقان.

وعلى القول بالوصفية يكون المعنى فأذن مؤذن كائن بينهم، أي متوسط بينهم، وإنما يكون هذا حسناً إذا كان تعلق الكلام بالمنادي، لكن يظهر أن التعلق والاهتمام هو بمكانه ولو كان به لأُظهر اسمه فقيل:جبريل أو إسرافيل، ولما كان المكان ليس مهماً ولا بيان الظرف مطلوباً لعدم تعلق الفائدة به لم يذكر في يوسف فقيل :﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ [٧٠يوسف].

ومن شواهد الظرف أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [٨٢ الأنبياء] ، فقوله جل ذكره : ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ نعت لـــ(عملاً)[4]، والوصفية هنا ظاهرة، فليس المراد النص على المكان وأن هذا العمل في موقع قبل العمل الأول، بل المراد وصف العمل الثاني بأنه أقل من

[1] روح المعاني المجلد الأول الجزء الثاني ١٠٢.
[2] التبيان ١/ ٥٧٠.
[3] انظر البحر المحيط ٥/٥٦؟
[4] التبيان ٢/٩٢٤.

سابقه، وفائدة هذا الوصف - فيما يظهر لي - هو استقصاء أنواع الأعمال والتنبيه على أن تسخير الجن لسليمان كان في كبير الأعمال وصغيرها، وهذا فيه احتراس من توهم غير المراد ، خاصة أنه قد ارتبط في الأذهان أن الجن يعملون أعمالاً جبارة خارقة ، فحتى لا يظن أنهم لا يخدمونه فيما صغر من الأعمال جيء بهذا الوصف ، وهو أدل على المراد من الوصف بالمفرد بأن يقال : عملاً أقل من ذلك ؛ لأن القلة ربما يفهم منها تحديد معين، وأما الدونية فهي ممتدة لا تنتهي فهي أكثر شمولاً وهذا هو المراد[1] - والله أعلم - ، ومما يشهد لهذا أنه لم يدخل الجار هنا فلم يُقَل: (من دون ذلك) كما هو في مواطن كثيرة ، وفي هذا يقول البقاعي: "ولما كان إقدارهم على الغوص أعلى ما يكون في أمرهم، وكان المراد استغراق إقدراهم على ما هو أدنى من ذلك مما يريده منهم نزع الجار فقال : (دون ذلك)... "[2].

ومما لابد من الإشارة إليه أن الجار والمجرور والظرف يلتقيان كثيراً فيجتمع المدلولان، وذلك بدخول الجار على الظرف ، وقد رأينا ذلك جلياً في الحال وبينا هناك مدلولاته المعنوية[3] ، وأما في الصفة فمن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [١٠٣ البقرة] ، فالكلام هنا عن اليهود ومن تبعهم من الكفار، يقول أبوحيان: "(من عند الله) هذا الجار والمجرور في موضع الصفة أي: كائنة من عند الله ، ... وفي وصف المثوبة بكونها من عند الله تفخيم وتعظيم لها ... ؛ لذلك كان المعنى : إن الذي أمنتم به واتقيتم محارمه هو الذي ثوابكم منه على ذلك فهو المتكفل بذلك كله"[4]، ولاشك أن المدلول سيتغير لو قيل : لمثوبة عند الله خير، لأن الجملة حينئذ ستخلو من دلالة الجار،ويبقى لها مدلول الظرف، وهذا إنما يصلح إذا لم يكن المقصود مراعاة المبدأ والمصدر وإنما أريدت العندية فقط،كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [٦٠ المائدة] ، وذلك لأن (من) تدل على ابتداء الغاية، فتلك المثوبة الممدوحة مصدرها من الله ويكفيها بهذا منزلة وقدْراً، وأيضاً يكفي من

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧/١٢٤.

(٢) نظم الدرر ١٢/٤٦٠.

(٣) انظر ص ١٦٣من هذا البحث.

(٤) البحر المحيط ١ / ٥٣٧.

يسمعها أو يكون أهلاً لها طمأنة وارتياحاً ، فلما اجتمعت مع مدلول العندية، زادت دلالة القرب فيها، فزاد لها القدْر والتعظيم.

وهذا المعنى - في نظري - أظهر مما نحا إليه الزمخشري بقوله : "فإن قلت : فهلا قيل: لمثوبة الله خير ؟ قلت : لأن المعنى : لَشيء من الثواب خير لهم"[1] ، لأنه بناه على أن المراد هو التبعيض كما يدل عليه قوله (شيءٍ من الثواب) ، وهذا إنما يصح لو قيل : لمثوبة مما عند الله خير، أما ما عليه النظم الكريم فالأليق به ما سبق بيانه ، وهو أن مبدأ تلك المثوبة ومصدرها من الله فـــ(مِنْ) على بابها: (الابتداء).

ومما دخل فيه الجار على الظرف قوله تعالى:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [٤ الأحقاف] ، فقوله جل ذكره : (من قبل هذا) في موضع الصفة لكتاب، وفي هذا تحدٍ للكافرين على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، من أنه لا ذكر لأصنامهم في كتاب من الكتب السماوية المقروءة السابقة ، ولا يخفى بعد هذا ما في الوصف بـــ (من قبل هذا) - المتضمن الإشارة للقرآن - من الفائدة التي يوضحها ابن عاشور بقوله : "ووجه تخصيص الكتاب بوصف أن يكون من قبل القرآن ليسد عليهم باب المعارضة بأن يأتوا بكتاب يُصنع لهم ، كما قالوا : (لو نشاء لقلنا مثل هذا) "[2] ، ولا يخفى أيضاً ما في دخول (مِنْ) على (قبل) من الدلالة على الإمعان في التحدي ، أي: أن التحدي يبتدئ بأي كتاب يصح منه وصف القبلية ، ولو قيل (قبل) دون (مِن) لما كان فيه إشعار بذلك الإمعان والمبالغة ؛ لأنه يفهم منه كل ما كان قبل القرآن، ولكن بدخول (مِن) قَرُبت فترة التحدي إلى ما قبل ظهور القرآن ولو بقليل، وما قبل ذلك من باب أولى وهذا غاية التحدي ، أما بعد القرآن فليس هو مجال التحدي بالأمر المذكور؛ لأنهم سيضعون فيه مدحاً لأصنامهم وثناءً عليها، والتحدي ليس بهذا وإنما بما سبق.

وقبل أن نختم الحديث عن موضوع الدلالة أحب أن نقف وقفة أخيرة مهمة نجمع

---

[1] الكشاف ١ / ١٧٤.

[2] التحرير والتنوير ٢٦ / ١١.

فيها شتات ما سبق من خلال مناقشة المدلول في شاهدين متقاربين في النظم جمعا بين الصفة والحال، وظهر فيهما الفرق الدلالي بين النوعين ، وهذا الشاهدان هما: قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [٣١ الأنبياء]،وقوله تعالى:﴿ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [٢٠ نوح]،فقد جاءت (فجاجاً) في آية الأنبياء حالاً ؛ لأنها تقدمت على موصوفها (سبلاً) ، وكانت في آية نوح صفة (لسبلاً) لبقائها على الأصل ، فما الفرق بينهما؟.

يقول الزمخشري:" الفج:الطريق الواسع فإن قلت:في الفجاج معنى الوصف، فمالها قدمت على السبل و لم تؤخر،كما في قوله تعالى:﴿ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ ؟ قلت: لم تُقدّم وهي صفة ، ولكن جعلت حالاً كقوله :

لعـــــــزة موحشــــــــاً طـــلل قديم(1)

فإن قلت ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قلت : أحدهما : الإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة، والثاني : أنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة ، فهو بيان لما أبهم ثمة"(2) ، ويقول أبوحيان موضحاً كلام الزمخشري : "يعني بالإبهام أن الوصف لا يلزم أن يكون الموصوف متصفاً به حال الإخبار عنه، وإن كان الأكثر قيامه به حالة الإخبار عنه ، ألا ترى أنه يقال : مررت بوحشي القاتل حمزة ، فحالة المرور لم يكن قائماً به قتل حمزة ، وأما الحال فهي هيئة ما تخبر عنه حالة الإخبار"(3) ، وعلى هذا يكون المراد في آية الأنبياء الإشارة إلى أنها وقت الخلق كانت على هذه الهيئة العظيمة ، وهذا أدل على القدرة ، والسياق سياق تعظيم ودعوة إلى التفكر في ملكوت الله وقدرته ، بينما في آية نوح السياق سياق امتنان ، ومعلوم أن أصل الامتنان هو بتهيئة الطرق لهم ، وسعتها زيادة في المنة ، لذا كان الوصف في آية نوح أليق لأنه أثبت ، فلا يتعلق بصاحبه وقت الإخبار فحسب ، أو مدة الفعل فقط ، بل يبقى ، وهذا أعظم في المنة ، يقول الشهاب عن آية الأنبياء ملمحاً إلى هذا الأمر : "فإن قلت : لم قدم هنا وأخر هناك ، قلت : تلك الآية واردة للامتنان

---

(1) هذا صدر بيت لكُثيِّر عزّة، وقيل لذي الرمة ، وعجزه : عفاه كل أسحم مستديم ، و لم أجده في ديوانيهما، وهـو في خزانـة الأدب٤/٢٠٩.

(2) الكشاف ٣ / ١١٤.

(3) البحر المحيط ٧ / ٤٢٦.

على سبيل الإجمال ، وهذه للاعتبار والحث على إمعان النظر وذلك يقتضي التفصيل ومن ثم ذكره عقب قوله : (كانتاً رتقاً")[١]، ولعل ما ذكرناه كان أوضح وأظهر.

ومن الواضح أن تعليل الزمخشري مبني على القاعدة النحوية في تقديم صفة النكرة عليها، وأنها تكون حالاً ؛ لأنها إذاك تدل على الهيئة ، ومع الصفة تدل على الثبوت ، وهنا وقفة لابد منها وهي أن تغير المعنى والمدلول ليس سببه ومرجعه إلى المسميات من صفة أو حال ، ولكن إلى تغير مواقع الكلم ، فما قدم فيه الفجاج كان الاهتمام بإظهار السعة دون النظر إلى حالية أو وصفية، وما قدم فيه السبل كان الاهتمام بإظهار المنة والمنفعة ، ففي آية الأنبياء قدمت الفجاج، وقبله الفعل (جعلنا) وهو بمعنى خلقنا ، فلم لا يكون (فجاجاً) هو مفعوله، قال الألوسي : "والظاهر أن (فجاجاً) نصب على المفعولية لجعل"[٢] ، وسبلاً حال من (فجاجاً) ، فكان معمول الخلق هو الفجاج وهي الطرق الواسعة وهذا أعظم في جانب القدرة ، وأبين في جانب الدعوة إلى الاعتبار ، وتكون (سبلاً) حالاً تعليلية ، فيكون جمعاً بين القدرة والمنة.

وأما آية نوح ﴿ سُبُلًا فِجَاجًا ﴾، فالمنة بالطرق ذاتها أظهر وسعتها زيادة في ذلك ، وإلا فالاجتياز قد يحصل بأضيق طريق وكله فضل من الله ، لكنه إذا اتسع كان أمنّ على الخلق.

والذي أريده من كل هذا أن ما قرره النحويون في هذه القاعدة هو اجتهاد بشري،ويجب أن لا يُقْسَر تفسير المعاني عليه، بل إن الأصل هو الجهل بهذه المصطلحات ، والتفسير يجب أن يكون على مواقع الكلم بغض النظر عن التسميات ، وتلك الشواهد الضخمة التي تقدمت فيها شبه الجملة على الموصوف فأعربت حالاً هي من هذا القبيل ، فمن يستطيع أن يجزم أنها حال، حتى يفسر الكلام في ضوء أن المراد بها الهيئة لا التعليق بموجود أو غيره.

ومن هنا نقول إن هناك شواهد ظاهرة تبرز فيها الهيئة غالباً وهي ما كان سوى شبه الجملة، ومن خلالها تتضح الفروق ، ومن ذلك ما أشار إليه أبو حيان في أول هذا

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي ٦ / ٤٣٧.

(٢) روح المعاني المجلد التاسع الجزء السابع عشر ٣٨.

التحليل، فنحن نقول مثلاً : جاء زيد راكباً على الحالية ، وجاء زيد الراكب على الوصفية، فعلى الحالية يدل الكلام على أن المراد وصف زيد حال المجيء ، فهو وصف طارئ ناشئ مع الفعل ثم هو منتقل وزائل عنه ، وأما مع الوصفية فالمراد وصف زيد بصفة معروفة له سلفاً قبل الكلام ، وهي باقية له بعده ، ولهذا فالوصف أثبت غالباً من الحال ، ولهذا نجد ما يدل على الطباع والسجايا يكون بالنعت لا بالحال ، وأيضاً نجد المعنويات توصف غالباً ولا تبين هيئتها ، ونظرة واحدة إلى الأجر، والثواب ، والعذاب ، والعقاب ، تُبين حجم الصفات المتنوعة المتكررة ولا نكاد نجد للحال حضوراً معها ؛ وذلك لأن الحال تظهر الهيئة ، والهيئة فيها تصوير حركي ، والمعنويات لا تدرك بالهيئات ، لأنه لا جرم لها.

ومع هذا كله نجد من الشواهد ما يصعب فيه تميز الصفة عن الحال ، وبالتالي يصعب تعليل ذكر أحدهما على الآخر ، ومن ذلك كون الصفة نكرة والموصوف نكرة منصوبة ، وتختلط الحال بالصفة أيضاً فيما إذا وصفت النكرة ثم اتبعت بجملة أو شبه جملة ، كل هذا وأمثاله يجعل الجزم بشيء دون آخر مما يصعب القول به ، والاختلاف في الإعراب في مثل هذا ظاهر بين، والشواهد عليه كثيرة جداً ، وتفسير المعنى على الحالية أو الوصفية ربما يتغير معه المعنى ، لذا فالأفضل هو النظر في مدلول اللفظ في موقعه من غير نظر إلى التسميات، وإن كان لابد من ذلك فلا يجزم بمعنى دون آخر.

المبحث الثاني : في النظم

تشترك الصفة مع الحال في قضايا النظم التي ذكرناها مع الحال إلا التقديم،[1] وسنركز الحديث هنا في:

١ - الذكر والحذف.

٢ - التعدد.

وسنعرض لهذه القضايا بما يظهر أسرار التعبير بالصفة فيها مذكرين قدر الاستطاعة بما سبق في دراسة الحال.

١ - الذكر والحذف.

أ - الذكر.

ونقصد بالذكر هنا كون الصفة مستغنى عنها ظاهراً ثم تذكر، ويتجلى ذلك فيما يسمى بـــ(الصفة المؤكدة)،والمسلمات البديهيات،وفيما يجب ذكره لتعلق الحكم به[2].

فأما الصفة المؤكدة فأكثر شواهدها كان في العدد، إما في الوصف به، وإما بوصفه هو،ويأتي التوكيد في غير ذلك، وسنذكر شواهد متنوعة لكل ذلك إن شاء الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [٥١ النحل]، فقد ذكر الزمخشري أن ما وراء الواحد والاثنين من المعدود يوصف بالعدد، لعدم دلالة المعدود على العدد الخاص فيقال: عندي رجال ثلاثة، "وأما رجل ورجلان ، وفرس وفرسان فمعدودان، فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد ، ورجلان اثنان فما وجه قوله: إلهين اثنين ؟ قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنيَّ به منهما والذي يساق إليه

(١) وذلك لأنه لا يجوز تقدم النعت على منعوته مع بقاء إعرابه نعتاً ، بل يتحول إلى حال - غالباً - إن كان الموصوف نكرة، وإلى مبدل منه إن كان الموصوف معرفة يقول المبرد: ((النعت لا يكون قبل المنعوت)) المقتضب ١٩٢/٤.

(٢) وقد بينا وجه ذلك في الحال انظر ص ٢٢١ وما بعدها من هذا البحث.

الحديث هو العدد شُفع بما يؤكده، فدل به على القصد إليه والعناية به ، ألا ترى أنك لو قلت :(إنما هو إله) و لم تؤكده بواحد لم يحسن، وخُيّل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية"(١).

وهذا كلام لا مزيد عليه يكفينا عن كثير من النقل، قال عنه ابن المنير : " وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها"(٢)، ولابن عاشور ملمح آخر في المقصود من الوصف يظهر في قوله "وصيغة التثنية من قوله: (إلهين) أكدت بلفظ (اثنين) للدلالة على أن الاثنينية مقصودة بالنهي إبطالاً لشرك مخصوص من إشراك المشركين ، وأن لا اكتفاء بالنهي عن تعدد الإله بل المقصود النهي عن التعدد الخاص ، وهو قول المجوس بإلهين"(٣)، وتعليل الزمخشري عام منظور فيه إلى مدلول الكلم ، وتعليل ابن عاشور خاص ، والاثنان متممان للمقصود ، وبهما يفهم المراد(٤).

ومما جاء فيه التوكيد بالصفة للعدد لا للمعدود قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[١٩٦ البقرة]،فقوله سبحانه:﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ بدهية معروفة في سر ذكرها أقوال كثيرة لن نتوقف عندها(٥) ؛ لأن مرادنا هو الوصف (كاملة) وهل من سر محوج إلى ذكره؟.

الذي يفهم من كلام الزمخشري أن ذكر مجموع العدد (تلك عشرة) هو من باب التأكيد لنفي توهم الإباحة "وكذلك (كاملة) تأكيد آخر وفيه زيادة توصيه بصيامها ، وأن لا يتهاون بها، ولا ينقص من عددها ...وقيل كاملة في وقوعها بدلاً من الهدي"(٦).

وبعد ما ساق أبو حيان هذا وغيره قال:"وهذه الفوائد التي ذكرناها رد على الملحدين في طعنهم ... بأن وصف العشرة بالكمال يوهم وجود عشرة ناقصة ، وذلك محال ، والكمال وصف نسبي لا يختص بالعددية كما زعموا لعنهم الله"(٧) ، ويقول أبو السعود

---

(١) الكشاف ٢ / ٦١٠.

(٢) الانتصاف بحاشية الكشاف ٢ / ٦١٠.

(٣) التحرير والتنوير ١٤ / ٣٢ ، ١٧٣.

(٤) ومثل هذا شواهد كثيرة منها : ١٦٣ البقرة ١٧١ النساء ، ٧٣ المائدة ، ١٩ الأنعام ، ٥٢ إبراهيم ، ١١٠ الكهف ، ١٠٨ الأنبياء ، ٦ فصلت ، وغيرها كثير ، وقد كان أكثر ورود واحد ، وواحدة ، واثنين هو من هذا القبيل.

(٥) انظرها في البديهيات في القرآن الكريم دراسة نظرية ٢٤ وما بعدها.

(٦) الكشاف ١ / ٢٤١ /٢٤٢.

(٧) البحر المحيط ٢ / ٢٧٠.

مضيفاً سر التبيين في هذا الوصف: " (كاملة) صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة في المحافظة على العدد ، أو مبينة لكمال العشرة فإنها أدل عدد كامل إذ به ينتهي الآحاد ويتم مراتبها، أو مقيدة تفيد كمال بدليتها من الهدى "(١)، ومما هو قريب من هذا قوله تعـــــالى : ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [٢٣٣ البقرة] حيث جاءت الصفة (كاملين) بعدما يغني عنها ظاهراً ، فما سر ذكرها؟.

يقول الزمخشري : "(كاملين) توكيد لقوله: (تلك عشرة كاملة)؛ لأنه مما يتسامح فيه فتقول: أقمت عند فلان حولين ولم تستكمله"(٢) ، وهذا عند أبي حيان من دفع توهم المجاز (٣) ، فذكْر الصفة "لبيان أن التقدير تحقيقي لا تقريـــبي"(٤).

ويبدو أن علة ذكر الوصف بالكمال هنا أظهر منه فيما سبق ؛ وذلك "لأن إطلاق التثنية والجمع في الأزمان والأسنان على بعض المدلول إطلاق شائع عند العرب فيقولون : هو ابن سنتين، ويريدون سنة وبعض الثانية..."(٥) .

ومما هو من قبيل البديهيات فيكون ذكره لافتاً للنظر ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [٤٦ الحج].

يقول العكبري: " (الَّتي فِي الصُّدُورِ) صفة مؤكدة"(٦) ، وفائدة ذكرها مع أنه معلوم أن القلب في الصدر ، تأكيد النسبة الغريبة ، فإن المعروف أن العمى في البصر لا القلب ، فلما نُسب إلى القلب احتاج ذلك إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار(٧)، وفي هذا الوصف إشعار بخطورة عمى القلوب "تنبيهاً على أن عمى البصر عدمٌ بالنسبة إلى عماها"(٨)، وهذا أولى من قول إن ذلك مبالغة كقوله

(١) تفسير أبي السعود ١ / ٢٠٧.
(٢) الكشاف ١ / ٢٧٨.
(٣) انظر البحر المحيط ٢ / ٤٩٧.
(٤) نظم الدرر ١٣ / ٦٤.
(٥) التحرير والتنوير ٤٣١/٤.
(٦) التبيان ٢ / ٩٤٥.
(٧) انظر الكشاف ٣ / ١٠٢.
(٨) نظم الدرر ١٣ / ٦٤.

تعالى:﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ [١٦٧ آل عمران][١]؛ وذلك لأن إسناد القول إلى الأفواه صحيح غير مستغرب، وأما عمى القلوب فهو خلاف المألوف، وهو أيضاً خلاف الوصف في قوله تعالى:﴿ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [٣٨ الأنعام]؛ لما ذكرنا، ولقد أحسن ابن عاشور عندما نبه على فائدة أخرى بقوله: "ويفيد هذا الوصف وراء التأكيد تعريضاً بالقوم المتحدث عنهم، بأنهم لم ينتفعوا بأفئدتهم مع شدة اتصالها بهم إذ هي قارة في صدورهم..."[٢].

ومما كان ذكره على سبيل المبالغة وإن كان مستغنى عنه ظاهراً ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [٥٧ النساء]، فقد يقال : ألا يكفي في بيان ما يتفيئون به قوله : (ظلاً) ؛ فهو مشعر بالسرور والحبور والراحة ، فما فائدة وصفه بمثل لفظة (ظليلاً)؟، يقول الزمخشري: "(ظليلاً) صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه، كما يقال: (ليل أليل ، ويوم أيوم)، وما أشبه ذلك ، وهو ما كان فيناناً لا جوب فيه، ودائماً لا تنسخه الشمس، وسجسجاً لا حر فيه ولا برد، وليس ذلك إلا ظل الجنة"[٣].

وإنما وصف الظل هنا بهذا الوصف ؛ لأنه في سياق تعداد النعيم : النبات ، والأنهار الجارية والأزواج المطهرة ، ثم الظل الظليل ، فكل نعيم مع وصفه ، وذلك كله في مقابل حرق النار لجلود الكفار وتبدلها كلما نضجت ، فانظر عظم المفارقة ، أولئك في السموم والحميم ، والنار واللهب، والمؤمنون في الخضرة والماء ، والظل والنساء.

ومما يمكن أن نلحقه بالذكر الصفات التي هي مقصود الكلام، مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٢٥٨ البقرة]، فلا يمكن أن يقال: والله لا يهدي القوم فحسب، لأن النفي مسلط على القيد، فالوصف هو المعنيّ ، وهو بهذا أهم من الموصوف،وأحياناً يُؤتى بالموصوف من أجل أن يقام عليه الوصف،وأحياناً يكون ذكر الموصوف لمراعاة معنى خاصٍ فيه كما في قوله تعالى:﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [١٦٤ البقرة]، يقول ابن عاشور: "وذكر لفظ (قوم يعقلون) دون أن يقال : للذين يعقلون ، أو للعاقلين ؛ لأن إجراء الوصف على لفظ قوم يومئ إلى أن ذلك الوصف سجية فيهم، ومن مكملات

---

[١] وهو قول ابن عطية، انظر المحرر الوجيز ١١ / ٢٠٩.

[٢] انظر التحرير والتنوير ١٧ / ٢٩٠.

[٣] الكشاف١/ ٥٢٣، معنى قوله:(فينان): أي واسعاً حسناً، وقوله:(لاجوب فيه): أي لافرجة فيه ولا انقطاع، وقوله:(سجسجاً): أي معتدلاً طيباً ، انظر في كل ذلك المعجم الوسيط مادة فنن ٧٠٤/٢، ومادة جوب ١٤٤،١٤٥/١، ومادة سجس ٤١٧/١.

قوميتهم ، ... فالمعنى أن في ذلك آيات للذين سجيتهم العقل، وهو تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بآيات ... [الله] ليست عقولهم براسخة ولا هي ملكات لهم"[1].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [٢٦ المائدة]، وهو عقاب من الله لبني إسرائيل لما رفضوا أمر موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة وقعدوا عن القتال معه ، فجاء قوله تعالى: (فلا تأس...) تفريعاً عليه ، ولما كان فعلهم هذا يحزن موسى عليه السلام لحرصه على صلاحهم نُهي عنه مع بيان العلة، يقول ابن عاشور: " نهاه عن الحزن ؛ لأنهم لا يستأهلون الحزن لأجلهم لفسقهم "[2]، فهذه الصفة وهي موطن العلة لا يمكن الاستغناء عنها ، فلا يمكن أن يقال : (فلا تأس على القوم) لعدم العلة ، ومثل هذا تماماً قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [٦٨ المائدة] ، لكن الحديث هنا عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول ابن عاشور : "وذُكر لفظ (القوم) وأُتبع بوصف الكافرين ، ليدل على أن المراد بالكافرين هم الذين صار الكفر لهم سجية وصفة تتقوّم بها قوميتهم ، ولو لم يذكر القوم وقال : (فلا تأس على القوم الكافرين)[3] لكان بمنزلة اللقب لهم فلا يشعر بالتوصيف، فكان صادقاً بِمَنْ كان الكفر غير راسخ فيه بل هو في حيرة وتردد فذلك مرجوّ إيمانه"[4].

وهكذا يتبين لنا أن الصفة شاركت الحال في موضوع الذكر بصوره المتعددة : التوكيد ، والبديهيات ، والوصف الواجب الذكر ، فهي تشبهه من حيث العموم لكن تنفرد عنه في أن الثبوت فيها أوضح ، والتوكيد فيها ليس للفعل ولا للنسبة بل لذات الموصوف ، واتضح أيضاً أننا نسأل عن ذكر الكلمة في موضعين: موضعٍ يكون السياق دالاً عليها ظاهراً ، والمتبادر إلى الذهن الاستغناء عنها، وموضعٍ تكون فيه واجبة الذكر ، وهما وإن كانا متضادين إلا أن هذا هو موطنهما وموضع بحثهما.

---

(١) التحرير والتنوير ٢ / ٨٩.

(٢) التحرير والتنوير ٦ / ١٦٨.

(٣) هكذا في الأصل ، وما يدل عليه السياق حذف القوم فيقال : (فلا تأس على الكافرين).

(٤) التحرير والتنوير ٦ / ٢٦٧.

ب- الحذف.

تشترك الصفة مع الحال في جواز الحذف من الكلام إذ وجد ما يدل عليها ، ويبقى الأصل هو الذكر جاء في الهمع " ويقل حذف النعت مع العلم به ؛ لأنه جيء به في الأصل لفائدة إزالة الاشتراك أو العموم ، فحذفه عكس المقصود "[١]، لكن قد يكون للحذف من الأسباب والأسرار ما يجعله مستحسناً مطلوباً ، وفي هذا يقول ابن جني : "وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها وذلك [مثل] : سير عليه ليل، وهم يريدون :ليل طويل ، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها ، وذلك أنك تحس من كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول:كان والله رجلاً، فتزيد في قوة اللفظ بـــ (والله) هذه الكلمة وتتمكن في تمطيط الكلام، وإطالة الصوت بها وعليها، أي:رجلاً فاضلاً، أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك، وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً ، وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك، وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً، وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً، أو لحْزاً [٢] ، أو مبخلاً أو نحو ذلك ، فعلى هذا وما يجري مجراه تحذف الصفة ، فأما إن عريت عن الدلالة عليها من اللفظ أو من الحال فإن حذفها لا يجوز"[٣] وقد حذفت الصفة في القرآن في مواضع لكنها أقل من الحال، فقد ذكر الدكتور الحموز للحال المحذوفة ما يقارب مائة وخمسين موضعاً [٤]، وأورد للصفة المحذوفة نصف هذ العدد تقريباً أي ما يزيد على سبعين شاهداً [٥]، وقد جاء حذف الصفة في عمومه على صورتين :

- الحذف لدلالة السياق أو الحال .
- الحذف مع الذكر في النظير (وهو التقابلي).

---

[١] همع الهوامع ٢ / ١٢.

[٢] معنى قوله :(لحْزاً): أي بخيلاً شحيحاً، انظر المعجم الوسيط مادة لحز ٢/ ٨١٧.

[٣] الخصائص ٢ / ٣٧٠ ، ٣٧١.

[٤] انظر التأويل النحوي في القرآن الكريم ١ / ٣٣٧.

[٥] انظر التأويل النحوي في القرآن الكريم ١ / ٤٥٥.

والصفة بهذا تشابه الحال كثيراً، وسنقف على بعض أسرار حذفها من خلال استعراض بعض الشواهد، فمن شواهد الصورة الأولى: قوله تعالى :﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [١١٣ البقرة] ، فالمعنى المتبادر إلى الذهن هنا في قوله :(على شيء) أي ذي بال، أو يعتد به، نظير قوله : لقد وقعت على لحم[١] .

فيكون من باب حذف الصفة ؛ لأنه معلوم أن كلاً منهم على شيء [٢] ، يقول ابن عاشور "وقولهم (على شيء) نكرة في سياق النفي ، والشيء الموجود هنا مبالغة ، أي ليسوا على أمر يعتد به ... ليسوا على حظ من الحق"[٣] ، وليس يخفى ما في إطلاق الموصوف وعدم تقييده بصفة من العموم والمبالغة أيْ : أيَّ شيء فالمقام مقام تجهيل كامل فناسب معه التعميم الذي لا يحصل إلا بطي الصفة الذي به تبلغ المبالغة مداها؛ لأنه "إذا نفي إطلاق اسم الشيء على ما هم عليه، كان ذلك مبالغة في عدم الاعتداد به وصار كقولهم : أقل من لا شيء"[٤] ، وليس بخفي أيضاً ما في طي الصفة وإبراز الموصوف مطلقاً من تسليط النفي على الموصوف دون منازع، ولو ذكرت الصفة لكانت قيداً في النفي ولكان مُنْصرَف الكلام إليها.

ومن هذا ما جاء في قوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [٦٨ المائدة]، يقول أبو حيان: "نفى أن يكونوا على شيء ، جعل ما هم عليه عدماً صرفاً لفساده وبطلانه فنفاه من أصله، أو لاحظ فيه صفة محذوفة، أي على شيء يعتد به، فيتوجه النفي إلى الصفة دون الموصوف"[٥]، ويقول بن عاشور:"فوقع هنا حذف صفة (شيء) [لأنه] يدل عليها المقام ...ولما وقع في سياق النفي في هذه الآية، استفيد نفي أن يكون لهم أقل حظ من الدين والتقوى ماداموا لم يبلغوا الغـــــاية التي

---

(١) هذا بعض عجز بيت لأبي خراش الهذلي(خويلد بن مرة)، والبيت بتمامه:
لعمر أبي الطير المُربَّة بالضحى   على خالدٍ، لقد وقت على لَحْم ، انظر شرح أشعار الهذليين٣/١٢٢٦.

(٢) انظر البحر المحيط ١ / ٥٦٥.

(٣) التحرير والتنوير ١ / ٦٧٦.

(٤) البحر المحيط ١ / ٥٦٥.

(٥) البحر المحيط ٤ / ٣٢٤.

ذكرت ..." [١]، وليس يخفى ما في حذف الصفة من دلالة على الشيوع والشمول ، كما هو ظاهر في ما سبق، وكثيراً ما يدل الحذف خاصة في النكرات على التعظيم والتهويل، يقول الزركشي عن حذف الصفة:"وأكثر ما يرد للتفخيم والتعظيم في النكرات ، وكأن التنكير حينئذ علم عليه"[٢] ، ويشهد لهذا مع ما سبق، قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [٤ قريش] "أي من جوع شديد وخوف عظيم"[٣]، ويدل حرف الجر (من) على أن الجوع والخوف واقع فيهم ، وهذا أعظم في المنة عليهم ، ثم إن في إطلاق الموصوف (جوع وخوف) دون توصيف ما لا يخفى من ذهاب الذهن كل مذهب في تخيل وصف ذلك الجوع والخوف ، إنه جوع وخوف وكفى ، وفي وصفه لو وصف ما يحد من التعميم والتعظيم المفهوم من التنوين والتنكير المطلق، وفي عدم الوصف إظهار لمدى المنة عليهم بالإنعام بما يرفع كل نوع من أنواع الجوع والخوف حتى لو كان عظيماً، فهذه دلالات واسعة لحذف الصفة هنا تلتقي كلها في الإشاعة في النوع والجنس والصفة.

ونلمح أحياناً في الحذف مدحاً وثناءً ، وذلك مثل قولنا:هذا رجل، وكما مر عند ابن جني:كان والله إنساناً،ولعلنا نجد ذلك في قوله تعالى:﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ [٧٩ النساء]، "أي:جامعاً لأكمل كل صفات الرسل"[٤]، وهنا نجد أن الحال مذكورة والصفة مطوية محذوفة ؛ وذلك لأن الغرض هنا هو بيان المهمة، ولا يوضحها أكمل إيضاح إلا بيان هيئة المرسَل، فإنها تصور حاله التي يكون عليها ، وكأن في تلك الحال دون أن يقال: (للرسالة) ما يشعر بوجوب تمثل ذلك في هيئة محسوسة يصلح معها هذا الوصف، أما الصفة فطويت لكفاية الموصوف بالمدح عنها؛ لأن وصفها يقلل من عمومها وإشاعتها ، إنه (رسول) وكفى ، إن عدم الوصف هنا أجمع لصفات المدح من لو عددت واحدة واحدة مع ما في الحذف من فضيلة الإيجاز والاختصار.

وبعكس هذا فقد نلمح من حذف الصفة إرادة التشنيع والقدح ، وذلك إذا كان الموضوع أو المقام، أو السياق يشعر بذلك،ومن هذا قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(١) التحرير والتنوير ٦ / ٢٦٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣ / ١٥٥.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣ / ١٥٥.

(٤) البرهان في علوم القرآن ٣ / ١٥٦.

بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾[١٠٥ الكهف] ، "أي وزناً نافعاً"(١)، وليس يخفى ما في هذا السياق من تحقير الذين ضل سعيهم في هذه الدنيا فكفروا بآيات الله واليوم الآخر، فليس لهم هناك وزن أصلاً فهو كناية عن حقارهم؛ "لأن الناس يزنون المتنافس في مقاديرها والشيء التافه لا يوزن ، فشبهوا بالمحقرات على الطريقة المكنية"(٢)، ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء"(٣)، فعلى هذا لا تصلح الصفة في هذا المقام؛ لأن الإطلاق أدل على مدى حقارهم عند رهم، يقول مصطفى أبو شادي:"وقدأفاد الحذف التحقير لأولئك الذين حبطت أعمالهم"(٤).

أما قوله تعالى :﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [٧٩ الكهف]، فقد اختلفت الوجهات في سر الحذف ، ومما يشعر به السياق أن المراد: سفينة صالحة ، بدليل قوله سبحانه (فأردت أن أعيبها) ، فالمعابة متروكة والصالحة مأخوذة، ويؤيد ذلك قراءة ابن عباس أو أبي بن كعب:(كل سفينة صالحة غصباً)(٥)، يقول الألوسي عن ضرورة تقدير هذه الصفة:"ولو أبقي العموم على ظاهره لم يكن للتعييب فائدة"(٦) ، ويبين الدكتور أحمد بدوي سر الحذف بقوله:"حذفت الصفة بعد (سفينة)، إذ المراد بها السفينة الصالحة، لدلالة الآية على هذه الصفة، فإن عيب السفينة لا يخرجها عن أن تكون سفينة، وقد أوحى إلينا هذا الحذف بأن الملك ينظر إلى السفينة المعيبة كأنها فقدت حقيقتها"(٧).

ولم يتبين لي مراد الدكتور ولا توجيهه، بل إنني لأفهم من كلامه ضد ما ذهب إليه فإذا كان حذف الصفة يُفْهِمُنا أن الملك ينظر إلى السفينة المعيبة أنها فقدت حقيقتها ، فكيف يقول قبل ذلك "فإن عيب السفينة لا يخرجها عن أن تكون سفينة"، إلا إن كان

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣ / ١٥٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٦ / ٤٨.

(٣) سنن الترمذي، كتاب الزهد ، باب ماجاء في هوان الدنيا على الله عز وجل،ح (٢٣٢٥)، ٤/٥٦٠،وهو في السلسلة الصحيحة ح(٩٤٣).

(٤) الحذف البلاغي في القرآن الكريم ٩٢.

(٥) انظر تفصيل ذلك في البرهان في علوم القرآن ٣ / ١٥٦ ، وروح المعاني المجلد الثامن الجزء السادس عشر ١٠.

(٦) روح المعاني المجلد الثامن الجزء السادس عشر ١٠.

(٧) من بلاغة القرآن ١٢٤.

جعل القول الأول هو حقيقة الأمر، والثاني هو نظرة الملك، فهنا نظران: العيب لا يخرج السفينة عن مسماها ، ونظر آخر أنها معه تفقد حقيقتها فهما متضادان ، فحتى يحصل تصوير كل ذلك كان حذف الصفة (صالحة) ؛ لأنه ينبئ عن سقوط اعتبار السفينة في نظر الملك ، فسقوط الصفة من الكلام يصور سقوط اعتبار السفينة في نظره ، وذكر (السفينة) يشهد بأنها مازالت على مسماها لم يفقدها العيب ذلك ، وبهذا يتوجه كلام الدكتور، وقد يكون المراد من الحذف أن ما فعله الخضر من خرقها كان باجتهاد منه لكي يتجاوزوا الملك ، وهو ما يشعر به قوله: (أردت أن أعيبها) دون (فعبتها) ؛ إذ هو "يدل على أن فعله وقع عن قصد وتأمل"[1] ، فهو اجتهد في التعييب علّه يكون سبباً في النجاة من غير أن يكون لذلك تعلق بعلم سابق أن الملك يترك المعيبة من السفن[2] ، وذكر التعييب لبيان ذلك الاجتهاد،لا أنه معلوم أن الملك يترك السفينة المعيبة،فلما جاء ذكر السفينة لم توصف؛ لأن الملك يأخذ كل السفن من غير تعيين ؛ لأنه لم يمر عليه من قبل منها ما هو معيب لا يُرغب فيه حتى يُعلم أنه يترك المعيبة أو لا يتركها ، ويشهد لهذا أنه إخبار عن حال الملك الذي اشتهر عنه ، فهو يأخذ التي تمر به من غير تعيين ، ومما يدل أن التعييب لم يحصل إلا من الخضر ، مدحه بذلك وأنه تسبب في نجاتهم، فعلى هذا لا وجه للوصف إذ لو قيل : (سفينة صالحة) لكان ذلك دليلاً أنه معلوم عن الملك تركه المعيب من السفن ، ولما كان لتعييب الخضر وفعله أيُّ تميز ولا غرابة ؛ إذ يمكن أن يقوم به كل أحد ، ولن يكون هناك اعتراض عليه ؛ لأنه سبيل النجاة المعلوم لهم، وينحو صاحب الحذف البلاغي منحى آخر في التوجيه فيقول :"حذفت الصفة لضيق المقام الذي يدل عليه خرق السفينة على عجل حتى لا تقع في قبضة ذلك الملك"[3].

وأكتفي بهذا القدر من تحليل شواهد هذا النوع من الحذف[4] لأنتقل إلى النوع الآخر وهو (**الحذف التقابلي**)، وشواهد هذا النوع تصلح أن تكون تحت عنوان (بين الحذف

---

(1) التحرير والتنوير ١٦ / ١٢.

(2) ولا يمنع أن يكون عند الخضر عليه السلام علم خاص من الله ، بأن هذه السفينة إذا عيبت تركها الملك ، فهذا لا يناقض ما ذكرنا.

(3) الحذف البلاغي في القرآن الكريم ٩٢.

(4) انظر مزيداً من الشواهد في البرهان في علوم القرآن ٣/ ١٥٥،ودراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الثالث٦٠٦،والحذف البلاغي في القرآن الكريم٩١وما بعدها، والتأويل النحوي في القرآن الكريم٤٥٥/١.

والذكر)؛ لأن فيها صفة مذكورة وأخرى محذوفة ، فإن نظرنا للذكر سألنا عن سره ولِمَ لَمْ تحذف فيه الصفة مثل أختها؟ ، وإن نظرنا للحذف قلنا لِمَ لَمْ تذكر فيه الصفة مثل أختها؟ لهذا سيكون التحليل متوازياً ليفي بالغرض قدر المستطاع.

والتقابل الذي نقصده قد يحصل في الآية الواحدة والجملة الواحدة وهذا هو الأصل وهو الكثير ، وقد يكون بين آيتين في موضعين متباعدين ، وكل هذا مرت له نظائر في الحال(1) ، فأما الأول وهو ما كان في آية واحدة فمن شواهده في الصفة قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١١٤ البقرة]،فقد وصف (عذاب)بــ(عظيم)،ولم يوصف(خزي)فما سر ذلك؟.

يقول أبو حيان:"ولما كان الخزي الذي يلحقهم في الدنيا لا يتفاوتون فيه حكماً، سواء فسرته بقتل أو سبي للحربي،أو جزية للذمي، لم يحتج إلى وصف،ولما كان العذاب متفاوتاً،أعني عذاب الكافر وعذاب المؤمن،وصف عذاب الكافر بالعظم ليتميز من عذاب المؤمن" (2).

ولعل من شواهد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[٦١ الفرقان]،فقد وصف القمر بـــ (منيراً) ولم يوصف السراج بشيء فما سر ذلك؟ السراج هو الشمس بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [١٦ نوح]، ولم يذكر لها هنا وصفاً؛ لأن كلمة (سراج) وإن كانت جامدة إلا أنها توحي بالإضاءة، فكأنه قيل:شمساً مضيئة متوقدة،والآيات هنا مسوقة للدعوة إلى العبرة والنظر، وموطن العبرة في الشمس توقدها وإضاءتها على بعدها،وكون الشمس متصفة بالإضاءة مما لا يناقش فيه عاقل،كيف وقد قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [٥ يونس] ؛ لذلك لا فائدة من وصفها بذلك، فلما أريد إدماج الاسم مع الصفة قيل (سراجاً) فقط، لأنه معلوم أن السراج لا يذكر إلا لمعنى الإنارة والإضاءة، فأغنى ذلك عن الوصف لحصول المقصود دونه، وأما القمر فلأنه ليس هو المضيء بذاته على ما يظنه بعض الناس فكان لابد من وصفه بما يحدد موطن العبرة فيه مما تراه الأبصار وهو الإنارة فقيل:

(1) انظر ص ٢٦٤من هذا البحث.

(2) البحر المحيط ١ / ٥٧٥.

(منيراً) أي ينيره غيره ، وهو الشمس، يقول الألوسي:"وعلى الفرق المشهور بين الضوء والنور يكون في وصفه بـــ(منيراً)دون مضيئاً إشارة إلى أن ما يُشاهد فيه مستفاد من غيره وهو الشمس"[1]، ولما كانت عناية العرب بالقمر لأن سنيهم قمرية خصص بالذكر مع الشمس وزيد فيه الوصف اعتناءً به،يقول الألوسي "وفي وصفه ما يشعر بالاعتناء به"[2].

ومما يظهر فيه هذا النوع أيضاً قوله تعالى:﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [٥١ ص] فقد وصفت الفاكهة ، ولم يوصف الشراب ، فما سر ذلك؟.

يقول أبو حيان : "ولما كانت الفاكهة يتنوع وصفها بالكثرة ، وكثرتها باختلاف أنواعها، وكثرة كل نوع منها ، ولما كان الشراب نوعاً واحداً وهو الخمر أفرد"[3] ، وزاد الألوسي "وقيل:وصفت الفاكهة بالكثرة ولم يوصف الشراب للإيذان بأنه يكون على الشراب نقل[4] كثير سواء تعددت أنواعه أم اتحدت ، ويمكن أن يقال - والله تعالى أعلم- التقدير:وشراب كثير،لكن حذف(كثير) لدلالة ما قبل ورعاية للفاصلة"[5] ،وليس يخفى أن التعليل كلما كان مرجعه إلى المعنى والمدلول كان أحرى بالقبول،ولهذا نقول إن في وصف الفاكهة (بالكثرة) دون غيرها من الأوصاف من مظاهر الإعجاز ما لا يخفى؛ وذلك أن هذا الوصف أغنى عن كثير من الأوصاف، فهي كثيرة بمعنى وفيرة، وهي كثيرة بمعنى متعددة وكل ذلك مطلوب فيها، فإن فاكهة الدنيا ، إما أن تكون شحيحة قليلة،وإما أن تكون من نوع واحد،فجاء هذا الوصف بما يكفي عن ذلك كله.

أما تعليل عدم وصف الشراب بأنه نوع واحد فهذا مقبول لو كان المطلوب الوصف بالكثرة، لكن نتساءل لِمَ لمْ يوصف بوصف آخر مثل:شراب طيب، أو شراب سائغ أو شارب بارد؟.

نقول: مرد ذلك إلى أن الشراب في الآخرة إما أن يكون الخمر، أو العسل أو اللبن ، أو الماء فوصفه بالكثرة لا مسوغ له للاختلاف الكبير بين الأنواع ، فكان المناسب معه

---

(1) روح المعاني المجلد العاشر الجزء التاسع عشر ٤٢.
(2) روح المعاني المجلد العاشر الجزء التاسع عشر ٤٢.
(3) البحر المحيط ٩ / ١٦٧.
(4) النُّقْلُ : مايتنقَّل به على الشراب من فواكه وكوامخ- وهي مايؤتدم به - وغيرها، انظر المعجم الوسيط، مادة نقل ٩٤٩/٢.
(5) روح المعاني المجلد الثاني عشر الجزء الثالث والعشرون ٢١٣.

عدم الوصف؛ لأن في ذلك تحديداً لنوعه أو هيئته والمراد هنا الإطلاق المشعر بعظم هذا الشراب، يقول ابن عاشور "وتنوين (شراب) للتعظيم: أي شراب نفيس في جنسه كقول أبي خراش الهذلي: **لقد وقعت على لحم**"(1).

فالوصف يحدده ويقيده ، إنه (شراب) وكفى ، وهذا ما أشار إليه ابن جني من قبل في حديثه عن حذف الصفة على سبيل التعظيم نحو: كان والله إنساناً(2).

ومما يلحق بهذا النوع ما كان فيه التناظر والتقابل في آيات متباعدة لكنها متفقة في الألفاظ والسياق،وجد في بعضها حذف وفي بعضها ذكر، ومن هذا القبيل ما جاء في قوله تعالى:﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [٦٦ الأعراف]، فهنا وصف الملأ من قوم هود بـــ (الذين كفروا) ، وحذف هذا الوصف مع الملأ من قوم نوح في قوله تعالى:﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [٦٠ الأعراف]،فما سر الذكر مع قوم هود والحذف مع قوم نوح؟.

يقول الزمخشري "فإن قلت: لم وصف الملأ (الذين كفروا)(3) دون الملأ من قوم نوح؟ قلت:كان في إشراف هود من آمن به منهم مرشد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن ونحوه قوله تعالى:﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [٣٣ المؤمنون]، ويجوز أن يكون وصفاً وراداً للذم لا غير"(4).

وكلام الزمخشري هذا يكون صحيحاً لو كان الحذف مع قوم نوح مطرداً ، كيف وقد جاء وصفهم بالذين كفروا في قوله تعالى:﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [٢٧هود]، وكذا في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [٢٤ المؤمنون]، وقد أجاد ابن عاشور في التنبيه على هذه الغفلة منه فقال:"والتوجيه الذي في الكشاف هنا غفلة عما في سورة هود"(5)،وهو عنده وصف كاشف تفنناً في الكلام(1)، والسؤال الوارد ليس

---

(1) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٨٢، وقد سبقت الإشارة إلى البيت ، انظر ص ٥٢٤من هذا البحث.

(2) انظر الخصائص ٢ / ٣٧٠ ، ٣٧١.

(3) لعل الأوضح أن يقال:((لم وصف الملأ بـــ(اللذين كفروا) دون الملأ من قوم نوح)) .

(4) الكشاف ٢ / ١١٦ ، وانظر البحر المحيط ٥ / ٨٦.

(5) التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ٢١٢ ، قلت : وعما في سورة (المؤمنون) أيضاً.

عن الموازنة بين ما يخص هود وما يخص نوح عليهما السلام، بل هو عن سر الذكر في (هود)و(المؤمنون) والحذف في(الأعراف) فيما يتعلق بنوح خاصة.

يقول الشهاب : "فعلى هذا ما ورد في سورة (المؤمنون) ... في وصف نوح صلى الله عليه وسلم يُحمل على أنه هناك للذم لا للتمييز ، وإنما لم يذم ها هنا للإشارة إلى التفرقة بين قوم نوح وقوم هود عليهما الصلاة والسلام ..."(٢).

وهذا أيضاً معارض بأن قصد التفرقة إن كان هو المراد، فهو في سورة هود مطلوب أيضاً فما باله لم يكن فيها كذلك؟ وإن كان للذم فالذم لهم حاصل في الموضعين؟ (٣) والحق أني لم أجد فيها ما يشفي ويكفي، والله المستعان.

٢- التعدد .

تتوافق الصفة إلى حد كبير مع الحال في مسألة التعدد ، إلا أن التعدد في الصفات مقبول مطلقاً، وفي الأحوال فيه كلام على ما تبين لنا من قبل(٤) ، وقد ظهر لي أيضاً أن عدم العطف هو الطاغي في تعدد الصفات فلا تكاد تجد العطف إلا عند تضاد الصفات ، بينما في الحال رأينا أن العطف أكثر من عدم العطف.

وقد اجتمع لي من شواهد تعدد الصفة ما يزيد على مائتين وخمسين شاهداً ، كان التعدد في أكثر من مائة وخمسين شاهداً منها مختلطاً بين الأنواع الثلاثة:(الإفراد ، والجملة، وشبه الجملة) كلها أو بعضها، وأما ما انفرد فيه المفرد بالتعدد فيزيد على ثلاثين شاهداً، وما انفردت فيه الجملة بقسميها بالتعدد فيربو على الخمسين شاهداً، وأما ما انفرد فيه شبه الجملة بالتعدد فيقصر عن عشرة شواهد.

ومن خلال النظر في تلك الشواهد الكثيرة، رأيت أن صور التعدد المذكورة مع الحال موجودة مع الصفة من حيث الناحية النظرية(٥)، أما من خلال ورودها في القرآن فقد ظهر

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ٢١٢.

(٢) حاشية الشهاب على البيضاوي ٤ / ٣٠٤ ، ٣٠٥.

(٣) انظر أكثر هذا في روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ١٥٥.

(٤) انظر ص ٨،و٢٥٥من هذا البحث.

(٥) انظر تلك الصور ص ٢٦١ وما بعدها من هذا البحث.

لي أن الحال أكثر تحقيقاً لذلك من الصفة خاصة في التعدد لمتعدد، واتحاد الصفات في اللفظ والمعنى أو اختلافها، وبالنظر في دواعي التعدد للصفات نجد أنها تتشابه مع ما في الحال إلى حد كبير، فقد ذكرنا هناك في الحال أن من دواعي وأسباب التعدد :

١- رسم المشهد كاملاً ، ومن هذا في الصفة قوله تعالى :﴿ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ [٣٠ ، ٣١ المرسلات].

٢- استقصاء الأقسام :ومنه في الصفة قوله تعالى:﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ [٩٤ المائدة]،فقد وصف شيء: بالجار والمجرور (من الصيد) وبالجملة (تناله)[1]،يقول ابن عاشور:"وجملة (تناله أيديكم):صفة للصيد،أو حال منه والمقصود منها استقصاء أنواع الصيد لئلا يتوهم أن التحذير من الصيد الذي هو بجرح أو قتل دون القبض باليد أو التقاط البيض أو نحوه "[2].

٣- الاحتراس ودفع التوهم وهو ظاهر في الآية السابقة ، ولعل منه في الصفة قوله تعالى : ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [٥٩ يوسف].

٤- استقصاء جوانب المدح أو القدح ومن هذا في الصفة قوله تعـــــالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [٢٦-٢٨الأنبياء].

٥- التقييد بأكثر من قيد وهذا بين في شواهد التقييد،ومنه ما جاء من تقييد في صفة البقرة في قوله تعالى:﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [٦٨ البقرة].

٦- التأكيد، ومنه في الصفة ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [٤٨ النمل]..

---

(١) انظر التبيان ١ / ٤٥٩، وإعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٣ / ١٧.

(٢) التحرير والتنوير ٧ / ٣٩.

وأما أساليب تعدد الصفة فلا تخرج عما ذكرناه في الحال[(1)] من مثال :

١- التعدد بذكر الشيء ونفي ضده كقوله تعالى:﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [٤٨ النمل].

٢- التعدد بذكر الشيء ثم نفيه كقوله تعالى:﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [١٤١الأنعام].

٣- التعدد بذكر الشيء وضده كقوله تعالى:﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [١٢١التوبة].

وهناك ألوان أخرى لا يضبطها ضابط وهي الأكثر، وإنما أردنا بذكر ما ذكرنا إظهار وجه التشابه بين الحال والصفة في هذا الجانب.

ونظراً لأن دراسة هذا الموضوع تطول، فقد رأيت أن أتحدث عن قضيتين مهمتين سبق ذكرهما في الحال تحت عنوان (قضايا مهمة في التعدد)[(2)] وهما:

أ- الترتيب في الصفات المتعددة.

ب- العطف وعدمه في الصفات المتعددة.

أ- الترتيب في الصفات المتعددة .

رأينا في الحال كيف أن لتقديم بعض الأحوال على بعض من الأسرار ما يسترعي الانتباه،ووجدنا هناك أن بعض الأحوال يقدم في موضع ويُؤخر في آخر ، ومع كل تغيير في الترتيب تغيير في المعنى، ونجد ذلك جلياً في الصفة أيضاً،وسنقف مع بعض شواهدها بإيجاز لإبراز هذا الجانب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[١٢٩ البقرة]،فقوله تعالى: (يتلو) وما بعده من جمل هي في موضع الصفة وتحتمل الحالية[(3)]،وقد جاءت بالمضارع للإشارة إلى تعدد ذلك وتكرره[(4)]،وأما عن سر ترتيبها على ما جاءت عليه فيقول ابن عاشور: "وقد

---

(1) انظر تلك الأساليب مع الحال ص ٢٦٤ من هذا البحث.

(2) انظر ذلك في ص ٢٦٦من هذا البحث.

(3) انظر البحر المحيط ١ / ٦٢٦.

(4) انظر التحرير والتنوير ١ / ٧٢٣ .

جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها، لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن، ثم يكون تعليم معانيه ... ثم العلم تحصل به التزكية ، وهي العمل بإرشاد القرآن"[1] .

لكن هذا الترتيب حصل فيه تغيير في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [١٥١ البقرة] ، فتقدمت هنا التزكية على التعليم ، وهناك تقدم التعليم على التزكية فما سر ذلك؟.

يجيب عن هذا ابن عاشور بقوله: "وقدمت جملة (ويزكيكم) على جملة (ويعلمكم الكتاب والحكمة) هنا عكس ما في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم : (يتلوا عليهم آياتك...)؛ لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين فقدم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم ، وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماماً بها، وبعثاً لها بالحرص على تحصيل وسائلها، وتعجيلاً للبشارة بها، فأما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب حصول ما تضمنته في الخارج مع ما في ذلك التخالف من التفنن ..."[2] .

ومن هذا القبيل ما جاء في قوله تعالى:﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [٢٣، ٢٤ المؤمنون]، فقد جاءت الصفة الأولى (الذين كفروا) ثم تلتها الثانية (من قومه) مع نوح عليه السلام، ومع قصة رسول آخر أعقبت قصته قصة نوح جاء الترتيب بين الصفات على غير هذا فقيل:﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [٣٣ المؤمنون] فما سر هذا التخالف؟.

لقد التقى الحال والصفة هنا بسبب هذا التغيير في ترتيب مواقع الصفات ، وقد نص الزركشي على أن هذه الآية جاءت بهذا الترتيب "بتقديم الحال أعني (من قوله) على الوصف أعني (الذين كفروا)، ولو تأخر لتوهم أنه من صفة الدنيا ؛ لأنها هنا اسم تفضيل، من الدنو وليست اسماً، والدنو يتعدى بـ (من) وحينئذٍ يشتبه الأمر في القائلين ... أهم من قومه أم لا؟ فقُدِّم لاشتمال التأخير على الإخلال ببيان المقصود ، وهو كون القائلين

---

[1] التحرير والتنوير ١ / ٧٢٣.

[2] التحرير والتنوير ٢ / ٤٩ ، ٥٠، وانظر لمزيد من التفصيل: البحر المحيط ٢/٤٧.

من قومه ، وحين أمن هذا الإخلال بالتأخير قال تعالى في موضع آخر من هذه السورة ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [٢٤ المؤمنون] ، بتأخير المجرور عن صفة المرفوع"[١]، ولعله يظهر التباين بين الآيتين حيث وصف ملأ قوم نوح فقدم وصفهم بالكفر ثم وصفهم بأنهم من قومه، وفي الآية الثانية العكس، وفي هذا إشارة إلى الاهتمام بوصف الكفر لملأ قوم نوح ثم بكونهم من بني جلدتهم، يقول ابن عاشور: "ووصف الملأ بأنهم الذين كفروا للإيماء إلى أن كفرهم هو الذي أنطقهم بهذا الرد على نوح، أو هو تعريض بأن مثل ذلك الرد لا نهوض له ، ولكنهم روجوا به كفرهم خشية على زوال سيادتهم، وقوله :(من قومه) صفة ثانية"[٢] ، فكأني بتأخير وصف (من قومه) يوحي بأن هذا أمر معلوم لا مرية فيه ولاشك وليس هو سبب الرد ، بل هو الكفر، لذا فذكره من باب إتمام الصفات، وتشنيع فعلهم ، وأما الآية الثانية ، فلم يذكر فيها اسم الرسول ولا قومه، فلما قيل: (وقال الملأ)، كان تحديد أنهم من قومه لا من غيرهم مهماً للإبهام الحاصل أولاً حيث قد يفهم منه أنهم ليسوا من قومه، ثم في تقديم (من قومه) على (الذين كفروا) إيماء آخر إلى أن سبب الرد هو ما هم فيه من منصب ومكانة خافوا عليها، ففي ذلك تعليل لسبب الرد وأنه الحرص على الدنيا؛ إذ معلوم أن أكثر من سيتأثر بزوال جاهه ومكانته هم عِلية القوم المتسلطين على الناس من قوم النبي، ويشير ابن عاشور إلى ملمح آخر فيقول: "وقوله (الذين كفروا) نعت ثان لـــ (الملأ) فيكون على وزان قوله في قصة نوح: (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) وإنما أخر النعت هنا ليتصل به الصفتان المعطوفتان من قوله :(وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم")[٣].

ومما جاء على هذا النحو قوله تعالى:﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [٢٠ القصص] فقوله جل ذكره:(من أقصى المدينة) صفة أولى لرجل،و(يسعى) صفة ثانية[٤]، هذا الرجل قيل هو مؤمن آل فرعون وقيل غيره[٥]، وقد وصف هنا بهاتين الصفتين على هذا

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٣٤ و ٢٨٥.

(٢) التحريروالتنوير ١٨ / ٤١ ، ٤٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٨ / ٥٢.

(٤) انظر البحر المحيط ٨ / ٢٩٥ وقال : ويصح أن يكون (يسعى) حالاً.

(٥) انظر البحر المحيط ٨ / ٢٩٥، والتحرير والتنوير ٢٤/١٢٧، ١٢٨

الترتيب،وفي (يس) وصف حبيب النجار[١] بالصفات ذاتها لكن قدمت شبه الجملة على الموصوف فقيل: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [٢٠ يس] فما سر ذلك؟.

يقول أبو حيان : "وهنا تقدم (من أقصى المدينة) وفي (القصص) تأخر وهو من التفنن في البلاغة"[٢] ، ومعلوم أن هذا التعليل لا يكفي ولا يشفي ، فلابد من تعليل يكون أسه المدلول ومرتكزه المعنى والغاية من النظم .

وفي هذا يقول الشهاب عن آية يس : "قدم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقدُّم بياناً لفضله إذ هداه الله مع بعده عنهم ، وأن بعده لم يمنعه عن ذلك؛ ولذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة للبعد وأن الله يهدي من يشاء سواء قرب أو بعد، ... وقيل إنه لو أخر توهم تعلقه بـــ (يسعى) فلم يفد أنه من أهل المدينة ، ومسكنه في طرفها وهو المقصود"[٣]، "وقيل قدم للاهتمام حيث تضمن الإشارة إلى أن إنذارهم قد بلغ أقصى المدينة فيشعر بأنهم أتوا بالبلاغ المبين"[٤]، ونصر ابن عاشور القول الأخير فذكر أن ذلك دليل على ظهور الإيمان في الأطراف "وبهذا يظهر وجه تقديم (من أقصى المدينة) على (رجل) للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط ، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء ، لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة؛ إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة ... وأما قوله في سورة القصص:(وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم ؛ إذ كان ذلك الرجل ناصحاً ولم يكن داعياً للإيمان"[٥].

والذي يظهر لي أن أقرب شيء في دلالة التغاير هنا هو أن ما كان فيه تقديم : (من أقصى المدينة) بعد الفعل (جاء) فالاهتمام فيه بتحديد المكان والناحية لبيان فضله وجهاده ونصحه، وما جاء على الأصل: فليس فيه عناية بتحديد المكان بقدر ما فيه من الاهتمام بوصف الرجل، وأن مجيئه كان من تلك الجهة لا أنها مكانه ، وفي هذا تدليل على حبه

---

[١] انظر الكشاف ٤/ ١٠، والبحر المحيط ٩/٥٥.

[٢] البحر المحيط ٩ / ٥٥

[٣] حاشية الشهاب على البيضاوي ٨ / ١٣.

[٤] روح المعاني المجلد الحادي عشر الجزء الثاني والعشرون ٢٢٦.

[٥] التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٦٥ ٣٦٦.

لموسى ونصرته إياه ، حيث جاء إليه من مسافة بعيدة ساعياً ، وليس في النظم ما يدل على أن مسكنه هناك بخلاف الأول.

وتتضح دقة الترتيب في الصفات المتعددة في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ [٢٨ غافر].

يقول ابن عاشور:"وهذا الرجل هو غير الرجل المذكور في سورة القصص ... فإن تلك القصة كانت قُبيل خروج موسى من مصر،وهذه القصة في مبدأ دخوله مصر"[١] والظاهر هنا أن (من آل فرعون) صفة أولى لرجل وجملة: (يكتم إيمانه) صفة ثانية"[٢] ، وقد جاء ترتيب الصفات هنا مصوراً للمعنى المراد، و "لو أخر قوله : (من آل فرعون) فلا يفهم أنه منهم"[٣]، بل يكون المعنى حينئذ أنه يكتم إيمانه خوفاً من آل فرعون ، وهو وإن كذلك، إلا أن هذا مفهوم من مجرد قولهً:(يكتم إيمانه)، وتأخير (من آل فرعون) يفوت معنى آخر جديداً لا يفهم إلا بتقديمه وهو كون الرجل من آل فرعون ، وهذا يشير إلى أن دعوة موسى بلغت مبلغاً عظيماً، وأن الذي جرّأ الرجل على هذا الكلام هو كونه كذلك، يقول ابن عاشور:"ووصفه بأنه من آل فرعون صريح في أنه من القبط، ولم يكن من بني إسرائيل... والأظهر أنه كان من قرابة فرعون وخاصته لما يقتضيه لفظ (آل) من ذلك حقيقة ، أو مجازاً"[٤].

ب- العطف وعدمه في الصفات المتعددة [٥].

لا يختلف الهدف العام في العطف في الحال أو في الصفة من حيث أنه ضم شيء إلى شيء، لكن من عجيب شأن العطف (بالواو) أنه يشعرك بالمغايرة بين الأوصاف، فهو يحمل الدلالتين الضم والجمع ، والمغايرة والاختلاف في الوقت ذاته؛ وذلك لأن الشيء لا يعطف على نفسه، لكن ما من شك أنه عندما يقال: محمد كريم وشاعر وفارس ، أن المراد

---

[١] التحرير والتنوير ١٢٧/٢٤ ، ١٢٨.

[٢] انظر روح المعاني المجلد الثاني عشر الجزء الرابع والعشرين ٦٣ ، ٦٤.

[٣] البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٣٣.

[٤] التحرير والتنوير ٢٤ / ١٢٧.

[٥] انظر هذا الموضوع بتوسع في : أسرار الفصل والوصل، للدكتور صبّاح عبيد دراز.

إثبات كل هذه الصفات له، وجمعها فيه ولكن في توسيط الواو المدلول الآخر وهو المغايرة الذي يشعر أن كل صفة مستقلة بذاتها كافية في مدحه وحمده.

وههنا قاعدة ذكرها السيوطي عن ابن الزملكاني في فوائده يقول فيها:"الصفات تارة تنسق بحرف عطف،وتارة تذكر بغيره،ولكل مقام معنى يناسبه، فإذا كان المقام مقام تعداد صفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد حسن إسقاط حرف العطف، وإن أريد الجمع بين الصفتين،أو التنبيه على تغايرهما عطف بالحرف،وكذلك إذا أريد التنوع لعدم اجتماعهما أتي بالحرف أيضاً"[(١)]،ويقول السيد الشريف: " أداة العطف إن توسطت بين الذوات اقتضت تغايراً بالذات،وإن توسطت بين الصفات اقتضت تغايراً في المفهوم " [(٢)].

وسنقف مع مجموعة من الشواهد لاستجلاء سر العطف أو تركه،ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [١٧ آل عمران].

قال الزمخشري: "والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها"[(٣)]، وقال أبو حيان:"وهذه الأوصاف الخمسة هي لموصوف واحد وهم:المؤمنون وعطفت بالواو ولم تتبع دون عطف لتباين كل صفة من صفة ؛ إذ ليست في معنى واحد فيترل تغاير الصفات وتباينها مترلة تغاير الذوات فعطفت"[(٤)]ومع تعليل أبي حيان لوجود العاطف فقد اعترض على كلام الزمخشري بقوله:"ولا نعلم العطف في الصفة بالواو يدل على الكمال"[(٥)].

وفي تقديري القاصر أن ما توصل إليه الزمخشري رغم اختصاره أعظم دلالة وأبعد غوراً مما ذكره أبو حيان ، وما اعترض به ليس متوجهاً ؛ لأن الذوق السليم يستشعر مع العطف في الصفات أن هناك مزيداً من الإضافات على شيء عظيم يمكن أن يكتفى ببعضها، فعندما يقال:(الصابرين والصادقين)،كأنه يخيل إليك أن هناك من يقول يكفي ثم يقال:والقانتين و... و...،ولقد أشرنا فيما سبق أن الواو تشعر بأن كل صفة هي مِدْحة قائمة برأسها،كأنها كافية لو ذكرت وحدها، فكيف عندما يضاف إليها غيرها في مترلتها ووزنها،أما إذا حذفت الواو فلا يعني هذا أنه ينقلب المدح إلى ذم؛ لأن ذلك خاضع لنوع الصفة ذاتها،والسياق والهدف.

---

(١) الأشباه والنظائر ٤ / ٥١.

(٢) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/ ١٣٣ ، نقلاً عن : أسرار الفصل والوصل٤٩.

(٣) الكشاف ١ / ٣٤٣.

(٤) البحر المحيط ٣ / ٥٨.

(٥) البحر المحيط ٣ / ٥٨.

فلو قيل مثلاً : (الصابرين الصادقين القانتين...) لأشعر سقوط الواو منها بأنه يراد قصدها مجتمعة ، فكأن المدح بمجموعها لا ببعضها وهذا له مواضعه ، ومع الواو كل صفة يمكن أن تكفي في المدح وحدها ، وهذا أقوى في مثل هذا المقام ، وهذا وجه الدلالة على الكمال فيما أظن وقد أشار ابن عاشور إلى كلام الزمخشري في قوله بالكمال وذكر أنه لم يبين مراده أحد ، فانبرى هو لذلك فقال : " ولعل وجهه أن شأن حرف العطف أن يستغنى به عن تكرير العامل فيناسب المعمولات ، وليس كذلك الصفات ، فإذا عطفت فقد تركت كل صفة مترلة ذات مستقلة ، وما ذلك إلا لقوة الموصوف في تلك الصفة، حتى كأن الواحد صار عدداً، كقولهم: واحد كألف، ولاأحسب لهذا الكلام تسليماً"(١).

بل إن ما ذكره تفسير متوجه،ولا يعني مجيء بعض الصفات خلواً من العطف أن ذلك نقص في البلاغة أو المدح؛لأنه يكون المراد حينئذ المدح بكل الصفات مجتمعة لا ببعضها، ولا ضير في ذلك كما رأيناه جلياً في الحال في قوله تعالى:﴿ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا ﴾ [٢١ الحشر]فالمدح بتأثير القرآن هنا هو بوقوع هذين الوصفين معاً، فالعين لا ترى أحدهما إلا مع الآخر ، لا أن أحدهما بمعزل عن الآخر كما يشعر به حرف العطف لو أدخل هنا .

ومما جاء فيه الترك والعطف قوله تعالى: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [١، ٢،٣غافر]، فعطفت بعض الصفات، وفصلت بعضها، وعن سر العطف في المعطوف يقول الزمخشري: "فإن قلت:ما بال الواو في قوله:(وقابل التوب)؟ قلت: فيها نكتة جليلة ، وهي: إفادة الجمع للمذنب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها محاءة للذنوب كأن لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول"(٢) ، وعلق عليه أبو حيان بأن الجمع بالواو معروف في ظاهر علم النحو ، وأن ما ذكره الزمخشري تلمح وشقشقة(٣) ، ورضي ابن عاشور كلام الزمخشري ونقله بقريب من نصه(٤).

وقد يظهر هنا تناقض في كلام الزمخشري مع ما سبق ذكره ، من أن العطف يوحي بالكمال في الصفة حتى كأنها كافية وحدها ، وكلامه هنا يشير إلى الجمع بينهما ، وهو

(١) التحرير والتنوير ٣ / ١٨٥.

(٢) الكشاف ٤ / ١٤٩.

(٣) انظر البحر المحيط ٩ / ٢٣٥.

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٤ / ٨٠.

ليس بتناقض في الحقيقة ؛ لأن خصوصية كل واحدة منها باقية ، فهو سبحانه (غافر الذنب) ، وهذا فضل عظيم قائم برأسه ، وكذلك هو سبحانه(قابل التوب).

وقد أورد السيوطي عن ابن الزملكاني تعليلاً في وجود الواو هنا وجعل المعوّل فيه على أنه قد يُظَن في هذين الوصفين التلازم ، فجيء بالواو لبيان أهما وصفان مختلفان يجب أن يعطى كل واحد منهما حكمه ، ولم يكن ذلك في (شديد العقاب ذي الطول) لوجود التخالف بينهما فهو شبه تضاد، فحذف ليعرف أهما مجتمعان في ذاته سبحانه ، فهو سبحانه شديد العقاب وفي الوقت ذاته ذو الطول، وهو جلت قدرته حال اتصافه بذي الطول شديد العقاب ، فحسن ترك العطف لهذا المعنى(1)، ولعله لا يخفى أنه لما كانت شدة العقاب ربما يفهم منها عدم الاجتماع مع العطاء حسن ترك العطف لتقترب الصفتان معاً فيظهر الكمال الذي هو صفةُ صفاته سبحانه ، فهو سبحانه شديد العقاب وفي الوقت نفسه صاحب العطاء والفضل.

وأكتفي بهذه النماذج التي لا يخرج الكلام - غالباً - في غيرها عنها (2) ، فالواو تعني جمعاً عاماً للصفات ، مع جعل كلٍّ صفة منها قائمة بذاهّا ، تكفي عن غيرها ، وترك الواو يعني قصد الصفات مجتمعة كلها ، دفعة واحدة ، وسقوط بعضها يخل بالمراد، يقول الدكتور صباح عبيد دراز : " ومن الواضح أن توالي الصفات في بعض الآيات دون عاطف [كان] قصداً إلى اجتماع هذه الصفات والتقائها في موصوف واحد ، دون قصد إلى الاستقلال في الصفة "(3) ، ومما يشهد لهذا أن المتضادات لا يمكن أن تجتمع أبداً ، ولهذا تعطف بالواو دوماً مثل قوله تعالى:﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [٣ الحديد] ، و﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [٥ التحريم]، وعموماً فقد ذكرنا فيما سبق أن ترك العطف في الصفات المتعددة هو الأكثر ، ولعل مرد ذلك إلى تغايرها في النوع من مفرد ، وجملة ، وشبه جملة ، فإن أكثر شواهدها على ذلك ، بل ترك العطف ظاهر حتى في تعدد الصفة المفردة، ولعل

---

(1) انظر الأشباه والنظائر ٤ / ٥٢ بتصرف.

(2) وللمزيد من تلك الشواهد انظر ١١٢ التوبة ، و٣ الحديد ، و٥ التحريم، انظر توجيهات ذلك في البرهان في علوم القرآن ٤٧٥/٣ وما بعدها.

(3) أسرار الفصل والوصل ٤٠.

هذا هو الأصل في الصفات ، وهو ما يفهم من قول الزركشي عن الصفات: "... ومقتضاها ألا يعطف بعضها على بعض لاتحاد محلها " (١).

(١) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٤٧٥.

المبحث الثالث: في التقييد.

الصفة قيد من القيود ، وهي تلتقي مع الحال في هذا الجانب ، يقول ابن يعقوب المغربي: "الحال والصفة مشتركان في أن المسند فيهما مقيد ، فإنك إذا قلت: جاء زيد العالم كنت مخبراً بمجيء مقيد بكونه صادراً من عالم ، كما أن:جاء زيد عالماً إخبار بمجيء مقيد بكونه من عالم ..."[١]، لكنهما يفترقان في أن الحال تقييد للحكم الناجم عن الإسناد ، والنعت تقييد لذات المنعوت، وفي هذا يقول ابن يعقوب عن الحال إنها كالنعت:"في اتصاف المنعوت به في كون كل منهما وصفاً لموصوف وقيداً لمقيد ، لكن يفترقان في أن المقصود جعل الحال قيداً لحكم صاحبها لاقترانهما في صاحب الحال ، فإذا قلت : جاء زيد راكباً أفاد أن زيداً موصوف بالمجيء، وأن اتصافه بذلك المجيء إنما هو في حالة اتصافه بالركوب، بخلاف النعت، فإن المقصود منه جعله قيداً لذات المحكوم عليه لا قيداً للحكم ، فإذا قلت:جاء زيد العالم، فالمقصود تقييد نفس ذات زيد بالعلم لا تقييد حكمه الذي هو المجيء؛ ولذلك يصح بالأصالة أن يكون نحو الأبيض والأسود من الأوصاف التي لا يتقيد وجودها بوجود الأحكام نعتاً بخلاف الحال ، فالأصل فيها أن لا تكون كذلك ؛ لأنها للحكم الذي أصله العروض والثبوت بعد الانتفاء ، فلا ينبغي إلا أن تكون من الأوصاف التي تثبت بثبوت الأحكام، وتنتفي بانتفائها"[٢].

ومبنى هذا الكلام كله على أن الصفة قيد للذات والحال قيد للحكم ، ولهذا قالوا بأن الحال حكم "بمعنى أن المتكلم قصد الإخبار بالمجيء وبالركوب ، بخلاف جاء زيد الراكب فإن المتكلم إنما قصد الإخبار بالمجيء"[٣] ، وهذا كلام مهم فنحن في التقييد بالصفة نذكر شيئاً سبقت معرفته ، فزيد معروف بالكرم والشجاعة أو غير ذلك ، أو هو وقت الكلام متصف بوصف يميزه كأن يقال عن ثلاثة كلهم محمد: انظر إلى محمد الراكب، وهذا

[١] شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ٣ / ١٢١.
[٢] شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ٣ / ١٢٠.
[٣] شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ٣ / ١٢١.

بخلاف الحال لو قلنا: انظر إلى محمد راكباً، فالقصد إلى محمد والركوب ، أما مع النعت فذكر الوصف للتمييز، وإلا كان انصراف النظر إلى محمد، وفي الحال نجد أن في ذكر الركوب فائدةً جديدةً مقصودة ، بل ربما تكون هي محط العناية ، ولهذا يُكتفى عن الصفة بما يدل عليها من إشارة باليد أو غيرها مما يُفهم به المراد ، وأما الحال فلا ؛ لأنها معنية ، ولأنها خبر آخر ، وحكم ثان.

وليس يعني هذا أن الصفة لا قيمة لها ، وإلا كان التقييد بها عبثاً ، بل المراد أن ارتباطها وتبعيتها لموصوفها أَذْهبَ بعض استقلاليتها ، بخلاف الحال ففيه استقلالية لتعلقه بالحكم لا الذات.

ولعل بعض هذه الفوارق تتضح من خلال تحليل الشواهد ، والموازنة بينها وقد سبق لنا أن بينّا شيئاً من أسرار التقييد بالحال في الذكر الحكيم ، وسنذكر هنا شيئاً من شواهد التقييد بالصفة محاولين استجلاء أسرار ذلك ، ليكون هذا في موازنة ما ذكر هناك في الحال ، وقد بنينا الدراسة هناك على محاور أربعة ، هي التقييد في أسلوب الإثبات ، والنفي ، والنهي ، والاستفهام ، وهذا متحقق بعينه في الصفة ، لذا سنحلل بعض الشواهد في ضوء ذلك حتى تسهل الموازنة :

١- التقييد بالصفة في الإثبات.

٢- التقييد بالصفة في النفي.

٣- التقييد بالصفة في النهي.

٤- التقييد بالصفة في الاستفهام.

١- التقييد بالصفة في الإثبات .

يدخل في هذا ما كان في سياق الأمر ، وما لم يكن نفياً ولا شبهة كالشرط ، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [١٥ آل عمران] ، فما سر الوصف بـ(مطهرة) للأزواج مع أن كونها في الجنة كافٍ عن كل ذلك ، ثم إن كل ما في الجنة مطهر من العيوب فما سر تخصيصه بالأزواج؟.

يقول أبو حيان: "قال الماتريدي: أهل الجنة مطهرون؛ لأن العيوب في الأشياء عَلَم الفناء وهم خلقوا للبقاء، وخص النساء بالطهر لما فيهن في الدنيا من فضل المعايب والأذى"[1] ، وليس يخفى ما في وصف الأزواج بهذا من بيان المزية على ما في الدنيا ، وكذلك وصف الرضوان بأنه من الله ؛ لأن كل هذا مذكور في مقابل ملذات الدنيا على سبيل الخيرية ، ولا يصلح هنا أن يقال:(ولهم الأزواج مطهرات) على جعل (مطهرات) حالاً؛ لما في الحال من الإشعار بحدوث ذلك، والوصف أبلغ لدلالته على تقدم ذلك ، وأنه من أوصافهن الثابتة المستقرة.

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى:﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [٣٨ آل عمران]، فقد ورد فيه قيدان للذرية المطلوبة أولهما حال هي (من لدنك) ، وثانيهما صفة هي (طيبة)[2] فما سر ذلك؟.

كما نرى في هذا الشاهد يتآزر الحال مع الصفة في بيان المراد ، فالذرية المرغوبة فيها لها وصفان : أنها من الله وأنها طيبة، لكن قُدم الوصف الذي أصبح حالاً لأهميته؛ لأن الداعي وهو زكريا عليه السلام انقطعت عنه سبل الإنجاب المعتادة و لم يبق إلا فرج الله عليه ، لذا قَدّم هذا القيد حتى قبل المقيد وهو الذرية إظهاراً للافتقار والالتجاء إلى الله الرحيم، وجاء الوصف الثاني في موضعه حتى يكون مستمراً معها؛ لأن الطِّيْبة في الذرية لا تُطلب ساعة ثم تنقضي بل المرغوب استمرارها فيها،يقول ابن عاشور: "سأل الذرية الطيبة؛ لأنها التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة بحصول الآثار النافعة"[3].

ومن الشواهد قوله تعالى:﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [٢ النساء]، وقد سبق أن ناقشنا سر التقييد بالحال في(إلى أموالكم)[4] ، وأنه لتشنيع هذا الفعل وتصوير حالة الشح التي تعتري بعض الأوصياء ، وجاء هنا وصف الحوب بأنه

---

[1] البحر المحيط ٣ / ٥٦، وانظر تفسير أبي السعود ٢ / ١٥ ، ١٦.
[2] انظر البحر المحيط ٣ / ١٢٦.
[3] التحرير والتنوير ٣ / ٢٣٨.
[4] انظر ص ٣٦١من هذا البحث.

(كبير) -مع أن لفظ الحوب مشعر بالذنب ؛ لأنه يعني الإثم ، والظلم[1] -"مبالغة في بيان عظم ذنب الأكل المذكور ، كأنه قيل من كبار الذنوب العظيمة لا من أفنائها"[2].

ومن التقييد بالصفة ما جاء في قوله تعالى :﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [١٠٧ الأعراف]، فقد جاء وصف الثعبان بـــ (مبين) مع أن الذي به العبرة هو انقلاب العصا إلى ثعبان، فما فائدة أن توصف بهذا الوصف؟.

قال أبو حيان: "(مبين) ظاهر لا تخييل فيه بل هو ثعبان حقيقة"[3]، ففي هذا الوصف رفع لتوهم التخييل،وإبراز لعظيم القدرة،يقول الألوسي عن الوصف:"فهو إشارة إلى أن الصيرورة حقيقية لا تخيلية"[4].

ومن التقييد بالصفة أيضاً ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [١٨٠ الأعراف]،فالحسنى وصف للأسماء،وهي مؤنث الأحسن أفعل تفضيل: "ومعنى ذلك أنها أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها"[5]،ولا يخفى ما في هذا الوصف-مع أن ما يتصل بالله أو يوصف به سبحانه حسن لاشك فيه -من بلوغها غاية الكمال والنزاهة،ويشير هذا الوصف إلى ما تضمنته معانيها من شرف وسمو،وفي هذا رد على الذين يعطلون أسماء الله عن معانيها، يقول ابن القيم -رحمه الله-:"أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح ، فلو كانت ألفاظاً مجردة لا معاني لها لم تدل على المدح،وقد وصفها الله سبحانه بأنها حسنى كلها"[6]،ويقول ابن عاشور:"ووصف الأسماء (بالحسنى)؛ لأنها دالة على ثبوت صفات كمال حقيقي"[7].

ونختم بقوله تعالى عن آدم وحواء: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾[١٨٩ الأعراف]

---

(1) قال أبو السعود:(((حوباً) أي: ذنباً عظيماً)) تفسير أبي السعود ٢ / ١٤١.
(2) تفسير أبي السعود ٢ / ١٤١.
(3) البحر المحيط ٥ / ١٣٠.
(4) روح المعاني المجلد الخامس الجزء التاسع ١٩.
(5) روح المعاني المجلد الخامس الجزء التاسع ١٢٠.
(6) بدائع التفسير ٢ / ٣١٧.
(7) التحرير والتنوير ٩ / ١٨٧.

ففي هذه الآية ثلاث صفات هي، (واحدة)، و(منها) تقدم على الموصوف (زوجها) فهي حال ، و (خفيفاً)، فما سر الوصف بكل واحدة منها؟.

أما (واحدة) فقد وصفت بها (نفس) مع أن اللفظ مغنٍ عنها ظاهراً "على سبيل الإدماج بين العبرة والموعظة؛ لأن كونها واحدة أدعى للاعتبار؛إذ ينسل من الواحدة أبناء كثيرون... ففي هذا الوصف تذكير بهذه الحالة العجيبة الدالة على عظيم القدرة وسعة العلم ... "[١].

وأما كلمة(خفيفاً) فقد جاءت وصفاً للحمل ، ولكن ما سر تقييده بهذا الوصف دون غيره من الأوصاف ،ولِمَ لمْ يكن مطلقاً غير مقيد؟.

يقول أبو السعود:"والتعرض لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه تعالى إياهم متدرجين في أطوار الخلق..."[٢]،وعلى هذا سار ابن عاشور حيث يقول:"ووصف الحمل بـــ(خفيفاً) إدماج ثان،وهو حكاية للواقع،فإن الحمل في مبدئه لا تجد منه الحامل ألماً،وليس المراد حملاً خاصاً...فهذه حكاية تحصل منها عبرة أخرى، وهي عبرة تطور الحمل كيف يبتدئ خفيفاً كالعدم،ثم يتزايد رويداً رويداً حتى يثقل"[٣].

ويبدو لي أن المقصود أبعد مما ذكر، وما نفاه من أنه ليس حملاً خاصاً قال به قائلون ، وهو في ظني لا يبعد، يقول الدرويش:"(خفيفاً) نعت أُتي به للإشعار بعدم التأذي به كما يصيب الحوامل عادة من آلام الحمل ، أو الإشارة إلى ابتدائية الحمل وكونه نطفة لا تثقل البطن"[٤].

وأما (منها) التي هي صفة لـــ(زوجها) فقدمت عليه فيقول فيها ابن عاشور: "وقوله:(منها) صفة(لزوجها)قدمت على الموصوف للاهتمام بالامتنان بأن جعل الزوج وهو الأنثى من نوع ذكرها ، وهذه الحكمة مطردة في كل زوجين من الحيوان"[٥].

---

(١) التحرير والتنوير ٩ /٢١١.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٣٠٣.

(٣) التحرير والتنوير ٩ / ٢١٢.

(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ٣ / ٥٠٨.

(٥) التحرير والتنوير ٩ / ٢١٢.

٢- التقييد بالصفة في النفي.

سبق في الحال بيان أن الأصل في الكلام إذا اشتمل على قيد زائد على مجرد الإثبات والنفي كان ذلك القيد هو محط العناية والمقصد من الكلام ، واتضح لنا أن ذلك غالب لا لازم[(١)]، ومما جاء على هذه القاعدة في سياق النفي في الصفة قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [٢٥٨ البقرة]، فليس المنفي هنا هداية الله عن القوم بعمومهم ، بل عن الظالمين منهم[(٢)]، وجاء النفي مسلطاً على القيد وحده في شواهد أخرى وعليه وعلى المقيد جميعاً وهو الأكثر، وسنقف مع بعض الشواهد لإبراز سر التقييد وخاصة الخارج عن القاعدة الغالبة ، فهو الذي فيه النكات واللطائف.

قال الله تعالى:﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [١٩٩ آل عمران]، فهل يعني تقييد الثمن بالقلة هنا أنه يجوز شراء آيات الله بالثمن الكثير؟.

لا شك أن هذا كله منتف قليله وكثيره ، ولكن قُيِّد بالقلة إشادة بالممدوحين هنا، وتعريضاً بمن يفعل هذا ، وإنما نفي عنهم شراء الآيات بالثمن القليل ، لأن هذا الفعل هو أدل ما يكون على خسة من يفعل ذلك ، فيكون هذا جامعاً بين المدح والتعريض يقول الألوسي: "وفي هذا النفي تصريح بمخالفتهم للمحرفين ... والمعنى لا يأخذون عوضاً يسيراً على تحريف الكتاب وكتمان الحق من الرشا والمآكل كما فعله غيرهم ممن وصفه الله سبحانه فيما تقدم ، ووصف الثمن بالقليل إما لأن ما يؤخذ على التحريف كذلك ولو كان ملء الخافقين ، وإما لمجرد التعريض بالآخذين"[(٣)].

ومن شواهد التقييد بالصفة أيضاً قوله تعالى في نهاية صاحب الجنتين: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [٤٢، ٤٣

(١) انظر ص ٣٢٦من هذا البحث.

(٢) انظر البحر المحيط ٢ / ٦٣٠.

(٣) روح المعاني المجلد الثاني الجزء الرابع ١٧٤.

الكهف]، فقوله جل ذكره:(فينصرونه) صفة لـــ (فئة)، فهل يعني التقييد بها أن له فئة لكنها خذلته، أو أنها لو نصرته لحصل له النصر؟.

يقول أبو حيان : "واحتمل النفي أن يكون منسحباً على القيد فقط ، أي : له فئة لكنها لا تقدر على نصره ، وأن يكون منسحباً على القيد(1) ، والمراد انتفاؤه لانتفاء ما هو وصف له أي: لا فئة فلا نصر"(2).

وليس التقييد بالنصر هنا مقصوداً لذاته ؛ لأنه ليس المراد أنه إن كان له فئة قوية قادرة على النصرة أنها ستنصره، فمَنْ ذا يغالب الله! ، ولكن المراد نفي الفئة من أصلها وتبعاً لذلك فلا نصرة ، ويدل لهذا قوله تعالى: (وما كان منتصراً) ، وإنما نفيت الفئة مع هذا القيد ؛ لأن ذلك أدل على ضعف الإنسان، وأظهر في بيان قدرة الخالق جل وعلا، وعلى هذا فلا مجال للوجه الأول الذي ذكره أبوحيان.

وقال تعالى في مدح المؤمنين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [٣٧ النور]، فقوله تعالى: (لا تلهيهم تجارة ولا بيع) في محل الصفة لـــ (رجال)(3) ، ويحتمل هذا القيد وجهين: "أحدهما:أنهم لا تجارة لهم ولا بيع فيلهيهم عن ذكر الله،كقوله:

على لا حب لا يهتدي بمناره (4)

أي لا منار له فيهتدى به ، والثاني : أنهم ذوو تجارة وبيع ولكن لا يشغلهم ذلك عن ذكر الله وعما فرض عليهم"(5).

ويبدو أن الذي لا محيد عنه ، وما تؤيده نصوص الشريعة الحاثة على العمل ، وما هو أمدح للموصوفين أن الوجه الثاني هو الحقيق بالقبول ، ويحسم هذا كله ما أورده الطبري -رحمه الله- من آثار عن بعض الصحابة كابن مسعود وسالم بن عبد الله رضي الله عنهم

---

(1) هكذا في النص وفيما نقله عضيمة_رحمه الله_ ، ولعل الصحيح هو (المقيَّد) وهو الأظهر، أو (القيد والمقيَّد) لدلالة سياق الكلام على ذلك.

(2) البحر المحيط ٧ / ١٨١.

(3) انظر روح المعاني المجلد التاسع الجزء الثامن عشر ١٧٧.

(4) سبق ذكره في ص٣٤٦ من هذا البحث.

(5) البحر المحيط ٨ / ٤٩.

أجمعين، تنص على أن المعنيّ بهذه الآية هم أولئك الذين يعملون ويكسبون، ثم هم يتركون بيعهم وتجاراتهم إذا سمعوا نداء الله للصلاة [1].

ويرد الألوسي كونها نزلت في أهل الصفة -وهم الفقراء- ويقول:"وأنت تعلم أن الآية على الأول المؤيد بما سمعت[2]أمدح،ولم نجد لتزولها فيمن فرغ عن الدنيا سنداً قوياً أو ضعيفاً،ولا يكتفى في هذا الباب بمجرد الاحتمال"[3]،ووجه كونه أمدح، أن المدح بعدم التشاغل عن العبادة مع وجود الشاغل أعظم من المدح به مع انتفاء الشاغل.

ونختم بقوله تعالى عن أهل الجحيم:﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [١٠٠،١٠١ الشعراء]، فالنفي هنا يحتمل نفي الصديق من أصله فيكون مسلطاً على القيد والمقيد جميعًا فلا صديق ومن ثم لاحميم ، أوالمراد نفي القيد وهو الصفة حميم فقط[6] ، والذي يظهر أن المراد نفي المقيد والقيد جميعاً، كما قال ابن عاشور: "والمراد نفي الشفيع وجنس الصديق لوقوع الاسمين في سياق النفي المؤكد بـــ (من) الزائدة"[4]، وإنما جاء التقييد بـــ (حميم) بياناً لمدى حسرتهم وندمهم ؛ فإن الصديق الحميم هو الذى يرجى نفعه عند الشدة والضيق .

٣- التقييد بالصفة في النهي .

النهي أخو النفي ، وما قيل هناك يقال هنا، وأحياناً يأتي النفي ويراد به النهي ، بل هناك شواهد جاء التقييد فيها بالصفة مرة في سياق النفي ومرة في سياق النهي، بل وحتى في سياق الإثبات، وأظهر شيء على ذلك ما يخص إنكار تحريف آيات الله مقابل أثمان زهيدة، ومما جاء منه في سياق النهي قوله تعالى عن اليهود: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [٤١ البقرة]،وقد ذكرنا سابقاً،أن التقييد بالوصف (قليلاً) لا يعني أن الكثير مسموح به،وإنما أريد بيان كمال خستهم ودناءتهم،إذ كيف جعلوا مصادر الهداية المترلة من رب العالمين سلعاً رخيصة يتكسبون بها، وفي ذكر القلة هنا إشارة إلى أن كلَّ كثيرٍ إلى آيات الله

---

(١) انظر جامع البيان المجلد العاشر الجزء الثامن عشر ١٤٦، ومحاسن التأويل ١٢ / ٢١٥.

(٢) الأول عنده هو إثبات التجارة والبيع ، وقوله: بما سمعت يعني ما أورده من عدد من الأحاديث التي تدل على ذلك.

(٣) روح المعاني المجلد التاسع الجزء التاسع عشر ١٧٨.

(٤) التحرير والتنوير ١٩ / ١٥٥.

قليل،"وكل كبير إليه حقير فما بال القليل الحقير"[١]، يقول أبو حيان : "ووصْف الثمن بالقليل ؛ لأن ما حصل عوضاً عن آيات الله كائناً ما كان لا يكون إلا قليلاً وإن بلغ ما بلغ ..."[٢] ، وليس يخفى ما في ذكر هذا القيد من تشنيع صنيعهم هذا ، وإظهار حقارة شأنهم ، مع ما فيه من بيان علو منزلة الآيات ، وأن كل ثمن في جانبها سيكون حقيراً قليلاً، فهذه دلالة مشتركة أرشد إليها هذا القيد، يقول ابن عاشور:"ووصْف (ثمناً) بقوله: (قليلاً) ليس المراد به التقييد بحيث يفيد النهي عن أخذ عوض قليل دون أخذ عوض له بال، وإنما هو وصف ملازم للثمن المأخوذ عوضاً عن استبدال الآيات... فذكر هذا القيد مقصود به تحقير كل ثمن في ذلك ، فهذا النفي شبيه بنفي القيود الملازمة للقيد ليفيد نفي القيد والمقيد معاً ..."[٣].

ومما التقت فيه الحال والصفة في التقيد قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾[١٣٠آل عمران]،فـــ(أضعافاً) حال و(مضاعفة) صفة له، وقد رأينا في التقييد بالحال كيف أفادت هذه الحال تشنيع هذه الصورة لما فيها من التنصيص على تلك الزيادات المحرمة التي بها يأكلون أموال الناس بالباطل، ثم جاءت الصفة:(مضاعفة) لتؤكد تلك الشناعة،فالحال بينت هيئة المأكول من الأموال، والصفة وصفت الحال،فالأضعاف ذاتها مضاعفة،وبهذا أشعرت الصفة بالزيادة المستمرة لتلك القروض الربوية بما يصح معه هذا الوصف المنبئ عن عظم حجم تلك الزيادات[٤].

ومن الشواهد في هذا قوله تعالى:﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [١٠ القلم]،فهذا النهي لمحمد صلى الله عليه وسلم عن إطاعة صاحب هذه الصفات، وقال جمع من المفسرين إنه الوليد بن المغيرة وقيل غيره[٥]، "ومن المفسرين من جعل (مهين) قيداً لـــ (حلاف) على جعل النهي عن طاعة صاحب الوصفين مجتمعين"[٦] ، وعلى القول بأنها نعت لحلاف ،

---

[١] الكشاف ١ / ١٣٢.
[٢] البحر المحيط ١ / ٢٨٩، وأشار إلى أنه وصف ملازم للثمن المحصل من الآيات كما هو حال متاع الدنيا.
[٣] التحرير والتنوير ١ / ٤٦٦.
[٤] انظر مزيداً من التفصيل في هذا فيما سبق في الحال ص ٣٦٠من هذا البحث.
[٥] انظر البحر المحيط ١٠ / ١٣٩ ، والتحرير والتنوير ٢٩ / ٦٩.
[٦] التحرير والتنوير ٢٩ / ٧٢.

فليس ذلك على سبيل التقييد[١] ، وإنما المراد بيان أنه رغم حلفه الكثير الذي يُجري فيه على لسانه اسم الله ـ وهو ما يرتفع به الإنسان ـ إلا أنه مهين حقير؛ لأن حلفه ليس عن تعظيم للمحلوف به، بل "يدل على عدم استشعار عظمة الله عز وجل وهو أُمُّ كلِّ شر عقداً وعملاً، وذكر بعضهم أن كثرة الحلف مذمومة ولو في الحق لما فيها من الجرأة على اسمه جل شأنه،وهذا النهي للتهييج والإلهاب أيضاً... (مهين) حقير الرأي والتدبير... المهين: الوضيع لإكثاره من القبيح"[٢].

وليس يخفى-إضافة إلى ما ذكر-ما في هذا الوصف لـــ(حلاف)من تحقيق الذم والتحقير،وذلك أن (حلاف) قد يوهم المدح،فلما جاء وصف(مهين)عُلم أنه للذم قطعاً.

٤- التقييد بالصفة في الاستفهام.

وكما سبق في الحال فإن التقييد يظهر بوضوح في الاستفهام التعجبي والإنكاري والتقريري، ومن شواهد ذلك في الصفة قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ ﴾ [١٩٤ ، ١٩٥ الأعراف].

في هذه الآية وما قبلها ذم صريح للمعبودات من دون الله ، وأنها أصنام لا تضر ولا تنفع ولا تَخلقُ ، بل إن عُبَّاد هذه الأصنام أقدر منها ؛ لأنهم يملكون ما لا تملك ويتصرفون ما لا تتصرف، وهذا هو مدلول قوله تعالى :(ألهم أرجل يمشون بها ...) الآية ، وقد تضمنت عدداً من الصفات، وهي جمل فعلية: (يمشون بها، يبطشون بها ، يبصرون بها ، يسمعون بها) جاءت وصفاً لـــ (أرجل)، و (أيد)، و (أعين) ، و(آذان) ، وكلها وقعت في سياق الاستفهام الإنكاري التعجبي، ولكن هل التقييد بهذه الأوصاف المتعددة مقصود، أم أن المراد شيء فوق التقييد؟.

---

(١) نص على ذلك ابن عاشور ، انظر التحرير والتنوير ٢٩ / ٧٢.

(٢) روح المعاني المجلد الخامس عشر الجزء التاسع والعشرون ٣٢ ، ٣٣.

يقول أبو حيان : "وهذا الاستفهام الذي معناه الإنكار قد يتوجه الإنكار فيه إلى انتفاء هذه الأعضاء وانتفاء منافعها فيتسلط النفي على المجموع ... ؛ لأن تصويرهم هذه الأعضاء للأصنام ليست أعضاءً حقيقية[1] ، وقد يتوجه النفي إلى الوصف ، أي : وإن كانت لهم هذه الأعضاء مصورة فقد انتفت هذه المنافع التي للأعضاء ، والمعنى أنكم أفضل من الأصنام بهذه الأعضاء النافعة ... وكان ترتيب هذه الجمل هكذا ؛ لأنه بدئ بالأهم ثم اتبع بما دونه إلى آخرها"[2].

ويبين أبو السعود فائدة إفراد كل إنكار ، وسر تسليط الإنكار على الأعضاء دون صفاتها مع أن المقصود هو الصفات فيقول: "وقد وجه الإنكار إلى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة تكريراً للتبكيت، وتثنية للتقريع ، وإشعاراً بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها كاف في الدلالة على استحالة الاستجابة ، ووصف الأرجل بالمشي بها للإيذان بأن مدار الإنكار هو الوصف، وإنما وجه إلى الأرجل لا إلى الوصف بأن يقال : أيمشون بأرجلهم ، لتحقيق أنها حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائر الأرجل فهي ليست بأرجل في الحقيقة ..."[3] ، "وخص الأرجل والأيدي والأعين والآذان ؛ لأنها آلات العلم والسعي والدفع للنصر"[4].

وليس يخفى من خلال ما مضى كيف أسهم قيد الصفة في كشف عجز آلهتهم بصورة مقنعة، لا يجادل في صحتها عاقل ، ولو عدم القيد هنا وهو الوصف فقيل : ألهم أرجل ، أم لهم أيد ، لما دل على المراد ؛ لأن بعض الأصنام على صور الآدميين مثل : هبل، وذي الكفين ، وسواع[5].

ومن شواهد القيد بالصفة في الاستفهام قوله تعالى:﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ [٤٢ ، ٤٣ الأنبياء]، فقوله جل

---

(1) هكذا في النص ولعل الأصح أن يقال : (لا يجعلها أعضاءً حقيقية).

(2) البحر المحيط ٥ / ٢٥١ ، ٢٥٢.

(3) تفسير أبي السعود ٣ / ٣٠٦، وانظر مثله في روح المعاني المجلد الخامس الجزء التاسع ١٤٤.

(4) التحرير والتنوير ٩ / ٢٢٢.

(5) انظر التحرير والتنوير ٩ / ٢٢٢.

ذكره:(تمنعهم) جملة في موضع الصفة لـــ (آلهة)[1]، والهمزة في (أم): "لإنكار أن يكون لهم آلهة تقدر على ذلك، والمعنى: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا أو حفظنا... وفي توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا إلى نفس الصفة بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم إلخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلاً عن رتبة المنع ما لا يخفى"[2].

ولا يخفى أيضا ما في ذكر الصفة دون أن يقال:(أم لهم آلهة)دون توصيف من التنصيص على عنوان عجز تلك المعبودات،وقطع أعذار عابديها،وإيقافهم على حقيقة أمرهم.

ولعله اتضح بهذه الشواهد كيف أن الصفة تكون قيداً في سياقات عدة كالحال تماماً،بل وحتى الأسرار فيما يخصها متقاربة،ولعل أبرز ما يميزها عن بعضها في هذا المجال ما سبقت الإشارة إليه،من أن القيد في الصفة لذات الموصوف،وفي الحال للحكم،ولا شك أن بيان الذات يختلف عن بيان الحكم،ثم إن الصفة تدل غالباً على ثبوتها للموصوف قبل وبعد الوصف بها،بينما الأصل في الحال أن يدل الوصف به على شيء آنيّ .

---

(1) انظر روح المعاني المجلد التاسع الجزء السابع عشر ٥١.

(2) تفسير أبي السعود ٦ / ٦٩ ، وانظر مثله في روح المعاني المجلد التاسع الجزء السابع عشر ٥١.

المبحث الرابع : في التصوير.

رأينا في الحال كيف تنوع التصوير بها بطرق مختلفة من التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، والجرس ، واللون ، والحذف ، وفي الصفة نجد أن طرق التصوير هذه متوافرة إلا أن المجاز هنا أظهر منه في الحال ، كما أن التشبيه في الحال أظهر منه في الصفة ، وسنقف مع بعض شواهد الصفة لإبراز أهم هذه الطرق في التصوير وهي :

١- التشبيه ٢- المجاز ٣-الكناية ٤- طرق أخرى.

١- التشبيه.

لا يشك أحد فيما للتشبيه من أثر في إيضاح المعاني ، والتأثير في النفس بتخيل الصورة التشبيهية، ولقد رأينا في الحال كيف تجلى ذلك في صور متعددة اختلفت فيها أداة التشبيه، فجاءت (كأن) بكثرة وجاءت (الكاف)في مواضع ، والصفة تشارك الحال في هذا الموضوع لكن ظهور (الكاف) فيها أكثر من (كأن) ، وإن كنا لا نعدم شواهد تحتمل الحالية، وسنقف هنا مع بعض شواهد الصفة التشبيهية الظاهرة ، ونشير أحياناً إلى مشاركة الصفة للحال في إكمال بعض الصور.

فمما تنوعت الصفة في تصويره (الموج) في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ [٤٢ هود]،وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [٣٢ لقمان]،فهاتان صورتان مرعبتان لأمواج البحر وهي تحيط بالسفن، فأما آية هود ففيها ذكر لسفينة نوح التي صنعها،وكيف أنها جرت في خضم أمواج هائلة تشبه الجبال في ضخامتها وعلوها وفي هذا ما لا يخفى من إظهار عظيم القدرة والمنة في آن واحد،إنها صورة تتآزر فيها الحال(بهم)[١]، والصفة (كالجبال)[٢]في رسم مشاهدها المذهلة،فالسفينة جارية بهم،وهم فيها ملابسون لها يدركون أن في سلامتها

[١] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٦٢٨.

[٢] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٦٢٨.

سلامتهم، وفي هلاكها هلاكهم،فهم يصارعون الأمواج كما تصارع، إنها أمواج ضخمة، يكفي فيها أن كل موج منها كالجبال، أما مجموع الأمواج فهو أعظم من ذلك بكثير،يقول أبو حيان:"شبه كل موجة منه بجبل في تراكمها وارتفاعها"(١).

إنها صورة تبين قدر وحجم السفينة التي عليها نبي الله نوح والمؤمنون في وسط تلك الجبال من الأمواج ، ماء نازل من السماء وماء نابع من الأرض ورياح وأمواج ضخمة ، ثم يحفظ الله عباده وينجيهم ، ويريهم آية من آيات قدرته، إنها صورة موحية يقذفها التشبيه وحرف الإلصاق (بهم) في نفوسنا، يقول سيد قطب _ رحمه الله _ : "وإننا بعد آلاف السنين لنمسك أنفاسنا ونحن نتابع السياق، والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد"(٢)، ولعله لا يخفى ما في استحضار صورة هذه المخلوقات الضخمة من التأثير في النفس، خاصة في موقف الرهبة والهلع،"والقرآن حين يشبه محسوساً بمحسوس يرمي أحياناً إلى رسم الصور كما تحس بها النفس...، ألا ترى إلى هذه الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة،وتصور في الوقت نفسه ما كان يحس به ركاب هذه السفينة وهم يشاهدون هذه الأمواج من رهبة وجلال معاً،كما يحس بهما من يقف أمام شامخ الجبال"(٣).

ولاشك أن لاختيار أركان التشبيه شأناً لا ينكر في تأثير الصورة وبلوغها الهدف المراد منها، يقول الدكتور أحمد بدوي : " ومن خصائص القرآن المقدرة الفائقة في اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية ... ، نجد القرآن قد شبه بالجبال في موضعين، فقال:﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [٤٢هود] ، وقـــــال :﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [٣٢ الشورى] ، ولكنك تراه قد آثر كلمة (الجبال) عند الموج، لما أنها توحي بالضخامة والجلال معاً"(٤).

وفي آية لقمان صورة أخرى للموج ، صورة أكثر إرعاباً وتخويفاً ؛ لأنها انتقام وعذاب، وتلك فيها إظهار للقدرة والمنة فاختلف السياقان والهدفان فاختلف التصوير ، يقول الدكتور:أحمد بدوي "وشبه القرآن الموج في موضعين فقال: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي

(١) البحر المحيط ٦ / ١٥٦.

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ١٨٧٨.

(٣) من بلاغة القرآن ١٩٢.

(٤) من بلاغة القرآن ٢٠٠، وانظر من بلاغة النظم القرآني ٢٩٣.

مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [٤٢ هود]، وقال :﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [٣٢ لقمان] ، وسر هذا التنوع أن الهدف في الآية الأولى يرمي إلى تصوير الموج عالياً ضخماً مما تستطيع كلمة (جبال) أن توحي به إلى النفس ، أما الآية الثانية فتصف قوماً يذكرون الله عند الشدة وينسونه لدى الرخاء ، ويصف موقفاً من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين ، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج ، ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً ، وأقوى تخويفاً إذا هو ارتفع حتى ظلل الرؤوس، هناك يملأ الخوف القلوب، وتذهل الرهبة النفوس،وتبلغ القلوب الحناجر،وفي تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين، فلما كان المقام مقام رهبة وخوف كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق في تصوير هذا المقام وأصدق "[١].

ولعلنا نتذكر هنا الصورة الحالية في تشبيه الجبل بالظلة في عذاب بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [١٧١ الأعراف] ، وهي هناك صورة غير معتادة للجبل، لذا ناسب أن تكون في صورة الحال الدالة على الانتقال والطروء ، وأما الموج فيعرف من أحواله ما يكون به مثل الجبال ومنها ما يغشى الناس كأنه ظله ، فلما كان المقام هنا مقام ترهيب قيل بالجمع كالظلل فهو أطباق مخيفة مروعة ، وهي صفة ثابتة له مستمرة لا لحظات ثم يهدأ وهذا ما ينبئ عنه مدلول الصفة دون الحال.

والملحوظ في تشبيهات القرآن للعذاب وأخذ الأمم أنه يبرز فيها التهويل والضخامة فيكثر فيها ذكر الجبال،والأمواج،والبحار،والسفن، ومما هو من هذا القبيل في الترهيب والتخويف تصوير شرر جهنم في قوله تعالى:﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [٣٢،٣٣ المرسلات].

ونلحظ هنا أيضاً تآزر الصفة (كالقصر)[٢] مع الحال (كأنه جمالة صفر) [٣]، وسواء أكان المراد بالقصر المبنى العالي الكبير ، أم الشجر الضخم فإن الصورة مروعة مخيفة ، إنها صورة معتمدها ضخامة الحجم في شيء عُهِد على صغره تأثيره الشديد المؤلم فكيف إذا عظم وكبر ، وحسب الإنسان أن يعلم من فظاعة النار وشدة لهبها واحتراقها "أن شررها

---

[١] من بلاغة القرآن ٢٠١.

[٢] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٦٠٣.

[٣] وهو محتمل للحالية إن كان من (القصر) ، وللوصفية إن كان من (الشرر).

ليس كهذا الشرر الذي يشبه الهباءة اليسيرة ، وإنما هو شرر ضخم ضخامة غير معهودة ، وهنا يسعف التشبيه فيمد الخيال بالصورة ، حيث يخيل لك هذا الشرر كأنه أشجار ضخمة تتهاوى ، أو جمال صفر تتساقط"(1).

وهكذا نجد الصورة الوصفية التشبيهية قد تميزت في أكثر شواهدها بنقل المشاهد الضخمة المروعة ، بينما كانت الصورة الحالية أقرب إلى كشف مخبوءات النفوس ، وتصوير المشاهد السريعة للبعث ، وخراب الممالك والمدن ، ولا يمنع ذلك أن هناك اتصالاً وثيقاً بين الحال والصفة في رسم المشاهد ، ولعل ذلك لا يخفى في مثل ما سبق وفي قوله تعالى : ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [٢٠ القمر] ، حيث أسهم الوصف (منقعر) في إكمال الصورة التشبيهية الحالية (كأنهم أعجاز نخل) ، يقول ابن عاشور : "ووجه الوصف بـــ (منقعر) الإشارة إلى أن الريح صرعتهم صرعاً تفلقت منه بطوهم وتطايرت أمعاؤهم وأفئدهم ، فصاروا جثثاً فُرغاً، وهذا تفظيع لحالهم ومُثْلة لهم لتخويف من يراهم"(2)،وكذلك الوصف بـــ (مرصوص) في قوله تعـــالى : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [٤ الصف]فهو مكمل للصورة التشبيهية الحالية (كأنهم بنيان) لما فيه من الإشعار بالإحكام والقوة والاتصال الشديد(3).

٢- المجاز .

المجاز يجعل الجامد ناطقاً ، ويضفي على الأموات صفة الأحياء ، ويجسم المعنويات فترتسم لها صورة متحركة حية كما هو ظاهر في (التشخيص) ، و (التجسيم) وقد رأيناه جلياً في الحال، وأما الصفة فقد ورد هذا بكثرة في أوصاف العذاب والأجر وغيرها من الأمور المعنوية حينما توصف بأشياء محسوسة ، كالكبر ، والغلط ، والألم وغير ذلك ، ولننظر الآن في بعض أوصاف العذاب التي منها قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ

---

(1) من بلاغة القرآن ٢٠٨.

(2) التحرير والتنوير ٢٧ / ١٩٤.

(3) انظر نظم الدرر ٢٠ / ٨ ، ومن شواهد التصوير بالتشبيه بالصفة قوله تعالى:﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [٢٩ الكهف]، وقوله تعالى:﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [١٤ الرحمن]، وقوله تعالى: ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [٣٧ الرحمن].

مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٠ البقرة]، فقد ذكر أبو حيان أن (أليم) إما أن يكون للمبالغة في الوصف:"ونسبته إلى العذاب مجاز؛ لأن العذاب لا يألَم، إنما يألم صاحبه فصار نظير قولهم:شعر شاعر...،وإذا قلنا إنه بمعنى مؤلم...[فهو أيضاً] مجاز"[١].

وعلى كل حال فهذا التعبير مصور للعذاب كيف أنه هو ذاته يألَم فكيف بمن يقاسيه مبالغة في شدته وفظاعته ، وكذلك على القول بأنه مؤلِم فالعذاب ذاته لا يؤُلم وإنما الذي تؤلم أدواته ، لكن من فظاعته وتعدي إيلامه جُعل بعمومه مؤلماً.

ومن هذا وصف العذاب في قوله تعالى:﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [٩٠ البقرة] فقد ذكر الشهاب أن الإسناد هنا مجازي للسبب[٢]، وليس بخفي ما في هذا الوصف من الإشعار بكون العذاب هو ذاته قائم بإهانة الكفار، وما هو إلا سببها أو أداها في الحقيقة.

ومن هذا القبيل قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [١٧٦ البقرة]، يقول أبو حيان "كنى بالشقاق عن العداوة ووصف الشقاق بالبعد إما لكونه بعيداً عن الحق أو لكونه بعيداً عن الألفة ، أو كنى به عن الطول أي في معاداة طويلة لا تنقطع ..."[٣]، ويقول ابن عاشور:"ووصف الشقاء بالبعد مجاز عقلي أي بعيد صاحبه عن الوفاق"[٤]ومعلوم أن الشقاق وهو العداوة والمخالفة شيء معنوي لا تستطيع أن تقول إنه قريب أو بعيد، لكن لما أريد بيان عظم الهوة، وقوة الشقاق وصفه بالبعد، والبعد وصف تدركه النفس ؛ لأنه يُحَسّ في أجرام ومسافات، فكان هذا الوصف مصوراً لعظمة الشقاق بينهم، حتى كأن ما هم فيه له جرم يمكن أن يوصف بالبعد إمعاناً في ترسخ ذلك فيهم وقوته، ويقول نذير حمدان: "قد يتراءى أن وصف الشقاق – وهو الخلاف – بالقوة أولى من وصفه بالبعد ، ولكن التأمل يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه خلاف تتباعد في وجهات النظر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء ، ولا يدل على ذلك لفظ غير هذا اللفظ الذي اختاره القرآن"[٥].

---

[١] البحر المحيط ١ / ٩٧ ، ٩٨.
[٢] انظر حاشية الشهاب على البيضاوي ٢ / ٣٢٨.
[٣] البحر المحيط ٢ / ١٢٧.
[٤] التحرير والتنوير ٢ / ١٢٧.
[٥] الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم ٢٩.

ومما جاء فيه الوصف مصوراً بطريق المجاز قوله تعالى:﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [١٥٤النساء] ، يقول ابن عاشور: "وصفه بالغليظ أي القوي ، والغلظ من صفات الأجسام فاستعير لقوة المعنى ، وكني به عن توثق العقد ؛ لأن الغلظ يستلزم القوة"[١]، وليس ينكر أن هذا الوصف (غليظ) ينقل أمام العين صورة محسوسة للميثاق ، تحس النفس مع تخيلها له بالقوة،لكن لو قيل:ميثاقاً قوياً موثقاً، لم تترسم الصورة المطلوبة الموحية بالقوة ، فالصورة أعظم من اللفظ المجرد ؛لأنها تعطي المعنى المطلوب وتوجد في النفس ما يقنعها به.

ولنقف مع قوله تعالى:﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ [٤٨ يوسف]، يقول ابن عاشور "إن الشداد وصف لسني الجدب ؛ لأن الجدب حاصل فيها ، فوصفها بالشدة على طريق المجاز العقلي"[٢] ، وذلك أنه معلوم أن السنين ما هي إلا زمن للجدب والحياة ، فإذا أريد تصوير عظم ما حصل فيها أسند الوصف إليها مباشرة، ووصفها بالشدة يشعر بأنها ذاتها انقلبت إلى مهلكة ماحقة، وكثيراً ما ينسب الناس ما يحصل في الزمن إلى الزمن، مظهرين بذلك كأن الزمن ذاته جار عليهم مع أنه مأمور من ربه وخالقه.

ومما جاء فيه التصوير بالصفة على وفاق ما سبق قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[١٠ الإنسان]،فاليوم زمن،وقد نعت بنعتين:(عبوساً قمطريراً)[٣]، يقول أبوحيان: "نسبة العبوس إلى اليوم مجاز، قال ابن عباس: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من عينيه عرق كالقطران"[٤] ، وهذا الإسناد عند بعضهم من قبيل المجاز العقلي مثل: نهاره صائم ، أو الاستعارة المكنية التخيلية وذلك بتشبيهه بالأسد العبوس ، أو هو تشبيه بليغ[٥] ، وعلى كل تقدير فهذا الوصف والذي بعده يوحي بصعوبة ذلك اليوم ، ويرسم في الذهن صورة مخيفة له، يملؤها العبوس والغضب ، والصعوبة والشدة،فإن كان هذا هو حال اليوم، فكيف بحال أهله ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [٢٦ الفرقان]،

---

(١) التحرير والتنوير ٦ / ١٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٢ / ٢٨٧.

(٣) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للدرويش ١٠ / ٣١٧.

(٤) البحر المحيط ١٠ / ٣٦٢.

(٥) انظر ذلك في روح المعاني المجلد الخامس عشر الجزء التاسع والعشرين ١٩٧.

يقول ابن عاشور:"والعبوس صفة مشبهة لمن هو شديد العبس ، أي كلوح الوجه وعدم انطلاقة ، ووصف اليوم بالعبوس على معنى الاستعارة ، شبه اليوم الذي تحدث فيه حوادث تسوءهم برجل يخالطهم يكون شرس الأخلاق عبوساً في معاملته"[1] ، وفوق وصف العبوس جاء وصف (قمطريراً) الدال على الطول، أو الشدة ، أو القابض بين عينيه "وزيد فيه الميم وبولغ فيه بالصيغة،وهو يوم القيامة...[للدلالةعلى كونه]صعباً شديداً" [2].

٣- الكناية.

ومن التصوير كذلك ، التصوير بالكناية،ومن ذلك قوله تعالى:﴿ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [٥٦ الرحمن].

"في الكلام حذف أي :نساء قاصرات"[3] وقال ابن عاشور: "وقاصرات الطرف: صفة لموصوف محذوف تقديره:نساء"[4]،ويقول الدكتور أحمد بدوي:"تقوم الكناية القرآنية بنصيبها كاملاً في أداء المعاني وتصويرها خير أداء وتصوير،وهي حيناً راسمة مصورة موحية، وحيناً مؤدبة مهذبة...فمن الكناية المصورة الموحية قوله تعالى...:﴿ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ ، فأنت ترى في قصْر الطرف تصويراً للمظهر المحسوس لخلة العفة،ولو أنه استخدام (عفيفات) ما كان في الآية هذا التصوير المؤثر ،ولا رسم أولئك السيدات في تلك الهيئة الراضية القانعة، التي لا يطمحن فيها إلى غير أزواجهن، ولا يفكرن في غيرهم"[5]،ولا يخفى ما في الصفة الثانية: (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) من نقل صورة منفية مستبعدة بأسلوب ملائم للسياق والغرض ، فلم يكن: لم ينكحهن أو ما شبهها؛ لأن السياق كله عَرْض للذائذ والجمال، وبعض هذه الكلمات تخدش ذلك الطهر والجمال،فكانت الكناية مصورة لذلك أرق وأدق تصوير،باعثة في روع المؤمن نشوة عظيمة أنه لم يقربهن أحد فهن أبكار لم تُفْتَضَّ بكارتهن، يقول ابن

---

[1] التحرير والتنوير ٢٩ / ٣٨٦.
[2] نظم الدرر ٢١ / ١٤١.
[3] الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٤١٢.
[4] التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٦٩.
[5] من بلاغة القرآن ٢٢٦ ، ٢٢٧.

عاشور:"والطمْث بفتح الفاء وسكون الميم مسيس الأنثى البكر...وعبر عن البكارة بـــ(لم يطمثهن...) إطناباً في التحسين"(١).

٤ - طرق أخرى.

رأينا فيما سبق في الحال أن أدوات التصوير كانت متعددة فمنها أساليب البيان المعروفة، ومنها ما تقوم به الكلمة أحياناً مفردة، راسمة المشهد بجرسها، أو ظلها وإيحائها أو غير ذلك من المؤثرات، وقد سبق ما يخص أساليب البيان في الصفة، وأما الوسائل الأخرى فمنها في الصفة التصوير بالجرس كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [١٩، ٢٠ القمر] ، إنه مشهد مخيف متكامل لأدوات العذاب ولحال المعذبين ، مشهد سريع متلاحق ، فأداة العذاب هي ريح مأمور صفتها أنها(صرصر) وهي الباردة العنيفة ، "وجرس اللفظ يصور نوع الريح ..."(٢)، إنه يصور صوتها،وما فيها من الصفير المنبئ عن شدتها وسرعتها ، وهو صوت يفزع القلوب ويخيفها؛ لأن صوت الرياح العاتية يشعر بالوحشة والموت ، وهي أيضاً (في يوم نحس مستمر)، وحالها أنها تنزع الناس نزعاً حتى تجعلهم بقايا نخل قديم متهالك، لقد قام هذا المشهد كله على الصفات والأحوال، فما كان فيه من سكون أو استمرار دون تجدد كان بالصفة، وما كان فيه من حركة وهيئة منظورة فهو بالحال.

وأما قوله تعالى في شأن الريح:﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [٦ الحاقة] ، ففيه زيادة وصف على ما تقدم وهو (عاتية) ، المشعر بالشدة والتجاوز حد المقول "فهذه الريح المدمرة يشبه خروجها عن حدها العتو والجبروت"(٣).

إنها صورة كاملة لتلك الريح العظيمة الباردة الشديدة ، يقول سيد -رحمه الله- عن آية الحاقة "واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح ، وزاد شدتها بوصفها (عاتية) لتناسب عتو عاد وجبروتها"(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٧٠.
(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٤٣١.
(٣) من بلاغة القرآن ٢٢١.
(٤) في ظلال القرآن ٦ / ٣٦٧٨.

ولعله لا يخفي ما في كلمة (متشاكسون) من الإيحاء بالمخاصمة في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [٢٩ الزمر] ، فهي تلقي في الخيال صورة شدة الاختلاف، وليس يُنكر أيضاً ما في صيغة (كباراً) في قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا كُبَّارًا﴾ [٢٢ نوح]،من إظهار حجم كيدهم، فهو ليس كبيراً فحسب بل (كُبَّاراً)،وكأنه من عظمه شيء محسوس عظيم الحجم حتى يمكن أن يوصف بـــ(كُبّاراً)،يقول ابن عاشور: " و(كُبّاراً) مبالغة أي: كبيراً جداً "(١).

واللون له أثره في الصورة، في إظهار الجمال فيها أو ضده،وقد رأينا من ذلك طرفاً في الحال وكان المراد هناك بيان الهيئات من مثل قوله تعالى :﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [٢٢ طه] وقوله تعالى:﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [١٠٢طه]، واللون في الصفة أكثر منه في الحال،ويراد منه فيها عرض ألوان ثابتة لا هيئات منتقلة؛ لذا فاللون في الصفة أثبت منه في الحال لتعلقه هنا بالذوات لا الهيئات، ومن شواهده قوله تعالى :﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾[٣١ الكهف]،فالوصف بـــ(خضراً) جعل النفس تستشرف اللون الأخضر المحبوب إلى النفس،إنه لو قيل ثياباً من سندس، ولم يذكر اللون لما حرك ذلك في خيال الإنسان الجانب اللوني المخزون،واللون وسيلة إدراكه الأولى هي البصر،والبصر به تنطبع الصور وتدرك محاسنها،ولو تأملنا قوله تعالى:﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ [٢٧ فاطر]، لوجدنا النفس أمام صورة تتناسق فيها الألوان بين الأبيض والأحمر من جانب، والأسود الحالك من جانب آخر، إن إظهار اللون يجعل النفس تدرك به من المعاني ما لا تدرك بغيره، فذكر هذه الألوان يوحي بعظم قدرة الله في تنويع تلك الطرق واختلاف تلك الجبال.

ومما هو من أدوات التصوير ـــ كما رأيناه في الحال ـــ (الحذف) فيبُرز به الحدث ماثلاً أمام العين بلا حواجز، ولم يظهر لي منه في الصفة ما يمكن أن يستشهد به ، لكننا نلمح كيف أن الصفة تكون مصورة إذا حذف موصوفها قال تعالى: ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [١٣، ١٤ القمر] ، فـــ (ذات ألواح ...) صفة للسفينة ، لكن طويت السفينة وبقي وصفها الماثل للعيان في صورة تجسمها أمام

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٠٧.

العين بكل مكوناها، فهو محمول على ألواح ومسامير، إنها صورة مجردة للسفينة توحي بأنها لو لا حفظ الله لن تنجيه فما هي إلا أخشاب وألواح، لذا قال بعدها (تجري بأعيننا) وهذا سر الحفظ،ثم إن في إظهار هذه المكونات للسفينة ما يشعر بضخامة حجمها وكبرها، يقول سيد قطب:"وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها، فهي ذات ألواح ودسر، توصف ولا تذكر لضخامتها وقيمتها"[1].

ونكتفي بهذا القدر، الذي لعله اتضح به بعض أسرار التعبير بالصفة في مقابل ما ذكرناه من أسرار التعبير بالحال؛ ولأن البحث كله كان عن الحال وقد شمل كثيراً من قضاياه ومباحثه، وأُشير من خلال ذلك إلى بعض أغراضه، فقد رأيت أن أذيل هذا المبحث بما أورده بعض دارسي القرآن من أغراض للصفة في القرآن، تتميماً لبعض جوانب الموازنة، ولعل من أهم ما أشاروا إليه ما يأتي:

١- التخصيص وذلك إذا كانت الصفة لنكرة نحو قوله تعالى:﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [٩٢النساء].

٢- التوضيح وذلك إذا كانت الصفة لمعرفة نحو قوله تعالى:﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ [١٥٨الأعراف]، والمقصود بالتوضيح: زيادة البيان.

وهذا غرضان عامان ، وهناك أغراض خاصة كثيرة منها.

٣- المدح والثناء ومنه صفات الباري جل جلاله، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [٢- ٤ الفاتحة]، ومنه قوله تعالى : ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [٤٤ المائدة].

٤- الذم والتحقير نحو قوله تعالى:﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [٩٨ النحل].

٥- التعيين والتمييز نحو قوله تعالى:﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [٥٩ يوسف].

٦- دفع توهم غير المراد نحو قوله تعالى:﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[١٩ الأنعام] ،و﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [٢٧ المؤمنون] ومنه قوله تعالى:﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [١٣ الحاقة].

---

[1] في ظلال القرآن ٦ / ٣٤٣٠.

٧- التنبيه على أمر غريب نحو قوله تعالى:﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [٤٦ الحج]،وقوله تعالى:﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [٤ الأحزاب].

٨- استيفاء الأقسام نحو قوله تعالى:﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [٥ الحج].

٩- التوكيد نحو قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [١٩٦ البقرة] .

١٠- التقييد نحو قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[٦ المنافقون] (١).

وهناك أغراض أخرى تتداخل مع ما سبق مثل الإرشاد ، والتعميم ، والتحسر ، وليس ما ذكرناه هو كل قضايا الصفة الأسلوبية ، بل بقي منها ما يغري بالدراسة الدقيقة له ، وربما لم نتعرض له إلا لماماً (٢).

---

(١) انظر ذلك مفصلاً مع زيادات عليه في: البرهان في علوم القرآن ٢/٤٢٢وما بعدها،ومعترك الأقران في إعجاز القرآن٢/٢٦٥.

(٢) وللاطلاع على بعض تلك القضايا فليراجع البرهان في علوم القرآن ٢ / ٤٢٢ - ٤٥٣ ، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن ١/٢٦٥ وما بعدها، ففيهما بسط لبعض ما أشرنا إليه.

الفصل السادس

التناسب بين الحال وصاحبها

المبحث الأول: ما يخص الذات الإلهيـــة .

المبحث الثاني : ما يخص الرسل الكرام .

المبحث الثالث: ما يخـــص المؤمنـــين .

المبحث الرابع : ما يخـــص الملائكـــة .

المبحث الخامس : ما يخص الكتــــاب .

المبحث السادس : ما يخـــص الكافـــرين .

المبحث السابع : ما يخـــص ما لا يعقـــل .

توطئة:

لما كان الحال وصفاً في المعنى كان اتصاله بصاحبه وثيقاً ، فالحال يتغير المقصود منها بتغير صاحبها إذا احتمل الكلام أكثر من صاحب، بل وتتبدل بعض خصائصها كالانتقال والحدوث تبعاً للصاحب ، فإذا ارتبطت بصاحب لا يصح في حقه الحدوث لزمت الثبوت، وذلك ظاهر في الأحوال من الذات الإلهية ، والقرآن.

بل أحياناً تأتي الحال جامدة (مصدراً) أو غيره لتناسب احتمالات الصاحب، لأن السياق أحياناً يحتمل أكثر من صاحب، فيكون المصدر هو أدق ما يمثل الحال حينئذ لصلاحيته للقليل والكثير،والمذكر والمؤنث،والمفرد والجمع،كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [٥٥ البقرة]، فيمكن أن يكون قوله جل ذكره:(جهرة) حالاً من (الله) فيكون المعنى: حتى نرى الله ظاهراً غير مستور ، ويمكن أن يكون حالاً من القائلين: أي قلتم ذلك مجاهرين[1]، ولو كان الحال غير مصدر بأن كان مشتقاً فلن يقبل كل هذه الاحتمالات، ولست استبعد أن من عظمة القرآن وإعجازه أن الحال في مثل هذا تدل على الصاحبين جميعاً ، فهم قالوا ذلك مجاهرين، وطلبوا أن يروا الله عياناً ظاهراً أمام أعينهم ، فأوجز كل ذلك في لفظ واحد مع كفايته للدلالتين.

وصاحب الحال في القرآن يبرز أحياناً ويكون ظاهراً وذلك بكثرة وقوع الأحوال منه، وأحياناً يكون قليلاً نادراً ، ويتميز صاحب الحال في القرآن عن غيره بأنه كثيراً ما يقبل احتمالات عدة تدل على سعة الدلالة وعدم حصرها في صاحب معين، بينما في غير القرآن فالغالب أن الصاحب محدد ؛ وذلك لأن دلالات القرآن بعيدة المرامي، فيكون في هذه الاحتمالات ـ كما رأينا في الشاهد السابق ـ ما يشير إلى معان أخرى لا تظهر مع تحديد صاحب بعينه والجزم به دون سواه ، وهذه الظاهرة بينة في شواهد الحال المصدر ، وشبه الجملة، وهي قطعاً تزيد على الألف شاهد.

ومما يميز صاحب الحال في القرآن أيضاً "أنه صاحب قرآني ، يحمل من معالم كتاب

---

(1) انظر التبيان ١ / ٦٤.

الله تعالى الكثير" [1] ، يبرز فيه بوضوح الحديث عن الذات الإلهية ، والرسل ، والمؤمنين ، والكتاب، والكفار ، وكل حديثه عنها من الوجهة القرآنية ، فالكفار والمنافقون يبين عوارهم وكفرهم وجحدهم ومواقفهم، فالأحوال منهم ذامة قادحة، والأحوال من غيرهم ــ غالباً ــ مثنية مادحة، وأحياناً موجهة ومرشدة، وسيظهر ذلك جلياً ــ إن شاء الله ــ من خلال بسط القول في المباحث الآتية :

المبحث الأول : ما يخص الذات الإلهية.

المبحث الثاني : ما يخص الرسل الكرام.

المبحث الثالث : ما يخص المؤمنين.

المبحث الرابع : ما يخص الملائكة.

المبحث الخامس : ما يخص الكتاب.

المبحث السادس : ما يخص الكافرين.

المبحث السابع : ما يخص ما لا يعقل.

---

(1) الحال في الأسلوب القرآني ٣٦٩.

المبحث الأول : ما يخص الذات الإلهية

الحال لا يخرج عن كونه وصفاً، ووصف العظيم لابد أن يكون عظيماً ، لذ جاءت الأحوال من (العلي العظيم) في غاية التناسب مع جلاله وكبريائه، جاءت بصفات الكمال العظمى، جاءت بأس القضايا: التوحيد، وأظهرت من صفات الكمال ما به تتجلى عظمة الخالق ، كالعلم والتدبير، والخلق والتقدير، وفي المقابل نفت عنه صفات النقص والعجز كاللعب والبطلان والظلم ، والنوم.

ومما ليس فيه شك أن هذه الأحوال المصورة لكل هذا تتسم بسمة عامة تميزها عن غيرها وهي كونها ثابتة غير منتقلة ؛ لأنها وصف للخالق جل جلاله ، وهذا من التناسب الظاهر الذي لا يُنكر ، فهي من صفات الجلال والقدرة والثناء الثابتة له سبحانه وتعالى على الوجه الذي يليق به ، ويمكننا جمع تلك الأحوال بعمومها فيما يأتي :

١- ما كان في مقام الوحدانية.

٢- ما كان في مقام العلم والحكمة.

٣- ما كان في مقام الخلق والتدبير والقدرة.

١- ما كان في مقام الوحدانية.

أسهمت الحال في بيان هذا الأمر بستة شواهد كانت الحال فيها كلها بلفظ واحد هو (وحده)[1] كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ [٧٠ الأعراف]، وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [٤٦ الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [٤٥ الزمر]، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ... ﴾ [١٢ غافر] ، وقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ ...﴾ [٨٤ غافر]، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [٤ الممتحنة].

---

[1] جاءت في موطن واحد بلفظ وحيداً هو قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [١١المدثر]، وهي محتملة فيه للحالية من الفاعل، والأرجح أنها من المفعول، وقد سبق بيان ذلك في ص ٦٠من هذا البحث.

فالحال (وحده) في آية الأعراف جاءت موضحة استنكار قوم نوح كيف يدعوهم إلى التوحيد، فالمعنى : نعبد الله موحَّداً [1] ، وهذا هو التقدير في بقية الشواهد.

ويتضح من هذه الشواهد أن صاحب الحال فيها جاء بلفظ واحد هو الاسم الأعظم (الله)، إلا في موطن واحد جاء (ربك) وفي هذا تناسق ظاهر ، فالحال لفظها واحد مشعر بالوحدانية (وحده) ، وصاحب الحال هو العَلَم على الوحدانية (الله) ، وما ذُكِر لفظ الجلالة (الله) إلا ربى المهابة في النفوس، وهذا اللفظ (وحده) لم يأت في القرآن إلا حالاً، وما ذكرناه هنا هو كل ما ورد في القرآن، فهو لفظ متمحض للحالية من الذات الإلهية ، وهذه المواطن التي ورد فيها تختلف عن بعضها، فأكثرها في حكاية حال الكافرين عند الدعوة إلى توحيد الله، وكيف أنهم ينفرون من هذه الحال ويشمأزون ويولون الأدبار ، ولا عجب فإن ذكر الله مخلَصاً مفرداً دون آلهتهم هو ما لا يحبه المشركون ولا يأنس إليه المبطلون ، بل هم يأنسون حينما تذكر الآلهة المتعددة كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [٤٥ الزمر].

وكل هذه الأحوال المصورة لنفور القوم واشمئزازهم كانت عند ذكره ودعائه سبحانه، فكيف بعبادته والخضوع له إنهم لا شك أكثر نفوراً! لكنهم إذا سُلبوا قوّتهم ، ورأوا عجز معبوداتهم، وظهر لهم من قدرة الله ما يهلع القلوب ، لم يرضوا بذكره وحده سبحانه فحسب، بل إنهم ليؤمنون به ويوحدونه كما قال جل ذكره: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ ﴾ [٨٤ غافر] ، وهو وإن كان إيماناً كلامياً إلا أنه ينبئ عن حقائق في نظرتهم من حيث القدرة إلى الله العظيم القادر، وإلى أصنامهم العاجزة الخرساء .

وهذا الإيمان به وحده سبحانه كان يجب أن يكون عاماً مستمراً لا مؤقتاً بالشدائد؛ لأنه هو الفيصل بين الكفر والإيمان، وهو السبيل الوحيد لإزالة الفوارق والبغضاء كما قال سبحانه:﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾[٤ الممتحنة].

وهكذا نرى كيف أظهرت هذه الأحوال في صورة تكاملية قضية التوحيد ، وأنها هي التي تبرز عند تبين الحقائق ، وأنها هي مجال محاربة الكفار ، وأنها نقطة المفارقة بين المؤمنين والكافرين ، وليس بخاف ظهور المناسبة بين هذه الحال ، وبين لفظ الجلالة (الله) الذي هو

---

[1] الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢/٣٢٥.

العَلَم على التوحيد، إنه الاسم الذي لا يختلط مع غيره ، إنه الاسم الأعظم المقتضي للتوحيد، يقول ابن عاشور عن سر ذكر هذا الاسم العظيم إنه:" لتربية المهابة، وللتذكير بما يحتوي عليه الاسم العظيم من معنى الألوهية والوحدانية المقتضية عدم المنازع"(١)، وأما مناسبة هذه الحال لصاحبها من حيث كونها معرفة مع أنه خلاف الأصل في الحال ، ولو جاءت على الأصل لقيل :(موحَّداً) أو (منفرداً) ، فذلك ما سبق تفصيله في دلالة التعريف والتنكير في الفصل الأول(٢).

٢- ما كان في مقام العلم والحكمة .

جاءت الحال من الذات العلية في مقام وصفه بالعلم في غير شاهد ، وبأساليب مختلفة، يمكن ردها إلى صورتين :

الأولى : مجيء الحال من مادة العلم جملة فعلية فعلها مضارع.

الثانية : مجيء الحال من مادة العلم جاراً ومجروراً.

فأما الأولى فعليها قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ...﴾ [١، ٢ سبأ]، فقوله تعالى: (يعلم) محتمل للحالية من ضميره سبحانه في (له ما في السموات)، ويكون (وله الحمد في الآخرة) اعتراضاً(٣) ، فيكون المعنى: الذي له ما في السموات وما في الأرض عالماً بما يلج وما يخرج، والحال هنا على هذا المعنى متناسبة تماماً مع صاحبها : (الخالق العظيم) ، فقد عُلِّق العلم بما يلج وما يخرج من الأرض دون تفصيلات ما يدب على سطحها،وبما يترل من السماء وما يعرج إليها دون ما في الأجواء (٤) ؛ لأن ما ذكر كان كافياً عما لم يُذكر،لأنه وصف للقدير العظيم فاقتصرت الحال ومتعلقاها على إظهار وإبراز أوصاف الجلال والقدرة المبينة لإحاطة علمه بكل ذلك.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٣/١٣، ١٧٢.

(٢) انظر ص ٥٨وما بعدها من هذا البحث.

(٣) انظر روح المعاني المجلد الحادي عشر الجزء الثاني والعشرين ١٠٤ ، ويصلح أن يكون جملة مستأنفة أو تفسيرية.

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٢ / ١٣٧.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [١٦ ق]، فقوله تعالى:(ونعلم ما توسوس به نفسه) جملة حالية من الخالق المدلول عليه بضمير المتكلم في (خلقنا)[١].

والمعنى على هذه الحال ولقد خلقنا الإنسان عالمين بما توسوس به نفسه ، فكم توحي هذه الحال بإحاطة علمه سبحانه بعبده:حركاته وسكناته! إنها حال فيها معنى التخويف والردع، وفيها إظهار لديمومة علمه واستمراريته في صورة متجددة مع ما يُحدث هذا الإنسان من وقائع وأحوال، يقول ابن عاشور: "وأما الإخبار عن علم ما توسوس به النفس بصيغة المضارع، فللدلالة على أن تعلق علمه تعالى بالوسوسة متجدد وغير منقضٍ ولا محدود لإثبات عموم علم الله تعالى ، والكناية عن التجذير من إضمار ما لا يرضى الله"[٢]، إنها حال مظهرة لسعة علمه سبحانه وإحاطته وقدرته ، وإنها لتتناسب تماماً مع وصف الخلق ، فصاحب الحال هو الخالق، والخالق يعلم مَنْ خلق ، وهذا ما يظهر في الشاهد الآخر قوله تعالى:﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١٤ الملك] الذي سيأتي بيانه ، وهي أيضاً تتناسب مع ضمير العظمة (نا) في (خلقنا) فالعظمة في صاحب الحال وفي الحال أيضاً وبهذا يظهر لنا تناسب الصيغة (الفعل المضارع)، والمادة (العلم) مع الصاحب، ومع الهدف ، فالعلم متجدد مع الأحوال والوقائع ، وهو واسع وقريب ودقيق ، والصاحب موصوف بالخلق كما ينبئ عنه (خلقنا)، يقول ابن عاشور: "وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان التنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلها ، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم "[٣].

وهذه الحال متصلة بها حال أخرى تؤكدها ، يقول ابن عاشور: " وجملة (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) في موضع الحال من ضمير (ونعلم) "[٤] إنه علم في حال القرب ، ولا يعني ذلك أنه قيد في العلم بل إنه يشعر بعظم رقابة الله على عبده وإحصائه عليه ، واطلاعه على دقائق أسراره وخائنة عينيه، يقول ابن عاشور:"والمقصود منها [أي الحال]

---

[١] التبيان ٢ / ١١٧٤ وتحتمل الاستئناف.
[٢] التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٩٩.
[٣] التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٩٩.
[٤] التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٠٠.

تأكيد عاملها وتحقيق استمرار العلم بباطن الإنسان"[1].

إن الحال هنا تشير إلى وصف لا يكون إلا للخالق العظيم العليم بما خلق ، ولعل ذلك يظهر جلياً في قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [٤ الملك]، فقوله جل ذكره : "(مَنْ) فاعل (يعلم) أي:ألا يعلم السر والجهر مَنْ أوجد بموجب حكمته جميع الأشياء...!وقوله تعالى:(وهو اللطيف الخبير) حال من فاعل (يعلم) مؤكده للإنكار والنفي، أي: ألا يعلم ذلك والحال أنه تعالى المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه و ما بطن ... "[2]، والمعنى : ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله[3].

هذه هي الصورة الأولى لوقوع مادة العلم حالاً من الذات الإلهية ، أما الصورة الثانية فقد جاءت بالجار والمجرور ، (بعلمه) أو (على علم) ، قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [٦، ٧الأعراف] ، فـ(بعلم) جار ومجرور في موضع الحال من ضمير المتكلم في (فلنقصن) وهو الله سبحانه وتعالى : أي عالمين[4].

وليس بخفي هنا ما في إيثار الجار والمجرور على المفرد (عالمين) من دلالة مصاحبة وملابسة العلم للقص يوم القيامة، يوم يوكل كل شيء إليه سبحانه، وتنطق صحف الأعمال بكل صغيرة وكبيرة[5]،وتُكَمِّل الحالُ الثانية(وما كنا غائبين) المرادَ، وتؤكد الإحاطة التامة بأحوال العباد وأفعالهم.

والعلم الذي هو مادة هذه الحال علم إلهي، بدليل أوصافه فهو محيط تام ، وهو أيضاً عظيم كما يدل عليه التنوين والتنكير[6] ، وهذه العظمة في الحال (بعلم) تشير بصياغتها بالجار المشعر بالمصاحبة الدائمة التي لا تكون إلا لعلم الله، وبالتنكير والتنوين الدالين على التعظيم، تشير بكل ذلك إلى تمام التناسب مع صاحب الحال وهو ضمير الجلالة الذي جاء

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٠٠.

(٢) روح المعاني المجلد الخامس عشر الجزء التاسع والعشرون ١٦.

(٣) انظر البحر المحيط ١٠/ ٢٢٥ ، وروح المعاني الجزء التاسع والعشرين ١٧.

(٤) انظر التبيان ١ / ٥٥٧.

(٥) انظر كل هذا في روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ٨٢.

(٦) التحرير والتنوير ٨ / ٢٧.

بصيغة التعظيم والتفخيم في (فلنقصن)، أي : (نحن) ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ ﴾ [١٦٦ النساء] ، فقوله جل ذكره (بعلمه) حال من فاعل الإنزال وهو الله سبحانه أي عالماً به[1] ، ومن هذا أيضاً قوله تعالى:﴿ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ ﴾ [١١فاطر]،فـــ(بعلمه) في موضع الحال: أي إلا عالماً بها ، أو هو حال من الفاعل أي: ملتبسة بعلمه[2].

وكل هذه الأحوال التي جاءت معها (الباء) تُشعر بكون علم الله محيطاً بتلك المعلومات مصاحباً لها، فهي لا تخرج عنه بحال وتلك خصوصية علم الله، فهو علم العليم جل جلاله، علم له أعلى درجات الكمال والجلال، والإحاطة والدقة.

ومما جاء فيه العلم حالاً وكان الجار فيه (على) قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلۡنَـٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدًى وَرَحۡمَةً لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [٥٢ الأعراف]، فقوله جل ذكره :(على علم) حال من ضمير المتكلم ــ الله ــ في (فصلناه) أي: فصلناه عالمين ، أو على علم منا[3].

وقريب من هذا في المعنى قوله تعالى:﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَـٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ [٣٢ الدخان]،فـــ(على علم) في موضع الحال من فاعل (اخترنا)، أي:اخترناهم عالمين بهم[4].

ونلحظ هنا أنه لم يكن الجار (الباء) بل (على) فلِمَ لمْ يكن (فصلناه بعلم)؟.

وجواب ذلك أن التفصيل لا يد للبشر فيه، ولا مجال لهم فيه؛ لذا جيء معه بما يدل على علو ذلك العلم، بما يشعر بالجلال والعظمة والقدرة والهيبة، وكذلك اختيار الرسل أو أتباعهم[5] فهو لله وحده، ولا مجال لذكر الملابسة هنا، لأنها إنما تذكر ــ فيما ظهر لي ــ فيما يمكن أن يُغير أو يبدل ، أو يكون للإنسان أثر في بعض أطواره أو أحواله ، فتكون المصاحبة حينئذ دالة على استمرارية العلم وإحاطته، وأما ما استأثر الله به فلابد فيه من إظهار الهيمنة والقدرة؛ لأن صاحب الحال هذه هي صفاته، ومما يرشد إلى التعظيم ضمير

---

(1) انظر التبيان ١ / ٤١٠، ويصح أن يكون حالاً من المفعول أي : أنزله معلوماً.

(2) انظر روح المعاني المجلد الحادي عشر الجزء الثاني والعشرين ١٧٧.

(3) انظر التبيان ١ / ٥٧٣ ، وبه جزم ابن عاشور، انظر التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ١٥٢.

(4) انظر التبيان ٢ / ١١٤٧.

(5) انظر روح المعاني المجلد الثالث عشر الجزء الخامس والعشرين ١٢٥ ، والتحرير والتنوير ٢٦ / ٣٠٥.

الجمع في (فصلناه) ، و(اخترناهم) فالسياق كله سياق تعظيم، فجاءت الحال متسقة مع ذلك كله بحرف الاستعلاء (على) المقتضي للهيمنة والتمكن، يقول الألوسي عن آية الأعراف: "(على علم)...في موضع الحال من فاعل (فصلناه) وتنكيره للتعظيم، أي: عالمين على أكمل وجه بذلك حتى جاء حكيماً متقناً"[١].

وأما قوله تعالى:﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [٢٣ الجاثية]، فإن (على علم) فيه محتمل للحالية من الفاعل "أي:أضله الله تعالى عالماً سبحانه بأنه أهل لذلك لفساد جوهر روحه ، ويجوز أن يكون حالاً من المفعول أي: أضله عالماً بطريق الهدى ..."[٢].

وهو إن كان حالاً من الفاعل لفظ الجلالة (الله) فهو مشعر بعظم الإحاطة وسبق العلم ، وأن إضلاله له كان بعدله جلت قدرته وعلمه الأزلي بحاله ، وإن كان من المفعول فهو يشعر بتشنيع فعله ، وشدة لومه ؛ لأن من هذا شأنه في التمكن من العلم كما تدل عليه (على) لا يصح منه ذلك.

وكلا المعنيين _كما نرى_صحيح، وهذا ما أشرت إليه سابقاً،من أن من أوجه الإعجاز أن تأتي اللفظة سواء في الحال أو في غيرها على صيغة محتملة _كالمصدر وشبه الجملة _لتدل من أوجه متعددة على معان متنوعة لا تضارب بينها بل يمكن قبولها جميعها.

وهكذا اتضح لنا كيف جاءت الحال في مقام وصف الله بالعلم في موضعها متسقة مع صاحبها في كل الجوانب ، فجاءت مرة بالمضارع الدال على التجدد ؛ لأن السياق يطلب ذلك، ومرة بالجار (الباء) الدال على المصاحبة والملابسة المشعرة بالقرب والإحاطة ، وذلك فيما يحتاج إلى حفظ ورعاية ، ومرة بالجار (على) الدال على الاستعلاء والتمكن ، وتلك صفات العليم جلت قدرته فعلمه محيط بمخلوقاته لا يعزب عنه مثقال ذرة ، وهو علم عالي القدر عظيم الشأن ، شامل لكل حركة وسكنة.

أما الحكمة ونفي البطلان واللعب والعبث فيظهر جلياً في هذه الأحوال الواردة في سياق النفي والإنكار، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ [١٦

---

[١] روح المعاني المجلد الرابع الجزء الثامن ١٢٧.

[٢] روح المعاني المجلد الثالث عشر الجزء الخامس والعشرون ١٥٢.

الأنبياء] فـ(لاعبين) حال من الفاعل في (خلقنا)[1]وهو الله تعالى، فهنا نُفي اللعب، ونُفي في موطن آخر البطلان قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [١٩١ آل عمران]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ [٢٧ ص]، فـ(باطلاً) حال[2] من فاعل (خلقنا) ، أي : ما خلقناهما مبطلين.

وجاء في سياق الاستفهام الإنكاري قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [١١٥ المؤمنون]،فقوله جل ذكره : (عبثاً) مصدر في موضع الحال[3] من فاعل (خلقناكم) أي : لم نخلقكم عابثين، بل لحكمة وهدف ، وهو الموضح في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٥٦ الذاريات].

وقد سبق الحديث عن بعض هذه الآيات[4]، ولعله لا يخفى مناسبة نفي هذه الأحوال المقتضية للعب والبطلان والعبث عن الخالق العظيم المدلول عليه بفعل (خلقنا) في الشواهد كلها، والخالق الحكيم، لا يخلق عبثاً، ولا باطلاً، ولا لعباً ، وبهذا تُتمم هذه الأحوال ما سبق ذكره مع صفة العلم، فهو سبحانه عليم حكيم موصوف بصفات الكمال وهو أيضاً متره عن صفات النقص والعجز.

٣- ما كان في مقام الخلق والتدبير والقدرة .

ومما جاءت فيه الحال مظهرة عظمة الخالق في خلقه وتدبيره قوله تعالى:﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [٢٦، ٢٧ آل عمران]، فقوله جل ذكره : (تؤتي) وما عطف عليها من جمل كثيرة محتملة للاستئناف وللحالية من المنادى الله (مالك الملك)[5]، وعموماً فليس يخفى ما بين

---

[1] التبيان ٢ / ٩١٣.

[2] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤/ ١٦٢، وتقديره له: (أي: ذوي باطل) ، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول أي: خالياً من حكمة، انظر التبيان ١ / ٣٢٠.

[3] التبيان ٢ / ٩٦٢.

[4] في فصل التقييد بالحال، انظر ص ٣٢٧من هذا البحث.

[5] انظر التبيان ١ / ٢٥٠ ، ٢٥١، وروح المعاني المجلد الثاني الجزء الثالث ١١٤.

هذه الجمل وبين الاسم المختار (الله، مالك الملك)[1] من المناسبة لمقام الخلق والتدبير والتصرف،والأحوال المتعددة كلها أفعال مضارعة تشعر بالتنوع والتغيير الدائم وهي شاملة للتغييرات الإنسانية والكونية، بما يشعر بعظمة ورهبة تليق بجلال الله وعظمته، واختيار اسم صاحب الحال يدل على تلك العظمة والقدرة، فلم يُذكَر ها هنا (الخالق) ولا (الملك) بل (مالك الملك) ، إنه تناسق وتناسب لا يمكن دفعه ولا رفعه.

ومما يظهر فيه هذا الجانب أيضاً قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [٥٧ الأنعام].

يقول ابن عاشور:"وجملة (يقص الحق) حال من اسم الجلالة أو استئناف ، أي هو أعلم بالحكمة في التأخير أو التعجيل"[2].

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [٣ يونس][3].

يقول الألوسي: "(يدبر الأمر) استئناف وجُوّز في الجملة أن تكون في محل النصب على أنها حال من ضمير (استوى) ، وأن تكون في محل الرفع على أنها خبر ثان لـــ(أن) ، وعلى كل حال فإيثار صيغة المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره منه تعالى"[4].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ [٤١ الرعد]،فقوله جل ذكره : ﴿ نَنقُصُهَا ﴾ في موضع الحال من فاعل (نأتي) أو من مفعوله[5] ، وقوله تعالى : (لا معقب لحكمه) حال من لفظ الجلالة (الله) ، يقول الزمخشري : "فإن قلت : ما محل قوله : لا معقب لحكمه؟ قلت : هو جملة محلها

---

[1] بناء على أن (اللهم) معناها : يا الله ، انظر التحرير والتنوير ٣ ، ٢١.

[2] التحرير والتنوير ٧ / ٢٦٨.

[3] ومثلها آية ٢ الرعد، و ٥ السجدة.

[4] روح المعاني المجلد السادس الجزء الحادي عشر ٦٥ ، وقدم ابن عاشور القول بالحالية وكأنه يختارها، وعبارته:((وجملة (يدبر الأمر) في موضع الحال من اسم الجلالة أو خبر ثان عن (ربكم)))، التحرير والتنوير ١١ / ٨٧

[5] روح المعاني المجلد السابع الجزء الثالث عشر ١٧٣ ، ومثل هذه الحال ما جاء في آية ١٣ الأنبياء.

النصب على الحال ، كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه ، كما تقول : جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة تريد:حاسراً"[1]، وهذه الحال هي موطن الفائدة في الكلام؛إذ لا يكاد يخفى كونه جل ذكره حاكماً"إنما الغرض التنبيه على أنه لا معقب لحكمه ..."[2].

وليس يُنكر ما في هذه الحال من إظهار عظيم التمايز بين حكم الله وحكم من سواه، ففيه مدح بين له جل ذكره ، وتعريض ملحوظ بأن الأصل في حكم غيره النقص والنقض والإبطال.

ومما هو من إيضاح المناسبة بين الحال وصاحبها ، ما ذكره ابن عاشور بقوله : "وإظهار اسم الجلالة بعد الإضمار الذي في قوله : (إنا نأتي الأرض) لتربية المهابة ، وللتذكير بما يحتوي عليه الاسم العظيم من معنى الألوهية والوحدانية المقتضية عدم المنازع"[3].

وهناك حال ثالثة هي قوله تعالى :(وهو سريع الحساب) ، وهي محتملة للعطف على جملة (والله يحكم) ، "ويجوز أن تكون عطفاً على جملة الحال ، والمعنى : يحكم غير منقوضٍ حكمه وسريعاً في حسابه"[4].

ومما يخص الحكم أيضاً قوله تعالى:﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ [٥٦ الحج]،فقوله جل ذكره : (يحكم بينهم) جملة حالية من اسم الجلالة (الله) [5] ، وفيها ملمح تعليلي ليس يخفى .

وبهذا تظهر بعض ملامح مناسبة الحال لموقعها ولصاحبها، وكيف أنها جاءت كلها إلا قليلاً منها بصيغة الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار، وهذا ظاهر المناسبة مع الخلق والحكم والتدبير والقدرة، وهناك شواهد أخرى لوقوع الحال من الذات الإلهية ، لكنها لا تشكل ظاهرة؛ لذا اكتفينا بغيرها عنها [6].

---

(1) الكشاف ٢ / ٣٥٣.

(2) التحرير والتنوير ١٣ / ١٧٢.

(3) التحرير والتنوير ١٣ / ١٧٢ ، ١٧٣.

(4) التحرير والتنوير ١٣ / ١٧٣.

(5) انظر التبيان ٢ / ٩٤٩ وهي محتملة للاستئناف.

(6) انظر مثلاً ١٨ ، ٢٧ ، ٣٠ آل عمران ، ١٣١ الأنعام ، ٥٤ الأعراف ، ١١٧ هود ، ٣ الرعد ، ٩٢ الإسراء ، ١٣ الكهف، ٥ الدخان ، وأكثر هذه الشواهد محتملة للحالية ولغيرها.

المبحث الثاني: ما يخص الرسل الكرام

جاءت الحال بكثرة من الرسل ، وقد ظهر لي أن عدد الذين جاءت منهم الأحوال بأسمائهم أو نعوقم من الرسل غير قليل، ومنهم :إبراهيم، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف، وهارون ، وداود ، وسليمان ، ويونس ، وزكريا ، ويحي ، وعيسى ، ومحمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

وقد جاءت الحال شاملة لأهم قضايا الرسل ، وهذا بعض جوانب التناسب بين الحال وصاحبها ، وقد كان أبرز تلك القضايا التي جاءت فيها تلك الأحوال ما يأتي :

أ- بيان وظيفة الرسل الكرام:من البشارة النذارة،والدعوة والرسالة،والشهادة والتصديق.

ب- بيان أخلاقهم وعبادتهم: من الصبر على الأذى ، وتحمل مشاق الدعوة والجهاد، ومن الاجتهاد والإخلاص في العبادة.

ج- بيان أمور جبلية فيهم:كالخوف، والغضب، والضحك، والكِبَر.

د- بيان فضائل الله ونعمه عليهم: كالهداية،والتأييد،ورزق الولد،والمناجاة،والوحي.

هذا بالنظرة العامة إليهم جميعاً،وليس يخفي أن ما ذُكر وما أشير إليه هو من أهم ما يخص الرسل الكرام عليهم صلوات الله وسلامه،وأما على سبيل التخصيص فالأحوال تختلف بحسب اختلاف الصاحب،فكل منهم له أحوال تناسب ما كان عليه ، وما يُراد أن يُذكر عنه،وسأركز الحديث فيما يخص أولي العزم من الرسل؛وسأكتفي في غيرهم ببعض الإشارات لقلة الأحوال منهم وندرتها،وسيكون ذلك من خلال ما يأتي :

١- ما يتعلق بأولي العزم من الرسل غير نبينا محمد ﷺ.

أ- نوح عليه الصلاة والسلام .

من أظهر وأبرز ما في قصة نوح مع قومه دعوته لهم وصبره عليهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وقد ظهر ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ

أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [٨، ٩ نوح]،فالحال (جهاراً)[١] توضح بعض طرقه عليه السلام في الدعوة، فهو يدعو كل وقت (ليلاً ونهاراً) وبكل وسيلة وعلى كل حالة، سراً وجهاراً، ورغم هذا الحرص والنصح المتجدد كما تنبئ عنه الحال(أنصح) في قوله تعالى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ [٦٢ الأعراف][٢] ، إلا أن قومه كادوا له كثيراً وآذوه كثيراً ، وقد أظهرت الأحوال هذا الأمر المهم في قصته، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [٦٠ الأعراف]، فقوله :(في ضلال) محتمل للحالية إن كانت الرؤية بصرية أو من الرأي[٣] ، وقالوا عنه أيضاً: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [٢٧ هود]، فقوله (بشراً) حال[٤]من الكاف، يوحي باحتقارهم له، وأنه لا تميز له عليهم ولا فضل، وأظهروا ذلك بتنقصهم لأتباعه كما في قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [١١١ الشعراء] فقوله تعالى : (واتبعك) في موضع الحال[٥] ، أي :كيف نتبعك والحال أن أتباعك "هم أهل الضعة والخساسة ، وهم الحاكة وغيرهم من أرباب الصناعات الدنيئة"[٦] ، وما علم أولئك أن الإيمان بالله يرفع الوضيع ، وأن الكفر يضع الشريف النسيب.

وفي مقابل صدود القوم واحتقارهم بدت مظاهر التكريم لنوح عليه السلام وأتباعه من الله جل ذكره في أحوال متعددة منها قوله تعالى:﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [٣٧ هود]فقوله جل ذكره:(بأعيننا) في موضع الحال من المنوى في (اصنع) أي:اصنعها محفوظاً[٧]، ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى:﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا ﴾ [٤٨ هود]، فقوله تعالى : (بسلام) "في موضع نصب على الحال من المنوي في (اهبط) ، أي انزل من السفينة مسلّماً محفوظاً من جهتنا، أو مسلّما عليك مُكرماً"[٨].

وهكذا يتضح لنا كيف جاءت الأحوال متعددة متنوعة شاملة لأهم الأحداث المحيطة

---

[١] انظر الكشاف ٤ / ٦١٧، والفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٥٣٤.
[٢] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٣٢١.
[٣] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٣٢١.
[٤] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٦١٧.
[٥] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٦٦٠.
[٦] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٦٦٠.
[٧] الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٦٢٣.
[٨] الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٦٣٥.

بنوح عليه الصلاة والسلام وقومه ، ومصورة لموقف قومه منه وصبره عليهم ، والمناسبات في هذا ليست خافية ، فمع دعوة قومه جيء بالمصدر (جهاراً) المنكّر المنوّن للدلالة على التعميم والشيوع، ومع النصيحة قال:(وأنصح) بالفعل ؛ لأنه كان متجدد الدعوة دائباً فيها تلك الفترة الطويلة،ومع تكريمه جاءت باء المصاحبة (بأعيننا) (بسلام) المشعرة بالقرب والمجاورة، مما يبعث الطمأنينة في نفسه في مقابل استهزاء قومه المستمر، وفي مقابل رعب وأهوال الأمواج كما يبينه قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [١٣، ١٤ القمر].

ب- إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

جاءت منه أحوال تدور حول التوحيد والحنيفية،والهداية إلى ذلك قال تعالى:﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ﴾ [٧٩، ٨٠الأنعام].

فهذه الآية اشتملت على عدد من الأحوال هي[1] :(حنيفاً) أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولا عجب أن تكون منه هذه الحال فالمناسبة ظاهرة ، فإبراهيم عليه السلام هو داعية التوحيد الأول ، وهو محطم الأصنام ، وهو المجادل عن ذلك حتى رمي في النار ، ولهذا تكررت منه هذه الحال في غير موضع ، والحال الثانية (وما أنا من المشركين) ، وهي مؤكدة للأولى ، لكن فيها تصريح بالانسلاخ من جنسهم حتى لو كانوا قومه ، ولا عجب في هذا فهو الذي عادى والده لكونه على الشرك ، فهو ليس منه مادام كذلك ، وقد وعظه ونصحه، وصبر عليه وعلى قومه كما قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾ [٥٢ الأنبياء] وكما قال جل ذكره: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [٤٢ مريم] الآيات.

ولقد كانت قضية الشرك وهدمه، والميل عنه إلى التوحيد من أظهر القضايا التي تذكر مع نبي الله إبراهيم عليه السلام؛ لهذا تكررت هذه الحال، بلفظها سواء منه مباشرة، أو من

---

[1] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢/ ١٧٩،١٨٠.

ملته مضافة إليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٣٥البقرة]،وقوله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [٩٥ آل عمران] .

ومن الأحوال الواردة في الآية غير ما ذكر قوله تعالى : (وقد هدان) ، وهي تكشف فضل الله سبحانه على نبيه إبراهيم عليه السلام ؛ كيف هداه للحق في خضم ذلك المجتمع المشرك، وثبته في تلك المواقف العصيبة: المناظرات، والنار، وكيف سدده وهو يبحث عن الحق في النظر في ملكوت الله، وقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [٧٥ -٧٨ الأنعام].

ولعل هذه الآيات ظاهرة الدلالة على مناسبة الأحوال المذكورة مع إبراهيم عليه السلام، فهو باحث عن الحقيقة وهو داعية التوحيد ، وهو المهدي من ربه ، وهو المتبرئ من الكفار وأعمالهم.

ج - موسى عليه الصلاة والسلام.

ويأتي في المرتبة الثانية بعد نبينا صلى الله عليه وسلم من حيث كثرة الأحوال الورادة منه المبينة لشأنه،وإذا كانت قضية التوحيد هي أبرز قضايا نبي الله إبراهيم عليه السلام مع قومه،فإن أبرز ما يخص موسى عليه السلام هو إنباء الله له،واصطفائه بكلامه،وصراعه مع فرعون ومجاهدته لقومه،ولقد صورت الحال مشاهد حية من تلك القصة،ومن ذلك خوفه عند رؤية معجزة العصا كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾[١٠النمل][1]،ومن ذلك بيان فضل الله عليه بكلامه ومناجاته كما في قوله

[1] في الآية أربعة أحوال :(تهتز، كأنها جان، مدبراً، و لم يعقب) انظر التبيان ١٠٠٥/٢، والفريد في إعراب القرآن المجيد ٦٧٤/٣.

تعالى:﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾ [٥٢ مريم][1]،ومن هذا بيان أثر هيبة الله عليه كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [١٤٣الأعراف][2]، ومن ذلك بيان هيئة دخوله المدينة وخروجه منها كما في قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [١٥القصص][3]وقوله تعالى:﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [٢١ القصص] [4].

وصورت الحال مشاهد أخرى لموسى عليه السلام بعد الرسالة مع قومه:منها رجوعه إليهم غاضباً لما أخلفوا الوعد كما في قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [١٥٠ الأعراف][5] وقد سبق الحديث في كثير من هذه الشواهد في مواطن البحث وبينا وجه الدلالة ومناسبة الصيغة ، وعلى العموم نجد أن هذه القضايا هي أبرز ما في حياة موسى عليه السلام، وخاصة فيما قبل الرسالة ، فالأحوال أبرزت فيها الجانب الجبلي، والفضل الإلهي، وموقفه مع قومه، وجاءت الحال متنوعة بين الفعل والاسم والجار والمجرور،وبين الإفراد والتعدد ؛ كل ذلك لأن المواقف مختلفة متباينة يناسبها هذا التباين.

د- عيسى عليه الصلاة والسلام .

لعل أظهر ما يذكر مع عيسى عليه السلام ما أنعم الله عليه بخوارق العادات ، فهو مولود بغير أب ، وهو يكلم الناس في المهد ، وهو أيضاً مكرم من ربه مرفوع الشأن عنده ، كل ذلك يتضح في الأحوال الآتية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [٤٥، ٤٦ آل عمران]،فهذه الأحوال (وجيهاً ، ومن المقربين، ويكلم الناس، في المهد، وكهلاً، ومن الصالحين)[6] كلها دالة على المدح والثناء ،

---

[1] الحال فيها (نجياً)، انظر التبيان ٢/٨٧٦.

[2] الحال فيها(صعقاً)، انظر التبيان ١/٥٩٤.

[3] الحال فيها(على حين غفلة)، انظر التبيان ٢/١٠١٨.

[4] الحال فيها(خائفاً ، يترقب) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣/٧١٠.

[5] الحال فيها(غضبان ، أسفاً، يجره إليه)، انظر التبيان ١/٥٩٥، والفريد في إعراب القرآن المجيد ٣/٧١٠.

[6] انظر التبيان ١/٢٦١،٢٦٠.

ولعل هذا يتناسب تماماً مع ما عرض له هو وأمه من التشكيك فيه، ووصم أمه بالعار كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [٢٧-٢٨ مريم]، فكانت هذه المدحة بهذه الأحوال التي تتضمن خوارق العادات تتناسب مع الهيئة التي ولد عليها ، وما صاحب ذلك من أحداث وقد بينا سابقاً وجه التناسب في تنوع هذه الأحوال من حيث الإفراد والجملة وشبه الجملة[1].

وتظهر الأحوال أيضاً في حديثه عن نفسه ودعائه لها كما في قوله تعالى :﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [٣٣ مريم]، فهذه إشارات إلى الأزمنة التي لها شأن في حياته، وهو يشترك مع يحى في ذلك، فكلاهما في ولادته غرابة، وإن كانت في جانب عيسى أظهر وأعظم؛ لهذا اشتركا في هذا الثناء المشعر بأن لهذه الأوقات عندهما شأناً،وقد شاركت الحال(حياً)[2]في بيان شأن بعض هذه الأوقات، بل إنها لتدل على اهتمام زائد بيوم البعث، وإثبات لوجوده،وضرورة الإيمان به.

وتأتي الحال أيضاً منه مبينة لبعض شأنه بعد النبوة من التصديق بما سبق ، والتبشير بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [٦ الصف]، فهذه الأحوال (مصدقاً، مبشراً)[3] تدل على توحدهم عليهم السلام في دعوتهم إلى الله، فعيسى عليه السلام مصدق لما قبله من الرسل، ومبشر بمحمد صلى الله عليه وسلم بعده.

بقية الرسل من غير أولي العزم .

بتتبع الأحوال منهم نجد أنها قليلة بل نادرة ، وذلك لقصر قصصهم في القرآن، وسأشير هنا إلى بعض أحوالهم ، خاصة فيما له ظهور في قضية بارزة، ومن ذلك ما يتعلق بزكريا وابنه يحي عليهما الصلاة والسلام في أظهر قضية لزكريا وهي طلب الولد، فهو يقول في دعائه: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [٨٩ الأنبياء]، فتأتي

---

(١) انظر ص ١٧٨ من هذا البحث.
(٢) انظر إعراب القرآن وبيانه للدرويش ٨٩/٦.
(٣) انظر التبيان ١٢٢٠/٢.

(فرداً)حالاً[1] مختصرة كل ألوان المعاناة التي هو فيها، ثم تأتيه البشارة فتصورها الحال أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [٣٩ آل عمران]، فقوله جل ذكره: (وهو قائم، يصلي) حالان[2] متداخلان مبينان شأنه في العبادة، وتكريم الله له بالبشرى وهو على هذه الحال، وبينت الحال أيضاً حاله بعد البشرى كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [٤٠ آل عمران] فجاءت الحال الأولى بالماضي(وقد بلغني الكبر) ، والثانية بالجملة الاسمية(وامرأتي عاقر)[3] لمناسبات سبق ذكرها وبيانها[4].

وأظهرت الحال شأن ابنه يحي في صورة مادحة عظيمة مما له أكبر الأثر في نفس الشيخ الكبير قال تعالى:﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [٣٩ آل عمران] ،فـــ(مصدقاً، وسيداً، وحصوراً ، ونبياً من الصالحين) أحوال [5]متعددة لاستيفاء جوانب المدح والثناء، وكذلك فالمدح ظاهر له في الحـــــــال (صبياً) في قوله تعالى:﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [١٢ مريم]، ومن ذلك أيضاً الدعاء له كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [١٥ مريم].

وهناك أحوال متفرقة قليلة من بقية الرسل مثل ما جاء في شأن يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ...﴾ [١٢ يوسف]، برفع الفعلين (يرتع ويلعب) فالمعنى:راتعاً لاعباً،قال العكبري:"ومن يضمها[أي عين (نرتع)] على أن تكون حالاً مقدرة"[6]،وليس يخفى ما في ذكر هذين الحالين من الإغراء بقبول ذهاب يوسف معهم، فهم قد أظهروا أنسب الأحوال لصبي مثله يهوى اللعب والمرح .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ... ﴾ [١٩ يوسف]، فـــ(بضاعة) حال من ضمير يوسف في أسروه أي:" أخفوه متاعاً للتجارة "[7]،وتشير هذه الحال بهذا اللفظ

---

[1] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣/ ٥٠٠.
[2] انظر التبيان ١/٢٥٧.
[3] الفريد في إعراب القرآن المجيد ١/٥٦٩.
[4] انظر ص٩٢ من هذا البحث.
[5] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ١/٥٦٨.
[6] التبيان ٢ / ٧٢٤.
[7] الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٤٢.

إلى زهدهم فيه وعدم معرفتهم بشأنه ؛ حيث عدوه ضمن متاع التجارة ، وليس يخفى ما فيها من تصوير همهم في جمع المال، إما للحاجة وإما للاستزادة ، حيث لم يخطر ببالهم سوى بيعه.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[١٠١ يوسف]، "أي: اقبض روحي وافياً تاماً في جميع أمري حسًا ومعنى حال كوني (مسلماً)"[١].

ومما جاء في شأن داود عليه السلام من الأحوال (راكعاً) كما في قوله تعالى:﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [٢٤ ص]، وفي شأن سليمان عليه السلام (ضاحكاً)كما في قوله تعالى:﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [١٩ النمل] وفي شأن يونس عليه السلام (مغاضباً)كما في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [٨٧ الأنبياء]، وهذه وما سبقها كلها أحوال تبرز قضايا مهمة في حياة كل رسول كما هو غير خاف على أحد، وهي وإن كانت قليلة إلا أنها مثل ما جاء عن أولى العزم تتعلق _ غالباً _ بأهم القضايا المرتبطة بالرسول المراد بيان حاله .

٢- ما يتعلق بنبينا محمد خاتم المرسلين ﷺ.

كانت الأحوال التي تخصه صلى الله عليه وسلم تفوق كثيراً ما جاء من الأنبياء قبله،وفي بعضها تكرار ظاهر،ويمكن تقسيم تلك الأحوال من حيث الغرض إلى قسمين:

أ- ما كان في بيان الهدف من الرسالة.

وهذا هو الكثير الغالب، بل إننا نستطيع القول بأن بيان الوظيفة من الإرسال والإنباء يكاد يكون محصوراً في الحال، فقد جاءت الحال بكثرة مبينة أهداف الرسالة التي من أبرزها البشارة والنذارة قال تعالى:﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [١١٩ البقرة][٢] ، ومنها الدعوة إلى الله، وهداية القلوب، وإنارة البصائر كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [٤٥، ٤٦ الأحزاب]، ومنها إيصال مراد الله إلى الخلق كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ [٧٩ النساء]، ومنها الشهادة على الأمة،كما قال جل ذكره:﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [٤١

[١] نظم الدرر ١٠ / ٢٢٠.

[٢] انظر في البشارة النذارة أيضاً ١٠٥ الإسراء ، ٥٦ الفرقان ، ٤٥ الأحزاب ، ٢٨ سبأ ، ٢٤ فاطر ، ٨ الفتح.

النساء]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ... ﴾ [١٥ المزمل].

ولعله لا يخفى من هذه الأحوال (بشيراً ونذيراً ، ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله، وسراجاً منيراً، رسولاً شاهداً عليكم)[١] أنها من العظمة والشمول بحيث تتناسب مع منزلة هذا النبي الخاتم صلوات ربي وسلامه عليه ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم مثالاً تطبيقياً حياً لكل هذه الأوصاف، إنها أحوال تحكي حاله تماماً ، بل إنها بترتيبها وطريقة صوغها تصور حياته أدق تصوير، فقد كان صلى الله عليه وسلم إلى البشارة أقرب لذا تقدمت البشارة في وصفه في كل المواضع ؛ ولعظم شأنه عليه الصلاة ، ولأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولأن رسالته ناسخة لجميع الرسالات كانت هذه الأوصاف المبينة لوظيفة الرسول محصورة فيه فلا نجد شيئاً من ذلك عند غيره إلا عند عيسى في التبشير به صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [٦ الصف]، أو فيما كان عاماً لجميع المرسلين كما في قوله تعالى:﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [٢١٣ البقرة] ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [١٦٥ النساء][٢] ، وقد أظهرت الحال عمومية دعوته، وأنها للناس جميعاً كما تدل عليه(كافة) في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [٢٨ سبأ].

ب- ماكان في بيان صفاته وأخلاقه وعبادته.

من ذلك إظهار شفقته عليه الصلاة والسلام على أمته وتحسره على ضلال من ضل منهم قال تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [٨ فاطر]، فـــ(حسرات) حال[٣] مصورة أتم تصوير لشدة شفقته وصدقه في دعوته عليه الصلاة والسلام ، إنها ليست حسرة واحدة بل حسرات ؛ لأنه الرحيم بهم الشفيق عليهم ، وكأنه بذلك يقطع نفسه لتذهب في صورة حسرات وزفرات عليهم، وفي الجمع أيضاً مدلول التكرير والإعادة ، يقول المنتجب الهمذاني: "أي:متحسِّرات،كأنه قيل:متحسِّرة ثم تكررت منها الحسرة فجمعه، أو جعلت كأنها كلها حسرات لفرط التحسير"[٤].

---

[١] انظر فيها التبيان ١/٣٧٥، ١١٠، ٣٥٩، والفريد في إعراب القرآن المجيد ٤/٤٥.

[٢] انظر غير ذلك ٤٨ الأنعام ، ٥٦ الكهف.

[٣] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤/٨٤.

[٤] الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤/٨٤.

ومن ذلك إظهار صدقه في عبادته لربه وإخلاصه فيها قال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [٢ الزمر]، وقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [١١ الزمر]،وقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ [١٤ الزمر].

فهذه الحال (مخلصاً)في هذه الشواهد تقرر إفراده الله بالعبادة وإخلاصه الدين له جل جلاله في صورة أمر من الله، ثم في صورة استجابة كاملة لذلك،ولا عجب فهو داعية التوحيد،وهو الماضي على سنن أبيه إبراهيم عليه السلام في تحطيم الأصنام، والدعوة إلى إفراد الله بالعبادة؛ لذا نجد توافقاً في الاهتمام بهذه القضية بينهما عليهما الصلاة والسلام،لما بين المجتمعين من تشابه في تقديس الأصنام وإشراكها مع الخالق، وإن كانت في عهد إبراهيم أعظم شأناً ؛ لأنها هي الآلهة عندهم،أما عند قريش فهي زلفى يتقربون بها إلى الله،لكن حجج القوم واحدة في تعليل عبادتها،فقوم إبراهيم يقولون:﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [٥٣ الأنبياء]، وقريش تقول:﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [٢٢ الزخرف].

وأظهرت الحال أيضاً بعض شؤونه عليه الصلاة والسلام مع قومه وأصحابه، ومن ذلك خروجه من مكة،كما قال تعالى:﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ [٤٠ التوبة]، فـــ(ثاني اثنين) "حال من ضمير النصب في (أخرجه) ... [و] المقصود تعظيم هذا النصر مع قلة العدد" [(١)] ، فهذه الحال تنقل صورة من صور جهاده وصبره ونصرة الله له كما يوحي به قوله تعالى : (لا تحزن إن الله معنا).

ومما تصوره الحال من شؤونه عليه الصلاة والسلام اهتمامه بالجهاد ، وكيف كـــان يعد الجيوش ويقف عليها ، كما يظهر مـــن قـــول تعـــالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [١٢١ آل عمران]، فالجملة الحالية (تبوئ)[(٢)] تظهر ما كـــان عليـــه صلى الله عليه وسلم من الشجاعة والجلد والصبر وحب الجهاد،كما تبين حنكته في القيادة الحربية ، فهو يخرج من بيته ويدعه، لِيُنزِلَ المقاتلين في مواقعهم القتالية حتى يكونوا متهيئين لقتال العدو، وذلك في غزوة أحد،وكان خروجه من حجرة عائشة رضي الله عنها [(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير ١٠ / ٢٠٢.

(٢) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ١ / ٦٢٤.

(٣) انظر الكشاف ١ / ٤٠٨، والنظم القرآني في آيات الجهاد ٩٣.

المبحث الثالث : ما يخص المؤمنين.

الأحوال من المؤمنين عموماً في جميع الأمم كثيرة جداً ، وهذا ما يجعل النظر فيها وتبويبها صعباً ، وتحليلها طويلاً ؛ لذا رأيت أن أركز الحديث فيما يخص المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لكثرة الأحوال منهم ، وربما نشير أحياناً إلى بعض أحوال أهل الكتاب، وقد رأيت دراسة تلك الأحوال من المؤمنين من خلال ما يأتي :

١- ما كان في سياق التوجيه والإرشاد (التشريع).

ويندرج تحت هذا كل ما جاء في سياق النهي والأمر، وقد كثرت التوجيهات الإلهية لعباد الله المؤمنين لتقويم سلوكهم ، وبيان كيفية عبادتهم لربهم ، ونهيهم وزجرهم عما لا ينبغي لهم فعله، فأما ما ورد في سياق الأمر من تلك الأحوال فمنه ما يأتي :

الأمر بإخلاص الدين لله وخاصة الدعاء الذي كان يصرف للأصنام_ كما في قوله تعالى:﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [٢٩ الأعراف]، وجاءت هذه الحال (مخلصين)من الكافرين لكن في موطن الخوف والشدة كما في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [٦٥ العنكبوت]، أما المؤمنون فهو أمر لهم بذلك حتى يستمروا ويثبتوا عليه حال الرخاء والشدة.

ومن ذلك الأمر بعبادته سبحانه في كل وقت وحين وعلى أي حال، كما ترشد إليه الأحوال (قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) في قوله سبحانه:﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [١٠٣ النساء].

وتوضح الحال المنهج الوسط للمؤمنين بين التفريط والإفراط في الخوف والرجاء كما في الحالين (خوفاً وطمعاً) في قوله تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٥٦ الأعراف].

ولا ينُكر ما في الحال (ولا مستأنسين)[1]من تقويم الخلق في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾[٥٣ الأحزاب].

---

[1] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤٩/٤ .

وليس يخفى ما في الجهاد من المشقة والنصب فتأتي الحال مظهرة وجوب النفور لداعي الجهاد على أية حال كان الإنسان، حتى تنقطع كل معوقات الأرض، لما في الجهاد من الفضل والرفعة، قال تعالى: ﴿ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ [٧١ النساء]، فهذان حالان للخروج إلى الجهاد(ثبات وجميعاً) يمكن للمؤمنين أن يأخذوا بإحداهما؛ لذا فصلت الحال عن الحال وتكرر العامل، بينما جمع الحالان(خفافاً وثقالاً) في قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [٤١ التوبة]؛ لأن المقصود الشمول والإحاطة وضرورة النفور على أيٍ من هاتين الحالين، ولن يخرج عنهما أحد في الغالب، وأوضحت الحالُ الصفةَ التي يكون عليها إعداد الجيش المسلم، كما يظهر ذلك من الحال(ترهبون) في قوله سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ ﴾ [٦٠ الأنفال].

أما في جانب النهي فقد كثر التوجيه بترك المنهي عنه، ومن ذلك الإفساد في الأرض كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [٦٠ البقرة]، ونقض العهود والمواثيق كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [٩١ النحل]، فقد كانت الحال: (وقد جعلتم)[1] بهذا التركيب، بدخول (قد) المؤكدة على الماضي مشعرة بفداحة خطأ مَنْ وقع في هذا الأمر، والمؤمنون دائماً يُذكَّرون بالله فيخافون ويعودون.

وتشارك الحال في توجيه المؤمنين في قضية المال، وخاصة أموال الضعفاء والنهي عن التسلط عليها وأخذها دون حق، وكم أظهرت الحال من مكنون الأسرار والنفوس - كما علمنا من قبل-[2] ومن ذلك (إلى أموالكم، وبداراً) في قوله تعالى في النهي عن أكل مال اليتيم: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [٢ النساء]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ [٦ النساء]، وكذا الحال(كرهاً) مع النساء في قوله تعالى: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ ﴾ [١٩ النساء].

وفي مجال إنفاق المال تسهم الحال في بيان الوجهة التي يكون عليها مرضياً، ومن ذلك (تنفقون) في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [٢٦٧ البقرة].

---

[1] انظر التبيان ٢/٨٠٥.

[2] انظر ص ٣٦١ من هذا البحث.

وفي مجال التربية على مكارم الأخلاق نجد التوجيه الإلهي في قوله تعالى:﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [٣٧ الإسراء]، الذي يرشد المؤمنين إلى ما ينبغي لهم من التحلي بأحسن الأخلاق، والتخلي عن سيئها، وقد كانت الحال (مرحاً) هي مَقْصد النهي هنا، وهي تحمل من الدعوة للتواضع وخفض الجناح ولين الجانب ما ليس يخفى.

وهناك جوانب أخرى شملتها الحال غير ما ورد في سياق النهي والأمر منها:بيان الأحوال التي يحل فيها أكل المضطر للمحرَّم،كما هو شأن(غير)في قوله تعالى:﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [١٧٣ البقرة]، ومما هو من قبيل الإباحة والندب إلى الأفضل ما دلت عليه الحال(غير،وبزينة) في قوله تعالى:﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [٦٠ النور] ، وفي مجال الأكل وآدابه نجد الحال(جميعاً أو أشتاتاً) في قوله تعالى:﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [٦١ النور] قد بينت الأوجه التي يصح عليها الأكل.

هذه بعض جوانب التوجيه والإرشاد، فيما يتعلق بالمؤمنين ، وقد جاءت فيها الحال متنوعة بتنوع المقام والصاحب فمرة تأتي متعددة ؛ لأن للصاحب أحوالاً كثيرة لابد من استيعاها مثل (انفروا خفافاً وثقالاً)، وأحياناً تأتي مفردة في صورة (مصدر) للدلالة على المبالغة مثل(كرهاً)، وأحياناً تكون جملة فعلية مضارعية مثل (تنفقون) لاستحضار الصورة المنهي عنها ليكون أزجر في الابتعاد عنها، وهكذا نجد أن الحال شملت جوانب مهمة من حياة المؤمنين فيما يخص التشريع والتوجيه : في العقائد ، والعبادات ، والعادات.

٢- ما كان في سياق التكريم للمؤمنين والمنة عليهم .

لا عجب أن نجد الأحوال تبين الهيئات التي كرم الله بها عباده المؤمنين ، ويظهر ذلك جلياً فيما أعده لهم في دار الكرامة عنده.

ومن هذا تصوير حشرهم إلى ربهم كمثل الملوك كما يظهر في قوله جل ذكره: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [٨٥ مريم]، فالصاحب هنا جاء بعنوان التقوى، لأنها هي مقياس التكريم ، وجاءت الحال(وفداً)[1] متناسبة مع ذلك، والوفود يكرمون ويقدمون.

---

[1] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤١٧/٣.

ومن هذا أيضاً المنة عليهم بدخول الجنة،ولعلها لا تخفى مناسبة الحالين (بسلام)، (آمنين)[1] في قوله تعالى:﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [٤٦ الحجر]، فقد جاءت الحال الأولى (بسلام) ومعها (الباء) للتدليل على مصاحبة السلام لهم وقت الدخول كما هو الفعل مع المكرمين دوماً ، و(آمنين) بالاسم للتدليل على دوام أمنهم فيها ، وتلك غاية المناسبة.

وقد كثرت الأحوال في تصوير جلوسهم وراحتهم في الجنات وخاصة اتكاؤهم كما في قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [٣١ الكهف]، وقد تكرر هذا اللفظ (متكئين) ، للتدليل على دوامهم في هذا النعيم واستمرارهم في تلك الراحة،وقد تنوع ذلك الاتكاء ، فمرة على الأرائك، ومرة على السرر كما في قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ [٢٠ الطور]، ومرة على فرش من استبرق كما في قوله تعالى:﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ [٥٤ الرحمن] ومرة على رفرف خضر كما في قوله تعـــالى : ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ [٧٦ الرحمن] ، وكل هذا التنوع هو بحسب وصف الصاحب ، فمرة (الذين آمنوا)، ومرة (من خاف مقام ربه)، ومرة (الأبرار) وهكذا فهي منازل ، كلٌّ فيها بحسب ما يمن الله عليه به.

ومن مظاهر التكريم ، بيان هيئة لباسهم وطعامهم كما في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [٥١ - ٥٦ الدخان].

هذه بعض الأحوال المصورة لتكريم الله للمتقين:(يلبسون من سندس) (متقابلين) (يدعون فيها بكل فاكهة) (لا يذوقون فيها الموت)[2]،وجاء وصف الصاحب هنا بعنون التقوى لأنها_كما قلنا _ هي مقياس التكريم كما قال سبحانه:﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [١٣ الحجرات]، وليس يخفى كيف تناسقت هذه الأحوال في صياغتها ومدلولها

---

[1] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢٠١/٣.

[2] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢٧٧/٤،٢٧٦.

مع صاحب الحال، فهي كلها بالفعل المضارع إلا واحدة، فاللبس، والدعوة بالفاكهة ، كلها متجددة ، وتجددها يبرز التكريم، بينما التقابل جاء بالاسم (متقابلين): لأنه لا يصلح أن يقابل الإنسانُ الإنسانَ ثم يصرف عنه وجهه ثم يقابله أخرى ، بل الممدوح هو استمرارية المقابلة ودوامها، ثم لا يخفى ما في هذه الأحوال من النعيم المناسب للتقوى ، من اللباس والطعام، والأنس بالأصحاب فقد كانوا من قبل يتقون اللباس المحرم ، ولا يأكلون السحت ، ولا يجلسون مجالس الغيبة والنميمة ، فعوضهم الله خيراً مما تركوا ، وأعطاهم مابه تقر أعينهم،كما قال سبحانه عنهم ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [٣٦ النبأ].

ومما كثر ذكره على سبيل الحالية خلودهم في الجنة(خالدين فيها)كما يظهر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [٥٧ النساء].

ومع خلودهم في الجنة فهم يتخيرون ما يشاءون كما يظهر ذلك في الحال (نتبوأ) في قوله تعالى:﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [٧٣ - ٧٤ الزمر].

وقد ظهر لي أن مظاهر التكريم العظيمة جاءت مع صاحب الحال الموصوف بصفة التقوى غالباً، أو الإيمان والعمل الصالح، أو البر، وإن كانت التقوى أظهر وصف للصاحب هنا، ولا عجب فعلاقة التكريم بالتقوى معروفة فهي أساسها في الدنيا ، وبها يكون التكريم يوم القيامة.

٣ـ ما جاء في سياق الثناء على المؤمنين ومدحهم .

لعل أظهر ما يبرز في الأحوال المصورة لهذا الجانب مدحهم بالعبادة بعمومها ، وليس هذا بمستغرب؛ لأنهم ما خلقوا إلا لهذا كما قال سبحانه:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٥٦ الذاريات]،فأثنى الله عليهم بذلك لما انصاعوا لأمره، واستجابوا لندائه، فمما مدحوا به من ذلك الصلاة، والسجود لله خشية وتعظيماً، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [١٠٧- ١٠٩ الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ... إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [٥٨ مريم] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ [٦٤ الفرقان]،وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [١٥ السجدة]، وقوله سبحانه: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [٢٩ الفتح].

وكما هو ظاهر فقد جاءت هذه الأحوال من المؤمنين منصوصاً فيها على بعض هيئات الصلاة وخاصة الركوع والسجود والقيام (ركعاً ، سجداً ، قياماً)؛ لأنها من أظهر هيئاتها وأكثرها دلالة على الخضوع ، وهي تناسب الخضوع الحقيقي المستقر في قلوب المؤمنين لربهم جل ذكره ، وصيغة (سُجَّدا) كثيرة في مدحهم ولم تأت في القرآن إلا (حالاً) ، وكذلك (ساجدين) (وساجداً)[١].

ومما يصور استغراقهم أوقاتهم وأحوالهم في عبادة ربهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [١٩٠ ، ١٩١ آل عمران] ، فقد أُشير هنا إلى وصف المؤمنين باللب والعقل، وأنهم في ذكر دائم ، وقد أشرنا من قبل إلى سر هذه الأحوال وترتيبها[٢] ، ولعله لا يخفى ما بين وصفهم باللب وبين الأحوال المذكورة من التناسب، فكأن ذلك يشير إلى أن العقل السليم يقود صاحبه إلى الله، ويوجب له معرفة عظيمة بربه فلا يفتر بحال عن ذكره ، بل هو دائم على ذلك حال القيام والقعود والاضطجاع، ومما يدعم هذه المعرفة ويقويها (التفكر في خلق الله)، ثم تأتي الحال المحذوفة:(يقولون ربنا ...)، ليظهر فيها مدى تلك المعرفة في قلوبهم، حتى كأنهم بمجرد أن ينظروا في ملكوت السموات والأرض تبرز هذه الكلمة على أفواههم تعظيماً لربهم جل شأنه ، بل إن قلوبهم تنطق بها قبل ألسنتهم لذا حذف القول، تدليلاً على سرعة استجابة القلوب لذلك التفكير،

---

(١) انظر مثلاً زيادة على ماذكر : ٤ يونس ، ٢٩ الحجر ، ٤٦ الشعراء ، ٧٢ ص ، ٩ الزمر ، ٥٨ البقرة ، ١٥٤ النساء.

(٢) انظر ص ٢٦٧من هذا البحث.

وسرعة ترجمة الألسنة لتلك الاستجابة.

ومما مدحوا به أيضاً الإنفاق في كل الأحوال كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٢٧٤ البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [٢٢ الرعد]، وقد سبق توجيه تقديم السر على العلانية في هذا المقام ومناسبة ذلك[1]، وليس بغريب أن تكون هذه أحوال المؤمنين في علاقتهم بالمال،وأنهم يستغرقون الأوقات كلها في إنفاقه، (بالليل والنهار سراً وعلانية)، لأنهم يفعلون ذلك استجابة لأمر الله لهم: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [٣١ إبراهيم]، ومع هذا السخاء في الإنفاق فهم لا يمدون أيديهم ولا يسألون غيرهم كما تصوره الحال (إلحافاً) في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [٢٧٣ البقرة].

هذا بعض شأنهم في العبادات الجسدية والمالية ، وأما شأنهم في العبادات القلبية فهو التوازن الممدوح فلا إفراط ولا تفريط ، فهم يخافون ربهم ويخشونه ، وهم يطمعون في رحمته ويحبونه، وينعكس ذلك على أعمالهم ويظهر في تصرفاتهم كما تبينه الحالان (خوفاً و طمعاً) في قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [١٦ السجدة]، وخشية الله والخوف منه من أعظم ما يدل على صدق الإيمان ؛ لذا قال تعالى في بعض أهل الكتاب المؤمنين: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [١٩٩ آل عمران] ، فجاءت الحال (خاشعين) في معرض مدحهم والثناء عليهم .

ولعله تبين الآن كيف أظهرت الحال أبرز سمات مدح المؤمنين في جانب العبادة؛ وذلك لأن العبادة هي كل تصرفات المسلم وأقواله وأفعاله واعتقاداته، ومما هو غير خاف شيوع تعدد الحال في هذا الجانب ولعل هذا يتناسب مع كثرة أعمال الخير فيهم، وتنوع أحوالهم فيها، واستغراقهم أعمارهم في ذلك[2].

---

[1] انظر ص ٢٦٩من هذا البحث

[2] وانظر للاستزادة من الشواهد ٢ البقرة ، ٢٧ الحج ، ٧٣ الفرقان ، ٣١ الروم ، ١٨ فاطر ، ٣٣ ق ، ٤ الصف.

المبحث الرابع :ما يخص الملائكة.

الأحوال من الملائكة ليست كثيرة ؛ لذا يمكن حصرها والحديث عنها بوضوح ، وقد اتضح لي بعد الجمع أنها لا تخرج في مجملها عن بيان صفاتهم وعباداتهم، ووظائفهم وأعمالهم وأكثرها ثناء من الله عليهم ، ويوجد قليل منها في سياق قول المشركين بأنثوية الملائكة، وعلى هذا فسيكون الحديث عنهم من خلال ما يأتي :

١- ما كان في بيان صفاتهم وعباداتهم .

وغالب ما يذكر هنا هو على سبيل مدحهم والثناء عليهم ، ويبرز هنا التعدد لاستكمال حقائق مدحهم ، وإظهار ميزهم في خلوصهم للعبادة والطاعة ، ومن شواهد ذلك قوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [٤٩ ، ٥٠ النحل] ، فهذه أحوال ثلاثة : (وهم لا يستكبرون) و(يخافون رهم) و (يفعلون ما يؤمرون) ، جاءت من الملائكة على سبيل التتابع ثم التداخل[1].

وقد أظهرت هذه الأحوال ثلاثة من صفات الملائكة، وهي عدم الاستكبار عن عبادة الله ، في حين أن بعض البشر يفعلون ذلك، وفي حين أن الشيطان لما أمره ربه ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٣٤ البقرة]، والصفة الثانية: خوف الله وخشيته ، وجاءت الحال (من فوقهم) من (ربهم) إظهاراً لعظيم خوفهم ، لما فيه من معنى القدرة والغلبة فهو سبحانه القاهر فوق عباده ، بائن من خلقه مستو على عرشه على الوجه اللائق به،والصفة الثالثة: الانصياع الكامل لأمر الله في حين أن أكثر الناس لا يؤمنون.

وليس يخفى ما في كون هذه الأحوال (فعلاً مضارعاً) من دلالة الاستمرار التجددي الذي يناسب تماماً أحوال الملائكة الدائمين في عبادة ربهم المجددين له التسبيح والحمد والتكبير،وليس يخفى أيضاً كيف جاءت الصفة الأولى بالنفي : (لا يستكبرون) لما فيها من بيان مزيد اختصاصهم بهذا في مقابل استكبار الشيطان يوم أمر بالسجود معهم فسجدوا

---

[1] انظر روح المعاني المجلد الثامن الجزء السادس عشر ١٥٨.

واستكبر هو ، وفي تسليط النفي على المضارع دليل على أن المراد استمرار النفي ليتوافق ذلك مع ثبات أحوالهم، فهي حال غير منتقلة[1].

ونجد مزيداً من أحوالهم المختصة بهم في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [١٩، ٢٠الأنبياء] ، فقوله جل ذكره:(لا يستكبرون...) تحتمل الحالية والخبرية، (يسبحون...)و(لا يفترون) أحوال متداخلة[2]،ومما زاد في هذه الأحوال هنا عما قبله التسبيح الدائم والنص على ظرف هذا التسبيح (الليل والنهار)، إشعاراً باستغراقهم الأوقات كاملة في تسبيح الله وتنزيهه، وجاءت:(لا يفترون) حالاً من فاعل (يسبحون)؛لما قد يُتوهم من الملل والفتور من طول التسبيح، فهي حال مؤكدة لذلك،ورافعة لتوهم ما قد يرد على الذهن من كلل أو سأم كما هو شأن البشر.

وهذه الأحوال أيضاً ظاهرة الارتباط بالملائكة فهي لا تصلح إلا لهم ، فما نفي عنهم من الاستكبار والاستحسار ، والفتور موجود في غيرهم ، وهو نفي متجدد كما ينبئ عنه دخول النفي على المضارع ، وليس يخفى ما في قوله:(ولا يستحسرون) من المدح لهم والثناء عليهم، بل وتصوير حالهم أكمل تصوير؛ فإن الاستحسار هو التعب، وهو من حسر البعير واستحسر حسوراً واستحساراً إذا كل وتعب، وما في النظم الكريم أنسب للمقام حيث لم يكن (ولا يحسرون)، يقول الألوسي:"والظاهر أن الاستحسار ــ حيث لا طلب كما هنا ــ أبلغ من الحسور ، فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، والمراد من الاتحاد بينهما الدال عليه كلامهم الاتحاد في أصل المعنى ، والتعبير به للتنبيه على أن عبادتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يُستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون"[3].

وجاءت الحال أيضاً بنفي السأم عنهم في العبادة كما في قوله تعالى:﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [٣٨ فصلت] ، فالضمير في (استكبروا) يعم جميع المشركين[4]، وعلى هذا فوصف الملائكة بما وصفوا به هو في مقابل

---

[1] انظر روح المعاني المجلد الثامن الجزء السادس عشر ١٥٨.

[2] انظر كل ذلك في التبيان ٢ / ٩١٤.

[3] روح المعاني المجلد التاسع الجزء السابع عشر ٢١.

[4] انظر التحرير والتنوير ٢٤ / ٣٠١.

استكبار المشركين عن عبادة الله، فمدحهم الله وأثنى عليهم بالاستمرار في التسبيح المقتضي تتريهه سبحانه،يقول ابن عاشور : " وجملة : (وهم لا يسأمون) في موضع الحال ، وهو أوقع من محمل العطف ؛ لأن الإخبار عنهم مقيداً بهذه الحال أشد في إظهار عجيب حالهم ؛ إذ شأن العمل الدائم أن يَسأم منه عامله"[١]، ويقول أيضاً: "وذكر الليل والنهار هنا لقصد استيعاب الزمن أي:يسبحونه الزمان كله" [٢].

وجاء في آية الأنبياء ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ وهنا ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ فما سر ذلك؟.

السر أن الفتور يعني الضعف ، والسآمة تعني الملل،فهم لا يضعفون ولا يملون، وهذان الحالان هما ما يعتري الإنسان عند طول العبادة فنُفي ذلكم عنهم ، ولعل سبب تخصيص آية فصلت بنفي السآمة عنهم،أن ذلك هو مقتضى مكملات مدحهم في مقابل استكبار المشركين عن ذلك،ففي ذلك إظهار أن استكبارهم هذا لا قيمة له لغناه سبحانه عنهم؛ولأن بعض عباده من الملائكة هذه صفتهم ، يقول أبو حيان : " فإن الملائكة الذين هم عند الله بالمكانة والرتبة الشريفة يترهونه عما لا يليق بكبريائه، (وهم لا يسأمون) أي: لايملون ذلك وهم خير منكم مع أنه تعالى غني عن عبادتكم وعبادتهم "[٣].

وهناك أوصاف أخرى جاءت في سياقات خاصة منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [١ فاطر]، فقوله جل ذكره:(رسلاً) حال من الملائكة إن كانت (جعل) بمعنى خلق[٤]، و(أولى) أجنحة إما حال من الملائكة أو من (رسل)[٥]، والحال الأولى تُظهر بعض مهماتهم وهي الإرسال، يقول ابن عاشور: "وأجري عليهم صفة أنهم رسل لمناسبة المقصود من إثبات الرسالة، أي:جاعلهم رسلاً منه إلى المرسلين من البشر للوحي بما يراد تبليغهم إياه للناس"[٦].

---

[١] التحرير والتنوير ٢٤ / ٣٠١.

[٢] التحرير والتنوير ٢٤ / ٣٠١.

[٣] البحر المحيط ٩ / ٣٠٨.

[٤] انظر التبيان ٢ / ١٠٧٢.

[٥] انظر التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٤٨.

[٦] التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٤٩.

والحال الثانية موضحة لبعض أوصافهم الخَلْقية فهم أولوا أجنحة، وقد جاء في صحيح السنة بيان بعض تلك الأوصاف لبعض الملائكة ، من ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله قال: " رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته له ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه التهاويل [الأشياء المختلفة الألوان] من الدر والياقيت"[١].

ومن أحوالهم أنهم يتشكلون بأشكال البشر كما يظهر في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [١٧ مريم] ، قال العكبري : " (بشراً سوياً) حال"[٢] ، وهي تبين أن الملائكة يتمثلون بأشكال البشر، وهذا ثابت في السنة فقد كان جبريل يأتي على صورة دحية الكلبي رضي الله عنه[٣]، وفائدة وصف الحال بـ (سوياً) لبيان أنه لم يفقد من نعوت الآدمية شيئاً؛ لأنه ربما يتوهم أن الملك عندما يتمثل إنساناً سيكون على صورة غير مرضية فجاء الوصف لهذا الغرض؛ مع أن الأصل أن الملائكة لا يتمثلون إلا على صورة حسنة، ذكر الألوسي أنه ربما "كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق ؛ لأن عادة الملك إذا تمثل أن يتمثل بصورة بشر جميل ..."[٤].

وقد أنكر القرآن على الكفار قولهم بأنثوية الملائكة كما في قوله تعالى:﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ [١٤٩، ١٥٠الصافات] ، فقوله جل ذكره: (إناثاً) "حال منصوب من الملائكة"[٥]، وهذه الحال في سياق الإنكار تدل على نفي هذه الصفة عنهم ، فهم ليسوا على ما وصف المشركون ولكنهم عباد مكرمون، خلقهم الله من نور[٦] لعبادته وتسبيحه.

---

[١] مسند الإمام أحمد ٣٩٥/١، قال عنه ابن كثير: إسناه جيد، انظر البداية والنهاية ١ / ٣٩.

[٢] التبيان ٢ / ٨٦٨.

[٣] انظر مسند الإمام أحمد ٧٤/١.

[٤] روح المعاني المجلد الثامن الجزء السادس عشر ٧٥ ،ولكن قد يتخلف ذلك الأصل لسبب من الأسباب التي تتعلق أحياناً بمهمة الملك ، كما في حديث الأبرص والأعمى والأقرع وهم ملائكة.

[٥] الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ١٣ / ٨٩.

[٦] قال صلى الله عليه وسلم:((خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار ،وخلق آدم مما وصف لكم))، صحيح مسلم (بشرح النووي) كتاب الزهد والرقائق، باب أحاديث متفرقة ح(٢٩٩٦)،١٨١٤/٤.

٢- ما كان في بيان وظائفهم وأعمالهم .

وظائف الملائكة كثيرة جاء بعضها في القرآن وبعضها في السنة ، ومما جاء ت الحال به من ذلك ما يأتي :

أ- الرسالة والتصديق .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [١فاطر]، وقد سبق بيان ذلك قريباً،وهو يدل على أن الله يرسلهم سواء أ كان ذلك إلى الأنبياء والمرسلين للتبليغ أم إلى بعض خلقه للعون والمؤازرة .

ويفهم من بعض الآيات أنه لو كان في الأرض ملائكة مستقرون لأرسل الله رسولاً منهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [٩٥ الإسراء]،وقد انتصب(ملكاً) على الحالية من (رسولاً) والرسول هنا من الملائكة، والمعنى: "لنزلنا عليهم رسولاً حال كونه ملكاً لا بشراً"[١].

وأما التصديق فكما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٩٧ البقرة]، فعلى القول بأن الهاء في (نزله) لجبريل يكون (مصدقاً) حال منه، وما بعده معطوف عليه وهو وجه قيل به[٢]، وإن كان الأظهر كونه حالاً من القرآن.

ب- الحف من حول العرش والاصطفاف في المحشر .

يحف الملائكة يوم القيامة بعرش الرحمن جل جلاله في صورة عظيمة كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ... ﴾ [٧٥ الزمر]، والرؤية هنا بصرية؛ لذا فـ(حافين) حال من الملائكة، وهم في هذه الحال يسبحون حامدين ربهم ، فهي أحوال متداخلة[٣]، وليس يخفى ما في هذه الحال (حافين) وما تولد منها من الدلالة على العظمة والقدرة، وهذا يناسب ما عليه الملائكة من الخلق العظيم والكثرة الهائلة ، والعبادة الدائمة والتسبيح المستمر لرب العالمين، وليس يخفى أيضاً ما في

---

[١] روح المعاني المجلد الثامن الجزء الخامس عشر ١٧٢.
[٢] انظر روح المعاني المجلد الأول الجزء الأول ٣٣٣.
[٣] انظر التحرير والتنوير ٢٤ / ٧٤.

ذكر عنوان الربوبية هنا من تشريفهم والثناء عليهم[1].

وأما اصطفافهم عند فصل القضاء فكما في قوله تعالى:﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ... ﴾ [٣٨ النبأ]،وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [٢٢ الفجر]، وقد أوضحنا فيما سبق دلالة هذه الحال ومناسبتها[2].

ج- حفظ عباد الله المؤمنين.

سخر الله بعض الملائكة لحفظ الإنسان من أمامه ومن وراءه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه ، وأولئك هم المعقبات[3] الذين قال الله فيهم:﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [١١ الرعد]، فقوله جل ذكره: (يحفظونه) ، يصح أن يكون حالاً مما يتعلق به الظرف[4].

وهذا من فضل الله على عباده أن سخر لهم من يحفظهم مما يؤذيهم،وهؤلاء هم الحفظة المذكورون في قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً... ﴾ [٦١ الأنعام][5].

د- توفي العباد.

من الملائكة من مهمته توفي العباد، وقبض الأرواح، يقول الله عز وجل:﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [٣٧ الأعراف]،فقوله جل ذكره:(يتوفوهم) "حال من الرسل ..."[6]، "وهي حال معللة لعاملها"[7].

وهذا التوفي تختلف صفته من المؤمنين إلى الكافرين، يقول الله عز وجل في شأن المنافقين الخائنين وحال الملائكة معهم عند الموت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ

---

[1] انظر التحرير والتنوير ٢٤ / ٧٤.

[2] انظر ص٢٣٧من هذا البحث.

[3] انظر عالم الملائكة الأبرار ٣٩.

[4] انظر التبيان ٢ / ٧٥٤ ، وروح المعاني المجلد السابع الجزء الثالث عشر ١١٢.

[5] انظر عالم الملائكة الأبرار ٤٠.

[6] الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٩٥٥.

[7] التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ١١٧.

كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [٢٥-٢٧ محمد] ، فقوله تعالى :(يَضْرِبُونَ) حال من الملائكة[١] ؛ "وهو تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها، وإبراز لما يخافون منه، ويجبنون عن القتال لأجله؛ فإن ضرب الوجوه والأدبار في القتال والجهاد مما يتقى"[٢]، ويقول ابن عاشور :" والمقصود من هذه الحال وعيدهم بهذه الميتة الفظيعة التي قدرها الله لهم ، وجعل الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم ، أي يضربون وجوههم التي وَقَوْها من ضرب السيف حين فروا من الجهاد... ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفروا فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم"[٣].

والملائكة في عملهم هذا متقنون حريصون فلا يفرطون في شيء منه، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [٦١ الأنعام]، فـ "جملة (وهم لا يفرطون) حال، والتفريط : التقصير في العمل والإضاعة في الذوات ، والمعنى : أنهم لا يتركون أحداً قد تم أجله ولا يؤخرون تَوَفّيه" [٤].

وجاءت الحال محذوفة من الملائكة لتمثيل الموقف وإحيائه حتى كأننا نراه ماثلاً أمامنا، وذلك في موقفين متضادين، الأول تابع لما نحن فيه من التوفي وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ... ﴾ [٩٣ الأنعام].

يقول العكبري: " (أخرجوا) أي: يقولون: أخرجوا ، والمحذوف حال من الضمير في (باسطو")[٥]،وليس بخفي ما في هذه الحال من التنبيه على المهم والمقصود من الكلام، ومن نقل الصورة ماثلة للعيان ، صورة الملائكة وهي تنهرهم وتوبخهم وتعجزهم[٦] ، ولو ظهر القول لكانت العناية بالقول والحكاية، لا بالفعل والصورة، ولاشك أن ما يحدث أمام

---

[١] انظر التبيان ٢ / ١١٦٤، والبحر المحيط ٩/ ٤٧٤.
[٢] روح المعاني المجلد الثالث الجزء السادس والعشرون ٧٥.
[٣] التحرير والتنوير ٢٦ / ١١٨ ، ١١٩.
[٤] التحرير والتنوير ٧/ ٢٧٩.
[٥] التبيان ١ / ٥٢١.
[٦] انظر روح المعاني المجلد الرابع الجزء السابع ٢٢٣.

العين أقوى تأثيراً مما يحكى على سبيل القول.

وأما الموقف الثاني فهو موقف مضاد لهذا تماماً، وهو تبشير المؤمنين برضوان الله والجنة كما في قوله تعالى:﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [٢٣، ٢٤ الرعد]، فقوله جل ذكره:(سلام عليكم)، "أي: قائلين ذلك، وهو بشارة بدوام السلامة ، فالجملة مقول لقـــــول محذوف واقع حالاً من فاعل (يدخلون) "[١].

ولعله لا يُنكر ما في إسقاط هذه الحال من نقل للمشهد في صورته الحركية الفعلية ، لا القولية المحكية ، صورة الدخول والتسليم والبشارة ، وما يصاحب ذلك مـــن الأنـــس والسرور، يقول ابن عاشور : "وهذه تحية يقصد منها تأنيس أهل الجنة"[٢].

وبعد هذا نستطيع القول بأن السمة الغالبة على الأحوال من الملائكة أنهـــا أحـــوال حركية عملية يظهر فيها بوضوح الفعل المضارع: (يسبحون ، يعملون ، لا يستكبرون ، يحفظونه، لا يسأمون ، لا يفترون...) في الإثبات والنفي مما يعكس تناسباً ظاهراً بين الحال وصاحبها، فالملائكة مأمورون بالعبادة الدائمة والقيام بالمهام المنوطة بهم ، فهم في تجـــدد مستمر وعمل دائب؛ لأنهم خلقوا لذلك، خلقوا لأمر عظيم وكل ما يتعلق بهم عظيم سواء من ناحية الصفات الخَلْقية أم العبادية أم الوظيفية،والمضارع يشعر بالاستمرارية مع التجدد، وفي الوقت ذاته ينقل الصورة ويساعد على استحضارها مما يجعلنا نحس بتلك العظمة .

والأحوال مع الملائكة تظهر فيها القوة والدقة والإتقان ، ولا عجب فهم خلق عظيم له أحوال عظيمة تناسبه، وهم عباد مأمورون ، يقومون بوظائفهم ومهماتهم على الوجه المطلوب من غير نقص أو خلل.

ولسنا نجد هنا ما نجده مع المؤمنين من كثرة الأوامر والتفصيل فيها، ولا نجد أيضاً من المدح بجزئيات الأعمال كما نجده عن المؤمنين ؛ وذلك لأن الملائكة خلق جبلهم على عبادته وطاعته ، فهم لا يحتاجون إلى تذكير وتفصيل بخلاف البشر ؛ لذا نجد أكثر ما جاء عنهم إما عبادات وإما وظائف تنبئ عن طاعتهم الكاملة لربهم ، كما قال جل ذكره : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [٥٠ النحل].

---

[١] روح المعاني المجلد السابع الجزء الثالث عشر ١٤٤.

[٢] التحرير والتنوير ١٣ / ١٣٢.

المبحث الخامس: ما يخص الكتاب.

جاءت الأحوال من القرآن بكثرة وفيها تكرار وتشابه كبير، وأما غيره من الكتب فالأحوال منها قليلة[1]، لذا سيكون الحديث هنا عن القرآن خاصة، ولعل أبرز ما في الأحوال منه أنها جاءت كلها _ إلا ما ندر _ في سياق الإنزال والنزول أو ما في معنى ذلك: كالمجيء، والوحي، وجاءت أيضاً في سياق الصلاة والتلاوة والتفصيل والتبيين[2].

وعلى هذا فالأحوال من القرآن تكاد تكون محصورة في التعليل والغاية من إنزاله ، ولا عجب في ذلك فالحال تأتي للتعليل، ومما ذكر من غايات الإنزال ما يأتي :

١- التبيين والتفصيل.

من ذلك قوله تعالى:﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ...﴾ [٨٩ النحل]، فقوله تعالى:(تبياناً) حال من الكتاب[3]،وفي اختيار هذه الصيغة (تفعال) دون (بياناً)؛ لما فيها من الدلالة على المبالغة والتكثير[4]،وهذا يفيد أن القرآن منزل على هذه الحال المقتضية للبيان الكامل في كل ما يحتاج إليه الإنسان في دينه ودنياه في قواعد كلية،تفصلها وتشرحها السنة التي هي وحي لقوله صلى الله عليه وسلم:" ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه"[5].

وإذا كان من غايات القرآن كونه تبياناً لكل شيء، فهو في ذاته واضح مبين ، وهو علامات نيرات لمن أراد الهداية،كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ [١٦ الحج]،يقول أبو حيان "والهاء في (أنزلناه) للقرآن أضمر للدلالة عليه" [6]، ويقول الألوسي "ونصب(آيات) على الحال من الضمير المنصوب"[7]، وفي هذه الحال

---

(1) انظر منها مثلاً : ٤٣ آل عمران ، ٩١ ، ١٤٥ المائدة ، ٢٦ ، ٤٣ القصص.

(2) انظر شواهد ذلك في ٥٢ الأعراف، و٣١ فاطر، و٣ فصلت.

(3) انظر البحر المحيط ٦ / ٥٨٣.

(4) انظر روح المعاني المجلد السابع الجزء الرابع عشر ٢١٤ ، والتحرير والتنوير ١٤ / ٢٥٣.

(5) مسند الإمام أحمد ١٣١/٤، وصحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح(٢٦٤٣)، ٥١٦/١.

(6) البحر المحيط ٧ / ٤٩٣.

(7) روح المعاني المجلد التاسع الجزء السابع عشر ١٢٨.

وصفتها (بينات) دلالة على "أن القرآن الكريم في جميع ألوانه كامل البيان لا في أمر البعث وحده"[1].

ومما جاء في كونه مفصلاً:قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [١١٤ الأنعام] ، فقوله جل ذكره : (مفصلاً) "منصوب على الحال من (الكتاب) ، أي : مُبَيَّناً فيه الفصل بين الحق والباطل"[2] ، فالتفصيل هنا إذاً هو التبيين[3] ، وبهذا نعلم أن القرآن مبين لغيره مما يحتاج إليه الناس (تبياناً لكل شيء) ، وهو في ذاته بين واضح (آياتٍ بينات) ، وهو أيضاً لا غموض فيه بل هو مزال الإشكال[4] (مفصلاً).

وهذه الأحوال _كما نرى_ لا تصلح إلا من الكتاب الخالد الذي تكفل الله بحفظه، وأودعه شريعته وهدايته،مع ما أجراه على لسان رسوله من توضيح وبسط وتفسير له في السنة الصحيحة.

٢- القراءة فيه والاهتداء بحكمه.

يظهر ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [٢ يوسف]، فقوله جل ذكره: "(قرآناً) حال من الهاء في (أنزلناه) أي: كتاباً يُقْرأ ، أي: منظماً على أسلوب معدّ لأن يقرأ لا كأسلوب الرسائل والخطب أو الأشعار، بل هو أسلوب كتاب نافع نفعاً مستمراً يقرأه الناس،و (عربياً) صفة لـــ (قرآناً) فهو كتاب بالعربية ليس كالكتب السابقة فإنه لم يسبقه كتاب بلغة العرب" [5].

ومما هو قريب من هذا بيان كونه لساناً عربياً ؛ لأنه مترل على رسول عربي في أمة عربية كما قال تعالى:﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [١٢ الأحقاف]، فقوله جل ذكره :(لساناً) حال من (كتاب) الموصوف ،

[1] روح المعاني المجلد التاسع الجزء السابع عشر ١٢٨.
[2] الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٢١٩.
[3] انظر أقوالاً خمسة في البحر المحيط ٤ / ٦٢٧.
[4] انظر البحر المحيط ٤ / ٦٢٧.
[5] التحرير والتنوير ١٢ / ٢٠١.

والتقدير:" و هذا كتاب مصدق ملفوظاً على لسان العرب " [1] ، و في هذه الحال و وصفها بـــ(عربياً) ثناء على القرآن ؛ لأن العربية هي أفصح اللغات وأنفذها في نفوس السامعين، وأحب اللغات للناس،وأطلق اللسان هنا لأنه أشرف ما يستعمل فيه هو الكلام (اللغة)[2] ، وليس يخفى ما في وصفه بـــ(اللسان العربي) دون (عربياً) فقط من الدلالة على وضوحه وتأثيره وبروزه وتميزه ، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [١٠٣ النحل].

ومما يشير إلى ما فيه من الحكمة والهدى قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [٣٧ الرعد] ، فقوله جل ذكره:(حكماً عربياً) "حالان من ضمير (أنزلناه) ، والحكم: هنا بمعنى الحكمة،كما في قوله تعالى:﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [١٢ مريم]، وجعل نفس الحكم حالاً منه مبالغة ، والمراد أنه ذو حكم أي : حكمة ..."[3].

وهذه الأساليب (قرآناً عربياً، لساناً عربياً، حكماً عربياً) سواء كان اللفظان حالين[4] أو كان الأول منهما حالاً والثاني وصفاً له، أو كان الثاني هو الحال والأول توطئة له[5]، لا يخرجنا ذلك عن الدلالات التي ذكرنا، فالمقصود بيان مترلة هذا القرآن وعربيته والغاية من إنزاله كما قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [١٠٦ الإسراء]، فقراءته من غايات تتريله ، وكذلك كونه بلسان العرب ، وكونه مصدراً للحكمة والإرشاد ، فتلك غايات لا تُبلَغ كمالاتها إلا في هذا الكتاب المعجز المترل من رب العالمين.

٣- تصديق ما سبق من الكتب.

قال تعالى:﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾

---

[1] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٢٩٢.
[2] انظر كل ذلك في التحرير والتنوير ٢٦ / ٢٥.
[3] التحرير والتنوير ١٣ / ١٦٠.
[4] انظر التحرير والتنوير ١٣ / ١٦٠.
[5] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٦٩٢ ، ٦٩٣.

[٣ آل عمران]، فقوله جل ذكره:(مصدقاً) منتصب "على الحال من (الكتاب)، وهي حال مؤكدة ، وهي لازمة ؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير مصدق لما بين يديه"[١].

ولا عجب في كونه كذلك ؛ لأن كل الكتب تدعو إلى أصل واحد هو توحيد الله ، وقد بينا فيما سبق سر مجيء الحال الأولى (بالحق) بالجار والمجرور،و(مصدقاً) بالاسم المفرد، ومناسبة ذلك لم هي فيه[٢].

وشواهد التصديق ونزوله بالحق كثيرة، منها غير ما سبق قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ [٤٧ النساء]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [٤٨ المائدة]، والملحوظ أن وصف القرآن بكونه نزل ملتبساً بالحق مصدقاً لما بين يديه قد كثر في سياق الحديث مع أهل الكتاب، وليس يخفى ما في ذكر هذين الحالين من حثهم وترغيبهم في الإيمان بهذا الكتاب وأيضاً فيه إقامة الحجة عليهم ، وفيه فوق ذلك زيادة طمأنة وبث للثقة في قلب النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم،وكيف لا يكون كذلك، وقد نزل بالحق، والصدق ملتبس به لا يفارقه!.

٤ - الهداية والبشرى والرحمة .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٥٢ الأعراف].

يقول أبو حيان:"وانتصب (هدىً ورحمةً) على الحال ..."[٣]، وهما حالان مبينان - كما لا يخفى- لبعض غايات هذا الكتاب وهي هنا الهداية والرحمة ، هداية البشر إلى طريق الله، ورحمته بهم أن يضلوا ويهلكوا ، وليس يخفى أيضاً مناسبة ذكر هذين الحالين - خصوصاً - هنا؛ إذ الحديث عن الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها فحُجبوا عن

---

[١] البحر المحيط ٣ / ١٥.

[٢] انظر ص٣١ و١٣٩من هذا البحث.

[٣] البحر المحيط ٥ / ٦٢، وقيل: لأجله.

الجنان ، فذكْرُ هذين الوصفين (هدى - رحمة) مع كونه مفصلاً يقطع عنهم كل حجة ؛ إذ كيف يكون منهم ذلك وهذا شأن الكتاب الذي بين أيديهم ، يقول ابن عاشور بعد ذكر الحالية : "ووصف الكتاب بالمصدرين (هدى ورحمة) إشارة إلى قوة هديه الناسَ وجلب الرحمة لهم"[(١)].

ومن أجمع ما جاءت فيه الأحوال من القرآن قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [٨٩ النحل].

يقول ابن عاشور:"وخَصَّ بالذكر الهدى والرحمة والبشرى لأهميتها،فالهدى ما يرجع من التبيان إلى تقويم العقائد والأحكام والإنقاذ من الضلال،والرحمة ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين:الدنيا والآخرة،والبشرى ما فيه من الوعد بالحسنيين:الدنيوية والأخروية"[(٢)].

هذه أظهر الأحوال من الكتاب العزيز ، وقد رأيناها تبين في الغالب هيئته حال نزوله أو الغاية من إنزاله ، وقد جاءت جل الأحوال مفردةً : (مفصلاً ، قرآناً عربياً ... ، آيات بينات ، مصدقاً ، هدى ورحمة وبشرى...) ، وجاءت على قلة بالجار والمجرور (بالحق) ، ومناسبة ذلك للصاحب الذي هو القرآن أن أوصافه ثابتة مستقرة والمراد منها تعظيمه والمبالغة في مدحه ، ويظهر ذلك جلياً في المصدر ولا كذلك الجملة ، أما ما جاء على اسم الفاعل مثلاً أو المفعول مثل: (مصدِّقاً) (مفصَّلاً) فهو لا يحتاج إلى تأكيد حتى يقال: وهو يصدق أو هو المصدِّق؛ لأن تصديقه لما قبله ظاهر لا يحتاج إلى برهان ، وكذلك كونه مفصلاً مع ما في الجملة وخاصة الفعلية لو قيل:(يفصِّل) من إشعار بالتجدد والحدوث وهذا لا يوافق هذه الأوصاف، ولا صاحبها؛ لأن أحوال القرآن كلها ثابتة غير منتقلة.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن بعض الأحوال من الكتاب تلتقي مع بعض أحوال الأنبياء، ومن ذلك (مصِّدقاً) فقد جاء حالاً من عيسى عليه السلام[(٣)] في قوله تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [٥٠ آل عمران]، وكذلك (رحمة) فقد جاءت حالاً من

---

(١) التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ١٥٣.
(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ٢٥٤.
(٣) انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ١ / ٥٧٦.

رسولنا عليه الصلاة والسلام[1]:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ [١٠٧ الأنبياء] ، وكذلك البشرى فهي كثيرة الورود مع الأنبياء والمرسلين عموماً كقوله تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [١٦٥ النساء] ، و نقف الآن وقفة مع مخالفة الصيغة في التبشير ، فهي مع الرسول صلى الله عليه وسلم (مبشراً) ، و (بشيراً) كقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [٤٥ الأحزاب] ، و قوله سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [١١٩ البقرة] ، بينما هي مع القرآن الكريم (بشرى) فما سر ذلك ؟ .

لعل سبب ذلك أن الرسول صلى الله عليه و سلم يقوم بتلك الوظيفة في صورة حركية دائبة ، و هذا ما يدل عليه اسم الفاعل (مُبشِّراً) أو صيغة المبالغة (بشيراً) فهما يشعران بفاعل يقوم بذلك الفعل ، و هذا متحقق في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم في حركاته و سكناته و أقواله و أفعاله ، و حربه و سلمه ، أما في القرآن فهي وصف ذاتي فيه فهو في حد ذاته بشرى ، فهي في القرآن أقوى منها في الرسول و لهذا فالرسول يبشر بالقرآن ، لأنه كله بشرى والمصدر المنكر يشعر بشمولية ذلك للقرآن كله.

[1] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٥٠٨.

المبحث السادس : ما يخص الكافرين

الأحوال الواردة من الكفار عموماً كثيرة جداً يصعب حصرها ، وهذا الأمر رأيناه من قبل في الأحوال من المؤمنين، لكن شتان ما بين الحالين فما ذكرناه هناك فعكسه مذكور هنا ، وقد قسمنا مع المؤمنين الأحوال إلى :

- **ما كان في سياق التوجيه والإرشاد (التشريع).**
- **ما كان في سياق التكريم والمنة.**
- **ما كان في سياق المدح والثناء.**

وهنا نجد الأمر بالعكس تماماً، فلا نجد من التوجيه إلا قليلاً ؛ لأن التشريع إنما يكون لمن آمن بالله، ونجد بدلاً من التكريم الإهانة والتحقير والتعذيب، وبدلاً من المدح والثناء الذم واللوم، وعلى هذا فيمكن تقسيم تلك الأحوال الواردة من الكفار بأوصافهم المختلفة (الكفر، والنفاق، والإجرام ، والفسق ...) إلى قسمين :

١- ما كان في سياق الإهانة والتحقير والتعذيب.

٢- ما كان في سياق الذم واللوم.

١- ما كان في سياق الإهانة والتحقير والتعذيب.

جاءت بعض الأحوال منهم نصاً في الصغار والخيبة والخسران والذل ، ولعل ذلك يظهر في مثل قوله تعالى:﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ [١١٩ الأعراف]، فالحديث هنا عن فرعون وأعوانه وسحرته، وقد حصل هذا لهم عندما ظهر أمر الله ولقفت حية موسى حبالهم وعصيهم فأصابهم الصغار والذل، وكان ذلك قبل أن ينقدح في نفوسهم صدق موسى عليه السلام.

ومن هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ

﴿يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [٢٩ التوبة]، فـ(عن يد) و (هم صاغرون)[١] حالان دالان على المهانة والذلة، وقد سبقت الإشارة إلى بعض مدلولهما[٢]، وقريب من هذا قوله تعالى في شأن سليمان عليه السلام مع بلقيس وقومها: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [٣٧ النمل]، فقوله جل ذكره: ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ حالان مصرحان بالمهانة والحقارة لهم أمام ما أعطى الله سليمانَ من القوة.

وفي مقابل هذا نجد للمؤمنين التكريم على ما سبق بيانه ، ومن تكريمهم ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [١٣٩ آل عمران] ، فقوله سبحانه : (وأنتم الأعلون) جملة حالية معلنة بعلو شأنهم ورفعة مكانتهم ، ولا عجب فلكلٍ ما يناسبه ، فالإيمان سبب التكريم ، والكفر سبب الإهانة والتحقير.

وهذه الأحوال كلها في الدنيا، أما صور المهانة في الآخرة فكثيرة جداً، بعضها مصرح به وبعضها يفهم من اللفظ والسياق، ويختلط مع إذلالهم وصفهم بالخوف والفزع ، كما هو ظاهر في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [٦٨ - ٦٩ الفرقان] ، فقوله (مهاناً) حال من فاعل هذه الأعمال : (الشرك بالله ، و قتل النفس المعصومة ، و الزنا) ، وهي حال منادية بالمهانة معلنة عنها،ومعلوم أن الخالدين في جهنم مهانون لكن في التصريح بذلك ما لا يخفى من إذاعة ذلك عنهم ، والتنفير من هذه الأعمال الموجبة لذلك ، يقول ابن عاشور: " وقوله (مهاناً) حال قصد منها تشنيع حالهم في الآخرة، أي يعذب ويهان إهانة زائدة على إهانة التعذيب بأن يشتم ويُحقَّر "[٣].

وليس يخفى ما في هذه الحال من المناسبة فهذه الأعمال الحقيرة مما استمرأه المشركون، وحقارتها ظاهرة في إشراك المخلوق المهين مع الرب العظيم ، وفي الاستخفاف بالدم المعصوم ،وفي اقتراف الخنا والفحش ، فكان جزاء ذلك العذاب المهين ، جزاءً وفاقاً.

---

[١] انظر التحرير والتنوير ٩ / ٥٢

[٢] انظر ص٤٥٦من هذا البحث.

[٣] التحرير والتنوير ١٩ / ٧٥.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [٦٠غافر]، فقوله جل ذكره : " (داخرين) حال من ضمير (سيدخلون) ، أي : أذلة ، دخَر كمَنع وَ فرِح ، صغر وذل"[1] ، وما أنسب هذه الحال لمن استكبر عن عبادة ربه، والجزاء من جنس العمل ، تَكبَّر في الدنيا عن العبودية لربه وهي العزة ، فأهين في نار جهنم ، بل دخلها على هذه الصورة الذليلة ، ونجد عند المؤمنين أن الرفعة هي الخضوع للخالق العظيم جل جلاله ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[2] ، و قد جاءت هذه المادة (دخر) حالاً لعباد الله المؤمنين لكنها تكريم وتشريف، كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [٤٨ النحل] ، فقوله جل ذكره : ﴿ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ حالان متداخلان[3] ، أي أنهم يسجدون لله وهم أذلة له خاضعون لعظمته ، وجمع بصيغة العقلاء ، لأن في جملة الخلائق من هو عاقل وهم الجنس الأهم فغلبوا[4] ، وليس يخفى ما في هذه الحال من دلالة التشريف فهي مذكورة في سياق المدح، وليس من عجب في ذلك ، فالعبودية لله هي العز الحقيقي لهذا اختار نبينا صلى الله عليه وسلم أن يكون نبياً عبداً على أن يكون نبياً ملكاً لما خُيِّر في ذلك[5].

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى:﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾[٤٤،٤٥ الشورى] ،فقوله جل ذكره:(يعرضون) (خاشعين) (ينظرون) كلها أحوال،لأن الرؤية بصرية[6] وشاهدنا هنا هو (خاشعين من الذل) و (ينظرون من طرف خفي) فهما كناية عن استيلاء الذل عليهم واحتوائه لهم في نار جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ، وليس يخفى ما في التناسب بين هذه الأحوال وبين وصف صاحب الحال بعنوان الظلم كما في قوله تعالى: (وترى الظالمين لما رأوا العذاب) فقد ترفعوا عن طاعة الله، واستكبروا على خلقه وبغوا

---

(1) التحرير والتنوير ٢٤ / ١٨٣.
(2) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب مايقال في الركوع والسجود، ح(٢١٥)، ٢٩٤/١.
(3) أو هي متعددة، انظر التبيان ٢ / ٧٩٧.
(4) انظر التحرير والتنوير١٤ / ١٦٩.
(5) رواه الإمام أحمد في المسند ٢٣١/٢.
(6) انظر في بيان هذا : الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٢٤٧.

وتجبروا فظلموا أنفسهم والخلق، فكان مصيرهم الذل والعذاب، يقول ابن عاشور بعد ذكر الحالية: "والخشوع:التطامن وأثر انكسار النفس من استسلام واستكانة فيكون للمخافة والمهابة ، وللطاعة وللعجز عن المقاومة...وجملة (ينظرون) في موضع الحال من ضمير(خاشعين)؛ لأن النظر من طرف خفي حالة للخاشع الذليل،والمقصود من ذكرها تصوير حالتهم الفظيعة"[1].

وتقييد الخشوع بذكر سببه وهو الذل يظهر مناسبة الحال لصاحبها ؛ لأن الخشوع إن كان لله فهو عزة ورفعة ، وهو محمدة كما قال تعالى في الثناء على بعض أهل الكتاب: ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [١٩٩ آل عمران].

ومما صرح فيه بذلة أهل العذاب غير ما سبق قوله تعالى:﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [٤٤ المعارج]،فهذه الحال (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة)[2] تبين شأن عباد الأصنام يوم البعث، وما يظهر عليهم من الذل والخضوع، وليست مناسبة هذه الحال لصاحبها بخافية فقد كانوا في الدنيا يسرعون نحو أصنامهم التي يعتزون بها ، واليوم تخلت عنهم فهم يسرعون ولكن بذلة وحقارة إلى نار جهنم ، ليجدوا هناك أصنامهم كما قال جل ذكره:﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [٩٨ الأنبياء].

ومما يلحق بما ذكرنا آيات كثيرة مثل قوله تعالى:﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴾ [٤٢، ٤٣ إبراهيم]، وما أعظم مناسبة هذه الأحوال المشعرة بالمهانة والضعة (مهطعين)، مقنعي رؤوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم،وأفئدهم هواء) لصاحب الحال الموسوم بوصف الظلم (الظالمون)؛ فالظالم متكبر متجبر، مستعل على الخلق ، مترفع عن عبادة ربه، ظالم لنفسه بإشراكه بالله؛ لأن الشرك ظلم عظيم، وهو يوم القيامة ذليل ضعيف خائف وجل.

---

[1] التحرير والتنوير ٢٥ / ١٢٦ ، ١٢٧.

[2] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٥٣٢.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [٩٧ الإسراء]،فهذه الحال المروعة لصورة حشرهم (عمياً وبكماً وصماً) تشعر بمدى ما هم فيه من العذاب، النكال والذلة.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [٨٥، ٨٦ مريم]، وليس بخاف مناسبة كل من الحالين (وفداً) و(ورداً) لصاحبه، فالأول للتكريم والثاني للإهانة والتعذيب:"فقد ذكرت كلمة (نسوق) وهي للأنعام ــ والمجرمون أضل من الأنعام ــ ثم جاءت كلمة (ورداً) تبين حالة هؤلاء الضالين مما أكسب الصورة حياة وواقعية وانسجاماً فنياً"[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [٣٢ ، ٣٣ غافر] ، فلا يخفى ما في الحال (مدبرين) من دلالة الخزي والعار، ولكنهم يفعلون ذلك مما يرون ويجدون من الهول والعذاب[٢].

ولعله ظهر مما سبق كثرة تكرار وصف الظلم والإجرام في الصاحب مع الكافرين، وبان أيضاً كثرة وصفهم بالذلة والمهانة في الدنيا والآخرة، بينما مع المؤمنين تكرر كثيراً وصف التقوى والإيمان ، وظهرت معهم أحوال التكريم والتنعيم.

ويضم إلى هذا ما جاء بذكر عذابهم خاصة في الدنيا بالإهلاك والتدمير، وما في القيامة من الحرق والتعذيب وسنشير إلى بعض ذلك ؛ لأنه سبق كثير منه في فصل التصوير[٣].

فأما عذابهم الدنيوي فمشاهده كثيرة منها ما جاء في قوله تعالى في هلاك قوم لوط: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ [٧٢ ، ٧٣ الحجر]، وفي ثمود (أصحاب الحجر): ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾

---

[١] الوصف في القرآن الكريم ٦١، وقد سبق بسط القول في دلالة هذه الحال في ص ٢١١ من هذا البحث.

[٢] انظر التحرير والتنوير ٢٤ / ١٣٧.

[٣] انظر ص ٤١٤من هذا البحث.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [٨٢، ٨٣ الحجر]، فــ (مشرفين) و (مصبحين) حالان من المعذبين تظهران أن العذاب بادرهم أول النهار يقول الألوسي: "قال المدقق : والجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والانتهاء بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح وانتهاؤه عن الشروق"[(١)].

وفي صورة أخرى لوصف هلاك ثمود يقول الله عز وجل: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [٦٧، ٦٨ هود]، ومن ذلك أيضاً ما جاء في شأن عاد قوم هود من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [١٩، ٢٠القمر].

أما عذابهم في الآخرة فبعضه ما سبق ذكره في لحظات الموت وساعات الحشر، وبعض ذلك عند صلي النار وبئس القرار،فمن ألوان عذابهم خلودهم الدائم في النار، كما في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [١٦١ ، ١٦٢ البقرة].

وهذه الحال (خالدين فيها) تتكرر كثيراً من المؤمنين والكافرين ، ولكن كلّ على ما يناسبه فالمؤمنون في دار الكرامة والنعيم، والكفار في دار المهانة والجحيم، وقد وردت مادة (خلد) مشيرة إلى النعيم أو العذاب في القرآن الكريم فيما يزيد على سبعين موضعاً، كان نصفها أو يزيد قليلاً يخص المؤمنين، وبعضها الآخر يخص الكافرين ، ولعل هذا التكافؤ في هذا الأمر خصوصاً يشير إلى ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: "الجنة رحمتي أرحم بها من أشاء، والنار عذابي أعذب به من أشاء ولكليكما عليّ ملؤها"[(٢)].

ومن صور تعذيبهم فيها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [٤٩ ، ٥٠ إبراهيم].

فقوله سبحانه: (مقرنين ، في الأصفاد، سرابيلهم من قطران، وتغشى وجوههم النار)

(١) روح المعاني المجلد السابع الجزء الرابع عشر ٧٤.

(٢) صحيح مسلم ،كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، ح(٢٨٤٦)، ١٧٣٣،١٧٣٤/٤.

كلها أحوال من المجرمين أو بعضها حال من الضمير في (مقرنين)[1] ، وقد شملت أنواع الحال : المفردة، وشبه الجملة ، والجملة بنوعيها ، وقد صورت هيئتهم وهم مقرونون بعضهم إلى بعض ، وأيديهم إلى أرجلهم ، وصورت لباسهم الناري ، وصورت غشيان النار لوجوههم التي أبت الخضوع لله يوم دعيت إلى ذلك.

وصورة أخرى نجدها في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ [١٩ ، ٢٠ الحج].

فقوله جل ذكره : (يصب ، ويصهر) حالان من الهاء والميم في (لهم)[2] ، يا لها من صورة! حرق للأجسام من الخارج وإذابة لما في الأحشاء ، وهذا جزاء من كذّب الرسل وأعرض عن ربه ، فكم كانوا يتباهون بزينتهم وثيابهم ، واليوم يلبسون بدل الحرير ناراً ، وكم ظللوا تلك الأجساد من الحر واليوم يصهرها الحميم ، وكم أكلوا في بطونهم من أموال الضعفاء والمساكين والربا والسحت واليوم يأكلون ناراً ويشربون ناراً، ويسقون ماءً تخرج معه أمعاؤهم﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [١٥محمد].

ومن صور العذاب أيضاً ما جاء في قوله جل ذكره:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾[٣٦، ٣٧فاطر]، فليس يخفى ما في الحال (وهم يصطرخون فيها) من تصوير الهلع وتعالي الأصوات والإشعار بعظم الهول الذي هم فيه ، ولطالما كانوا في الدنيا يتنادون لإخماد الحق وتتعالى أصواتهم بالاستهزاء والسخرية بدين الله وعباده المؤمنين، واليوم تتعالى أصواتهم وتتجاوب صرخاتهم مما يجدون من عذاب النار وجحيمها ، فلله ما أعظم مناسبة هذا لذاك![3].

وهكذا يتضح لنا أن الأحوال كثيرة جداً في تصوير حقارة الكفار وأليم عذابهم ، واتضح ذلك جلياً من خلال اتجاهين، الأول:النص على مهانتهم وحقارتهم في الدنيا

---

[1] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ١٧٩ ، ١٨٠.

[2] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٥٢٥ ،ويحتمل أن يكون خبراً بعد خبر.

[3] انظر مزيداً من التحليل لهذه الحال في ص ٤٧٠من هذا البحث.

والآخرة ، والثاني: عرض بعض صور لتعذيبهم في الدنيا بالإهلاك ويوم القيامة بالخلود في نار الجحيم ، ولا تكاد الأحوال تخرج عن ذلك .

٢- ما كان في ذم الكفار ولومهم .

ذم الكفار كثير في القرآن وله ملامح كثيرة ، فهم إما أن يذموا على مناهج للتفكير انتهجوها، أو على عقائد فاسدة اعتنقوها ، أو على عادات منحرفة اعتادوها ، أو أخلاق مرذولة استمرأوها.

فمن ذلك ذمهم بأعظم انحراف عن الفطرة الصحيحة وهو الكفر بالله، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ [١٧ التوبة] ، وقد سبق أن ذكرنا معنى (شاهدين على أنفسهم بالكفر)[١] ، وأن منه قول المشرك: أنا كافر كما يقول المؤمن: أنا مؤمن.

ومما ذمهم الله به كثيراً ردهم الحق رغم وضوحه وهذا خلل في المنهج والتفكير وتحكيم لسلطان الهوى ، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [١٤ النمل]، فالكبر والبغي يحملان صاحبهما على جحد الحق ورده حتى لو ظهر له واتضح كما هو شأن فرعون وملئه، وكذا الشأن في كل الأمم، وينعى الله على الذين يشركون به مع علمهم ببطلان معبوداتهم واستحقاقه جل ذكره العبادة وحده كما في قوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٢٢ البقرة].

وقد سبق معنا – في التقييد – أن الذم وارد على اتخاذ الأنداد عموماً لكنه مع العلم أشنع وأقبح[٢].

ومن هذا تحريف كلام الله مع العلم بذلك ، فهذه جرأة عظيمة، وقبح كبير قال تعالى:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٧٥ البقرة].

ومن هذا افتراؤهم الكذب على رب العالمين مع علمهم بذلك ، قال تعالى عن هذا الصنف منهم:﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ

---

[١] انظر ص٣٤٣ من هذا البحث.

[٢] انظر ص ٣٥٧من هذا البحث.

مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٧٨ آل عمران] ، فلاشك أن الكذب مذموم بكل حال ، لكنه مع العلم يكون أشنع وأقبح .

وأما انحرافاتهم في الأعمال والأخلاق وذمهم بذلك فكثير، نذكر من ذلك، ذمهم بالجهل والسفه والجدال في القضايا العظمى دون علم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [٨ ، ٩ الحج].

فهذان حالان:(بغير علم) و (ثاني عطفه)، مسوقان على سبيل الذم لمن نزلت فيه هذه الآية سواء كان النضر بن الحارث أم غيره، يقول ابن عاشور: "ووصف الجدل بأنه بغير علم، أي جدلاً ملتبساً بمغايرة العمل،وغير العلم هو الجهل، أي: جدلاً ناشئاً عن سوء نظر وسوء تفكير"(١).

ومن جهلهم وسفههم قتلهم أولادهم وتحريمهم ما أحل الله كما قال تعالى عنهم: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [١٤٠ الأنعام].

يقول ابن عاشور (سفهاً) : "يجوز أن ينتصب على الحال من (الذين قتلوا) ، وُصِفُوا بالمصدر؛ لأنهم سفهاء بالغون أقصى السفه، والباء في قوله:(بغير علم) للملابسة ، وهي في موضع الحال من (سفهاً) فتكون حالاً مؤكدة ..."(٢)، وكذلك (افتراءً على الله) يحتمل الحالية أي: مفترين على الله ، فهم مذمومون بهاتين الصفتين الدنيئتين اللتين تنبئان عن خسرانهم وضلالهم ، قال ابن عباس رضي الله عنه : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فأقرأ قول الله تعالى: (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم)(٣).

وذم الله فيهم البغي والأشر والبطر كما قال سبحانه ناهياً عباده المؤمنين أن يكونوا أمثالهم ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [٤٧ الأنفال]، فهذه

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٩٢.
(٢) التحرير والتنوير ٨ القسم الأول ١١٤.
(٣) انظر التحرير والتنوير ٨ القسم الأول ١١٢.

الآية نزلت في أبي جهل وأصحابه يوم خرجوا إلى بدر[1] يحدوهم الكبر ويدفعهم الغرور، كما تدل عليه هذه الأحوال (بطراً ـ ورئاء الناس ـ ويصدون)[2]، ولعلنا لا ننسى هنا الصورة المضادة تماماً لهذا في وصف عباد الرحمن في قوله تعالى:﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [٦٣ الفرقان].

ومما ذم الله به الكافرين ما جاء في شان لوط في اختراعهم تلك الفاحشة الشنيعة: إتيان الذكران، كما قال سبحانه:﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [٨٠، ٨١ الأعراف]، فقوله: (ما سبقكم بها من أحد)، و (شهوة)، و(من دون النساء) ... كلها أحوال منادية بشناعة جرمهم وانتكاس فطرتهم، ولقد رأينا في التقييد هذا الأمر مبسوطاً[3]، واتضح أن جل ما يتصل بهذه القضية قد جاء في القرآن في صورة أحوال مقصود منها التشنيع (شهوة، من دون النساء، ما سبقكم بها من أحد، من العالمين، وأنتم تنظرون).

وعلى العكس نجد الطهر عند المؤمنين والعفاف والاستقامة فهذه مريم تستنكر فعل الفاحشة ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [٢٠مريم].

ومما ذمه الله أفعال المنافقين وما أكثرها، نذكر منها بعض الصور الظاهرة كما في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [١٤٢، ١٤٣ النساء]، فهذه الأحوال: (كسالى، يراءون الناس، لا يذكرون الله قليلاً، مذبذبين ...)[4] كلها تظهر مكنون نفوسهم وتفضح سرائرهم، وليس يخفى هنا قدر المناسبة بين الأحوال المذكورة وبين أهل النفاق، فقد جاءت الحال الأولى (كسالى) جمع (كسول) صيغة مبالغة؛ لأن الكسل صفة مستقرة

---

[1] انظر البحر المحيط ٥ / ٣٣٣.
[2] انظر روح المعاني المجلد الخامس الجزء العاشر ١٤.
[3] انظرص٣٨٨ من هذا البحث.
[4] انظر التحرير والتنوير ٥ / ٢٤٠.

متغلغلة فيهم وليس مع الكسل عبادة ، وجاءت الحال الثانية فعلاً (يراءون)؛ لأن مراعاة نظر الناس لابد لها من تطلع واهتمام وإظهار للعمل وهذا ما يدل عليه الفعل من التجدد والاستمرار، ثم إنه ينقل لنا الصورة القبيحة لفعلهم ذلك كأننا نراها، فهم على كسلهم إن عملوا أتعبوا أنفسهم في لفت الأنظار إليهم، وجاءت الحال الثالثة بالنفي (ولا يذكرون الله إلا قليلاً)، وكان يمكن أن يقال: يذكرون الله قليلاً لكن ما عليه النظر الكريم فيه نفي لذكر الله وبيان أن ذلك هو الأصل فيهم،ولو قلنا:يذكرون الله قليلاً لكان فيه إثبات للذكر وفيه لمحة مدح لا تنكر، والسياق للذم فكان ما عليه النظم الكريم هو غاية الغايات في البلاغة، ثم جاءت الحال الرابعة (مذبذبين) التي تعبر عن جامع نفاقهم[1] فهم لا يستقرون على حالة، والكلمة بذاتها دالة على المراد بتكرار حروفها وتبادلها، ثم جاء قوله جل ذكره :(لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) لبيان صورة هذه الذبذبة كأنك تراها.

إن هذه الأحوال المذمومة من المنافقين تُقابَل هناك عند المتقين بالذكر الدائم لله لا القليل،والخشوع في الصلاة والإخلاص لا الرياء ، والنشاط لا الكسل والثبات على المبدأ لا الذبذبة.

قال تعالى عن المؤمنين:﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [١٩١ آل عمران]، وقال جل ذكره : ﴿ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [٢٩ الفتح] ، وقال جل ذكره عن العباد المكرمين (الملائكة) : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [٢٠ الأنبياء]،وقال جل ذكره عنهم أيضاً: ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴾ [٣٨ فصلت]، فشتان الفارق بين هذه الأوصاف العظيمة المادحة وبين تلك الأوصاف الذامة القادحة.

وذم الكفار ولومهم وكذلك المنافقين ومن لف لفهم كثير، وقفنا منه على بعض النماذج لتقرير أن ما ذكرناه هناك عن المؤمنين من كثرة المدح بالعبادات بأنواعها، الجسدية والمالية والقلبية ، وبالأخلاق العالية، والفضائل الظاهرة، والعقائد السليمة الصافية نجد ضده مع الكفار والمنافقين، فهناك التوحيد وإخلاص العبادة، والصلاة والخشوع

---

[1] انظر التحرير والتنوير ٥ / ٢٤٠.

والخوف من العظيم ، والتواضع واللين ، والإنفاق بالليل والنهار، سراً وعلانية، وغير ذلك، ومع الكفار الشرك، والأوثان ، والأنداد، والأخلاق المرذولة والعادات السيئة، والكسل والمراءاة، والبطر، والبغي والظلم، والعدوان ..وغير ذلك.

فهي صورة متباينة تماماً، وهذا التباين يظهر جلياً فيما أعد الله للفريقين ، فمع المؤمنين نجد التكريم في الحياة بالمدح والثناء ، وعند الموت (طيبين)، وعند الحساب (آمنين) وفي الجنة يستقبلون بالسلام والحفاوة، وأما الكفار فنجد الإهانة في الدنيا بالإهلاك والتدمير، وعند الموت بالضرب (يضربون وجوههم وأدبارهم)، (ظالمي أنفسهم) وعند الحساب (ترهقهم ذلة) وفي دار القرار لهم النار (يعرضون عليها خاشعين من الذل) ، إنهما صورتان متضادان تماماً، والأحوال ظاهرة المناسبة في كل منها .

المبحث السابع :ما يخص ما لا يعقل

الله عز وجل فضل الإنسان على كثير من مخلوقاته بالعقل وجعله مناط التكليف فيه ، ومع هذه فهناك عوالم أخرى ربما يُنفى عنها العقل بوصفه مناطاً للتكليف ، لكنها تبقى مخلوقات لها خصوصياتها ولها خضوعها وعباداتها لخالقها بصورة لا ندركها نحن، ومعتمدنا في كل ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [٤٤الإسراء]، فلا يعني قولنا:(ما لا يعقل) أننا ننفي العبودية والخضوع والانقياد من هذه العوالم لله رب العالمين، بل إننا نقر بأن ما ثبت من ذلك في كتاب الله لها كالكلام فهو حقيقة تُجرى على ظاهرها، وقد سبق بيان شيء من ذلك[1].

وقد نظرت في الشواهد فوجدتها تختلف عما سبق ، فهي متعددة متنوعة ليس لها صاحب واحد محدد ، لهذا رأيت أن أجعل الحديث عنها من خلال ما يأتي :

١– ما يخص العوالم السماوية.

٢– ما يخص العوالم الأرضية.

وهناك أشياء أخرى يتعذر حصرها ضربت عنها صفحاً مكتفياً بما كان ظاهراً بارزاً.

١ـ ما يخص العوالم السماوية .

ويشمل ذلك السموات ، والكواكب ، والرياح ، والسحاب ، وما يتصل بذلك من ظواهر ومظاهر كالليل والنهار فإن أسبابهما سماوية.

أـالسموات .

جاءت من السموات أحوال تشترك معها فيها الأرض وعوالمها ، وذلك لإظهار عظمة الله جل ذكره كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [١٩١ آل عمران]، فقوله سبحانه:(باطلاً) حال من (هذا) المشار

[1] انظر ص٧٤ من هذا البحث.

به إلى ما سبق من خلق السموات والأرض، أي : "ما خلقت هذا خالياً من حكمة"[1]، وقوله تعالى:﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [١١فصلت]، فـ(طوعاً وكرهاً، وطائعين) أحوال من السماء والأرض بينت خضوعها وعبوديتها لربها، وجاء من السماء خصوصاً قوله تعالى:﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ [٦ الأنعام] وقوله تعالى: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [٥٢ هود ، ١١ نوح].

وأياً ما كان المراد بالسماء فالحال هنا دليل على فضل الله ومنته على عباده ، وكل ما في الجملة يوحي بذلك الكرم وتلك المنة ، من ذلك (الإرسال) الذي ليس لبعض خيرها بل هو لها كلها (يرسل السماء) ، وعلى هذه الهيئة المشعرة بالخير(مدراراً) والحال بصيغتها، ودلالة حروفها هادية إلى ذلك على ما سبق إيضاحه[2].

ب- الكواكب والنجوم.

ومما جاءت منه الأحوال: الشمس والقمر وهما من أظهر الكواكب التي يراها الناس ويظهر أثرها في حياتهم، وفي ظهورهما آية من آيات الله تتكرر كل يوم ؛ لهذا ذكر إبراهيم لهما هذه الحال خصوصاً كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ... فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ [٧٧ ، ٧٨ الأنعام]، فـ (بازغاً) و (بازغة) حالان من القمر والشمس والبزوغ هو أكثر حالاتهما إبهاراً ودلالة، وخاصة أن إبراهيم رام فيهما القوة والمنعة كما تقتضيه الربوبية، فكان الظهور هو الوصف المناسب لذلك ، أما الأفول فهو دليل النقص ؛ لذا استدل به على أنهما لا يستحقان العبودية[3].

وجاء التنبيه بالحال على هذه الحركة الدائبة فيهما ، لما فيها من دلائل القدرة ومظاهر العبرة في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ [٣٣ إبراهيم] ، وفي هذه الحال (دائبين) تركيز على جانب النفع فيهما كما يلمح إليه الفعل (سخر) وهو أيضاً موضع العبرة، وهذا غاية التناسب؛ فإن هذه العوالم أظهر ما فيها هذان الأمران : (النفع والعبرة) ، والدأب هو الاستمرار المنتظم "إذ لو اختلفت لم يستطع البشر ضبطها فوقعوا في

---

[1] التبيان ١ / ٣٢٠،ويحتمل النصب على المصدرية وأن يكون مفعولاً لأجله.

[2] انظر ٤٥٩من هذا البحث.

[3] انظر هذا مبسوطاً ص ٢٥٥من هذا البحث.

حيرة وشك"[1].

وأما النجوم فقد جاءت مع الشمس والقمر في حال واحدة كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١٢ النحل] ، فـ (مسخرات) على قراءة النصب حال مما سبق[2] ، وقد نصت هذه الحال على الغاية من تسيير هذه الكواكب ، ونهاية الآية أشعرت بضرورة التفكر ؛ لأنها آيات لا يدركها إلا العقلاء.

ج-الليل والنهار.

وهما ينتجان عن حركة الكواكب(الشمس والقمر) فهما لا يخرجان عما ذكرناه من النفع والاعتبار ، ويظهر ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٥٤ الأعراف] ، فقوله جل ذكره: (يطلبه) حال من الليل أو من النهار ، و(حثيثاً) حال من الليل ؛ لأنه الفاعل ويجوز أن يكون من النهار والتقدير يطلب الليلُ النهارَ محثوثاً[3] ، وما يهمنا هو مجيء هذين الحالين من الليل والنهار ؛ فهما يصوران حركة مستمرة وطلباً دائماً ، كلُ منهما يطلب الآخر على وجه السرعة ، لأن الحثيث هو السريع[4] ، وهذه الحركة هي محط عبرة لمن اعتبر وفيها دلالة على قدرة الخالق ودقيق صنعة ؛ إذ لا يتخلف هذا التعاقب على مر الأيام والسنين ولا يختل نظامه.

وجاءت أحوال أخرى تبرز جانب المنفعة من الليل والنهار أكثر من العبرة كقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [٦٧ يونس] ، فقوله: (مبصراً) حال من النهار[5]، ولكن ما سر مناسبة الحال من النهار دون الليل فلم يكن: والليل مظلماً لتسكنوا فيه، كما قيل في النهار : (والنهار مبصراً)؟.

---

[1] التحرير والتنوير ١٣ / ٢٣٦.
[2] انظر التبيان ٢ / ٧٩١.
[3] انظر التبيان ١ / ٥٧٤.
[4] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٣١٣.
[5] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٥٧٦.

لقد قدمنا شيئاً من هذا فيما سبق[1] ، ونقول هنا إن الكلام أغنى بعضه عن بعض مع وضوح الدلالة فهو من قبيل الاحتباك، وإنما ذُكر التعليل أولاً دون الحال مع الليل ؛ لأن العلة فيه واحدة يتفق فيها كل الناس والشواذ لا اعتبار لهم ، فالغاية من خلق الله له هو أن يسكن فيه الناس، و لم يقل مع النهار:لتبصروا فيه، أو لتعملوا فيه؛لأن النهار ليس كالليل في الاتفاق على كونه سكناً وسباتاً، بل هو_أي النهار_ قد يكون للعمل،وقد يكون للراحة، وقد يكون لغير ذلك،وكل ذلك غير مستنكر فيه؛لذا لم تذكر العله معه، بل قيل: مبصراً، فهو ذاته مبصر لكثرة المبصرين فيه، أما الليل فذكر العلة معه يوحي بأنه للسكون فحسب، وعلى هذا فعلة الخلق مع الليل أهم،والهيئة مع النهار أهم فجاء كلٌّ على ما يناسبه[2].

د- الرياح.

وكل ما جاء منها من أحوال كان عن بيان وظيفتها ، وهي أنواع : ريح للعذاب والتدمير كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٢٤ الأحقاف] ، ورياح للخير، بعضها يكون لنشر الخير فتستبشر بها النفوس كقوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [٥٧ الأعراف]،وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [٤٨ الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ [٦٣ النمل] ، فـــ(بشراً) فيها قراءات كثيرة[3]، وهي عليها كلها حال من الرياح ، وعلى القراءة التي معنا يكون المعنى:"مبشرات؛لأن الريح تبشر بالمطر والرحمة، ويعضد هذه القراءة قوله تعالى:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [٤٦ الروم]"[4].

ومنها نوع لتلقيح الأشجار أو السحب كما قال سبحانه:﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [٢٢ الحجر] ، يقول ابن عاشور: "(لواقح) حال من (الرياح")[5] سواء أكانت للسحب أم للشجر ، وقد سبق بسط الحديث في هذه الحال[6].

---

(1) انظر ص ٤٤٩من هذا البحث.

(2) مثل هذا آيات أخرى هي: ١٢ الإسراء ، ٨٦ النمل ، ٦١ غافر.

(3) انظرها مع توجيهها في الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٣١٥-٣١٧ والكلام عن آية الأعراف.

(4) الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٣١٧.

(5) التحرير والتنوير ١٤ / ٣٧.

(6) انظر ص ٤٣٦ من هذا البحث

ومنها نوع خاص وهو ما أعطاه الله لسليمان عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴾ [٨١ الأنبياء] ، فقد جاء من هذه الريح حالان (عاصفة وتجري)[1]، ونظراً لكون هذه الريح مسخرة لعبد من عباده فضلاً من الله ومنة جاء منها هذان الحالان، أولهما: ينبئ عن القوة والشدة (عاصفة) ، والثاني (تجري بأمره) تنبئ عن صدورها عن أمره، ويفهم من الحالين أنه لو أرادها رخوة لكانت، ولو أرادها عاصفة فتلك حالتها الأصلية،ثم إن في ذكر العصف وإتباعه بكونها تحت أمره إبراز لعظم المنة عليه؛ إذ يدل ذلك على أنها رغم شدتها وقوتها فهي مذللة له ، وإذا نُظر إليها من هذه الزاوية كانت رخاءً طوع أمره كما قال جل ذكره: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [٣٦ ص].

وعلى كلٍ فهذه الأحوال (عاصفة ، تجري ، رخاءً) تدل بمجموعها على أنها مسخرة لمواتاة إرادة سليمان من حيث اللين والشدة[2].

ولو تأملنا هذه الأحوال من تلك العوالم السماوية (النجوم ، والكواكب ، والليل والنهار، والرياح) لوجدناها لا تخرج عن الإطار العام : إرادة الاعتبار وإظهار القدرة ، وإرادة التسخير ونفع العبادة ، وقد جاءت الأحوال منسجمة مع هذه الأهداف والأغراض أكمل انسجام ، كما ظهر لنا ذلك من خلال الشواهد وتحليلها.

٢- ما يخص العوالم الأرضية .

بالنظر إلى الأحوال التي تخص العوالم الأرضية والتي تخص العوالم السماوية نجد أن هناك فرقاً مهماً ، يتمثل في كون الأحوال العلوية تجنح إلى الدعوة إلى التفكُّر في العظمة والقدرة ، ويشار فيها إلى المنة والعطاء والتسخير ؛ وذلك لأن الإنسان عاجز عن التصرف بها ، بل هو يفيد منها بحسب قدرته دون أن يغير منها شيئاً ؛ لذا كانت مظاهر القدرة فيها أعظم .

---

[1] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٤٩٨.

[2] انظر التحرير والتنوير ١٧ / ١٢٣.

أما العوالم الأرضية فأحوالها مختلفة ففيها تفصيل وتبيين يتناسب مع تعامل الإنسان معها ، وفيها تنبيهات دقيقة على جليل خلق الله فيها مما يراه الإنسان ماثلاً أمام عينيه ، وفيها تنبيه على فضل الله ومنته على عباده ببيان الأنواع والأجناس وتكثيرها.

وقد رأينا كيف اشتركت الأرض بمجموعها مع السماء في أحوال معينة تنبئ عن القدرة العظيمة والانصياع الكامل بكل ما فيها لحكم الله (قالتا أتينا طائعين).

ومما جاء خاصاً بالأرض ونلحظ فيه مراعاة قرب الإنسان منها قوله تعالى:﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٥ - ٦الحج] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٣٩ فصلت].

فقوله جل ذكره:(هامدة) و (خاشعة) حالان من الأرض، جاءتا في سياق الاستدلال على البعث والقدرة على الإحياء، وقد سبق الحديث مطولاً عن مناسبة كل من هذين الحالين لموقعه في فصل التصوير[1] ، وقد رأينا كيف أن الحال جاءت في سياق الموت من مادة الهمود وهو عدم الحركة، وفي سياق العبادة كما في (فصلت) من مادة الخشوع وهي بعض مظاهر العبادة ، مع بقاء الحالين دالين على المعنى العام وهو القدرة على البعث.

ويظهر هنا التفصيل الدقيق وتوجيه النظر إلى شيء محسوس أمام العين تتكرر صورته كثيراً، ويشترك في ذلك أعداد كبيرة من الناس ، إنها صورة قريبة محسوسة وليس كذلك ما نجده في الأحوال العلوية البعيدة التي لا يدرك الإنسان منها إلا حركاتها أو آثارها.

وعلى هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان عوالم كثيرة منها : عالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الجمادات من جبال وبحار وما أشبه ذلك ، وسنقف مع هذه العوالم ننظر في بعض الأحوال الخاصة بها.

أ- عالم الحيوان.

ذُكر الحيوان في القرآن في مواضع كثيرة، وجاءت منه أحوال متعددة ، وقد كان في ذكره تنبيه إلى بعض العبر فيه أو لحكم يتعلق به ، وبعض ما جاء كان عاماً، وبعضه كان

---

(1) انظر ص ٤٣٥من هذا البحث.

خاصاً بآية من آيات الله لبعض رسله كما هو شأن ناقة صالح التي قال الله فيها:﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ [٧٣ الأعراف]،وقال سبحانه:﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ... ﴾ [٦٤ هود]، فالحال هنا (آية) تدل على أن الله خلق هذه الناقة وهي آية في ذاتها، وهذا يعني أنها شهادة ماثلة بينهم على صدق رسولهم صالح عليه الصلاة والسلام، إن كون الحال هنا هو الآية ذاتها يشعر أن كل ما في الناقة يدعو إلى الإيمان والتصديق، ومما يدل لهذا قوله جل ذكره قبلها:﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [٧٣ الأعراف]، والإشارة بـــ(هذه) التي تقتضي كونها حاضرة ، و (لكم) المُقَدَّمة التي تشعر بأنها من أجلهم ليؤمنوا ، أو لهم خصوصاً ، كل هذا يعني أنها آية ظاهرة بينة داعية إلى الإيمان ، يقول ابن عاشور: "وقوله (آية) حال من اسم الإشارة ..وأكدت جملة (قد جاءتكم بينة)، وزادت على التأكيد إفادة ما اقتضاه قوله: (لكم) من التخصيص، وثبت أنها آية مقنعة لكم ومجعولة لأجلكم ... وتقديمه للاهتمام بأنها كافية لهم على ما فيهم من عناد"(١).

ولأجل هذا الوضوح والبيان في هذه الآية وإبصارهم لها في كل حين ، جاءت الحال الأخرى مجلية هذا الأمر كما في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ [٥٩ الإسراء] ، فالحال (مبصرة) تبين قدر وضوح تلك الآية ودلالتها على الحق ، يقول ابن عاشور: "ومعنى (مبصرة) واضحة الدلالة ، فهو اسم فاعل من أبصر المتعدي إلى مفعول ، أي: جعل غيره مبصراً وذا بصيرة ، فالمعنى أنها مفيدة البصيرة أي : اليقين ، أي تجعل من رآها ذا بصيرة وتفيده أنها آية"(٢).

ولأجل هذا الوضوح الذي كأنه لم يوجد في غيرها من الآيات،جعلها الله مثلاً لعدم انتفاع بعض الأقوام بما عندهم من الآيات رغم وضوحها فقال جل ذكره: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ [٥٩ الإسراء].

ورغم أن كل ما يتعلق بهذه الناقة كان آية في ذاته إلا أن الله جعلها بينهم للاتعاظ

---

(١) التحرير والتنوير ٨ القسم الثاني ٢١٨ ، والكلام عن آية الأعراف.
(٢) التحرير والتنوير ١٥ / ١١٤.

والتصديق ، وأيضاً ليختبرهم بها كما قال جل ذكره: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾ [٢٧ القمر]، فقوله تعالى: (فتنة) حال من الناقة وهو الأظهر في المعنى، قال ابن عاشور : "(وفتنة لهم) حال مقدر ، أي : تفتنهم فتنة هي مكابرتهم في دلالتها على صدق رسولهم ، وتقدير معنى الكلام إنا مرسلوا الناقة آية لك وفتنة لهم"[1] ، فالمراد أن الله أرسلها وهي فتنة ، كما أرسلها وهي آية ، كما جعلها مبصرة فهي أحوال ثلاثة لها ، كلها ماثلة فيها ، وهذا تصوير لكل أحوالها بينهم فقد كانت آية وعلامة ودلالة لمن أراد الهداية ، وكانت واضحة جلية يرونها بأعينهم ، وكانت ابتلاءً واختباراً لهم بما أمروا في شأنها وما نهوا ، وقد أخفقوا في الابتلاء والامتحان فعقروها فجاءهم العذاب .

ومن الحيوان أيضاً الكلب وقد جاءت منه الحال في قوله جل ذكره: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [١٧٦ الأعراف] فالجملة الشرطية في موضع الحال، وقد مضى تفصيل ذلك بما يغني عن الإعادة[2].

وكذلك الحمار كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [٥ الجمعة] ، فقوله جل ذكره (يحمل أسفاراً) " في موضع الحال من (الحمار) "[3] ، وهذه الحال هي مدار التشبيه إذ لا يتم مقصوده إلا بها ، والمراد من هذا التمثيل تشنيع حالهم[4] ، وليس يخفى ما في مجيء هذه الحال جملة فعلية من الإشعار بتجدد هذا الحَمْل ومع ذلك لا فائدة ، وليس يخفى تناسب ذلك مع الصاحب وهو الحمار ؛ إذ يرتبط ذكره عند العرب بالبلاهة والبلادة ، مع ما فيه من الصبر والجلد ، فكأنهم أجسام بلا عقول وهذه الحال وما قبلها ارتبطت بصاحب مذموم عند الناس في الحالة المذكورة خصوصاً ، ولا يرضى أحد أن يشبه بتلك الحيوانات وخصوصاً (الكلب والحمار) لما يرى في ذلك من الاحتقار ، والأحوال هنا لم ينظر فيها إلى الاحتقار فحسب، بل وإلى حالة خاصة في الكلب وفي الحمار.

---

(1) التحرير والتنوير ٢٧ / ١٩٩ وقيل: بأنها مفعول لأجله ، وأنها حال من المنوي من (مرسلو)، أي : باعثوها مبتلين، انظر التبيان ٢ / ١١٩٥، والفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٣٩٨.

(2) انظر ص٤١٠ من هذا البحث.

(3) التبيان ٢ / ١٢٢٢.

(4) التحرير والتنوير ٢٨ / ٢١٤.

ومما ورد في شأن الحيوان ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ [٢٥ الفتح] ، وقد سبق بيان سر التقييد بهذه الحال (معكوفاً) للهدى المسوق للبيت الحرام ، وإبراز أن ما فعلته قريش من رد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت كان فعلاً شنيعاً لم تسبق إليه.

ب- عالم الطير.

جاءت من الطير أحوال عامة وأخرى خاصة ، فأما العامة فالمدار فيها على التنبيه على عظمة الخالق وقدرته ؛ وذلك لأن باهر القدرة يظهر فيها حال طيرانها ، فلو ذكرناها هناك مع العوالم العلوية لكان ذلك متوجهاً، لكننا نظنا إلى مصدرها ومرجعها، ومن الآيات في هذا قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٧٩ النحل]، فقوله جل ذكره : (مسخرات) حال من الطير وكذلك (ما يمسكهن إلا الله)[١] ، وليس يخفى ما في هذه الأحوال من دلائل القدرة ؛ إذ المراد بمسخرات مذللات للطيران ، بتذليل الهواء لها ، "وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى"[٢].

والحال الثانية أظهرت القدرة وأعلنت عنها (ما يمسكهن إلا الله)؛ لأن "ثقل جسدها ورقة الهواء يقتضيان سقوطها، ولا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها"[٣]، (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون).

ومن ذلك إبراز حركة القبض والصف في أجنحة الطير خصوصاً ؛ لأنها في حد ذاتها من دقائق الخلق وباهر القدرة ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٤١ النور] ، فقد جاءت الحال (صافات) في سياق النظر في عبادة الكون لخالقه ، ولما كان طيران الطير من أعجب الأشياء خصص بالذكر ، وخصص من أحواله (صف الأجنحة) ؛ لأنه أدل على القدرة من تحريكها وفي كلٍ قدرة ، والطير -في هذه الحالة العجيبة المبهرة الدالة على خالق عظيم- يسبح الله ويصلي له ، فسبحان الله الخلاق.

---

(١) انظر التبيان ٢/٨٠٤.

(٢) تفسير أبي السعود ٥ / ١٣٢.

(٣) تفسير أبي السعود ٥ / ١٣٢.

ومن هذا الباب تقديم الصف على القبض ، والتعبير معه بالاسم ومع القبض بالفعل في (صافات ويقبضن) في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [١٩ الملك]، وقد سبق تفصيل ذلك في الفصل الأول[1].

وهكذا نجد أن الأحوال من الطير جاءت في سياق الحث على التفكر والنظر كما يدل عليه قوله تعالى : (ألم يروا) وجاءت الأحوال متناسقة مع ذلك ، فقد أبرزت أظهر مجالات القدرة في الطير.

ج- عالم النبات.

جاءت منه أحوال تبين تنوعه وتشابهه حيناً واختلافه حيناً آخر، وهذا من دلائل القدرة كما قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٩٩ الأنعام]، يقول العكبري : "(مشتبهاً): حال من الرمان ، أو من الجميع"[2]، وكذلك ما عطف عليه وهو (غير متشابه)، وهي حال كما نرى تثبت التشابه ثم تنفيه ، والمراد إثبات التشابه والاختلاف ، يقول الألوسي بعد ما ذكر أوجه الإعراب: "وأياً ما كان ففي الكلام مضاف مقدر وهو بعض أي:بعض ذلك مشتبهاً، وبعضه غير متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها، وحكمة منشيها ومبدعها جل شأنه، وإلا كان المعنى جميعه مشتبه وجميعه غير مشتبه وهو غير صحيح"[3].

ويبين ابن عاشور سر الجمع بين الكلمتين فيقول: "والتشابه والاشتباه مترادفان كالتساوي والاستواء وهما مشتقان من الشبه ، والجمع بينهما في الآية للتفنن كراهية إعادة اللفظ؛ ولأن اسم الفاعل من التشابه أسعد بالوقف لما فيه من مد الصوت بخلاف (مشتبه)

---

[1] انظر ص٢٧ من هذا البحث.

[2] التبيان ١ / ٥٢٥.

[3] روح المعاني المجلد الرابع الجزء السابع ٢٤٠.

وهذا من بديع الفصاحة"[1].

أما عن مناسبة هذه الحال للنبات وذكرها معه فيقول ابن عاشور : "والمقصود من التفنن بهذه الحال التنبيه على أنها مخلوقة بالقصد والاختيار لا بالصدفة"[2].

ونقف وقفة أخرى مع آية أخرى فيها بعض أحوال النبات والزرع، هي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ [١٤١ الأنعام]، فهاهنا حالان مشابهان لما سبق هما : "متشابهاً وغير متشابه) إلا أنه في الآية السابقة جاء (مشتبهاً) بدلاً من (متشابهاً)، ويرى ابن عاشور أن الكلمتين بمعنى واحد فليست صيغة التفاعل للمبالغة[3].

ويبدو لي أن وراء ذلك من التناسب ما لا يكشف عنه مثل هذا الكلام ، وقد وجه ابن الزبير هذا التخالف بأنه "ورد في أولى الآيتين على أخف البنائين ، وفي الثانية على أثقلها، رعياً للترتيب المتقرر "[4].

وكان البقاعي في توجيهه أعمق وأدق ، وإن كان فهمه أصعب وأشق حيث ذكر عن (مشتبهاً) في الآية الأولى أن السياق لما كان "لإثبات الوحدانية ونفي الشرك بإثبات كمال القدرة التي هي منفية عن غيره ، فلا يصح أن يكون له شريك ؛ لأنه لا يكون إلا مشابهاً لشريكه كمال المشابهة فيما وقعت الشركة فيه ، وللبعث[5] فكان المراد التفكر في ظواهرها وتقلباتها من العدم إلى الوجود وبعد الوجود ،ولمحاجة أهل الكتاب الموسومين بالعلم المنسوبين إلى حدة الأذهان وغيرهم من الفرق ، وكان (افتعل) يأتي للتعريف ، وهو المبالغة في إثبات أصل الفعل والاجتهاد في تحصيله والاعتمال فكان حصوله إذا حصل أكمل ، قال بانياً حالاً من كل ما تقدم (مشتبهاً) أي: في غاية الشبه بعضه لبعض حتى لا يكاد يتميز... فلا يقابله حينئذٍ نفي التفاعل ؛ فإنه لمجرد مشاركة أمرين أو أكثر في أصل

---

[1] التحرير والتنوير ٧ / ٤٠٢.

[2] التحرير والتنوير ٧ / ٤٠٢.

[3] انظر التحرير والتنوير ٨ / ١١٩.

[4] ملاك التأويل ١ / ٣٣٩.

[5] أي: ولإثبات البعث.

الفعل ... ثم لما كان ربما تمسك القائل بالطبائع بهذه العبارة نفى ما ربما ظُنَّ من أن لهذه الأشياء عملاً في اشتباه بعضها ببعض فقال : (وغير متشابه) أي غير طالب للاشتباه مع أنه لابد من شبه ما ..." [١].

وقال عن الآية الأخرى (متشابهاً) : "ولما كان معظم القصد في هذا السياق نفي الشريك، وإثبات الفعل بالاختيار لم يَدعُ الحال إلى ذكر كمال الشبه فاكتفى بأصل الفعل فقيل (متشابهاً")[٢].

والذي يظهر من هذا كله أن الاشتباه يدل على المبالغة في إثبات أصل الفعل ، وهو أقوى في كمال الشبه ، أما (التشابه) فهو مجرد المشاركة في أصل الفعل.

وأما عن سر مجيء هذه الأحوال من الزيتون والرمان _ وهو أحد الأقوال_ فلِمَا لا يخفى من تشابه في أشجارها وثمارها ، واختلاف في طعومها وألوانها ، ولعل الزيتون خير دليل على هذا فشجرته واحدة وثمرته إن أردت أن تقول إنها متشابهة فهي كذلك فشكلها واحد ، وإن أردت أن تقول إنها غير متشابهة فهو صحيح ؛ لاختلاف ألوانها فمنها الأسود ومنها الأخضر ، وكذلك اختلاف طعمها ، ولو قيل مختلفاً بدلاً من (غير متشابه) لم يحصل المراد من أن مرد ذلك هو اختلاف النظرة ، وذكر الاختلاف لو ذكر يدل على التباين وليس الأمر كذلك.

ولهذا لما وجد التفاوت في الأصل والاختلاف الظاهر في الأنواع قال عن النخل والزرع (مختلفاً) أكله ، وليس يخفى أن ثمر النخيل يمكن وصفه بالاختلاف في الحجم والشكل والهيئة والطعم والنوع[٣] ، وأما الزيتون فالهيئة والشكل واحد والاختلاف في اللون والطعم ، لهذا جاء الحال من النخل (مختلفاً أكله) ومن الزيتون على ما رأينا.

د- عالم الجماد.

سنقف من ذلك مع الجبال في أحوال ثلاثة لها ، أولها يُظهر اطمئنان بعض الأقوام إلى قوهم كما في قوله تعالى في شأن ثمود: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ

---

(١) نظم الدرر ٧ / ٢١١ ، ٢١٢.
(٢) نظم الدرر ٧ / ٢٩٠.
(٣) انظر نظم الدرر ٧ / ٢٩٠.

وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [٧٤ الأعراف]، فقوله جل ذكره : (بيوتاً) محتمل للحالية، والمعنى (معمورة أو مبنية)[١] ، وعلى كل حال فالكلمة تشعر بقوتهم وشدتهم في كون بيوتهم من الجبال أو فيها، وتشعر أيضاً بامتنان الله عليهم بهذا.

والحال الثانية تبين أثر القرآن في الجبال الصم ، قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [٢١الحشر] ، فقوله جل ذكره: (خاشعاً متصدعاً) " حالان من الضمير المنصوب في قوله (لرأيته) ، لأن الرؤية من رؤية البصر..."[٢] ، وليس يخفى ما في هذين الحالين من تعظيم شأن القرآن ، وفيه أيضاً وعظ للإنسان الذي لم يقدر هذا الكلام حق قدره ، يقول البقاعي : "(لرأيته) أي : مع صلابته وقوته ... (خاشعاً) : أي مطمئناً مخبتاً على صلابته متذللاً ... (متصدعاً) أي: متشققاً غاية التشقق ... من خشية الله ... فما لابن آدم وقد أتاه الله من العقل ما لم يؤت الجبل يستخف بحقه ويعرض عما فيه من العبر"[٣].

والحال الثالثة تبين عظمة الله وقدرته في إزالة الجبال الرواسي إذا أراد سبحانه ، قال جل ذكره: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [١٠٥ - ١٠٧ طه] ، فقوله تعالى : (قاعاً) حال من ضمير الجبال في (فيذرها) وصفصفاً نعت للقاع[٤] ، فانظر مدلول هذه الحال ، الجبال تكون في لحظة (قاعاً) والكل يعرف القاع واستواءه، وحتى لا يُظن أن فيه نتوءات وصفه بـــ (صفصفاً) أي : مستوياً ، فلله ما أعظم هذه القدرة وأجل شأنها!.

ولا شك أن مناقشة كل شاهد ومناسبته لصاحبه أمر يطول ، ثم إنه يمكن أن يستوعب البحث كله ، لذا أوردت في هذا الفصل مجمل ما يخص كل صاحب باذلاً جهدي في تحري الصواب ، وإظهار الخصائص والسمات والعلل معوِّلاً على ما سبق في فصول البحث مجتنباً التكرار قدر الاستطاعة بالإحالة والإشارة ، ويمكن القول ــ ختاماً

---

[١] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢ / ٣٢٧.
[٢] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤ / ٤٥٢.
[٣] نظم الدرر ١٩ / ٤٦٢.
[٤] انظر الفريد في إعراب القرآن المجيد ٣ / ٤٦٤.

لهذا الفصل ــ ، بأن الحال من الذات الإلهية كان محورها وحدانية الله جل ذكره ، وإثبات صفات القدرة والكمال له ، ونفي صفات النقص والذم عنه سبحانه.

وأما الحال من الرسل صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين فكان أبرز ما فيها بيان وظائفهم ومهماتهم ؛ من التبشير والإنذار والدعوة والرسالة، وكذلك إيضاح بعض أحوالهم الخاصة بكل منهم ، وأظهرت الحال في الغالب الأمر الأهم في حياة كل نبي.

وأما الحال من المؤمنين فقد كانت لبيان أوجه التشريع لهم ، وحثهم وتوجيههم ، وجاءت أيضاً لبيان كرامتهم عند ربهم ومنته عليهم في الدنيا ثم في الآخرة ، وشملت الأحوال منهم مدحهم بحسن اعتقادهم وأخلاقهم ، وعباداتهم وسلوكهم.

وأما الحال من الملائكة فهي تتلخص في إظهار صفاتهم وعباداتهم ، وتتجلى أيضاً في إظهار أعمالهم ووظائفهم ، وتتعرض لإنكار ما نسب إليهم زوراً وبهتاناً.

وأما الحال من الكتاب فهي تكاد تنحصر في إظهار شأنه حال نزوله أو إنزاله ، وذلك من خلال وصفه بالتصديق لما قبله ، والهداية والبشرى ، والرحمة ... وهو يلتقي مع الأنبياء والرسل في بعض الأحوال ، كالتصديق والرحمة والتبشير؛ لأن الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب واحدة.

وأما الحال من الكافرين ، فهي ــ بإيجاز ــ ضد ما كان للمؤمنين إلا ما كان من جانب التشريع والتوجيه فلا نجده مع الكافرين إلا في حدود خاصة ، ولا عجب فالتوجيه إنما يكون للمؤمن المصدق، وما عدا ذلك فالأحوال منهم إما أنها تصور ذلتهم وهوانهم وعذابهم في الدنيا والآخرة، وإما أنها تحكي ذمهم ولومهم على قبائحهم الشنيعة التي من أعظمها الكفر، والاعتقادات الفاسدة ، والأخلاق المرذولة ، والعادات السيئة.

وأما الحال مما لا يعقل فمن أظهر سماتها أنها في العوالم العلوية السماوية تبرز جانب القدرة والعظمة مما يدعو إلى النظر والتفكر ، وتبرز أيضاً جانب الامتنان على العباد ليشكروا خالقهم ، وهي أيضاً تُعنى من تلك العوالم بمظاهرها العظيمة من غير خلوص إلى الجزئيات لعدم قدرة الإنسان الوصول إليها ، وأما العوالم الأرضية ففيها تفصيل أكثر ، وتبيين أدق لملاصقتها للإنسان ؛ لذا هو يستدل بمعالمها وعوالمها على باهر الخلق وقدرة الخالق ، وفيها أيضاً لفت إلى المنــّة ، لكن بدقائق الصنع وبديع الخلق .

الخاتمة

وبعد هذه المسيرة الطيبة مع القرآن ونظمه وإعجازه، ومع توجيهات العلماء وتحليلاتهم، أحب أن أقف لأسجل بعض ثمار هذه الرسالة، وشيئاً مما ظهر لي من نتائجها،ومن ذلك ما يأتي:

- أن دراسة القضايا الخاصة الدقيقة في النظم القرآني أجدى -في نظري- من دراسة الموضوعات والظواهر العامة؛ لما في الأولى من التركيز والحصر، وجمع المتشابهات والوصول إلى نتائج تكون أقرب إلى القبول، وأدق في الحكم.
- أن الظواهر النحوية في القرآن الكريم جديرة بالوقوف عندها، وتحليلها وتعليلها، وبهذا يتعانق العلمان- النحو والبلاغة- في خدمة الكتاب العظيم وإبراز إعجازه، كما أن ذلك يتيح مادة تطبيقية واسعة يفاد منها في الاستشهاد والتعليم، في العلمين على السواء؛ وما أجمل أن يمزج النحو بلطائف البلاغة، وتعليلات البيانيين!.
- أن شواهد الحال في القرآن الكريم كثيرة فاشية، شملت موضوعات عدة ، وجاءت على أساليب متنوعة، فمنها المفرد ، والجملة ، وشبه الجملة، ومنها الجامد والمشتق، وغير ذلك، كما أن منها مايقل وروده ، ومنها مايكثر تكرره مثل : (خالدين فيها)، و(جميعاً)، وهناك ألفاظ لم تأت إلا حالاً مثل : (جميعاً)، و(كافة)، و(مصدقاً) بالإفراد والنصب، و(بغتة وهم لايشعرون)، و(وحده) ، و(مبشرين ومنذرين) و(جهد أيمانهم).
- أن دلالة الإسم تختلف حسب نوعه وصيغته ، فالجامد غير المشتق، وغير المصدر، وإن كنا نجد قدراً مشتركاً في الدلالة العامة:دلالة الثبوت والاستمرار، كما أننا نجد قدراً مشتركاً بين الأفعال في الدلالة على الحدث.
- أن علة التمايز بين دلالتي الاسم والفعل، هي أن الاسم سابق في الوجود على الفعل؛ إذ ليس من فعل إلا وله فاعل؛ لذا فهو أدل على الثبوت من الفعل، الذي هو ناشيء عن الذات، فهو يدل على الحدوث والتجدد.
- أن هناك تقارباً لا يُنكر بين الاسم المشتق والفعل المضارع ، وذلك هو مجال الموازنة بين الأسماء والأفعال، فالمشتق يدل على الثبوت والاستمرار غير المنقطع ، ويشعر

بالسكون وعدم الحركة، بينما المضارع يدل على تجدد الحدث ، وعلى استحضار الصورة ، وعلى التصوير الحركي .

- أن دخول بعض الحروف أو الأدوات على الفعل يؤثر في دلالته، فلا بد من استصحاب الدلالتين عند التحليل: دلالة الحرف والأداة ودلالة الفعل ، فــ(قد) مع المضارع ، تعطي مدلولاً خاصاً، غيره مع الماضي ، ولو شاركتها الواو لأعطت مدلولاً جديداً ، فمثلاً الماضي المقترن بــ(قد) يدل على مضي الفعل وانقضائه، ولو شاركتها(الواو) لكان ذلك آكد في الدلالة على تمام الفعل وانتهائه، فليس قولك: جئته قد ركب ، مثل: جئته وقد ركب، أما إذا خلا الماضي من (قد) فإنه يشعر بمصاحبة الحال (الفعل الماضي) للفعل ، مع التدليل على وجود سوابق اقتضت ذلك، مثل: {أو جاءوكم حصرت صدورهم} [٩٠النساء]، وهذا يعني أن سبق وقوع الفعل يكون على درجات متفاوتة، والذي يميز هذا عن ذاك نوع الأداة الداخلة على الفعل الماضي.
- أن صيغة الكلمة تؤثر في معناها ، حتى لو كانت من فصيلة واحدة، فالمشتقات تختلف معانيها بحسب صيغها، فاسم الفاعل: غاضب، ليس في المعنى مثل اسم الفاعل: مغاضب، ومعجزين ليست مثل: معاجزين، كما أن الجامد اسم الذات ليس كاسم المعنى.
- أن المصدر يقع كثيراً في مواضع تقتضي عموماً أو شيوعاً ، بحيث يحتمل الحال أكثر من صاحب ، ولو ذكر المشتق لحدد الصاحب ، فيكون في ذكر المصدر الصالح للصاحبين وفاءً بالمعنى مع فضيلة الاختصار والإيجاز ، مثل : (نحلة)في قوله تعالى: {وآتوا النساء صدقاتهن نحلة} [٤النساء] بمعنى (ناحلين)، أو (منحولات).
- ظهر لي أن مما هو بارز في مقامات التفسير والتعليل اسم الذات والفعل الماضي.
- ظهر لي أنه يعبر بالمصدر عن المثنى أو الجمع إذا أريد بيان التوحد والالتقاء مثل (هدى) : ﴿وأنزل التوراة والإنجيل، من قبل هدى للناس﴾[٣،٤ آل عمران]، وإذا أريد بيان الاشتراك في أصل الفعل مع الاختلاف في حقيقة كل منهما فيكون الموطن للمثنى الصريح مثل: (دائبين) في قوله تعالى:﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾[٣٣إبراهيم].

- أن دلالة الجملة الاسمية ليست واحدة ، بل هي خاضعة لنوع الخبر ، فقد تدل على تأكيد الاستمرار، وقد تدل على التجدد إذا كان الخبر مضارعاً ، وقد تدل على الانقضاء إذا كان خبرها ماضياً ، وكذلك تتأثر دلالتها بنوع المبتدأ فالضمائر لها دلالات تتعلق بعضها بالمباشرة في التوبيخ والتقريع مثل:(وأنتم تعلمون) ، وأحياناً تشعر بالإعراض، كما في بعض ضمائر الغياب، والاسم العلم له مدلوله الخاص، فالجملة المبدوءة بلفظ الجلالة(الله) غير المبدوءة بـــ (ربكم) مثلاً.
- أن حروف الجر لها شأن عجيب في القرآن ، وخصوصاً ما خرج منها عن الظاهر ، وهو ما يعرف بالتناوب، فهو موضوع دقيق كثير في القرآن.
- أن بين الظرف والجار والمجرور التقاءً في جوانب تحتاج إلى كشف مدلولها، من ذلك دخول الجار على الظرف، ونيابة الجار عن الظرف، كما أن الجار لا يمكن تفسير مدلوله دون استحضار مدلول مدخوله ، فليس مدلول:(من رهم)، مثل مدلول:(من الله).
- ظهر لي أن سبب تقديم الحال على صاحبها أو عاملها أو كليهما هو العناية بالحال، وبيان أنها موضع الاهتمام ، أو إرادة التوكيد والتقوية حتى يبنى الكلام عليها ، أو قصد التخصيص .
- ظهر لي أن التأخير وإن كان هو الأصل فإنه ليس هناك ما يمنع من تعليله، والبحث في سره، في ظل السياق والموقع والغرض ؛ وذلك لأننا نجد في الأسلوب القرآني أن الحال تتقدم أحياناً في مواضع لا يقال فيها بالوجوب،وإنما اقتضاها المعنى المراد، مثل التأخير في :{نكص على عقبيه}[٤٨الأنفال]،والتقديم في:{فكنتم على أعقابكم تنكصون}[٦٦المؤمنون].
- أن حذف الحال كثير في القرآن فقد زادت مواطنه على مائة وخمسين، وقد ظهر لي أن من أغراض ذلك : التخفيف، ولتتوفر العناية على المذكور ، ولبيان شهرة الحال، ولضيق المقام في تعجيل المسرة أو المساءة، وللتعميم وذهاب الذهن كل مذهب في تخيل الحال، ولتصوير الموقف وإحيائه بنقله كأنه يحدث الآن، وذلك بطي الحكاية والقول.
- أن الحال ذكرت في مواضع يتبادر إلى الذهن الاستغناء عنها، وذلك لوجود المرادف، أو التكرار، أو الاستلزام، أو البداهة، وكان ذكرها لإغراض ظهر لي منها: العناية

بشأن المذكور وبيان أن غيره لا يغني عن تعيينه، وإرادة الحصر فيه بعينه، ودفع توهم غير المراد لوجود الاحتمال .

- ظهر لي أن الحال تأتي فيما يراد منه بيان الهيئة والصورة إما لأجل التنفير منها، أو الحث عليها أو إنكارها أو التعجب منها ، كذلك تظهر الحال فيما يراد منه إبراز الحركة، بينما تأتي الصفة مع الثوابت والذوات ، والمعاني القائمة غير المتحولة، وهذا يتسق مع كون الصفة وصف للذات، والحال وصف للحكم ، والحكم متغير منتقل، والذات غير منتقلة.

- ظهر لي أن الصفة تكررت كثيراً مع الأجر والثواب ، ومع ضده الإثم والعقاب ، وكذلك مع وصف (القوم) معرّفة ومنكرة ، بينما كثرت الحال في تصوير مشاهد الآخرة، وأحداث الأمم الغابرة، وبيان أحوال المؤمنين والكافرين.

- أن ظاهرة التعدد في الأحوال بينة لا خفاء فيها ولا مجال لإنكارها ، وقد ظهر لي من خلال استعراضها ودراستها أنها جاءت لأغراض من أهمها : استيفاء الأقسام ، واستكمال جوانب المدح أو القدح، والاحتراس ،وإرادة التقييد بأحوال كثيرة ، والتوكيد إذا تقاربت المعاني .

- أن الربط بالواو والضمير أو أحدهما موضوع دقيق صعب، لكن تبين لي أن أصل الربط هو استقلالية الجملة الحالية ؛ لذا إذا وجد فيها ما يغني عن الرابط الخارجي (الواو) اكتفي فيها بالضمير ، فإن عرض لها ما يوجب زيادة الربط كرد الإنكار أتت الواو مع الضمير ، ثم إن ما ذكر فيه الضمير وحده يراد منه إدخال الجملتين في بعضهما، وعدم السماح بينهما بفاصل، حتى كأن الجملة الحالية بمنزلة عطف البيان والتوكيد من الأولى، وأما ما جاءت فيه (الواو) فالمراد فيه إبراز استقلال الجملة الثانية، وأيضاً إرادة الإشعار بعلاقتها مع سابقتها من غير تداخل وتمازج ؛ لأن الواو تحمل دلالة المغايرة والجمع .

- أن للقيود شأناً كبيراً في الكلام، وأنها تأتي في كل أحواله: في الإثبات والنفي والنهي والاستفهام، والحال أحد هذه القيود، التي قد تكون هي محط العناية، وقد تُراد مع المقَيَّد، وقد يراد المقيد وحده، ويكون للحال حينئذ غرض فوق التقييد، كبيان درجة التشنيع أو الإنكار، وذلك إذا كان الفعل في أصله منْكَراً ، وقد يراد منها تعليق

الفعل بأعلى حالاته ليُعلم أن ما دون ذلك من باب أولى نفياً أو إثباتاً ، وذلك لمزيد من الإقناع والتأكيد ، أو للتعليل والبيان ، أو للتشنيع والتقبيح ، أو للمدح والثناء .

- ظهر لي أن التصوير بالحال شائع كثير، ويكفي أن نعلم أن جل شواهد الأداتين الرئيستين إما حال أو محتملة له على الأقل، وأن طرقه تنوعت فمنها : التشبيه ، والمجاز ، والكناية، والجرس ، والإيحاء ، واللون ، والحذف ، ولا أجاوز الحقيقة إذا ما قلت إن مما استهواني في هذه الدراسة تلك الملامح التصويرية التي نقلتها الحال، مع تلك التوجيهات الحسنة من الباحثين القدامى والمحدثين.
- أن لكل نوع من التصوير شأنه وخصائصه ، فالتصوير بالتشبيه يراد منه الإيضاح للمغيبات، سواء كان ذلك لأمور الآخرة ، أم لقصص الأمم الغابرة ، أم لإظهار مكنونات النفوس وخفاياها، أما المجاز بنوعيه فإنه يحمل من المبالغة ما ليس في التشبيه، كما أنه يحمل من سمات التجسيم والتشخيص ما يجعل المشهد ناطقاً ، والصورة بالحياة نابضة ، وأما الظل، والإيحاء، والجرس ، واللون ، والحذف ، فكلها أدوات للتصوير قد تتداخل وقد تتمايز، لكنها بعمومها أسهمت بوضوح في نقل تلك الصور الحالية المعبرة.
- ظهر لي أن جمال التشبيه والاستعارة والمجاز العقلي والجرس إنما يتضح ويبرز ويؤثر في النفس عندما نتجاوز التقعيد المنطقي ، وندلف إلى وقع الصورة في النفس، من غير أن نشغل أنفسنا كثيراً بإجراءات مطولة قد نختلف فيها، وننسى معها المقصود الأسمى من التصوير .
- أن التصوير كثير في مشاهد الآخرة: البعث ، والحشر، والجنة، والنار، ولعل سر ذلك أن المراد هو تخويف العباد وتشويقهم ، ولا شك أن للتصوير قدرة تأثيرية لا تنكر، وبخاصة في مثل هذه المقامات الغيبية؛ لأنه ينقل إلى الخيال بعض ملامح تلك الصور، فتخاف النفس أو تشتاق.
- أن الصفة تلتقي مع الحال في جوانب كثيرة، في الأنواع ، والأغراض ، وأحياناً في الشواهد، وهذا الالتقاء معروف غير منكر أقر به علماء العربية ، يقول أبوحيان: ((والحال والصفة متلاقيان من حيث المعنى))[1]، لكن ظهر لي أن الحال أبرز من

---

[1] - البحر المحيط ١٩٤/٣.

الصفة في مجال التصوير والحركة، ومرد ذلك إلى كون الحال لبيان الهيئات بينما الصفة لبيان الذوات.

- ظهر لي أن صاحب الحال في القرآن لا يخرج في مجمله عن أن يكون هو: الذات الإلهية، أو الرسل الكرام ، أو المؤمنون ، أو الملائكة ، أو الكتاب العزيز، أو الكفار ، أوما لا يعقل ، وأن حجم الأحوال التي وردت تتفاوت في الكثرة ، ولعل أكثرها وروداً ما كان في حق المؤمنين، ثم الكافرين ، ولعل سر ذلك أن هذين الصنفين هم أكثر من يُخاطب في القرآن، فكان لابد من بيان أحوالهم ومآلهم.
- أن هناك تناسباً ظاهراً بين الحال وصاحبها ، فمن الذات الإلهية نجد أن الأحوال تبرز قضية الوحدانية ، والعلم ، والحكمة ، وصفات الكمال ، وتنفي عنه سبحانه صفات النقص والعجز، وكذلك مع الرسل الكرام نجد بياناً وافياً لوظائفهم وعرضاً واضحاً لصفاتهم ، وإظهاراً لأبرز القضايا لكل نبي ، وهكذا سائر الأحوال على اختلاف الصاحب، على ما هو مبسوط في البحث.

ومما يوصي به الباحث بناءً على ما ظهر له من خلال هذا الدراسة ما يأتي :

أ- العناية بالفوارق الدلالية بين المتشابهات، وخصوصاً ما يكون بينها تناوب أو تجاور، كطريقي الجر في العربية وهما : دخول الجار والإضافة، فليس الجر في : (على هدى من ربهم)، بالحرف في الدلالة مثله في:(على هدى ربهم) بالإضافة.

ب-دراسة حروف الجر دراسة واعية متخصصة ، إما من خلال السورة الواحدة ، وإما من خلال الحرف الواحد في القرآن كله.

ت- أن يقوم كل باحث في القرآن الكريم بتسجيل مرئياته حول ما يقترح دراسته في القرآن الكريم، والطريقة التي يراها ، والموضوعات التي يقترحها، حتى يتسنى وضع هيكل عام، أو معجم ضخم للبلاغة القرآنية، من خلال الكشف عما في بطون الكتب والتفاسير وكتب الإعجاز.

ج- أن يتخذ القسم خطة بعيدة المدى في اختيار موضوعات يكمل بعضها بعضاً ، حتى نصل إلى دراسات متكاملة لأهم قضايا الإعجاز اللغوي في الكتاب العظيم، ويمكن أن يكون ذلك على مستويات تبدأ بالصوت (الحرف) ثم بالكلمة ، ثم بالجملة ، ثم بالتركيب.

مسرد المصادر والمراجع

أولاً: الكتب.

*- القرآن الكريم.

*- أثر النحاة في البحث البلاغي، د/ عبدالقادر حسين، دار النهضة مصر.

*- أدوات التشبية:دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، د/ محمودموسى حمدان، مطبعة الأمانة، القاهرة،ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

*- ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبوحيان، تحقيق: د/ مصطفى أحمد النماس،مطبعة المدني، ط١، ١٤٠٤هـ،١٩٨٤م، والجزء الثاني طبع سنة ١٤٠٨هـ،١٩٨٧م،والثالث سنة ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

*- الأزهية في علم الحروف، الهروي ، تحقيق : د/عبدالمعين الملّوحي، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ، ط٢، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

*- أساس البلاغة، الزمخشري، دار الكتب،ط٢، ١٩٧٢م.

*- أساليب البيان والصورة القرآنية، د/محمد إبراهيم شادي، دار والي الإسلامية، المنصورة،ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

*- أساليب التوكيد في القرآن الكريم ، د/ عبدالرحمن المطردي، الدار الجماهيرية، ط١، ١٣٩٥هـ ، ١٩٨٦م.

*- أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم، د/مختار البرزة، مؤسسة علوم القرآن دمشق بيروت.

*- الاستغناء في أحكام الاستثناء، شهاب الدين القرافي، مطبعة الإرشاد بغداد.

*- أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، دار المدني جدة، ط١،١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

*- أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، ملك حسن بخش، دار المجتمع، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

*- أسرار الفصل والوصل، د/ صباح عبيد دراز ، مطبعة الأمانة، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

*- أسرار النحو، ابن كمال باشا، تحقيق: أحمد حسن حامد، دار الفكر عمان.

*- أسلوب التغليب في القرآن الكريم ، د/ محمود عبدالعظيم صفا ، مطبعة الأمانة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

*- الأشباه والنظائر في النحو، جلال الدين السيوطي، دار الباز مكة، دار الكتب العلمية،ط١،١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.

*- أضواء البيان، الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

*- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، ط٩، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

*- الإعجاز النحوي في القرآن الكريم، د/ فتحي عبدالفتاح الدجني، مكتبة الفلاح الكويت ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

*- إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محيي الدين الدرويش ، دار ابن كثير، اليمامة دمشق، بيروت، دار الإرشاد حمص،ط٣، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
*- إعراب القرآن، المنسوب للزجاج،تحقيق: إبراهيم الأبياري، المؤسسة المصرية العامة، المطابع الأميرية، ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.
*- ألفية ابن مالك في النحو والصرف، لابن مالك، دار الباز ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ،١٩٨٤م.
*- الألوان في القرآن الكريم، عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم بيروت،ط ١، ١٤١١هـ،١٩٩١م
*- أمالي ابن الشجري، هبة الله بن الشجري، تحقيق: د/ محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
*- الانتصاف بحاشية الكشاف، ابن المنير الاسكندري، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الريان القاهرة، دار الكتاب العربي بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م
*- الإنصاف في مسائل الخلاف، أبو البركات الأنباري، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر .
*- أنوار التنزيل مع حاشية الشهاب عليه، البيضاوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
*- أنوار التنزيل مع حاشية زادة عليه، البيضاوي، دار صادر بيروت، المكتبة الإسلاميةتركيا.
*- أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك ، ابن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية مصطفى الباز، مطبعة السعادة، بمصر، ط٥، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م
*- الإيضاح في شرح المفصل، ابن الحاجب، تحقيق: د/ موسى بناي العليلي، مطبعة العاني بغداد.
*- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط٦، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م
*- البحر المحيط، أبوحيان، اعتنى به: عرفات العشا حسّونة، وزهير جعيد، المكتبة التجارية، مصطفى الباز، مكة.
*- البحرالمحيط، أبوحيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
*- بدائع التفسير الجامع لتفسيرابن القيم،جمعة يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١٤١٤،١هـ، ١٩٩٣م.
*- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الفكر.
*- البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: د/ أحمد أبوملحم وآخرين، مؤسسة الكتب الثقافيةدار الكتب العلمية بيروت.
*- البدهيات في الحزب الأول من القرآن الكريم، د/ فهد الرومي، مكتبة التوبة،ط١٤١٧،١هـ، ١٩٩٧م.
*- البدهيات في القرآن الكريم،دراسةنظرية، د/فهد الرومي، مكتبة التوبة، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
*- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر،ط٣، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
*- البلاغة فنونها وأفنانها، د/ فضل حسن عباس، دار الفرقان ، ط١٤١٣،٣هـ، ١٩٩٢م.

*- البلاغة القرآنية عندالزمخشري، د/محمد أبوموسى ، مكتبة وهبة، القاهرة، دار التضامن، ط٣، ١٤٠٨هـ ـ١٩٨٨م.
*- بلاغة الكلمة والجملة والجمل،د/ منير سلطان،منشأة المعارف الأسكندرية، ط١، ١٩٨٨م.
*- بناء الجملة بين منطق اللغة والنحو، د/نجاة الكوفي، النهضة العربية.
*- البيان في غريب إعراب القرآن، ابن الأنباري، تحقيق: طه عبدالحميد طه، مراجعة : مصطفى السقا، الهيئة المصرية للكتاب، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، وطبعة ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.
*- تاريخ الأمم والملوك، الطبري،مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
*- التأنيث في اللغة العربية، د/إبراهيم بركات، دار الوفاء، ط١، ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.
*- التأويل النحوي في القرآن الكريم، د/عبدالفتاح الحموز،مكتبة الرشد بالرياض، ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
*- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرحه ونشرة: السيد أحمد صقر،المكتبة العلمية المدينة المنورة،ط٢،١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
*- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
*- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، شرف الدين الطيبي تحقيق: د/هادي عطية الهلالي، عالم الكتب بيروت مكتبة النهضة العربية، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
*- تجديد النحو، د/ شوقي ضيف، دار المعارف ط٣.
*- تحرير التحبير، ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق: د/حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث بالقاهرة، ١٣٨٣م.
*- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، الدار الجماهيرية.
*- تدبر سورة الفرقان، عبدالرحمن الميداني، دار القلم دمشق، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
*- التركيب الاستثنائي في القرآن دراسة نحويه بلاغية، ربيعة الكعبي، دار الغرب الإسلامي بيروت ط١، ١٩٩٣م.
*- التركيب النحوي وشواهده القرآنية، د/ محمد أبو الفتوح شريف، مكتبة الشباب مصر،ط٢، ١٤١٤هـ،١٩٩٣م.
*- التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبدالقاهر، د/عبدالفتاح لاشين، دار المريخ.
*- التصوير الساخر في القرآن الكريم، د/ عبدالحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
*- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، مكتبة القرآن.
*- التعبير الفني في القرآن ، د/بكري شيخ أمين ، دار الشروق ، ط٣، ١٣٩٩هـ،١٩٧٩م.
*- التعريفات، الشريف الجرجاني، تحقيق: د/ عبدالرحمن عميرة، عالم الكتب بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م
*- تفسير أبي السعود،أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي بيروت.

*- تفسير القرآن الحكيم (المنار)، محمد رشيدرضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣.
*- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
*- التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، مطبعة السنة المحمدية، مصر.
*- تلخيص البيان في مجازات القرآن ، الشريف الرضي ، تحقيق: د/ علي محمود مقلّد، منشورات دار مكتبة دار الحياة بيروت.
*- التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي بيروت، ط٢، ١٣٥٠هـ.
*- ثلاث رسائل في الإعجاز، الرماني، والخطابي، وعبدالقاهر الجرجاني، تحقيق : محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر.
*- جامع الأصول في أحاديث الرسول ، ابن الأثير الجزري، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، ١٣٩٢هـ،١٩٧٢م.
*- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.
*- جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني،راجعها ونقحهاد/محمدأسعد النادري، المكتبة العصرية،بيروت ط١٤١٦،١،٣١هـ، ١٩٩٦م
*- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث،ط٣، المصورة عن الطبعة الثانية المحققة.
*- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود الصافي، دار الرشيد دمشق، مؤسسة الإيمان بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م
*- جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف، دار المكتبي دمشق، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
*- الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تحقيق: د/ فخري الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
*- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ،محمد الخضري، دار الفكر ببيروت، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٨م.
*- حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، الدسوقي، مطبعة الحاج محمد أفندي البوسنوي.
*- حاشية الصبان على شرح الأشموني، الصبان، دار الفكر .
*- حاشية يس علىشرح التصريح، يس العليمي، دار الفكر .
*- الحال في الأسلوب القرآني، عبدالستار سعيد، المنشأة العامة، طرابس، ط١، ١٣٩٣هـ، ١٩٨٤م
*- الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى عبدالسلام أبوشادي،مكتبة القرآن، مكتبة الساعي.
*- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني، ط٣، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.
*- الخصائص، ابن جني، دار الكتاب العربي بيروت.

*- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، تحقيق: د/ أحمد محمد الخراط، دار القلم دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م
*- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث القاهرة.
*- دراسات لغوية في القرآن، د/ أحمد ماهر البقري، مؤسسة شباب الجامعة.
*- درة التتريل وغرة التتريل، الخطيب الإسكافي ، دار الآفاق الحديثة ، بيروت ، ط٢، ١٩٧٧م.
*- دلائل لإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، علق عليه: محمود شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة،مطبعة المدني.
*- دلالة الألفاظ ، د/ إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٧، ١٩٩٢م.
*- ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق:مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي.
*- ديوان امرئ القيس، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
*- ديوان ذي الرمة، تحقيق: كارليل هنري عالم الكتب.
*- ديوان كثير عزة ، تحقيق : مجيد طراد، دار الكتاب العربي بيروت ، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
*- رصف المباني في شرح حروف المعاني ، المالقي، تحقيق:، د/ أحمد محمد الخراط، دار القلم دمشق، ط٢، ١٤٠٥هـن١٩٨٥م.
*- روح المعاني، شهاب الدين محمود الألوسي، دار الفكر بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.
*- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
*- سنن الترمذي(بشرح عارضة الأحوذي)، الترمذي ، إعداد هشام سمير البخاري، دار إحياء التراث العربي بيروت ط١، ١٤١٥هـ،١٩٩٥م.
*- شرح ابن عقيل، ابن عقيل، مع حاشية الخضري عليه، دار الفكر بيروت ١٣٩٠هـ، ١٩٧٨م.
*- شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهري، دارالفكر.
*- شرح الحدود النحوية ، جمال الدين الفاكهي ، تحقيق: د/ محمد الطيب الإبراهيم، دار النفائس بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م
*- شرح الرضي على الكافية،الرضي، تحقيق:يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس بنغازي.
*- شرح السنة، للبغوي، تحقيق: زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
*- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ابن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية ببيروت،ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م
*- شرح شعر الهذليين، أبوسعيد السكري حققة: عبدالستار أحمد فرج، راجعة محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، مطبعة المدني، القاهرة.
*- شرح المفصل لابن يعيش، عالم الكتب بيروت.
*- شرح المقدمة الجزولية الكبير،أبوعلي الشلوبين، تحقيق:د/ تركي العتيبي، مؤسسة الرسالة بيروت،ط٢،١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

*- شروح التلخيص (مختصر المعاني، ومواهب الفتاح، وعروس الأفراح) دار السرور بيروت.
*- الصاحبي، ابن فارس، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.
*- صحيح ابن حبان(بترتيب ابن بلبان)، ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٨٦م.
*- صحيح البخاري (مع الفتح)، محمد بن إسماعيل البخاري، دار الريان بالقاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.
*- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي بيروت ط٣، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
*- صحيح مسلم، مسلم القشيري، دار ابن حزم بيروت، مؤسسة الريان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
*- صفاء الكلمة، د/عبدالفتاح لاشين، دار المريخ الرياض، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
*- الصواعق المرسلة على الجهية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، تحقيق : د/ علي الدخيل الله،دار العاصمةالرياض .
*- ضعيف سنن الترمذي ، محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي بيروت ، مكتب التربية لدول الخليج العربي، ط١،١٤١١هـ،١٩٩١م
*- ضياء السالك إلى ألفية ابن مالك، محمد عبدالعزيز النجار، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م .
*- الطراز، يحيى العلوي،مكتبة المعارف بالرياض، دار الكتب العلمية بيروت،١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
*- الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان، دار المنارة جدة، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
*- عالم الملائكة الأبرار، الدكتور/ عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح،الكويت، ط٤، ١٤٠٥هـ، ١٩٨م.
*- علم الدلالة بييرجيرو، ترجمة د/ منذر عياش، دار طلاس، ط١، ١٩٨٨م.
*- علم الدلالة العربي : النظرية والتطبيق، د/ فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
*- فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن، أبو يحي الأنصاري، تحقيق: عبدالسميع حسنين،مكتبة الرياض الحديثه بالرياض، ط١،١٤٠٤هـ ١٩٨٤م
*- الفتوحات الإلهية، الجمل، دارإحياء التراث العربي، بيروت.
*- الفريد في إعراب القرآن المجيد، للمنتجب الهمداني، تحقيق: د/فهمي حسن النمر، د/ فؤاد علي مخيمر، دار الثقافة الدوحة، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
*- فصل المقال في دراسة أساليب الحال، د/ محمد يسري زعير، ط١.
*- الفصول المفيدة في الواوالمزيدة ، صلاح الدين العلائي، تحقيق: د/ حسن موسى الشاعر، دار البشير عمّان، ط ١، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
*- الفلك الدائر على المثل السائر، ابن أبي الحديد، تحقيق د/أحمد الحوفي، ود/ بدوي طبانة، دار الرفاعي الرياض، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
*- في إعجاز القرآن، دراسة تحليلية لسورة الأنفال(المحتوى والبناء)، د/ أحمد مختار البرزة.
*- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق بيروت ، القاهرة، ط٢١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

*- كتاب العين، الخليل ابن أحمد، تحقيق: د/ مهدي المخزومي، ود/ إبراهيم السامرائي، دار مكتبة دار الهلال.
*- الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبدالسلام هارون، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
*- الكشاف، الزمخشري، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الريان القاهرة، دار الكتاب العربي بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
*- الكليات، الكفوي، تحقيق : د/ عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت ط٢، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
*- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت.
*- اللغة واللون، د/ أحمد مختار عمر ، عالم الكتب القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.
*- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: د/ أحمد الحوفي، ود/بدوي طبانة، دار الرفاعي بالرياض، ط٢، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
*- مجاز القرآن لأبي عبيدة، تحقيق: د/ محمد فؤادسزكين، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
*- مجمع الأمثال، أبوالفضل الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار القلم بيروت.
*- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، دار الكتاب العربي لبنان.
*- محاسن التأويل، القاسمي، علق عليه: محمدفؤاد عبدالباقي ، دار الفكر بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
*- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ابن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف ، د/ عبد الحليم النجار، د/ عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار سزكين، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
*- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس.
*- المذاهب النقدية، ماهر حسن فهمي، مكتبة النهضة المصرية.
*- مسائل الإمام أحمد بن حنبل، الإمام أحمد، برواية ابن هانئ النيسابوري، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.
*- مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، أبوبكر الرازي، تحقيق: إبراهيم عطوة، مطبعة البابي الحلبي مصر، ط١، ١٣٨١هـ ١٩٦١م.
*- المس في القرآن الكريم وأسراره البلاغية، د/ محمد علي هريدي الصعيدي، دار إسراء ،ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧/م.
*- مسند الإمام أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ،١٩٧٨م.
*- معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، تحقيق: د/ عبدالجليل عبده شلبي،عالم الكتب،١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
*- معاني القرآن، الفراء، عالم الكتب، بيروت،ط٣، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
*- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د/ عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، أميرة للطباعة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

*- معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
*- معجم إعراب القران الكريم، أنطوان الدحداح، مراجعةالشيخ محمد فهيم أبو عبية، مكتبة لبنان(ناشرون)،ط٢، ١٩٩٦م
*- المعجم الأدبي، جبور عبدالنور، دار العلم للملايين بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
*- معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم ، د/ إسماعيل أحمد عمايره، ود/ عبدالحميد مصطفي السيد، دمشق، ط٢، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
*- معجم البلاغة العربية، د/بدوي طبانة، دار المنارة جدة، دار الرفاعي الرياض، ط٣ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
*- معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، محمد حسن الشريف، مؤسسة الرسالة بيروت،ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
*- معجم الشواهد العربية، عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط ١، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.
*- المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق : حمدي السلفي، مطبعة الزهراء،ط١٤٠٤،١هـ، ١٩٨٤م.
*- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د/ أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
*- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث بالقاهرة، مكتبة المعارف بالرياض ، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
*- المعجم المفهرس لمعاني القرآن الكريم، محمد بسام رشدي الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكردمشق، ط٢، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م
*- معجم المقاييس في اللغة، ابن فارس، تحقيق : د/ شهاب الدين أبوعمر، دار الفكر بيروت ط٢، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
*- المعجم الوسيط، د/إبراهيم أنيس وآخرون، دار إحياء التراث العربي،ط٢.
*- المغني، ابن قدامة ، تحقيق د/ عبداله التركي، ود/عبدالفتاح الحلو، هجر القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
*- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري ، تحقيق: محمدمحيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت ١٤١١هـ ١٩٩١م.
*- مفاتيح الغيب،فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
*- مفتاح العلوم، أبويعقوب السكاكي تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م
*- المفردات، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

*- المفصل في علم اللغه، للزمخشري، تحقيق: د/ محمد عزالدين السعيدي، دار إحياء العلوم بيروت،ط۱،۱٤۱۰هـ، ۱۹۹۰م.
*- المقتضب، المبرد، تحقيق: محمدعبدالخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث بمصر، الكتاب السادس ۱۳۹۹هـ.
*- المقنع في الدراسات النحوية، د/ عبدالرحمن محمد إسماعيل، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
*- ملاك التأويل ، ابن الزبير الغرناطي، تحقيق: د/محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية بيروت، ۱٤۰٥هـ،۱۹۸٥م
*- من أسرار التعبير في القرآن(حروف القرآن)، د/ عبدالفتاح لاشين، شركة مكتبات عكاظ، ط۱، ۱٤۰۳هـ۱۹۸۳م
*- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د/ محمد الخضري، مكتبة وهبة القاهرة، ط۱۱٤۰۹هـ، ۱۹۸۹م.
*- من بدائع النظم القرآني، د/السيد عبدالفتاح حجاب، مطبعة الجندي بمصر.
*- من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوي، دار نهضة مصر بالقاهرة.
*- من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث، بدرية العثمان، دار الراية ، ط۱ ، ۱٤۱۷هـ.
*- من بلاغة النظم القرآني ، د/ بسيوني عبدالفتاح فيود، مطبعة الحسين الإسلامية ، ط۱ ، ۱٤۱۳هـ، ۱۹۹۲م.
*- من روائع الإعجاز القرآني(تعبير الحق عن ذاته)، د/ عزالدين السيد، عالم الكتب بيروت، ط۲، ۱٤۱۷هـ، ۱۹۹۷م.
*- من فيض الرحمن في بلاغة النحو في القرآن، خضر عبدالسلام أبوطالب، دار غريب مصر.
*- النبأ العظيم، د/ محمد عبدالله دراز، دار القلم الكويت، ط۲،۱۳۹۰هـ، ۱۹۷۰م.
*- نتائج الفكر في النحو، السهيلي، د/محمد إبراهيم البنا، دار الرياض .
*- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف القاهرة، ط۸.
*- نظرات لغوية في القرآن الكريم، د/ صالح بن حسين العايد ، مركز الدراسات والإعلام ، دار أشبيليا الرياض، ط۱، ۱٤۱۷هـ، ۱۹۹۷م.
*- نظرية التصوير الفني عند سيد قطب،د/ صلاح الخالدي، دار المنارة، جدة، ط۲، ۱٤۰۹هـ، ۱۹۸۹م.
*- نظرية النظم عند عبدالقاهر، وليد محمد مراد ، دار الفكر دمشق، ط۱، ۱٤۰۳هـ، ۱۹۸۳م.
*- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،البقاعي، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة،ط۲، ۱٤۱۳هـ،۱۹۹۲م.
*- النظم القرآني في آيات الجهاد، د/ناصرالخنين، مكتبة التوبة بالرياض،ط۱، ۱٤۱٦هـ، ۱۹۹٦م.
*- النقد الأدبي أصولة ومناهجه ، سيد قطب، دار الشروق، بيروت القاهره، ط۷، ۱٤۱۳هـ، ۱۹۹۳م .
*- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د/ عبدالعال سالم مكرم، دار البحوث العلمية الكويت، ۱۳۹۹هـ، ۱۹۷۹م.
*- وجوه من الإعجاز القرآني، مصطفى الدباغ، مكتبة المنار، الزرقاء، ط۲ ۱٤۰٥هـ، ۱۹۸٥م.

*- وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي، ضبطه: محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي بيروت.
*- الوصف المشتق في القرآن الكريم، دراسة صرفية، د/عبدالله الدايل، مكتبة التوبة الرياض، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
*- الوصف في القرآن الكريم، يونس جاسم، دار المكتبي دمشق، ١٤١٥هـ،١٩٩٥م.

ثانياً: الرسائل العلمية (غير المنشورة).

*- الضمير المنفصل في النظم القرآني: دراسة بلاغية تطبيقية، عويض العطوي، ١٤١٢هـ، بإشراف د/محمد الصامل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية بالرياض، قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي.

ثالثاً: الدوريات والمجلات.

*- مجلة أفنان ، النادي الأدبي بتبوك، العدد ٢، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
*- مجلة التراث العربي، دمشق، العدد ٥٠ ، رجب، ١٤١٣هـ.
*- مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الثالث، الآداب(١)، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
*- مجلة العربي، العدد ٢٤٣.
*- مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، العدد ١١، ١٤١٣هـ، ١٣٩٣م.
*- مجلة اللسان العربي، العدد ٣٢، ١٩٨٩م.

مسرد الموضوعات

الموضوع **ص**

الفصل الثالث: أسرار التقييد بالحال

الفصل الرابع : التصوير بالحال